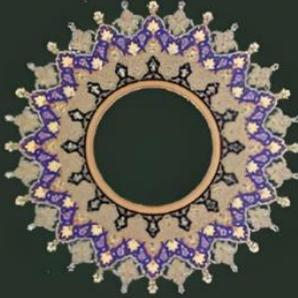


مَنَاقِبُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَوْهَامِيَّةِ
وَمِثَالِهِمْ وَحَقِيقَةُ شُرِكِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ

أَوْ

ثَنَاءُ الْوَهَابِيَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ لِتَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ

د. وليد بن صلاح الدين الزبير



تقدیر الامتاز الكبير
هنا حمد هنا
حفظه الله

تقديم وتقريظ مولانا وأستاذنا الكبير الشيخ الفاضل مهنا حمد المهنا حفظه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقريظ وتقديم لكتاب مناقب المشركين في الجاهلية للدكتور وليد ابن الصلاح

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ربّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واحلّل عقدة من لساني يفقهوا قولي.

وبعد، فما زالت بركات ونفحات وهدايا مولانا وشيخنا وأستاذنا وحبينا الدكتور وليد بن الصلاح حفظه الله تتوالى، وتتواتر على عقول وقلوب أهل السنة كالعسل المصقّى والفواكه العذاب! فهذا سفر مجيد وكتاب جديد يتحفنا بآراء وحجج وبراهين عقلية ونقلية وأدبية تخدم ما دلّسته السلفية المعاصرة وآبائها الأوّلون على المسلمين من آراء شاذة وأفكار منحرفة أضلّت الناس، وحاولت تحريف عقائد المؤمنين، وأفسدت في الأرض لما تبته من تجسيم وتشبيه وتضليل وتبديع وتكفير وتفجير!

كل ذلك انبجس من فهم خاطئ ومنحرف لآيات القرآن وسنة نبيه ﷺ!! من ذلك قولهم: **أولاً:** إن المشركين عندهم توحيد ربوبية وأشركوا في توحيد الألوهية!!! **ثانياً:** كان المشركون في الجاهلية موحدين في الربوبية! ولم يكتفوا بذلك بل زادوا في الطنبور نعمة!! فقالوا عن كفار _ من باب الثناء والمدح _ إن المشركين يعبدون الله، ويخلصون له أنواعا من العبادات كاللحاء والحج والصدقة والذبح والنذر! وبعضهم يؤمنون بالبعث والنشور والقدر!!

بل إننا نجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالته القواعد الأربعة يقول في القاعدة الرابعة إن مشركي زماننا أعظم شركا من الشرك الأولين!! يا الله يا رحمن يا رحيم! هنا ابن عبد الوهاب يقول عن مسلمي زمانه الذين يشهدون الشهادتين التي تُدخل الفرد في الإسلام، ويصلّون ويصومون ويحجون

ويزكّون؛ إنهم أعظم شركا من مشركي العرب الذين لا يشهدون الشهادتين، ويجعلون من الأصنام آلهة وأربابا من دون الله أو معه، ولا يصومون ولا يحجّون ولا يزكّون كما يفعل المسلمون!!

إلى أين وصل البهتان والافتراء والفجور في الخصومه والتكفير!!! ثم انظروا ماذا فعلت هذه الفرقة المبتدعة؛ فقد قامت بتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام هي توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات! وهذا التقسيم بهذا الاعتبار لم يرد في القرآن الكريم ولا السنة النبوية ولم يعرفه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ولا أتباع التابعين، ولم يعلمه السلف الصالح أصحاب القرون الثلاثة المفضلة!

وإنما هو تقسيم أتى به _ بهذه الصورة وهذا التقسيم وجعله مقياسا للإيمان والكفر والإسلام والشرك _ ابن تيمية في القرن الثامن الهجري! وخلاصة نظريته في ذلك أن المشركين في جزيرة العرب فيما قبل الإسلام يؤمنون بتوحيد الربوبية لأنهم يقرّون بوجود ربّ هو خالقهم ورازقهم، بينما في عبادتهم لله رب العالمين يشركون معه عبادة الأصنام والأوثان أو الجن أو الملائكة أو الكواكب، ثم يعمّم هذه العقيدة على كل مشركي العرب في الجاهلية! وهذا خطأ أكيد يخالف ما ورد في القرآن والسنة وأشعار العرب، فقد بيّن القرآن والسنة وتاريخ العرب في الجاهلية أنّ منهم من كان يعبد الأصنام والأوثان، وبعضهم كان لا يؤمن بوجود إله وهم الدهرية! ومنهم من كان يهوديا أو نصرانيا أو غير ذلك من الملل والنحل.

ولذلك ردّ علماء المسلمين على ابن تيمية، وفندوا نظريته هذه، وهدموها بمعاول الحق وبراهين الكتاب والسنة حتى تلاشت، واختفت إلى أن بعثت من جديد في أواخر القرن الحادي عشر وبداية الثاني عشر! وما زال المسلمون يعانون من هذه الفرقة أشد المعاناة، ويجأرون من ظلمها وقتلها وتفجيرها للمسلمين في مساجدهم وأسواقهم ومجتمعاتهم.

وأتى هذا الكتاب الجادّ المدعّم بالأدلة القواطع والبراهين السواطع لهدم هذه النظرية التي شوّشت على عقائد المسلمين، فدكّها دكّا وجعلها قاعا قاعا صفصفا، ولا يفوتني في هذه العجالة أن أشير الى كلمه كتبها مولانا ابن الصلاح أطربنتي وسرتني، وهي قوله في الرد على أحد مشايخهم الذي أراد أن يمدح مشركي العرب ويثني عليهم عندما قال: وبعض الكفار كانوا يؤمنون بالبعث، ممّا يعني أن ليس كل

العرب في الجاهلية ينكر البعث، فرد عليه مولانا ابن الصلاح بقوله: إن الإيمان بيوم الآخر فرض عين وليس فرضاً على الكفاية انتهى.

وكتبه أبو محمد مهنا حمد المهنا الحنفي الأشعري، في ليلة الثلاثاء السادس عشر من رمضان 1445 هجري، الموافق لليلة السادس وعشرين من شهر مارس آذار 2024 .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى، وعلى آله وصحبه، ومن بعده وفي. وبعدُ فهذا هو المجلد أو الكتاب الرابع من سلسلة نقض أصول نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية رحمه الله، أقدمه للسادة القراء وفاءً بوعدي، وإيفاءً بعهدي بإتمام المجلدات الخمسة لهذه السلسلة، وهي تقع في خمسة مجلدات، وقد نُشر منها _ بحمد الله _ ثلاثة كتب حتى الآن، وهي:

الكتاب الأول: "تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله".

الكتاب الثاني: "ولئن سألتهم"، واسمه الكامل (الكافية الشافية لنقض استدلال ابن تيمية بآيات "ولئن سألتهم" الثمانية)

الكتاب الثالث: "البراهين الشرعية في إبطال بدعة توحيد المشركين في الربوبية".

الكتاب الرابع الذي بين أيديكم الآن: "مناقب المشركين ومثالبهم وحقيقة شركهم في الألوهية".

ويبقى المجلد الخامس والأخير وسيكون غالباً بعنوان: الصواعق الصلاحية في الإجهاز على النظرية التيمية.

طبعا هذه المجلدات أو الكتب الخمسة تناقش الأصول التي قامت عليها نظرية تقسيم التوحيد، حيث إن كل كتاب منها يناقش بعض هذه الأصول، ويبيان ذلك أن نظرية تقسيم التوحيد تقوم على عشرة أصول سبق أن ذكرتها، ولكن أذكرها هنا مع ذكر الكتاب المختص بنقضها من الكتب الخمسة السابقة:

(1) أن توحيد الربوبية مباين لتوحيد الألوهية، للتباين بين كلمتي الرب والإله، وهذا الأصل

نقضناه في الكتاب الأول وهو "تنوير الرب الإله...".

(2) أن المشركين كانوا مقرّين بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية، وهذا الأصل نقضناه في الكتاب الثاني وهو "ولئن سألتهم"، وفي الكتاب الثالث "البراهين الشرعية..."، أي أن نقض هذا الأصل وحده استغرق كتابين.

(3) أن خلاف الرسل - عليهم السلام - مع أقوامهم كان بسبب توحيد الألوهية لا بسبب توحيد الربوبية ولا بسبب غيره، وقد نقضنا هذا الأصل في الكتاب الرابع الذي بين أيديكم، وستكلم عنه بعد قليل إن شاء الله.

(4) أن توحيد الربوبية أمر فطريّ، وأما توحيد الألوهية فهو كسبيّ.

(5) أن توحيد الربوبية لم ينازع فيه أحد، بخلاف توحيد الألوهية.

(6) أن الرسل إنما جاءت بتوحيد الألوهية لا بتوحيد الربوبية.

(7) أن توحيد الربوبية هو حجة الله على المشركين في إثبات توحيد الألوهية.

(8) أن الحساب والعقاب في الدارين إنما هو على توحيد الألوهية لا توحيد الربوبية.

(9) أن استقراء القرآن يدل على أن التوحيد قسمان: ربوبية وألوهية.

(10) أن ثمة من سبق ابن تيمية إلى تقسيم التوحيد إلى: ربوبية وألوهية.

والأصول السبعة الأخيرة، أي من الأصل الرابع (وهو أن توحيد الربوبية أمر فطري) إلى العاشر سيتم نقضها لاحقاً في الكتاب الخامس والأخير وهو "الصواعق الصلاحية في الإجهاز على النظرية التيمية"، وهو شبه جاهز ينقصه المراجعة للقيام ببعض التصحيحات والتنقيحات، وبالله التوفيق.

موضوع هذا الكتاب

قلنا إن هذا الكتاب الرابع يناقش الأصل الثالث لنظرية تقسيم التوحيد، وهو أن خلاف الرسل - عليهم السلام - مع أقوامهم كان بسبب توحيد الألوهية لا بسبب توحيد الربوبية ولا بسبب غيره،

وبسط ذلك هو أن السلفية تدعي أن الرسل كانت معركتهم مع المشركين في توحيد الألوهية فقط، أي أن المشركين كانوا ينازعون في توحيد الألوهية فقط، ولا ينازعون في عقائد الإسلام الأخرى وشرائعه، وبالتالي فإن المشركين لم يكونوا فقط موحدين في الربوبية، بل كانوا ملتزمين بالعقائد الإيمانية والشرائع السماوية والأخلاق الحسنة، ولم يكن ينقصهم سوى توحيد الألوهية!

فيدعون أن المشركين كانوا ملتزمين بالعقائد الدينية من الإيمان بالله وملائكته وبعض كتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، وملتزمين بالشرائع من الطهارة والصلاة والصيام والحج والقصاص، ويتصفون بمكارم الأخلاق من الشجاعة والكرم والصدق والوفاء بالوعد وغيرها!

وهذا الكتاب يبيّن بطلان هذه الدعوى كلها باستثناء دعوى أن المشركين موحدون في الربوبية فهذا الزعم هو ما نقضناه في المجلد الثالث بشكل مفصّل، والحمد لله رب العالمين.

خطة الكتاب

يتكون هذا الكتاب من توطئة وخاتمة وثلاثة أبواب ، وهي :

الباب الأول: مناقب المشركين في الجاهلية عند السلفية، عرض ونقد

وقد تناولت فيه المناقب التي نسبها الوهابية للمشركين في الجاهلية، وكيف بالغوا فيها حتى جعلوا الجاهلية فترة مشرقة، وهذا خلاف ما دلّ عليه الكتاب والسنة من أن فترة الجاهلية كانت غاية في الضلال والجهل والكفر! وبيّنت أن هذه المناقب مصنّعة أو على الأقل مبالغ فيها، وأن كثيرا منها لم يثبت أصلا، وإن ثبت فهو نادر جدا، والمتصف بها قلة من الناس آنذاك، وغالبهم من الحنفاء الذين يبنذون عبادة الأصنام، ونحن لو سلّمنا جدلاً بأن المتّصف بها معظم المشركين فهم كانوا يفعلوا تلك المناقب والمكارم على وجه الرياء والشهرة لا ابتغاء الثواب؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلا، فضلا عن أنهم خلطوا هذه المناقب بكثير من المفاسد والمثالب!

الباب الثاني: مثالب المشركين في الجاهلية عند السلفية، عرض ونقد

وقد تناولت مثالب كثيرة للمشركين في الجاهلية، وبيّنت ما فيها من قبائح كان ابن عبد الوهاب نفسه قد سردها في مسائل الجاهلية! وهذه المثالب قسمان؛ الأول: كفر؛ مثل كفرهم في قولهم بأن الملائكة بنات الله، واتخاذهم الأصنام آلهة وأرباب من دون الله، وكفرهم بالرسول عليهم السلام وبالكتب السماوية وإنكارهم اليوم الآخر والحساب والعقاب. والثاني: ليست كفرا وإنما هي من كبائر الذنوب؛ مثل الزنا وشرب الخمر والسرقعة والنهب والسلب والوَاد للبنات وغير ذلك من الموبقات والكبائر، فكيف يقال بعد هذا كله: إن مشكلة مشركي قريش وغيرهم من المشركين هي فقط في توحيد الألوهية؟!!

الباب الثالث: حقيقة شرك المشركين في توحيد الألوهية، عرض ونقد

وقد بيّنت حقيقة شرك المشركين في الألوهية وهي أنهم عبدوا الشفعاء من دون الله معتقدين أنهم آلهة وأرباب من دون الله، وليس كفرهم بسبب أنهم تشقّعوا أو استغاثوا بغير الله لأن هذا مشروع في الجملة، فكيف يُترك السبب الظاهر اليقيني لكفرهم، وهو اتخاذهم الآلهة والأرباب وعبادتها من دون الله، ويؤخذ بسبب آخر ظني وهو قضية الشفاعة والاستغاثة والتوسل التي هي أصلا مسائل خلافية، بل مشروعة من حيث الجملة حتى عند الخصم؟!

منهج الكتاب

منهجي في هذا الكتاب هو المنهج نفسه الذي اتبعته في المجلدات الثلاثة السابقة، وقد تكلمت عنه بإسهاب في المجلدات السابقة، ولكن أذكره هنا باختصار بما يناسب المقام؛ فأقول: منهجي قائم على البحث بموضوعية وحيادية دون انحياز إلا للحق إن شاء الله، متبعا لمنهج الاستقرائي بحيث " أتتبع دعاوى الخصم لا من كتب من ردوا عليه، وإنما من كتبه هو نفسه ومصادره، ثم أهدبها وأصوغها في قالب جديد دون أي تغيير في جوهرها، غاية ما هنالك أني أجعلها في تبويب جديد أي على شكل أبواب وفصول ومباحث ومطالب، ثم أنظر فيها وفي أدلتها بإنصاف فأذكر ما لها وما يرد عليها"¹.
بالإضافة إلى تحرير المعلومة من العلم الذي تنضوي تحته؛ فمثلا إن كان الكلام حول آية ما رجعت إلى كتب التفسير المعتمدة والمشهورة، ونقلت منها ما قاله المفسرون في تلك الآية، فإن اتفقوا فيها ونعمت، وإلا سردت باختصار أهم الأقوال التي قيلت في تفسير الآية، وناقشت هذه الأقوال بما يفيد المسألة المستدلّ لها بتلك الآية.

وإن كان الكلام حول حديث نبوي أخرجه من مصادره مستعينا بكتب التخریج، وأحكم عليه بأقوال الحفاظ والمحدثين المتقدمين والمتأخرين بل المعاصرين أيضا، وآتي بشرح الحديث أو بشرح محلّ الشاهد منه من كتب الشرح سواء اتفقوا أو اختلفوا، وناقش المسألة على ضوء تلك أقوال الشرح. وإن كنت أتناول مسألة في العقيدة رجعت إلى كتب العقيدة المشهورة ولاسيما العقيدة السلفية، وإن كانت مسألة فقهية أو أصولية رجعت إلى كتب الفقهاء والأصوليين بمختلف مذاهبهم، وإن كانت

¹ "ولئن سألتهم" ص14

لغوية أو نحوية تناولتها من كتب اللغة والنحو المعتدة ولا سيما القديمة منها، وسردت ما في ذلك من خلاف أو وفاق، وهكذا بقية العلوم الشرعية، وأوظف تلك النقول والنصوص والأقوال التي آتى بها للعلماء في شتى العلوم الشرعية بما يغني المسألة المطروحة ويكشف عنها الثام، وبالله التوفيق .

شكر وتقدير

أشكر كل من شارك معي في إصدار هذا الكتاب وما قبله، سواء من شارك في تصحيحه من الأخطاء المطبعية وغيرها، وهم إخوة كثر من أهل العلم والفضل والدراسة الأكاديمية، وفي الواقع لا أستطيع أن أسرد أسماءهم هنا لضيق المقام، فجزاهم الله عني وعن الإسلام خير الجزاء.

وأشكر من أسهم ماليا في دفع تكاليف تأليف هذا الكتاب الرابع والكتب الثلاثة التي سبقته، وأخص بالشكر جماعة الأستاذ الفاضل مولانا مهنا المهنا _ حفظه الله _ في الكويت ولا سيما المرحوم أبا يوسف مشعل المطيري الذي كان قد تكفل بهذا المشروع العلمي كله من قبل، وكانت له أياد بيضاء لا تنسى رحمه الله، ومن جملة ذلك أنه طبع لنا الكتاب الثاني، وهو كتاب "ولئن سألتهم" في الدار التي أنشأها حديثا وهي دار المنهل، وكان ينوي أن يتابع معنا المشروع كله لولا أن وافته المنية، فرحمه الله رحمة واسعة بمته وكرمه، وجعله في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وما زال بعض إخوانه من جماعة الأستاذ مهنا يحاولون سدّ جوانب مما كان يسدّه، ومنهم الأخ الفاضل الجواد أبو مبارك _ وفقه الله _ ومعه بعض الإخوة الفضلاء المتبرعين، وثمة أيضا إخوة فضلاء كرماء من اليمن والأردن والمغرب يتواصلون معي ويقدمون ما يقسمه الله تعالى لدعم تأليف وإصدار كتب هذه السلسلة المباركة وما سيلبها إن شاء الله، بالإضافة إلى تبرع بعض إخوتي الأشقاء ومنهم أخي الأكبر الحاج مصطفى الزير الذي كان وما يزال يرعاني بما أحتاحه بقدر استطاعته، ومنهم أيضا أخي الأصغر الحاج ماجد الزير، فبارك الله فيهم جميعا ورزقهم رزقا حسنا وجزاهم عني كل خير وبرّ وفضل.

وكتبه وراجعته الفقير إلى ربه تعالى: وليد بن صلاح الدين الزير، بتاريخ الحادي عشر من ذي القعدة

1445هـ، الموافق لـ 19 / 5 / 2024م.

توطئة حول دعوى أن معركة الرسل كانت في توحيد الألوهية فقط

إنّ من أدلة ابن تيمية وأتباعه على نظرية تقسيم التوحيد إلى قسمين متباينين، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية هو أن المشركين "من قريش وغيرهم - الذين أخبر القرآن بشركهم، واستحلّ النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم وأموالهم وسبى حريمهم وأوجب لهم النار - كانوا مقرّين بأن الله وحده خلق السموات والأرض.. وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرّين بأن آلهتهم مخلوقة ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم"¹. اهـ ولذلك قاتلهم النبي ﷺ " مع إقرارهم بوحدانية الله تعالى في ربوبيته، فدل ذلك على أن هذا الإقرار منهم ليس هو تحقيق قول لا إله إلا الله، فدل على أنهم أقروا بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية"²، يدل على ذلك حديث " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، لم يقل حتى يقولوا إن لهم ربا، إذ هم عارفون بذلك، وإنما أمرتهم الرسل أن يصلوا معرفة التوحيد بمعرفة الربوبية والوحدانية فأبوا"⁽³⁾. بل "إنّ المعركة بين أهل التوحيد والمشركين - في الألوهية فقط"⁴، فإن "مفترق الطرق والمعتك إنما هو توحيد الألوهية"⁵، ولذلك فإن أكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد - أي توحيد الألوهية -، الذي فيه المعارك بين الرسل وأمهم"⁶.

ويذهب ابن تيمية وأتباعه أبعد من ذلك كله حين يدّعون أن السبب الوحيد لقتال النبي للمشركين هو قضية توحيد الألوهية فهو قاتل "مشركي العرب لأنهم أشركوا في الإلهية"⁷، حيث إن "هذا الشرك في العبادة هو الذي كَفَّر الله به المشركين، وأباح به دماءهم وأموالهم ونساءهم، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر، ليس له شريك في ملكه، وإنما كانوا يشركون به في هذه العبادات"⁽⁸⁾ والتي ستؤول

1 مجموع الفتاوى (1/ 155)

2 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص214 ، وانظر جهود علماء الحنفية (1/ 139) و (1/ 165).

(3) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية - (8 / 510)

4 جهود علماء الحنفية (1/ 117)، و(1/ 206، 217).

5 جهود علماء الحنفية (1/ 124)

6 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (3/ 489)

7 مجموع الفتاوى (1/ 91)

(8) تيسير العزيز الحميد، ط الصمعي (ص: 132).

إلى شيء واحد وهو "أن قصدهم الملائكة ، والأنبياء ، والأولياء ، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم"⁽¹⁾، أي أن "سبب كفر المشركين وسبب الحكم عليهم بأنهم كفار مشركون حلّت دماؤهم وحلّت أموالهم هذه الأشياء، قصد غير الله جل وعلا، قصد الملائكة، قصد الأنبياء، قصد الأولياء"². "فما كان كفرهم، وشركهم إلا نداؤهم³ لأهنتهم والنذور التي كانوا يندرون لها. واتخاذهم لهم شفعاء ووكلاء"⁴. فالخلل عند المشركين هو "بجعل الوسائط شركاء مع الله في العبادة زعماً منهم أنهم أقرب منهم إلى الله وسيلة. هذا هو شركهم الذي صاروا به كفاراً مرتدين"⁵، "ولو كان التوحيد هو مجرد معرفة أن الله ربنا وخالقنا، لم يكن بين الأمم ورسلمهم اختلاف؛ فإنهم كانوا مقرّين بهذا النوع"⁶. وأيضاً "الإله هو المعبود، خلافاً لما يعتقد عباد القبور وأشباههم في معنى الإله أنه الخالق أو القادر على الاختراع .. وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع .. لو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبون دعوته، إذ يقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله، بمعنى: أنه لا قادر على الاختراع إلا الله. فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا"^{(7)؟}

ولم يكن المشركون موحدّين في الربوبية فحسب بل كانوا "مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعاً من العبادات كالحج والصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الاضطرار ونحو ذلك، ويدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام .. وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب وبعضهم يؤمن بالقدر .. ومثل هذا يوجد في

(1) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص16

2 شرح كشف الشبهات - صالح آل الشيخ (ص: 87)

3 سيأتي بيان أن الصواب كتابة الهمزة على السطر، انظر: ص (465) عند قولي: كتبت الهمزة على واو

4 جهود علماء الحنفية (1/ 372)، و(1/ 412).

5 شرح كشف الشبهات لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص: 29)، جهود علماء الحنفية (1/ 165)

6 الشرك في القديم والحديث ص85

(7) تيسير العزيز الحميد ص182.

أشعارهم، فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم، وسبي نسائهم، وإباحة أموالهم"⁽¹⁾. اهـ

قال وليد . أيده الله .: هذا الكلام يتضمن خمس دعاوى؛ منها ما سبق الردّ عليها بحول الله في كتبنا السابقة، ومنها ما سنرد عليه في كتابنا هذا بتوفيق الله؛ فأما الدعاوى التي سبق أن رددنا عليها **فهما اثنتان:**

الأولى: أن الرب والإله متباينان، وهذه الدعوى نقضناها في كتابنا " تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله"²، وهو المجلد الأول من سلسلة نقض نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية رحمه الله.

الثانية: أن المشركين كانوا موحدين في الربوبية، فهذه نقضناها في كتابين؛ الأول هو "ولئن سألتهم" وهو المجلد الثاني من السلسلة السابقة، والثاني " البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية"، وهو المجلد الثالث من السلسلة.

وأما الدعاوى التي سنرد عليها إن شاء الله في كتابنا هذا . الذي هو المجلد الرابع من السلسلة . فهي **ثلاث:**

الأولى: أن للمشركين في الجاهلية مناقب كثيرة سوى إيمانهم بـ "توحيد الربوبية".

الثانية: أن مثالب المشركين في الجاهلية تكاد تنحصر في إخلالهم بتوحيد الألوهية.

الثالثة: شركهم في "توحيد الألوهية" كان بسبب تشفعهم بالأنبياء والصالحين.

وسوف نفصل ذلك كله بإذن الله في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: مناقب المشركين في الجاهلية عند السلفية، عرض ونقد.

الباب الثاني: مثالب المشركين في الجاهلية عند السلفية، عرض ونقد.

الباب الثالث: مناط شرك المشركين في توحيد الألوهية، عرض ونقد.

(1) تيسير العزيز الحميد ص 27.

2 انظره: ص (151)

طبعاً ثمة دعاوى أخرى في نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية، سنرجئ الكلام عليها إلى المجلد الخامس من هذه السلسلة إن شاء الله.

الباب الأول: مناقب المشركين في الجاهلية عند السلفية (عرض ونقد)

تمهيد

إن الناظر في كتب ابن تيمية وأتباعه يلاحظ بجلاء أنهم حينما ينتصرون لنظرية تقسيم التوحيد يحاولون جاهدين حصر كفر المشركين وشركهم وضلالهم في أمر واحد! وهو إخالهم بتوحيد الألوهية كما يسمونه، وفي سبيل ذلك أهملوا الكلام . أو كادوا . على كل صنوف الكفر الأخرى التي ارتكبتها المشركون فضلا عن موبقاتهم الكثيرة! وأحيانا راحوا يتأولونها!! وليس هذا فحسب بل راحوا يُضنفون على المشركين مناقب كثيرة سواء ما كان منها من اعتقادات صحيحة أو من عبادات جليلة أو من شرائع قديمة أو من أخلاق حميدة...!!! وذلك من أجل أن يرسموا صورة مشرقة لأهل الجاهلية من حيث الجملة ليتمكنوا من الزعم أن الذي كان ينقصهم هو فقط توحيد الألوهية! ومن ثم ليقيسوا المسلمين عليهم الذين يرمونهم بالشرك في توحيد الألوهية ثم يكفروهم كما سيأتي بسطه إن شاء الله.

(كيف زايد بعض السلفية على بعض في مناقب المشركين في الجاهلية)

بيد أن تلك المناقب المزعومة لأهل الجاهلية كانت تقتصر عند ابن تيمية على أن العرب كانوا "يُحجّون إلى البيت ويطوفون به ويقفون بعرفات؛ ولهذا كانوا تارة يعبدون الله وتارة يعبدون غيره"¹، ولعل ابن عبد الوهاب رأى أن هذا إجحاف في حق المشركين ومناقبهم!! فزادها وزايد عليه² قائلا: "يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا"⁽³⁾، ثم زادت تلك المناقب أكثر عند حفيد ابن عبد الوهاب فقال بأن "الكفار يعرفون الله ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعا من العبادات كالحج والصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الاضطرار، ونحو ذلك، ويدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام .. وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب وبعضهم يؤمن بالقدر .. إلى أن

¹ مجموع الفتاوى (27/ 354)

² تماما كما زايد ابن عبد الوهاب على ابن تيمية في قضية إقرار المشركين بتوحيد الربوبية انظر: ص (24) عند قولي : الشرك العام الغالب.

(3) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14

يقول : .. فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم⁽¹⁾. اهـ هذا فضلا عن أنهم "يخافون الله، ويرجونه، ويحجون، ويتصدقون، ولكنهم كفروا بالاعتقاد في الصالحين"².

ثم زادت مناقبهم زيادة فاحشة عند بعض أتباع ابن عبد الوهاب المتأخرين والمعاصرين حتى صارت كالشكل التالي "أن المشركين على بقية من بقايا الملة الإبراهيمية وكانوا يسمون أنفسهم الحنفاء ؛ وكانوا يعبدون الله تعالى ببعض العبادات كالصلاة والحج والصوم، ويعظمون الله تعالى بأفعال تعظيمية ولا سيما السجود وأقوال من الذكر والدعاء؛ والطهارة والغسل من الجنابة، وكان فيهم الزكاة، وقرى الضيف والاهتمام بابن السبيل وحمل الكل والصدقة على المساكين وصلة الأرحام والإعانة على نوائب الحق والذبح في الحلق واللبة وكانوا يحرمون المحارم كالأم والبنت والأخت، وكان فيهم القصاص والدية والقسامة، وعقوبات الزنا والسرقة ونحوها من بقايا الملة الإبراهيمية؛ بل كانوا يسلمون بجواز بعثة الأنبياء ويقولون بالجازاة ويعتقدون أصول أنواع البر وكثيرا في الشعائر كالختان ونحوه.." (3).

(1) تيسير العزيز الحميد ص 27

2 إسلامية لا وهابية (ص: 225)، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، دار كنوز إشبيلية للنشر 1425 هـ.

(3) جهود علماء الحنفية (1 / 212).

هكذا يصوّر لنا السلفية المشركين في الجاهلية، وهذه المناقب التي ذكروها للمشركين يمكن أن

تنقسم إلى عدة أقسام:

القسم الأول: في الاعتقادات.

القسم الثاني: في العبادات.

القسم الثالث: في الشرائع.

القسم الرابع: في مكارم الأخلاق وأعمال البر.

وإليكم تفصيل هذه الأقسام الأربعة في أربعة فصول، وبالله التوفيق.

الفصل الأول: مناقب المشركين في الاعتقادات

"إن الدارس لعقائد الجاهلية العربية يجد . من أول وهلة . أنها لم تكن تنكر وجود الله أبدا بل كانت توحده في معظم أفعاله، كالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة .. وكانوا يقرّون بمشيئة الله النافذة في الكون وقدره الذي لا يرد .. ويؤمنون كذلك بالرسول .. وكانوا يؤمنون بالكتب .. وكان منهم من يؤمن بالبعث والحساب.. " 1.

هكذا يصور لنا بعض السلفية المشركين في الاعتقادات، وفي الإيمان بشكل خاص، فزعم أن المشركين كانوا يؤمنون بالله وبأنه واحد لا شريك له في الربوبية، ويؤمنون بملائكته وكتبه ورسله وبالقضاء والقدر، وبعضهم باليوم الآخر!!.. وكأنه يريد أن يقول إنهم حققوا ما في حديث جبريل في صحيح مسلم حين قال للنبي " فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت" 2. اهـ

هذا مع أن الله يقول عن رسوله ﷺ قبل البعثة: { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ } [الشورى: 52] قال الطبري: ما كنت تدري يا مُجَدِّد أي شيء الكتاب ولا الإيمان اللذين أعطيناكهما فنفي عنه العلم بالإيمان قبل البعثة³. اهـ

وإن كان كلام المفسرين يطول في المقصود بهذه الآية⁴، وكان أيضا الراجح هو تأويل الآية لأنه "كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه"⁵، بل كان قبل الوحي "مؤمنا بتوحيده

1 العلمانية وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة ص579، رسالة ماجستير في جامعة الملك عبد العزيز للطالب سفر أحمد.

2 صحيح مسلم (1/ 37)

3 جامع البيان ط هجر (20/ 542)

4 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (18/ 516)، الشفا. عياض بن موسى البحصي (2/ 97)، تفسير

البيضاوي (5/ 85).

5 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (18/ 517)

ثم نزلت الفرائض¹، ولذلك حُمِلت الآية على " أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع ومعالمها، ولا يهتدي إلى معانيها، كالصلاة والصوم .. ويجوز أن يراد بالإيمان نفس الكتاب وهو القرآن .. وقيل: المراد بالإيمان الكلمة التي بها دعوة الإيمان والتوحيد، وهي لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله²، " وقيل: ما كنت تدري ما الكتاب لولا إنعامنا عليك، ولا الإيمان لولا هدايتنا لك"³.

ولكن العلماء إنما تأولوا آية الشورى هذه لآثار وأدلة دلت على عصمته ﷺ قبل البعثة من الكفر والشرك والجهل بالله، نحو أثر "هل عبت وثنا قط؟ قال لا" وسيأتي⁴. ولأن الأنبياء "معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا ونشأهم على التوحيد والإيمان بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة"⁵، وهذا كله غير متوفر في المشركين، كما أن الصحابة رضي الله عنهم تعلموا الإيمان من رسول الله ﷺ، فقد قال جندب بن عبد الله، وعبد الله بن عمر: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً⁶، فلو كانوا يعرفون الإيمان وهم على شركهم لما كان ثمة داعٍ أن يعلمهم إياه بعد إسلامهم كما هو ظاهر.

هذا جواب مجمل وفيما يلي جواب مفصل عن هذه المناقب الإيمانية التي نسبوها للمشركين واحدة واحدة، فأقول: ذكر السلفية للمشركين عددا من المناقب في باب الإيمان نبسطها في المباحث التالية.

المبحث الأول: دعوى إيمان المشركين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر

وإليك بيان ذلك في مطالب:

- 1 الشفا للقاضي عياض (2/ 97)، شرح الشفا لملا علي القاري (2/ 208).
- 2 فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان (12/ 322)
- 3 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (18/ 517)، النكت والعيون (5/ 212)
- 4 انظر: ص (101) عند قولي: هل عبت وثنا
- 5 الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشمني (2/ 109)
- 6 جامع الرسائل لابن تيمية، ت رشاد سالم (2/ 97)

المطلب الأول: دعوى إيمانهم بالله وتوحيده في الربوبية:

وفيه مرصدان

المرصد الأول: إيمانهم بالله

- فقد زعم السلفية أن المشركين مؤمنون بالله وبربوبيته، وفيما يلي بعض نصوصهم في ذلك:
- 1) قال ابن تيمية: فإن المشركين كانوا يقرّون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره
 - 2) وقال أيضا: وأما الربوبية فكانوا مقرّين بها، قال الله تعالى: "ولئن سألتهم من خلق.."
 - 3) وقال ابن تيمية: فإن العرب كلها كانت تعترف بوجود الباري سبحانه وتعالى
 - 4) وقال ابن عبد الوهاب: إنّ الكفّار الذين قاتلهم رسول الله - ﷺ - يُقرّون بأنّ الله تعالى هو الخالق المدبّر

والجواب: أنه ليس كل المشركين يؤمنون بالله، بل بعضهم ينكر الله أو على الأقل يشك في وجوده من العرب أنفسهم، وثمة نصوص للسلف والخلف في تقرير ذلك منهم ابن تيمية وأتباعه.

نصوص السلف والخلف على إنكار بعض العرب في الجاهلية لوجود الله أو شكهم فيه

- 1) روى الحاكم - وصححه ووافقه الذهبي - عن المغيرة بن شعبة أنه قال للفرس يوم القادسية : «.. كنا قوما نعبد الحجارة والأوثان.. ولا نعرف ربا حتى بعث الله إلينا رسولا من أنفسنا»⁵.

1 الفتاوى الكبرى (5 / 161)

2 مجموع الفتاوى (1 / 91)، وانظر القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: 65)

3 درء تعارض العقل والنقل (9 / 70) وانظر أيضا: (8 / 509) (7 / 458)، وبيان تلبيس الجهمية (1 / 242)، وقد نقله ابن تيمية عن ابن رشد في مناهج الأدلة مقرا له.

4 القواعد الأربع لمحمد بن عبد الوهاب (ص: 401)، ضمن "الجامع للمتون العلمية" (اثنا وثلاثون متناً في مختلف العلوم)، جمعه عبد الله بن مُجَّد الشمراني، دار الوطن للنشر، ط2 / 2004.

5 المستدرک على الصحيحين للحاكم (3 / 451)، دار المعرفة ببيروت، بعناية د. المرعشلي.

- (2) روى ابن هشام والبيهقي عن سعد بن معاذ قال: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو يبعوا..¹ اهـ
- (3) **وقال الطبري:** يقول تعالى ذكره مخبراً عن هؤلاء المشركين إنهم قالوا: وما يهلكنا فيفينا إلا مرّ الليالي والأيام وطول العمر، إنكاراً منهم أن يكون لهم ربّ يفنيهم ويهلكهم⁽²⁾. ونقله الحفيد في تيسير الحميد.³
- (4) **قال الخطابي:** "وكان من عادة أهل الجاهلية إذا أصابهم شدة من الزمان أو مكروه من الأمر أضافوه إلى الدهر .. كانوا لا يثبتون لله ربوبية"⁴
- (5) **قال الشهرستاني:** اعلم أن العرب أصناف شتى: فمنهم معطلة.. وهم أصناف؛ منكرو الخالق، والبعث، والإعادة، فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي، والدهر المفني، وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد: "وقالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا: نموت، ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.."⁵.

1 دلائل النبوة للبيهقي (3/ 430)، وأخرجه أيضاً ابن سعد في الطبقات 2/ 73، والطبري في تاريخه (2/ 573)، ولكن «إسناده ضعيف» كما في «صحيح وضعيف تاريخ الطبري» (2/ 168)، وانظر أيضاً: سيرة ابن هشام ت السقا (2/ 223)، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله - ﷺ - والثلاثة الخلفاء (1/ 424)، الروض الأنف ت الوكيل (6/ 271)، عيون الأثر (2/ 91)، السيرة النبوية لابن كثير (3/ 202)، السيرة الحلبية (2/ 426)، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة (2/ 284)، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (ص: 603)، «السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني» (ص: 42).

(2) جامع البيان (22 / 78)

3 تيسير العزيز الحميد، دار الصميعي (ص: 1049).

4 انظر كلام الخطابي في شرحه على البخاري المسمى أعلام الحديث 3/ 1904، وانظر نحوه في شرحه على أبي داود المسمى معالم السنن 5/ 423 عند حديث رقم 5274.

5 انظر: الملل والنحل 3/ 648، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (548هـ)، تحقيق محمد أبو الخير، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1/ 1410هـ. وانظر: الشرك في القديم والحديث ص 437، وانظر شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 300.

- (6) ويقول ابن الجوزي وهو يتكلم عن تلبس إبليس على أهل الجاهلية: "وقد لبس إبليس على طائفة منهم فقالوا بمذاهب الدهرية، وأنكروا الخالق، وجحدوا البعث الذين قال الله سبحانه فيهم: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر"¹.. اهـ
- (7) قال الإمام القرطبي إن "العرب في جاهليتها .. كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم في هذه الآية، فكانوا إذا أصابهم ضرر أو ضيم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر.. ثم سرد بعض أشعارهم في ذلك، ثم قال: ومثله كثير في الشعر ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه، والله سبحانه الفاعل لا رب سواه. وكان المشركون أصنافا، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره"².
- (8) قال الألويسي في تفسيره عند قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ} [الحاقة : 33]: إنه كان لا يؤمن بالله العظيم تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة، كأنه قيل لم استحق هذا؟ فقيل: لأنه كان في الدنيا مستمرا على الكفر بالله تعالى العظيم³.. اهـ
- (9) وقال ابن تيمية: والعرب وإن كانوا مشركين لم يكن الظاهر فيهم التعطيل للصانع، وإن كان قد يكون في أضعافهم من هو من المرتابين في الصانع أو الجاحدين له ..⁴.. اهـ
- (10) "لقد كان الكفار في عهد النبي ﷺ: منهم الدهريون المنكرون للبعث، ومنهم الملحدون، والمشركون الذين يشركون مع الله في التدبير بعض خلقه من أوثانهم .."⁵.

1 تلبس إبليس (ص: 402)، ط/ دار الوطن.

2 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (166 / 19)

3 روح المعاني (50 / 29)

4 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (72 / 7)

5 كلمة هادئة في بيان خطأ التقسيم الثلاثي للتوحيد ص13، للشيخ الدكتور عمر عبد الله كامل، دار الرازي، ط2 / 2007.

(11) "وبعض العرب في جاهليتهم كانوا دهرين يتوهمون أن الكون أزلي أبدي لا أول ولا آخر .. وهؤلاء قد اتخذوا آلهتهم أهواءهم، وأنكروا الله واليوم الآخر"¹.

فتبين من هذه النصوص وجود طائفة من العرب إبان البعثة وقبيلها تنكر الخالق، ثم من يؤمن بالله منهم فإيمانه لا يقين فيه لأنه مبني على تقليد آباءهم فهم إن آمنوا بالله آمنوا به لأن آباءهم آمنوا به لا لأنه موجود فعلا كما سبق بسطه²، كما أن عقيدتهم في الله غير سليمة حيث كانوا يشكّون في علمه وقدرته وسمعه وحكمته وفي نفوذ قضائه وقدره إلى غير ذلك كما سبق بيانه³، فإيمانهم ربوبيته إيمان منقوص حيث "كانوا يربطون رزقهم وحياتهم وتدبير أمورهم، وما يصيبهم من منافع تسرهم ومضار تسوؤهم بألهتهم التي اتخذوها من دون الله، ويعتقدون أنها هي التي تنفع وتضر، أما الله الرب الخالق فربوبيته ربوبية التكوين، لا ربوبية التدبير والعناية بما خلق، ولا ربوبية الرحمن الذي يرحم عباده فيمدّهم بعطاءاته ويدفع عنهم الضر ويكشف عنهم السوء، ولا ربوبية المهيمن على كل شيء الذي يراقب أعمال العباد ليجازيهم بحسبها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر"⁴، وهذا كله سبقت الأدلة عليه بالتفصيل⁵.

كما أنهم كانوا يعدلون الأصنام بربهم ويسوونها به ويجعلونها أندادا له، بل كانوا يعظّمون أصنامهم أكثر من تعظيمهم لله، فيسبّون الله إن سبّت أصنامهم، قال ابن تيمية: فلولا تعظيمهم لآلهتهم على الله لما سبوا الله إذا سبت آلهتهم⁶. اهـ وقال أيضا: فهؤلاء لما سبّت آلهتهم سبوا الله مقابلة،

1 توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ومذاهب الناس بالنسبة إليهما ص13، عبد الرحمن حبنكة دار القلم ، ط1، 1998.

2 انظر كتابنا : البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (554 ، و ص643) .

3 انظر: ص (299)

4 توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ومذاهب الناس بالنسبة إليهما ص107

5 وذلك في كتابنا (البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية)

6 منهاج السنة النبوية (5/ 397)

فجعلوهم مماثلين لله وأعظم في قلوبهم¹. اه بل كانوا "يفضلون أنفسهم على ربهم" كما قال ابن تيمية²، وقد سبق بسطه أيضا³.

المرصد الثاني: أنهم مقرون بتوحيد الربوبية

وهذه المنقبة مشهورة عند ابن تيمية وأتباعه لا يملؤون من ذكرها، وتكرارها والتأكيد عليها بأجلى العبارات، وقد سبق نقل نصوصهم في ذلك والرد على هذه الدعوى⁴، ونقول هنا باختصار: إن هذه منقبة مُلققة، وأصلها تبرع محض من ابن تيمية للمشركين حين قال عنهم بأنهم "كانوا يقرّون بأن الله وحده هو الذي خلق السموات والأرض"⁵، وحين قال: "وأما توحيد الإلهية فهو الشرك العام الغالب الذي دخل فيه من أقرّ أنه لا خالق إلا الله ولا رب غيره من أصناف المشركين"⁶. اه ثم جاء ابن عبد الوهاب فكان سخيا أكثر في تبرعه لهم حين قال "فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره"⁽⁷⁾ اه

والواقع أن المشركين ما قالوا هذا قط كما سبق بيانه، وآيات الباب الثمانية⁸ التي يستدلون بها ليس فيها كلمة "وحده"، ولا فيها نفي وإثبات، ولا فيها توحيد قط، وإنما هذا تبرع محض من ابن

1 منهاج السنة النبوية (2/ 395)

2 درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7/ 363)

3 انظر: ص (303) عند قولي: (يفضلون أنفسهم على ربهم)

4 انظر كتابنا: "ولئن سألتهم" ص (245).

5 بيان تلبس الجهمية 1/ 479

6 مجموع الفتاوى 2/ 38، وقد سقطت كلمة "فيه" من المطبوع.

(7) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14، وقاله أيضا في كتابه الجواهر المضية (ص: 4)

8 نحو قوله { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [الزمر: 38]

تيمية وأتباعه للمشركين بما يضمن به هو وأتباعه على خصومه المسلمين، كما بسطناه مطوّلاً¹، بل الذي ثبت قطعاً كما سبق بيانه أن المشركين كانوا ينفرون من مجرد كلمة "وحده" إذا ذُكرت مع الله كما قال تعالى: { وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } [الإسراء: 46]، بل يشمئزون من ذكر الله نفسه حينها كما قال تعالى: { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الزمر: 45]، وقد سبق أن سردنا أكثر من عشرين دليلاً على أن المشركين غير موحدّين في الربوبية، بل نقلنا إقرار كثير من السلفية بذلك².

المطلب الثاني: دعوى أنهم مؤمنون بالرسول عليهم السلام

وفي ذلك يقول سفر أحمد " .. ويؤمنون كذلك بالرسول { وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ }، ومنه قول النابغة: فألفيت الأمانة لم تخنها .. كذلك كان نوح لا يخون"³!! ولعل بعض السلفية رأى أن هذه المنقبة دعوى ثقيلة وعريضة لما سيأتي، فحاول أن يعدّل هذه الدعوى ويخففها فقال كان المشركون "يسلمون جواز بعثة الأنبياء ويقولون بالمجازاة"⁴.

والجواب عن هذه المنقبة أن الآيات التي تنقضها لا تُعدّ ولا تحصى كما سيأتي، فالمشركون منكرون للرسول ومعادون لهم ومحاربون، وشاتمون لهم ومستهزئون بهم كما سيأتي بسطه⁵، بل عدّهم ابن تيمية نفسه "من أكابر أعداء الرسول الذين قال الله فيهم: { وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً } . { وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به

1 انظر كتابنا: "ولئن سألتهم" ص (242).

2 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (673)

3 العلمانية وأثرها في الحياة الإسلامية المعاصرة ص 579، رسالة ماجستير في جامعة الملك عبد العزيز للطالب سفر أحمد.

4 جهود علماء الحنفية (1/ 213)

5 انظر: ص (350)

فؤادك ورتلناه ترتيلاً" ¹ . اهـ بل كانوا ينكرون أن يأتي رسول من البشر كما قال تعالى: { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } [الإسراء: 94] وسيأتي بسطه ² .
 وأما قوله تعالى { وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ } [الأنعام: 124]، فهي دليل على كفرهم بالرسول لا على إيمانهم بهم، كما بين ذلك ابن تيمية حيث قال: ..
ومعلوم أن هذا حال الكفار بالرسول لا المؤمنين بهم ورؤوس هؤلاء الذين قال الله فيهم: { وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله .. } ³ . اهـ

كما أن آية الأنعام تدل على اعتراض المشركين وتحكمهم و"عنادهم" كما قال المعلمي اليماني ⁴ . اهـ وذلك أنه لما "أنزل الله القرآن على نبيه محمدٍ - ﷺ - اعتراضوا عليه.. قالوا { قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ } هذا اقتراح وهو تحكم على الله تعالى" ⁵ . وقال القرطبي في معنى الآية: لن نؤمن حتى نكون أنبياء، فنؤتى مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات، ونظيره { بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً } [المدثر: 52] ⁶، وبهذا قال الطبري والزجاج والواحدي، ووافقهم ابن جزري الكلبي ونظام الدين النيسابوري وأبو حيان وابن كثير والثعالبي وابن عادل والقاسمي ومحمد رشيد رضا والشنقيطي ⁷ .

1 مجموع الفتاوى (8 / 9)

2 انظر: ص (347، و ص385) عند آية : (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)

3 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (5 / 339)

4 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2 / 179)

5 شرح مسائل الجاهلية للحازمي (14 / 15، ت.ش)

6 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (9 / 20)

7 ترجيحات الإمام القرطبي في التفسير من أول سورة (الإنعام) إلى آخرها، ص484، رسالة ماجستير للباحثة أسماء السلومي.

المطلب الثالث: دعوى إيمان المشركين بالكتب السماوية

وفي ذلك يقول سفر أحمد: وكانوا يؤمنون بالكتب ويسمون اليهود والنصارى أهل الكتاب "وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة" أي كالتوراة والإنجيل¹. اهـ والجواب: أن هذه منقبة باطلة، فالمشركون كانوا ينكرون الرسل فكيف يؤمنون بالكتب التي أنزلت عليهم، وأما قوله تعالى "وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة"، فأولاً: الآية ليس لفظها كما توهم الكاتب، وإنما لفظها: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [الفرقان: 32].

ثانياً: أما الآية فلا شيء يدل فيها على أنهم كانوا يؤمنون بالكتب السماوية، كيف؟ والإيمان بالكتب السماوية فرع عن الإيمان بالرسل عليهم السلام الذين أنزلت عليهم تلك الكتب، أما وأنهم كانوا يكفرون بالرسل بحجة أنهم بشر كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: 94] ، فكيف يؤمنون بالكتب السماوية ما دام أنهم يكفرون بالرسل؟ يقول الخصم إن المشركين كانوا يؤمنون بالتوراة والإنجيل، والسؤال: كيف يؤمنون بالتوراة التي أنزل على موسى، وبالإنجيل الذي أنزل على عيسى إذا كانوا يكفرون بموسى وعيسى وسائر الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴾ [الذاريات: 52-53] ، وقال: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [يس: 30].

وإنما آية الفرقان تبين خصلة من خصال المشركين، وهي "التحکم علی الله، یعنی: الاقتراح علی الله، كما في الآية: { لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة } [الفرقان: 32] ويقترحون على الله،

ويقولون: كيف يفرق الله القرآن وينزله منجماً، ولم ينزله جملة واحدة؟ يتدخلون فيما لا يعينهم وفيما لا علم لهم به"1. اهـ

وقال السيوطي: أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: قال المشركون: إن كان مُحَمَّدٌ كما يزعم نبيا فلم يعذبه ربه، ألا يُنزل عليه القرآن جملة واحدة؟ ينزل عليه الآية والآيتين والسورة، فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا. وقال قتادة: يقولون: كما أنزل على موسى وعلى عيسى². اهـ

وذكر الماوردي والقرطبي والنسفي والشوكاني قولاً آخر في الآية أنها نزلت في اليهود أنهم قالوا: هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى³، وذهب الزمخشري وابن عطية والرازي وابن جزري وأبو حيان وابن عادل والألوسي أنها نزلت في قريش، وهذا ما رجّحه بعض الباحثين لأن آية الفرقان مكية ولا وجود لليهود فيها، كما أن سبب النزول بين أنها في قريش والقاعدة "إذا صح سبب النزول الصريح فهو مرجح لما وافقه من أوجه التفسير"⁴.

ثم لو سلمنا جدلاً أنهم كانوا يؤمنون بالتوراة والإنجيل فهل كانوا يؤمنون بالقرآن؟ كيف وكفرهم بالقرآن أظهر من أن يُبين، وحسبك في ذلك قوله تعالى { قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا } (4) وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبتَها فهي تُملى عليه بُكْرَةً وَأَصِيلاً { [الفرقان: 4، 5] وسيأتي بسطه؟!!!!

-
- 1 شرح مسائل الجاهلية (ص: 263)، صالح الفوزان، دار العاصمة بالرياض، ط1/ 2005م. وانظر أيضاً: شرح مسائل الجاهلية للحازمي (14/ 15، ت.ش).
 - 2 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (11/ 171)
 - 3 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (15/ 406)
 - 4 انظر: ترجيحات القرطبي في التفسير من الآية 11 من سورة النور إلى آخر الفرقان ص378، رسالة ماجستير للباحثة ناهد باجنيد.

أم أنكم ستجعلون إيمان المشركين المزعوم بالتوراة والإنجيل يجزئ عن الإيمان بالقرآن؟! تماما كما جعلتم إيمان بعض العرب بالبعث مجزئ عن الباقيين الذين أنكروه! وكأن الإيمان بالبعث فرض كفاية كما سبق بيانه!! وكذا الإيمان بالكتب السماوية فرما يجزئ عندكم الإيمان ببعضها عن بعض!! ولكن هذا باطل؛ لأنه لا يجوز التفريق بين الرسل عليهم السلام أو بين كتبهم السماوية، بحيث يؤمن بالبعث دون البعض الآخر، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُقَرَّبُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: 150-151] .

المطلب الرابع: دعوى إيمان المشركين بالملائكة

قلنا نعم كانوا يؤمنون بالملائكة إذ "الملائكة يقرّ بها عامة الأمم كما ذكر الله عن قوم نوح وعاد وثمود وفرعون مع شركهم وتكذيبهم بالرسول أنهم كانوا يعرفون الملائكة"¹. ولكن على أنهم "بنات الله . سبحانه وتعالى عما قالوا علواً كبيراً"²، كما جاء ذلك في آيات كثيرة وأقر بهذا ابن تيمية وأتباعه كما سبق³ وكما سيأتي⁴.

المطلب الخامس: دعوى إيمان بعض المشركين باليوم الآخر

يقول حفيد ابن عبد الوهاب: وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب⁽⁵⁾. اه. وقد "نظمت أشعارهم بإحاطة علم الله بكل شيء، وحسابه الخلاق في الدار الأخرى"⁶ بدليل ما قاله "البيد في الجاهلية: وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه .. إذا كُشفت عند الإله المحاصيل

1 مجموع الفتاوى (13/ 319)

2 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 109)

3 انظر: ص (343)، و ص(471) عند قولي : (نسبة الولد إلى الله كفر مستقل)

4 انظر: ص (321) عند قولي : (مشركي قريش كانوا يقولون: الملائكة بنات الله) تعالى الله عن ذلك.

(5) تيسير العزيز الحميد ص27. وانظر: القول السديد في الرد على من أنكروا تقسيم التوحيد (ص: 78)، وانظر نحوه في مباحث

العقيدة في سورة الزمر (ص: 366)، ومدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لضميرية (ص: 22)

6 رسالة الشرك ومظاهره (ص: 129)

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فلا تكتُمَنَّ الله ما في نفوسكم .. ليخفى ومهما يُكْتَمَ اللهُ يعلم

يُوخَّرُ فيوضع في كتاب فيُدَّخِرُ .. ليوم الحساب أو يُعَجَّلُ فيُنْقَمَ" 1

وأما "ما دلت عليه الآيات من إنكارهم للبعث لا يوجب أن يكون ذلك عقيدة لهم عامة؛ فقد يكون عقيدة لبعضهم، وقد يكون علالة للنفس وإجابة لهواها في الفرار من ضبط الإسلام لأعمالها وفضمه لها عن كثير من شهوراتها"².

كذا قالوا، والجواب عن ذلك: أن هذه منقبة ملفقة أيضا، فمشركو العرب كانوا منكرين للبعث والنشور بل إن "البعث أنكره الكفار من عهد نوح إلى عهد مُحَمَّد - ﷺ - ولا يؤمن به إلا المنتسبون إلى دين الرسل"³، بل كانوا يحيلون البعث ويستبعدون قدرة الله عليه وكانوا يقسمون على أن الله لا يبعث من يموت، وليس هذا فحسب بل كانوا يستهزئون بمن يؤمن بالبعث والحساب، وقد حكى الله عنهم ذلك في آيات واضحة وكثيرة تفوق الحصر وأنكر عليهم ذلك، وأقام عليهم الحجة والأدلة على إمكانية البعث عقلا ووجوبه شرعا، نسوق بعضها:

1) قال تعالى: {أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ} (35) هَيَّاهَاتَ هَيَّاهَاتَ لِمَا

تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ { [المؤمنون: 35 - 37]

قال ابن تيمية : وكذلك لما أخبرهم بالمعاد عارضوه بعقولهم وقد ذكر الله تعالى من حججهم التي

احتجوا بها في إنكار المعاد ما هو مذكور في القرآن كقوله تعالى : { وضرب لنا مثلا ونسي

خلقه } ، وقد ذكر طعنهم في الرسالة والمعاد جميعا في قوله تعالى .. : { أفعيينا بالخلق

1 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 109)

2 رسالة الشرك ومظاهره (ص: 129)

3 شرح العقيدة الطحاوية للبراك (ص: 241)

الأول بل هم في لبس من خلق جديد { .. وذكر نحو ذلك عمن مضى من المكذبين للرسول

كقولهم عن رسولهم { أَيَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا.. }¹ . اهـ

(2) وقال أيضا: { بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا

لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [المؤمنون:

. [83 - 81].

(3) وقال: { وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ }

[الواقعة: 47، 48].

(4) وقال عزّ شأنه: { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ

وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [التغابن: 7]، فقد "أقسم الربّ على وقوع العذاب والساعة، وأمر نبيه

أن يُقسم على وقوع الساعة"²، "وبعث الناس من قبورهم"³، "والمعنى: زعم كفار العرب أن

الشان لن يبعثوا أبدا. ثم أمر سبحانه رسول الله ﷺ بأن يردّ عليهم ويُبطل زعمهم .. وذلك

البعث والجزاء على الله يسير إذ الإعادة أيسر من الابتداء"⁴.

(5) وقال جلّ جلاله: { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا

مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ

بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } [يس: 77 - 79]، قال الفوزان: ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن

المشركين، الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ أنهم ينكرون البعث ويستبعدونه، ويزعمون أنه لا

1 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (64 / 7)

2 مجموع الفتاوى (183 / 16)

3 مجموع الفتاوى (310 / 35)

4 فتح القدير للشوكاني (282 / 5)

يمكن حصول البعث لأن الأجسام تتفتت وتضيع وتذهب..¹ اهـ وقد سردنا من قبل كلام ابن القيم بطوله على هذه الآيات من سورة يس².

(6) وقال عز وجل: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [النحل: 38]، أي "وحلف هؤلاء المشركون من قريش بالله.. لا يبعث الله من يموت بعد مماته.. وكذبوا وأبطلوا في أيمانهم .. بل سيبعثه الله بعد مماته.. ولكن أكثر قريش لا يعلمون وعد الله عباده أنه باعثهم يوم القيامة بعد مماتهم أحياء"³.

(7) وقال أيضا: {إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبَاتِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الدخان: 34 - 36]، قال الطبري: يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل مشركي قريش.. {وما نحن بمنشرين} بعد مماتنا، ولا بمبعوثين، تكذيبا منهم بالبعث والثواب والعقاب"⁴ اهـ

(8) وقال سبحانه: {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [يس: 48] أي "ويقولون متى هذا الوعد - الذي تعدونا به من العذاب، والقيامة، والمصير إلى الجنة أو النار.. قالوا ذلك استهزاءً منهم، وسخرية بالمؤمنين، ومقصودهم إنكار ذلك بالمرّة، ونفي تحقّقه، وجحد وقوعه"⁵.

والآيات كثيرة جدا في هذا الباب، ودلالاتها على إنكارهم للبعث والنشور أوضح من الشمس، وقد نقلنا كلام ابن تيمية وأتباعه⁶، وقد ذكرنا سابقا أيضا أن إنكارهم للبعث هذا يكرّر على إقرارهم بأن الله

1 إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (2/ 242)

2 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (550).

3 جامع البيان ط هجر (14/ 219)

4 جامع البيان ط هجر (21/ 48)

5 فتح القدير للشوكاني (4/ 428)

⁶ انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (550).

هو الحبيبي المميت، بل يكرّر على إقرارهم بالخالق: بالبطلان، ورأينا كيف قال ابن القيم بأن منكر البعث "كافر برّبّه جاحد له لم يقرّ برب العالمين فاطر السموات والأرض"¹.

وأما ما ذكرتم من أن بعض العرب كان يؤمن بالبعث كزهير ولييد وغيرهما، وأن الآيات التي تحدثت عن إنكارهم للبعث تحتمل تأولين: الأول: أنه ربما تكون عقيدة لبعضهم لا لكلهم، الثاني: لعلمهم أنكروا ذلك فرارا من التكاليف ..! فالجواب من وجوه:

أولا: أن الآيات الكثيرة التي تتحدث عن إنكار المشركين للبعث والنشور، وتنكر عليهم ذلك، وتقيم عليهم الأدلة على إمكانية البعث عقلا ووجوبه شرعا، وكلها قطعية الدلالة: لا تدفع بـ"قد" و"ربما" و"لعل"، وكما يقال علّق "ربما ولعل" عند ذلك الكوكب، وكذا أيضا لا تُردّ ولا تُؤوّل لورود بيت من الشعر أو بيتين ..!

كيف؟! وأنتم أقمتم الدنيا على من استدل ببيت أو بيتين للأخطل على تفسير بعض الكلمات الواردة في القرآن في لغة العرب²، مع أن أبيات الأخطل تلك ليست لأخذ عقيدة ولا شريعة منها، وإنما لتفسير القرآن العربي الذي نفسره بكلام مشركي العرب وأشعارهم كما قال ابن عباس "إذا خفي عليكم شيء من القرآن، فابتغوه من الشعر، فإنه ديوان العرب"³؛ ومع ذلك دعوتهم بالويل والثبور على من استعان ببيت للأخطل لتفسير بعض آيات الكتاب، فكيف لو استدلّ مستدلّ بشعر جاهلي لدفع أو تأويل حقيقة حكاها القرآن من أوله إلى آخره بأصح بيان وأوضحه؟! كما في قضية إنكار المشركين للبعث، وهو ما تحاولون فعله هنا؟!!

ثانيا: إذا صح أن تُردّ أو تُؤوّل كل تلك الآيات التي تتحدث عن إنكار المشركين للبعث ببيت أو بيتين من الشعر جاء فيها الإيمان بالبعث من بعض الشعراء فلماذا لا تُردّ أو تُؤوّل جميع الآيات التي تتحدث

1 إعلام الموقعين القيم (1/ 267).

2 كلفظي الاستواء والكلام، انظر: مجموع الفتاوى (5/ 146)، مجموع الفتاوى (6/ 297، 298)، موقف ابن تيمية من الأشاعة (3/ 1264) و(3/ 1271)، الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطلة، تحقيق الغامدي والفيهي (ص: 419)، شرح الطحاوية لابن أبي العزّات الأرنؤوط (1/ 199)، موسوعة الألباني في العقيدة (6/ 425)، موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 568، 610، 641).

3 الأسماء والصفات للبيهقي (2/ 183)

عن عبادة المشركين للأصنام والأوثان لنفس السبب وهو ورود أبيات كثيرة من الشعر وأخبار تدل على أن بعض العرب كانت تنفي الشريك عن الله وترفض عبادة الأوثان، نورد بعضها:

(1) ورد في صحيح البخاري من حديث أسماء قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول يا معاشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري . قال الحافظ: زاد أبو أسامة في روايته: وكان يقول إلهي إله إبراهيم وديني دين إبراهيم، وفي رواية بن أبي الزناد: وكان قد ترك عبادة الأوثان، وترك أكل ما يذبح على النصب¹. اهـ

(2) وفي سيرة ابن هشام أن زيد بن عمرو بن نفيل فارق دين قومه "فاعتزل الأوثان والميثة والدم..". وقال في فراق دين قومه، وما كان لقي منهم في ذلك:

أربا واحدا أم ألف رب .. أدين إذا تقسمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعا .. كذلك يفعل الجلد الصبور²

(3) قال ابن كثير: "وما أحسن ما أورده الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في أول كتاب "السيرة" من الشعر لزيد بن عمرو بن نفيل في خلق السماء والأرض والشمس والقمر وغير ذلك، قال ابن هشام: هي لأمية بن أبي الصلت:

إِلَى اللَّهِ أَهْدِي مِدْحَتِي وَتَنَائِيَا * وَقَوْلًا رَضِيًّا لَا بِنِي الدَّهْرَ بَاقِيَا
إِلَى الْمَلِكِ الْأَعْلَى الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ * إِلَهٌ وَلَا رَبٌّ يَكُونُ مُدَانِيَا
أَلَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِيَّاكَ وَالرَّدَى * فَإِنَّكَ لَا تَحْفَى مِنْ اللَّهِ حَافِيَا
وَإِيَّاكَ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ * فَإِنَّ سَبِيلَ الرُّشْدِ أَصْبَحَ بَادِيَا
حَنَائِيكَ إِنَّ الْجِنَّ كَانَتْ رَجَاءَهُمْ * وَأَنْتَ إِلَهِي رَبُّنَا وَرَجَائِيَا
رَضِيْتُ بِكَ . اللَّهُمَّ . رَبًّا فَلَنْ أُرَى * أَدِينُ إِلَهًا غَيْرَكَ . اللَّهُ . ثَانِيَا¹

1 فتح الباري (7/ 145)، وانظر: «الطبقات الكبير» لابن سعد (3/ 353 ط الخانجي). وزاد في «سير أعلام النبلاء - ط الرسالة» (سيرة 1/ 77): « وكان يحبي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: "مه! لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها". فإخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: "إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها". هذا حديث صحيح» .

2 سيرة ابن هشام (1/ 226)

4) ولما قُتل زيد ابن نفيل هذا رثاه ورقة بن نوفل فقال:

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما .. تجنبت تنورا من النار حاميا

بدينك ربا ليس رب كمثلته .. وتركك أوثان الطواغي كما هيا²

5) وفي حديث عائشة في بدء الوحي وفيه "إلى ورقة بن نوفل وكان رجلا تنصر"، وقال القسطلاني: تنصّر في الجاهلية بعد أن ترك عبادة الأوثان³.

6) وقال عبید بن الأبرص في معلقته: والله ليس له شريك .. علام ما أخفت القلوب⁴.

7) وقال لبید: كل دين يوم القيامة عند الله .. إلا دين الحنيفة بور⁵.

8) وأخرج ابن سعد في طبقاته من طريق الواقدي عن أبي معشر قال: كان أبو ذر يتأله في الجاهلية ويقول لا إله إلا الله ولا يعبد الأصنام⁶. اهـ

9) وكان وكيع بن سلمة الإيادي على الحنيفية في الجاهلية، وكان "يعظ الناس وينصحهم بالتدين بدينه وبالابتعاد عن عبادة الأوثان، على شاكلة الأحناف"⁷

10) وكذا قس بن ساعدة الإيادي الذي قال في مواعظه :

كلا بل هو الله إله واحد .. ليس بمولود ولا والد

أعاد وأبدى .. وإليه المآب غدا⁸

1 البداية والنهاية ط هجر (1 / 81)، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (1 / 227)، «بلوغ الأرب» للألوسي (2 / 249). وجاء في

بعض النسخ الشطر الثاني للبيت الأول: وَقَوْلًا رَصِينًا، وجاء البيت الأخير في بعض النسخ: فلن أرى إلهًا وربًا غيرك...

2 السيرة النبوية لابن هشام (1 / 232)

3 إرشاد الساري (5 / 374)

4 شرح القصائد العشر للتبريزي (ص: 327)

5 السيرة النبوية لابن هشام (1 / 60)

6 طبقات ابن سعد (4 / 222)

7 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11 / 219)

8 الملل والنحل (2 / 240)، منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، لمحمد السحبياني ص 624.

(11) وكذا المتلمس بن أمية الكناني حيث خطب قومه يعظهم عند فناء الكعبة، فكان في جملة ما قاله لهم: "إنكم قد تفردتم بأهة شتى؛ وإني لأعلم ما الله تعالى راضٍ به، وإن الله تعالى رب هذه الآلهة، وإنه ليحبُّ أن يعبد وحده، فنقّرت كلماته هذه وأمثالها القوم منه وتجنّبوه. وقالوا عنه: إنه على دين بني تميم"¹.

(12) وكذا أبو قيس صرمة بن أبي أنس، قال ابن إسحاق: وكان رجلاً قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة.. وقال أعبد رب إبراهيم"².

(13) وكذا عمرو بن عبسة السلمي حيث قال: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان.. رواه مسلم، وقد سبق. وقال عنه ابن الجوزي: "كان يعتزل الأصنام قبل إسلامه وأسلم قديماً"³.

(14) وكذا الصحابي أبي اللحم، قال ابن الجوزي نقلاً عن الكلبي: "سُمِّي بذلك لأنه كان يأبي أكل ما ذبح على الأصنام"⁴.

(15) وقد ذكر ابن الجوزي أسماء عشرة من العرب الذين رفضوا عبادة الأوثان قبل الإسلام، وبعضهم أدرك الإسلام وأسلم وصار صحابياً، فقال تحت عنوان: تسمية من رفض عبادة الأصنام في الجاهلية: أبو بكر الصديق، زيد بن عمرو بن نفيل، عبيد الله بن جحش، عثمان بن الحويرث، ورقة بن نوفل، رباب بن البراء الشمني، أمية بن أبي الصلت، أسعد بن كرب الحميري، قيس بن ساعدة الإيادي، أبو قيس بن صرمة⁵. اهـ

1 الملل والنحل للشهرستاني (3/ 93)، وتاريخ الفكر الديني الجاهلي (ص: 370)، مُجَّد إبراهيم الفيومي (ت 1427هـ)، دار الفكر العربي، ط 4/ 1415هـ-1994.

2 سيرة ابن هشام (2/ 113)، السيرة الحلبية (2/ 19)، سبيل الهدى والرشاد (3/ 200)، الروض الأنف ت الوكيل (4/ 301)، الاكتفاء للكلاعي (1/ 300)، شرح النووي على مسلم (15/ 102).

3 تلقيح فهوم أهل الأثر (ص: 100) لابن الجوزي، دار الأرقم/ 1997.

4 تلقيح فهوم أهل الأثر (ص: 158)

5 تلقيح فهوم أهل الأثر (ص: 333)

إلى غير ذلك مما سبق بسطه¹، فهل يقال بناءً على هذه الأشعار والأخبار: إن المشركين لم يكونوا يعبدون الأوثان، وأن الآيات الكثيرة التي تتحدث عن عبادتهم للأوثان: ربما المقصود بها بعضهم؟! أو لعلهم كانوا يقصدون باتخاذ الأصنام هي أن تكون "رموز مودّة بينهم نظير الشعارات والأعلام التي تتخذها الشعوب رموزاً لوحدهم القومية" كما قال تعالى " إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ" كما سيأتي بيانه²؟! وأنهم لم يكونوا يقصدون بها عبادتها، وبالتالي تُردّ كلُّ الآيات التي تتحدث عن عبادتهم للأصنام، تماماً كما قلتم في الآيات التي تتحدث عن إنكارهم للبعث سواء بسواء؟! وما هو جوابكم عنهم في إنكارهم للبعث هو الجواب نفسه في عبادتهم للأصنام؟

(الإيمان بالبعث ليس فرض كفاية وكذا تجنب عبادة الأصنام)

ثالثاً: كون بعض العرب - سواء كانوا هم الأقل أم الأكثر كما سيأتي - يؤمن بالبعث لا يُعفي معظم العرب المنكرين للبعث، فإن الإيمان باليوم الآخر فرض عين وليس فرض كفاية..!! ولو كان الأمر كذلك أي لو كان الإيمان بالبعث فرض كفاية فعلاً فلم لا تكون قضية رفض عبادة الأوثان فرض كفاية أيضاً؟!

وبالتالي فإن شرك العرب وعبادتهم للأوثان ليس سبب كفرهم وسفك دمائهم؛ لأن بعضهم كانوا من الحنفاء الموحدين ممن يرفضون عبادة الأوثان! ونقول كما قلتم: "فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم.." ⁽³⁾!! كأنكم تقولون: فلنبحث عن سبب آخر لكفرهم غير الشرك وعبادة الأصنام!! لماذا لا تقولون ذلك؟ تماماً كما قلتم بأن إنكارهم للبعث ليس سبب كفرهم، ولا هو الذي أحلّ دمائهم، بحجة أن بعضهم آمن بالبعث كزهير بن أبي سلمى ولبيد بن ربيعة! ولذا صرتم بعد ذلك تبحثون عن سبب آخر لكفرهم سوى إنكارهم للبعث! فهلا تبحثتم عن سبب كفرهم الحقيقي وصرتم النظر عن عبادتهم للأصنام للسبب السابق نفسه؟! وهو أن

1 انظر من فضلك: ص (34)

² يُنظر: ص (37)

(3) تيسير العزيز الحميد ص 27

بعضهم رفض عبادة الأصنام، فلعلّ هذا البعض يجزئ رفضه لعبادة الأصنام عن الباقي الذين عبدوها!! تماما كما أجزأ عنكم إيمان بعض العرب بالبعث عن الباقي الذين لم يؤمنوا به!!

الجواب عن الأخبار والأشعار التي فيها إيمان بعض العرب بالبعث

وما كان جوابا لكم عن هذه الأشعار والأخبار التي فيها رفض بعض العرب لعبادة الأوثان، هو جوابنا عن تلك الآيات التي استشهدتم على إيمانهم بالبعث، أي **إن قلتم** مثلا: إن تلك الأشعار والأخبار التي فيها رفض بعض العرب لعبادة الأوثان خاصة بمن كان على الحنيفة كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل. قلنا: تلك الآيات التي سردتم في الإيمان بالبعث قد قيل إنها خاصة بمن كان على الحنيفة، ألا ترى أن لبيد الذي استشهدتم على إيمانه بالبعث بقوله: وكل امرئ يومًا سيعلم سعيه ..، هو نفسه يقول: **إلا دين الحنيفة بور**، وقد سبق بيان ذلك¹. وكذا قال قس بن ساعدة: **كلا بل هو الله إله واحد .. وإليه المآب غدا**، كما سبق. وإن شككتم في أخبارنا وأشعارنا التي فيها مفارقة بعض العرب للأوثان شككنا في أخباركم وأشعاركم التي فيها إيمان بعضهم بالبعث، بل تشكيكنا أولى لأن بعض أخبارنا في البخاري ومسلم بخلاف أخباركم.

وإن قلتم: إن هذه الآيات التي فيها رفض بعض العرب لعبادة الأوثان: آيات نادرة محمولة على أفراد بعينهم فهذا لا يدفع أن الغالبية العظمى من العرب كانوا يعبدون الأوثان. قلنا: وكذا نقول في آياتكم التي رويتم في إيمانهم بالبعث فإنها نادرة محمولة على أفراد بعينهم، فهذا لا يدفع أن الغالبية العظمى من العرب تنكر البعث، قال ابن الجوزي: ومن كان يقر بالخالق والابتداء والإعادة والثواب والعقاب عبد المطلب بن هاشم وزيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة وعامر بن الظرب وكان عبد

1 انظر: ص (35) عند قولي : (إلا دين الحنيفة بور)

المطلب إذا رأى ظالما لم تصبه عقوبة قال: تالله إن وراء هذه الدار لدارا يجزى فيها المحسن والمسيء¹، ومنهم زهير بن أبي سلمى وهو القائل: يؤخر فيوضع² .. اهـ وعدد آخرين لا يتجاوزون أصابع اليدين!

إذن المؤمنون بالبعث في الجاهلية قلائل جدا، ولذلك من كان يؤمن بالبعث من العرب قبل البعثة كان أهل التراجم يذكرونه على سبيل تمييزه عمّن سواه من تلك الغالبية العظمى المنكرة للبعث، فمثلا يقول ابن قتيبة: وكان زهير يتأله ويتعقّف في شعره. ويدلّ شعره على إيمانه بالبعث. وذلك قوله: يؤخّر فيودع³ في كتاب ..⁴ اهـ وقال الحلّمي: وأيضا فإن في أشعار العرب في الجاهلية قولاً يثبت المعاد يوماً لحساب، فقال زهير: يؤخر فيوضع في كتاب.. وليس يمكن أن يكون زهير أخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم لأنه سبق أيامه⁵ اهـ

بل إنهم ذكروا أن زهيراً نفسه كان ممن ينكر البعث في أول الأمر، حيث إنه كان "يمر بالعضاة وقد أورقت بعد يبس فيقول : لولا أن تسبني العرب لآمنت أن الذي أحياك بعد يبس سيحيي العظام وهي رميم، ثم آمن بعد ذلك وقال في قصيدته .. يؤخر فيوضع ..6. اهـ

¹ السيرة الحلبية (9/1)، وقد سبق في كتابنا البراهين الشرعية ص (217) أن بسطنا نص عبد المطلب بطوله وفيه "والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته: أي فالمظلوم شأنه في الدنيا ذلك، حتى إذا خرج من الدنيا ولم تصبه العقوبة فهي معدة له في الآخرة، ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام، ووحده الله سبحانه وتعالى..".

² تلبس إبليس (ص: 80)

³ كذا وقع لابن قتيبة في الشعر والشعراء، ولكن المشهور هو لفظ "فيوضع في كتاب"، انظر: «فحولة الشعراء» لأبي سعيد الأصبغي (ص17)، ط2/ دار الكتاب الجديد في بيروت. و«تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (ص177)، ط2/ المكتب الإسلامي. و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لابن الأنباري (ص266)، و«المنهاج في شعب الإيمان» للحليمي (1/374)، ط1/ دار الفكر.

⁴ الشعر والشعراء لابن قتيبة (1/139)

⁵ المنهاج في شعب الإيمان (1/374)

⁶ الملل والنحل للشهرستاني (2/240)، وانظر أيضا: تاريخ الفكر الديني الجاهلي (ص: 480)

كيف تركتم آيات القرآن التي بينت إنكارهم للبعث وأخذتم بيتين من الشعر؟

والعجيب أن الخصم قلب الآية فزعم أن بعض العرب ينكرون البعث، وأن الغالبية تثبته! حيث قال (الآيات التي تحدثت عن إنكارهم للبعث تحتمل تأولين: الأول: أنه ربما تكون عقيدة لبعضهم لا لكلهم، الثاني: لعلمهم أنكروا ذلك فرارا من التكليف ..)!

بل هذا من أعجب العجب إذ لو كان الأمر كذلك لما امتلأ القرآن من أوله إلى آخره بإثبات البعث وإقامة البراهين عليه والرد على المشركين المنكرين له ما داموا قلة! بل إن هؤلاء القلة لا ينكرونه إلا للتخفيف من التكليف كما زعم الخصم! وبالتالي تكون آيات القرآن الكثيرة التي جاءت لإثبات البعث قد عاجلت أمرا ثانويا هامشيا، ولا داعي لأن تفرد له كل هذه الآيات الكثيرة ما دام أن المنكرين للبعث قلة وليسوا منكرين على الحقيقة كما سبق، فإذا لم يكن ثمة داع لإقامة البراهين القرآنية على جواز البعث! تماما كما شغل المتكلمون أنفسهم بإثبات وجود الله والرد على منكريه مع أن هؤلاء المنكرين قلة وهم على الحقيقة لا ينكرون وجوده إلا بألسنتهم وتقرّ به قلوبهم! بل هذا اعتبرتموه ضياعا للوقت والجهد فقلت: "ولذلك يخطئ من يفني عمره في استخراج الأدلة على إثبات وجود الله لأن الدليل على ذلك مركوز في الفطرة"¹، فلم لا تكون الآيات القرآنية الكثيرة التي تثبت البعث هي الأخرى ضياعا للوقت أيضا؟!

والأعجب أن الخصم دفع كل تلك الآيات الكثيرة التي تثبت إنكارهم للبعث بيت أو بيتين من الشعر التي فيها إثبات بعض أهل الجاهلية للبعث! فوقع هو وقومه فيما أنكروه على غيرهم وأشد! وذلك حينما أنكروا على الأشاعرة استشهادهم ببيت للأخطل في تفسير الاستواء فأقاموا الدنيا عليهم، وأنشدوا:

«قبحا لمن نبذ القرآن وراءه ... فإذا استدل يقول قال الأخطل»²

¹ موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 154)

² «مجموع الفتاوى» (6/ 297)، «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» (ص74)، «البراهين المعتبرة في هدم قواعد المبتدعة» (ص564)، «العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية» (ص355)،

وقالوا في تفسيره: «(قبحاً لمن نبد القرآن وراءه) هذه القاعدة تنطبق على الأشاعرة والمعتزلة والجهمية والفلاسفة، لأن كل هؤلاء لم يأخذوا بما دلّ عليه الكتاب والسنة»¹!!

وها هم السلفية الوهابية وقعوا في شيء مماثل بل أعظم! حيث دفعوا كل تلك الآيات التي تثبت إنكار العرب والمشركين للبعث، دفعوها ببيت أو بيتين من الشعر الجاهلي فيهما إثبات للبعث!

ثالثاً: أن هذه الآيات معارضة بأخرى يصرّحون فيها بإنكارهم للبعث، فقد كان قائلهم يقول:

حياة، ثم موت، ثم نشر .. حديثُ خُرَافةٍ، يا أمّ عمرو!، وقال شداد بن الأسود .. يرثي قتلى قريش يوم بدر: يحدثنا الرسول بأن سنحيا .. وكيف حياة أصداءٍ وهام². اهـ وقد سبق هذا³، ولذا فعُدكم الإيمان بالبعث منقبة لأهل الجاهلية لكون بعضهم آمن بها: ليس بأولى من العكس، وهو أن يعد إنكارهم لليوم الآخر من موبقاتهم، لكون أكثرهم ينكره، بل هذا أولى لأنه موافق للقرآن الذي حكى عنهم في آيات كثيرة جداً إنكارهم للبعث، بل حكى أنهم كانوا يقسمون الإيمان المغلظة بأنهم لن يبعثوا كما سبق.

رابعاً: أن قول زهير هذا معارض بما قاله زهير نفسه في معلقته:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب .. تمته ومن تخطئ يعمر فيهم

وقد استشكل هذا البيت ولاسيما أن زهيراً قال خلافه في القصيدة نفسها، فقال التبريزي في شرحه للمعلقات: وإنما يريد أن المنايا تأتي على غير قصد، وليس كما قال؛ لأنها تأتي بقضاء وقدر، ويقال: عشا يعيشو، إذا أتى على غير قصد كأنه يمشي مشية الأعشى⁴، وكذا قال ابن النحاس في شرحه

1 «شرح لامية ابن تيمية» (2/12 ت.ش)، عمر بن سعود بن فهد العيد، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

2 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (1/287)

3 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (251)

4 شرح القصائد العشر للتبريزي (ص: 128)

عليها¹، وإن تعقبه الفاكهي فقال: وفيما قاله نظر، وجهه أنه لا يلزم من قوله: "تأتي على غير قصد" نفيه إتيانها عن قضاء وقدر². اهـ

ثم ذكر الفاكهي أن الذي حمل ابن النحاس وغيره على ذلك "ما هو مأثور عن بعض العرب في الجاهلية من نفيهم بالقضاء والقدر الذي هو . أي نفيه . كفر، على أن الناظم جاهلي فكلامه جار على معتقده، وقد أشرتُ إلى الجواب عن الناظم بقولي آنفا في بيان معنى قوله: "خبط عشواء" أي كخبط عشواء، فهو منصوب بنزع الخافض، وهو كاف التشبيه ولا يلزم في المشبه أن يعطى حكم المشبه به من كل وجه"³.

ونقل المرزباني عن بعض المشايخ أنهم كانوا يقولون عن قول زهير "رأيت المنايا خبط عشواء .. : هذا بيت زندقة، وهو بعيد من أبياته التي يقول في بعضها : فيرفع فيوضع في كتاب فيدخر .. قال: وأعجب من زهير خطأً في هذا المعنى - لأن زهيراً كان جاهلياً كافراً - زياد بن قنيع النصري في سرقته هذا المعنى؛ لأنه في أكبر ظني مسلم، حيث يقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب .. يصر حرصاً من عركها بالكلاكل⁴. اهـ وهذا ظاهر في أن قول زهير "رأيت المنايا" فيه إشكال لما يوحيه من إنكار للآخرة، وهذا يتنافى مع قوله الآخر "فيوضع في كتاب فيدخر"، وهذا كله يورث الشك في كون زهير كان مؤمناً بالآخرة لا اضطرابه في ذلك في معلقته كما رأينا، وإن كان بعض الشراح التمس مخرجاً لقوله "رأيت المنايا .." ولكن البعض الآخر رأى في هذا البيت زندقة كما سبق.

والحاصل من كل ما سبق أن العرب في الجاهلية كانوا منكرين للبعث واليوم الآخر، بل يستبعدون قدرة الله على البعث والنشور، لذلك ردّ عليهم الله في آيات كثيرة جداً، وما قيل من أن

1 شرح القوائد التسع المشهورات لابن النحاس 1/ 353، ت أحمد خطاب، مطبعة الحكومة ، بغداد 1973.

2 فتح المغلقات لأبيات السبع المعلقات للفاكهي ص1188، ت د. جابر المحمدي، ط 1 / 2010.

3 فتح المغلقات لأبيات السبع المعلقات للفاكهي ص1188

4 الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (ص: 51)

بعضهم كان يؤمن بالآخرة فجوابه أن بعضهم أيضا كان يرفض عبادة الأوثان، فلماذا لا يكون هذا الرفض منقبةً لهم؟ وما هو جوابكم هو جوابنا، والله الموفق.

المطلب السادس: دعوى إيمان المشركين بالقدر

وفي ذلك يقول الحفيد: وبعضهم يؤمن بالقدر(1). أي يؤمنون بأن "الله تعالى قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها"² بدليل قول "عنتره: يا عبل أين من المنية مهرب .. إن كان ربي في السماء قضاها"³، وبدليل "قول الحسن البصري: لم يزل أهل الجاهلية يذكرون القدر وخطبهم وأشعارهم"⁴.

والجواب عن ذلك فيما يلي:

أولاً: أنكم ادعيتم أن العرب كانوا يؤمنون بالبعث مع أن الآيات التي تحدثت عن إنكارهم للبعث، وترد عليهم في ذلك؛ لا تعد ولا تحصى، فمن باب أولى أن تدعوا إيمان العرب بالقدر وهو شيء ربما لا نجد آيات واضحة تتحدث عن موقف العرب منه.

نعم ثمة آيات ورد فيها احتجاج المشركين بالقدر، ولكنهم فعلوا للإصرار على شركهم، وهذا قد يفيد أنهم يؤمنون بالقدر لقولهم " {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا}، فصرّحوا بأن شركهم حصل بإذن الله"⁵، بيد أن كثيرا من المفسرين حملوا ذلك منهم على جهة الاستهزاء، وفيما يلي بيان ذلك:

قال تعالى: { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاقُوا بِأَسَنًا } [الأنعام: 148]، فقد "قالوا ذلك عنادا ودفعوا للإيمان بذلك التعلل، لا اعتقادا. فقولهم ذلك، وإن كان صدقا في نفس الأمر، لكنهم كانوا به كاذبين، مكذبين للرسول، إذ لو صدقوا لعلموا أن توحيد المؤمنين أيضا بإرادة الله، وكذا كل دين، فلم يعادوا أحدا. ولو

(1) تيسير العزيز الحميد ص27.

2 حجة الله البالغة (1/ 219)

3 القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: 78)، وانظر نحوه في مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 366)،

ومدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لضميرية (ص: 22)

4 حجة الله البالغة (1/ 219)

⁵ موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 27)

علموا أن كل شيء لا يقع إلا بإرادة الله لما بقوا مشركين، بل كانوا موحدين. لكنهم قالوه لغرض التكذيب والعناد، وإثبات أنه لا يمكنهم الانتهاء عن شركهم، فلذلك عيّرهم به، لا لأنه ليس كذلك في نفس الأمر. فإنهم لم يطلعوا على مشيئة الله¹. وهكذا فإنهم "إنما قالوا ذلك على جهة الهزء واللعب، نظيره (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) ولو قالوه على جهة التعظيم والإجلال والمعرفة به لما عابهم، لأن الله تعالى يقول: لو شاء الله ما أشركوا"².

وقال تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [النحل: 35] "قال الزجاج: إنهم قالوا هذا على جهة الاستهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين"³، بل "إنما قالوا ذلك استهزاء أو منعا للبعثة والتكليف، متمسكين بأن ما شاء الله يجب وما لم يشأ يمتنع، فما الفائدة فيها"⁴، "يعني أنهم لم يقولوا ذلك اعتقاداً.. قالوا ذلك استهزاء بهم فذكر ذلك نعيًا عليهم في الضلال أو إثباتا لمنعهم الباطل"⁵.

وقال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [يس: 47] "كانوا مع ما هم عليه من الكرم يشحون على فقراء المسلمين فيمنعونهم البذل تشفياً منهم.. فلعل من أسلم من الفقراء سألوا المشركين ما اعتادوا يعطونهم قبل إسلامهم، فيقولون: أعطوا مما رزقكم الله. وقد سمعوا منهم كلمات إسلامية لم يكونوا يسمعونها من قبل، وربما كانوا يحاجونهم بأن الله هو الرزاق ولا يقع في الكون كائن إلا بإرادته، فجعل

1 محاسن التأويل للقاسمي نقلا عن تفسير القاشاني (462 / 4)

2 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (9 / 103)

3 فتح القدير للشوكاني (3 / 193)

4 تفسير البيضاوي (ص: -396)

5 حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي "عنايه القاضي وكفاية الرازي" (5 / 329)، وانظر أيضا: حاشية العصام القونوي على

تفسير البيضاوي (11 / 268).

المشركون يتعللون لمنعهم بالاستهزاء، فيقولون: لا نطعم من لو يشاء الله لأطعمه، وإذا كان هذا رزقناه الله فلماذا لم يرزقكم؟ فلو شاء الله، لأطعمكم كما أطعمنا"¹.

وقال تعالى: { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ مَا لَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }

[الزخرف: 20] "يعني قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية: لو شاء الرحمن على زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة"²، "هذا فن آخر من فنون كفرهم بالله جاءوا"³ به للاستهزاء والسخرية"⁴.

ثانيا: أن الإيمان بالقدر ينبي على التسليم بعلم الله تعالى للأشياء قبل وقوعها وإرادته لوقوعها حين تقع وقدرته على إيقاعها، وهذا كله ينازع فيه المشركون؛ أما أن الإيمان بالقدر مبني على ما ذكرنا فلأن معنى القدر هو "أن الله تبارك وتعالى قدّر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى"⁵، وعليه فإن "الإيمان بالقدر على درجتين.. فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا.. وأما الدرجة الثانية: فهو مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة.. وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات"⁶. اهـ ومن ثمّ قالت القدرية القديمة "لا قدر والأمر أنف"⁷، فزعمت " أنه سبحانه وتعالى لم يقدرها ولم يتقدم علمه سبحانه وتعالى بها وأنها مستأنفة العلم أي إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها.. وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل"⁸.

¹ التحرير والتنوير لابن عاشور (31 / 23)

² الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (23 / 19)

³ كذا في المطبوع، والمشهور أن تكتب الهمزة على واو هكذا "جاؤوا"، وسيأتي التنبيه عليها مرة ثانية مع التعليل عند قوله "ثمّ جاءوا يَسْتَرْجِعُونَ" انظر: ص (159).

⁴ فتح القدير للشوكاني (630 / 4)

⁵ شرح النووي على مسلم (154 / 1)

⁶ مجموع الفتاوى (148 / 3)، وانظر موقف ابن تيمية من الأشاعرة (1310 / 3)

⁷ صحيح مسلم (37 / 1)

⁸ شرح النووي على مسلم (154 / 1)

وأما أن المشركين كانوا لا يسلمون بهذه الأمور التي يبنى عليها الإيمان بالقدر، فلأنهم كانوا يشككون بشمول علمه وإرادته وقدرته تعالى كما سبق بيانه¹، وحسبك أن تعلم أن إنكار المشركين للبعث إنما كان أصلاً لشكهم في ذلك، وقد بين ذلك ابن القيم مطولاً كما سبق² ومنه قوله: "فإن تعدُّ الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه أو قصور في قدرته.. فكيف تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم؟.. فكونه خلاقاً عليماً يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يُعجزه ما أَراده من الخلق، ثم قرّر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكما لها لا يقصر عنه ولا عن شيء أبداً.. فنزّه نفسه عما نطق به أعداؤه المنكرون للمعاد معظماً لها بأن ملك كل شيء بيده يتصرف فيه³.. اهـ

فهذا كله دليل على أن البعث مبني على الإيمان بشمول علمه تعالى وإرادته وقدرته وأن المشركين لما كانوا غير مؤمنين بذلك لا جرم أنهم أنكروا البعث، بل إن الشرك نفسه مبني على إيمان المشرك بقصور علمه تعالى وقصور إرادته وقصور قدرته كما سيأتي بسطه من كلام ابن القيم وحفيد ابن عبد الوهاب⁴.

ثالثاً: أن المشركين كانوا ينسبون كثيراً من الحوادث إلى غيره تعالى كالأصنام والدهر والكواكب وغير ذلك، وهذا بسطناه سابقاً حين فصلنا الأدلة على أن المشركين غير موحددين في الربوبية⁵، وهناك رأينا كيف نصّ كثير من العلماء بمن فيهم ابن تيمية وأتباعه على أن العرب منكرون للقدر وقد سبقت تلك النصوص⁶، ونذكر بعضها هنا:

(1) قال أبو يعلى الفراء: .. وهو أنّ الجاهلية كانت تقول: أصابني الدهر في مالي بكذا، ونالني قوارع الدهر ومصائبه، فيضيفون كل حادث يحدث مما هو جار بقضاء الله وقدره وخلقته وتقديره من مرض أو صحة أو غنى أو فقر أو حياة أو موت إلى الدهر، .. {وَقَالُوا مَا هِيَ

1 انظر: ص (299) عند قوله تعالى: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ

2 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (550).

3 إعلام الموقعين عن رب العالمين (1/ 109)

4 انظر: ص (603) عند قولي: (اتخاذ الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية)

5 وذلك في كتابنا البراهين الشرعية، وسيأتي بعض ذلك ص (299) من هذا الكتاب.

6 انظر كتابنا: البراهين الشرعية ص (358)

إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ نِسْبَةِ أَقْدَارِ اللَّهِ وَأَفْعَالِهِ إِلَى الدَّهْرِ .. اهـ وكلام أبي يعلى هذا نقله ابن تيمية مُقَرَّراً له¹.

(1) قال ابن تيمية في قوله تعالى {يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ..} [آل عمران: 154]:
فهؤلاء كانوا في ظنهم ظن الجاهلية ظنا ينافي اليقين بالقدر وظنا ينافي بأن الله ينصر رسوله².

(2) وقال ابن القيم: " .. ظن الجاهلية"، وقد فُسِّرَ هذا الظنُّ الذي لا يليقُ بالله، بأنه سبحانه لا ينصُرُ رسوله، وأن أمره سيضمحلُّ، وأنه يُسَلِّمُهُ للقتل، وقد فُسِّرَ بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه، فُفَسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدْرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتَمَّ أَمْرَ رسوله وَيُظَهِّرَهُ عَلَى الدِّينِ كُفْلَهُ، وهذا هو ظنُّ السَّوِّءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ به سبحانه وتعالى في "سورة الفتح" حيث يقول: {وَيُعَدِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ..} [الفتح: 6] .. وإنما كان هذا ظنَّ السَّوِّءِ، وظنَّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنَّ غير الحق، لأنه ظنَّ غير ما يليقُ بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلىيا، وذاته المبرأة من كلِّ عيبٍ وسوءٍ، بخلاف ما يليقُ بحكمته وحمده، وتفردِهِ بالربوبية والإلهية³. اهـ

(3) وقال شكري الألويسي: وكانوا يُسندون الحوادث مطلقاً إليه، لجهلهم أنها مقدرة من عند الله تعالى، وأشعارهم لذلك مملوءة من شكوى الدهر..⁴ اهـ

(4) وقال الفوزان عن حديث لا عدوى ((..والرسول ﷺ لا ينفي هذا، وإنما ينفي العدو التي كان يعتقدونها أهل الجاهلية من أن المرض يتعدى بنفسه بدون تقدير الله سبحانه وتعالى ..))

(2) بل هذا حفيد ابن عبد الوهاب . الذي قال بأن بعض العرب يؤمن بالقدر . هو نفسه يقول: إن أحسن ما يقال في حديث لا عدوى أنه "على الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية من

1 بيان تلبس الجهمية (1/ 124 و 126)

2 مجموع الفتاوى (14/ 112)

3 زاد المعاد في هدي خير العباد (3/ 228)

4 فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية ت يوسف السعيد (ص: 134)

إضافة الفعل إلى غير الله تعالى .. فأخبر عليه السلام أن ذلك كله بقضاء الله وقدره..¹ . اه
 ويقول الحفيد أيضا في موضع آخر: ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين
يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد من نفاذه: أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن
الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: {قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} . فلا يكون إلا
 ما سبق به قضاؤه وقدره² . ثم ينقل عن ابن عباس في قوله: {يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ
الْجَاهِلِيَّةِ} يعني التكذيب بالقدر³ .

رابعا: أنكم إن كنتم تتحدثون عن إيمان بعض العرب بالقدر كعنترة، كما هو نص الحفيد، فهذا قد
 يسلم. ولكن هذا لا يفيدكم لأن بعض العرب أيضا كانوا يبنذون عبادة الأصنام كما سبق⁴ ، وكما
 بسطناه في كتاب البراهين الشرعية، وإن كنتم تتحدثون عن أن جميع العرب آمنوا بالقدر في الجاهلية كما
 هو ظاهر صنيع الدهلوي من احتجاجه بقول الحسن البصري فهذه دعوى عريضة لا يكفيها قول الحسن
 لو صحّ، فما بالك بأنه لا وجود له فيما بين أيدينا من المصادر أصلا بعد البحث الشديد..!؟
 خامسا: أن من أهل الجاهلية من كان يعتقد بالجبر ومع ذلك كان لا يقول بوجود خالق أصلا، ولندع
 جواد علي يوضح ذلك حيث يقول: ويسوقنا هذا الموضوع إلى البحث عن فكرة القضاء والقدر عند
 الجاهليين. فقد كان بين أهل الجاهلية من يقول بالجبر، وبأن الإنسان مسير لا مخير. وأن كل ما يقع له
 مكتوب عليه، ليس له دخل في حدوثه. ومن هؤلاء القائلون بالدهر والمنون والحمام وما شاكل ذلك،
 ولا يعني القول بالجبر أن قائله من المتأهين القائلين بوجود خالق أوجد الكون، فقد كان من المجرة
 من كان ملحدًا، لا يقول بخالق، وكان منهم من كان مشركًا. كما أن بينهم من كان يؤمن بوجود خالق
 أو جملة آلهة فليس لمذهب الجبر علاقة بالخالق، وإنما هو مذهب يرى أن الإنسان مسير، وأنه يسير

1 تيسير العزيز الحميد (ص: 755)

2 تيسير العزيز الحميد (ص: 1182)

3 تيسير العزيز الحميد (ص: 1188)

4 انظر: ص (36) من هذا الكتاب.

وفق ما كتب له، ومنهم من ينسبه إلى علة، هي الله أو الدهر، ومنهم من لا ينسبه إلى أحد وهو مذهب موجود في اليهودية وفي النصرانية وفي الإسلام. ونجد هذه العقيدة في شعر الشاعر النصراني "عدي بن زيد العبادي"، وربما نجدها أيضاً عند سائر إخوانه النصارى ومن كان على هذا الدين من غيرهم من العرب¹. اهـ

المبحث الثاني: انتسابهم لدين إبراهيم واعتقادهم بأن آلهتهم عبيد لله

وفيه مطلبان

المطلب الأول: انتسابهم إلى دين إبراهيم عليه السلام

وفي ذلك يقول الحفيد: ويدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام فأنزل الله تعالى ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67]⁽¹⁾ ويقول الأفعاني: "إن الحنفية ذكروا أن المشركين على بقية من بقايا الملة الإبراهيمية وكانوا يسمون أنفسهم الحنفاء"⁽²⁾.

والجواب أن هذه منقبة مُلققة، وبيان ذلك في ما يلي:

أولاً: لم يذكر لنا الحفيد دليلاً على أنهم كانوا "يدعون أنهم على ملة إبراهيم" وأنه لذلك نزل قوله تعالى "ما كان إبراهيم يهودياً.."، ولا ذكر ذلك محققو كتابه³ بمن في ذلك من حقق كتابه كرسالة علمية⁴، بل رجعت إلى كتاب مختص⁵ بتخريج آثار كتابه "تيسير العزيز الحميد" فلم أجده تعرض لذلك.

ثانياً: أن الذي ورد في سبب نزول الآية السابقة: ثلاثة آثار ليس فيها ذكر للمشركين أصلاً، أثران منهما أوردهما السيوطي في الدر المنثور؛ الأول هو ما أخرجه ابن جرير عن الشعبي قال: **قالت اليهود: إبراهيم على ديننا، وقالت النصارى: هو على ديننا** فأنزل الله ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ الآية فكذبهم الله وأدحض حججهم. وأخرج عن الربيع مثله. والثاني: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: **قال كعب وأصحابه ونفر من النصارى: إن إبراهيم منا**

(1) تيسير العزيز الحميد ص27، وانظر أيضاً مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 366)

(2) جهود علماء الحنفية (1 / 212).

3 تيسير العزيز الحميد، طبعة دار الصميعي، ص122، وانظر أيضاً طبعة المكتب الإسلامي ص18.

4 تيسير العزيز الحميد ص30، وبالترقيم الآلي الإلكتروني ص167، رسالة علمية محققة كرسالة ماجستير في جامعة أم القرى للطالب عبد الله العامر.

5 النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد، ويليهِ ملحق زوائد فتح المجيد، لجاسم الدوسري.

وموسى منا والأنبياء منا، فقال الله { ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما }¹.

وأما الأثر الثالث فهو ما رواه ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس، قال: اجتمعت نصارى نجران، وأخبارُ يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأخبارُ: ما كان إبراهيمُ إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانياً، فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيهم { يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون .. ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين } [آل عمران: 64 - 68]².

وكما ترى فإن هذه الآثار الثلاثة تتكلم عن أن الآية نزلت ردا على اليهود والنصارى الذين زعموا بأن إبراهيم كان على ملَّتِهم، ولا علاقة لها بما ذكره الحفيد من أنها نزلت ردا على المشركين حين ادعوا أنهم على ملة إبراهيم، بل ذكر ابن عبد الوهاب نفسه في مسائل الجاهلية وشرح كتابه أن الآية نزلت ردا على اليهود والنصارى كما دل على ذلك الآثار الثلاثة السابقة³.

ثالثا: أرى أقرب أثر لهذا الذي ادعاه الحفيد في سبب نزول الآية السابقة هو ما ذكره ابن هشام في سيرته حيث قال: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، فرأى إبراهيم عليه السلام مصورا في يده الأزرار يستقسم بها، فقال قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزرار ما شأن إبراهيم والأزرار { ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين }، ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست⁴. وهذا الأثر أصله في البخاري ولكن دون ذكر الآية، ونصُّه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما رأى الصور في

1 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (3/ 618)

2 السيرة النبوية لابن هشام (1/ 552)، وانظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد - ط الرسالة» (3/ 551)

3 مسائل الجاهلية (ص: 11)، فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية لشكري الألويسي ت محب الدين الخطيب (1/ 253)، شرح مسائل الجاهلية للفوزان (ص: 95)، شرح مسائل الجاهلية للحازمي (15/ 24، ت.ش)، شرح مسائل الجاهلية - صالح آل الشيخ (ص: 100).

4 السيرة النبوية لابن هشام (2/ 412).

البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحييت ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام فقال: (قاتلهم الله والله إن استقسما بالأزلام قط)¹. "يعني: أن هذا كذب وافتراء عليهما الصلاة والسلام"².

وحديث البخاري هذا وما في سيرة ابن هشام ليس فيهما سوى الرد على المشركين وتكذيبهم فيما افتروه على إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في قضية الاستقسام بالأزلام.. وكذا ما ادعاه الحفيد من أن المشركين كانوا "يَدْعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا.. " إن صح فليس فيه إلا تبرئة الله لإبراهيم الخليل من هؤلاء المشركين، فكيف يكون ذلك منقبة للمشركين؟! لو صح هذا لكان انتساب اليهود والنصارى إلى إبراهيم منقبة لهم..؟! فإن قلتم: المشركون على دين إبراهيم بحسب دعواهم لا بحسب الواقع، قلنا: وما قيمة هذه الدعوى ما دام الله قد كذبهم فيها وبرأ إبراهيم عليه السلام منهم!!

رابعا: ذكرنا من قبل³ أن ما عليه المشركون أبعد ما يكون عن دين إبراهيم الخليل عليه السلام، وهم أصلا منكرون للرسول والكتب السماوية فضلا عن أنهم عابدون للأوثان التي تبرأ منها إبراهيم الخليل كما قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ } [الزخرف: 26]، فضلا عن أنه حطمها كما قال تعالى: { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } [الأنبياء: 57-58]، فمن أين لهم أن ينتسبوا إلى إبراهيم ودينه الحنيف والحالة هذه؟!

إن صح أنهم انتسبوا إليه فقد كذبهم الله وبرأ إبراهيم منهم كما برأه من اليهود والنصارى فقال: { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }، وهذا ابن الوهاب يقول في "مسائل الجاهلية" عن أهل الكتاب: نسبة باطلهم إلى الأنبياء كقوله: { وما كفر سليمان }،

1 صحيح البخاري بتحقيق د. البغا (3/ 1223).

2 شرح سنن أبي داود للعباد (233/ 8، ت.ش).

3 انظر: ص (204) عند آية: وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ

وقوله: { ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً } . ثم يقول: تناقضهم في الانتساب، ينتسبون إلى إبراهيم مع إظهارهم ترك اتباعه¹ . اهـ

وفي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري² . قال الحافظ: زاد أبو أسامة في روايته: وكان يقول إله إبراهيم وديني دين إبراهيم . وفي رواية بن أبي الزناد: وكان قد ترك عبادة الأوثان وترك أكل ما يذبح على النصب³ .

فإن قلت: نسلم بأن المشركين يعيدون كل البعد عن ملّة إبراهيم، وأن الله برأ الخليل منهم، بيد أن انتسابهم إليه يفيد أنهم يقدرّونه ويفتخرون بدينه ويدعون أنهم على ملته، أي أنهم متدينون من حيث الجملة وإن لم يكونوا على دين إبراهيم حقيقةً؛ قلنا: ولكن هؤلاء منكرون ليوم الدين أصلاً فضلاً عن إنكارهم للأنبياء وللرسل والكتب السماوية والشرائع فكيف يكونون متدينين؟! **إن كنتم تقصدون بالتدين مجرد إقرارهم بالله وإيمانهم به فهذا أيضاً محلّ نظر، بل إقرارهم هذا مشكوك فيه كما سيأتي⁴، وكما بسطناه في كتابنا "ولئن سألتهم".**

خامساً: أن المشركين كانوا يعلمون أن كثيراً مما هم عليه ليس من دين إبراهيم أو على الأقل هم أنفسهم يشكّون في أنه من دينه، وهذا قرّره المعلميّ اليمانيّ، فهو يذكر أن محدثات العرب ((على ثلاثة أضربٍ:

الضرب الأوّل: ما كانوا يرونه من شريعة إبراهيم.

الضرب الثاني: ما كانوا يجهلون أمنها هو أم لا؟

الضرب الثالث: ما كانوا يعلمون أنه ليس منها.

1 مسائل الجاهلية (ص: 4)

2 صحيح البخاري بتحقيق د. البغا (3/1392).

3 فتح الباري (7/145).

4 انظر: ص (228) عند قولي : (وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون)

فأما الضرب الأوّل فلم أجد له مثلاً صريحاً، وقد قرعهم الإسلام بالحجّة والبرهان، ثم بالسيف والسنان، مع إعلانه أنّ ما يدعو إلى ملة إبراهيم، فلم نسمع بقول قائلٍ منهم: هذا من دين إبراهيم فكيف تتركه يا مُجّد وتعيبه وتنهى عنه مع زعمك أنك متّبِعُ مِلَّةِ إبراهيم؟.. ثم يذكر المعلمي أن المشركين لم يكونوا ينسبون قولهم "الملائكة بنات الله" إلى دين إبراهيم ((فلم يكن عند القوم بمقاتلتهم في الملائكة نقلٌ ولا كانوا واثقين بأسلافهم، بل كانوا يعلمون أن الأسلاف بدّلوا وغيّروا وزادوا ونقصوا بمحض التخرّص.. لم يكن عندهم إلا قولهم: {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا} وهم أنفسهم يعلمون وهنّ هذه الشبهة بل بطلاهما؛ لأنهم يعلمون أن آباءهم لم يكونوا معصومين، بل كانوا يتقولون بالحرص والرجم بالغيب.))¹.

إلى أن يقول المعلمي: وأما الضرب الثالث: فمن أمثله الصريحة: الاستقسام بالأزلام، ففي صحيح البخاريّ.. "أما والله لقد علموا أنّهما لم يستقسما بها قط". ومن هذا الضرب فيما يظهر: نصب الأوثان واتخاذها آلهة وعبادتها.. وهكذا يُقال في عبادتهم الملائكة، فإنهم كانوا يطلقون أن الملائكة آلهة وأنهم يعبدونهم². اهـ

والخلاصة أن قول الحفيد ((ويدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام، فأنزل الله تعالى {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ})): ليس صحيحاً، وأن الآثار الواردة في سبب نزول الآية بخلافه، وكلها تتكلم على أنّها نزلت رداً على اليهود والنصارى، وأنه على التسليم بصحة قوله فهذا ليس منقبة لهم ما دام أن الله كذّبهم في ذلك الادعاء، تماماً كما أن الله كذّب اليهود والنصارى في نسبتهم أنفسهم إلى إبراهيم الخليل فلا يكون انتساب أهل الكتاب له منقبة لهم، هذا فضلاً عن أن ما عليه المشركون أبعد ما يكون عن دين إبراهيم بل هو بريء منهم، علاوة عن أنّهم يعلمون أن كثيراً مما هم عليه من الشرك وغيره ليس من دين إبراهيم في شيء كما سبق بيانه، فأني يكون انتسابهم إلى دين إبراهيم. إن صح. منقبة لهم!)

1 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 111)

2 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 114)

المطلب الثاني: اعتقادهم بأن آلهتهم عبيد الله

وفي ذلك يقول ابن عبد الوهاب: "فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له .. وأن جميع السماوات ومن فيهن ، والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره"⁽¹⁾، و"لم يكونوا يعدلون آلهتهم بالله، ويروّضهم مع الله بمنزلة سواء، بل كانوا يقرّون بأنهم مخلوقون وعبيد، ولم يكونوا يعتقدون أبداً أن آلهتهم لا يقلون عن الله قدرة وقوة"² بل "كانوا يعتقدون أنه تعالى ربهم ورب كل شيء، وأن من يدعونهم من دونه من الآلهة والأنبياء ليسوا إلا بعضاً من عبيده وخلقه لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، وأن الضر والنفع والموت والحياة بيده وحده سبحانه وتعالى لا يشاركه في ذلك ولا يظاھره أي مخلوق من مخلوقاته"³. اهـ

الجواب: أما أنهم "لم يكونوا يعدلون آلهتهم بالله" فهذا مناقض مناقضة صريحة لثلاث آيات نصت على أن الكفار يعدلون الأصنام برهم، وهي قوله تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام: 1] ، وقوله: {..وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام: 150]، وقوله {.. أَلِلَّةَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} [النمل: 60]، وقد سبق أن بسطنا الكلام على هذه الآيات ورددنا على القول بأن المقصود هنا أنهم عدلوا بالله في العبادة⁴.

وأما أن الكفار "كانوا يقرون بأنهم مخلوقون وعبيد" فإذا كان المقصود أنهم كانوا يُقرّون بأن آلهتهم مخلوقة وعبيد لله على إرجاع الضمير في "بأنهم" على آلهتهم . وإن كان الأصل حينها أن يقول "بأنها" لكونها غير عاقلة . أقول إن كان هذا هو المقصود وهو ما صرح به باشمیل في قوله السابق "وأن من يدعونهم من دونه من الآلهة والأنبياء ليسوا إلا بعضاً من عبيده" : فهذا أمر غاية في التهافت، ينقض أوله آخره، إذ كيف يقرّون بأنها عبيد وفي الوقت نفسه يقولون عنها آلهة كما يعترف هذا القائل في قوله

(1) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14، وقاله أيضا في كتابه الجواهر المضبية (ص: 4)

2 رسالة التوحيد المسماة بـ تقوية الإيمان (ص: 54) إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي (ت 1246هـ)، ونقله عنه الأفغاني مستشهدا به في جهود علماء الحنفية (1/ 372)

3 كيف نفهم التوحيد (ص: 11)، مُجَّد بن أحمد باشمیل (ت 1426هـ)، المدينة المنورة، ط2، 1406هـ.

4 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (470)

"دونه من الآلهة"، وكما ثبت عنهم في آيات كثيرة كما في قوله تعالى {إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آهْتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا} [الفرقان: 42]، وكما في {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آهْتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصفات: 36] وفي {وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آهْتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} [ص: 6]؟! فهم يصرحون بإلهيتها مرارا وتكرارا في آيات، فأين صرحوا بأنها عبيد كما نسبتهم ذلك إليهم؟

وإن كانوا فعلا صرحوا بأن أصنامهم عبيد فهل هي عندهم آلهة أو عبيد؟! أو أن كونها آلهة لا ينافي كونها عبيدا؟! فيكون الإله والعبد غير متنافيين!! وأنه من الممكن أن يكون العبد إلهًا، والإله عبداً!! فإذن لماذا ردّ الله على المشركين بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ} [الأعراف: 194] فقد "أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد لله كما أنتم عباد له"¹ وهذا الرد كيف يستقيم إن كان الإله والعبد غير متنافيين؟! وإذا كان المشركون أصلا يقولون بأن أصنامهم عباد لله فما الداعي لأن يردّ الله عليهم بالقول بأنها عباد أمثالكم!؟

ولم كفر الله النصارى لقولهم عن المسيح بأنه إله كما في قوله تعالى {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ} [المائدة: 73] ولم ردّ الله عليهم بقوله على لسان المسيح نفسه {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} [مريم: 30] مادام أن ألوهية المسيح التي يدّعونها لا تنافي أنه عبد؟!؟

وبعبارة أخرى نقول: ما دامت العبودية لا تتنافى مع الألوهية . بحسب لازم قولكم . فلم استنكر الله على النصارى ادّعاءهم ألوهية المسيح وردّ عليهم في آيات كثيرة وبيّن فيها أنه رسولُ عبدٍ لا إله، فقال مثلا {..إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ.. فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ .. لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ..} [النساء: 171، 172]!!؟

وكيف ردّ ابنُ تيمية عليهم بقوله: فالنصارى يقولون هو الله ويقولون أيضا هو ابن الله وهو إله تام وإنسان تام.. وأما المسلمون فيقولون هو عبد الله ورسوله وكلمته². اهـ وكذا كيف ردّ على الفلاسفة

1 فتح القدير للشوكاني (2/ 316)

2 الجواب الصحيح (2/ 144)

فقال بأن: "المتفلسفة أتباع أرسطو وأمثالهم ممن زعم أن الملائكة هي العقول والنفوس وأنه لا يمكن موتها بحال؛ بل هي عندهم آلهة وأرباب هذا العالم. والقرآن وسائر الكتب تنطق بأن الملائكة عبيد مدبرون .."¹ اهـ "فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله كما أن الذين يعبدونهم عباد الله، وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين². اهـ فتأمل كيف ردّ ابن تيمية على النصارى في دعواهم ألوهية المسيح، وردّ على الفلاسفة في دعواهم ألوهية الملائكة: ردّ على كليهما بأن المسيح والملائكة عبيد لا آلهة، ولو كانت العبودية لا تتنافى مع الألوهية لما كان لهذا الرد وجه أصلا.

والحاصل أن هذه المنقبة السابعة غير صحيحة، إذ إن المشركين كانوا يعدلون الأصنام بالله كما نصّت عليه الآيات السابقة، وكانوا يعتقدون في أصنامهم أنها آلهة كما صرحوا بذلك مرارا، ولم يصرحوا بأنها عبيد لله كما نقلتم عنهم، ولو فرضنا جدلا أنهم صرحوا بأنها عبيد لله فهذا تناقض منهم؛ إذ كيف يكون الشيء عبدا وإلهة في الوقت نفسه، لو صحّ هذا لبطلت تلك الآيات التي تبين أن المسيح مثلا عبد وليس بإله، ولبطلت ردود ابن تيمية على النصارى وغيرهم في هذا الباب كما سبق بيانه.

بل إننا لو قلنا بأن الجهة منقبة، وهي أنّ المشركين اتخذوها آلهة لهم، وهم يعتقدون أن تلك الآلهة عبيد لله، فهذا لا يغيّر من الأمر شيئا، لأنهم في نهاية المطاف يعتقدون في أصنامهم أنها آلهة ويصرحون بذلك تصرّحا، وكفى بهذا سخفا وتناقضا وقبحا وشركا وكفرا، فليت شعري كيف يُعدّ هذا منقبةً لهم تسردونها من جملة مناقبهم، وهي أن المشركين مع ادعائهم ألوهية أصنامهم كانوا يعتقدون أنها عبيد لله؟! فمثل هذا التناقض والسفه فضلا عن أنه شرك كيف يُعدّ منقبة؟ هذا طبعاً إن ثبت أنهم قالوا عن أصنامهم إنها عبيد لله، ودونه خرط القتاد كما سبق!!

1 مجموع الفتاوى (16/34)، دقائق التفسير (1/325)

2 مجموع الفتاوى (1/158)، وانظر أيضا: مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 235)

الفصل الثاني مناقب المشركين في العبادات والأعمال الصالحة

تمهيد

المشركون عند ابن تيمية " كانوا تارةً يعبدون الله وتارةً يعبدون غيره"¹، وقال ابن عبد الوهاب بأن النبي ﷺ "أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجّون ويتصدّقون"⁽²⁾، ونحوه قول حفيده بأنهم كانوا "يعبدونه ويخلصون له أنواعا من العبادات"⁽³⁾. وكذا قول الأفغاني بأن "المشركين كانوا يعبدون الله تعالى أيضًا بكثير من العبادات الظاهرة والباطنة"⁴.

وقد ذكر السلفية عبادات كثيرة ونسبوها إلى المشركين، وتزايدت هذه العبادات مع الزمن، فقد كانت عبادة المشركين عند ابن تيمية مقتصرة على أنهم "يحجّون إلى البيت ويطوفون به ويقفون بعرفات"⁵، ثم جاء ابن عبد الوهاب فتقدم قليلا وأضاف لهم الصدقة فقال بأنهم كانوا "يتعبدون ويحجّون ويتصدّقون"⁽⁶⁾، وأما حفيده فأضاف إليهم أيضا "الذبح والنذر والدعاء"⁽⁷⁾، ثم جاء آخرون فنسبوا إلى المشركين عبادات أخرى "كالصلاة .. والصوم .. والطهارة والغسل من الجنابة ، وكان فيهم الزكاة"⁸. وسيأتي بسط هذه العبادات واحدةً تلو الأخرى بحول الله.

ونحن نجيب عن هذه المنقبة بشكل عام، وهي أنهم كانوا يعبدون الله فنقول وبالله التوفيق: إن هذه المنقبة تردّها آيات كثيرة جدا فضلا عن الأخبار والآثار والمعقول ونصوص ابن تيمية نفسه وأتباعه، وفيما يلي بسط ذلك:

1 مجموع الفتاوى (354 /27)

(2) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14، وقاله أيضا في كتابه الجواهر المضية (ص: 4).

(3) تيسير العزيز الحميد ص27.

4 جهود علماء الحنفية (1 /213)

5 مجموع الفتاوى (354 /27)

(6) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14، وقاله في كتابه الجواهر المضية (ص: 4)

(7) تيسير العزيز الحميد ص27.

8 جهود علماء الحنفية (1 /213)

أولاً: الآيات: ففي القرآن آيات كثيرة نصّت على أن المشركين يعبدون الأصنام ولا يعبدون الله، وفيما يلي بعضها:

(1) { فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ } [هود: 109]،

أي "فلا تك في شك يا محمد مما يعبد هؤلاء المشركون من قومك من الآلهة والأصنام أنه ضلال وباطل، وأنه بالله شرك"¹

(2) { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا } [النحل: 73]، أي "هذه الأوثان التي تُعبد من

دون الله، لا تملك لمن يعبدها رزقا، ولا ضرا"²، و"المراد من الآية ذكر عجز الأصنام عن إيصال نفع أو دفع ضرر"³.

(3) { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ } [يونس: 18]، قال القرطبي: "يريد

الأصنام"⁴، وقال الطبري "وذلك هو الآلهة والأصنام التي كانوا يعبدونها"⁵.

(4) { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا } [الحج: 71]، قال الشوكاني: "أي: إنهم

يعبدون أصناما لم يتمسكوا في عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه"⁶.

(5) { وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [الفرقان: 17]، أي "ويوم نحشر هؤلاء المكذبين

بالساعة العابدين الأوثان، وما يعبدون من دون الله من الملائكة والإنس والجن"⁷.

1 جامع البيان ط هجر (590 / 12)

2 جامع البيان (306 / 14)

3 تفسير السمعي (189 / 3)

4 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (470 / 10)

5 جامع البيان ط هجر (142 / 12)

6 فتح القدير للشوكاني (3 / 553)، وانظر: فتح البيان في مقاصد القرآن (82 / 9)

7 جامع البيان (415 / 17)

(6) { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا } [الفرقان:

55]، قال الزجاج: لأنه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الله لأن عبادتهم للأصنام معاونة

للشيطان¹. اهـ

(7) { أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ } [الصفات: 22،

23]، أي "من الآلهة"² و"من الأصنام"³، "والشياطين"⁴، "وإبليس"⁵.

(8) { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْمَى } [الزمر: 3]، قال مجاهد هنا: «قريش تقوله للأوثان،

ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزير»⁶. اهـ فهم يصرحون في هذا الآية بأنهم لا

يعبدون الله وإنما يعبدون الأصنام والأوثان ليتقربوا إليه تعالى بزعمهم، لأنهم "كانوا يقولون ليس

لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى، فنحن نعبد بعض المقرّبين من عباد الله وهم الملائكة،

ثم إنهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبده تمثالا وصورة واشتغلوا بعبادته على هذا التأويل...."⁷،

"فظنوا أنهم لا يمكن لهم الوصول إلى الله تعالى مباشرة إلا بواسطة الصالحين الذين لهم مكانة

1 فتح البيان في مقاصد القرآن (9/ 326)، فتح القدير للشوكاني (4/ 97)

2 جامع البيان ط هجر (19/ 519)

3 تفسير السمعي (4/ 396)

4 فتح القدير للشوكاني (4/ 448)

5 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (18/ 23)

6 جامع البيان (20/ 157)

7 مفاتيح الغيب (20/ 357)، أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت 606هـ)، دار إحياء التراث العربي

— بيروت، ط 3/ 1420 هـ . وانظر استدلال السلفية بنص الرازي هذا:

مقال على الشبكة العنكبوتية على موقع "ملتقى أحباب الله"، بعنوان "حقيقة شرك مشركي الجاهلية" لعبد الله الأحمد، وهذا رابطته:

<http://www.ahbabullah.com/vb/showthread.php?t=26058>

وانظر أيضا ما كتبه المدعو أبو معاذ الحضرمي الأثري تحت عنوان: "الإيمان بالربوبية أم توحيد الربوبية عند المشركين؟؟" وهذا رابطته:

<http://www.kulalsalafiyeen.com/vb/showthread.php?t=43732>

ومقال "الاستغاثة والرد على محمد علوي المالكي"

<https://www.saaaid.net/Doat/almuwahid/7.htm>

عند الله.. وكانوا يقيسون الله تعالى بملوك الدنيا.. فكانوا على هذا الأساس يدعونهم ويستغيثون بهم في المهمات ويندرون لهم ويعبدونهم بأنواع العبادات"¹. إذ المَلِك في الدنيا لا يحسن بأحد رعيته أن يرفع إليه حاجته مباشرة "إمّا لدناءته وإما لإساءة تقدّمت منه.."²، فكذلك الأمر بالنسبة لله فبينه وبين خلقه وسطاء، والله "إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم؛ فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله؛ كما أن الوسائط عند الملوك: يسألون الملوك الحوائج للناس؛ لقربهم منهم والناس يسألونهم؛ أدبا منهم أن يباشروا سؤال الملك؛ أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك"³؛ وهذا قياس فاسد إذ حاجتهم "يكفي في طلبها طاعة الله عزّ وجلّ ودعاؤه والخضوع له، كما يقتضيه مقام العبوديّة.."⁴.

إذن هم ما اتخذوا الأصنام إلا ليعبدوها وسطاء بدل أن يعبدوا الله قياسا منهم على ملوك الدنيا، وهذا هو "حقيقة دين قريش قبل مبعث النبي ﷺ أنهم يتخذون شفعا؛ يدعونهم ويدجون لهم ويهتفون بأسمائهم، يقولون لسنا أهلاً لسؤال الله، فيتخذون وسائط أقرب منهم إلى الله ليشفعوا لهم ويسألوا الله لهم"⁵، فاتخذوا تلك الوسائط "آهة يستجلبون بعبادتها المنافع ويستدفعون بها المضار ويتخذونها وسائل تقربهم إليه وشفعاء يستشفعون بها إليه"⁶. "فقد اتخذوا آهة وأصناما يعبدونها من

-
- 1 جهود علماء الحنفية (1/ 208) وانظر أيضا: تيسير العزيز الحميد (ص: 499)، وانظر إغاثة اللفهان لابن القيم (1/ 62) قوله: فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى.. اهـ وانظر: مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 413)، وإعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (1/ 327)، وانظر أيضا الشرك في القديم والحديث ص560
 - 2 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (3/ 851)
 - 3 مجموع الفتاوى (1/ 126)، وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى أيضا (1/ 134): إن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك؛ بل هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون: إنها تماثيل الأنبياء والصالحين وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله؛ وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى. اهـ
 - 4 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (3/ 851)
 - 5 شرح كشف الشبهات لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص: 29)
 - 6 درة تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7/ 391)

دون الله لتشفع لهم عند الله¹، فصرفوا "أنواع العبادات لمخلوقين مثلهم، مدعين أن أولئك المعبودين يشفعون لهم عند الله بتلك العبادات التي يصرفونها لهم"².

ولذا قال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 73، 74]: "قال الزجاج: لا تجعلوا لله مثلاً لأنه واحد لا مثل له، وكانوا يقولون: إن إله العالم أجلّ من أن يعبده الواحد منا، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب، كما أن أصغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك"³، ويبان ذلك أن "عبدة الأوثان كانوا يقولون: إن إله العالم أجل وأعظم من أن يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب أو نعبد هذه الأصنام، ثم إن الكواكب والأصنام عبيد الإله الأكبر الأعظم، والدليل عليه العرف، فإن أصغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فكذا هاهنا فعند هذا قال الله تعالى لهم: اتركوا عبادة هذه الأصنام والكواكب ولا تضربوا لله الأمثال التي ذكرتموها وكونوا مخلصين في عبادة الإله الحكيم القدير"⁴.

فمنشأ عبادتهم للأصنام إذن أنهم لا يرون أنفسهم أهلاً لأن يعبدوا الله مباشرة، وأنهم أقل شأنًا من أن يعبدوه بدون وسطاء، فلذا رأوا أنهم بحاجة لأشخاص أو كائنات أرفع منهم يعبدونهم ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله في أمور الدنيا لأنهم منكرون للآخرة كما سبق، فاختروا عبادة الأصنام كوسيط، فإذا كيف سيعبدون الله مباشرة كما تزعمون في الجهة المقابلة؟! فمن جهة أنتم تقررون أنهم اتخذوا وسطاء عبدوهم من دون الله لأنهم لم يروا أنفسهم أهلاً لعبادة الله مباشرة، ومن جهة تقررون أن المشركين كانوا يعبدون الله بأنواع من العبادات بل يُخلصون بعض العبادات له تعالى!! كيف يستقيم هذا؟! لو

1 جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة ص 853

2 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 976

3 فتح القدير للشوكاني (3/ 215) وانظر أيضا: فتح البيان في مقاصد القرآن (7/ 284).

4 مفاتيح الغيب (20/ 246) ط/ دار التراث.

رأى المشركون أنفسهم أهلاً لعبادة الله مباشرة لما عبدوا تلك الأصنام، وما جعلوها وسطاء يعبدونها من دون الله، وسيأتي المزيد حول ذلك¹.

وقال تعالى: { فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ } [قريش: 3] أي "فليقيموا بموضعهم ووطنهم من مكة، وليعبدوا ربَّ هذا البيت"²، "فليوحده بالعبادة"³، أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين... والمعنى: إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة"⁴، "وقيل: أي ليألفوا عبادة رب الكعبة، كما كانوا يألفون الرحلتين"⁵، "والعبادة التي أمروا بها عبادة الله وحده دون إشتراك الشركاء معه في العبادة، لأن إشتراك من لا يستحق العبادة مع الله الذي هو الحقيق بما ليس بعبادة أو لأنهم شغلوا بعبادة الأصنام عن عبادة الله فلا يذكرون الله إلا في أيام الحج في التلبية على أنهم قد زاد بعضهم فيها بعد قولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك"⁶.

فحاصل معنى الآية أن مشركي قريش أمروا أن يشتغلوا بعبادة الله بدل أن يشتغلوا بعبادة أصنامهم، وهذا يعني أنهم لم يكونوا يعبدون الله أصلاً، أو يكون معنى الآية أنهم أمروا بعبادة الله وحده دون أن يعبدوا معه أصنامهم، وهذا يعني أنهم لم يكونوا يعبدون الله وحده، وإنما يشركون معه أصنامهم في العبادة، وعلى كلا الاحتمالين فهذا يعني أن مشركي قريش لم يكونوا يعبدون الله وحده بتاتا.

1 انظر: ص (601) عند قولي: (وأصناماً يعبدونها من دون الله لتشفع لهم)

2 جامع البيان ط هجر (652 / 24)

3 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (466 / 14)

4 فتح القدير للشوكاني (608 / 5)

5 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (507 / 22)، ونقله الطبري عن ابن عباس، انظر: جامع البيان ط هجر

(652 / 24).

⁶ التحرير والتنوير (560 / 30)

9) وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3)}

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ { [الكافرون: 4.1]، وهذه آيات صريحة في المقصود ومع ذلك نسوق

كلام المفسرين وكلام ابن تيمية وأتباعه فيها:

1. روى الطبري وغيره من حديث ابن عباس أن سورة "الكافرون" نزلت ردا على قول قريش للنبي

"تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة"¹، ثم قال الطبري: (لا أعبد ما تعبدون) من الآلهة والأوثان

الآن (ولا أنتم عابدون ما أعبد) الآن (ولا أنا عابد) فيما أستقبل (ما عبدتم) فيما مضى (ولا

أنتم عابدون) فيما تستقبلون أبدا (ما أعبد) أنا الآن، وفيما أستقبل². اهـ

2. وقال ابن أبي زمنين: {ولا أنتم عابدون ما أعبد}، أي: إنكم تعبدون الأوثان ولا تعبدون الله

(4) {ولا أنا عابد ما عبدتم} من الأوثان³.

3. وقال الزمخشري: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}، أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على

عبادته⁴. اهـ

4. ونحوه قول ابن تيمية: فما أنا عابد قط ما عبدتم في وقت من الأوقات. وأنتم مع ذلك ما أنتم

عابدون ما أعبد بل أنتم بريئون مما أعبد. وأنا بريء مما تعبدون، مأمور بالبراءة منه⁵.

5. وقال ابن تيمية في موضع آخر بأن المعنى هنا: "لا أعبد إلهكم ولا تعبدون إلهي"⁶.

1 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (711 /15)

2 جامع البيان ط هجر (702 /24)

3 تفسير ابن أبي زمنين (169 /5)

4 تفسير الكشاف مع حاشية الطبري (607 /16)

5 مجموع الفتاوى (560 /16)

6 مجموع الفتاوى (568 /16)

6. وقال ابن القيم: أي لا أنتم تعبدون معبودي، ومعبوده هو كان عارفاً به دونهم وهم جاهلون..
وقيل إنهم كانوا يقصدون مخالفته حسداً له وأنفة من اتباعه، فهم لا يعبدون معبوده، لا كراهيةً
لذات المعبود ولكن كراهيةً لاتباعه وحرصاً على مخالفته في العبادة¹.
7. وقال ابن القيم أيضاً: فقله "لا أعبد ما تعبدون" براءة محضة، "ولا أنتم عابدون ما أعبد"
إثبات أن له معبوداً يعبده وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات².
8. وقال ابن كثير: "لا أعبد ما تعبدون" يعني من الأصنام والأنداد. ولا أنتم عابدون ما أعبد،
ولا أنتم عابدون ما أعبد وهو الله وحده لا شريك له³.
9. وقال صديق حسن خان: فقله (لا أعبد ما تعبدون) براءة محضة (ولا أنتم عابدون ما أعبد)
إثبات أن له معبوداً يعبده وأنهم بريئون من عبادته⁴.
10. وقد ذكر القرطبي أثر ابن عباس السابق، ثم قال: وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأوثان،
فإذا ملّوا وثناً، وسئموا العبادة له، رفضوه، ثم أخذوا وثناً غيره بشهوة نفوسهم، فإذا مروا
بجارة تعجبهم ألقوا هذه ورفعوا تلك، فعظّموها ونصبوها آلهة يعبدونها، فأمر عليه السلام أن
يقول لهم: "لا أعبد ما تعبدون" اليوم من هذه الآلهة التي بين أيديكم. ثم قال: (ولا أنتم عابدون
ما أعبد) وإنما تعبدون الوثن الذي اتخذتموه، وهو عندكم الآن. "ولا أنا عابد ما عبدتم"، أي
بالأمس من الآلهة التي رفضتموها، وأقبلتم على هذه، "ولا أنتم عابدون ما أعبد" فإني أعبد
إلهي..⁵

1 بدائع الفوائد لابن القيم (1/ 234)

2 بدائع الفوائد لابن القيم (1/ 243)

3 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (14/ 486)

4 فتح البيان في مقاصد القرآن (15/ 420)

5 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (22/ 536)

فإن قيل: ولكن ذكر القرطبي قولاً آخر بأن "معنى الآيات وتقديرها: قل يا أيها الكافرون لا أعبد الأصنام التي تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله عزوجل الذي أعبدته، لإشراككم به، واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون، لأنكم تعبدونه مشركين"¹، فقوله "لإشراككم به" أي في العبادة، أي أنهم يعبدون الله تارة والأصنام تارة أخرى كما أشار إلى ذلك القرطبي بقوله "واتخاذكم الأصنام" أي اتخذكم إياها آلهة تعبدونها مع الله.

وهذا ما ذهب إليه ابن تيمية، فذكر أن معنى قوله {ولا أنتم عابدون ما أعبد} هو أن الله "نفى عنهم عبادة معبوده. فهم إذا عبدوا الله مشركين به لم يكونوا عابدين معبوده"². لأنهم "عبدوا الله وغيره، فمعبودهم المجموع وهو لا يعبد المجموع، لا يعبد إلا الله وحده"³. "والمشرك إذا كان يعبد الله ويعبد غيره فيقال: إنه يعبد الله وغيره أو يعبد مشركاً به. لا يقال: إنه يعبد مطلقاً"⁴. وقال السعدي: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} لعدم إخلاصكم في عبادته، فعبادتكم له المقتزئة بالشرك لا تسمى عبادة⁵. اهـ

قلنا: إن أردتم أن المشركين حين يعبدون الله يشركون به في العبادة، أي يريدون بعباداتهم عبادة الله وعبادة أصنامهم في الوقت نفسه، فهذا غير مسلم لأن الكفار كانوا يأتون بصورة عبادة الله تعالى في بعض الأشياء، ويعبدون الأوثان وغيرها يزعمون أنها شركاء"⁶، وعلى التسليم به فلا يفيدكم لأن النتيجة هي أنهم "إذا عبدوا الله مشركين به لم يكونوا عابدين معبوده"، أي لم يكونوا عابدين لله لأنهم "عبدوا الله وغيره، فمعبودهم المجموع، وهو لا يعبد المجموع، لا يعبد إلا الله وحده" كما قال ابن تيمية

1 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (22/ 536)

2 مجموع الفتاوى (16/ 600)

3 مجموع الفتاوى (16/ 598)

4 مجموع الفتاوى (16/ 574)

5 تفسير السعدي (ص: 936)، وانظر: ص (72) من هذا الكتاب .

(6) التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن (3/ 175)، وعمدة القاري (8/ 346)

سابقاً، إذن فهم ما عبدوا الله، وإنما عبدوا مجموع شيئين وهما: الله والأصنام، وقصدهم الأول هو عبادة الأصنام، لأنهم يفرون من مجرد ذكر الله وحده فضلاً عن أن يعبدوه وحده كما سيأتي.

وأما إن زعمتم أن المشركين يخصصون أوقاتاً خاصة أو أمكنة معينة يعبدون الله فيها وحده لا شريك له كما زعم الحفيد في قوله "يعبدونه ويخلصون له أنواعاً من العبادات" (1) فمعنى يخلصون له أنواعاً من العبادات أي يفعلونها لله وحده ولا يشركون فيها أصنامهم، أقول: إن زعمتم هذا فهو باطل بنصّ قوله تعالى { ذَلِكُمْ بَأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا } [غافر: 12]، وبنصّ آيات أخرى مشابهة يبلغ مجموعها ست آيات؛ منها قوله { وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } [الإسراء: 46]، ومنها قوله تعالى: { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الزمر: 45]، وسيأتي بسطه (2).

وأصرحها قوله تعالى حكاية عن عاد قوم هود: { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا مَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الأعراف: 70]، أي "أجئتنا لنعبد الله وحده"³، "أي لنخصه بالعبادة ونذر ما كان يعبد آباؤنا"⁴، فقد "أنكروا عليه . عليه السلام . مجيئه لتخصيصه تعالى بالعبادة والإعراض عن عبادة الأوثان"⁵. و"هذا استنكار منهم لدعائه إلى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله"⁶، فهم "استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والإعراض عما أشرك به

(1) تيسير العزيز الحميد ص 27.

(2) انظر: ص (152)

³ تفسير أبي السعود (3/ 239)

⁴ محاسن التأويل للقاسمي (5/ 117)

⁵ تفسير أبي السعود (3/ 239)

⁶ فتح القدير للشوكاني (2/ 248)

أباؤهم انهماكا في التقليد وحباً لما ألفوه"¹ من "اتخاذ الأصنام شركاء معه، حباً لما نشؤوا² عليه، وإلماً لما صادفوا آباءهم يتدينون به"³.

فالآية صريحة في أنهم يرفضون رفضاً قاطعاً تخصيص الله بالعبادة تمسكاً بتقليد آبائهم في ذلك، أي أنهم ورثوا الشرك كآبائهم عن كآبائهم، فمن أين زعمتم أنهم يخلصون بعض العبادات لله وحده؟! ثم إننا لو سلّمنا جدلاً بهذا الزعم وهو أن المشركين يُخصّون الله ببعض العبادات له وحده في بعض الأوقات مثلاً فهذا لا يستقيم ما داموا يقولون بأن أصنامهم آلهة مع الله، فهم بمجرد قولهم عن الأصنام إنها آلهة فقد أشركوا في عبادة الله، ولا سيما على قولكم بأن "الإله" هو المعبود، فسواء عبدوا أصنامهم أم لم يعبدوها، وسواء عبدوا الله وحده دائماً أم أحياناً، وسواء أشركوا في عبادته دائماً أم أحياناً؛ فكل ذلك سيّان ما داموا يقولون بالوهية غير الله سبحانه.

بل هذا - أي قولهم بالوهية الأصنام - أسوأ مما لو أنهم يعبدون الأصنام ولا يقولون بالوهيتها، كما لو أن شخصاً قال بأن الخمر حلال ومع ذلك هو لا يشربها، فهذا أسوأ حالاً ممّن يشربها معتقداً بأنها حرام، لأن الأول قد وقع في الكفر باستحلاله للخمر ولو لم يشربها، وأما الثاني فقد فسق بشربه للخمر ولم يقع في الكفر ما دام أنه يعتقد حرمتها، نعم عبادة الأصنام بمجرد كفر سواء قال عنها آلهة أو لم يقل، ولكن الغالب أنه لن يعبدها إلا بعد أن يقول بأنها آلهة أو أرباب، وإن فُرض أنه عبدها دون أن يدّعي فيها الألوهية أو الربوبية فهذا يسهل رده عن عبادتها إذ يقال له: ما الداعي لعبادتك لها ما دام أنك لا تعتقد بالوهيتها ولا ربوبيتها؟ بخلاف ما لو اعتقد ألوهيتها أو ربوبيتها فهذا يجب أولاً أن تبطل له ألوهيتها وربوبيتها ثم بعد ذلك تقنعه بعدم عبادتها، بل لا حاجة حينها لتقنعه بذلك فهو بنفسه سيترك عبادتها بعد أن يقتنع بأنها ليست آلهة، فلا جرم أن القول بالوهية الأصنام أسوأ من عبادتها، لأن القول بالوهيتها يلزم منه عبادتها، وأما عدم اعتقاد ألوهيتها فيلزم منه عدم عبادتها.

1 تفسير البيضاوي (ص: 33-)

2 المشهور أن تكتب: نشؤوا، وسيأتي التنبيه على ذلك في الهامش، انظر: ص (159).

3 تفسير الكشاف مع حاشية الطيبي (6/439)

فإن قيل: يمكن أن تكون "ما" في قوله "ما أعبد": "مصدرية لا موصولة أي لا تعبدون عبادتي" كما قال ابن القيم¹، أي لأن عبادتي خالية من الشرك بخلاف عبادتكم. قلنا: هذا حكاة ابن القيم ثم رده بقوله: وليس هذا بشيء إذ المقصود براءته من معبوديهم، وإعلامه أنهم بريئون من معبوده تعالى، فالمقصود المعبود لا العبادة². ونحوه قول ابن كثير: أي ولا أعبد عبادتكم، أي لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، "ولا أنتم عابدون ما أعبد" أي لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم³. اهـ

ثانياً: الأحاديث والأخبار التي صرح فيها المشركون بأنهم كانوا يعبدون الأصنام ولا يعبدون الله:

(1) وروى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي يقول: كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جنوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا به⁴. اهـ

(2) وأخرج النسائي والحاكم وصححه . ووافقه الذهبي . عن ابن عباس، في هذه الآية {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه}، قال: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر⁵، وأخرجه ابن أبي حاتم بلفظ: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجراً أحسن منه يعبد الآخر ويترك الأول⁶.

(3) وقال ابن هشام في سيرته: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب (رضوان الله عليه) ، فقال له: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ..⁷.

1 بدائع الفوائد لابن القيم (1/ 234)

2 بدائع الفوائد لابن القيم (1/ 234)

3 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (14/ 486)

4 صحيح البخاري بتحقيق البغا (4/ 1591).

5 السنن الكبرى للنسائي (10/ 254)، المستدرک - الهندية (2/ 454)

6 تفسير ابن أبي حاتم (8/ 2699)

7 السيرة النبوية لابن هشام (1/ 335)

(4) وقال سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة

الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعا ، أفحين

أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيههم أموالنا ..؟¹ .اه

(5) وروى الحاكم في المستدرک عن المغيرة بن شعبه أنه قال للفرس يوم القادسية : «والله ما

ذاك جاء بنا، ولكننا كنا قوما نعبد الحجارة والأوثان، فإذا رأينا حجرا أحسن من حجر

ألقيناه وأخذنا غيره، ولا نعرف ربا حتى بعث الله إلينا رسولا من أنفسنا²، وأورده العيني

عن المغيرة بلفظ: كنا في بلاء شديد نعبد الشجر والحجر ونمصّ الجلد والنوى، فبعث إلينا

رب السموات رسولا منا، فأمرنا بعبادة الله وحده وترك ما يعبد آباؤنا³.

(6) وقال ابن إسحاق: واجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه

وينحرون له .. فخلص منهم أربعة نفر نجيا .. ثم ذكرهم ومنهم ورقة بن نوفل .. إلى أن يقول:

فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجرٌ

نُطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم (دينا)، فإنكم والله

ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلبسون الحنيفة دين إبراهيم .. 4.اه

1 دلائل النبوة للبيهقي (3/ 430) ، وانظر : الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله - ﷺ - والثلاثة الخلفاء (1/ 424)،
الروض الأنف ت الوكيل (6/ 271)، السيرة النبوية لابن كثير (3/ 202)، السيرة الحلبية (2/ 426)، السيرة النبوية على ضوء
القرآن والسنة (2/ 284)، سيرة ابن هشام ت السقا (2/ 223)، عيون الأثر (2/ 91)، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث
(ص: 603)، الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (10/ 66).

2 المستدرک على الصحيحين للحاكم (3/ 510) قال الحاكم: «غريب صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

3 عمدة القاري شرح صحيح البخاري (16/ 400)

4 السيرة النبوية لابن هشام (1/ 222)، وانظر أيضا: أديان العرب في الجاهلية للجارم ص193، العقيدة في الله لعمر الأشقر (ص:

292)، دار النفائس بالأردن، ط12.

(7) وقال ابن القيم نقلا عن الكلبي في سياق كلامه عن أهل مكة¹: "فكان الذي حملهم على عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالبيت حبا للبيت .. ثم عبدوا ما استحسنوا ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم غيره فعبدوا الأوثان".

ثالثا: من المعقول، وهو أن النبي ﷺ نفسه اختلف في شأنه قبل البعثة هل كان يعبد الله؟ فقد ذهب بعض العلماء إلى النبي ﷺ قبل البعثة لم يكن يعبد الله، قال الزمخشري في قوله {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته. فإن قلت: فهلا قيل: ما عبدت، كما قيل: ما عبدتم؟ قلت: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث، وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت².

ولكن هذا رده أصحاب الحواشي على الكشاف، قال ابن المنير: هذا الذي قاله خطأ .. إلى أن يقول: والحق أن النبي ﷺ كان يعبد قبل الوحي ويتحنث في غار حراء. اهـ ثم بيّن ابن المنير أن الفعل "أعبد" جاء هنا بصيغة المضارع ليس لأن النبي ﷺ لم يكن يعبد الله قبل البعثة كما زعم الزمخشري، وإنما المقصود أنه لم يكن يعبد الله قبل البعثة بالعبادات "الخاصة التي لم تعلم إلا بالوحي.. أو يكون مجيئه مضارعا لقصد تصوير عبادته في نفس السامع وتمكينها من فهمه"³. اهـ

وقال الطيبي هنا نقلا عن الإمام أحمد: "من قال: إن رسول الله -ﷺ- كان على دين قومه، فهو قول سوء، أليس كان لا يأكل ما دُبِح على النصب؟"⁴، ثم نقل عن ابن عقيل الحنبلي قوله "كان رسول الله -ﷺ- متدينا قبل بعثته، بما يصح عنده أنه من شريعة إبراهيم عليه السلام.."⁵، وهذا

1 إغاثة اللفهان (2/ 210)، والخبر أيضا في «سيرة ابن هشام ت طه عبد الرؤوف سعد» (1/ 72) كما سيأتي.

2 تفسير الكشاف مع حاشية الطيبي (16/ 607)

3 الكشاف بحاشية ابن المنير "الانتصاف" (4/ 809)، دار الكتاب العربي، وانظر: المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف للزمخشري في ضوء ما ورد في كتاب الانتصاف ص 1115، صالح الغامدي، دار الأندلس.

4 فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (16/ 608)

5 فتوح الغيب (16/ 608)

أحد أقوال ثمانية في هذه المسألة، ثانيها: أنه عليه الصلاة والسلام كان قبل البعثة متعبداً بشريعة موسى، الثالث: بشريعة عيسى، الرابع: بشريعة نوح حكاه الآمدي، الخامس: بشريعة آدم حكى عن ابن برهان، السادس: أنه كان يتعبد بشريعة من قبله من غير تعيين، السابع: أن جميع الشرائع شرع له.. الثامن: الوقف في ذلك وهو مذهب أبي المعالي الإمام واختاره الآمدي¹، وهذا كله على ما اختاره ابن الحاجب والبيضاوي أنه كلف التعبد بشرع² قبل البعثة، وقيل: إن الذي عليه الجمهور أنه لم يتعبد بشرع قبل البعثة و"إنما كان يتعبد بما يلقي إليه من نور المعرفة"³.

والحاصل أن ما ذكره الزمخشري من أن النبي ﷺ لم يكن يعبد الله قبل البعثة قد رده عليه كثير من العلماء بالقول بأن النبي ﷺ قبل البعثة كان يتعبد الله إما بما يلقي إليه من نور المعرفة، أو بشرع أحد من الأنبياء قبله وإن اختلفوا في تعيينه، مع اتفاق الجميع بمن فيهم الزمخشري أن النبي ﷺ لم يعبد الأوثان قط، وإنما الخلاف فيما وراء ذلك، وهو: هل كان النبي ﷺ يعبد الله قبل البعثة أو أنه كان لا يعبد شيئاً قط حينها؟ والذي عليه الجمهور أنه كان يعبد الله إما بشرع قبله أو بما يلقي في قلبه من المعرفة، والذي ذهب إليه الزمخشري أنه لم يكن يعبد الله حينئذ ولا كان يعبد الأوثان، فإذا كان - وهذا محلّ الشاهد هنا - اختلف في عبادة النبي ﷺ قبل البعثة، فكيف يقال في المشركين عبدة الأوثان إنهم كانوا يعبدون الله ويخلصون له بعض العبادات!؟

وغني عن البيان أن العلماء الذين ردّوا على الزمخشري قوله هنا إنما دفعهم إلى ذلك هو القول بعصمة الأنبياء حتى قبل البعثة، إذ هم عليهم السلام "معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته.."⁴، كما سبق بيانه⁵، أما المشركون فليس هناك ما يوجب القول بأنهم كانوا يعبدون الله، وإنما هم يعبدون أوثانهم في كل وقت وآن، وينفرون من مجرد ذكره تعالى وحده كما سيأتي بحول الله سبحانه⁶.

¹ عمدة القاري للعيني (1/ 111)

² عمدة القاري للعيني (1/ 110)

³ عمدة القاري للعيني (1/ 110)

⁴ الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشمني (2/ 109)

⁵ انظر: ص (19)

⁶ انظر: ص (144)

رابعاً: **نصوص أتباع ابن تيمية** في أن المشركين لم يكونوا يعبدون الله وإنما كانوا يعبدون الأصنام:
 (1) قال ابن عبد الوهاب "اعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحَدَث إذا دخل في الطهارة"¹.

(2) ويقول ابن عبد الوهاب أيضاً: إِنَّ النبي ﷺ ظهر على أناسٍ متفرّقين في عباداتهم منهم مَنْ يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأحجار والأشجار، ومنهم مَنْ يعبد الشمس والقمر"².

(3) وقال الحفيد إن العبادة "لا تنفع مع الشرك، بل لا تسمى عبادة شرعاً"³.

(4) وقال المعلمي اليماني: وفي تفسير الخازن: .. توهّموا أن عبادتها أشدُّ في تعظيم الله من عبادتهم إيّاه، وقالوا: لسنا بأهل أن نعبد الله، ولكن نشتغل بعبادة هذه الأصنام؛ فإنها تكون شافعة لنا عند الله"⁴.

(5) وقال الفوزان: أي أن مشركي العرب الذين بُعث إليهم مُحمَّد - ﷺ - يعبدون الله ولم تنفعهم هذه العبادة لما كانت مخلوطة بالشرك الأكبر.. أن عبادة الله إذا دخلها شيء من الشرك أفسدها فلا تصح العبادة إلا مع الإخلاص"⁵.

(6) قال الغنيمان: فقد اتخذوا آلهة وأصناماً يعبدونها من دون الله لتشفع لهم عند الله"⁶. وهذه النصوص يستفاد منها أن المشركين لم يكونوا يرون أنفسهم أهلاً لعبادة الله، فلذلك وسّطوا الأصنامَ وعبدوها لتقرّبهم إلى الله . بزعمهم .. وأنهم إن كانوا يعبدون الله فعبادتهم فاسدة؛ لما داخلها من الشرك من جراء عبادتهم للأصنام، والعبادة لا تصح إلا مع الإخلاص، وبدونه لا تسمى

1 القواعد الأربعة لابن عبد الوهاب ص402، 403، ضمن الجامع للمتون العلمية جمع الشمراني.

2 القواعد الأربعة لابن عبد الوهاب ص401، ضمن الجامع للمتون العلمية جمع الشمراني.

3 تيسير العزيز الحميد، ط الصميعي (ص: 167) .

4 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 311)

5 شرح كتاب كشف الشبهات - الفوزان (ص: 17)

6 جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة ص853

عبادة أصلاً، تماماً كمن يصلي بغير وضوء فهو في حقيقة الأمر لم يصل أصلاً لانتفاء أحد شروط صحة الصلاة وهو الوضوء، وعليه فعبادتهم لله ليست عبادة أصلاً، لما خالطها من الشرك في عبادتهم سواء، ولذا قال تعالى: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون: 3].

ثم لو سلمنا توهماً أنهم كانوا يعبدون الله وحده في بعض الأحيان . ودونه خطر القتاد . فإنما كانوا يعبدونه من أجل الدنيا لا الآخرة لأنهم كفرون بها، ولذلك قال تعالى " {أم اتخذوا من دون الله شفعاء} أي: قد اتخذوهم؛ ليشفعوا لهم زعموا ذلك لديناهم ليصلحها لهم ولا يقرون بالآخرة"¹، وسيأتي بسطه²، وهذا شرك آخر سوى عبادتهم للأصنام وهو أنهم يعبدون الله ليوسع عليهم دنياهم وأموالهم وأولادهم ليستمتعوا وليفخروا بها ويتعالوا بها على الناس، ولذا قال تعالى: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [سبأ: 37]، وقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} [الحج: 11، 12].

وبذلك نكون قد تكلمنا عن منقبة عامة وهي عبادة المشركين لله لنخلص إلى أنهم ما كانوا عابدين إلا لأصنامهم وشهواتهم وأهوائهم، وفيما يلي نبسط العبادات والأعمال الصالحة التي نسبوها للمشركين واحدة واحدة بشكل مفصل في مبحثين؛ الأول: في العبادات، والثاني: في الأعمال الصالحة، وبالله التوفيق.

المبحث الأول: العبادات التي نسبها السلفية للمشركين في الجاهلية

نسب السلفية إلى المشركين عدة عبادات؛ منها الطهارة والصلاة والصيام والزكاة والحج، ونسب هذا في خمسة مطالب بحول الله .

¹ تفسير ابن أبي زمنين (4/ 114)

² انظر: ص (578) عند قولي : (لديناهم ليصلحها لهم)

المطلب الأول: الطهارة

ذكر السلفية أن المشركين كانوا يتعبدون الله بـ "الطهارة والغسل من الجنابة"¹ فكانوا يتطهرون من الحدث الأكبر والأصغر، أما تطهرهم من الأكبر وهو الجنابة فهو ((شائع معروف، وأما التطهر من الأصغر فهذا إنما عند طائفة قليلة منهم، حتى النساء كن يغتسلن من الحيض، وهذا معروف عنهم في عدة أحوال وعدة آيات، ومنها قصة امرأة كانت مع زوجها في سفر، وكان معها ماء قليل، فلما كانت في السفر انقطع عنها الحيض فأرادت أن تغتسل، فأخذت الماء فاغتسلت به، وكان قليلا فلم يبلغ أن يعتمها وبقي عطاشا ليس معها ماء، قيل إنهما هلكا في ذلك، فضرب بهما مثل في هذا، وقد قال في ذلك الفرزدق في بعض أبيات نسبت إليه، قال:

وكنت كذات الحيض لم تُبقِ ماءها .. ولا هي من ماء العذابة طائل²

فكان العرب يعنون بمسألة الطهارة؛ طهارة الجنب وطهارة الحائض، فهذا النوع تعبد منهم بذلك)³، ومما يدل أيضا على أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة ما ورد من "أن أبا سفيان حين رجع إلى

1 جهود علماء الحنفية (212 / 1)

2 قال الزبيدي في «تاج العروس من جواهر القاموس» (3/ 325): «(والعذابة)، كسحابة: (الرحم)، قال الفرزدق:

وكنت كذات العرك لم تبق ماءها

ولا هي من ماء العذابة طاهر

وقد رويت العذابة بالذال المعجمة وهذا البيت أورده الجوهري:

ولا هي مما بالعذابة طاهر

قال ابن مكرم: وكذلك وجدته في عدة نسخ. قلت: وجدت أيضا في هامش نسختي من لسان العرب: والعذاب ماء الرحم، (و)

العذابة: (الركب)، محرّكة: منبت العانة، وقد تقدم، ولم يذكره غير المؤلف. قلت: ويمكن أن يفسر به البيت السابق على رواية

الجوهري»

3 شرح كشف الشبهات - صالح آل الشيخ (ص: 37)

مكة، ورجع فل قريش من بدر، نذر أن لا يمَس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو مُحمَّدًا ﷺ"1، وقد جاء في كتاب المحبّر «وكانوا يغتسلون من الجنابة. ويغسلون موتاهم»2، ونقله عنه الشهرستاني3.

والجواب: أنه غير مسلم لعدم صحة الأخبار التي استدلووا بها، وبيان ذلك :

أولاً: أما خبر أبي سفيان ففيه علّتان، الأولى في السند حيث فيه شبهة انقطاع، وبيان ذلك أن مُحمَّد بن إسحاق قال: فكان أبو سفيان كما حدثني مُحمَّد بن جعفر بن الزبير، ويزيد بن رومان، ومن لا أتهم، عن عبد الله بن كعب بن مالك ..حلف ألا يمَس رأسه ماء من جنابة حتى..4هـ وعبد الله بن كعب بن مالك تابعي ثقة توفي (سنة 97 أو 98هـ)5، وأبو سفيان توفي سنة 34 على أبعاد تقدير كما ذكر ذلك الذهبي6، وابن كعب هذا وإن كان يحتمل أن يكون سمع هذه الحادثة من أبي سفيان مباشرة باعتبار أن ابن كعب هذا "يقال ولد في عهد النبي ﷺ"7، و"له رواية عن عمر بن الخطاب"8، وهو أقدم وفاةً من أبي سفيان، بيد أن المزني وابن حجر وغيرهما9 لم يذكروا له رواية عن أبي سفيان وإنما معظم روايته عن صغار الصحابة رضي الله عنهم كابن عباس وجابر وغيرهما10، ﷺ أجمعين.

1 البداية والنهاية ط هجر (5/ 302)، والفل: المهزوم. وانظر: مقال على الشبكة بعنوان "الرد على شبهة إسلام الشعوب لإظهارهم بعض شعائر الإسلام"، وهذا رابطته: http://mesbeh.blogspot.com.tr/2017/01/blog-post_01.html

2 «المحبر» (ص319)، لأبي جعفر مُحمَّد بن حبيب بن أمية الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)، رواية أبي سعيد السكري، ت شتيتز، دار الآفاق الجديدة بيروت، ١٩٤٢م.

3 «الملل والنحل» (3/ 93)

4 السير والمغازي لابن إسحاق (ص: 310)، ت سهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ط1/ 1978م. وانظر أيضا دلائل النبوة لليهقي (3/ 166)

5 الطبقات الكبرى ط دار صادر (5/ 273)، تهذيب الكمال (15/ 474)، إكمال تهذيب الكمال لمغلطاي (8/ 137)، تهذيب التهذيب ط الرسالة (2/ 408).

6 سير أعلام النبلاء ط الرسالة (2/ 10)، تقريب التهذيب - عوامة (ص: 275).

7 "تقريب التهذيب" ص / 349

8 إكمال تهذيب الكمال لمغلطاي (8/ 137)

9 الطبقات الكبرى ط دار صادر (5/ 273)، تهذيب الكمال (15/ 474)، تهذيب التهذيب (5/ 323)، إكمال تهذيب الكمال لمغلطاي (8/ 137) الطبقات الكبرى ط دار صادر (5/ 273).

10 تهذيب الكمال (15/ 474)

العلّة الثانية في المتن: إذ جاء هذا الخبر بلفظ آخر ليس فيه الغسل من الجنابة أصلاً، فقد روى البيهقي بسنده عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب ، قال : كان أبو سفيان بن حرب حين قتل الله عز وجل من قتل من المشركين يبدر من أشرافهم ومن وجوههم ، نذر أن لا يمس رأسه دهن ولا غسل، ولا يقرب أهله حتى يغزو مُجَدًا ويحرق في طوائف المدينة¹.

ثانياً: أما بيت الفرزدق فأورده عنه الجوهري² وابن سيده³ وابن منظور⁴ والزبيدي⁵ بلفظ:

(فكنت كذات العرّك لم تبق ماءها .. ولا هي من ماء العداة طاهر)

وأورد الأزهري وكذا ابن منظور في موضع آخر⁶ بلفظ: وكنت كذاتِ الحيض لم تُبقِ ماءها..7. والخطب في ذلك يسير لأن "كذات العرّك" في الرواية الأولى معناه "كذاتِ الحيض" كما في الرواية الثانية تقول: عرّكت المرأة أي حاضت⁸.

وأما القصة التي رويت فيه وهي أن "امرأة كانت مع زوجها في سفر وكان معها ماء قليل .." فلم أجدها بعد طول بحث، وعلى فرض ثبوتها فليس فيها أن هذه القصة حدثت في الجاهلية بل الظاهر أنها في الإسلام إذ الفرزدق شاعر إسلامي، والظاهر أنه يتكلم عن حادثة حدثت في العصر الإسلامي لا الجاهلي، إذ لو حدثت في الجاهلية لاشتهرت ولوجدناها عند شعراء آخرين سابقين على الفرزدق ولم ينفرد هو بها، بل إن بيت الفرزدق نفسه ليس في ديوان الفرزدق المطبوع⁹!

1 دلائل النبوة للبيهقي (3/ 164)

2 الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (1/ 178)، ولكن ورد شطره الثاني بلفظ: " ولا هي ممّا بالعدابة طاهر "

3 المحكم والمحيط الأعظم (2/ 24)، والمخصص - ابن سيده (2/ 38)

4 لسان العرب لابن منظور (4/ 2832)

5 تاج العروس من جواهر القاموس (3/ 325)

6 لسان العرب لابن منظور (4/ 2853)

7 تهذيب اللغة (2/ 193)

8 تاج العروس (27/ 269)

9 انظر حاشية تاج العروس ، ط/ الكويت (3/ 325).

أما قول صاحب المحبّر: وكانوا يغتسلون من الجنابة. ويغسلون موتاهم.. فهذا خبر منقطع لم يذكر له سنداً، وسيأتي أن صاحب كتاب المحبّر توفي سنة 245 هـ، أي بعد عصر الجاهلية بقرون! ثالثاً: على التسليم بصحة الأخبار السابقة فهي محمولة على أفراد بعينهم وليست هي ((أحكاماً عامة، مشت بين جميع العرب، فكلام مثل هذا، هو كلام مغلوط، لا يمكن أن يقال، على الرغم من التعميم الذي يذكره أهل الأخبار، مثل قولهم: "وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى ويصلبون قاطع الطريق". وقولهم: "وكانوا يغتسلون من الجنابة"، وأمثال ذلك. فقد عودنا أهل الأخبار على هذا التعميم، الذي أخذوه من أفواه الرواة دون نقد ولا تمحيص، وآية ذلك أنهم يعودون فيناقضون أنفسهم وما قالوه في مواضع أخرى..))¹.

فإن قيل: ذكر السهيلي أن الغسل في آية الوضوء لم يبيّن لكون "الغسل من الجنابة كان معلوماً قبل الإسلام بقية من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فهو من الشرائع القديمة"² وتبعه الدميري كما ذكر ذلك الحلبي وغيره³. قلنا هذا استبعده الحلبي نفسه حينما تكلم عن إسلام الفاروق وكان مما قال: "وقولها: لا تغتسل من الجنابة، ربما يخالف قول بعضهم إن أهل الجاهلية كانوا يغتسلون من الجنابة، وكون عمر كان يخالفهم في ذلك من البعيد.."⁴، وسيأتي كلامه بتمامه.

وهؤلاء الأفراد القليلون الذين كانوا يغتسلون من الجنابة في الجاهلية كان يقال عن أحدهم حنيف، قال الزجاج: الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت، ويغتسل من الجنابة، ويحج البيت. فلما جاء الإسلام كان الحنيف هو المسلم لعدوله عن الشرك⁵. اهـ والذي يظهر أن هؤلاء الأفراد كانوا أصلاً ممن ترك عبادة الأوثان، قال جواد علي: "وقد أضاف بعضهم اعتزال الأصنام والاعتسال من الجنابة إلى ما

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10/ 324)

2 الروض الأنف ت الوكيل (5/ 405)

3 انظر السيرة الحلبية المسماة: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (2/ 287)، دار الكتب العلمية ط2. الروض الأنف للسهيلي ت الوكيل (5/ 405)، مواهب الجليل لشرح مختصر الخليل (1/ 261)، ت زكريا عميرات، دار عالم الكتب. وحاشية الروض المربع (1/ 267).

4 السيرة الحلبية (1/ 465).

5 تاج العروس من جواهر القاموس (23/ 170)

ذَكَرْتُ"¹، ومنهم مثل أبي قيس صرمة بن أبي أنس، قال ابن إسحاق: وكان رجلاً قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة وتطهر من الحائض من النساء وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها².

قال جواد علي تعليقا على ذلك: إن الاغتسال من الجنابة والابتعاد عن الحائض من الشعائر التي راعاها المتدينون من أهل الجاهلية، من الموحدين الذين تأثروا باليهودية، لكنهم لم يدخلوا فيها ولا في النصرانية، بل أمسكوا عن الديانتين، ودعوا إلى عبادة واحد أحد، وماتوا على هذا الدين³. اهـ وعلى فرض أنه ثمة من كان يغتسل من الجنابة وهو مشرك فهو لا يفعل ذلك تدينا إذ هو لا يؤمن بيوم الدين أصلا، وإنما يفعله على سبيل العرف والعادة والتأثر بأهل الكتاب كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

رابعا: ثمة ما يدل على أن أهل الجاهلية من العرب وغيرهم من مشركي الأمم الأخرى لا يهتمون بالطهارة بل يعيونها، وبيان ذلك فيما يلي:

(1) قال تعالى: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدًا أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ} [التوبة: 108]، و"هذا فيه إشارة إلى أن المنافقين أصحاب المسجد الضرار أنهم رجس"⁴، وفيه إشارة إلى أن المشركين والكفرة لا يتطهرون، بدليل أنه قد "نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية"⁵، وجاء أنهم "كانوا يستنجون

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (27 / 12)

2 سيرة ابن هشام ت طه عبد الرؤوف سعد (2 / 113)، السيرة الحلبية (2 / 19)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (3 / 200)، الروض الأنف ت الوكيل (4 / 301)، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله - ﷺ - والثلاثة الخلفاء (1 / 300).

3 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11 / 218)

4 شرح كتاب التوحيد للحازمي (41 / 10، ت.ش).

5 أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعا. كذا في الدر المنثور للسيوطي (7 / 528).

بالماء وكانوا لا ينامون الليل كله وهم على الجنابة"¹، وجه الدلالة من ذلك أنه لو كانت الطهارة سمة عامة أهل الجاهلية لما مُدح أهل قباء بها، ولما كان لتخصيصهم بالمدح بذلك وجه، كما هو ظاهر.

لا يقال: أنه ورد أنه "سألهم رسول الله ﷺ عن طهورهم الذي أثنى الله به عليهم. قالوا: كنا نستنجي بالماء في الجاهلية، فلما جاء الله بالإسلام لم ندعه قال: فلا تدعوه"²، ففيه تصريح بأن الاستنجاء بالماء كان في الجاهلية. لأننا نقول: إن صحّت هذه الرواية فهي نفسها تدلّ على أن أهل قباء فحسب كانوا في الجاهلية يفعلون ذلك ولا تدلّ على أن كلّ أهل الجاهلية كذلك، كما أنه قد ورد أنهم قالوا "كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أديبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا"³، وفي رواية قالوا: "يا رسول الله، إنا لنجد مكتوبا في التوراة الاستنجاء بالماء ونحن نفعله اليوم"⁴، فدلّ ذلك على أن أهل قباء أخذوا ذلك من اليهود وتوراقتهم حيث كانوا يعيشون معهم، بخلاف مشركي قريش فهم في مكة وبعيدون عن اليهود والتأثر بهم.

(2) قال تعالى: { وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْتَ يَتَطَهَّرُونَ } [الأعراف: 82]، قال قتادة: «عابوهم بغير عيب، وذموهم بغير ذم»⁵. وقال قتادة أيضا:

1 أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذي قال الله فيهم فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين؟ قال: كانوا يستنجون.. كذا في الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (532 /7).

2 أخرج ابن مردويه عن ابن عمر، انظر: الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (533 /7)، وروى الطبري نحوه في جامع البيان ط هجر (693 /11) عن فضيل بن مرزوق عن عطية مرسل.

3 أخرج أحمد وابن خزيمة والطبراني والحاكم وابن مردويه عن عويم بن ساعدة الأنصاري. كذا في الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (7) /529.

4 أخرج ابن أبي شيبه وأحمد والبخاري في تاريخه وابن جرير والبعثي في معجمه والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة. كذا في الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (7) /530

5 جامع البيان ط هجر (307 /10)

عابوهم بغير عيب: أي إنهم يتطهرون من أعمال السوء¹. وقال الطبري: "يتطهرون" عمّا فعله نحن من إتيان الذكران في أدبارهم². وقال الألويسي: "إنهم أناس يتطهرون لتعليل للأمر على وجه يتضمن الاستهزاء أي إنهم أناس يزعمون التطهر والتنزه عن أفعالنا أو عن الأقدار ويعدون فعلنا قدرا"³، وهذا كله فيه إشارة إلى بعد مشركي قوم لوط خاصة والمشركين عامة عن الطهارة بل واستنكارهم لها.

(3) جاء في سيرة ابن هشام في وصية أبي بكر لرافع بن أبي رافع الطائي.. وكان نصرانيا: وتحتج هذا البيت وتغتسل من الجنابة.. فقال: وأما الجنابة فسأغتسل منها إن شاء الله⁴. اهـ وهذا ظاهر في أنه كان لا يغتسل من الجنابة قبل ذلك، وإذا كان رافع هذا لا يغتسل مع الجنابة مع كونه من أهل الكتاب والشرائع السابقة، فكيف يغتسل أهل الجاهلية منها؟! الجنابة مع كونه من أهل الكتاب والشرائع السابقة، فكيف يغتسل أهل الجاهلية منها؟!!

لا يقال لعل رافعا هذا فقط كان لا يغتسل منها خلافا لسائر النصارى وأهل الكتاب ولا سيما أن "المسيح صلوات الله وسلامه عليه كان يتدين بالطهارة ويغتسل من الجنابة ويوجب غسل الحائض" كما ذكر ابن القيم⁵، لأننا نقول: ما عليه النصارى هو خلاف ذلك كما ذكر ذلك ابن القيم نفسه . وغيره⁶، حيث يقول: فهذا أصل دينهم وأساسه الذي قام عليه وأما فروعه وشرائعه فهم مخالفون للمسيح في جميعها.. ثم يذكر كلامه السابق في تطهر المسيح من الجنابة ثم يقول مباشرة: "وطوائف النصارى عندهم أن ذلك كله غير واجب وأن الإنسان يقوم من على بطن المرأة ويبول ويتغوط ولا يمس ماء ولا يستجمر والبول..ولو تغوّط وبال وهو

1 جامع البيان ط هجر (97 / 18)

2 جامع البيان ط هجر (96 / 18)

3 روح المعاني (2 / 20)

4 السيرة النبوية لابن هشام (2 / 624)

5 هداية الحيارى لابن القيم، (ص: 141)، الناشر: الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة.

6 الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية للطوفي (1 / 274)، والأجوبة الفاخرة للقراني ص 133.

يصلبي لم يضره..ويقولون إن الصلاة بالجنابة والبول والغائط أفضل من الصلاة بالطهارة لأنها حينئذ أبعد من صلاة المسلمين واليهود والقرب إلى مخالفة الأمتين"¹.

أصلا النصارى يرون أن الطهارة والنجاسة هي أمر معنوي تكون في الأفكار، وفي ذلك يقول متى في إنجيله في الإصحاح 15، الفقرة 16 وما بعدها "فقال يسوع: هل أنتم أيضا حتى الآن غير فاهمين، ألا تفهمون بعد أن كل ما يدخل الفم يمضي إلى الجوف ويندفع إلى الخارج، وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر، وذاك ينجس الإنسان، لأن من القلب تخرج أفكار شريرة: قتل، زنى، فسق، سرقة، شهادة زور، تجديف، هذه هي التي تنجس الإنسان، وأما الأكل بأيدي غير مغسولة فلا ينجس الإنسان"، هذا فضلا عن أن قائلهم - وهو سان جيروم - قال "الذي اغتسل في دم المسيح لا يحتاج إلى تنظيف" و"لا يحتاج إلى استحمام" كما زاد ترتوليان²، ولكون النصارى لا يتدينون بغسل الجنابة قال الإمام مالك: لا يجبر الرجل المسلم امرأته النصرانية على أن تغتسل من الجنابة³. اهـ

4) جاء في قصة إسلام الفاروق أنه قال لأخته: "ما هذه الصحيفة هاهنا؟ فقالت لي: دعها عنك يا بن الخطاب⁴، فإنك لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهر، وهذا لا يمسه إلا المطهرون"⁵. قال الحلبي معقبا: "وقولها: لا تغتسل من الجنابة، ربما يخالف قول بعضهم

1 هداية الحيارى (ص: 141).

2 انظر مقال على الشبكة بعنوان: "الطهارة والنجاسة في المسيحية"، نقلا عن كتاب الجنس في التاريخ والنص ص 136 وانظر

المقال على الرابط التالي: <http://www.ebnmaryam.com/vb/t204146.html>

3 المدونة، ت عميرات (1/ 137).

4 كذا جاء في مسند البزار والشريعة للأجري وغيرهما من كتب السنة بإثبات همزة "ابن"، مع أن القاعدة أنها تحذف بعد النداء، جاء في قواعد الإملاء (ص: 40) للأستاذ عبد السلام محمد هارون (المتوفى: 1408هـ)، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، 1993م. : إذا وقعا بعد (يا) التي للنداء، نحو: "يا بن الذي دان له المشرقان"، يابنة عبد الله. اهـ وكذا جاء بحذفها. أي كما هي القاعدة. في جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير» للسيوطي (14/ 442)، وفي «فقه السيرة النبوية لمنبر الغضبان» (ص199)، و«التفسير والبيان لأحكام القرآن» للطريفي (4/ 2106).

5 انظر السيرة الحلبية (1/ 465)، وفقه السيرة النبوية لمنبر الغضبان (ص: 199)

إن أهل الجاهلية كانوا يغتسلون من الجنابة، وكون عمر كان يخالفهم في ذلك من البعيد، وكون هذا منها يحمل على أنه لم يغتسل غسلًا يعتدّ به يخالفه ما تقدم عن بعض الروايات أنه لما اغتسل دفعت له تلك الرقعة¹.

(5) ورد أنه "قد تعنت وفد ثقيف في شروطهم للدخول في الإسلام، فطلبوا أن يبقوا على الكثير من أنماط الجاهلية مثل شرب الخمر والزنا.. وأن لا يغتسلوا من الجنابة.."²

(6) روى الشيخان من حديث أبي ثعلبة مرفوعاً "أما ما ذكرت أنك بأرض قوم أهل الكتاب تأكل في آنتهم فإن وجدتم غير آنتهم فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا فاغسلوها ثم كلوا فيها". قال الكرمانى: وإنما نهي عنها بعد الغسل للاستقذار وكونها معادة للنجاسة³. اهـ. وقال الحافظ: فتمسك بهذا الأمر من رأى أن استعمال آنية أهل الكتاب تتوقف على الغسل لكثرة استعمالهم النجاسة، ومنهم من يتدبّن بملابستها⁴. اهـ وقال ابن عثيمين بأن: كثيراً من أهل العلم حملوا هذا الحديث على أناس عُرفوا بمباشرة النجاسات من أكل الخنزير، ونحوه⁵.

(7) أن بعض الفقهاء كره استعمال أواني المشركين وملابسهم "لأنهم لا يتحرزون من النجاسات"⁶، و"لأن أوانيهم لا تخلو من أطمعتهم وذبائحهم ميتة فلا تخلو أوانيهم من وضعها فيها"⁷. فـ "الظاهر من حال أوانيهم النجاسة، فإنهم يستحلّون الخمر والميتة ويشربون ذلك، ويأكلون من قصاعهم وأوانيهم، فكره الأكل والشرب فيها قبل الغسل اعتباراً للظاهر، كما كره التوضؤ بسؤر الدجاجة؛ لأنها لا تتوقّى من النجاسات في

1 السيرة الحلبية (1/ 465).

2 مرويات غزوة حنين وحصار الطائف (2/ 746)، إبراهيم بن إبراهيم قريبي، المدينة النبوية، ط1/1412هـ.

3 الكواكب الدراري للكرمانى (20/ 80)

4 فتح الباري (9/ 606)

5 الشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عثيمين (1/ 84)

6 كفاية النبيه في شرح التنبية لابن الرفعة (1/ 217)، وانظر مغني المحتاج (1/ 31)

7 المغني لابن قدامة (1/ 111)، حاشية الروض المربع (1/ 107)

الغالب"¹. اه وإن كان آخرون من الفقهاء ذهبوا إلى أن المشركين "حكمهم حكم أهل الكتاب وثيابهم وأوانيهم طاهرة مباحة الاستعمال ما لم يتيقن نجاستها.. لأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه توضعوا من مزادة مشركة"².

خامسا: العجب أنكم عدتم الغُسلَ من الجنابة في حديث أبي سفيان منقبة، ولم تعدوا مثلبة أن أبا سفيان هم بقتل النبي ﷺ حيث "حلف ألا يمسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا - ﷺ - فخرج في مئتي راكب من قريش ليبر يمينه!!"

والحاصل أن المشركين كانوا يعيدون عن الطهارة، بل منكرين لها كما تشير بعض الآيات والأخبار كما سبق، ولم يثبت أنهم كانوا يتطهرون الطهارة الشرعية ولا هم يعرفونها أصلا، لأنها أحكام شرعية لا تُعرف إلا من قبل الأنبياء، وهم منكرون للأنبياء، وأيضا فإن الطهارة كسائر الأعمال الصالحة لا عبرة بها ما لم تُفعل تدينا أي رجاء الثواب وخوف العقاب في الآخرة "فإن القربات كلها مبناه على النيات ولا يكون الفعل عبادة إلا بالنية والقصد، ولهذا لو وقع في الماء ولم ينو الغسل أو دخل الحمام للتنظيف أو سبح للتبرد لم يكن غسله قربة ولا عبادة بالاتفاق، فإنه لم ينو العبادة فلم تحصل له .."(3)، والمشركون منكرون ليوم الدين من أصله فأنى تكون طهارتهم عبادة رجاء الثواب أو خوف العقاب يوم الدين!؟

نعم قد يتطهرون من أجل التنظيف، والتنظيف ليس بالضرورة أن يُفعل تدينا إذ هو جبلة بشرية، بل المشاهد أن بعض الحيوانات تعني بنظافتها، وكما يقال إن الدجاجة تنظف تحتها، وعلى ذلك تُحمل الأخبار التي استدلت السلفية بها على أن أهل الجاهلية كانوا يتطهرون، أي أنها تُحمل على مجرد التنظيف منهم، إن لم تحمل تلك الأخبار على أناس قلائل كانوا على الحنيفية، هذا كله إن صحّت تلك الأخبار أصلا.

1 المحيط البرهاني في الفقه العماني (5/ 361)، نقلا عن محمد بن الحسن الشيباني

2 المغني لابن قدامة (1/ 111)

(3) إعلام الموقعين - (3 / 521)، ط/دار ابن الجوزي.

المطلب الثاني: الصلاة

فقد كان المشركون "يعبدون الله تعالى ببعض العبادات كالصلاة" (1)! بدليل حديث مسلم عن عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذر: يا ابن أخي²، صليت سنتين قبل مبعث النبي ﷺ، قال: قلت: فأين كنت توجه؟ قال: حيث وجهني الله³.

وكانوا يصلون صلاة الجنابة، فقد جاء في كتاب المحبر: وكانوا يكفنون موتاهم، ويصلون عليهم. وكانت صلاتهم أن يحمل الميت على سرير، ثم يقوم وليه فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه، ثم يقول: «عليك رحمة الله»، ثم يدفن⁴. وهذا ذكره غير واحد كالشهرستاني في الملل والنحل، وابن سعيد الأندلسي في نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب فقال «وكانوا يكفنون موتاهم، ويصلون عليهم. وكانت صلاتهم، إذا⁵ مات الرجل عُسِّل وحمل على سريره، أن يقوم وليه فيثني عليه ثم يدفن، ثم يقول: عليك رحمة الله»⁶.

والجواب: أن هذه منقبة ملققة، يردها العديد من الآيات والأحاديث التي تبين رفض المشركين السجود لله أو الصلاة له، بل كانوا يصدون الناس عن الصلاة في المسجد الحرام، وإن صلوا فصلاتهم تفسير وتصفيق استهزاء وتشويش على النبي ﷺ ومعارضة للقرآن، وإليك الأدلة على ذلك :

الدليل الأول: قوله تعالى: { وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } [الأنفال: 35]، قال الطبري: وما لهؤلاء المشركين ألا يعذبهم الله، وهم يصدون عن

(1) جهود علماء الحنفية (1 / 212) وانظر شرح كشف الشبهات - صالح آل الشيخ (ص: 37)

2 كذا وقع في نسخ صحيح مسلم وشروحه بإثبات همزة "ابن" هنا مع أن القاعدة أنها تحذف بعد النداء كما سبق التنبيه عليه. انظر: ص (82) عند قول: القاعدة أنها تحذف بعد النداء.

3 مقال على الشبكة بعنوان "الرد على شبهة إسلام الشعوب لإظهارهم بعض شعائر الإسلام".

4 «المحبر» (ص320).

5 كذا في المطبوع من نشوة الطرب: إذ مات!! والصواب (إذا مات) كما هو السياق، وكما جاء في الملل والنحل الذي ينقل عنه صاحب نشوة الطرب، انظر: «الملل والنحل للشهرستاني» (3 / 94).

6 «نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب» (ص80)، ابن سعيد الأندلسي، ت. د. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان - الأردن.

المسجد الحرام الذي يصلون لله فيه ويعبدونه، ولم يكونوا لله أولياء، بل أولياؤه الذين يصدونهم عن المسجد الحرام، وهم لا يصلون في المسجد الحرام "وما كان صلاتهم عند البيت"، يعني: بيت الله العتيق "إلا مكاء"، وهو الصفير.. وأما "التصدية"، فإنها التصفيق¹. اهـ ثم سرد الطبري أسانيد كثيرة عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين كابن عباس وابن عمر وقتادة والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم أنهم فسروا المكاء والتصدية بذلك. ومن جملة ذلك ما يلي:

1. ما رواه الطبري بسنده عن ابن عباس، قال: "كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله: {قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده} فأمروا بالثياب"².

2. عن سعيد، قال: "كانت قريش يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف يستهزئون به، يصفرون به ويصفقون، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: 35]³.

3. وروى عن مجاهد، قال: "المكاء: إدخال أصابعهم في أفواههم، والتصدية: التصفيق. قال: نفر من بني عبد الدار كانوا يخلطون بذلك كله على محمد صلى الله عليه وسلم صلواته"⁴.

4. ومن ذلك ما رواه الطبري بسنده عن قتادة أنه قال: كنا نحدث أن المكاء التصفيق بالأيدي، والتصدية صياح كانوا يعارضون به القرآن⁵.

5. وروى بسنده عن ابن إسحاق قال: ما كان صلاتهم التي يزعمون أنها يدرأ بها عنهم إلا مكاءً وتصدية، وذلك ما لا يرضي الله ولا يجب، ولا ما افترض عليهم ولا ما أمرهم به"⁶.

1 جامع البيان، للإمام الطبري، ط/ هجر (11/ 160)

2 جامع البيان (11/ 164)

3 جامع البيان (11/ 164)

4 جامع البيان (11/ 165)

5 جامع البيان (11/ 166)

6 جامع البيان (11/ 168)

6. ونقل أيضا عن ابن زيد أنه قال: المكاء: صفير كان أهل الجاهلية يعلنون به. قال: وقال في

المكاء أيضا: صفير في أيديهم ولعب¹.

إلى غير ذلك من الآثار الكثيرة التي استفاض السيوطي في الدر المنثور في ذكرها وتخريجها²، وكلها تبين أن صلاة المشركين كانت تصفيقا وتصفيرا، وهذا أقرّ به ابن تيمية وأتباعه بيد أنهم زعموا أن المشركين كانوا "يتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق"³ كما زعم الألباني ودمشقية⁴، وهذا قاله ابن عبد الوهاب فذكر أن مسائل الجاهلية: تعبدهم بالمكاء والتصدية⁵. ونحوه قول ابن تيمية قبله: فكان المشركون يجمعون في المسجد الحرام يصفقون ويصوتون يتخذون ذلك عبادة وصلاة، فذمهم الله على ذلك، وجعل ذلك من الباطل الذي نهى عنه⁶. وقال أيضا: فقد أخبر الله عن المشركين أنهم كانوا يجعلون التصدية والغناء لهم صلاة وعبادة وقربة يعتاضون به عن الصلاة التي شرعها الله ورسوله⁷. وقال "فدخل في هذا: كل ما اتخذ من عبادة، مما كان أهل الجاهلية يتعبدون به، ولم يشرع الله التعبد به في الإسلام، وإن لم ينوّه عنه بعينه، كالمكاء والتصدية"⁸.

والجواب عن ذلك: أن هذا غير صحيح وربما يكون محاولة لتخفيف وطأة هذا الفعل الشنيع من المشركين بزعم أنهم يفعلون هذا تقربا إلى الله بظنهم على الأقل؛ ذلك لأن الآثار السابقة عند الطبري تردّ هذا، لأنها تفيد أن المشركين فعلوا ذلك لعبا واستهزاء وتشويشا على النبي ﷺ في صلاته ومعارضة للقرآن "حتى لا يسمع الناس القرآن من النبي ﷺ، ويدل لهذا قوله تعالى: وقال الذين كفروا لا تسمعوا

1 جامع البيان (11 / 167)

2 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (7 / 118)

3 موسوعة الألباني في العقيدة (3 / 967)

4 موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 1258)

5 مسائل الجاهلية التي خالفهم فيها رسول الله ﷺ (ص: 12)، وانظر شرح مسائل الجاهلية لل فوزان (ص: 104)

6 مجموع الفتاوى (3 / 427)، وانظر أيضا (11 / 562)

7 مجموع الفتاوى (11 / 595) وانظر أيضا (11 / 296)

8 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1 / 371)، ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، ط7 / 1419 هـ

لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون"¹. فهذه الأفعال من التصفيق والتصفير "لا تكون عبادة، بل من شعائر الجاهلية"². و"ذلك مما زينهم لهم شياطين الإنس والجن؛ لأن العبادة لا تكون إلا بما شرعه الله سبحانه وتعالى"³. وقد أقرّ بذلك بعض السلفية كالشنيطي والفوزان وشكري الألوسي كما في نصوصهم هذه.

والحاصل مما سبق أن صلاة أهل الجاهلية هي التصفيق والتصفير يفعلون ذلك استهزاء ولعبا ومعارضة للقرآن وتشويشا على النبي ﷺ، فلذلك ذم الله أهل الجاهلية على هذه الصلاة كما قال ابن تيمية، وأن ذلك من تزيين الشياطين لهم كما قال الفوزان، وبالتالي فليست صلاتهم هذه عبادة بل شعيرة جاهلية باطلة كما قال شكري الألوسي، فكيف تكون هذه الصلاة منقبة لهم والحالة هذه؟!

الدليل الثاني: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ} [المرسلات: 47 - 48]، أي "وإذا قيل لهؤلاء المجرمين المكذّبين بوعيد الله أهل التكذيب به: اركعوا؛ لا يركعون". وذكر الطبري أن هذا عند البعض يكون في الآخرة حين يُدعون إلى السجود فلا يستطيعون، ثم نقل بسنده عن ابن عباس قوله: (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) يقول: يُدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا. اهـ إلى أن يقول: وقيل: عُني بالركوع في هذا الموضع الصلاة. ثم روى بسنده عن مجاهد، قوله: (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) قال: صَلَّوا. اهـ ثم قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك أن يقال: إن ذلك خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء القوم المجرمين أنهم كانوا له مخالفين في أمره ونهيه، لا يأتمرون بأمره، ولا ينتهون عما نهاهم عنه⁴. اهـ

الدليل الثالث: قال تعالى: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ.. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ} [المدثر: 43 - 46]، أي "قال المجرمون لهم: لم نك في الدنيا من المصلين لله.. وكنا نكذب بيوم المجازاة والثواب

1 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (2/ 414)

2 فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية ت علي مخلوف (ص: 119)

3 شرح مسائل الجاهلية للفوزان (ص: 104)

4 جامع البيان ط هجر (23/ 612)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (15/ 187)

والعذاب..¹، فقد "وصف أهل سقر بأنهم لم يكونوا من المصلين"². ولاحظ أن هؤلاء التاركين للصلاة هم أنفسهم الذين كذبوا بيوم الدين، وهم أنفسهم الذين كذبوا النبي ﷺ ونسبوه إلى السحر والشعر كما في آيات المدثر هذه! فهم جمعوا بين التكذيب وبين ترك الصلاة! حتى لا يقال إن هؤلاء التاركين للصلاة ليسوا من المشركين، وفي ذلك يقول السمعاني في تفسيره: "وكنا نخوض مع الخائضين" قال قتادة: كلما غوى قوم غوينا معهم. وقيل: كنا نخوض مع الخائضين في أمر محمد، ونسبه إلى السحر والشعر وغير ذلك³. اهـ فدلّت على "أن من الأسباب التي سلكتهم في سقر - أي أدخلتهم النار - عدم الصلاة، وعدم إطعام المسكين، وعدّ ذلك مع الكفر بسبب التكذيب بيوم الدين"⁴.

الدليل الرابع: قوله تعالى: {فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [القيامة: 31 - 32]، أي "فلم يصدق بكتاب الله، ولم يصل له صلاة، ولكنه كذب بكتاب الله، وتولى فأدبر عن طاعة الله"⁵. ونقل الطبري بسنده عن قتادة ومجاهد أن الآية نزلت في أبي جهل. وهو ما ذكره ابن القيم حيث قال: "فلا صدق ولا صلى..⁶ إنه أبو جهل". اهـ وقال د. سفر الحوالي: والآيات الواردة في ترك الصلاة إنما هي في الكفار.. فمن ترك الصلاة بالكلية فهو من جنس هؤلاء الكفار⁷. اهـ

الدليل الخامس: قوله تعالى: {فَمَا هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ} [الانشقاق: 20 - 22]، أي "فما هؤلاء المشركين لا يصدقون بتوحيد الله، ولا يقرون بالبعث بعد الموت.. وإذا قرئ عليهم كتاب ربهم لا يخضعون ولا يستكينون"⁸، والصلاة هي «ثانية في آيات الأمر بالجهاد وفي آيات وعيد الكفار، كما في قوله

1 جامع البيان ط هجر (451 / 23)

2 مجموع الفتاوى (612 / 7)

3 تفسير السمعاني (98 / 6)

4 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (7 / 123)، ونحوه في تيسير العزيز الحميد (ص: 264).

5 جامع البيان ط هجر (522 / 23)

6 الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطلة (ص: 450)

7 ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، د. سفر الحوالي (ص: 452).

8 جامع البيان ط هجر (257 / 24)

تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ } .. وفي ذم الكفار بتركها كما في قوله عز وجل: { فما لهم لا يؤمنون، وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون }، وقوله: { فلا صدق ولا صلى }¹.

الدليل السادس: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا } [الفرقان: 60]، فالكفار "إذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن.. تجاهلوا الرحمن، وقالوا: وما الرحمن؟ وأنكروا السجود له تعالى، وزادهم ذلك نفورا عن الإيمان والسجود للرحمن، وما ذكره هنا من أنهم أمروا بالسجود له وحده جلّ وعلا جاء مذكورا في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [فصلت: 37] ... وقد وبّجهم تعالى على عدم امتثال ذلك²، "وقوله: {وزادهم نفورا} يقول: وزاد هؤلاء المشركين قول القائل لهم اسجدوا للرحمن من إخلاص السجود لله، وإفراد الله بالعبادة بعدا مما دعوا إليه من ذلك فرارا"³. اهـ

وبعد فهذه طائفة من الآيات التي تنصّ على أن المشركين كانوا لا يصلون ولا يركعون ولا يسجدون وأن صلاتهم كانت عبارة عن تصفير وتصفيق استهزاء بالنبي ﷺ وتشويشا عليه ومعارضة للقرآن، وهذا كله يدحض الزعم بأن المشركين كانوا يصلون وأن هذا من مناقبهم.

وثمة أخبار تفيد إباء المشركين الصلاة؛ فمن ذلك ما ساقه الحافظ في الإصابة فقال: وأخرج أحمد⁴ من طريق حبة العربي، قال: رأيت عليا ضحك على المنبر حتى بدت نواجذه، ثم تذكر قول

1 «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (2/ 623)

2 أضواء البيان للشنقيطي (6/ 382)

3 جامع البيان ط هجر (17/ 482)

4 مسند أحمد ط الرسالة (2/ 166)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 9/ 125: "إسناده حسن". وقال محققو المسند: إسناده ضعيف جدا، يحيى بن سلمة بن كهيل متروك الحديث، وفي حديثه عن أبيه مناكير، وحبة العربي ضعيف أيضا. وأخرجه الطيالسي (188)، والبخاري (751) من طريق يحيى بن سلمة، بهذا الإسناد. وأخرجه مختصرا أبو يعلى (447) من طريق الأجلح، عن سلمة بن كهيل، به. وانظر آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 512)

أي طالب وقد ظهر علينا وأنا أصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم بيطن نخلة، فقال له: ماذا يصنعان؟ فدعاه إلى الإسلام، فقال: ما بالذي تقول من بأس، ولكن والله لا يعلوني استي أبدا¹.

وفي سيرة ابن هشام أن وفد ثقيف وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة وَأَلَا يَكْسِرُوا أَوْثَانَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ فقال رسول الله ﷺ: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه. فقالوا: يا مُجَّد فسنتؤتيكها، وإن كانت دناءة². والحديث أصله عند أبي داود في سننه بلفظ "ولا خير في دين ليس فيه ركوع"³، "فسمي الصلاة ركوعا، لأنه بعضها"⁴، "كما سمي الصلاة قراءةً في قوله تعالى: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}، وإنما خصّ الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع، ألا ترى أن المُشاهد من صلاة اليهود والنصارى خلوها من الركوع؟"⁵.

وعلاوة على ذلك فإن المشركين كانوا يمنعون النبي ﷺ وأصحابه عن الصلاة في المسجد الحرام وفيما يلي الأدلة على ذلك:

الدليل الأول: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا..} [البقرة: 114]، أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن قريشا منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة

- 1 الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (7/ 112)، تصوير دار الكتب العلمية. و"الإست" العجز أو حلقة الدبر، وهزتها همزة وصل زائدة، قال الجوهري: وأصلها سنّة وأستاه، مثل جمل وأجمال. انظر: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (8/ 3216)، تاج العروس (36/ 392) المعجم الوسيط (1/ 416).
- 2 السيرة النبوية لابن هشام (2/ 538)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (6/ 297)
- 3 انظر: سنن أبي داود ت الأرنبوط (4/ 637) ولفظه بتمامه: "فاشترطوا عليه أن لا يحشروا ولا يعشروا ولا يجبوا، فقال رسول الله ﷺ -: "لكم أن لا تحشروا ولا تعشروا، ولا خير في دين ليس فيه ركوع". قال الأرنبوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات، إلا أن في سماع الحسن -وهو البصري من عثمان بن أبي العاص- اختلافا.
- 4 النهاية في غريب الحديث والأثر (1/ 238)
- 5 شرح سنن أبي داود لابن رسلان (13/ 94)، دار الفلاح، ط2016/1.

في المسجد الحرام فأنزل الله الآية¹. اه وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال: هؤلاء المشركون حين صدوا رسول الله ﷺ عن البيت يوم الحديبية². وقد ذكر الطبري قولاً آخر وهو أن الآية نزلت في النصارى ورجحه ومما قاله: وكان معلوماً أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تحريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله ﷺ وأصحابه من الصلاة فيه³. فأقر بأن قريشاً منعوا النبي من الصلاة في المسجد الحرام. وهكذا فإن أهل الجاهلية كانوا يقومون بـ "منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعي في خرابها"⁴.

الدليل الثاني: قوله تعالى {هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الفتح: 25]، وقوله: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا} [المائدة: 2]، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الحج: 25]، قال الشنقيطي: وما ذكره جل وعلا في هذه الآية من أن من أعمال الكفار الصّد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام بينه في غير هذا الموضوع⁵. اه ثم ذكر عدة آيات في ذلك.

الدليل الثالث: روى البخاري بسنده عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله..⁶ اه.

وأما حديث مسلم أن أبا ذر صلى سنتين أو ثلاثة قبل أن يسلم، فالجواب عنه فيما يلي:

1 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (1/ 561)

2 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (1/ 563)، جامع البيان ط هجر (2/ 444)

3 جامع البيان ط هجر (2/ 445)

4 زوائد مسائل الجاهلية (ص: 27)

5 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (5/ 60)

6 صحيح البخاري بتحقيق البغا (3/ 1345)

أولاً: ذكر بعض شراح مسلم¹ أن أبا ذر كان على الحنيفية في الجاهلية، فقد أخرج ابن سعد من طريق الواقدي عن أبي معشر قال: كان أبو ذر يتأله في الجاهلية، ويقول لا إله إلا الله ولا يعبد الأصنام².

ثانياً: لم يرد رواية تبين كيفية هذه الصلاة، لذا قيل: إن "الظاهر أنها كانت مطلق عبادة ودعاء وثناء على الله"³.

وكونها دعاء أقرب؛ لأن هذا هو المعروف في معنى الصلاة في لغة العرب، قال الجوهري: الصلاة: الدعاء، قال الأعشى:

وقابلها الريحُ في دَجِّها * وصَلَّى على دَجِّها وارْتَسَمَ⁴

"أي دعا لها ألا تَحْمُضَ ولا تَفْسُدَ"⁵، ومنه حديث "إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب.. وإن كان صائماً فليصل"، أي فليدع لهم بالخير والبركة"⁶. ومنه قوله تعالى "ووصلَّ عليهم إن صلاتك سَكَنٌ لهم { أي ادع لهم"⁷، "وسمي الدعاء صلاة لأنه منها"⁸، ومنه قول الأعشى:

"تقول بنتي وقد قربت مرتحلاً .. يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي .. يوماً فإن جنب المرء مضطجعا

أي: عليك مثل الذي دعوت"⁹. "يعني قولها: يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا"¹⁰.

1 الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (24/ 13)، فتح الملهم للعثماني (11/ 165)

2 طبقات ابن سعد (4/ 222)

3 فتح المنعم شرح صحيح مسلم (9/ 461)

4 الصحاح للجوهري (6/ 2402)، وانظر: تاج العروس (38/ 437)، لسان العرب لابن منظور (4/ 2490)

5 تاج العروس (38/ 437)

6 مقاييس اللغة لابن فارس (3/ 300)، تهذيب اللغة (12/ 165).

7 المغني لابن قدامة (2/ 5).

8 المغرب في ترتيب المغرب للمطرزي (1/ 480)، مكتبة أسامة بن زيد بجلب، ط1/ 1979.

9 سفر السعادة وسفير الإفادة للسخاوي (2/ 882) وانظر: المحكم لابن سيده (8/ 372)، خزانة الأدب للبغدادي (2/ 296).

10 المغرب في ترتيب المغرب (1/ 480)

ثالثا: لم يرد من أين أخذ أبو ذر هذه الصلاة، لذا قال القرطبي في المفهم هنا "هذا إلهام للقلوب الطاهرة، ومقتضى العقول السليمة؛ فإنها توفق للصواب، وتلهم للرشد"¹. وإذا كانت إلهاما فالأصل فيها المنع عند ابن تيمية فقد نقل عن الخطابي مُقَرَّرا: "ليس لمن ألهم شيئا من الخير أن يفعله حتى يجد فيه أثرا فإذا وجد فيه أثرا كان نورا على نور"².

رابعا: أنه بعد اللتي واللتي هذا خاص بأبي ذر كما ورد في الخبر نفسه فمن أين جعلتم أهل الجاهلية بأسرهم يصلون؟ كيف؟! والآيات السابقة تدفع هذا الزعم! وقد قلنا سابقا: إن كنتم تعولون على بعض العرب وأفرادهم في هذه المناقب، فإن بعض العرب كانوا يتجنبون عبادة الأوثان فما بالكم لا تذكرون ذلك أيضا في مناقبهم؟! أم أن هذا يفسد عليكم نظريتكم التي أحد أصولها أن العرب إنما كفروا لسبب وحيد وهو عبادة الأصنام؟!

صلاة الجنازة في الجاهلية

وأما ما جاء في كتاب المحبر من أنهم كانوا يصلون الجنازة ، فالجواب عنه؛ أولا: ما سبق من أن صاحب كتاب المحبر مات في القرن الثالث الهجري أي بعد عصر الجاهلية بدهور! والظاهر أنه ينقله عن الكلبي كما فعل الشهرستاني حيث قال تحت عنوان «تقاليد العرب التي أقرها الإسلام، وبعض عاداتهم»: قال مُجَدِّد بن السائب الكلبي: كانت العرب في جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها.. قال: وكانوا يكفنون موتاهم، ويصلون عليهم³، وسبق أن بيّنا حال الكلبي من أنه متهم بالكذب.

ثانيا: هذه الصلاة كانت مجرد الدعاء للميت، كما في المحبر نفسه حيث جاء فيه: وكانوا يكفنون موتاهم، ويصلون عليهم. وكانت صلاتهم أن يحمل الميت على سرير، ثم يقوم وليه فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه ثم يقول: «عليك رحمة الله»، ثم يدفن.. وقال رجل من كلب، جاهلي، لأبيه: أعمرو! إن هلكت وكنث حيا ... فإني مُكثِر لك من صلاتي

1 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (6/ 392)، الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (13/ 24)

2 مجموع الفتاوى (11/ 595)

3 «الملل والنحل» (3/ 94)

وأجعل نصف مالي لابن سلمى ... حياتي إن حييت وفي مماتي¹

ثالثا: إن صلاة الجنازة حتى لو كانت مجرد دعاء للميت يستبعد أن تصدر من المشركين، إذ هم لا يعتقدون بوجود حياة آخرة يؤول إليها الميت حتى يدعوا له فيها! بل هم ينكرون البعث والنشور كما قال تعالى عنهم {وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [الأنعام: 29] وهذا سيأتي بسطه، فهم لا يعتقدون بثواب ولا عقاب في الآخرة، ولا بنعيم القبر حتى يرجوه للميت بدعائهم له، ولا بعذاب القبر حتى يتعوذوا منه! بل هم يرون المحسن والمسيء في القبر سواء!! ولذا قال طرفة في معلقته الشهيرة:

أرى قَبْرَ نَحَامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ ... كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي البَطَالَةِ مُفْسِدٍ²

«يقول: لا فرق بين البخيل والجواد بعد الوفاة فلم أبخل بأعلاقي؟ فقال: أرى قبر البخيل

والحريص بماله كقبر الضال في بطالته المفسد بماله»³، وعليه: فعلام يدعون للميت؟!

وهذا بخلاف صلاة الجنازة في الإسلام، فإن «مقصود الصلاة على الجنازة هو الدعاء للميت

ولذلك حفظ عن النبي - ﷺ اللهم اغفر له، وارحمه. وعافه، واعفُ عنه. وأكرم نُزله، ووسّع مدخله

... وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجته. وأدخله الجنة، وأعدّه من

عذاب القبر ومن عذاب النار»⁴، فكما ترى أن الدعاء للميت يكون بالمغفرة له والعفو عنه من الله،

1 «المحبر» (ص321)، ثم ذكر بعض الشواهد على أن الصلاة تأتي بمعنى الدعاء، فقال في المحبر: وقال الله «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ». فالصلاة من المخلوقين الدعاء. ومن هذا قيل في الأثر: «من دُعي فليُجب. فإن كان مفطرا فليأكل. وإن كان صائما فليصل» أي فليدع. وقال الأعشى:

وصهباء طاف يهوديها ... وأبرزها وعليها ختم

وقابلها الريح في دُها ... وصلّى على دُها وارتسم

وقال أيضا:

تقول بنتي، وقد قربت مرتحلا ... يا رب جنب أبي الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي ... نوما فإن جنب المرء مضطجعا

2 فتح المغلقات في شرح المعلقات للفاكهي (ص: 977)

3 «شرح المعلقات السبع للزوزني» (ص110)

4 «زاد المعاد في هدي خير العباد - ط عطاءات العلم» (1/ 649)، والحديث في «صحيح مسلم» (2/ 663 ت عبد الباقي)

وأن يُعيذه من عذاب القبر في البرزخ ومن النار في الآخرة، وأن يدخله الجنة، وهذا كله غير متصور في صلاة الجنازة في الجاهلية أو في دعائهم للميت ما داموا لا يعتقدون بثواب ولا عقاب ولا بحياة البرزخ ولا باليوم الآخر ولا البعث ولا النشور.

المطلب الثالث: الصيام

ذكر بعض السلفية أن المشركين كانوا "يعبدون الله تعالى ببعض العبادات. كالصلاة والحج والصوم..". (1) واحتجوا² بحديث الشيخين: "كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية"³.

والجواب فيما يلي:

أولاً: لم تكن قريش تصوم يوم عاشوراء اتباعاً لشريعة سابقة من شرائع الأنبياء السابقين، ولا طمعا بثواب في اليوم الآخر؛ ولا كانوا يفعلون ذلك عبادة لله، لأنهم أصلاً كانوا يكذبون "بالبعث والثواب والعقاب"⁴ فضلاً عن كونهم "ينكرون توحيد الإله وبعث رسله وشرائع دينه وبه وقع منهم الكفر"⁵، ولا هي تعبد الله وإنما تعبد أصنامها، وقد بسطنا كل ذلك في موضعه، وإنما صامتة إما تقليداً لأهل الكتاب كما قيل، أو أن قريشا هم أنفسهم اخترعوا صيامه، وفي ذلك يقول الحافظ ((وأما صيام قريش لعاشوراء فلعلهم تلقوه من الشرع السالف، ولهذا كانوا يعظمونه بكسوة الكعبة فيه وغير ذلك، ثم رأيت في المجلس الثالث من "مجالس الباغندي الكبير" عن عكرمة أنه سئل عن ذلك فقال: أذنبت قريش ذنبا في الجاهلية فعظم في صدورهم، فقليل لهم : صوموا عاشوراء يكفر ذلك، هذا أو معناه))⁶

(1) جهود علماء الحنفية (1 / 212)

2 انظر: حجة الله البالغة (1 / 222)، وانظر مقال: "الرد على شبهة إسلام الشعوب لإظهارهم بعض شعائر الإسلام".

3 وروى الشيخان أيضا عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان عاشوراء يصومه أهل الجاهلية فلما نزل رمضان قال: (من شاء صامه ومن شاء لم يصمه).

4 جامع البيان ط هجر (21 / 48)

5 درة تعارض العقل والنقل لابن تيمية (8 / 511)

⁶ فتح الباري (4 / 246)

فإن كانت قريش صامته تقليدا لأهل الكتاب أو لشرع سابق فلا فضيلة في ذلك، لأنهم كانوا يقلدون أهل الكتاب على الخير والشر، بل قلدوهم فيما هو كفر صراح بدليل قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا } [النساء: 51]، فقد قلدوا هنا أهل الكتاب في زعمهم أن ما عليه المشركون أهدى مما عليه النبي وأصحابه بعد أن سألوا أهل الكتاب عن الأهدى كما جاءت في ذلك الأحاديث والآثار¹!!

وإن كانت قريش صامته اختراعا من عندها فهو مذموم لأنه ابتداء عبادات لم يأذن بها الله، وهذا أظهر على أصل ابن تيمية وأصحابه في ذم الابتداء ولا سيما في العبادات، وأقواله في ذلك كثيرة جدا، منها قوله: "فمن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله أو أوجبه بقوله أو فعله من غير أن يشرعه الله فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ومن اتبعه في ذلك: فقد اتخذ شريكا لله شرع في الدين ما لم يأذن به الله"².

وأنا أميل لهذا الاحتمال الثاني، وهو أن تكون قريش صامته اختراعا من عند أنفسها، لما يلي:

1) لدلالة أثر عكرمة السابق على ذلك وهو "أذنبت قريش ذنبا في الجاهلية فعظم في صدورهم فقيل لهم : صوموا عاشوراء يكفر ذلك".

2) كون اليهود أو غيرهم آنذاك يصومونه فهذا لا يلزم منه قطعا أن تكون قريش أخذت ذلك منهم، وإنما هو مجرد توافق بين قريش وبين اليهود، ولكل سببه الخاص؛ فاليهود صاموه شكرا لله على نجاة موسى من فرعون، وقريش صاموه تكفيرا عن ذنب اقترفوه كما في أثر عكرمة السابق، وقد صرح بذلك الحافظ فقال: ولم تختلف الروايات عن ابن عباس في ذلك ولا مخالفة بينه وبين حديث عائشة أن أهل الجاهلية كانوا يصومونه كما تقدم إذ لا مانع من توارد الفريقين على صيامه مع اختلاف السبب³. اهـ، وهذا ما

1 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (4/ 480)

2 مجموع الفتاوى (4/ 195)، وانظر: حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي (1/ 263)

³ فتح الباري لابن حجر (4/ 248)

ذكره الكشميري أيضا حيث قال: قوله: (كان عاشوراء يوما تصومه قريش في الجاهلية) قلت: وكان ذلك عند أهل الكتاب أيضا¹. اهـ

(3) لأن أهل الجاهلية اعتادوا اختراع شرائع وعبادات وتحليل وتحريم من عند أنفسهم، كالبحيرة والسائبة والوصيلة ونحوها، وقد بسطنا ذلك فيما سبق²، ونقلنا الآيات الكثيرة في ذلك، منها قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} [يونس: 59]، ونقلنا نصوص ابن تيمية وأتباعه في ذلك، ومنها قول ابن تيمية: فمن شرع من الدين ما لم يأذن به الله، وحرم ما لم يحرم الله ورسوله، فهو من دين أهل الجاهلية، المخالفين لرسوله، الذين ذمهم الله.. حيث شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله. فَحَرَّمُوا مَا لَمْ يَحَرِّمَهُ اللَّهُ، وَأَحَلَّوْا مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ، فذمهم الله وعابهم على ذلك³.

نعم قال القرطبي في المفهم: ولعلمهم كانوا يستندون في صومه: إلى أنه من شريعة إبراهيم وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما؛ فإنهم كانوا ينتسبون إليهما، ويستندون في كثير من أحكام الحج وغيره إليهما⁴. اهـ فأشار إلى أنه يُحتمل أنهم صاموه اتباعا لشريعة إبراهيم وإسماعيل، ونحوه قول الحافظ السابق: "فاعلمهم تلقَّوه من الشرع السالف"، وقول القسطلاني "يُحتمل أنهم اقتدوا في صيامه بشرع سالف"⁵. ولكن كما ترى لم يجزموا جميعا بذلك، وإنما قالوا: لعل أو يُحتمل، لأنه لا يوجد ما يؤيد ذلك وإنما هو

1 فيض الباري على صحيح البخاري (4/ 514)

2 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (501).

3 الفتاوى الكبرى (2/ 93)

4 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (3/ 190)، وانظر أيضا: الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (13/ 61)، فتح المنعم شرح صحيح مسلم (4/ 588).

5 إرشاد الساري للقسطلاني (3/ 421)

مجرد احتمال، ولكن وُجد ما يؤيد أنهم اخترعوه اختراعاً وهو أثر عكرمة السابق، فيكون أرجح. والله أعلم

فإن قيل: حديث عائشة عند البخاري من طريق مالك عن هشام عن أبيه عنها "كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية وكان النبي ﷺ يصومه في الجاهلية" يدلّ أو يرجح أن أهل الجاهلية صاموا عاشوراء اتباعاً لشرع سابق، وإلا لما صامه النبي ﷺ معهم في الجاهلية. **قلنا:** جوابه من ثلاثة أوجه:

أولاً: لفظ "في الجاهلية" من قوله "وكان النبي ﷺ يصومه في الجاهلية" لا يوجد في كثير من نسخ البخاري ولا سيما التي شرح عليها العلماء¹ فضلاً عن أن أصح النسخ وهي النسخة اليونانية² لم تقع فيها هذه الزيادة، وتبّه محققو هذه النسخة في الهامش على أن هذه الزيادة وقعت في رواية ابن عساكر وأبي الوقت للبخاري³، وهذه الزيادة وقعت أيضاً في النسخة التي شرحها الحافظ ابن حجر⁴ كما سيأتي، ووقعت أيضاً في موطأ مالك⁵، وقد روى البخاري في صحيحه حديث عائشة من طريق يحيى القطان عن طريق هشام عن أبيه عنها في موضعين دون زيادة "في الجاهلية"⁶، وإنما لفظه في الموضعين "وكان النبي ﷺ يصومه".

1 انظر مثلاً صحيح البخاري بتحقيق البغا (2/704)، التوضيح لابن الملقن (13/522)، الكواكب الدراري للكرمانى (9/14)، فيض الباري (3/370)، منحة الباري لتركيا الأنصاري (4/433)، اللامع الصبيح للبرماوي (6/466)، التوشيح للسيوطي (4/1474)، الكوثر الجاري (4/327)، عمدة القاري (11/171).

2 يقول الشيخ شعيب الأرنؤوط في حاشيته على سير أعلام النبلاء (17/47): **ونسخة أبي الحسين اليوناني من صحيح البخاري والمسماة باليونانية، هي أعظم أصل يوثق به في نسخ "صحيح البخاري"، وهي التي جعلها الإمام القسطلاني عمدته في تحقيق متن الكتاب وضبطه حرفاً وحرفاً وكلمة وكلمة، وهذه هي أكبر ميزة لشرح القسطلاني المسمى "إرشاد الساري"، وعن النسخة اليونانية طبعت الطبعة السلطانية التي أمر بطبعتها السلطان عبد الحميد رحمه الله طبعت بمصر في المطبعة الأميرية في سني 1311 - 1313 هـ..**

3 صحيح البخاري- طوق النجاة، الطبعة اليونانية (3/44)، وقد رمزوا لابن عساكر بس، ولأبي الوقت ب ط.

4 فتح الباري لابن حجر، ط السلفية (4/244)

5 موطأ مالك ت الأعظمي (3/428)

6 صحيح البخاري- طوق النجاة (5/41)، و (6/24)

وهذا اللفظ الأخير لا إشكال فيه لأن معناه كان يصومه قبل الهجرة كما قال العيني¹، أي أن هذا بعد البعثة وقبل الهجرة، وإنما صامه النبي ﷺ إما بتشريع من الله بأن يكون قد "أذن الله تعالى له في صيامه"²، وهذا هو الأرجح عندي، وإما "أن يكون بحكم الموافقة لهم عليه"، كما وافقهم على أن يحج معهم على ما كانوا يحبون - أعني: حجته الأولى التي حجها قبل هجرته، وقبل فرض الحج إذ كل ذلك فعل خير"³، ولم يفعله تقليدا أعمى لأهل الجاهلية، حاشاه ﷺ. ثم لما قدم المدينة وجد اليهود يصومونه، فسألهم عن ذلك فقالوا إنه يوم أنجى الله فيه موسى"، فقال: "فنحن أحق وأولى بموسى منكم؛ فحينئذ صامه بالمدينة، وأمر بصيامه. أي: أوجب صيامه، وأكد أمره.. وعلى هذا لم يصم النبي - صلى الله عليه وسلم - عاشوراء اقتداء باليهود؛ فإنه كان يصومه قبل قدومه عليهم، وقبل علمه بحالهم، لكن الذي حدث له عند ذلك إلزامه والتزامه استئلافا لليهود، واستدراجا لهم"⁴. اهـ

ومما يؤيد أن النبي ﷺ صامه بعد البعثة حديثُ عائشة عند الشيخين ولفظه "أن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية، ثم أمر رسول الله ﷺ بصيامه حتى فرض رمضان.. فقولها "ثم أمر.." دليل على أن أصحابه لم يكونوا يصومونه بعد البعثة وقبل الهجرة، لأنهم لو كانوا يصومونه لما أمرهم بذلك لأنه تحصيل حاصل كما هو ظاهر، إلا أن يقال إن معنى (ثم أمرهم بصيامه) أي "لما قدم المدينة وصامه معهم" كما قال القسطلاني⁵.

ثانيا: على التسليم بصحة زيادة لفظ "في الجاهلية"، فيقصد به قبل الهجرة لا قبل البعثة، وبه جزم الحافظ فقال: "وفيها زيادة أن أهل الجاهلية كانوا يصومونه وأن النبي ﷺ كان يصومه في الجاهلية أي قبل أن يهاجر إلى المدينة"⁶، وإن تعبه العيني بما حاصله أن الجاهلية هي ما قبل البعثة لا قبل الهجرة⁷

¹ عمدة القاري (11 / 171)

² المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (3 / 191)

³ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (3 / 191)

⁴ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (3 / 192)

⁵ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (3 / 345)

⁶ فتح الباري (4 / 246)

⁷ عمدة القاري (11 / 171)

غير أن العيني لا يخالف في أن النبي ﷺ صام عاشوراء قبل الهجرة وبعد البعثة كما سبق، وأظن أن سبب خلاف ابن حجر والعيني أن الأول يشرح على نسخة وقع فيها زيادة "في الجاهلية" والثاني لم تقع له، كما تقدم.

ثالثاً: على التسليم بأن النبي ﷺ صام عاشوراء في الجاهلية وأنه وافقهم في ذلك، فثمة فرق بين صيامه عليه الصلاة والسلام وبين صيامهم، فصيامه كان عبادة لله وطمعا في ثوابه في اليوم الآخر لأنه كان موحدا مؤمنا باليوم الآخر قبل بعثته؛ إذ كان على الحنيفية ملّة أبيه إبراهيم، لا كصيامهم الذين كانوا لا يؤمنون بثواب ولا عقاب وإنما يصومون عبادة لأصنامهم لا عبادة لله؛ لأنهم لا يعبدون الله أصلا كما سبق تقريره!! **قال الشوكاني في تفسيره:** وأخرج أبو نعيم في الدلائل، وابن عساكر عن علي قال: قيل **لمحمد ﷺ: هل عبدت وثنا قط؟ قال: لا... وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر¹.** وقال القرطبي: قلت: إنه ﷺ كان مؤمنا بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه². وقال ابن المنير: توحيد الله تعالى ومعرفة إن ذلك لم يزل ثابتا له ﷺ قبل البعث³. اهـ وقال العمراي: النبي - ﷺ - كان قبل أن يبعث متمسكا بدين إبراهيم - عليه السلام -، ولم يعبد صنما ولا وثنا⁴. اهـ

المطلب الرابع: الزكاة والصدقات

فالمشركون عند ابن عبد الوهاب "أناس يتعبدون ويحجّون ويتصدقون" (5). بل كانوا "يخلصون له أنواعا من العبادات كالحج والصدقة"⁽⁶⁾، "ويطعمون المسكين"⁷. بل كانت "فيهم الصدقة كثيرا كما قالت خديجة .. كلا والله لا يجزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتقرى

1 فتح القدير للشوكاني (4/ 625).

2 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (18/ 517)، وانظر أيضا: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (9/ 57).

3 الكشاف بحاشية ابن المنير "الاتصاف" (4/ 809)، كذا وقع فيها "قبل البعث" أي البعثة، وكذا وقع في «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)» (16/ 608): «فإن ذلك لم يزل ثابتاً له عليه السلام قبل البعثة».

4 البيان في مذهب الإمام الشافعي (12/ 93)

(5) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14

(6) تيسير العزيز الحميد ص27. وانظر جهود علماء الحنفية (1/ 212)

7 شرح كشف الشبهات لخالد المصلح (1/ 10، ت.ش)

الضيف وتعين الملهوف.. فكانت الصلة والصدقة - وتسمى عندهم أيضا - زكاة كانت موجودة كثيرا¹. وبدليل ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : في قوله { اللات والعزى } كان اللات رجلا يلت سويق الحاج².

والجواب: أولا: إن هذه منقبة ملفقة تردها آيات كثيرة تدل صراحة على أن المشركين كانوا لا يؤدون زكاة ولا صدقة ولا يطعمون المسكين، وإليك بعضها:

الآية الأولى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [يس: 47]. قال الطبري : وإذا قيل لهؤلاء المشركين بالله: أنفقوا من رزق الله الذي رزقكم، فأدّوا منه ما فرض الله عليكم فيه لأهل حاجتكم ومسكنتكم، قال الذين أنكروا وحدانية الله وعبدوا من دونه للذين آمنوا بالله ورسوله: أنطعم أموالنا وطعامنا من لو يشاء الله أطعمه؟³ اهـ ويقول ابن تيمية في سياق كلامه عن القدر بعد أن يسرد آية يس هذه: فهؤلاء المحتجون بالقدر على سقوط الأمر والنهي من جنس المشركين المكذبين للرسول وهم أسوأ حالا من الجوس⁴. اهـ

الآية الثانية: قوله تعالى: { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } [فصلت: 6، 7] قال الشنقيطي: قد استدللّ بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأنه -تعالى- صرح في هذه الآية الكريمة بأنهم مشركون، وأنهم كافرون بالآخرة، وقد توعدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة، وعدم إيتائهم الزكاة، سواء قلنا: إن الزكاة في الآية هي زكاة المال المعروفة، أو زكاة الأبدان بفعل الطاعات واجتناب المعاصي.

¹ شرح كشف الشبهات- صالح آل الشيخ (ص: 37)

² مقال على الشبكة بعنوان " الرد على شبهة إسلام الشعوب لإظهارهم بعض شعائر الإسلام ".

³ جامع البيان ط هجر (449 /19)

⁴ مجموع الفتاوى (8 /453)، وانظر أيضا (10 /159) و (11 /421)، الفتاوى الكبرى (5 /163)

ورجح بعضهم القول الأخير ؛ لأن سورة فصلت هذه من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة، وزكاة المال المعروفة إنما فرضت بعد الهجرة سنة اثنتين، كما قدمناه¹. اهـ

قلت قد ذكر الطبري القولين في المراد بالزكاة هنا، ورجح أنها زكاة الأموال فقال: والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: معناه: لا يؤدون زكاة أموالهم؛ وذلك أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة..². اهـ وكذا ذكر ابن تيمية خلاف السلف في المراد في الزكاة في هذه الآية، ورجح أنها "تتناول كل ما يتركي به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة"³، وقال الحكمي في سياق كلامه عن فضل الزكاة والتنفير من منعها:..وقوله في صفات عباده المؤمنين والذين هم للزكاة فاعلون..وقوله تعالى في ذم الكفار ووعيدهم وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة..وإن كانت هذه الآية في زكاة النفوس فهي عامة لزكاة الأموال أيضا وقد فسرت بها⁴. اهـ

الآية الثالثة: قوله تعالى: { وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ } [المدثر: 42 - 44]. أي "بخلا بما خولهم الله، ومنعنا له من حقه"⁵. وقد سبق كلام الطبري بتمامه وأن هذه الآيات إنما هي في المشركين المكذبين بيوم الدين، ويقول ابن تيمية وهو يردّ على منكري الشفاعة واحتجاجهم بمثل قوله تعالى {فما تنفعهم شفاعة الشافعين}: وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان: أحدهما: أنها لا تنفع المشركين كما قال تعالى في نعمتهم: ..{ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ... فما تنفعهم شفاعة الشافعين } فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفارا⁶.

الدليل الرابع: { إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ } [الحاقة: 33، 34]، وكذا قوله: { أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (2) وَلَا

1 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (7/ 122)

2 جامع البيان ط هجر (20/ 380)

3 مجموع الفتاوى (10/ 633)

4 معارج القبول (2/ 629)

5 جامع البيان ط هجر (23/ 451)

6 مجموع الفتاوى (1/ 149)

يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ { الماعون: 1 - 3 } أي "أرأيت يا مُحَمَّد الذي يكذب بثواب الله وعقابه، .. ولا يحث غيره على إطعام المحتاج من الطعام"¹. اهـ "وذلك أن المشركين كانوا يقولون {أنطعم من لو يشاء الله أطعمه}"².

الآية الخامسة: قال تعالى: { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ .. وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الحديد: 7 - 10]، قال الطاهر ابن عاشور: والمراد بالإنفاق المأمور به: الإنفاق الذي يدعو إليه الإيمان بعد حصول الإيمان وهو الإنفاق على الفقير ، وتخصيص الإنفاق بالذكر تنويه بشأنه، وقد كان أهل الجاهلية لا ينفقون إلا في اللذات ، والمفاخرة والمقامرة ، ومعاقرة الحمر، وقد وصفهم القرآن بذلك في مواضع كثيرة كقوله: (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين) وقوله: (بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون³ على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لماً وتحبون المال حباً جماً)⁴.

فهذه خمس آيات تنفي عن المشركين فعل الزكاة والصدقات، وتنص نصاً على أنهم لا يطعمون المسكين ولا حتى يحضون عليه، فالقول بأنهم يركون ويتصدقون ويطعمون المسكين هو مخالفة بل مناقضة لهذه الآيات.

ثانياً: إن أهل الجاهلية كانوا يقتلون أبناءهم خشية الفقر كما سبق بيانه، فمن هذا حاله وهو أن يقتل ولده خشية الفقر فكيف يوجد بماله على الغريب دون أن يخشى فقراً!؟

1 جامع البيان ط هجر (657 / 24)

2 تفسير ابن أبي زمنين (166 / 5)

3 كذا بالقصر، وهي قراءة نافع وغيره كما سيأتي، وقراءة حفص عن عاصم: ولا تحاضون، قال أبو علي الفارسي في «الحجة للقراء السبعة» (6 / 410): قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر: تحضون، بالتاء بغير ألف. وقرأ أبو عمرو وحده بالياء بغير ألف. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: تحاضون بالتاء والألف، والتاء في كل ذلك مفتوحة. «. وجاء في «تفسير السمعاني» (6 / 221): «وَقَوْلُهُ: {وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ} أَي: لَا يَحْتُونَ، وَقُرِيءَ: "وَلَا تَحْضُونَ"، وَنَحْوَهُ فِي «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزي (2 / 481).

4 التحرير والتنوير (368 / 27)

ثالثاً: على التسليم بأن أهل الجاهلية كانوا يزكّون ويتصدقون فما كانوا يفعلون ذلك اتّباعاً لشريعة سابقة من شرائع الأنبياء السابقين، ولا فعلوا ذلك عبادة لله طمعاً بثوابه في اليوم الآخر؛ وذلك لأنهم لا يؤمنون بالأنبياء حتى يؤمنوا بشرائعهم، ولا يؤمنون بثواب ولا عقاب ولا باليوم الآخر أصلاً، وإنما يفعلون ذلك رياءً وسمعةً كما سبق بيانه في إكرامهم للضيف، وأيضاً هم ما كانوا يعبدون الله وإنما يعبدون الأصنام، فكانت صدقاتهم وذبائحهم لأهّتهم، قال جواد علي: "من الجاهليين من كان يقدم زكاة المال من ماشية وإبل وزرع طوعاً واختياراً تقرباً إلى الآلهة، يقدمها إلى المعابد تخصيصاً باسم الأصنام. ومن هذا القبيل السائبة والحامي الوصيّة ونحو ذلك، مما خصصه الجاهليون لأهّتهم تطوعاً، وذلك تزكية لأموالهم وأملاً في نماء أموالهم الجديدة وحدث البركة فيها"¹.

ومن ذلك أيضاً العتيرة وهي "ذبيحة تذبح في رجب، وكانت تذبح في الجاهلية، وكانوا يذبحونها في صدر الإسلام وأوله، ثم نُسخ، وأما العتيرة التي كانت تعترها الجاهلية، فهي الذبيحة التي كانت تذبح للأصنام، فيصب دمها على رأسها"². اهـ

ومن ذلك الفرع روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا فرع ولا عتيرة). والفرع أول النتاج كانوا يذبحونه لطواغيتهم والعتيرة في رجب³. اهـ قال الألباني: "إنما أبطل صلى الله عليه وسلم به الفرع الذي كان (يتقرب بها)⁴ أهل الجاهلية لأصنامهم"⁵، "قيل: هو أول النتاج كانوا يذبحونه لأهّتهم"⁶.

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (9/ 316)، و شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: 533)

2 مناسك الحج والعمرة في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة د. سعيد القحطاني (ص: 693)

3 صحيح البخاري بتحقيق البغا (5/ 2083)، صحيح مسلم (3/ 1564).

4 سقط من المطبوع من إرواء الغليل كلمة (يتقرب بها) وهي ثابتة كما في «فتح الباري لابن حجر» (9/ 598): «وقال أبو عبيد:

العتيرة هي الرجبية، ذبيحة كانوا يذبحونها في الجاهلية في رجب يتقربون بها لأصنامهم» ونحوه ما جاء في «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة

المصابيح» (5/ 114): «قال القاري: وهي شاة تذبح في رجب يتقرب بها أهل الجاهلية (لأصنامهم)»

5 إرواء الغليل (4/ 413)

6 أضواء البيان، 5/ 646 - 647.

ومن ذلك السائبة التي يسيبونها لأهتهم، روى البخاري سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يجلبها أحد من الناس والسائبة التي كانوا يسيبونها لأهتهم فلا يحمل عليها شيء.¹

فهذه ثلاثة أدلة من جملة أدلة كثيرة تدلّ على بخل المشركين وعدم إنفاقهم على الفقراء والمساكين، وأما ما استدل به السلفية على إنفاق المشركين كحديث ابن عباس عند البخاري من أن "كان اللات رجلا يلتّ سوق الحاج" فالجواب: أولاً: وهل في هذا الخبر أنه كان يفعل ذلك لوجه الله طمعا في ثوابه في اليوم الآخر؟! كيف وقد جاءت آثار كثيرة بأن هذا كان من سدنة آلهة المشركين، فقد قال مجاهد في تفسير "اللات": رجل يلتّ للمشركين السوق، فمات فعكفوا على قبره. وقال غيره من السلف: "اللات" الذي كان يقوم على آهتهم، يلتّ لهم السوق، وكان بالطائف. بل ذكر السهيلي أن اسم هذا الرجل هو: عمرو بن لحي الخزاعي، وهو أول من عبد الأصنام كما في حديث أحمد، كما أنه أول من أدخل عبادة الأصنام إلى العرب، لذلك جاء ذمّه في حديث عائشة عند البخاري مرفوعاً: "ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت، ورأيت فيها عمرو بن لحي وهو الذي سيّب السوائب"². اهـ

فإذا كان حاله كذلك فهل كان يلتّ السوق طمعا بثواب في اليوم الآخر؟ كيف وهؤلاء المشركون ينكرون اليوم الآخر أصلاً؟ بل لو فرضنا أنه يؤمن باليوم الآخر فهل من تصدق عند قبور الصالحين على من يطوف بها وينذر لها ويصلي ويدعو عندها أو لها.. هل تعدّون صدقته هذه عبادة لله؟! أو هي كما قال أحد أحفاد ابن عبد الوهاب: إذا نذر لله وجعل مصرفه على السدنة والمجاورين عند القبور فهو نذر معصية لا يجوز.. والمنع منه لما فيه من الإعانة على العكوف عند القبور. الذي هو من أكبر الوسائل والذرائع إلى عبادتها ودعائها³. وبالتالي فإن

1 صحيح البخاري بتحقيق د. البغا (3/ 1297)

2 صحيح البخاري بتحقيق البغا (1/ 406)

3 منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس (ص: 242)، عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ (ت: 1293هـ).

"النذر للميت بقصد الصدقة على فقرائه وخدامه فيه إعانة لهم على العكوف على القبور وإقرار لهم على ذلك، وهذا العكوف منكر لا يصح أن يقرأوا عليه، فضلا عن أن يعانوا عليه بالنذر"¹.

فإذا كانت الصدقة على من يشهد أن لا إله إلا الله ممن يطوف بقبور المسلمين هي معصية عندكم، فكيف جعلتم الصدقة على عبدة الأصنام والطائفين بها منقبة وطاعة؟! أتكون الصدقة هناك على من يطوف بالقبور ذنبًا ومعصية، وأما هنا على من يطوف بالأصنام فهي منقبة وطاعة؟! لعمر الحق إن هذا في القياس بديع!!

ثانيا: لو سلمنا جدلا بأن اللات كان يلتّ السويق لوجه الله، وطمعا في ثوابه في اليوم الآخر، فهذا خاص بهذا الشخص كما يدلّ على ذلك حديث ابن عباس، فكيف عمّمتموه على سائر أهل الشرك وشملتكم به أهل الجاهلية؟ الحديث يتكلم عن حال مفردة وربما نادرة كان يقوم بها أفراد من العرب في الجاهلية، تماما كحديث ابن جدعان السابق أنه كان "في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين"، وكحديث حكيم بن حزام أنه كان يتصدق في الجاهلية²، فهذه الأحاديث هي نفسها تنادي بأعلى صوت أن ذلك التصدق ونحوه كان حالات فردية يقوم بها بعض المشركين في الجاهلية، فكيف فهمتم منها العموم؟ وإذا كان الأمر متعلقا ببعض العرب ومجالات فردية فإن بعض العرب أيضا كانوا على الحنيفية ونبذ عبادة الأوثان كما سبق بيان ذلك.

المطلب الخامس: الحج والعمرة

فالمشركون كانوا "يحجون إلى البيت ويطوفون به ويقفون بعرفات.. وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك"³، "ويعتمرون"⁴، وقد اشتهر "حجّهم للبيت

1 آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ص171، مُجّد بن عبد العزيز الشايع، دار المنهاج- الرياض، ط1/ 1427 هـ.

2 روى الشيخان عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال يا رسول الله أرأيت أشياء كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أسلمت على ما سلف من خير).

³ مجموع الفتاوى (354 / 27) وانظر كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14، وجهود علماء الحنفية (1 / 212).

4 جهود علماء الحنفية (2 / 1190)

تعظيمهم إياه وعمرتهم إليه"¹، ويذهب الحفيد أبعد من ذلك حين يقول "ويخلصون له أنواعا من العبادات كالحج"⁽²⁾. والدليل على أنهم كانوا يحجّون حديث البخاري "دخل أبو بكر على امرأة من أمّس يقال لها زينب فرآها لا تكلم، فقال: ما لها لا تكلم؟ قالوا: حجت مصمّنة. قال لها: تكلمي فإن هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية .."³، وأما الدليل على أنهم كانوا يعتمرون فهو حديث الشيخين أنهم "كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور.. ويقولون إذا برا الدبر وعفا الأثر وانسلخ صفر حلت العمرة لمن اعتمر".

والجواب فيما يلي:

أولا: نعم كان المشركون في الجاهلية يحجون ويعتمرون، لكن هل كان فعلهم هذا عبادة لله أم كان عبادة لأصنامهم؟! وذلك لتقربهم إلى الله بزعمهم كما أقروا بذلك كما في قوله تعالى: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: 3]! وكما روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي يقول: كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به 4. اهـ وقد سبق بيانه مطولا، فضلا عن أننا أوردنا بعض الأحاديث التي تدل على أن ما كان يفعله بعض المشركين في الجاهلية من قربات، كالصدقات وإكرام الضيف ونحوه، كانوا يريدون بها الرياء والسمعة لا اتباعا لشريعة، ولا تدبينا لأنهم لا يؤمنون بالأنبياء ولا بشرائعهم ولا باليوم الآخر .

ثانيا: قرر ابن تيمية أن "العبادات مبناها على الشرع والاتباع لا على الهوى والابتداع فإن الإسلام مبني على أصليين: أحدهما: أن نعبد الله وحده لا شريك له. والثاني: أن نعبد بما شرعه على لسان رسوله ﷺ لا نعبد بالأهواء والبدع"⁵، وهذا حاصله أن العبادة لا بد لها من شرطين: أن تكون لله خالصة،

1 انظر: شرح كشف الشبهات- صالح آل الشيخ (ص: 38)

(2) تيسير العزيز الحميد ص27.

3 انظر: http://mesbeh.blogspot.com.tr/01/2017blog-post_01.html

4 صحيح البخاري بتحقيق البغا (4/ 1591).

5 مجموع الفتاوى (1/ 80)، وانظر أيضا: (1/ 189) و(23/ 94)، وجهود علماء الحنفية (1/ 343).

وأن تكون على وفق الشرع، وزيد شرطاً ثالث وهو أن يكون العبادة أو العمل الصالح "مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فقيّد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح"¹.

وحجج المشركين واعتمارهم لا تتحقق فيه هذه الشروط؛ فلا هو كان خالصاً لله، ولا كان على وفق شرع الله. ولا هم مؤمنون بل كفار، ولا عقيدتهم في الله سليمة بل فاسدة من وجوه كثيرة سبق بسطها²، وأما أن حججهم وعمرتهم لم يكن كل منهما خالصاً لله فيدل على ذلك ما يلي:

الأول: تلبيتهم حيث كانوا يقولون "ليبيك لا شريك لك قال فيقول رسول الله ﷺ ويلكم قد يقولون إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت"³. ولذلك جاء في حديث جابر عند مسلم في صفة حج النبي ﷺ "فأهل بالتوحيد لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك" قال القاضي عياض: (وقوله: "فأهلّ بالتوحيد": إشارة إلى قوله: "لا شريك لك"، ومخالفة لقول المشركين في تلبيتهم"⁴) أي في "الجاهلية؛ إذ كانت تشرك بالله، فتقول في تلبيتها: إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك"⁵.

الثاني: لأن المشركين كانوا يطوفون بأصنامهم التي وضعوها حول الكعبة فقد "كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً"⁶، يدلّ عليه ما رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده وجعل يقول {جاء الحق وزهق الباطل} ⁷. اهـ

1 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (3/ 423)

2 انظر: ص (299)

3 صحيح مسلم (2/ 843)

4 إكمال المعلم بفوائد مسلم (4/ 269)، «نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار» للعيني (9/ 165)

5 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (3/ 325)

6 مجموع الفتاوى (27/ 359)

7 صحيح البخاري بتحقيق البغا (2/ 876)، صحيح مسلم (3/ 1408).

فهل مَنْ يطوف بقبر عندكم مثلاً هو يعبد الله أو هو يعبد صنماً؟ فكيف بمن يطوف بالأوثان حقيقةً كهؤلاء المشركين؟ وهذا الفوزان يقول: { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ.. } أي: لا يسوغ.. للمسلمين أن يمكنوا المشركين من دخول المساجد لأجل أن يتعبدوا فيها العبادة الشركية، ويدعوا غير الله فيها، فلا يجوز للمسلمين أن يكنّوا المشركين من إظهار الشرك في المساجد.. لأن المساجد إنما بنيت لعبادة الله وإخلاص الدين له.. ولم تُبنَ لعبادة غيره، وقال تعالى: { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا }¹. اهـ فتأمل كم مرة صرّح الفوزان هنا أن المشركين كانوا يعبدون غير الله في المسجد الحرام؟!

الثالث: قال الأفغاني نقلاً عن العيني والقاري في شرحهما لقول الفاروق "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع.. " أنه أراد أن يبين أن "استلامه مخالف لفعل الجاهلية في عبادتهم الأصنام؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنها تقربهم إلى الله زلفى؛ فنبه عمر على مخالفة هذا الاعتقاد"². اهـ وهذا ظاهر في أنهم يعبدون الأصنام في حجهم وعمرتهم بل كان حجهم إليها أصلاً.

الرابع: أنهم كانوا حين يحجون يطلبون الدنيا لا الآخرة، كما أشار إليه قوله تعالى { فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ } [البقرة: 200]، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث و عام خصب و عام و لاد حسن و لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل فيهم "فمن الناس.. " وأخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: كان الناس في الجاهلية إذا وقفوا عند المشعر الحرام دعوا فقال أحدهم: اللهم ارزقني إبلاً وقال الآخر: اللهم ارزقني غنماً فأنزل الله "فمن الناس.."³ اهـ

الخامس: روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت عن آية "إن الصفا والمروة من شعائر الله": إنما أنزل هذا في أناس من الأنصار كانوا إذا أهلوا أهلوا لمناة في الجاهلية فلا يحلّ لهم أن يطوفوا بين

1 إغاثة المستفيد شرح كتاب التوحيد (2/ 71)، وانظر أيضاً: تيسير العزيز الحميد (ص: 852)، دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: 373).

2 جهود علماء الحنفية (2/ 658)

3 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (2/ 447)

الصفاء والمروة. روى مسلم أن الأنصار كانوا يهلّون في الجاهلية لصنمين على شط البحر يقال لهما إساف ونائلة¹. اهـ

وقال الحافظ: روى النسائي بإسناد قوي عن زيد بن حارثة قال: كان على الصفاء والمروة صنمان من نحاس يقال لهما أساف ونائلة كان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما.. وروى الفاكهي وإسماعيل القاضي في الأحكام بإسناد صحيح عن الشعبي قال كان صنم بالصفاء يدعى أساف ووثن بالمروة يدعى نائلة فكان أهل الجاهلية يسعون بينهما، فلما جاء الإسلام رمى بهما وقالوا إنما كان ذلك يصنعه أهل الجاهلية من أجل أوثانهم. فأمسكوا عن السعي بينهما، قال: فأنزل الله تعالى إن الصفاء والمروة من شعائر الله الآية². اهـ فتأمل قوله "يصنعه أهل الجاهلية من أجل أوثانهم" فهو صريح في أن حجهم وعمرتهم في الجاهلية للأصنام.

السادس: كانت العرب تعظّم كثيرا من البيوت تضاهي بها الكعبة يتخذونها أصناما ويحجّون إليها وإلى غيرها من الأصنام، وإليك ما يدل على ذلك:

(1) روى الشيخان واللفظ للبخاري عن جرير: قال لي رسول الله ﷺ "ألا تريخني من ذي الخلصة" وكان بيتا في خثعم يسمى كعبة اليمانية³. و" (ذو الخلصة).. بيت في اليمن كان فيه أصنام يعبدونها.. والمراد أن ذا الخلصة كانوا يسمونها الكعبة اليمانية وكانت الكعبة الكريمة التي بمكة تسمى الكعبة الشامية ففرقوا بينهما للتمييز⁴. " وتسميه العرب: الكعبة اليمانية والشامية، وقد كانت العرب فعلت مثل هذا بيوتا كثيرة⁵.

1 صحيح مسلم (2/ 928)

2 فتح الباري (3/ 500)

3 صحيح البخاري بتحقيق البغا (3/ 1100)، صحيح مسلم (4/ 1925)

4 شرح النووي على مسلم (16/ 35)

5 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (6/ 404)

- (2) روى الطبري عن ابن زيد قال : "اللات بيت كان بنخلة تعبده قريش"¹، "ذكر ابن الكلبي أنه كان صخرة مربعة بيضاء، بنت ثقيف عليها بيتًا صاروا يسيرون إليه، يضاهون به الكعبة، وله حجة وكسوة.. وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه أيضًا، ويتقربون إليه، حتى إن ثقيفًا كانوا إذا ما قدموا من سفر، توجهوا على بيت اللات أولاً للتقرب إليه وشكره على السلامة، ثم يذهبون بعد ذلك إلى بيوتهم"²
- (3) وروى الطبري عن ابن زيد قال: «مناة بيت كان بالمشلل يعبده بنو كعب»³ وروى أيضا عنه "العزى: بيت بالطائف تعبده ثقيف"⁴.
- (4) روى ابن الجوزي بسنده عن شيخ من ساكني مكة قال سئل سفيان بن عيينة كيف عبدت العرب الحجارة والأصنام فقال أصل عبادتهم الحجارة أنهم قالوا البيت حجر فحيث ما نصبنا حجرا فهو بمنزلة البيت⁵.
- (5) قال النابغة الذبياني في معلقته المشهورة:

فلا لعمر الذي مسحت كعبته .. وما هريق على الأنصاب من جسد⁶

وفي لفظ آخر:

فلا لعمر الذي قد زرتة حججا .. وما هريق على الأنصاب من جسد⁷

1 جامع البيان ط هجر (47 / 22)

2 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11 / 228)

3 جامع البيان ط هجر (50 / 22)

4 جامع البيان ط هجر (49 / 22)

5 تلبس إبليس (ص: 389)

6 انظر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي (8 / 45)، وفي لفظ

(فلا لعمر الذي قد زرتة حججا .. وما هريق على الأنصاب من جسد) انظر خزانة الأدب (5 / 73) وشرح القصائد التسع

المشهورات للنحاس (ص: 760).

7 انظر خزانة الأدب للبغدادي (5 / 73) وشرح القصائد التسع المشهورات للنحاس (ص: 760).

فانظر كيف أورد الكعبة والأنصاب في مورد واحد وهو مورد القسم والتعظيم! قال البغدادي: وحججا: جمع حجة .. وهي السنة، أقسم بالبيت الذي زاره في سنين متعددة وهو البيت الحرام. وقوله: وما هريق على الأنصاب هريق بمعنى أريق والهاء بدل من الهمزة. والأنصاب: حجارة كانت العرب في الجاهلية تنصبها وتذبح عندها. والجسد بفتح الجيم هو الدم. اهـ

(6) جاء في الخبر: وكان إساف ونائلة لقريش والأحابيش، وكان هبل لبني بكر.. ثم ذكر أصناما كثيرة، ثم قال: فهذه رؤوس طواغيتهم التي كانوا يصعدون إليها من حجهم. لا يأتون بيوتهم حتى يمرؤا بها، فيعظموها ويتقربوا إليها وينسكوا لها¹. اهـ

(7) قال ابن تيمية:.. كانت العرب تحج إلى اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. وهم مع ذلك يحجون إلى البيت ويطوفون به ويقفون بعرفات².

(8) ويقول ابن تيمية أيضا: "فكل مدينة من مدائن أهل الحجاز كان لها طاغوت تحج إليه وتتخذة شفيعا وتعبد³".

(9) قال ابن القيم نقلا عن ابن إسحاق: وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها، كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب، وتهدى لها كما تهدى للكعبة، وتطوف بها كما تطوف بالكعبة، وتنحر عندها كما تنحر عند الكعبة⁴. اهـ

1 الخبر (ص: 318، 319)

2 مجموع الفتاوى (27/ 354)

3 مجموع الفتاوى (27/ 358)

4 إغاثة اللهفان (2/ 219) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 83). ثم شرع ابن إسحاق بذكر بعض تلك البيوت فقال: فكانت لقريش وبني كنانة العزى وكان سدنتها وحجابتها بنو شيبان.. وكانت مناة للأوس والخزرج.. وكانت فلس لطبيء.. وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له رثام.. وكانت رضاء بيتا لبني ربيعة.. وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد وله يقول أعشى بني قيس: بين الخورنق والسدير وبارق.. والبيت ذي الكعبات من سنداد. اهـ وقد أطل في ذلك. انظر السيرة النبوية لابن هشام (1/ 83).

(10) وقال ابن القيم أيضا وهو يسرد أسماء الأصنام في الجاهلية: وكان من تلك الأصنام: ذو الخَلَصَة، وكان مَرَوَةً بِيضَاءَ مَنْقُوشَةً، عليها كهيئة التاج، وكان له بيت بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليالٍ من مكة، وكانت تعظّمه وتُهدى إليه خَنَعَمٌ وَبَجِيلَةٌ .. وكان لَدَوْسٌ صَنَمٌ يُقال له: ذو الكَفَّين، فلما أسلموا بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الطُّفيل بن عمرو فحرقه، وكان لبني الحارث بن يَشْكُرٍ صنم يُقال له: ذو الشَّيرَى¹. اهـ

(11) وقال ابن كثير في قوله تعالى "أفرأيتم اللات والعزى" بأن فيه تقريرا للمشركين في عبادتهم الأصنام "واتخاذهم البيوت لها مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام، أفرأيتم اللات وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة وعليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف². و"إن وجود البيت والأستار على الصنم هو لتضاهي به الكعبة؛ فيعتكف عندها ويطاف بها؛ كالكعبة اليمانية على صنم دوس (ذي الخَلَصَة)"³. اهـ

(12) قال الشهرستاني تحت عنوان "البيوت المتخذة للعبادة": ثم اعلم أن البيوت تنقسم إلى بيوت الأصنام، وإلى بيوت النيران.. فأما بيوت الأصنام التي كانت للعرب والهند فهي البيوت السبعة المعروفة المشهورة، المبنية على السبع الكواكب. فمنها ما كانت فيه أصنام فحولت إلى النيران، ومنها ما لم تحول..⁴. اهـ

(13) وقال أبو بكر زكريا تحت عنوان "عبادة بيوت الأصنام من دون الله عز وجل": والمقصود ببيوت الأصنام تلك الأماكن التي كانت تضم بعضا من آلهة العرب المعبودة من أصنام وتمثاليل، وسواها من الأوثان والأنصاب، بحيث إنها مهوى أفئدة المشركين

1 إغاثة اللهفان في مصاديد الشيطان ط عالم الفوائد (2/ 967)

2 تفسير ابن كثير ط العلمية (7/ 422)

3 التوضيح الرشيد في شرح التوحيد (ص: 52)، المؤلف: خلدون الحقوي.

4 الملل والنحل (3/ 78)، وانظر: منهج الشهرستاني في الملل والنحل ص 625

ومحجتهم التي إليها ينظرون، وكانوا يوجهون إليها أنواعا من العبادات كالطواف والعكوف والذبح والنذر والنحر وغيرها. وكان يشرف عليها حجة وسدنة، وكانوا يهدون إليها أنواعا من الهدايا الجميلة والتحف الثمينة. ولا شك أن توجيههم أنواعا من العبادات لهذه البيوت سواء كان للأصنام الموجودة في داخلها أو كان للبيوت وحدها. كما كان هناك بعض البيوت تعظم لذاتها. كل هذا داخل في الشرك بالله جل وعلا لأنه صرف أنواع من العبادة لغير الله جل شأنه، ولهذا سمي الرسول بعض هذه البيوت بالطاغية. وهذه البيوت هي كالتالي:

1. كعبة نجران: وهي الكعبة التي كانت لبني الحارث بن كعب بنجران في بلاد اليمن.
2. كعبة سنداد: قال ابن الكلبي: وكان لإياد كعبة أخرى بسنداد من أرض بين الكوفة والبصرة..وقيل هو مجرد قصر كان تحج إليه إياد.
3. القليس الذي بناه أبرهة باليمن.
4. رضاء: وهو بيت لبني ربيعة بن كعب.
5. رثام: وهو بيت لحمير بصنعاء، وكانوا ينحرون عنده.
6. ذو الخلصة: وهو بيت من بيوت الشرك المعروفة عند البعض، وإن كان صنما عند البعض الآخر.
7. بيت الربة أو بيت الشمس، وكان سدنتها بني أوس من تميم.
8. بس: بيت لغطفان بناه ظالم بن أسعد لما رأى قريش تطوف بالكعبة وتسعى بين الصفا والمروة، فذرع البيت ثم أخذ حجرا من الصفا وحجرا آخر من المروة، ورجع إلى قومه فبنى بيتا على قدر البيت، ووضع حجرتين قائلا (هذين الصفا والمروة فاجتروا بهما عن الحج).
9. السعيدة بيت في أحج كانت تحج إليه العرب في جاهليتها.

10. **بيت العزى:** قيل إن بعض العرب كانوا حجّوا إليها وطاقوا بها وأهدوا لها وخصوها بالندور..

11. **بيت اللات،** كانت ثقيف تعتبرها قبلة لهم¹. اهـ

وأما أن حجهم وعمرتهم لم يكن على وفق شرع الله فهذا أظهر من أن يستدل عليه، لأنهم كانوا في جاهلية جهلاء، ولذلك وقعوا في مخالفات كثيرة وشنيعة، منها ما يلي:

(1) كان المشركون يطوفون بالبيت عراة. ففي البخاري، قال عروة "كان الناس يطوفون في الجاهلية عراة إلا الحمس والحمس قريش وما ولدت"². وفي لفظ مسلم "كانت العرب تطوف بالبيت عراة، إلا الحمس.."³. وكانوا "يرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض ولا يأخذونها أبدا.. حتى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة"⁴. كما روى ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يعيرني تطوفاً تجعله على فرجها وتقول اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله، فنزلت هذه الآية {خذوا زينتكم عند كل مسجد}⁵. وكما في حديث الشيخين "ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان"⁶.

(2) قال عمر رضي الله عنه: إن المشركين كانوا لا يفيضون من جمع حتى تشرق الشمس على ثبير فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم فأفاض قبل أن تطلع الشمس⁷. اهـ فدلّ على أنهم كانوا "يفيضون من

1 الشرك في القديم والحديث ص 557 إلى ص 560.

2 صحيح البخاري بتحقيق البغا (2/ 599)

3 صحيح مسلم (2/ 894)

4 شرح النووي على مسلم (18/ 162)

5 صحيح مسلم (4/ 2320)

6 صحيح البخاري بتحقيق البغا (1/ 144)، صحيح مسلم (2/ 982)

7 صحيح البخاري بتحقيق البغا (3/ 1394)

جمع بعد طلوع الشمس، وأن السنة جاءت بمخالفة المشركين في ذلك.. والوقوف بجمع إلى قبيل طلوع الشمس"¹.

(3) وروى الشيخان عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأَنْزَلَ اللهُ {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها}².

(4) "الحج عرفة"³، ومع ذلك فقريش لم تكن تقف في الحج بعرفة..! فأبي حج هذا؟! روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: "كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأتي عرفات ثم يقف بها.."⁴. قال المهلب: إنما كان وقوف قريش وهم الحمس عند المشعر الحرام من أجل أنها كانت عزتها في الجاهلية بالحرم، وسكنها فيه، وتقول: نحن جيران الله، فكانوا لا يرون الخروج عنه إلى الحِلِّ عند وقوفهم في الحج، ويقولون: لا نفارق عزنا، وما حرم الله به أموالنا ودماءنا، وكانت طوائف العرب تقف في موقف إبراهيم عليه السلام من عرفة⁵. اهـ

وقال ابن كثير: ..وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات كما كان جمهور الناس يصنعون يقفون بها إلا قريشا، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحِلِّ، ويقولون نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته⁶. اهـ وقال الزرقاني: "ويحج ويعتمر مخالفاً للمشركين في وقوفهم بمزدلفة في الحج، فكان من توفيق الله له أن

1 «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (1/ 396)

2 صحيح البخاري بتحقيق البغا (2/ 639)، صحيح مسلم (4/ 2319)

3 أخرجه الخمسة، النسائي في "المتجنى" 256/5، وفي "الكبرى" (4011)، وأبو داود (1949)، والترمذي (889) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (3015)، وانظر: مسند أحمد ط الرسالة (31/ 64).

4 «صحيح البخاري» (4/ 1643 ت/ د. البغا)

5 شرح صحيح البخاري لابن بطال (4/ 343)

6 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (2/ 259)

يقف بعرفة، لأنه موقف إبراهيم¹. وقال المعلمي اليماني في سياق أن النبي ﷺ كان ملتزماً قبل البعثة بملة إبراهيم: ومن ذلك أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقِفُ بِعَرَفَةَ مَخَالِفاً لِقَوْمِهِ.. وفي رواية لابن خزيمة .. "كانت قريش إنما تدفع من المزدلفة يقولون: نحن الحُمْس فلا نخرج من الحرم، وقد تركوا الموقف بعرفة.."². "وذلك لأن الحُمْس كانوا يترفعون على الناس، ويتعاضمون عليهم، ويأنفون من مساواتهم في المواقف ويقولون: نحن أهل الله، وقطان حرمه، ولا نخرج منه، فيقفون بجمع، ويقف سائر الناس بعرفات"³.

(5) كان يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور فخالفهم النبي، روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور.. ويقولون إذا برا الدبر وعفا الأثر وانسلخ صفر حلت العمرة لمن اعتمر⁴.. اهـ وإنما كانوا يجرمون العمرة في أشهر الحج "كي تستمر أسواق مكة وتجارها في شغل ورواج، فأعلن النبي ﷺ بطلان ذلك، وأمر بفسخ الحج إلى عمرة لإبطال مزاعم الجاهليين على أبلغ الوجوه"⁵، فالسبب إذن في جعلهم العمرة من أفجر الفجور سبب تجاري مالي محض، وهذا يتفق مع ما قلنا من أن حجهم وعمرتهم إنما هي للأصنام وللدنيا والمال لا لله سبحانه.

(6) كانوا يستغرقون حجهم بالتفاخر بآبائهم بدل أن يذكروا الله فأمروا أن يذكر الله بدل ذلك، قال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} [البقرة: 200]. أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد:.. تفاخر العرب بينها بفعال آبائها يوم النحر حين يفتزعون فأمروا بذكر الله مكان ذلك، وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن

1 شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (9/ 57)

2 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 117)

3 مصابيح الجامع لابن الدماميني (4/ 172)

4 صحيح البخاري (2/ 567)، صحيح مسلم (2/ 909)

5 إعلام الأنام شرح بلوغ المرام، د. نور الدين عتر 2/ 527.

عباس قال : كان المشركون يجلسون في الحج فيذكرون فيه أيام آبائهم وما يعُدُّون من أنسابهم يومهم أجمع فأنزل الله: فاذكروا الله كذاكم آباءكم .. وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم يقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويحمل الحملات ويحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فنزلت الآية .. وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: كانوا إذا فرغوا من حجهم تفاخروا بالآباء فنزلت¹.

(7) روى الشافعي في مسنده ومن طريقه البيهقي عن مُجَّد بن قيس بن مخزومة قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: "إن أهل الجاهلية كانوا يدفعون من عرفة حين تكون الشمس كأنها عمائم الرجال في وجوههم قبل أن تغرب ، ومن المزدلفة بعد أن تطلع الشمس حين تكون كأنها عمائم الرجال في وجوههم، وإنما لا ندفع من عرفة حتى تغرب الشمس، أو ندفع من المزدلفة قبل أن تطلع الشمس، هدينا مخالف لهدى أهل الأوثان والشرك"². فكان "الانصراف من عرفة قبل الغروب عمل أهل الجاهلية"³.

(8) قال السرخسي: وإن جعل لله عليه أن يطوف زحفا فعليه أن يطوف ماشيا لأنه إنما يلتزم بالنذر ما يتنفل به أو ما يكون قربة في نفسه وأصل الطواف قربة، فأما الزحف من أفعال أهل الجاهلية وليس بقربة في شريعتنا..⁴.

(9) كان أهل الجاهلية يحجّون في غير أشهر الحج بسبب النسيء الذي ابتدعوه، قال ابن تيمية: "بل أهل الجاهلية لما ابتدعوا النسيء الذي يتضمن إبدال وقت الحج بوقت آخر"⁵.

1 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (2/ 444)

2 معرفة السنن والآثار للبيهقي (7/ 301)

3 مناسك الحج والعمرة والمشروع في الزيارة لابن عثيمين (ص: 106)

4 المبسوط للسرخسي (4/ 87)

5 مجموع الفتاوى (31/ 233)

وبعد فهذه بعض صور مخالفات الحج في الجاهلية، اثنتان منها تبطله وتنسفه نسفاً، وأن قريشا لا تقف بعرفة، وأنهم يحجون في غير وقت الحج بسبب النسيء كما تقدم ، فأى حج هذا؟! وهم عدا عن استغراقهم الحج بتفاخرهم بأبائهم وذكرهم لهم بدل أن يذكروا الله، وطوافهم عراة..! فما بالك إذا أضفنا إلى ذلك الشرك الذي يقومون به في الحج من ذلك طوافهم بالأصنام، وتلييتهم الشركية حين يقولون "لا شريك لك إلا شريكا تملكه وما ملك"!!

فحج لا ذكر لله فيه أصلا وإنما فيه ذكر للآباء المشركين، ولا وقوف فيه بعرفات، ولا هو في زمانه أصلا . بسبب تلاعبهم به وهو الذي سُمي بالنسيء .، والطائفون فيه عراة، وهم يطوفون بالأصنام التي أحاطوها بالكعبة ويجعلون لأهنتهم نصيبا في تلييتهم...!!

حج كهذا تجعلونه مفخرة ومنقبة للمشركين؟! وتعدونه عبادة لله؟! فهل إذا قام مسلم يشهد الشهادتين بمثل هذا الحج ستعدون ما قام به عبادة لله؟! أم ستعدونه أقرب إلى الاستهزاء بالله منه إلى عبادة الله؟! وماذا لو قام بمثل هذا الحج صوفي؟! كم من الشتائم سينال منكم حينها؟! فما بالكم جعلتموه منقبة للمشركين؟!

طبعا هذا الحج يعتبر مثاليا إذا ما قيس بالحج الذي يقوم به العرب إلى بيوت أخرى يحجون إليها كما يحجون للكعبة، حيث كانت كل قبيلة تقريبا تتخذ لديها بيتا تجعله كعبة تحج إليه كما سبق من كلام ابن إسحاق وكلام الطبري، بل من كلام ابن تيمية حيث قال كما سبق "فكل مدينة من مدائن أهل الحجاز كان لها طاغوت تحج إليه وتتخذة شفيعا وتعبده"!!..!

المبحث الثاني: الأعمال الصالحة التي نسبها السلفية للمشركين في الجاهلية

المطلب الأول: الجهاد في الجاهلية

ذكر بعض السلفية أن المشركين "كانوا يجاهدون من يعتدي على بيت الله"¹، ثم احتج بما ذكره ابن إسحاق في قصة أبرهة وعزمه على هدم الكعبة، وأنه سيّر جيشا من أجل ذلك "وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفضعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة، بيت الله الحرام"².

قلت: أولا: بعد التتبع والبحث لم أجد أحدا ذكر هذه القصة سوى ابن إسحاق وبدون إسناد أيضا، ثم نُقلت عنه في كتب السيرة الأخرى³، فالله أعلم بمدى صحتها.

ثانيا: على فرض صحتها، فإنه لم يستجب لهذا الجهاد جميع العرب بدليل قول ابن إسحاق في الرواية نفسها: فخرج إليه رجل من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريد من هدمه وإخراجه، فأجابه إلى ذلك من أجابه، ثم عرض له فقاتله فهُزم ذو نفر وأصحابه⁴. اه فقله: فأجابه إلى ذلك من أجابه يدل على أنه لم يستجب لذلك كل العرب.

وليس هذا فحسب بل بعض قبائل العرب تواطؤوا مع أبرهة لهدم الكعبة إما خشية منه، وإما لأن عندهم بيوتا أخرى غير الكعبة يعظمونها ويحجون إليها كما سبق، وفي ذلك يقول ابن هشام في الرواية نفسها: ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل ابن حبيب الخثعمي في قبيلي خثعم: شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له نفيل أسيرا فأتي به، فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلي خثعم: شهران وناهس بالسمع والطاعة فخلي سبيله. وخرج

1 انظر: مقال على الشبكة بعنوان " الرد على شبهة إسلام الشعوب لإظهارهم بعض شعائر الإسلام "

2 السيرة النبوية لابن هشام (1/ 45)

3 السيرة النبوية لابن هشام (1/ 45)، السيرة النبوية لابن كثير (1/ 31)، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله - ﷺ -

والثلاثة الخلفاء (1/ 85)، الروض الأنف ت الوكيل (1/ 245)، إمتاع الأسماع للمقريزي (4/ 81).

4 السيرة النبوية لابن هشام (1/ 46)

به معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب.. في رجال ثقيف.. فقالوا له: أيها الملك،
إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف. وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد -
 يعنون اللات- إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلّك عليه. فتجاوز عنهم
 ..واللات: بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة. قال ابن هشام: أنشدني أبو عبيدة
 النحوي لضرار بن الخطاب الفهري:

وفرت ثقيف إلى لاها .. بمنقلب الخائب الخاسر

قال ابن إسحاق: فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله
 المغمس؛ فلما أنزله به مات أبو رغال، هنالك فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذي يرجم الناس
 بالمغمس¹. اهـ

فكما أن بعض قبائل العرب قاتلوا أبرهة فإن بعضهم الآخر قد تواطأ معه لهدم الكعبة؛ لأن
 عندهم كعبات أخرى بديلة ككعبة نجران وكعبة السنداد والقليس والسعيدة والعزى واللات وزضاء وذو
 الخلصة وغيرها الكثير كما رأينا، وبالتالي فإن تجعلوا قتال بعض العرب ضد أبرهة لمنعه من هدم الكعبة
 منقبةً لأهل الجاهلية، ذلك ليس بأولى من أن تجعلوا تواطؤ بعضهم الآخرين مع أبرهة لهدم الكعبة مذمةً
 لأهل الجاهلية!

ثالثاً: من قاتل من قريش وغيرهم دفاعاً عن الكعبة لم يكن قتالهم لوجه الله، وإنما فعلوه لسببين:
 الأول: مادي؛ وهو أن الكعبة كانت تدرّ لهم أموالاً كثيرة حين تحج قبائل العرب الأخرى إليهم وإلى ما
 أحاط بها من الأصنام، فكان ذلك يؤمن لهم "مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية عندما تؤم القبائل
 العربية مكة حيث الأصنام الثلاثمائة والستون المحيطة بالكعبة، وينجم عن ذلك حركة بيع وشراء
 تحقق الأرباح الوفيرة"²، ولا سيما أن الله تعالى جعل بيته مهوى أفئدة الناس كما في قوله {فَأَجْعَلْ
 أَفئدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا} [إبراهيم: 37] وجي إليه من كل

1 السيرة النبوية لابن هشام (1/ 46)

2 السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (1/ 147)، د. أكرم ضياء العمري.

الثمرات كما قال تعالى {..أَوْ لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا..} [القصص: 57]. ولذلك "كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة.. وكان سائر العرب يقفون بعرفات" وذلك لأن قريشا "كانت عزتها في الجاهلية بالحرم.. يقولون: لا نفارق عزنا، وما حرم الله به أموالنا ودماءنا"¹. وأيضا كانوا "يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور"²، وذلك "كي تستمر أسواق مكة وتجارها في شغل ورواح"³.

الثاني: ديني؛ وهو أنهم قاتلوا في سبيل الشيطان ودفاعا عن أصنامهم وطواغيتهم التي أحاطوها بالكعبة والتي يطوفون بها حين يطوفون بالكعبة، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ..} [النساء: 76]، قال الطبري: "والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وما جاءهم به من عند ربهم {يقاتلون في سبيل الطاغوت} يعني: في طاعة الشيطان وطريقه ومنهاجه الذي شرعه لأوليائه من أهل الكفر بالله"⁴ اهـ.

وقد بدا هذا جليا بعد البعثة، حيث قاتلوا رسول الله وحاربوه ليردوه عن دينه هو وأصحابه كما قال تعالى: { وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا } [البقرة: 217]، قال الطبري: "ولا يزال مشركو قريش يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن قدروا على ذلك. ثم روى بسنده عن مجاهد أن المقصود بالآية كفار قريش"⁵. ثم روى بسنده عن عروة بن الزبير: "ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا"، أي: هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين يعني: على أن يفتنوا المسلمين عن دينهم حتى يردوهم إلى الكفر، كما كانوا يفعلون بمن قدروا عليه منهم قبل الهجرة"⁶ اهـ وقال الشنقيطي: والكفار يقاتلون الأنبياء، وأتباعهم، ويمانعوهم،

1 شرح صحيح البخاري لابن بطال (4/ 343)

2 صحيح البخاري (2/ 567)، صحيح مسلم (2/ 909)

3 إعلام الأنام شرح بلوغ المرام، د. نور الدين عتر 2/ 527.

4 جامع البيان، ط/ هجر (7/ 229)

5 جامع البيان (3/ 665)

6 جامع البيان (3/ 665)

ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله، وهذا الوجه ظاهر كما قال تعالى: ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا¹. اهـ

ولذلك أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بقتال المشركين لئلا يفتنوا الناس عن دينهم، فقال {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال: 39]، والآيات في ذلك كثيرة منها قوله: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} [التوبة: 36]، وقوله: {وَإِن نَّكثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهِمْ يَنْتَهُونَ} (12) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [التوبة: 12، 13]، أي "ألا تقاتلون أيها المؤمنون هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد الذي بينكم وبينهم وطعنوا في دينكم وظاهروا عليكم أعداءكم وهموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم فأخرجوه. {وهم بدءوكم أول مرة} بالقتال، يعني فعلهم ذلك يوم بدر². اهـ وقال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} (39) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ { [الحج: 39، 40]. قال صديق حسن خان: "أي أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم: ربنا الله³ وحده"⁴. اهـ والمعارك التي قاموا بها ضد رسول الله ﷺ وأصحابه كثيرة كما هو معلوم.

وأختم بهذا النص للشنقيطي حيث قال عند قوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا} [الفرقان: 55]: وكان الكافر معيناً للشيطان وحزبه من الكفرة على عداوة الله ورسوله، فالكافر من حزب الشيطان يقاتل في سبيله أولياء الله، الذين يقاتلون في سبيل الله، فالكافر يعين الشيطان وحزبه في سعيهم؛ لأن تكون كلمة الله ليست هي العليا، وهذا المعنى دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون

1 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (5/ 790)

2 جامع البيان (11/ 367)

3 وقد علق بعض الفضلاء هنا فذكر أن في هذه الآية دليلاً على عدم إيمان المشركين بالله رباً، إذ قد صرحت الآية بمنطوقها أن علة إخراجهم بإيمانهم بالله رباً، فلا يستوي أن يخرجوهم لو كانوا يقولون مثلهم: ربنا الله! فتأمل.

4 فتح البيان في مقاصد القرآن (9/ 56) لصديق حسن خان، المكتبة العصرية، تحقيق الشيخ عبد الله الأنصاري.

في سبيل الطاغوت.. ومعلوم أن الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، المقاتلين في سبيل الله، أنه على ربه ظهير. وقوله تعالى: واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون، على قول من قال: إن الجند المحضرون هم الكفار، يقاتلون عن آلهتهم ويدافعون عنها، ومن قاتل عن الأصنام مدافعا عن عبادتها، فهو على ربه ظهير، وكونه ظهيرا على ربه، أي: معينا للشيطان وحزبه على عداوة الله ورسوله؛ ككونه عدوا له المذكور في قوله تعالى: من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين، وقوله تعالى: ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون¹. اهـ

والحاصل أن "جهاد" المشركين إنما كان في سبيل طواغيتهم وأصنامهم وشركهم وأهوائهم وملذاتهم معادين لله ورسوله، قبل البعثة وبعدها، فأي جهاد هذا وأي منقبة هذه تذكرونها لهم؟!

الجهاد هو القتال لإعلاء كلمة الله كما في حديث البخاري: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية ويقاقل شجاعة ويقاقل رياء، فأبي ذلك في سبيل الله؟ قال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)¹، قال ابن دقيق العيد في شرح هذا الحديث: "ألا ترى أن العرب في جاهليتها كانت تقاقل للحمية وإظهار الشجاعة، ولم يكن لها قصد في المراءاة بإظهار الرغبة في ثواب الله تعالى والدار الآخرة؟"². وهذا كلام واضح في أن قتال أهل الجاهلية لم يكن رغبة في ثواب الله وإنما هو للحمية والرياء، وهذا ليس منقبة، بل إن ابن تيمية نفسه يقول بأن هذا من الذنوب، حيث يقول: والقتال كثيرا ما يقاتل الإنسان فيه لغير الله كالذي يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء. فهذا كله ذنوب³. اه فإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون قتالهم منقبة لهم؟!

1 صحيح البخاري بتحقيق البغا (6/ 2714)

2 إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (2/ 320)

3 مجموع الفتاوى (11/ 694)

المطلب الثاني: الاعتكاف والنذر عند أهل الجاهلية

ذكر بعض السلفية¹ أن المشركين "كانوا يندرون ويعتكفون"، وبسط ذلك صالح آل الشيخ فقال: ومنهم أهل التقرب إلى الله بالطواف والتحنث والاعتكاف.. كذلك كانوا يعتكفون تعبداً، ومنهم حديث عمر المعروف: إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام. فقال له النبي عليه الصلاة والسلام "أوفِ بنذرك"².

قلنا: هذا غير مسلم، أما أنهم كانوا يندرون، فالجواب عنه من وجوه: **الوجه الأول**: النذر اختلف في حكمه اختلافاً شديداً هل هو مندوب أو مكروه أو سوى ذلك؟ أقوال؛ والذين قالوا بأنه مندوب³ لهم في ذلك تفصيل وخلاف⁴ ليس هذا موضع بسطه، والذي ذهب إليه كثير من الفقهاء أن النذر مكروه وأنه ليس قرينة كما سيأتي، لثبوت النهي عنه في أحاديث كثيرة صحيحة صريحة تنهى عنه، منها ما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى النبي ﷺ عن النذر، قال: (إنه لا يرد شيئاً وإنما يستخرج به من البخيل)⁵، ولفظ مسلم «النذر لا يقدم شيئاً، ولا يؤخره، وإنما يستخرج به من البخيل»⁶. وروى الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً واللفظ لمسلم: "لا تنذروا، فإن النذر لا يغني

1 انظر: مقال على الشبكة بعنوان "الرد على شبهة إسلام الشعوب لإظهارهم بعض شعائر الإسلام".

2 شرح كشف الشبهات - صالح آل الشيخ (ص: 37)

3 وإليه ذهب الحنفية والمالكية في النذر المطلق، وبعض الشافعية. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (40/ 138)

4 فمن ذلك ما قاله ابن المواق المالكي في التاج والإكليل (4/ 493) "قال ابن رشد: النذر المستحب هو المطلق الذي يوجبه الرجل على نفسه شكراً لله على ما أنعم عليه فيما مضى أو لغير سبب، وذلك أن يقول الرجل: لله علي نذر كذا وكذا أو نذر أن أفعل كذا. وقال ابن الرفعة كما في فتح الباري (11/ 578): الذي دلّ الخبر على كراهته نذر المجازاة، وأما نذر التبرّر فهو قرينة محضة؛ لأنّ للتأذير فيه غرضاً صحيحاً، وهو أن يثاب عليه ثواب الواجب، وهو فوق ثواب التّطوّع. وقال القرطبي في المفهم (4/ 607) بعد أن ذكر بعض صور النذر المكروهة والمحرمة: فأما النذر الخارج عما تقدم: فما كان منه غير معلق على شيء، وكان طاعة؛ جاز الإقدام عليه، ولزم الوفاء به. وأما ما كان منه على وجه الشكر: فهو مندوب إليه؛ كمن شفي مريضه فقال: لله علي أن أصوم كذا، أو أتصدق بكذا شكراً لله تعالى. اهـ وانظر أيضاً فتح الباري (11/ 576).

5 صحيح البخاري بتحقيق البغا (6/ 2437).

6 صحيح مسلم (3/ 1261).

من القدر شيئاً وإنما يستخرج به من البخيل"1. وفي لفظ لمسلم: "أنه نهي عن النذر وقال: إنه لا يردّ من القدر، وإنما يستخرج به من البخيل"2. اهـ

وقد بين العلماء أن وجه "هذا النهي هو: أنه لما وقف فعل هذه القرية على حصول غرض عاجل ظهر: أنه لم يتمحض له نية التقرب إلى الله تعالى بما صدر منه، بل سلك فيها مسلك المعاوضة. ألا ترى: أنه لو لم يحصل غرضه لم يفعل؟! وهذه حال البخيل؛ فإنه لا يخرج من ماله شيئاً إلا بعوض عاجل يري على ما أخرج.. ثم ينضاف إلى هذا اعتقاد جاهل يظن: أن النذر يوجب حصول ذلك الغرض، أو: أن الله تعالى يفعل معه ذلك الغرض لأجل ذلك النذر. وإيهما الإشارة بقوله - صلى الله عليه وسلم -: ((إن النذر لا يرد من قدر الله شيئاً)). وهاتان جهالتان. فالأولى تقارب الكفر. والثانية خطأ صراح.. والذي يظهر لي: حملة على التحريم في حق من يخاف عليه ذلك الاعتقاد الفاسد. فيكون إقدامه على ذلك محرماً. والكراهة في حق من لم يعتقد ذلك³. اهـ

وفيما يلي بعض نصوص العلماء الذين نصّوا على كراهة النذر:

(1) قال الخطابي عن النذر: هذا باب غريب من العلم، وهو أن ينهى عن الشيء أن يفعل، حتى إذا فُعل وقع واجبا⁴. اهـ

(2) قال ابن قدامة في النذر: ولا يستحب لأن ابن عمر روى عن النبي - ﷺ - «، أنه نهي عن النذر..».. وهذا نهي كراهة، لا نهي تحريم.. ولأن النذر لو كان مستحباً، لفعله النبي - صلى الله عليه وسلم - وأفاضل أصحابه⁵.

1 صحيح البخاري بتحقيق البغا (6/ 2437)، صحيح مسلم (3/ 1261).

2 صحيح مسلم (3/ 1261)

3 «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (4/ 606)، وانظر أيضاً: «الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (18/ 161)، «البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج» (28/ 506).

4 «أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري)»، ط1/ جامعة أم القرى (4/ 2277)

5 المغني لابن قدامة (13/ 621)

(3) قال الحافظ: وقد ثبت النهي عن النذر بخصوصه فيكون مكروها، وإني لأتعجب ممن انطلق لسانه بأنه ليس بمكروه مع ثبوت الصريح¹ عنه فأقل درجاته أن يكون مكروها كراهة تنزيه².

(4) وقال ابن تيمية: وأصل عقد النذر منهي عنه³.

(5) وذكر الشنقيطي أن أحاديث النهي عن النذر فيها "الدلالة الصريحة على النهي عن الإقدام على النذر، وأنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل.. وذهب أكثر الشافعية إلى أنه مكروه.. ونقل نحوه عن المالكية أيضا، .. وجزم الحنابلة بالكراهة، وعندهم رواية في أنها كراهة تحريم، وتوقف بعضهم في صحتها، وكراهته مروية عن بعض الصحابة⁴. وأطال الشنقيطي في ذلك⁵.

نعم إذا نذر طاعة لزمه الوفاء لقوله {ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ} [الحج: 29]، ويُمدح ويثاب لا على نذره وإنما على الوفاء به، وعلى ذلك تُحمل الآيات المادحة للنذر مثل قوله تعالى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} [الإنسان: 7]، وقوله: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ} [البقرة: 270]، كما أنه يُذم ويعاقب على عدم الوفاء به، ولذا

1 كذا وقع في المطبوع من فتح الباري، ط/السلفية، وكأنه سقط قبل ذلك كلمة "النهي"، أي أن الصواب "مع ثبوت النهي الصريح"، وقد جاء على الصواب بإثباتها في «سبل السلام شرح بلوغ المرام» (8/ 31 ت حلاق) حيث قال: «وقال المصنف: وأنا أتعجب ممن أطلق لسانه بأنه ليس بمكروه مع ثبوت النهي الصريح، فأقل درجاته أن يكون مكروها».

2 فتح الباري (11/ 578)

3 مجموع الفتاوى (11/ 505)

4 أضواء البيان (5/ 737)

5 وحاصل ما ذكره الشنقيطي أن أحاديث النهي عن النذر فيها "الدلالة الصريحة على النهي عن الإقدام على النذر، وأنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل..". ثم يقول "وفي الأحاديث المذكورة إشكال معروف؛ لأنه قد دل القرآن على الثناء على الذين يوفون بالنذر، وأنه من أسباب دخول الجنة..". ويسرد الآيات السابقة.. إلى أن يقول: ولأجل هذا الإشكال المذكور اختلف العلماء في حكم الإقدام على النذر.. ثم يرى الشنقيطي أن حل الإشكال هو أن يقال أن "نذر القربة على نوعين أحدهما: معلق على حصول نفع كقوله: إن شفى الله مريضى" وأن النهي عن النذر محمول على هذا النوع "لأن النذر فيه لم يقع خالصا للتقرب إلى الله، بل بشرط حصول نفع للناذر". والنوع الثاني "نذر القربة الخالص من اشتراط النفع في النذر، فهو الذي فيه الترغيب والثناء على الموفين به المقتضى أنه من الأفعال الطيبة". وهذا الجمع هو "الذي لا ينبغي العدول عنه". انظر أضواء البيان (5/ 737) وما بعدها

جاء في حديث عمران بن حصين عند البخاري مرفوعاً "خيركم قرني.. ثم يجيء قوم ينذرون ولا يفون"¹. وأنت ترى أن المدح جاء على الوفاء بالندر لا على النذر نفسه اللهم إلا إذا كان نذر طاعة لا نفع فيه للناذر، قال الحافظ: وقول الله تعالى يوفون بالندر يؤخذ منه أن الوفاء به قرينة للثناء على فاعله لكن ذلك مخصوص بنذر الطاعة. أخرج الطبري من طريق مجاهد في قوله تعالى يوفون بالندر قال إذا نذروا في طاعة الله.2. اهـ

وبه تعلم أن ما ذكره ابن عبد الوهاب وحفيده وكثير من أتباعه من أن النذر عبادة³ وقرينة مطلقاً هو غير صحيح لما سبق بيانه، بل النذر منهي عنه، وإنما الوفاء به قرينة، والحفيد خلط بين المقامين حيث يقول عن النذر: "إنه من العبادة، فيكون صرفه لغير الله شركاً، فإذا نذر طاعة وجب عليه الوفاء بها وهو عبادة، وقرينة إلى الله. ولهذا مدح الله الموفين به"⁴، وهذا الخلط وقع فيه كثير من السلفية⁵، مع أن ابن تيمية نبه على الفرق بين المقامين، فقال: وأصل عقد النذر منهي عنه.. وإذا نذر فعليه الوفاء بما كان طاعة لله كالصلاة والصدقة والصيام والحج؛ دون ما لم يكن طاعة لله تعالى⁶. اهـ وتبعه بعض السلفية، فهذا الفوزان يقول: والندر - في الأصل - غير مشروع، ولا يُستحب للإنسان أنه ينذر لتهيئه صلى الله عليه وسلم عن النذر.. ولكنه إذا نذر ورّط نفسه، ووجب عليه الوفاء بالندر⁷. اهـ وقال أبو بكر

1 «صحيح البخاري» (6/ 2463 ت البغا)

2 فتح الباري لابن حجر (11/ 576)

3 مجموعة مؤلفات ابن عبد الوهاب 5/ 229. وتيسير العزيز الحميد (ص: 393)، الشرك في القديم والحديث (ص: 1138).

4 تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، دار الصميعي، الرياض (ص: 387)

5 انظر: شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (ص: 534)، آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية ص170، مُجَّد بن عبد العزيز الشايع . والشيخ مُجَّد أبو زهرة وآراؤه الاعتقادية ص151، رسالة دكتوراة لفهد النمري، الناشر: جامعة أم القرى.

6 مجموع الفتاوى (11/ 505)

7 إغاثة المستفيد شرح كتاب التوحيد (1/ 244)

زكريا: وأما النذر فهو عبادة.. باعتبار الوفاء به، وأما باعتبار ابتداء النذر فقد صحّ النهي عنه، فالمقصود هنا في كونه عبادة باعتبار الوفاء به حيث إن الله مدح الموفين بالنذر¹.

الوجه الثاني: على التسليم بأن النذر قرينة وطاعة وعبادة مطلقا، فهو ليس قرينة من المشركين للأسباب التالي:

السبب الأول: لأن "الذي يجب الوفاء به ما يتقرب به إلى الله، والكافر لا يصح منه التقرب بالعبادة"²، ولذلك فإن "الكافر إذا قال: لله عليّ اعتكاف أو صيام، ثم فعل ذلك، لم يكن بذلك متقرباً إلى الله، فأشبه ذلك قوله عليه السلام: (لا نذر في معصية) لأن ما لم يصح أن يكون طاعة لا يلزم الوفاء به"³. وأما حديث عمر السابق "نذرت في الجاهلية..أوفيت بنذرك" فأجاب عنه المازري: تحمّل هذا عندنا على أنّه أراد في أيام الجاهلية ولم يرد وهو على دين الجاهلية لأن الكافر لا يلزمه عندنا نذر"⁴. "أي: نذر بعد إسلامه في جاهلية أهل مكة الذين منعوهم من دخول مكة، ومن الوصول للحرم، قيل: وهو بعيد. قلت: بل قريب؛ لأنهم حينئذ لا يتمكنون من دخول المسجد، فيوفي نذره، وأما قبل الهجرة فكانوا ممنوعين من المسجد، فكان يمكنه أن يوفي نذره لا سيما قبل أن يسلم"⁵. وقيل "الأمر فيه للندب لا للوجوب؛ لعدم أهلية الكافر للتقرب بنذر، أو غيره من القرب"⁶. أي "لم يأمر عمر على جهة الإيجاب بل على جهة المشورة كذا قال، وقيل: أراد أن يعلمهم أن الوفاء بالنذر من آكد الأمور، فغلظ أمره بأن أمر عمر بالوفاء"⁷.

1 الشريك في القديم والحديث (ص: 1138)، وانظر أيضا: مسائل خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية، مُجّد حسن عبد الغفار (11/5، ت.ش)

2 فتح الباري لابن حجر (11/582)

3 شرح صحيح البخاري لابن بطال (6/158)

4 المعلم بفوائد مسلم (2/369)

5 اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح للبرماوي (6/500)

6 منحة الباري بشرح صحيح البخاري (4/463)

7 فتح الباري لابن حجر (11/582)

وهذا ما ذهب إليه جمهور الفقهاء وهو ما قال به "الشافعي وجلّ أصحابه.. وكذا قال المالكية والحنفية"¹، وهو أن الكافر لا يجب الوفاء بنذره إذا أسلم بل يستحب.

السبب الثاني: لأن نذور أهل الجاهلية كانت لألهتهم المزعومة وليس لله، روى الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (لا فرع ولا عتيرة)، قال الحافظ: قال أبو عبيد: العتيرة هي الرجبية ذبيحة كانوا يذبحونها في الجاهلية في رجب يتقربون بها لأصنامهم ..² اهـ وقال ابن بطال:..والفرع: أول التاج، كانوا يذبحونه لطواغيتهم، والعتيرة: في رجب..قال أبو عمرو: ..كانوا يذبحونه في الجاهلية لألهتهم فنهوا عنها..³ اهـ وقال التبريزي: وفي الحديث (لا عتيرة) وكانوا يذبحونها لألهتهم..⁴ اهـ

وهكذا فما كان نذرهم "إلا تقديم النذور للآلهة؛ لتجيب لها طلباتها وتنعم عليها بنعمائها..⁵ وأحيانا "يذكر الناظر في نذره أنه إن أجاب الإله الفلاني طلبه وبارك له، ومنحه طفلاً يخدمه له، أو يسميه عبده، أي عبد ذلك الإله الذي نذر له..ومن هذا القبيل عبد مناف وعبد مناة"⁶. ومن هذا القبيل أيضاً نذر المواهب، كأن ينذر شخص مواهبه لصنم أو لمعبد، ويعبر عنه بـ ((النذيرة"، وذلك لأنه حُبس على خدمة الإله أو الصنم أو المعبد وتفرغ، فلا يخدم أحداً سواها)⁷، وقد كان أصحاب النذور يتنسكون، ويكثرون من تعبدهم ومن تقربهم للصنم الذي نذروا له؛ ليمنّ عليهم ويحقق لهم ما طلبوه. وقد أشار "البيد" إلى الناسكات ينتظرن النذر بقوله:

توجس النبوح شعثاً غيراً .. كالناسكات ينتظرن النذراً⁸

وفيما يلي نصوص لابن تيمية وأتباعه تبين أن المشركين كانوا يندرون لأصنامهم:

1 فتح الباري لابن حجر (11/ 582)

2 فتح الباري (9/ 598)

3 شرح صحيح البخاري لابن بطال (5/ 378)

4 شرح القصائد العشر (ص: 273)

5 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11/ 190) نقلا عن الروض الأنف "1/ 6".

6 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11/ 190) نقلا عن الروض الأنف "1/ 6".

7 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11/ 190)

8 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11/ 191)

(1) قال ابن تيمية: وأما "النذر للموتى" فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى.. وهو شبيه بمن ينذر للكنائس؛ والرهبان وبيوت الأصنام¹.

(2) وقال ابن القيم: فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر أي تقبل العبادة من دون الله تعالى، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، ويتمسحون بذلك النصب ويستلمونه². اهـ

(3) ويذكر حفيد ابن عبد الوهاب أن من الشرك النذر لغير الله كالنذر للشيخ عبد القادر بل "إن هذا النذر نظير ما جعلته المشركون لألهتهم في قوله تعالى: { هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا } وقوله: { وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ } حذو القذة بالقذة"³. اهـ

(4) وقال الأفعاني: والرسول ﷺ أبطل دين المشركين ومداره على الاستغاثة والالتجاء إلى غيره، وهي كانت عبادة الوثنيين، وكالذبح، والنذر⁴. اهـ

(5) وقال دمشقية: ولهذا نجد عندهم شرك دعاء غير الله على النحو الذي كان عليه أهل الجاهلية من نذر وذبح للأولياء وللأضرحة⁵.

وإذا كان النذر لألهتهم وأصنامهم فهذا عبادة للأصنام وليس لله، فهو "نذر شرك ومعصية لله تعالى" كما قال ابن تيمية في نصه السابق، ونحوه قول الحفيد: والنذر لغير الله

1 مجموع الفتاوى (504 / 11)

2 إغاثة اللفهان (1 / 212)، وانظر أيضا فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: 139)

3 التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 282)، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (المتوفى: 1233هـ)، دار طيبة، الرياض، ط1/1984م.

4 جهود علماء الحنفية (2 / 1185)

5 موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 141)

إشراك مع الله، إلى أن قال: فالنذر لغير الله كالذبح لغيره¹. وقول الغنيمان: وإن نذر أن يذبح لصاحب قبر فلا يجوز له الوفاء به لكونه نذر نذر معصية، وإن فعل فقد أشرك شركا أكبر².

السبب الثالث: إن كثيرا من نذور أهل الجاهلية كان في معصية سوى قضية النذر لأصنامهم التي سبقت، أو فيما هو عبث لا فائدة منه حيث كان كثير من نذورهم "بتجنب الطيبات واللذيق من العيش، أو بالابتعاد عن الناس واعتزالهم على نحو ما يفعله الرهبان والناسكون لأمد معين أو لأجل غير معلوم"³، ونذر المعصية لا يجوز إجماعا، وهذه بعض الصور لنذرهم في المعصية:

(1) قال تعالى: { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ } [المائدة: 103] قال

المازري: وأما السائبة فقليل: هو ما كان أحدهم يفعله إِذَا مَرَضَ فَيَنْذِرُ إِنْ شَفِيَ أَنْ يَسِيْبَ نَاقَتَهُ، فإذا فعل ذلك لم تمنع من ماءٍ ولا كلاً ولا يسيبون غير الناقة⁴. وهذا نذر أقل ما يقال فيه إنه عبث لا فائدة فيه. وقال القاضي عياض: { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ } كانوا يندرونها في الجاهلية، يسيبون نوقهم فتبقى سائبة لا تُمنع من رعي ولا ماء، ولا ينتفع بها⁵. وقال الحافظ: .. كانوا في الجاهلية إذا نذروا قال أحدهم ناقتي سائبة أي تسرح ولا تمنع من مرعى والسائبة أن يقول لعبده أنت سائبة أو أعتقتك سائبة فيصح عتقه⁶.

(2) ومن ذلك أن عبد المطلب نذر "لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لَيَذْبَحَنَّ أَحَدَهُمْ لِلَّهِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ"⁷.. وقد سبقت القصة، والشاهد هنا أن نذر ذبح أحد أولاده وهذا نذر معصية بلا ريب.

1 تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، دار الصميعي، الرياض (ص: 393)

2 جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة، للغنيمان (ص: 610)

3 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11 / 195)

4 المعلم بفوائد مسلم (3 / 360)

5 إكمال المعلم بفوائد مسلم (3 / 342)

6 فتح الباري (هدى / 136)

7 البداية والنهاية ط هجر (3 / 345)

3) ومن ذلك ما ذكره عن امرئ القيس أنه قال حينما بلغه مصرع والده: "الخمير علي والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مائة وأجز نواصي مائة"¹، فهنا نذر امرؤ القيس ألا يشرب الخمر ولا يقرب النساء حتى يقتل من بني أسد، فهذا نذرٌ شرطه القتل ووفاءه شرب الخمر ومضاجعة النساء وذلك بالزنا لكون امرئ القيس مشهوراً بذلك، فقد "كان يعدّ من عشاق العرب والزّناة"²، وهذه ظلمات بعضها فوق بعض، فأنى يكون مثل هذه الظلمات عبادة لله؟! إن صح أن ذلك عبادة فهو عبادة للشهوات والملذات لا أكثر..!! بل إن امرأ القيس متهم بأنه "شاعر ملحد من أمة لم يأتها نذير كما أخبر ربنا جلّت حكمته.. ونفسه تستشرف إلى معرفة الصانع الذي هو وراء ما لا يستطيع، وكل هذه لحظات خاطفة لم يعطها الشاعر حقها من التأمل والمراجعة، وقلمنا نجد في شعره تعظيماً لمعبود بحق ولا بباطل حتى البيت الذي أجمع العرب على تعظيمه لم نجد في شعره ما يدل على أنه حجّه ولا عظم مشاعره، ولا ذكره بالإجلال الذي ذكره به أمثال النابغة وزهير"³.

فهذه بعض صور نذر المعصية في الجاهلية وما لا فائدة فيه، وهذه ليست من العبادة في شيء، بل هو إن كان متضمناً لمعصية فالنذر عندها معصية ولا يجب الوفاء به، لما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه)⁴. **قال الحافظ:** اتفقوا على تحريم النذر في المعصية، واختلافهم إنما هو في وجوب الكفارة،⁵ اهـ ونقل هذا النص الحفيد مقراً⁶. وقال ابن قدامة: ونذر المعصية، أن يقول: لله علي أن أشرب الخمر، أو

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11 / 195)

2 الشعر والشعراء لابن قتيبة (1 / 122)

3 الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء ص 135، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط 2.

4 «صحيح البخاري» (6 / 2463 ت البغا)

5 فتح الباري لابن حجر (11 / 587)

6 تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، دار الصميعي، الرياض (ص: 395)

أقتل النفس المحرمة. وما أشبهه، فلا يفعل ذلك، ويكفر كفارة يمين¹. اه وقال ابن تيمية: وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به².

وإذا كان قد وقع في صدر الإسلام نذور لا فائدة منها فما بالك بما كان في الجاهلية؟! لقد كان بعض الصحابة رضي الله عنهم ينذر نذورا فينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك لكونها معصية أو لا فائدة منها، ومن ذلك ما يلي:

(1) جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم (مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه). قال الحافظ: وفيه أن كل شيء يتأذى به الإنسان ولو مالا مما لم يرد بمشروعيته كتاب أو سنة، كالمشي حافيا، والجلوس في الشمس ليس هو من طاعة الله، فلا ينعقد به النذر³. اه ونقل الشنقيطي هذا النص عن الحافظ مقرا⁴. وقال ابن تيمية في هذا الحديث: وهذا صريح في أن هذه الأعمال ليست من القرب التي يؤمر بها الناذر⁵. اه

(2) وقال الحافظ أيضا: ووقع عند الإسماعيلي من وجه آخر عن أبي بكر الصديق أن المرأة قالت له: كان بيننا وبين قومك في الجاهلية شر فحلفت إن الله عافانا من ذلك ألا أكلم أحدا حتى أحج. فقال: إن الإسلام يهدم ذلك، فتكلمي. وللفاكهي من طريق زيد بن وهب عن أبي بكر نحوه، وقد استدل بقول أبي بكر هذا من قال بأن من حلف ألا يتكلم استُحِبَّ له أن يتكلم ولا

1 «المغني» لابن قدامة (13/ 622 ت التركي)

2 مجموع الفتاوى (11/ 504):

3 انظر فتح الباري لابن حجر (11/ 590)

4 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (4/ 336)

5 الفتاوى الكبرى (2/ 479)

كفارة عليه لأن أبا بكر لم يأمرها بالكفارة، وقياسه أن من نذر أن لا يتكلم لم يعتقد نذره..¹ اهـ

(3) **وقال الحافظ:** وقد روى أحمد والفاكهي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ أدرك رجلين وهما مقترنان فقال: ما بال القران؟ قالوا: إنا نذرنا لنقترن حتى نأتي الكعبة، فقال: أطلقا أنفسكما ليس هذا نذرا، إنما النذر ما يتغى به وجه الله².

(4) وروى أبو داود عن ابن عباس: أن النبي ﷺ - لما بلغه أن أخت عقبة بن عامر نذرت أن تحج ماشية قال: «إن الله لغني عن نذرها مرها فلتركب»³، صححه الحافظ وذكر أن أصله في الصحيحين⁴، وروى أبو داود والنسائي وأحمد نحوه عن عقبة بن عامر ولفظه: أنه سأل النبي ﷺ - عن أخت له نذرت أن تحج حافية غير مختمرة، فقال: "مروها فلتختمر ولتركب، ولتصم ثلاثة أيام"⁵.

السبب الثالث: أنهم لا يوفون بنذورهم، وهذا دلّ عليه حديث عمر نفسه الذي يحتج به الخصم كما سيأتي، بل كانوا يتلاعبون بذلك، فقد "كان بعض أصحاب النذور ينذر، فإذا تمّ النذر

1 فتح الباري لابن حجر (7/ 150)

2 فتح الباري (3/ 482)

3 انظر سنن أبي داود ت الأرئووط (5/ 188)، وقال الأرئووط: إسناده صحيح. ونقل الألباني في إرواء الغليل (8/ 324) تصحيحه عن الحافظ ابن حجر مقرا كما سيأتي.

4 قال الحافظ في التلخيص الحبير، ط/ أضواء السلف (ص: 3145): حديث: {أن أخت عقبة نذرت أن تحج ماشية، فسئل النبي ﷺ فقيل: إنها لا تطيق ذلك، فقال: فلتركب، ولتهد هديا}. وفي رواية أبي داود من حديث عكرمة، عن ابن عباس: {أن أخت عقبة بن عامر نذرت أن تمشي إلى البيت، فأمرها رسول الله ﷺ أن تركب، وتهدى هديا}. وإسناده صحيح، ثم قال بعد ذلك: وروي {أن النبي ﷺ أمر أخت عقبة بن عامر وقد نذرت أن تمشي بحج أو عمرة}. لم أجده هكذا، وهو متفق عليه من حديث عقبة بن عامر بلفظ: {نذرت أختي أن تمشي إلى بيت الله، وأمرتني أن أستفتي رسول الله ﷺ، فقال: لتمش ولتركب}. اهـ

5 قال محققو مسند أحمد ط الرسالة (28/ 540): حديث صحيح دون قوله: "ولتصم ثلاثة أيام" .. وأخرجه كذلك الدارمي (2334)، وأبو داود (3294)، ويعقوب بن سفيان في "المعرفة" 505/2-506، والبيهقي في "السنن" 80/10 من طرق عن يحيى بن سعيد الأنصاري، به.

وصار، وبلغت إبلهم أو غنمهم ذلك العدد؛ بخل بإبله أو شائه، وضاقت نفسه عن الوفاء، وضمن بإبله وبغنمه فاستعمل التأويل، وقال: **إنما قلت إني أذبح كذا وكذا شاة، والظباء شاء، كما أن الغنم شاء، فيجعل ذلك القربان شاء كله مما يصيده من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حنزة اليشكري:**

عننا باطلاً وظلمًا كما تع .. تر عن حجرة الربيض الظباء¹

قال التبريزي في شرحه للمعلقات: (عننا) معناه اعتراضا يقول: أنتم تعترضون بنا اعتراضا، وتدعون الذنوب علينا ظلما لنا وميلا علينا، وأصل العتر الذبح في رجب، وفي الحديث (لا عتيرة) وكانوا يذبحونها لأهنتهم، والعرب كانت تنذر النذر، فيقول أحدهم: إن رزقي الله مائة شاة ذبحت عن كل عشرة شاة في رجب². اهـ

السبب الرابع: أنهم إن وفوا بالنذر فليس طمعا بثواب الله وخوفا من عقابه، بل "لاعتقادهم أنهم إن أكلوها ولم يوفوا بها، غضبت عليهم الآلهة، ولا سيما الإله الذي جعلوا نذرهم له، فيصابون بغضب منها، وينالهم مكروه، فهم لذلك يوفون نذورهم ولا يقصرون في الأداء، إلا الحاجة أو لاستهتار أو لتغلب الشح على النفس، ومع ذلك، فقد كانوا يلجؤون إلى الحيل الشرعية في هذا التهرب، بإيجاد الحلول والأعذار"³.

فإن قيل: كون أهل الجاهلية يندرون لأهنتهم ويندرون نذورا في المعاصي والعبث لا يمنع أنهم كانوا يندرون لله أيضا، بدليل حديث عمر فقد أمر النبي ﷺ عمر بالوفاء بنذره ولو كان نذره للأصنام ونحو ذلك لما أمره بالوفاء به. قلنا: هذا أوان الوجه التالي وهو:

الوجه الثالث: وفيه نجيب عن حديث عمر "إن نذرت في الجاهلية..أوف بنذرك" فنقول:

أولا: هذا الحديث يدل على عكس ما أردتم، فأنتم أردتم أن تجعلوا من هذا الحديث منقبة لأهل الجاهلية، وهي أنهم يتعبدون الله بالنذر، ولكن الحديث لا يفيد هذا بل يفيد ارتكابا لمخزورين؛

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11 / 207)

2 شرح القصائد العشر (ص: 273)

3 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11 / 192)

الأول: هو النذر لأنه منهي عنه وهو مكروه على الأقل كما سبق، **والثاني:** عدم الوفاء به وهذا حرام قطعاً!

ثانياً: حتى لو فرضنا أن عمر وثى بنذره في الجاهلية، فمن أين يدل على أن كل أهل الجاهلية أو جلهم كانوا يندرون بعض نذورهم لله تعالى وحده نذر طاعة ثم يوفون بها؟! الحديث يتناول واقعة معينة أو حالاً مفردة، فمن أين عمّمتم الأمر على كل أهل الجاهلية بأنهم "كانوا يندرون ويعتكفون"؟ ثم إن أردتم تعميم حديث عمر هذا على أهل الجاهلية كلهم ولا بد فالواجب أن تقولوا بأن أهل الجاهلية كانوا يندرون ولا يوفون بنذورهم، لأن هذا هو ما دلّ عليه حديث عمر من أنه نذر في الجاهلية ولم يف بنذره كما سبق بيانه.

فإن قلتم: سلّمنا بأن حديث عمر دلّ على أنه لم يف بنذره في الجاهلية، ولكن محلّ الشاهد فيه عندنا هو أن فكرة النذر كانت في الجاهلية. **قلنا:** نعم، ولكن كما بيّنا سابقاً أن نذورهم كانت لأهتهم وفي المعاصي الأخرى، فضلاً عن أنهم لا يوفون بالنذور ويتلاعبون بها.

ثالثاً: أما قولكم " ولو كان نذره للأصنام ونحو ذلك لما أمره بالوفاء به " فهذا يكون صحيحاً لو أنه أمره بالوفاء به قبل إسلامه، بمعنى أننا لو فرضنا أن عمر قبل أن يسلم سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوفاء بنذره فأمره بالوفاء به لصح قولكم هذا، حيث يتعين حينها أنّ نذره كان لله وإلا لما أمره بالوفاء به، أما وأنه سأله بعد أن يسلم وأمره بالوفاء به فالمقصود هنا أن يفى به وينوي أن يكون اعتكافه خالصاً لوجه الله لا للآلهة التي كان يعبدها قبل الإسلام لأنه بعد الإسلام صار يشهد أن لا إله إلا الله ولا يعبد سواه، ومن المعلوم أن الفعل نفسه يختلف حكمه باختلاف النية للحديث الذي يرويه الفاروق نفسه "إنما الأعمال بالنيات"، وبالتالي فإنه إن كان عمر نذر الاعتكاف عبادة للآلهة التي كان يعبدها في الجاهلية، فإنه سيفى بنذره هذا ولكن سينوي به أنه لله وحده.

ولو سلّمنا جدلاً أن عمر حين نذر الاعتكاف في الجاهلية كان ينوي أنه لله وحده، وأن هذه الفكرة أي فكرة النذر لله وحده كانت موجودة في الجاهلية: فهذا لا يفيد في شيء، لأن فكرة توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام كانت موجودة لديهم كما أتينا بشواهد كثيرة على ذلك، فهل يعمّم هذا

فيقال إن أهل الجاهلية كانوا يبنون عبادة الأصنام لوجود أفراد كانوا يبنونها؟ تماما كما قلمت هنا عن المشركين بأنهم "كانوا يندرون ويعتكفون"؟! وما هو جوابكم هو جوابنا.

ثانيا: نجيب الآن عن الاعتكاف، فضلا عما تقدم من أن المشركين لا يفعلون ذلك تدينا لأنهم لا يؤمنون بيوم الدين أصلا، وأن هذا الاعتكاف الذي نذره عمر لم يف به أصلا في الجاهلية، وعلى التسليم بأن مثل هكذا اعتكاف كان موجودا في الجاهلية فهو يصدر من أفراد قلائل ولا يعم كل مجتمع الجاهلية، نقول فضلا عن كل ذلك: كان المشركون في اعتكافهم إنما يعكفون على أصنامهم في المسجد الحرام وغيره، ولولا تلك الأصنام لم يعتكفوا بل هم يفرون من مجرد ذكر الله وحده، ويكفرون به، فهذا شأن المشركين، قال تعالى: { ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا } [غافر: 12]، وقال { وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أذْبَارِهِمْ نُفُورًا } [الإسراء: 46]. بل يشتمنون من ذكره وحده ويستبشرون بذكر آلهتهم كما قال تعالى: { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الزمر: 45].

وهم إن عكفوا يعكفون على الأصنام كما حدثنا الله عن المشركين من كل الأمم! قال تعالى: { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } [الأعراف: 138] وقال: { قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ } [طه: 91]، وقال: { .. وَأَنْظُرْ إِلَىٰ إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِفَنَّهُ تَمَّ لَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا } [طه: 97]، وقال: { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } [الأنبياء: 52]، وقال: { قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ } [الشعراء: 71].

بل لو فرضنا أن المشركين كانوا يعتكفون في المسجد الحرام عبادةً لله وحده فالمسجد الحرام مملوء بالأصنام لا سيما حول الكعبة! هم ملؤوه بها طبعاً! فكيف يستقيم أن يقال إنهم يعبدون الله وحده مع كل هذه الأصنام في المسجد الحرام الذي يعتكفون فيه عبادة لله كما تقولون؟! إن هذا لا يستقيم أبداً، تماماً كما لا يستقيم عندكم أن يصلي مسلمٌ لله وحده عند قبر!

ولو سألنا أيَّ واحد منكم: ما قولك في مسلم صلى لله وحده عند قبر أو دعا الله وحده هناك، أو اعتكف لله وحده في مسجد فيه قبر؟ ألا يقول فوراً: إن هذا عابد للقبر وعاكف عليه؟! بلى هذا مع أن العاكف في مسجد فيه قبر يشهد أن لا إله إلا الله، فما بالك بالمشرك الذي يعكف في المسجد الحرام المليء بالأصنام التي يشهد بأنها آهة مع الله! فكيف يكون اعتكافه في المسجد الحرام عبادة لله وحده عندكم؟!!

ألم تقولوا إن "القبورية اعتادوا العكوف على القبور كما كان أهل الشرك السابقون يعكفون على تماثيلهم"¹، وإنّ "قصد الرجل الصلاة عند القبر متبركا به عينُ المحادّة لله تعالى ورسوله"²، وإبداع دين لم يأذن به الله عز وجل؛ للنهي عنها، ثم إجماعاً²؟ فما بالك إذا كان في المسجد أوثان وأصنام يُدعى أنها آهة وتُعبَد من دون الله كما هو الحال في مشركي قريش! فكيف يكون ما أتوا به من قربات في المسجد الحرام عبادة لله والحال هذه؟!!

1 جهود علماء الحنفية (2/ 631)

2 جهود علماء الحنفية (3/ 1643)

المطلب الثالث: ذكر الله عند أهل الجاهلية

فإن النبي ﷺ "أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا" (1) فكان لهم "أقوال من الذكر والدعاء" (2)، فقد "كانوا أهل ذكر لله جل وعلا، يذكرون بأنواع من الذكر هذه محفوظة في أشعارهم، ومحفوظة في كتبهم؛ يعني في الكتب التي ذكرت ذلك"³.

والجواب: أولا: هذه منقبة ملققة وشهادة للمشركين بما ليس فيهم، فأين ومتى كان المشركون يذكرون الله ذكرا كثيرا؟ أعند ذبحهم لأصنامهم؟ أم عند شربهم للخمر ولعبيهم بالميسر؟ أم عندما يزنون "فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات"، أم عندما "كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه"، أم عندما "يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها"؟! كما في حديث عائشة عند البخاري كما سيأتي بسطه عند الحديث عن زنا الجاهلية. أم كانوا يسمون الله عند وأدهم للأطفال؟ أم عند أخذهم للربا؟ أم عند إغارة بعضهم على بعض، وسلبهم ونهبهم وقتل بعضهم بعضا؟! أم عند سجودهم للأصنام أم عند طوافهم بها ونذرهم وذبحهم لها؟! أم هل كانوا يذكرون الله في طهارتهم أم في صلاتهم أم في صيامهم أم في زكاتهم وصدقاتهم أم في حجهم وعمرتهم وغير ذلك من عباداتهم التي نسبتموها إليهم والتي تبين أنها كلها لا وجود لها أصلا كما سبق بيانه مطولا؟!

ثانيا: نسألکم: هل كان لهم أذكار يومية في الجاهلية يذكرون الله بها قياما وقياما وعلى جنوبهم؟! فأين ومتى كانت تلك الأذكار؟! أعند سلامهم أم عند طعامهم أم عند شراهم أم عند جماعهم أم عند نومهم أم عند استيقاظهم أم عند سفرهم أم عند مرضهم أم عند موتهم؟! وما صيغة هذه الأذكار؟! وفي أي كتاب وردت؟! ومن أين أخذها أهل الجاهلية؟! وهل كانت أذكارا مشروعة أم مبتدعة أم شركية؟! في الواقع لم يأت ابن عبد الوهاب بدليل ولا بشبهه على هذه الدعوى العريضة بأن المشركين كانوا "يذكرون الله كثيرا" التي أوردها في كتابه كشف الشبهات الذي قال عنه ابن عثيمين في مقدمة

(1) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص 14

(2) جهود علماء الحنفية (1 / 212).

3 شرح كشف الشبهات - صالح آل الشيخ (ص: 37)

شرحه له أنه قد "أورد فيه المؤلف بضع عشرة شبهة لأهل الشرك وأجاب عنها بأحسن إجابة مدعمة بالدليل"¹..! فلا أدري أين هذا الدليل على هذه الدعوى العريضة؟! ولقد رجعت إلى شرح كتابه والذابين عنه²، هذا فلم يذكر أحد منهم دليلاً على ذلك وإنما جعلوها حقيقة مسلّمة وكأنها بديهية مع أن لدينا آيات كثيرة وصریحة تنقضها كما سنرى ولم يتعرض أحد منهم حتى للجواب عن تلك الآيات..! ولم يكتفوا بذلك بل جعلوا قول ابن عبد الوهاب: (ويذكرون الله كثيراً) هو نفسه دليلاً راحوا يستنبطون منه أنه "إذا وُصف الشخص بكونه صالحاً عابداً ناسكاً وقد وقع في الشرك نقول: عبادته لا ترفع عنه وصف الشرك. هذه القاعدة أصل عام³، يأتيك عالم.. يطوف بالقبر، يسجد للقبر، ينذر، يستغيث بالنبی ﷺ مع⁴ صلاحه نقول: هذا قد أفسده الشرك"⁵.

فتأمل كيف صار قول ابن عبد الوهاب "ويذكرون الله كثيراً" هو نفسه دليلاً استنبطوا منه أن الطائف بالقبر والناذر مشرك ولو ذكّر الله كثيراً قياساً على مشركي العرب، فإنهم كانوا يذكرون الله كثيراً و"يعبدون الله، ولم تنفعهم هذه العبادة لما كانت مخلوطة بالشرك الأكبر"! والنتيجة أنه "لا فرق بين أن يكون المشرك به مع الله سبحانه صنماً أو عبداً صالحاً أو نبياً مرسلأً أو ملكاً مقرباً"⁶، وهذا يقوله الفوزان في شرحه لكشف الشبهات، بينما نرى أن الفوزان نفسه يقول في شرح مسائل الجاهلية عن أهل

1 شرح كشف الشبهات ويليهِ شرح الأصول الستة (ص: 11)

2 شرح كشف الشبهات ويليهِ شرح الأصول الستة لابن عثيمين (ص: 20)، شرح كشف الشبهات لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص:

26)، الإبطال والرفض لعدوان من تجرأ على كشف الشبهات بالنقض لعبد الكريم الحميد (ص: 171)، الدلائل والإشارات على

كشف الشبهات، صالح بن محمد الأسمرى (ص: 28)، شرح كشف الشبهات لخالد المصلح (1/ 10)، ت.ش)، تعليقات على

كشف الشبهات، د.عبد العزيز بن محمد بن علي آل عبد اللطيف (ص: 6)، شرح كتاب كشف الشبهات في التوحيد (ص: 2)

3 وقع في الأصل المفترغ: " هذا قاعدة أصل عام " ، والصواب ما ذكرت، والله أعلم

4 سقط من الأصل المفترغ كلمة "مع" ، وقد أضفتها لتصحيح المعنى.

5 شرح كشف الشبهات للحازمي (9/ 4، ت.ش)، كذا الكلام ورد فيه، وهو مشوّش كما ترى، والسبب أنه مفترغ من دورس صوتية

لأحمد الحازمي، ولكن المقصود منه: أن العلم والصلاح لا ينفعان صاحبهما مع الاستغائة بالقبور ونحوه ذلك، على حد قوله.

6 شرح كتاب كشف الشبهات - الفوزان (ص: 17)

الجاهلية حين يحجّون بأنهم "كانوا يجتمعون في منى، وبدل أن يذكروا الله عز وجل يذكرون مفاخر آبائهم"¹!!

فتأمل يا رعاك الله كيف يسير الفوزان على نفس النعمة التي يسير عليها ابن عبد الوهاب إذ هذا الأخير كان همّه في كشف الشبهات أن يرفع من شأن أهل الجاهلية عكس همّه في كتاب مسائل الجاهلية لاختلاف غرضه من الكتابين كما سبق بسطه، فجاء الفوزان وغيره ممّن شرح كتابي ابن عبد الوهاب هذين فساروا على نفس نهجه وهمّه، حيث توسعوا في مناقب أهل الجاهلية في أحدهما وفي الآخر توسّعوا في الحطّ منهم غير عابئين بالتناقض الذي خلّفوه في شرحهم لكلا الكتابين، وإنما المهمّ عندهم هو خدمة كتب ابن عبد الوهاب!!

ثالثا: جاءت آيات عديدة تنقض هذه الدعوى، وتبيّن أن المشركين كانوا يذكرون آبائهم في الحج بدل أن يذكروا الله ، وأنهم يذكرون أسماء طواغيتهم عند الذبح، بل كانوا يشتمّون من ذكر الله وحده أمامهم وينفرون من ذلك ويكفرون، وليس هذا فحسب بل كانوا يستبّون الله إذا سبّت أصنامهم، وإليكم الآيات التي تبين ذلك:

الآية الأولى: { فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ } [البقرة: 200]، أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد:..تفاخر العرب بينها بفعال آبائها يوم النحر حين يفرغون، فأمرُوا بذكر الله مكان ذلك، وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: كان المشركون يجلسون في الحج فيذكرون فيه أيام آبائهم وما يعُدّون من أنسابهم يومهم أجمع، فنزلت².

وقد سبق مزيد من الآثار في هذا المعنى، فإذا كان الحج الذي لا يكون إلا في العمر مرة، ويؤتى من أجله من كل فج عميق مرة لا يذكرون الله فيه، بل يذكرون آبائهم ومفاخرهم بدل ذكر الله فمتى يذكرون الله ذكرا كثيرا إذن كما يزعم ابن عبد الوهاب!؟

1 شرح مسائل الجاهلية للفوزان (ص: 241)

2 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (2/ 445)

الآية الثانية: { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الزمر: 45] فتأمل كيف وصف الله المشركين بأنهم "ينقبضون من ذكر الله تعالى وحده"¹. وهذه طريقتهم "في الاستخفاف بالله تعالى"².

الآية الثالثة: { ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا } [غافر: 12] "أي: ذلك الذي أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دُعي الله في الدنيا وحده دون غيره كفرتم به، وتركتم توحيدَه؛ وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها تؤمنوا بالإشراك وتجيّبوا الداعي إليه"³، "فكفرهم عند الله ذكر الله وحده، من نكوصهم على أعقابهم، وبيّن في موضع آخر أنهم إذا تتلى عليهم آياته، لم يقتصروا على النكوص عنها، على أعقابهم، بل يكادون يبطشون بالذي يتلوها عليهم، لشدة بغضهم لها"⁴.

الآية الرابعة: { وَإِذَا ذُكِرَتْ رَبُّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } [الإسراء: 46]، أي أن النبي ﷺ "إذا ذكر ربه وحده في القرآن بأن قال: «لا إله إلا الله» ولى الكافرون على أدبارهم نفورا، بغضا منهم لكلمة التوحيد، ومحبة للإشراك به جل وعلا"⁵. اه طبعاً التوحيد الذي ييغضونه هنا هو توحيد الربوبية لأنه قال (وإذا ذكرت ربك ..)، ولم يقل (وإذا ذكرت إلهك ..)، فتأمل!

الآية الخامسة: { .. وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [الأنعام: 138]، قال الطبري: ولا يذكرون اسم الله عليها إن ركبوها بحال، ولا إن حلبوها ولا إن حملوا

1 جهود علماء الحنفية (1/ 260)، وانظر روح المعاني (24/ 11)

2 جهود علماء الحنفية (1/ 558)، وانظر أيضا (2/ 1175)، و(3/ 1239).

3 فتح القدير للشوكاني (4/ 555)

4 «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (5/ 873 ط عطاءات العلم)

5 «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (3/ 161 ط الفكر)

عليها¹. اهـ وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي: لا يذكرون اسم الله عليها إذا ولدوها ولا إن نحروها².

الآية السادسة: { وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ } [البقرة: 173]، قال الطبري: وما ذُبح للآلهة والأوثان يسمى عليه بغير اسمه أو قصد به غيره من الأصنام.. وإنما قيل: {وما أهل به} لأنهم كانوا إذا أرادوا ذبح ما قربوه لآلهتهم سمو اسم آلهتهم التي قربوا ذلك لها وجهرها بذلك أصواتهم³. ثم نقل بسنده عن ابن عباس والضحاك أنه قال هنا: ما أهل به للطواغيت. ثم نقل آثارا كثيرة في هذا المعنى⁴. وقال ابن عبد البر: وأصل الإهلال في اللغة رفع الصوت..ومنه قول الله عز وجل { وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ } لأن الذابح منهم كان إذا ذبح لآلهة سماها ورفع صوته بذكرها⁵، "عند ذبحه للآلهة"⁶، حيث إن "المشركين السابقين كانوا عادة، إذا نذروا شيئا من الأنعام لآلهتهم ذبحوه بأسمائها"⁷. اهـ

الآية السابعة: { وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [الأنعام: 121]، قال عطاء في هذه الآية: ينهى عن ذبائح كانت في الجاهلية على الأوثان⁸.

1 جامع البيان ط هجر (582 /9)

2 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (215 /6)

3 جامع البيان ط هجر (55 /3)

4 جامع البيان ط هجر (56 /3)

5 التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (168 /13)، وانظر أيضا: مشارق الأنوار للقاضي عياض (269/2)، وعمدة القاري للعيني (320/14)، (468/30).

6 شرح صحيح البخاري لابن بطلال (220/4)

7 جهود علماء الحنفية (3 /1562)

8 فتح الباري (9 /624)

الآية الثامنة: { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ } [الأنعام: 108] فدلّت على أن المشركين كانوا "يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم"¹، وسيأتي الكلام في هذه الآية مطولاً².

الآية التاسعة: { مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ } [المؤمنون: 67]، روى الطبري بسنده عن ابن عباس، قوله: { تهجرون } قال: «يهجرون ذكر الله والحق»³.
فهل يقال بأن المشركين كانوا "يذكرون الله كثيراً"⁽⁴⁾ بعد كل هذه الآيات البينات الساطعات الواضحات المصرحة بخلاف ذلك؟!

المطلب الرابع: الدعاء وقت الاضطرار عند أهل الجاهلية

قال الأفغاني: "...ويعظمون الله تعالى بأفعال تعظيمية ولا سيما السجود وأقوال من الذكر والدعاء"⁽⁵⁾ لا سيما "الدعاء وقت الاضطرار"⁽⁶⁾ بدليل قوله تعالى: { فَإِذَا زَكَبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت: 65] "7".

والجواب: أولاً: هل كان المشركون يدعون الله في الشدة تدينا وخوفاً من عذاب جهنم إن لم يدعوه امثالاً لقوله تعالى: { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر: 60]؟! هل كانوا يطبقون حديث النبي ﷺ "الدعاء هو العبادة"⁸؟! أو كان هؤلاء يكذبون "بالبعث والثواب والعقاب"⁹ فضلاً عن كونهم "ينكرون توحيد الإله وبعث رسله وشرائع دينه

1 مجموع الفتاوى (7 / 632)

2 انظر: ص (298، و 311) عند قولي: (يشتمون الله إذا شتمت)

3 جامع البيان ط هجر (17 / 84)

(4) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص 14

(5) جهود علماء الحنفية (1 / 212).

(6) تيسير العزيز الحميد ص 122، ط/الصمعي.

7 مقال على الشبكة بعنوان " الرد على شبهة إسلام الشُعوب لإظهارهم بعض شعائر الإسلام"، لكتابه معاذ الفاتح .

8 أخرجه الترمذي وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، انظر: سنن الترمذي ت شاكر (5 / 211).

9 جامع البيان ط هجر (21 / 48)

وبه وقع منهم الكفر"¹، كما قال ابن تيمية نفسه، وهم "بجودهم ذلك وإنكارهم ثواب الله وعقابه في الدار الآخرة، لا يبألون ما أتوا وما ركبوا من إثم ومعصية لأنهم لا يرجون ثوابا على إيمان بالله وتصديق برسوله وعمل صالح بعد موت، ولا يخافون عقابا على كفرهم بالله ورسوله وسيئ من عمل يعملونه"².

وبالتالي فلم يكن دعاؤهم الله في الشدة تدينا، وإنما كان لأجل النجاة من الهلاك فحسب، فإن "الذي يحملهم على الإخلاص، هو نزول الكروب التي يخاف من نزلت به الهلاك، كأن يهيج البحر عليهم وتلتطم أمواجه، ويغلب على ظنهم أنهم سيغرقون فيه إن لم يخلصوا الدعاء لله وحده"³، فهم يريدون الفرار من الموت المحقق بهم بغضا للموت وحبا بالحياة الدنيا حرصا منهم عليها كما قال تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ} [البقرة: 96]، وذلك لأن فيها وحدها ملذاتهم، وأما الآخرة فينكرونها أصلا قال تعالى: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ بُحْزُونٌ وَعَذَابُ الْهُونِ} [الأحقاف: 20]، فهم يريدون مزيدا من الحياة الدنيا ليزدادوا من ملذاتها، ويزدادوا كفرا ويتمتعوا بها حلالها وحرامها، لذا قال تعالى لهم بعد آية العنكبوت التي يحتج بها الخصم: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: 66] 4، فقله "لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا" تهديد لهم كما قال الطبري وقد سبق بسطه في موضع آخر⁵.

1 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (8/ 511)

2 جامع البيان ط هجر (9/ 213)

3 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (2/ 225)

4 والآية بتمامها: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} (65) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: 65، 66]، وقال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَاؤُ رَبِّهِمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الروم: 33، 34]، وقال: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَعِنَ اللَّهُ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} (53) ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} (54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [النحل: 53، 55]

⁵ البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (123)

ثانيا: أن دعاءهم الله حين الشدة ما كان إلا مكرًا منهم بالله، لأنهم كانوا يعاهدون الله في الشدة بأنه إذا نجّاهم أن يوحدوه ويتركوا الشرك، ولكن حينما ينجّيهم ينكثون عهدهم ويعودون إلى كفرهم وشركهم وتكذيبهم واستهزائهم، كما دل على ذلك آيات كثيرة، منها ما يلي:

(1) قال تعالى: { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا¹ } [الإسراء: 67]، فقد بين الله هنا "سخافة عقول الكفار، وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجوا من هول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب الله، مع أنه قادر على إهلاكهم بعد وصولهم إلى البر، بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر فتبتلعهم الأرض، أو يرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم أو يعيدهم مرة أخرى في البحر فتغرقهم أمواجه المتلاطمة"². اهـ

(2) وقال تعالى: { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت: 65] أي "فلما خلصهم مما كانوا فيه وسلّمهم، فصاروا إلى البر إذا هم يجعلون مع الله شريكا في عبادتهم، ويدعون الآلهة والأوثان معه أربابا"³، ف"عادوا إلى ما كانوا عليه"⁴ من "الشرك، ودعوا غير الله سبحانه"⁵، "وقيل: إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاح لغرقنا"⁶.

1 لاحظ كيف سمي الله تعالى الإنسان الداعي المضطر كفورا ! ولم يجعل دعاءه حينها من الإيمان في شيء حتى ولو كان مخلصا في دعائه أثناء اضطراره، وذلك لعله إعراضه عن الله في الرخاء، كما أفادني بذلك بعض الفضلاء.

2 أضواء البيان للشنقيطي (3/ 723)

3 جامع البيان ط هجر (18/ 441)

4 تفسير السمعي (4/ 193)

5 فتح القدير للشوكاني (4/ 244)

6 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (16/ 388)

(3) وقال: {وَإِذَا عَشِيَهِمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} [لقمان: 32].

(4) وقال: {وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا هُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرْكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [يونس: 21 - 23]، أي "وإذا رزقنا المشركين بالله فرجًا بعد كرب، ورخاء بعد شدة أصابتهم... (إذا هم مكر في آياتنا)، استهزاء وتكذيب". اهـ.

(5) وقال: {قُلِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأنعام: 40]، فقد "بيّن أنهم إذا كشف الله عنهم ذلك الكرب، رجعوا إلى ما كانوا عليه من الشرك في مواضع كثيرة، كقوله: فلما نجاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً.. وبيّن تعالى أن رجوعهم للشرك، بعد أن نجاهم الله من الغرق، من شدة جهلهم وعماهم؛ لأنه قادر على أن يهلكهم في البرّ، كقدرته على إهلاكهم في البحر"1.

ثالثاً: أن المشركين كانوا يدعون الله استهزاء، من ذلك قوله: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: 32]، وهذا "يدل على أن كفار مكة في غاية الجهل حيث قالوا: فأمطر علينا.. الآية، ولم يقولوا فاهدنا إليه، وجاء في آيات آخر ما يدل على ذلك أيضا كقوله عنهم: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [ص: 16]،

وقوله: { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ... } [الحج: 47] الآية، وقوله: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجَنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَجْسُئُهُ﴾ [هود: 8]¹.

والحاصل مما سبق أن دعاءهم الله حين الشدة ليس تدينا؛ لأنهم ينكرون يوم الدين، وإنما كان ذلك منهم مكرًا لكي ينجوا من الموت المحقق ويعيشوا مدة أطول ليستمتعوا بالحياة الدنيا أكثر، التي لا يؤمنون إلا بها أصلاً، وليجمعوا من حطامها أكثر من مال وجاه وأولاد وليستمروا في شركهم وكفرهم، بعد أن عاهدوا الله على ترك ذلك، ولكنهم ما يلبثون إلا أن ينكثوا عهدهم بعد أن ينجيهم، فكيف يكون هذا المكر بالله والحرص على الدنيا وملذاتها: عبادة لله.. يا قومنا؟!!

المطلب الخامس: الخلوة في الجاهلية

ذكر بعض السلفية أن طائفة من المشركين كانوا "يتحنّثون ويتخلّون في الحلاء يتأملون ويذكرون الله جل وعلا، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يتحنّث في غار حراء الليالي ذوات العدد والتحنّث يعني العزلة عن الناس والتعبد بذلك والخلوة كانت معروفة عندهم"¹.

قلنا: أولاً: حديث تحنّث النبي ﷺ في غار حراء يتكلم عن النبي خاصة، فمن أين عدّيتم الحكم إلى غيره فزعمتم أن "طائفة منهم يتحنّثون ويتخلّون في الحلاء"؟! ثم إذا كنتم تتحدثون عن بعض أهل الجاهلية فإن بعضهم كانوا حنفاء يبنذون عبادة الأصنام كما سبق بيانه، فلماذا لا تذكرون هذا من مناقبهم؟! مناقبهم؟!

ثانياً: هل أنتم أصلاً تجيزون الخلوة؟ أم تعتبرونها من بدع الصوفية؟ ألم تقولوا بأن "دين الإسلام بريء من الخلوة الصوفية، فلا يشرع في ديننا سكنى البوادي والجبال، إلا عند الفرار من الفتن، إذا كان المقيم بالمصر يلجأ إليها"²، وسألتم الصوفية عن "مستندهم من القرآن والسنة النبوية على تلك الرهبانية وتلك الخلوة"³، ثم رددتم على استدلال الصوفية بخلوة النبي ﷺ في حراء بالقول: "أما الاستدلال بتعبد النبي ﷺ قبل البعثة فمن أعجب الأدلة، إذ إن النبي ﷺ لم يفعل ذلك بتشريع من الله عز وجل، ولم يتعبدنا الله بأفعاله قبل البعثة بل هو لم يعد إلى مثل ذلك بعد البعثة، فكيف يستجيز أحد أن يتعبد به من تلقاء نفسه. وأما بعد أن أكرمه الله عز وجل بالإسلام فقد كانت توجيهاته وأوامره تخالف تلك العادة التي عاشها قبل الإسلام"⁴.

فإذا كانت الخلوة . كما تقولون . رهبانية، والإسلام بريء منها، وهي من بدع الصوفية، وأهم من ذلك كله أن استدلال الصوفية بخلوة النبي ﷺ في حراء من أعجب الأدلة، لأن الله لم يتعبدنا بأفعاله

1 شرح كشف الشبهات- صالح آل الشيخ (ص: 37)

2 عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية (ص: 342)، د. أحمد القصير، مكتبة الرشد بالرياض.

3 فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها (3/ 953)

4 الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية (ص: 647)، د. سعيد لقحطاني، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1/

قبل البعثة، فكيف تكون الخلوة بعد هذا كله منقبة للمشركين تحسب لهم، وأما الصوفية فتحسب عليهم؟! عليهم؟!

ثالثا: حتى لو سلّمنا أنكم فائلون بمشروعية الخلوة، وأنكم تعارضون خلوة الصوفية فقط باعتبار أن خلافكم معهم "في العلة التي من أجلها لزموا الخلوة، وفي الطقوس التي شرعوها، وفي الثمرة التي يحصلون عليها من الخلوة"¹ فهل خلوة المشركين مشروعة؟!

للجواب عن هذا السؤال يجب أن نعلم أولا ماذا كان يفعل المشركون في خلوتهم تلك وما هي الأذكار التي كانوا يرددونها وكيفية صلواتهم وتعبدهم، وفيم كانوا يفكرون في تلك الخلوة؟! فلعل في كل ذلك شركا وكفرا وبدعا وتخيلات باطلة ونحو ذلك، بل هذا هو الراجح أصلا، لما رأينا من كيفية صلاتهم وحجهم وذكرهم، فكل ذلك ممزوج بالشرك والكفر والبدع والأوهام الباطلة والأمور المضحكة كما بسطنا ذلك، ولا يستبعد كل ذلك في خلوتهم ولا سيما الشرك بل هذا مؤكد لأنهم كانوا يفرون من مجرد ذكر الله وحده كما في قوله تعالى: { وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } [الإسراء: 46]، بل كانوا يشتمنون "وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده"²، كما في قوله: { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الزمر: 45]، بل كانوا يكفرون بالله إن دعي وحده كما في قوله تعالى: { ذَلِكُمْ بَأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ } [غافر: 12]، وما دام أن ذكرهم لله في خلوتهم مخلوط بالشرك يقينا، فكيف تكون تلك الخلوة منقبة لهم؟! ولو فرضنا جدلا أن بعضهم كانوا يذكرون الله وحده ويعبدون الله وحده في خلوتهم هذه، فهؤلاء كانوا من الأحناف الذين هم أصلا يبنذون عبادة الأوثان على كل حال، وهؤلاء خارج محل النزاع؛ إذ أنتم تحدثوننا عن مناقب أهل الأوثان في الجاهلية لا عمّن كانوا يوحدون الرحمن.

¹ عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية (ص: 342)

² جهود علماء الخفية (1/ 260)، وانظر روح المعاني (24/ 11)

الفصل الثالث : الشرائع عند أهل الجاهلية

ذكر السلفية عددا من الشرائع التي كان المشركون يطبقونها في الجاهلية، ومن ذلك "الذبح في الحلق واللبّة وكانوا يجرمون المحارم كالأم والبنت والأخت، وكان فيهم القصاص والدية والقسامة، وعقوبات الزنا والسرقة ونحوها من بقايا الملة الإبراهيمية؛..ويعتقدون أصول أنواع البرّ وكثيرا في الشعائر كالختان ونحوه.."(1).اهد وبعضهم أضاف أنهم كانوا ملتحنين، فصارت جملة الشرائع تسعة، ويمكن تقسيمها إلى قسمين، نبسط كل منهما في مبحث:

المبحث الأول: شرائع في باب الحدود عند أهل الجاهلية

(1) عقوبة السرقة

(2) عقوبة الزنا

(3) القسامة

(4) الدية

(5) القصاص

المبحث الثاني: شرائع أخرى في الجاهلية

(6) الذبح في الحلق واللبّة

(7) تحريم المحارم

(8) الختان

(9) اللحية

وفيما يلي تفصيلها واحدة واحدة مع مناقشتها. وبالله التوفيق.

(1) جهود علماء الحنفية (1 / 212).

المبحث الأول: شرائع في باب الحدود عند أهل الجاهلية

وفيه مطالب

المطلب الأول: عقوبة السرقة في الجاهلية

قالوا بأن العرب في الجاهلية كان فيها "القسامة وعقوبات الزنا والسرقة ونحوها من بقايا الملة الإبراهيمية"⁽¹⁾. فقد "كانت عندهم قطع يد السارق"، فقد كان ذلك معلوما عند العرب قبل الإسلام ونزل القرآن بقطع السارق فاستمر الحال فيه، وقد نقل العسقلاني في شرح البخاري أن ابن الكلبي عقد بابا لمن قطع في الجاهلية بسبب السرقة في كتاب المثالب، وذكر قصة الذين سرقوا غزال الكعبة فقطعوا في عهد عبد المطلب"². واحتج بعضهم أيضا بما جاء في حديث المرأة المخزومية عند الشيخين وفيه "يا أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد"، على اعتبار أن "إنما ضل من قبلكم" يشير به إلى العرب في الجاهلية..!

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أما الاستدلال بحديث "كانوا إذا سرق الشريف تركوه.. " فغير مُسلم، لأن المراد بمن قبلنا بنو إسرائيل كما جاء مصرحا به في لفظ للبخاري "إن بني إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه"، وقد ذكر ذلك الحافظ وغيره³.

الوجه الثاني: نعم، ورد بعض الأخبار أن قطع يد السارق كان في الجاهلية⁴، ولكن:

أولا: هذه الأخبار لا يثبت منها شيء، وذلك لأن بعضها سنده ضعيف كما في الخبر الذي رواه الأزرق في أخبار مكة¹، وبعضها مروى بغير سند أصلا كما هو الحال فيما ذكره محمد بن حبيب (ت

(1) جهود علماء الحنفية (1 / 212)

2 انظر مقال منشور على الشبكة بعنوان: عقوبات عرب الجاهلية وحدود المعاصي التي يرتكبها بعضهم لمحمود شكري الألوسي.

3 جاء في فتح الباري (12 / 94): قوله "إنما ضل من كان قبلكم" في رواية أبي الوليد "هلك"، وكذا لمحمد بن ربح عند مسلم، وفي

رواية سفيان عند النسائي "إنما هلك بنو إسرائيل"، وفي رواية قتبية "أهلك من كان قبلكم". اهـ وانظر أيضا: إرشاد الساري (9 /

457).

4 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10 / 277)

245هـ/2م) في كتاب المحبر³، وأظنه أخذه عن ابن الكلبي (ت 204هـ) لأن كتاب المحبر مليء بالنقل عنه، وحال ابن الكلبي معروف قد كذبه كثير من النقاد كما سبق⁴، وقال ابن تيمية: وأما الكلبي والسدي الصغير فمتروكان⁵. اهـ نعم ذكر هذه الأخبار بعض العلماء . كالقرطبي والماوردي وابن حجر والدميري وغيرهم . استطرادا أو استئناسا حينما تكلموا عن مشروعية حد السرقة، وأن أول من قطع يد السارق فلان أو فلان على الخلاف في ذلك⁶.

ثانيا: أنه على فرض صحة تلك الأخبار فهي محمولة على بعض العرب لا كلهم، لما قيل من أن ((الأحكام التي حكمها حكام الجاهلية، فاتبعت عندهم، لا أقصد أنها صارت أحكاما عامة، مشت بين جميع العرب، فكلام مثل هذا، هو كلام مغلوط، لا يمكن أن يقال، على الرغم من التعميم الذي يذكره أهل الأخبار، مثل قولهم: "وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى ويصلبون قاطع الطريق"))⁷. وقد سبق الكلام بطوله⁸، وإذا كان الأمر يدور حول بعض العرب فإن بعضهم كان ينبذ عبادة الأصنام كما قلناه مرارا؟!!

ثالثا: على فرض صحة هذه الأخبار وأن العرب بمعظمهم أو أجمعهم كانوا يطبقون حد السرقة، فهذا لا يدل على أن العرب في الجاهلية كانوا يفعلون ذلك تدينا، لأنهم لا يؤمنون بيوم الدين أصلا كما بسطناه في موضعه، وقد روى ابن عساكر بسنده عن رجل من خنعم قال: كانت العرب لا تحرم حلالا ولا تحلل

1 انظر حاشية الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (7/ 449)

2 الأعلام للزركلي (6/ 78)

3 حيث جاء في المحبر (ص: 327): وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى، .. وقطعت قريش رجالا في الجاهلية في السرقة. منهم

(وابصة) بن خالد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، سرق في الجاهلية فقطعت يده.. اهـ

4 انظر ص (191) من هذا الكتاب، وانظر أيضا حاشية كتابنا: البراهين الشرعية ص (244) .

⁵ الرد على البكري (1/ 74) .

6 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (7/ 449)، فتح الباري لابن حجر (12/ 88)، إرشاد الساري للقسطاني

(9/ 458)، النجم الوهاج في شرح المنهاج للدميري (9/ 149)، الحاوي للماوردي (13/ 266)، التحرير والتنوير لابن عاشور

(6/ 192)، أضواء البيان للشنقيطي (3/ 512).

7 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10/ 324)

⁸ انظر: ص (78) عند قولي : (مشت بين جميع العرب)

حراما وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون إليها¹، وحسبك أن تعلم أن بعض تلك الأخبار تقول بأن "أول من حَكَمَ بقطعه في الجاهلية الوليد بن المغيرة"²، والوليد هذا من صناديد المشركين الذي نزلت في حقه آيات كثيرة في بيان كفره وعناده وسخريته من النبي ﷺ وتكذيبه بالقرآن³، فضلا عن إنكاره للبعث والثواب والعقاب كسائر المشركين، فمن كان هذا شأنه أتى له أن يتدين بقطع يد السارق!؟

رابعاً: إن عقوبة قطع يد السارق لم تكن معروفة في الشرائع السماوية السابقة كشرية إبراهيم الخليل وغيره حتى يقال إن هذا من بقايا شريعته أو هو من شريعة أهل الكتاب التي وصلت إلى العرب، ذلك لأن شريعة اليهود في السارق تتراوح بين تعزيمه من أربعة إلى خمسة أضعاف ثمن المسروق⁴ إلى قتلته⁵، فضلا عن أنه (يظهر من روايات الأخباريين أن هذه العقوبة سنّت في وقت لم يكن بعيد عهد عن الإسلام، إذ يذكرون أن أول من سنّها هو "عبد المطلب". ومنهم من يرجع سنّها إلى "الوليد بن المغيرة"⁶) وهذا يدلّ على أنه قبل ذلك لم تكن عقوبة قطع يد السارق معروفة.

خامساً: أن تلك الأخبار دلّت على أن الوليد بن المغيرة - أو عبد المطلب - إنما سنّ قطع يد السارق **اجتهادا بعقله المحض** لما رأى في ذلك من حفظ للأموال فلما جاء الإسلام أقرّ تلك العقوبة فصارت شريعة حينها، وأما قبل ذلك فلم تكن شريعة، يقول جواد علي: **وقد كان رجال الدين وسادات**

1 تاريخ دمشق (3/ 454)

2 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (7/ 449)، وكذا في صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (1/ 496) حيث جاء فيه: أول من قطع في السرقة في الجاهلية الوليد بن المغيرة، ثم جاء الإسلام بتقريره. اهـ

3 فقد نزل في حقه {وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ} [الأنعام: 10] انظر الدر المنثور للسيوطي، ط/ هجر (6/ 21)، وقوله {قُلْ إِنِّي مُهَيَّبٌ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي} [غافر: 66] الدر المنثور (13/ 73)، وقوله {فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ} [المدثر: 24] الدر المنثور (15/ 73)، وقوله: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: 1] الدر المنثور (15/ 712).

4 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10/ 278): ويعاقب العبرانيون السارق بدفع خمسة أمثال المسروق إذا كان ثورا، ويدفع أربعة أمثاله إذا كان المسروق خروفاً أو نعجة، وذلك إذا كان السارق قد باع الحيوان أو قتله. أما إذا كان ذلك الحيوان لا يزال في أيدي السارق، فيعاقب عندئذ بدفع مثلي المسروق.

5 جاء في العهد القديم / سفر الخروج، الإصحاح 22 : 16 "ومن سرق إنساناً وباعه : أو وُجد في يده : يُقتل قتلاً "

6 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10/ 277)

القبائل، يجرمون بعض الأشياء على أنفسهم، إذا شعروا بوجود ضرر بها، وبأن في فعلها إحاق أذى في الإنسان وخذشاً في الاسم. فحرم بعض رجال الجاهلية الخمر على أنفسهم تكرماً وصيانة لأنفسهم.. لما وجدوا فيها من ضرر على الأبدان، وأثر في العقل. وإضاعة للمال. إلى أن يقول: وذكروا أن "أول من قطع في السرقة في الجاهلية: "الوليد بن المغيرة، ثم جاء الإسلام بتقريره"¹، ويقول القرطبي: وقد قطع السارق في الجاهلية، وأول من حكم بقطعه في الجاهلية الوليد بن المغيرة، فأمر الله بقطعه في الإسلام² أه. وكذا قال ابن حجر كما سبق.

الوجه الثالث: أن كون عرب الجاهلية كانت تقطع يد السارق إنما ذلك ليأمنوا على أموالهم كما سبق، وليس لأنهم يرون حرمة للأموال وأنه لا يجوز كسبها إلا بطرق مشروعة، بدليل أنهم كانوا يأكلون الربا كما دل على ذلك حديث جابر عند مسلم في حجة الوداع "وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله"، وقال ابن تيمية في هذا الحديث: وهذا يدخل فيه ما كانوا عليه من العادات والعبادات.. ثم خصّ بعد ذلك الدماء والأموال التي كانت تستباح باعتقادات جاهلية، من الربا الذي كان في ذمم أقوام³. أه ومن مسائل الجاهلية: اكتساب المال بالميسر⁴. أه

ومعلوم أن الربا أفحش من السرقة بكثير لأن الله توعّد آكل الربا بحرب من الله ورسوله كما قال تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ..} [البقرة: 278، 279]، وهو معدود في حديث "اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا .." رواه مسلم. وإذا كان من يسرق تُقطع يده فإن من يأكل الربا تضرب عنقه كما روي عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى {فأذنوا بحرب من الله ورسوله}: «فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه، فحقّ على إمام

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11/ 224)

2 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (7/ 449)

3 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 342)

4 زوائد مسائل الجاهلية (ص: 33)

المسلمين أن يستتبيه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه¹، وكلام ابن عباس هذا يحتمل "حمّله على المستحل، ويحتمل الإطلاق، وهما قولان في الآية، فقليل الإيذان بالحرب إنما هو للمستحل، وقيل بل له ولغيره والأول أنسب بنظم الآية"².

كما أن العرب كان يُغير بعضهم على بعض للسلب والنهب، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في آية {وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنَّخِطُ مِنْ أَرْضِنَا} [القصص: 57] في قوله نتخطف قال: "كان بعضهم يغير على بعض"³، وقد افتخروا بذلك في أشعارهم، وإليكم سرد بعضها:

الشاهد الأول: قول الحارث بن حلزة في معلقته:

(هل علمتم أيام ينتهب الننا .. س غوارا لكل حي عواء؟)

قال التبريزي: يريد الأيام التي هزم فيها كسرى وضعف أمره، وكان بعض العرب يغير على بعض، وكانت العرب من نزار تملكهم الأكاسرة..⁴ اه وقال ابن الأنباري: فضعف أمر كسرى، وغزا بعض العرب بعضا. و (الغوار): مصدر غاور القوم معاورة وغوارا، إذا غار بعضهم على بعض. قوله (لكل حي عواء)، أي صياح، مما ينزل بهم من الإغارة عليهم⁵. اه

الشاهد الثاني: قول الحارث بن حلزة في معلقته أيضا:

تَرْكُوهُمْ مُلْحَحِينَ وَأَبُوا .. بِنَهَابٍ يَصْمُ مِنْهَا الْحُدَاءُ

ثُمَّ جَاءُوا⁶ يَسْتَرْجِعُونَ فَلَمْ يَرْجِع .. لَهُمْ شَامَةٌ¹ وَلَا زَهْرَاءُ²

¹ جامع البيان ط هجر (52 /5)

² الزواجر عن اقتراف الكبائر (1/ 374)

³ الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (11/ 495)

⁴ شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي (ص: 265)، ط المنبرية.

⁵ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري (ص: 470)، ت عبد السلام مُجَّد هارون، ط5/ دار المعارف.

⁶ كذا في المطبوع من فتح المغلقات، أي رسمت الهمة على السطر، وذلك على اعتبار أنها همزة متطرفة قبل أن يتصل به واو الجماعة، فأصلها "جاء" ثم اتصلت بها واو الجماعة فصارت: جاءوا، وهذا وجه سائغ في الإملاء، وفي وجه آخر وهو الأشهر أنها ترسم على واو لأنها صارت متوسطة بعد أن اتصلت فيها واو الجماعة. انظر الوجهين في: القواعد الإملائية ص5، للدكتور ياسر الدرويش.

قال الفاكهي: النهاب جمع نَهَب، "جاؤوا يسترجعون" أي لأموالهم من بني تميم، و"الشامة":
السوداء. و"الزهراء": البيضاء. والمعنى: أنه لم يرجع إليهم شيء من أموالهم³. **اه وقال ابن الأنباري:** وقوله
(بنهاب)، معناه ما انتهبوا من أموال بني رزاح. وقوله (يصمّ فيه الحداء) معناه أن الإبل والمواشي التي
أخذت من بني رزاح لها جلبة ورغاء، فجلبتها أكثر من أن يسمع فيها الحداء.. وأتوهم يسترجعون فلم تر
.. **جع⁴ لهم شامة ولا زهراء)،** ويروى: (ثم آباو يسترجعون)، أي رجعت بنو رزاح وقد اجتمعوا إلى بني
تميم يسترجعون ما أخذوا منهم، فلم يرجع لهم شامة ولا زهراء، أي رجعوا خائبين ولم يرجعوا بناقة سوداء
ولا بيضاء⁵. اه

الشاهد الثالث: قول امرئ القيس حين نهب بنو جديلة إبله فضحى برواحله لاستنقاذ إبله
فخسر الجميع فقال ما صار مثلاً:

دع عنك نهباً صيحاً في حَجْرَاتِهِ .. ولكن حديثاً ما حديث الرواحل⁶

1 كذا بالمد، وقع في فتح المغلقات للفاكهي (ص: 2151)، ووقع "شامة" بالألف المسهلة في شرح القصائد العشر للتبريزي (ص:
275)، وكذا هي مسهلة في شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري (ص: 486)، وجاء في «المنجد في اللغة»
(ص: 230): «والشامة: التي تكون في البدن، وجمعها شأم. والشامة: الأثر الأسود في الأرض، وجمعها شأم، قال ذو الرمة:
وإن لم تكوني غير شأم بقره ... تجر بها الأذيال صيفية كدر

ويقال: ما له شامة ولا زهراء، أي: ليس عنده ناقة سوداء ولا بيضاء؛ قال الحارث بن حلزة:
وأتوهم يسترجعون فلم تر ... **جع لهم شامة ولا زهراء».**

2 فتح المغلقات في شرح المغلقات للفاكهي (ص: 2149)

3 فتح المغلقات في شرح المغلقات (ص: 2150، 2151)

4 "فلم ترجع"، بالتاء! كذا وقع عند ابن الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (ص: 486)، ووقع في شرح الفاكهي
"فلم يرجع"، بالياء!

5 شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري (ص: 485)

6 ديوان امرئ القيس ت المصطاوي (ص: 140)، جاء في مجمع الأمثال للميداني (1/ 267): **دَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحاً فِي حَجْرَاتِهِ،**
النهب: المال المنهوب .. والحجرات: النواحي، يضرب لمن ذهب من ماله شيء ثم ذهب بعده ما هو أجل منه، وهذا من بيت
امرئ القيس قاله حين نزل على خالد بن سدوس بن أصمع التَّبْهَانِي فَأَعَارَ عَلَيْهِ بَاعِثُ بِنِ حَوِيصٍ وَذَهَبَ بِإِبِلِهِ، فقال له جاره
خالد: أعطني صنائعك ورواحلك حتى أطلب عليها مالك. ففعل فانطوى عليها، ويقال: بل لِحَقِّ الْقَوْمِ فقال لهم: **أغرتم على جاري**
يا بني جديلة فقالوا: والله ما هو لك بجار قال: بلى والله ما هذه الإبل التي معكم إلا كالرواحل التي تحتي، قالوا: كذلك. فأنزلوه

المطلب الثاني: عقوبة الزنا في الجاهلية

ادعى بعض السلفية أن المشركين في الجاهلية كانوا يجرمون الزنا ويعاقبون عليه بالقتل، ونسوق هنا نصين للسلفية في ذلك:

(1) قال الأفغاني: وكان فيهم القصاص والدية والقسامة، وعقوبات الزنا والسرقة ونحوها من بقايا الملة الإبراهيمية.."(1).

(2) ويقول شكري الألوسي: "ومن عقوباتهم وحدودهم قتل الزاني - والزنا كان عندهم من

أعظم المنكرات وأفظع المعاصي وأشنعها، فلذلك جعلوا عقوبته إزهاق الروح والقتل الذي

هو أعظم الحدود"، ثم يستدل على ذلك فيقول: ومن شواهد ذلك ما كان من النعمان بن

المنذر من قتل المتجردة والمنخل العبدى لما اطلع على ما كان من أمرهما، وأراد قتل

النابعة الذبياني لما تعرّض في قصيدته الدالية المشهورة لوصف حرمه، ثم اعتذر منه بعدة

قصائد فعفا عنه، وقصة صخر الشاعر الشهير لما توسّم في زوجته الميل إلى غيره وكان مريضاً

وهي مشهورة.. " و الزنا كان مشهوراً عندهم وكان للزانيات رايات، فيقول رداً على ذلك

"وذوات الرايات لم يكن من العرب بل كن إماء، وكان مذهبهم في الإماء غير مذهبهم في

الحرائر، ولما أخذ الشارع البيعة عليهن شرط عليهن ألا يزينن، فقالت هند بنت أبي سفيان

متعجبة: وهل تزني الحرة؟ وكان النكاح في الجاهلية على عشرة أنحاء. ولابن الكلبي كتاب في

وذهبوا بها، فقال امرؤ القيس فيما هجاه به : وَدَعَّ عَنْكَ نَهْباً صَبِيحاً .. يقول : دع النهب الذي انتهبه باعث ولكن حدثني حديثاً

عن الرواحل التي ذُهبت أنت بها ما فَعَلْتُ. وانظر القصة أيضاً في جمهرة الأمثال للعسكري (1/ 452) ط دار الفكر، وشرح

المعلقات السبع للزوزني (ص: 28) دار إحياء التراث العربي.

(1) جهود علماء الحنفية (1 / 212)

مناكح أزواج العرب، ولو كان الزنا عندهم مباحا لم يكن عقد النكاح عندهم مشروعاً ،
والشعر المشتمل على حد الزنا بالقتل كثير لو تتبعناه واستقرينا لم يسعه المقام"1.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ليس فيما ذكر الألووسي ولا الأفغاني ولا في غيرهما مما اطلعت عليه خبرٌ صحيح يعوّل عليه في أن عقوبة الزنا عند العرب هو الرجم أو القتل أو له أي عقوبة أخرى، بل الذي ذكره ((أهل الأخبار أن الرجم لم يكن معروفاً بين الجاهليين، وأن أول من رجم "ربيع بن حذان"، ثم جاء الإسلام بتقريره في المحسن))²، وغاية ما وجدته أن العمراني حين ذكر حكم الزنا قال "فإن الأمة أجمعت على تحريمه، ولم يُحلّه الله في شرع نبي من الأنبياء - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ - وسلامه، وكان أهل الجاهلية يتشرفون عنه"³، ثم ذكر **العمراني** حدّ الزنا في الإسلام، وهذا ليس فيه أكثر من أن أهل الجاهلية يمتنعون عنه، دون أن يذكر عقوبة للزنا عندهم، على أن ما ذكره من أن أهل الجاهلية كان يتشرفون عنه ربما يقصد أهل المروءات منهم، لأن الزنا كان متفشياً بينهم كما سنرى.

الوجه الثاني: أن حد الزنا وعقوبته في الإسلام تدرّج من الحبس والإيذاء إلى الجلد لغير المحسن والرجم للمحسن كما ذكره الفقهاء⁴ والمفسرون¹، ولو كان الزاني يُقتل في الجاهلية لما كان لهذا التدرج معنى، إذ

1 مقال بعنوان "عقوبات عرب الجاهلية وحدود المعاصي التي يرتكبها بعضهم، كتبه السيد محمود شكري الالوسي، منشور على الشبكة العنكبوتية، وهذا رابطته:

<http://www.altareekh.com/article/view/4536> -عقوبات-عرب-الجاهلية-وحدود-المعاصي-التي-يرتكبها-

بعضهم.html

² المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10 / 232)، نقلا عن صبح الأعشى (1 / 495) وفيه: أوّل من رجم في الزنا في الجاهلية

ربيع بن حذان ؛ ثم جاء الإسلام بتقريره في المحسن. اهـ

³ البيان في مذهب الإمام الشافعي للعمراني (12 / 346).

4 مثلا قال العمراني في البيان (12 / 346): فإن الحدّ يجب في الزنى. وكان الحدّ في الزنى في أول الإسلام: الحبس والإيذاء بالكلام. والدليل عليه: قوله تعالى: {واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم}. قال أكثر أصحابنا: المراد بالحبس: للثيب، والمراد بالأذى بالكلام: للأبكار من الرجال والنساء..وقد نسخ الحد بالحبس والأذى، فجعل حد البكر الجلد؛ لقوله تعالى: {الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة}، وجعل حد الثيب الرجم. اهـ

القصد من التدرج تأهيل النفوس وتحضيرها لشيء لم تعتد عليه، مثل الخمر الذي تدرج الشارع في تحريمه حيث كان العرب مدمنين عليه كما قالت السيدة عائشة: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تنزوا لقالوا لا ندع الزنا"². قال العيني: قوله: (نزل الحلال والحرام)، أشارت به إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل. وأنه أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد والتبشير للمؤمنين والمطيعين بالجنة، والإنذار والتخويف للكافرين بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: (ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر) إلى آخره. وذلك لانطباع النفوس بالنفرة عن ترك المألوف³. اهـ

الوجه الثالث: أن رجم الزاني أو قتله أمرٌ أنكره بعضُ فرق المسلمين قديما كالخوارج واستدلوا بأدلة أبرزها أن رجم الزاني مخالف لما في القرآن من أن عقوبة الزني هي الجلد فحسب، لكن العلماء ردّوا عليهم وبيّنوا الأدلة الناهضة لاسيما من السنة الصحيحة على مشروعية رجم الزاني المحصن، وأما ما في القرآن فهو في جلد غير المحصن⁴، فإذا كان الخوارج لم يقولوا برجم الزاني أو قتله مع كل تلك الأدلة والأحاديث فمن أين يقول به أهل الجاهلية الجهلاء الذين لا علم لهم بشرع ولا بنبي ولا بكتاب؟! و"الله سبحانه بعث مُحمّدا ﷺ إلى الخلق على فترة من الرسل.. والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابيّ معتصم بكتاب: إما مبدل، وإما مبدل منسوخ ودين دارس؛ بعضه مجهول وبعضه متروك، وإما أمّي من عربي وعجمي،

1 قال الرازي في مفاتيح الغيب (305 / 23)، ط/التراث: واعلم أنه كان في أول الإسلام عقوبة الزاني الحبس إلى الممات في حق الثيب، والأذى بالكلام في حق البكر.. ثم نسخ ذلك فجعل حد الزنا على الثيب الرجم وحد البكر الجلد والتغريب. اهـ وجاء في فتح القدير للشوكاني (6 / 4) في سورة النور: وقد مضى الكلام في حد الزنا مستوفى، وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة النساء. اهـ وكذا قال القرطبي من قبله في تفسيره ط/ الرسالة (102 / 15).

² صحيح البخاري بتحقيق د. البغا (4 / 1910)

³ عمدة القاري شرح صحيح البخاري (20 / 31)

4 انظر: مفاتيح الغيب (23 / 135)، البيان في مذهب الإمام الشافعي (12 / 346)

مقبل على عبادة ما استحسنته، وظن أنه ينفعه: من نجم، أو وثن، أو قبر، أو تمثال، أو غير ذلك. والناس في جاهلية جهلاء¹.

الوجه الرابع: أن الزنا في الجاهلية كان منتشرًا، وله صور متعارف عليها يتعاطونها دون أي رادع داخلي من الزاني، ولا وازع من المجتمع الجاهلي، ويدل عليه ما يلي:

(1) قول عائشة السابق عند البخاري "ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر

أبدًا، ولو نزل لا تنزوا لقالوا لا ندع الزنا" وهذا يدل على أن الزنا كان مألوفًا عند العرب

كالخمر تمامًا، ولذلك نزل التدرج في حظر كليهما كما سبق "وذلك لانطباع النفوس بالنفرة

عن ترك المألوف" كما قال العيني وقد سبق.

(2) قوله تعالى: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}

[النور: 33]، أخرج مسلم في صحيحه عن جابر، قال: "كان عبد الله بن أبي ابن سلول يقول

لجارية له: اذهي فابغينا شيئًا، فأنزل الله عز وجل: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ..}. وفي

لفظ آخر لمسلم: "أن جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها:

أميمة، فكان يكرههما على الزنا، فشكنا ذلك إلى النبي ﷺ². اهـ وأخرج ابن مردويه عن علي

بن أبي طالب قال في آية النور: كان أهل الجاهلية يبغين إماءهم فنهوا عن ذلك في الإسلام.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كانوا في الجاهلية يُكرهون إماءهم على الزنا يأخذون

أجورهم فنزلت الآية. وأخرج ابن أبي شيبة وغيره عن مجاهد قال: كانوا يأمرون ولائدهم أن

يباغوا فكفّ يفعلن ذلك ويصبن فيأتين بكسبهن³. والآثار في ذلك كثيرة. ونختم بقول الفخر

1 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 74)

2 صحيح مسلم (4/ 2320)

3 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (11/ 52)

الرازي: كانوا في الجاهلية يسيئون إلى المملوك، فيكلفون الإماء البغاء، وهو الكسب بفروجهن وبضوعهن¹.

(3) ما جاء في سيرة ابن هشام في قصة إسلام الطفيل الدوسي: فقلت له: يا نبي الله، إنه قد غلبني على دوس الزنا فادع الله عليهم. فقال: اللهم اهد دوسا، ارجع إلى قومك فادعهم، وارفق بهم. وفي رواية "يا رسول الله غلب، على دوس الزنا والربا فادع الله عليهم. فقال: "اللهم اهد دوساً"³.

(4) وفي حديث أحمد في مسنده عن أبي أمامة قال: إن فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا: مه مه. فقال: ادنه. فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: أتجبه لأملك؟ قال: لا.. الحديث⁴.

(5) وقال القرطبي في قوله تعالى { وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ } [الأنعام: 120]: وقيل معنى (ظاهر الإثم) هو ما كان عليه الجاهلية من الزنا الظاهر⁵. اهـ.

(6) وقال جواد علي: "وقد كان الزنا معروفاً في الجاهلية يفعلها الرجال علناً، إذ لم يكن هذا النوع من الزنا محرماً عندهم.. ولا يُعدّ الزنا نقصاً بالنسبة للرجل ولا يعاب عليه؛ لأن الرجل رجل، ومن حق الرجال الاتصال بالنساء، وقد كانوا يفتخرون به."6، "وكانوا يُكروهون إمامهم¹ - كما ذكرت - على البغاء.. وكان المالك يفرض على الأمة ضريبة تؤديها بالزنا"².

1 مفاتيح الغيب (77 / 10)، ط/التراث.

2 السيرة النبوية لابن هشام (384 / 1)

3 الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (761 / 2)، دار الجيل، ط/1 / 1992 م. وانظر: الروض الأنف ت الوكيل (3) / 378)، الروض الأنف ت السلامي (3 / 229).

4 مسند أحمد - الرسالة (545 / 36) وصحح إسناده المحققون.

5 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (9 / 10)

6 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10 / 232)

صور الزنا في الجاهلية

فقد كان للزنى في الجاهلية صور مختلفة، ومن صورها ثلاث صور مشهورة، روى البخاري عن عائشة "أن النكاح في الجاهلية كان على أربع أنحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها.. ثم تقول بعد أن تذكر الصور الثلاثة القادمة: "فلما بعث النبي ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم"، وثمة صور أخرى، ويتحصل من صور الزنى في الجاهلية الصور التالية³:

الصورة الأولى: نكاح الرايات وهو الذي كانت تمارسه العاهرات والبغايا، حيث "يجتمع الناس كثيرا فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أراد دخل عليهن فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون.."⁴. يذكر ابن العربي أنه مما قيل في قوله تعالى "وَدَّرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ": "ظاهر الإثم أصحاب الرايات من الزواني، وباطنه ذوات الأخدان؛ قاله السدي وغيره⁵. اهـ

وما زعمه شكري الألوسي من أن أصحاب الرايات كانوا إماء: مجرد دعوى لم يأت عليها بدليل سوى بحديث هند "هل تزني الحرة" ولكنه حديث ضعيف؛ ضعفه عدد من الأئمة مثل ابن الملقن وابن حجر والزيلعي والعراقي والهيثمي، ومن المعاصرين حسين أسد⁶؛ ولقد رجعت إلى شرح البخاري فلم

1 كذا رسمت في الكتاب، والصواب أن تكتب الهمزة على السطر. هكذا: إماءهم - لأنها منصوبة على المفعولية. والله أعلم

2 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10 / 233)

3 وانظر تفصيلها: الموسوعة الفقهية الكويتية (41 / 325)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10 / 218)

4 صحيح البخاري بتحقيق البغا (5 / 1970)

5 أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (2 / 270)

6 جاء في خلاصة البدر المنير لابن الملقن (2 / 300): (حديث: أو تزني الحرة. رواه أبو يعلى في مسنده من حديث عائشة، وفي إسناده نسوة لا يعرفن، نعم هو مشهور). اهـ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ح 9862: (رواه أبو يعلى، وفيه من لم أعرفهن). وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ط العلمية (4 / 151): (وقال أبو نعيم في المعرفة أيضا تفرد به عبد الله بن محمد بهذا السياق.. قلت: وهو ضعيف جدا؛ قال أبو حاتم: الراوي متروك الحديث، ونسبه ابن حبان إلى الوهم) وقال حسين سليم أسد في تعليقه على مسند أبي يعلى ح: 4754 ط دار المأمون: (إسناده ضعيف) اهـ وانظر المزيد في مقال على الشبكة بعنوان "تخريج حديث (أو تزني الحرة؟!)" على : <http://www.kulalsalafiyeen.com/vb/showthread.php?t=61840>

أجد أحدا نصّ على أن قول عائشة "وهن البغايا" أن هؤلاء البغايا كانوا إماءً، مع أن الحافظ توقف عند هذه الجملة، وشرحها وساق عدة روايات، وذكر فيها بعض أسماء تلك البغايا، وقال أيضا: وقد ساق هشام بن الكلبي في "كتاب المثالب" أسامي صواحيب الرايات في الجاهلية، فسّمى منهن أكثر من عشر نسوة مشهورات تركت ذكرهن اختياراً¹. اهـ وهذا كله لا يفيد أنّ إماء، بل فيها إشارة إلى أنّهن حرائر كما هو ظاهر، حتى لو فرضنا أن الزنا كان في الإماء فقط، فقد كان هذا بإرغام من أسيادهن كما سبق، ومهما يكن من أمر فالزنا زنا، وهو رذيلة وفاحشة سواء كان من حرة أو أمة.

الصورة الثانية : نكاح الرهط حيث "يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصببها، فإذا حملت ووضعت، ومّر ليالٍ بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل"².

الصورة الثالثة: نكاح الاستبضاع حيث "كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه. ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد .." قال ابن حجر: معنى استبضعي منه أي اطلبي منه المباشعة، والمباشعة: الجامعة مشتقة من البضع وهو الفرج، أي اطلبي منه الجماع اكتسابا من ماء الفحل لتحملني منه، لأنهم كانوا يطلبون ذلك من أكابرهم ورؤسائهم في الشجاعة أو الكرم أو غير ذلك³.

الصورة الرابعة: نكاح الخدن. والخدن هو الصديق للمرأة يزني بها سرا. وذات الخدن من النساء: هي التي تزني سرا. وقيل: ذات الخدن هي التي تزني بواحد، وكانت العرب تعيب الإعلان بالزني ولا تعيب

¹ فتح الباري لابن حجر (9 / 185)

² صحيح البخاري بتحقيق البغا (5 / 1970)، فتح الباري 9 / 182 - 183، والحاوي الكبير 11 / 7، الموسوعة الفقهية الكويتية (41 / 326)

³ فتح الباري 9 / 185، والحاوي الكبير 11 / 7، 8، النهاية في غريب الحديث والأثر (1 / 133)، الموسوعة الفقهية الكويتية (41 / 326)

اتخاذ الأخدان، ثم رفع الله جميع ذلك، قال ابن عباس: كان قوم من العرب يجرّمون ما ظهر من الزنا ويستحلّون ما خفي منه، فنهى الله سبحانه وتعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن بقوله {ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن}، وزجر عن الوطء إلا عن نكاح صحيح أو ملك يمين". وقال ابن العربي في تفسير قوله تعالى: {غير مسافحات ولا متخذات أخدان}: كانت البغايا في الجاهلية على قسمين: مشهورات، ومتخذات أخدان. وكانوا يعقلهم يجرّمون ما ظهر من الزنا ويحلّون ما بطن، فنهى الله تعالى عن الجميع¹. وقال الطبري: "ولا متخذات أصدقاء على السفاح. وقد ذكر أن ذلك قيل كذلك، لأن الزواني كنّ في الجاهلية في العرب المعلنات بالزنا، والمتخذات الأخدان: اللواتي قد حبسن أنفسهن على الخليل والصديق للفجور بها سرا دون الإعلان بذلك:2.

الصورة الخامسة: المضامدة، "و) الضمّد: (أن تتخذ المرأة خليلين)، كالضماد، بالكسر، وهو مجاز، قال مدرك:

لا يُخلص الدهرَ خليلٌ عشرا

ذات الضماد³ أو يزور القبرا

إني رأيت الضمّد شيئا نُكرا

وقد ضمّدته تضمّده وتضمّده، قال أبو ذؤيب:

تريدين كيما تضمّديني وخالدا .. وهل يجمع السيفان ويحك في غمد

1 الموسوعة الفقهية الكويتية (41/ 333) نقلا عن أحكام القرآن للجصاص 2 / 168 ، والجامع لأحكام القرآن 5 / 143 ، 7

/ 74 ، وأحكام القرآن لابن العربي 1 / 516 ، 2 / 46 ، 270 ، وفتح الباري 9 / 184 ،

2 جامع البيان ط هجر (6/ 591)

3 كذا في تاج العروس "ذات الضماد"، وكذا وقع في «لسان العرب» (3/ 266)، وكذا في «المحكم والمحيط الأعظم» (8/ 178)،

ولكن وقع في غيرها "ذاق الضماد"، كذا وقع في «كتاب الأفعال» لابن الحداد (2/ 214)، وكذا في «جمهرة اللغة» (3/ 1300):

«قال: والضمّد: أن يصادق الرجل امرأتين أو ثلاثاً، وكذلك المرأة. وأنشد: إني رأيت الضمّد شيئا نُكرا لا يخلص الدهرَ خليلٌ

عشرا ذاق الضماد أو يزور القبرا عشراً». اهـ

وعن أبي عمرو: الضمد: أن تخال المرأة ذات الزوج رجلا غير زوجها أو رجلين. قال الفراء: الضماد: أن تصادق المرأة اثنين أو ثلاثة في القحط، لتأكل عند هذا وهذا لتشبع. (و) الضمد. (بالكسر: الخِلّ)، عن الصاغاني. ومنه ضمدت المرأة، إذا جمعت بين زوجها وخِلّها¹. اهـ
 وثمة صور أخرى للزنا اختُلف في ثبوتها عن العرب كنيكاح التبادل²، هذا وقد ذكر بعض صور الزنا هذه بعض السلفية فقال الدويش في زوائد مسائل الجاهلية: 68- نكاح الاستبضاع.. 69- نكاح البغايا.. 70- نكاح المرأة العدد الكثير من الرجال وإلحاق الولد بواحد منهم³. اهـ
 والحاصل أن الزنا كان منتشرا في الجاهلية بصور عديدة بل إن معظم تلك الصور كان متعارفا

عليها بينهم كما رأينا، فكيف تكون عقوبة الزنا في الجاهلية والحالة هذه: الرجم والقتل؟!
الوجه الخامس: لو سلّمنا جدلا بأن أهل الجاهلية يعاقبون الزاني بالرجم أو بالقتل، وأنه من غير المستبعد أن تكون هذه العقوبة جاهلية أقرها الإسلام في جملة ما أقر من أحكام كان يسير عليها الجاهليون⁴ فهذا ليس تديّنا لأنهم لا يؤمنون بيوم الدين أصلا كما ذكرنا مرارا، وإنما هم قد يعاقبون من

1 تاج العروس من جواهر القاموس (8/ 314)

2 جاء في الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (17/ 198): قوله تعالى: (ولا أن تبدل بهن من أزواج) قال ابن زيد: هذا شيء كانت العرب تفعله، يقول أحدهم: خذ زوجتي وأعطني زوجتك، روى الدارقطني عن أبي هريرة قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: انزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك، فأنزل الله عزوجل " ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن " قال: فدخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله ﷺ وعنده عائشة.. قال: من هذه الحميراء إلى جنبك؟ قال رسول الله ﷺ: (هذه عائشة أم المؤمنين) قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق. فقال: (يا عيينة، إن الله قد حرم ذلك).. وقد أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب، من أنها كانت تبادل بأزواجها. قال الطبري: وما فعلت العرب قط هذا. وما روي من حديث عيينة بن حصن.. فليس بتبديل، ولا أراد ذلك، وإنما احتقر (أي عيينة بن حصن) عائشة لأنها كانت صبية فقال هذا القول. اهـ وحديث الدارقطني هذا فيه متروك كما بيّن ذلك محقق تفسير القرطبي. والله أعلم، وانظر أيضا «أحكام القرآن لابن الفرس» (3/ 435)، «البحر المحيط في التفسير» (8/ 497)، «موسوعة التفسير المأثور» (18/ 89)، وعيينة بن حصن هذا كان من المؤلفلة قلوبهم ثم ارتدّ والعياذ بالله، ثم أسلم من جديد فعفا عنه أبو بكر الصديق ﷺ. انظر: «أسد الغابة في معرفة الصحابة ط العلمية» (4/ 318)

3 زوائد مسائل الجاهلية (ص: 19)

4 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10/ 231)

زنى بامرأة محصنة منهم "انتقاماً منه، لهدره شرفهم وإحاقه الضرر بهم"¹ لا أكثر، كما تدل عليه الأخبار التي استشهد بها شكري الألوسي نفسه كقصة النعمان وقصة صخر، فهي قضايا غيرة وشرف لا أكثر، هذا إن صحت تلك القصص، وإلا ففي صحتها شكٌّ بل شكوك كما سنرى.

على أن هذا العقاب المفترض على الزنا قد يكون محمولاً على سادات القبائل وكبار القوم . وليس كلهم . فقد كان هؤلاء السادات يجرّمون ما يرون فيه ضرراً على النفس أو المال أو نحو ذلك كما سبق بيانه في حد السرقة²، وربما فعلوا ذلك لما فيه من اختلاط أنسابهم بأنساب غيرهم، وهذا يأنفه العرب لما فيهم من الاعتزاز بحسبهم والفخر نسبهم، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً: "أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب"³. وفي حديث البخاري: (يا أبا ذر أعيرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم..) قال ابن بطال: يريد إنك في تعبيره بأمه على خلق من أخلاق الجاهلية، لأنهم كانوا يتفاخرون بالأنساب⁴. اهـ وسيأتي بسط ذلك⁵.

الوجه السادس: قيل بأن "الزنا الذي يعاقب عليه الجاهليون هو زنا المرأة المحصنة من رجل غريب بغير علم زوجها، وهو خيانة وغدر. أما زنا الإماء. فلا يعدّ عيباً إذا كان بعلم مالكنه وبأمره.. أما الرجل، فلا يلحقه أدّى إن زنى بامرأة، بل كان.. يفتخر باتصاله بالنساء، ويعدّ ذلك من الرجولة. وليس لامراته ملاحقته شرعاً على زناه. وقد يلحقه أدّى من ذوي امرأة محصنة إن زنى بها، انتقاماً منه، لهدره شرفهم وإحاقه الضرر بهم"⁶، وقيل أيضاً بأن "الزنا عند أهل الجاهلية؛ الزنا العلني، فهو عيب

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10/ 233)

2 انظر: ص (158) عند قولي : (تكرماً وصيانة لأنفسهم)

3 مختصر صحيح مسلم للمنذري ت الألباني (1/ 126)

4 شرح صحيح البخاري لابن بطال (1/ 85)

5 انظر: ص (246) عند قولي : (لأنهم كانوا يتفاخرون بالأنساب)

6 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10/ 232)

عندهم، أما اتخاذ الخدن، فلا يعدّ عيباً؛ لأن المرأة تصادق الرجل، والرجل يصادق المرأة، وقد وقع عن قبول ورضئى، فهو عمل حلال، ولا بأس به"¹. اهـ واتخاذ الخدن هو الزنى في السر كما سبق بيانه.

وهذه كله يبين أن عقوبة الزنا في الجاهلية إن ثبتت فهي انتقائية تطبق في بعض صور الزنا دون بعض، وأن تطبيقها ليس تدينا بل انتقام ممن دتس عرضهم وشرفهم ونسبهم الذي يفخرون به، وهذا القدر ربما يشترك معهم فيه الملاحدة، وربما يقوم بعض الحيوانات بمثل هذا الانتقام، كما في حديث البخاري عن عمرو بن ميمون قال: "رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة، قد زنت، فرجموها فرجمتها معهم"²، ودونكم المجتمعات الغربية فهي مع إباحة الزنا والشذوذ الجنسي في قوانينها إلا أنها تعاقب على الاغتصاب، لكونه حصل بغير إرادة المرأة وليس لكونه حراما، وإلا لما أباحت الزنا والشذوذ إن كان بإرادة الطرفين، وهكذا الأمر هنا عند عرب الجاهلية فهم يبيحون أنواعا من الزنى، ويحظرون أخرى لاعتبارات لا علاقة لها بالدين كما رأينا.

الوجه السابع: وأما قول الألويسي "ومن شواهد ذلك ما كان من النعمان بن المنذر من قتل المتجردة والمنخل العبدى لما اطلع على ما كان من أمرهما، وأراد قتل النابغة الذبياني لما تعرض في قصيدته الدالية المشهورة لوصف حرمه، ثم اعتذر منه بعدة قصائد فعفا عنه، وقصة صخر الشاعر الشهير لما توسم في زوجته الميل إلى غيره وكان مريضا وهي مشهورة.."

والجواب عن قصة النعمان مع النابغة، أولا: النعمان بن المنذر هذا هو أبو قابوس أحد ملوك المناذرة في الحيرة الذي مدحه النابغة لم يكن من الوثنيين، وإنما "كان مسيحيا نسطوريا"³ كما قيل. قال جواد علي ((وقد أشار أهل الأخبار إلى تنصّر بعض ملوك الحيرة، ونسبوا إليهم بناء الأديرة والكنائس، كما أشار إلى ذلك بعض مؤرخي الكنيسة. كالذي ذكره عن المنذر وعن "النعمان بن

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10/ 218)

2 صحيح البخاري بتحقيق د. البغا (3/ 1397)

3 انظر: https://ar.wikipedia.org/wiki/النعمان_بن_المنذر

المنذر)¹، ثم تعقب ذلك بقوله: "غير أننا لا نستطيع إقرار ذلك بوجه عام، ولا بد من التريث إذ يظهر أن أكثر ملوك الحيرة كانوا على الوثنية"².

بيد أن هذه الأكثرية لا تنفي أن النعمان بن المنذر على وجه الخصوص كان نصرانياً ولا سيما أن جواد علي نفسه أورد بعد هذا ما يؤكد أن النعمان بن المنذر كان هو وآله ممن تنصّر وحمل الصليب وبنى أديرة فقال: "ودير اللّج وهو بالحيرة بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس، وكان يركب في كل أحد إليه، وفي كل عيد، ومعه أهل بيته خاصةً من آل المنذر، عليهم حلل الديباج المذهبة، وعلى رؤوسهم أعلام فوقها صلبان، وإذا قضاوا صلاتهم انصرفوا إلى مستشرفة على النجف، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه، وخلع ووهب..³"، وهذا كله يؤكد أن النعمان هذا كان نصرانياً، وبالتالي فلا علاقة له فيما نحن فيه لأن الكلام هنا منصب على مناقب المشركين الوثنيين في الجاهلية لا على النصارى ولا غيرهم.

ثانياً: أن المنذر إنما أراد قتل النابغة ليس لمجرد أنه وصف حرمة أي زوجته، بل لأنه أفحش في وصفها حيث إنه نظم قصيدة "وصف بها المتجردة امرأة النعمان بن المنذر، وكان النابغة من خواصه وندمائه وأهل أنسه، فرأى زوجته المتجردة يوماً وغشيتها أمر سقط نصيفها واستترت بيدها وذراعها. وذكر في هذه القصيدة أموراً عجيبة منها في صفة فرجها. ثم أنشدتها النابغة مرة بن سعيد القريني فأنشدتها مرة النعمان فامتلاً غضباً وأوعده النابغة وتهدده. فهرب منه إلى ملوك غسان بالشام"⁴. وهذا

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (12 / 171)

2 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (12 / 172)

3 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (12 / 174) نقلاً عن البكري، "معجم" 5 / 596، "دير الج"، ونقله عن البكري أيضاً الأب شيخو في «النصرانية وأدائها بين عرب الجاهلية» (ص 209 ت.ش)، وورد أيضاً في «الديارات» (ص 23 ت.ش)، لأبي الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ).

4 خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي (2 / 136)، وقد شكك د. محمد أبو موسى في صحة نسبة أبيات الفحش هذه إلى النابغة مستدلاً بأن النابغة كان يحتاط في الحديث عن عذوبة الريق فمن كان حاله كذلك لا يمكن أن ينشد هذه الأبيات الفاحشة؛ فالقطع أنها "مصنوعة ومسندة للنابغة" لتأكيد الواقعة فيها بنو قريع.. والشعراء الذين عرفوا بالمبالغات في حديث لهن النساء من أمثال امرئ القيس والأعشى.. لم يصلوا إلى هذا المستوى المفضوح والذي ليس فيه من الشعر وإنما هو بذاءة محضنة موزونة

أمر طبيعي جداً أن يغضب ملك على شاعر يجروء عليه فيصف زوجته هذا الوصف، والحامل على هذا الغضب هو الغيرة البشرية وكبرياء الملك لا أكثر، وهذه الأمور أي الغيرة والكبرياء لا يشترط صاحبها أن يكون متدينا بل قد تصدر من الفاجر والملحد.

ثالثاً: ثمة سبب آخر "من أجله هرب النابغة: أنه كان هو والمنخل الإشكري نديمين للنعمان وكان النعمان دميماً قبيح المنظر وكان المنخل من أجمل العرب وكان يرمى بالمتجردة وتكلمت العرب أن ابني النعمان منها كانا منه فقال النعمان للنابغة: يا أبا أمامة صف المتجردة في شعرك. فقال تلك القصيدة ووصفها فيها ووصف بطنها وفرجها وأردافها. فلحقت المنخل من ذلك غيرة، فقال للنعمان: ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جرّب. فوفر ذلك في نفس النعمان، فبلغ النابغة فخافه، فهرب إلى ملوك غسان.."¹.

مقفاة، وعجبت من أنني أجدها في طبقات ديوانه مع أن النابغة ليس في شعره ما يخذش الحياء "الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء ص 429، 430، مُجّد مُجّد أبو موسى. وقد أيد ذلك الأستاذ مُجّد رشيد في دروسه التي شرح فيها المعلقات ومنها معلقة النابغة، أيد ذلك التشكيك بأن النابغة نفى في معلقته أن يكون قد قال الخنا في عرض النعمان وحلف على ذلك ولمح. أي النابغة. إلى أن هذا مفترى عليه، وذلك قوله:

فلا لعمر الذي مسحت كعبته .. وما هريق على الأنصاب من جسد
ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه .. إذا فلا رفعت سوطي إلي يدي
إلا مقالة أقوام شقيت بها .. كانت مقالتهم قرعا على الكبد
إذا فعاقبني ربي معاقبة .. قرت بها عين من يأتيك بالفند
هذا لأبراً من قول قذفت به .. طارت نوافذه حرا على كبدي
انظر شرح القصائد التسع المشهورات للنحاس (ص: 760).

وانظر: شرح معلقة النابغة الذبياني - مُجّد رشيد - المجلس السادس، الدقيقة: 65

<https://www.youtube.com/watch?v=PGF36-lcFm4>

ويؤيد هذا أيضاً أن البغدادي قال في خزنة الأدب (5/ 72): وهذا البيت من قصيدة للنابغة الذبياني وهو أحسن شعره ولهذا أحقوها بالقصائد المعلقات مدح بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة وتبرأ فيها مما اتهم به عند النعمان. اه ثم سرد بعض الأبيات السابقة.

¹ خزنة الأدب للبغدادي (2/ 136)

وبناء على هذا يكون سببُ نعمة النعمان على النابغة ليس إنشاده قصيدة في المتجردة زوجته ووصف فيها "بطنها وفرجها وأردافها"، وإنما لأنه اشتبه بأن يكون النابغة ممن زنى بامرأته بعد أن وشى به المنحل كما دل على ذلك "فقال للنعمان: ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جرّب". فوقر ذلك في نفس النعمان"، والحامل على هذه النعمة هي الغيرة والكبرياء لا قضية التدين كما هو ظاهر.

وأما الجواب عن قصة صخر وزوجته سلمى فلم يوردها الألويسي أصلاً لنظر فيها، وإنما أشار إليها فحسب، وبعد البحث وجدتها، وحاصلها أن صخراً كان مُقعداً من ضربة سيف في بطنه أصابته في بعض المعارك، فحُكي "أنه جلس يوماً ليستريح وقد رفع سجد البيت، فرأى سلمى واقفة تحدث رجلاً من بني عمها وقد وضع يده على عجزتها، فسمعه يقول لها: أبيع هذا الكفل؟ فقالت: عن قريب. فقال صخر لأمه: عليّ بسيفي لأنظر هل صدئ أم لا؟ فأنته به فجرده وهمّ بقتل سلمى، فلما دخلت رفع السيف فلم يستطع حمله، فبكى وأنشد:

أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعه .. وقد حيل بين العير والنزوان¹. اهـ

وغاية ما هذه القصة . إن صحّت طبعاً . أنه غار على زوجته من ابن عمها، والغيرة ليس من

شرط صاحبها أن يكون مؤمناً بل قد يكون ملحداً كما هو مشاهد ومحسوس .

¹ تزيين الأسواق في أخبار العشاق (ص: 126 ت.ش)

المطلب الثالث: القسامة في الجاهلية

فقد قالوا "وكان فيهم القصاص والدية والقسامة.."⁽¹⁾، والجواب: نعم كانت القسامة في الجاهلية كما ثبت ذلك في عدة أحاديث²، ولكن ههنا أمور ينبغي التنبيه عليها:

أولاً: القسامة مختلف في مشروعيتها أصلاً بين الفقهاء، فثمة من أنكراها حتى من السلف فممن "أنكرها سالم بن عبد الله بن عمر وأبو قلابة الجرمي وعمر بن عبد العزيز ورواية عن قتادة! وهو قول مسلم بن خالد الزنجي، وفقهاء أهل مكة، وإليه ذهب ابن علية"³. فهؤلاء طائفة ممن لم "يروا القسامة ولا أثبتوا لها في الشرع حكماً"⁴. اهـ

وقد كتب "عمر بن عبد العزيز في القسامة إن أقاموا شاهدي عدل أن فلانا قتله فأقده، ولا تقبل شهادة واحد من الخمسين الذين أقسموا"⁵. "وسبق عمر بن عبد العزيز إلى إنكار القسامة سالم بن عبد الله بن عمر فأخرج ابن المنذر عنه أنه كان يقول يا لقوم يحلفون على أمر لم يروه ولم يحضروه ولو كان لي أمر لعاقبتهم ولجعلتهم نكالا ولم أقبل لهم شهادة، وهذا يقدر في نقل إجماع أهل المدينة على القود بالقسامة، فإن سالما من أجل فقهاء المدينة، وأخرج ابن المنذر أيضا عن ابن عباس أن القسامة لا يقاد بها. وأخرج ابن أبي شيبة من طريق إبراهيم النخعي قال: القود بالقسامة جور، ومن طريق الحكم بن عتيبة أنه كان لا يرى القسامة شيئا"⁶. بل قال الحسن: القتل بالقسامة جاهلية⁷.

(1) جهود علماء الحنفية (1 / 212).

2 كما في حديث البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن أول قسامة كانت في الجاهلية لفينا بني هاشم كان رجل من بني هاشم استأجره رجل من قريش.. فأثاه أبو طالب فقال له اختر منا إحدى ثلاث إن شئت أن تؤدي مائة من الإبل فإنك قتلت صاحبنا وإن شئت حلف خمسون من قومك أنك لم تقتله فإن أبيت قتلناك به.. الحديث بطوله. انظر: صحيح البخاري بتحقيق د. البغا (3/ 1396).

3 الاستذكار (25/ 169)

4 إكمال المعلم بفوائد مسلم (5/ 448)

5 الاستذكار (25/ 169)

6 فتح الباري لابن حجر (12/ 232)

7 الاستذكار (25/ 163)

وقد رأى هؤلاء أن القسامة "مخالفة لأصول الشرع المجمع على صحتها، ومن هذه الأصول: ألا يحلف أحد إلا على ما علم قطعاً أو شاهد حساً، وإذا كان كذلك فكيف يقسم أولياء الدم وهم لم يشاهدوا القاتل، بل قد يكونون في بلد والقاتل في بلد آخر"¹. فهم "قوم يحلفون مجرد الظن، ولم يروا، ولم يحضروا، ولم يجزموا بحقيقة، فكيف تُقبل أيمانهم؟ وقوم يستحلفون لمجرد اتهام لا تقوم عليه أدلة. لماذا يستحلفون؟ وكيف يطالبون بدية قتل لم يثبت عليهم؟ إن هذه الأحكام تتيح لتلفيق التهم مجالاً فسيحاً، وتفتح لإلصاق الجرائم بالبراءة باباً واسعاً، وفي المقابل لولا هذه الأحكام لأهدرت دماء يجب حقنها، ولتمكن المجرمون من ارتكاب جرائمهم، والهروب من العقاب.." ². فغاية ما يمكن أن يقال إنهم "معذورون أولئك المتوقفون عن القسامة وإن كانوا قليلين، ومأجورون أولئك القائلون بها، مأجورون بحسن القصد وإخلاص النية والعمل بالسنة، وليس كل ما كان في الجاهلية مذموماً، فهناك الكثير مما كان فيها وأقره الإسلام مراعاة لمصالح العباد، وعلى الله قصد السبيل"³.

ثانياً: على التسليم بمشروعية القسامة فإن أهل الجاهلية لم يعملوا بالقسامة تديناً ولا اتباعاً لشرع سابق، بل هي مجرد رأي منهم أقره الإسلام. كما يدل ذلك على حديث البخاري وفيه: "فأتاه أبو طالب فقال له: اختر منا إحدى ثلاث؛ إن شئت أن تؤدي مائة من الإبل فإنك قتلت صاحبنا، وإن شئت حلف خمسون من قومك أنك لم تقتله، فإن أبيت قتلناك به.."، وعند الزبير بن بكار أنهم تحاكموا في ذلك إلى الوليد بن المغيرة فقضى أن يحلف خمسون رجلاً من بني عامر عند البيت ما قتله خدش"⁴.

قال جواد علي: ((ويتبين من دراسة ما يُنسب إلى أولئك الحكام من حكام "قريش"، أي: "مكة" .. كانوا حكماً بالمعنى المفهوم من "الحاكم"، فأحكامهم هي أحكام قانونية، مقتبسة من منطق العدالة والحق. وهي تشريع مدني ينسجم مع التشريع المدني للأمم المختصرة. ..وقد روت كتب

1 الموسوعة الفقهية الكويتية (33/ 167)، وانظر فتح المنعم شرح صحيح مسلم (6/ 507)

2 فتح المنعم شرح صحيح مسلم (6/ 507)

3 فتح المنعم شرح صحيح مسلم (6/ 507)

4 إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (6/ 180)

الأدب والأخبار بعض الأحكام التي حكم بها حكام العرب، فصارت سنة للناس نهجوا عليها، منها: قطع يد السارق، وقد زعموا أن أول من سن ذلك هو "الوليد بن المغيرة" .. والقسامة، وقد حكم بها "الوليد بن المغيرة" كذلك.. إلى أن يقول: ولهذا فحكمنا في هذه الأمور هو أن الأحكام المذكورة هي رأي واجتهاد، قد يتبعه بعض وقد يخالفه بعض آخر، يكون أتباعه في الموضوع الذي عاش فيه الحاكم فأحكامهم لهذا أحكام محلية، قد تصير عرفاً، إذا انتزعت من صميم الواقع ومن عقلية المحيط))¹.

وهكذا فحكم أهل الجاهلية بالقسامة هو شيء سنوه بعقولهم، وهذا منسجم مع ما هو معروف عنهم من التشريع بعقولهم الذي أنكره الله عليهم، لأن التشريع من صفات الربوبية كما سبق بيانه²، قال ابن تيمية: فمن شرع من الدين ما لم يأذن به الله، وحرّم ما لم يحرم الله ورسوله، فهو من دين أهل الجاهلية، المخالفين لرسوله.. حيث شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله. فَحَرَمُوا ما لم يحرمه الله، وأحلّوا ما حرّمه الله، فذمّهم الله وعابهم على ذلك³. اهـ وقال أيضاً: وقد كان المشركون يحرمون من الطعام واللباس أشياء ويتخذون ذلك ديناً⁴. اهـ

ثم أقرّ الإسلام حكم القسامة بعد ذلك على قول من يعتبرها مشروعة، قال القرطبي بأن العمل بالقسامة إنما هو: من جهة إقرار النبي ﷺ عليها، لا من جهة الاقتداء بالجاهلية فيها⁵. اهـ وقال ابن عبد البر: وكانت القسامة في الجاهلية خمسين يمينا على الدماء، فأقرّها رسول الله ﷺ فصارت سنة⁶.

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10 / 323)

2 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (506).

3 الفتاوى الكبرى (2 / 93)

4 مجموع الفتاوى (11 / 584)

5 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (5 / 18)

6 الاستذكار (25 / 170)

والحاصل أن القسامة مختلف في مشروعيتها، وعلى التسليم بمشروعيتها فقد حكم بها أهل الجاهلية ليس تدينا ولا اتباعا لشرع سابق، وإنما حكموا بها بمحض عقولهم حيث كانوا يعطون لأنفسهم حق التشريع، وهذا أمر مذموم لا ممدوح كما سبق، فكيف يجعل منقبة لهم؟!

المطلب الرابع: الدية في الجاهلية

يقول شكري الألوسي: "ومن عقوباتهم إعطاء دية القتيل - وهي مائة من الإبل وكانوا يأنفون من أخذها، ويعيرون من يرضى بها وفي ذلك شعر كثير " ثم ذكر كثيرا من أبيات الشعر في ذلك. والجواب أن إعطاء الدية لم يكن عند عرب الجاهلية تشريعا ولا تدينا، وذلك للأسباب التالية:

أولا: لم يكن إعطاء الدية لأولياء المقتول شريعة لأهل الكتاب، ولا من شريعة إبراهيم الخليل حتى يقال إن العرب اقتدوا بها، بل الوارد أن الدية من خصائص شريعة النبي ﷺ، يدل على ذلك ما أخرجه ابن جرير في تفسيره والزجاجي في أماليه عن قتادة في قوله { ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ } [البقرة: 178]، قال : هي رحمة رحم بها الله هذه الأمة أطعمهم الدية وأحلها لهم ولم تحل لأحد قبلهم، فكان في أهل التوراة إنما هو القصاص أو العفو ليس بينهما أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل الله لهذه الأمة القتل والعفو والدية إن شاءوا، أحلها لهم، ولم يكن لأمة قبلهم 1.

ثانيا: وردت قصة تبين أن عبد المطلب هو من سنّ الدية مئة من الإبل، وسبب ذلك ما قاله ابن إسحاق أن عبد المطلب كان "فيما يزعمون نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم لئن ولد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعه، ليدبحن أحدهم لله عند الكعبة، فلما تكامل بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه.."²

والقصة طويلة حاصلها أنه استقسم بالأزلام ليعرف من يذبح من أبنائه فخرج القرعة على عبد الله . والد النبي ﷺ . وهَمَّ بذبحه فمنعته قريش، وأشارت إليه أن يذهب إلى عرّافة فيسألها عن ذلك، فذهبوا إليها فسألوها فقالت لهم العرافة: "ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله . فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها، قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا : عشر من الإبل، وكانت كذلك، قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قرّبوا صاحبكم، وقرّبوا عشرا من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم . أي عبد الله والد النبي ﷺ . فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانخروها عنه، فقد رضي ربكم ونجا

1 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (157 /2)

2 البداية والنهاية ط هجر (345 /3).

صاحبكم"¹. فرجعوا فضربوا القداح مرارا فكان يخرج اسم عبد الله والد النبي ﷺ حتى بلغت الإبل مائة "ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل، فقالت عند ذلك قريش لعبد المطلب وهو قائم عند هبل يدعو الله: قد انتهى، رضي² ربك يا عبد المطلب"³.

وهذه القصة فيها نصّ على أن الدية كانت عشرة من الإبل فقط، ثم صارت مائة من الإبل اتفاقاً عن طريق الاستقسام بالأزلام وباقتراح من تلك المرأة العرّافة على عبد المطلب فداءً لابنه عبد الله من الذبح، وهذا كله إن صحت هذه القصة أصلاً، وهي من رواية ابن إسحاق، وهو مختلف في الاحتجاج به فيما يرويه مسنداً⁴، فما بالك وقد روى هذه القصة دون سند أصلاً! على أنه لا يُستبعد صحتها لأن ابن عباس أفتى بموجبها، فقد روى ابن جرير بسنده أن ابن عباس سأله امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الإبل، وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب⁵، هذا إن صحت رواية ابن عباس هذه.

والحاصل أن عبد المطلب هو "أول من سن الدية مائة من الإبل، فأخذت به قريش والعرب، وأقره رسول الله - ﷺ - في الإسلام"⁶. وقد نُسب بعضهم هذا الحكم . أي أن الدية مائة من الإبل . إلى "أبي سيّارة العدواني"¹ ، ونُسب إلى غيرهما².

1 السيرة النبوية لابن هشام (1/ 154).

2 هكذا ضبطت على الصواب في «نخاية الأرب في فنون الأدب» للنويري (16/ 56) ، وفي «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء» (1/ 106)، و«نزهة الأفكار في شرح قرة الأبصار» (1/ 38)، و«إعراب القرآن - إسماعيل الأصبهاني» (ص344)، وضبطها محقق البداية والنهاية (ط/ هجر) "قد انتهى رضى ربك" . وكذا ضبطها محقق «الأوائل للعسكري» (ص29)، وهو خطأ كما هو ظاهر، لأنه "الرضى" صار هكذا فاعلاً! وصار المعنى أن ربك قد انتهى رضاه!! أي كأنه لن يرضى على أحد أو على شيء بعد ذلك!!! وهذا المعنى فاسد كما هو معلوم . والله الموفق

3 البداية والنهاية ط هجر (3/ 346)، وأضاف ابن كثير: ويقال: إنه لما بلغت الإبل مائة خرج على عبد الله أيضاً فزادوا مائة أخرى حتى بلغت مائتين فخرج القدح على عبد الله فزادوا مائة أخرى فصارت الإبل ثلاثمائة، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فنحرها عند ذلك عبد المطلب. والصحيح الأول. اهـ

4 انظر: ميزان الاعتدال: 3 / 468 - 475، تهذيب التهذيب: 9 / 38 - 46، سير أعلام النبلاء ط الرسالة (7 / 39).

5 البداية والنهاية ط هجر (3/ 346)

6 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10/ 265)

وهذا كله كما ترى لا علاقة له باتباع أهل الجاهلية لشرع سابق أو لاحق، وإنما هو في أحسن الأحوال يندرج فيما نسبه "أهل الأخبار إلى رجال من الجاهليين فتاوى وأحكام صارت سنناً في قومهم". من ذلك ما نسبوه إلى "قصي" من أمور، زعموا أنها صارت سنة احتدّت بها قريش، وأن بعضاً من أحكامه بقيت إلى الإسلام فأقرّها،.. وما ذكروه من إفتاء "عامر بن جشم بن غنم" المعروف بـ"ذي الجاسد". في التورث على قاعدة: "أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وهو حكم حكّم به الإسلام. ومن أمور أخرى.. ممّا يدل على أن الحياة الدينية عند الجاهليين هي آراء وفتاوى، أفتى بها رجال من أهل الدين والمروءة والعقل والعلم من أهل الجاهلية³. اهـ

ثالثاً: أنهم كانوا يغدرون بالقاتل، حيث يرضون منه بالدية في أول الأمر فيعطيه إياها، ثم إذا ظفروا به قتلوه، فنهى الله عن ذلك في آية القصاص بقوله {فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدَاةٍ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: 178]، يدلّ على ذلك ما أخرجه وكيع وعبد بن حميد وابن جرير، عن الحسن في قوله "فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم" قال: كان الرجل في الجاهلية إذا قتل قتيلاً ينضمّ إلى قومه، فيجيء قومه فيصالحون عنه بالدية، فيخرج الفارّ وقد أمن في نفسه، فيقتله، ويرمي إليه بالدية، فذلك الاعتداء⁴، ولذلك قال ورد في الحديث "لا أعافي أحداً قتل بعد أخذه الدية"⁵.

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10/ 265)

2 قال العيني في عمدة القاري (16/ 407): واختلفوا في أول من سنّ الدية مائة من الإبل، فقال ابن إسحاق: عبد المطلب، وقيل: القلمس، وقيل: النضر بن كنانة بن خزيمه قتل أخاه لأمه فوداه مائة من الإبل من ماله، وقال ابن الكلبي: وثب ابن كنانة على علي بن مسعود فقتله، فوداه خزيمه بمائة من الإبل، فهي أول دية كانت في العرب، وقيل: قتل معاوية بن بكر بن هوازن أخاه زيدا فوداه عامر بن الضرب مائة من الإبل، فهي أول دية كانت في العرب. اهـ

3 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11/ 218)

4 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (2/ 158)

5 هذا الحديث روي من وجوه عدة مرسلًا ومتصلًا، فروي من مرسل الحسن أخرجه البيهقي في السنن الكبرى 54/8، ومن مرسل قتادة أخرجه عبد الرزاق في مصنفه 15/10 وفي تفسيره 67/1، وروي متصلًا من حديث جابر أخرجه أبو داود في سننه 173/4 ولكن في سنده انقطاع كما قال الحافظ، ومن حديث سمرة أخرجه سمويه في فوائده الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (2/ 158)، ومن حديث ابن عمر أخرجه ابن عدي في الكامل 426/3. انظر الأحكام الوسطى (4/ 64)، أنيس الساري (تخرّيج أحاديث فتح الباري) (9/ 6026)، سلسلة الأحاديث الضعيفة (10/ 310).

رابعاً: الدية في الشرع لا يختلف قدرها باختلاف قَدْر المقتول "فدية الصغير كدية الكبير، ودية الضعيف كدية القوى، ودية المريض كدية الصحيح، ودية المتعلم كدية الجاهل، ودية الشريف كدية الوضيع"¹، وأما في الجاهلية فقد كان الأمر بخلاف ذلك؛ حيث يعطون أحياناً نصف دية، وأحياناً دية كاملة، وأحياناً ديتين؛ فتختلف ((الدية باختلاف درجات القبائل ومنازل الناس، فقد تكون عشرة من الإبل، وقد تبلغ ألفاً. فإذا كان القتل من سواد الناس ومن القبائل الصغيرة الضعيفة كانت ديته قليلة. أما إذا كان من أشرف القبيلة زادت ديته عن ذلك تبعاً لمنزلة القتل ومكانته. وإذا كان القتل ملكاً، كانت ديته ألفاً من الإبل، وتسمى هذه الدية "دية الملوك" .. وكانت بعض القبائل قد حدّدت دية قتلاها، وفرضتها فرضاً، فكانت تأخذ عن دية قتلها ديتين أو أكثر أحياناً، وتدفع دية واحدة لغيرها، وذلك بسبب قوتها وبطشها. روي أن "الغطاريف"، وهم قوم "الحارث بن عبد الله بن بكر بن يشكر" كانوا يأخذون للمقتول منهم ديتين، ويعطون غيرهم دية واحدة إذا وجبت عليهم..))²

المطلب الخامس: القصاص في الجاهلية

فقد "كان فيهم القصاص والدية"⁽³⁾ "ومن شواهد القصاص عندهم قولهم المشهور الذي هو أبلغ كلام عندهم وأوجزه وهو القتل أنفى للقتل، غير أن القصاص عندهم لم يكن كما ورد في الشريعة النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص، بل ربما قتلوا بالواحد جمعاً، ومن شواهد ذلك قصة كليب المشهورة، والهامة عندهم طائر يتولد من روح المقتول يكون على قبره، ولم يزل يصيح اسقوني اسقوني حتى يؤخذ بثأره"⁴.

والجواب أن القصاص في الجاهلية لم يكن تديناً لأنهم مكذبون بيوم الدين، وإنما كان بهدف الانتقام ونحوه، ويعزّز هذا ما يلي:
أولاً: لم يكونوا يرون للدماء حرمة، يدل على ذلك ما يلي:

1 التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي (2/ 182)، للدكتور عبد القادر عودة، دار الكاتب العربي، بيروت.

2 الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10/ 264)

(3) جهود علماء الحنفية (1/ 212).

4 «مجلة لغة العرب العراقية» (4/ 124)، المدير: كاظم الدجيلي، مطبعة الآداب في بغداد.

الدليل الأول: أنهم كانوا يقتلون أبناءهم أحياء كما في قوله تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 140]، قال الحفيد: قال ابن كثير: {قل} يا محمد هؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرمو ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بأرائهم الفاسدة، وتسويل الشيطان لهم¹. وقال الشنقيطي: فاعلم أن الله قد بيّن في آيات من كتابه بعض ما تضمنته هذه الآية من مشاركة الشيطان لهم في الأموال والأولاد، كقوله: قد خسر الذين قتلوا أولادهم...، فقتلهم أولادهم المذكور في هذه الآية طاعة للشيطان مشاركة منه لهم في أولادهم حيث قتلوهم في طاعته².

الدليل الثاني: أنهم هموا بقتل النبي ﷺ {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِبُوكَ} [الأنفال: 30] وسيأتي ذلك³.

الدليل الثالث: قال تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: 103]، قال الطبري: أي "اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعم بها عليكم حين كنتم أعداء: أي بشرككم، بقتل بعضكم بعضا، عصبية في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم"⁴. اهـ ثم روى الطبري عن قتادة قوله في هذه الآية: "كنتم تذاجون فيها، يأكل شديدكم ضعيفكم حتى جاء الله بالإسلام، فأخى به بينكم"، ثم روى عن الربيع «يقتل بعضكم بعضا ويأكل شديدكم ضعيفكم، حتى جاء الله بالإسلام، فألف به بينكم، وجمع جمعكم عليه، وجعلكم عليه إخوانا»⁵.

ثم يروي الطبري عن ابن إسحاق: «كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة، حتى قام الإسلام وهم على ذلك، فكانت حربهم بينهم وهم إخوان لأب وأم، فلم يسمع بقوم كان بينهم من العداوة والحرب ما كان بينهم، ثم إن الله عز وجل أطفأ ذلك بالإسلام، وألف بينهم برسوله

1 تيسير العزيز الحميد (ص: 147)

2 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (3/ 720)

3 انظر: ص (240، و ص360) عند آية: (أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِبُوكَ)

4 جامع البيان ط هجر (5/ 649)

5 جامع البيان ط هجر (5/ 650)

نُحِّدُ ﷺ» ثم يقول الطبري: فذكرهم جلّ ثناؤه إذ وعظهم عظيم ما كانوا فيه في جاهليتهم من البلاء، والشقاء بمعادة بعضهم بعضاً، وقتل بعضهم بعضاً، وخوف بعضهم من بعض، وما صاروا إليه بالإسلام واتباع الرسول ﷺ والإيمان به، وبما جاء به من الائتلاف والاجتماع، وأمن بعضهم من بعض، ومصير بعضهم لبعض إخواناً..¹ اهـ

الدليل الرابع: حديث الشيخين عن أنس قال: قدم أناس من عكل أو عرينة فاجتووا المدينة، فأمرهم النبي ﷺ بلقاح، وأن يشربوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا، فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا النعم.. الحديث

الدليل الخامس: قوله عليه الصلاة والسلام "إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا.."². قال الطبري عند هذا الحديث: كانوا يستبيحون دماءهم وأموالهم في الجاهلية في غير الأشهر الحرم، ويحرمونها فيها، كأنه قيل: إن دماءكم وأموالكم محرمة عليكم أبداً كحرمة يومكم وشهركم وبلدكم.³ وقال الحافظ: قوله "لا ترجعوا بعدي كفاراً" جملة ما فيه من الأقوال ثمانية.. رابعها تفعلون فعل الكفار في قتل بعضهم بعضاً⁴. وقال ابن تيمية وهو يشرح حديث حجة الوداع هذا وفيه: «كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع». وهذا يدخل فيه ما كانوا عليه من العادات والعبادات.. ثم خصّ - بعد ذلك - الدماء والأموال التي كانت تستباح باعتقادات جاهلية⁵.

الدليل السادس: قال المغيرة بن زرارة مخاطباً ملك الفرس يزدجرد: كنا نأكل الخنافس والجعلان.. ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يُغير بعضنا على بعض، وإن كان أحداً ليدفن ابنته وهي حية؛ كراهية أن

1 جامع البيان ط هجر (5/ 651)

2 حديث مشهور رواه الشيخان عن أبي بكر كما في صحيح البخاري بتحقيق د. البغا (1/ 37)، وصحيح مسلم، ت عبد الباقي (3/ 1305)، ورواه البخاري (2/ 619) من حديث ابن عباس، ورواه البخاري (2/ 620) عن ابن عمر، ورواه مسلم من الحديث الطويل في الحج عن جابر كما «صحيح مسلم» (4/ 41 ط التركية).

3 شرح المشكاة للطبري (6/ 1964)، عمدة القاري (18/ 52) إرشاد الساري (6/ 447)

4 فتح الباري (12/ 194)

5 اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 342)

تأكل من طعامه، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً ؛ نعرف نسبه، ونعرف وجهه ومولده¹

الدليل السابع: كانوا يغير بعضهم على بعض قتلاً وسلباً ونهباً وقد تفاخروا بذلك في أشعارهم كما سبق بيانه²، ونزيد هنا بيانا فنسوق ما قاله الحارث بن حلزة حيث قال في معلقته:

مَا أَصَابُوا مِنْ تَغَلِّيٍّ فَمَطَّلُوا.. لُ عَلَيَّ إِذَا أُصِيبَ الْعَفَاءُ

قال الزوزني: طُلَّ دمه وأطلَّ: أهدر. العفاء: الدروس، وهو أيضاً التراب الذي يغطي الأثر، يقول: ما قتلوه من بني تغلب أهدرت دماؤهم حتى كأنها غطيت بالتراب ودرست، يريد أن دماء بني تغلب تمدر، ودماؤهم لا تمدر بل يدركون ثأرهم³. اه وقال ابن الأنباري: فكل من أصابوا من بني تغلب فقد طُلَّ دمه، أي أهدر دمه ليس له من ينتصر له⁴. اه

وقال عنتره في معلقته:

وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الْكُمَاءُ نَزَالَهُ .. لَا مُعِينَ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمٍ
جَادَتْ لَهُ كَفِّي بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ .. بِمُتَقَفٍ صَدَقِ الْكُعُوبِ مُقَوِّمٍ
فَشَكَّكْتُ بِالرُّمْحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ .. لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمٍ
فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يُنْشِنُهُ .. مَا بَيْنَ قَلَةِ رَأْسِهِ وَالْمِعْصَمِ

فترى هنا عنتره يفتخر بشجاعته في المعارك ويصف كيف يقتل خصمه بالطعان والرمح، ذلك حيث "يقول: فانتظمت برمحي الصلب ثيابه، أي طعنته طعنة أنفذت الرمح في جسمه وثيابه كلها"⁵. ويصرح بأن خصمه من الكرام وليس من اللئام كما في قوله (ليس الكريم على القنا بمحرم) "أي لا يمتنع من الطعان"¹، "معناه لم يمنعه من أن يقتل بالقناة كرمه. قال الجعدي:

1 تاريخ الرسل والملوك للطبري (2/ 391)، البداية والنهاية ط هجر (9/ 627)

2 انظر: ص (159) عند قولي: (علمتم أيام ينتهب)

3 شرح المعلقات السبع للزوزني (ص: 152)، الدار العالمية.

4 شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (ص: 487)

⁵ شرح المعلقات السبع للزوزني (ص: 259)

وما يشعر الرمح الأصم كعوبه .. بثروة رهط الأبلج المتظلم
وقال أبو جعفر: معناه ليس بمحرم على القتل، أي منيته القتل ليس يموت على فراشه. ومثله قول
الآخر:

وإن يقتلوا فيشتفى بدمائهم .. وكانوا قديما من مناياهم القتل"²

وقال الزوزني: يريد أن الرماح مولعة بالكرام لحرصهم على الإقدام، وقيل: بل معناه أن كرمه لا
يخلصه من القتل المقدر له³.

وليس هذا فحسب بل يفخر عنزة بأنه ترك جثة خصمه للوحوش في البرية يأكلونها فيقول:
فتركته جزر السباع ينشئه.. يقال "أَجَزَّرتَه السباعُ إذا تركته جزرا لها، و(ينشئه) يتناولنه"⁴ أي "صار
للسباع جزرة، ضربه مثلا، وقوله (ينشئه)، أي يتناولنه بالأكل"⁵. فصار المعنى: "فصيرته طعمة
للسباع عندما أنفذت الرمح في جسمه وثيابه كلها، بحيث صارت السباع بمقدم أسنانها بنانه الحسن
وتقضمنه فهو صار مقتولا، عرضة للسباع تتناوله"⁶.

بل يقول عنزة في آخر معلقته:

الشَّاتِمِي عَرَضِي وَلَمْ أَشْتِمُهُمَا .. وَالنَّادِرِينَ إِذَا لَمْ أَلْقُهُمَا دَمِي
إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا .. جَزَرَ السَّبَاعُ وَكُلَّ نَسْرٍ قَشَعَمٌ⁷

والمعنى "إن يشتماني ويستبيحها دمي لم يُستغرب ذلك منهما فإني قتلت أباهما وصيرته مأكلة
للسباع"⁸، ولكل "نسرٍ مُسِنٍ"¹.

¹ شرح القصائد العشر للتبريزي (ص: 203)

² شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري (ص: 347)

³ شرح المعلقات السبع للزوزني (ص: 259)

⁴ شرح القصائد التسع المشهورات للنحاس (ص: 510)

⁵ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري (ص: 347)

⁶ فتح المغلقات لأبيات السبع المعلقات للفاكهي ص1558

⁷ وفي رواية: فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يُنْشِئُهُ .. بَقُضْمَنْ حُسْنِ بِنَانِهِ وَالْمَعْصَمِ. انظر: شرح المعلقات للنحاس (ص: 510)

⁸ فتح المغلقات لأبيات السبع المعلقات للفاكهي ص1621

وقال عمرو بن كلثوم في معلقته مفتخرا بالقتل:

نَصَبْنَا مِثْلَ رَهْوَةَ ذَاتِ حَدِّ ... مُحَافِظَةً وَكُنَّا السَّابِقِينَ

بِفَتْيَانٍ يَرُونَ الْقَتْلَ مَجْدًا ... وَشَيْبٍ فِي الْحُرُوبِ مُجَرَّبِينَ

حَدِيًّا النَّاسِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ... مُقَارَعَةً بَنِيهِمْ عَنْ بَيْنِنَا 2

«يقول: نسبق ونغلب بشبان يعدون القتال في الحروب مجداً، وشيب قد مرزوا على الحروب»³،

و«المجد: الحظ الوافر الكافي من الشرف والسؤدد»⁴.

ثانياً: "قال أهل اللغة كان أهل الجاهلية يزعمون أن روح القتيل الذي لا يدرك بثأره تصير هامة فتزقو

وتقول اسقوي اسقوي وإذا أدرك بثأره طارت فذهبت قال الشاعر:

(إنك إلا تذر شتمي ومنقصتي .. أضربك حتى تقول الهامة اسقوي)⁵ اه إذن فالذي يدفع "أهل

القتيل على إصرارهم على الأخذ بالثأر عقيدة قديمة متوارثة، هي أن الروح منفصلة عن الجسم، فإذا

قتل القتيل، خرجت روحه وصارت هامة، تحوم حول قبره، تقول؛ اسقوي، ولن تستقر حتى يؤخذ

بثأره، وإلا بقيت تحوم حوله، ويلحق الأذى عندئذ بأهل القتيل. فخوف أهل القتيل من هذه العاقبة

السيئة يدفعهم على الإصرار على الأخذ بالثأر"⁶ اه وعقيدة الهامة خرافة أبطها الإسلام كما سبق

بيانه، والمقصود هنا أن دافعهم هو خرافة الهامة التي يعتقدون أنها تلحق الأذى بأهل القتيل إن لم

يأخذوا بالثأر، فلم يكن دافعهم هو تطبيق القصاص تدينا أو حرمة الدماء عندهم.

ثالثاً: كانوا يقتلون غير القتال؛ وذلك أنهم إذا قُتل لهم وضع قالوا: لا نقتل به إلا شريفاً"⁷، قال قتادة

في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى

¹ شرح المعلقات السبع للزوزني (ص: 265)

² فتح المعلقات في شرح المعلقات للفاكهي (ص: 2017)

³ «شرح المعلقات السبع للزوزني» (ص225)

⁴ «شرح القصائد العشر» للتبريزي(ص232)

⁵ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10 / 270)

⁶ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10 / 270)

⁷ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (3 / 65) نقلا عن الشعبي وفتادة.

بِالْأُنْثَى} [البقرة: 178]، كان أهل الجاهلية فيهم بغي وطاعة للشيطان فكان الحي منهم إذا كان فيهم عدد، فقتل لهم عبدا قوم آخرين فقالوا: لن نقتل به إلا حرا، تعززا وتفضلا على غيرهم في أنفسهم، وإذا قتلت لهم أنثى قتلتها امرأة قالوا: لن نقتل بها إلا رجلا، فأنزل الله هذه الآية..نهامهم عن البغي..1.

وأحيانا كانوا يقتلون بالواحد جماعة لا علاقة لهم، وهذا أقرّ به شكري الألوسي نفسه حين قال "بل ربما قتلوا بالواحد جمعا، ومن شواهد ذلك قصة كليب المشهورة"، وكذا أشار إليه ابن تيمية فقال: إن أولياء المقتول تغلي قلوبهم بالغيظ حتى يؤثروا أن يقتلوا القاتل وأوليائه، وربما لم يرضوا بقتل القاتل، بل يقتلون كثيرا من أصحاب القاتل كسيد القبيلة ومقدم الطائفة، فيكون القاتل قد اعتدى في الابتداء، وتعدى هؤلاء في الاستيفاء كما كان يفعل أهل الجاهلية الخارجون عن الشريعة² في هذه الأوقات من الأعراب والحاضرة وغيرهم. وقد يستعظمون قتل القاتل لكونه عظيما أشرف من المقتول، فيفضي ذلك إلى أن أولياء المقتول يقتلون من قدروا عليه من أولياء القاتل..فكتب الله علينا القصاص، وهو المساواة والمعادلة في القتلى³..اه

والحاصل أن أهل الجاهلية كانوا من بغيهم يقتلون غير القاتل زيادة في الانتقام، وقتل غير القاتل في القصاص جريمة كبرى تدلّ على أنهم يستبيحون الدماء بغير حق، ولقد جاء في حديث أحمد وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مطولا، وفيه: «إن أعدى الناس على الله من عدا في

1 قال السيوطي في الدر المنثور (2/ 155) في أثر قتادة: أخرجه عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وأبو القاسم الزجاجي في أماليه والبيهقي في سننه، وساق هذا الأثر أيضا ابن تيمية في مجموع الفتاوى (14/ 73)، وثمة آثار في هذا المعنى عن سعيد بن جبير والشعبي وابن عباس وغيرهم، انظر الدر المنثور (2/ 153)

2 كذا في المطبوع، وأظن أن ثمة واو عاطفة سقطت قبل كلمة "الخارجون" فتكون العبارة: "كما كان يفعل أهل الجاهلية والخارجون عن الشريعة في هذه الأوقات من الأعراب"، فهذا هو صواب العبارة وإلا لا تستقيم بدون عطف إذ كيف يقول "كان يفعل.. ثم يقول "في هذه الأوقات"، فكلمة "كان" للماضي كما هو معلوم وهو ينافي قوله "في هذه الأوقات"، فضلا أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم شريعة ليخرجوا عليها، وأيضا فإن أهل الجاهلية هي مرحلة ما قبل الإسلام.

3 مجموع الفتاوى (28/ 374)

الحرم، **ومن قتل غير قاتله، ومن قتل بدحول الجاهلية**¹، وفي حديث عائشة عند البيهقي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي: "إن أشد الناس عتوا من ضرب غير ضاربه، **ورجل قتل غير قاتله**"²، وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس أن النبي ﷺ، قال: "أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه"³.

قال ابن بطال: وأما المبتغي في الإسلام سنة الجاهلية، فهو طلبهم بالدحول غير القاتل، وقتلهم كل من وجدوا من قومه⁴. اهـ وقال الحافظ: قوله ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية أي يكون له الحق عند شخص، **فيطلبه من غيره** ممن لا يكون له فيه مشاركة كوالده أو ولده أو قريبه.. وقد أخرج الطبراني والدارقطني من حديث أبي شريح رفعه "إن أعنى الناس على الله من قتل غير قاتله، أو طلب بدم الجاهلية في الإسلام"⁵. اهـ

كما كانوا يمتثلون بالمقتول ((وقد عُرفت "المثلة" عند الجاهليين. يقال مثل بفلان، نكّل به تنكيلاً، بقطع أطرافه والتشويه به. ومثّل بالقتيل جدد أنفه وأذنه أو مذاكيره أو شيئاً من أطرافه. وقد مثّل بـ"حمزة" عم النبي، لما قتله "وحشي")، وهذا كله يدل على أن قصاصهم كان ثأراً وتشفياً وليس لإقامة العدل ونحو ذلك.

1 قال محققو مسند أحمد ط الرسالة (11/ 265): إسناده حسن، ولبعضه شواهد يصح بها.. وقوله: "إن أعدى الناس .."، إلى: "بدحول الجاهلية" له شاهد مطول من حديث عائشة عند أبي يعلى (4757)، والدارقطني 131/3، والبيهقي في "السنن" 26/8: قالت: وجدت في قائم سيف رسول الله ﷺ كتاباً: "إن أشد الناس عتوا من ضرب غير ضاربه، ورجل قتل غير قاتله"، وصححه الحاكم 349/4، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في "المجمع" 292/6، وقال: رجاله رجال الصحيح غير مالك ابن أبي الرجال، وقد وثقه ابن حبان، ولم يضعفه أحد. وله شاهد آخر مرسل من حديث عطاء بن يزيد، ذكره الحافظ في "الفتح" 211/12.

وآخر بمعناه عند البخاري (6882) من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ، قال: "أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة.. اهـ

2 انظر الحاشية السابقة.

3 صحيح البخاري، تحقيق د. البغا (6/ 2523)

4 شرح صحيح البخاري لابن بطال (8/ 511)، والدحول هو الثأر، انظر تاج العروس (29/ 11)

5 فتح الباري (12/ 211)

رابعاً: أنه "قد وضعت كل المجتمعات على اختلاف درجاتها، بدائية كانت أو متقدمة عقوبات لردع المجرمين، وزجرهم وتأديبهم لكيلا يجرموا بحق أنفسهم وبحق مجتمعهم، وهي تتلاءم بالطبع مع واقع المجتمع والظروف الملزمة به.. وتعاقب شريعة الجاهليين كما تعاقب أية شريعة مدنية ودينية المخالف بعقوبات رادعة تكون متناسبة مع جرمه وعمله.."¹، إذن فوضع العقوبات على الجناة لا يختص بمجتمع دون آخر، بل يعم كل المجتمعات قديمها وحديثها مؤمنها وملحدها لأن المجتمعات لا تقوم إلا بذلك وإلا انتشرت الفوضى وفسد النظام، حتى قالت طائفة بأن تنصيب الإمام وجب "بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، ولولا الولاة لكانوا فوضى مهملين، وهمجا مضاعين، وقد قال الأفوه الأودي وهو شاعر جاهلي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم .. ولا سراة إذا جهّاهم سادوا"².

وبالتالي فأهل الجاهلية وضعوا عقوبة على القاتل من هذا الباب ليس إلا.

¹ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10 / 251)

2 الأحكام السلطانية للماوردي (ص: 15)، وانظر البيت في: تاج العروس (18 / 496)، و«مآثر الإنافة في معالم الخلافة» (1 /

30)، و«الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور الزحيلي» (8 / 6149)

المبحث الثاني: شرائع أخرى في الجاهلية

ذكر الشهرستاني نقلا عن محمد بن السائب الكلبي أنه «قال: وكانوا يداومون على طهارات الفطرة التي ابتلى بها إبراهيم عليه السلام، وهي الكلمات العشر، فإنهن خمس في الرأس وخمس في الجسد؛ فأما اللواتي في الرأس: فالمضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، والفرق، والسواك. وأما اللواتي في الجسد: فالاستنجاء، وتقليم الأظافر، نتف الإبط، وحلق العانة، والختان. فلما جاء الإسلام قررها سنّة من السنن»¹، ولكن الكلبي هذا متروك بل أتهم بالكذب كابنه²، ولذا نضرب عنه صفحا ولا سيما أن السلفية لم يحتجوا بكلامه هذا هنا، نعم ذكروا بعض هذه الخصال وغيرها ونسبوا للمشركين في الجاهلية، وسنفصل ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: الذبح في الحلق واللبة

وفي ذلك يقول الأفغاني: وكان فيهم الزكاة.. والذبح في الحلق واللبة"(3).

والجواب أن هذا غير مسلم، وبيان ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أنه لم يستدل الخصم بشيء يدل على ذلك، ولا وقفتُ على ما يؤيد أن العرب كانت تذكي الحيوان بالطريقة الشرعية وهي الذبح في الحلق واللبة.

الوجه الثاني: أنه إن ثبت ذلك فهو لأن هذه هي الطريقة الشائعة في إزهاق روح الحيوان، ولم يكن هذا تدينا منهم ولا تحريا للذبح الحلال ولا اتباعا لشرع أو دين، حيث كانوا يكذبون "بالبعث والثواب والعقاب"¹، فضلا عن كونهم "ينكرون توحيد الإله وبعث رسله وشرائع دينه"².

1 «الملل والنحل» (3/ 94)

2 قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (10/ 101): ابن الكلبي أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب ..أحد المتروكين كأبيه. قال أحمد بن حنبل: إنما كان صاحب سمر ونسب، ما ظننت أن أحدا يحدث عنه. وقال الدارقطني، وغيره: متروك الحديث، وقال ابن عساكر: رافضي، ليس بثقة. وقد اتهم في قوله: حفظت القرآن في ثلاثة أيام.. كان أبوه مفسرا، ولكنه لا يوثق به أيضا، وفيه رفض كابنه. اه وفي تهذيب الكمال(25/ 248) في ترجمة أبيه محمد بن السائب الكلبي (ت146 هـ): عن معتمر بن سليمان عن أبيه: كان بالكوفة كذابا أحدهما الكلبي. اه. وانظر المزيد في «ميزان الاعتدال» (3/ 556-559 رقم 7574)، سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (1/ 229).

(3) جهود علماء الحنفية (1/ 212)

الوجه الثالث: أن أهل الجاهلية كانوا يُزهقون روح الحيوان بطرق كثيرة غير التذكية الشرعية في الحلق، ثم يأكلونها، وذلك كالمخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكلهم ما أكل السبع التي حرّمها الله في قوله: { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحَمُّ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ } [المائدة: 3]، وفيما يلي الأدلة على ذلك:

(1) وأما المنخنقة فقد روى الطبري عن قتادة: " {والمنخنقة} كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة، حتى إذا ماتت أكلوها"3.

(2) وأما الموقوذة فقد روى الطبري عن قتادة: { والموقوذة} كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصا، حتى إذا ماتت أكلوها"4، وروى عن الضحاک أنه قال في قوله: { والموقوذة} كانت الشاة أو غيرها من الأنعام تضرب بالخشب لأهتهم حتى يقتلونها فيأكلوها."

(3) وأما المتردية فقد روى الطبري عن قتادة: { والمتردية} كانت تتردى في البئر فتموت فيأكلونها"5.

(4) وأما النطيحة فقد روى الطبري عن السدي: { والنطيحة} هي التي تنطحها الغنم والبقر فتموت. يقول: هذا حرام، لأن ناسا من العرب كانوا يأكلونه"، وروى أيضا عن قتادة: { والنطيحة} كان الكبشان ينتطحان، فيموت أحدهما، فيأكلونه"6

(5) وأما ما أكل السبع فقد روى الطبري عن قتادة: { وما أكل السبع} قال: «كان أهل الجاهلية إذا قتل السبع شيئا من هذا أو أكل منه، أكلوا ما بقي»7

1 جامع البيان ط هجر (48 /21)

2 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (8 /511)

3 جامع البيان ط هجر (8 /56)، وروى عن ابن عباس أيضا ، انظر الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (7/

□270

4 جامع البيان ط هجر (8 /57)، وانظر فتح الباري (9 /599)، عمدة القاري (21 /135)

5 جامع البيان ط هجر (8 /59)

6 جامع البيان ط هجر (8 /61)

7 جامع البيان ط هجر (8 /62)

وهذا كله يدل على أن ذبحهم للحيوان في الحلق - إن سلم - كان أحد الصور التي يزهقون به روح الحيوان وليس هو الصورة الوحيدة، وبالتالي فهم يزهقون روحه كيفما تيسر ثم يأكلونه، فالقصد عندهم هو الأكل ليس إلا، فهم كانوا يأكلون كل ما توفر لديهم بأي طريقة كانت؛ بل كانوا يأكلون الميتة والدم وما أهل لغير الله، وما ذبح على النصب، والمصبورة، ويأكلون ما أبين من الحي أيضاً، لذلك قال ابن تيمية: وما كان عليه الصحابة والتابعون أن التحليل والتحرير لا يتعلق باستطابة العرب ولا باستخباتهم؛ بل كانوا يستطيعون أشياء حرمها الله؛ كالدم والميتة؛ والمنخقة والموقوذة؛ والمتردية والنطيحة؛ وأكلة السبع؛ وما أهل به لغير الله¹ اه. وقال الزمخشري عند آية المائة السابقة: كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات: البهيمة التي تموت حتف أنفها، والفصيد وهو الدم في المباعر، يشوونها ويقولون: لم يحرم من فزد² له { وَمَا أَهْلٌ لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ } أي رفع الصوت به لغير الله، وهو قولهم: باسم اللات والعزى عند ذبحه { والمنخقة } التي خنقوها حتى ماتت، أو انخقت بسبب { والموقوذة } التي أثنوها ضرباً بعضاً أو حجر حتى ماتت³ اه.

وفيما يلي الأدلة على أكل العرب لهذه المحرمات بشكل مفصل:

(1) أما أكلهم الميتة فهو مشهور، قال جعفر بن أبي طالب في كلمته للنجاشي: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة⁴. وليس هذا فحسب بل كانوا يعتبرون أكل الميتة أحل من أكل المذبوحة، وقد جاءت عدة آثار في ذلك منها ما أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك قال: قال المشركون لأصحاب محمد: هذا الذي تذبحون أنتم تأكلونه، فهذا الذي يموت

1 مجموع الفتاوى (24 / 19)

2 كذا في الكشاف وحاشية الطيبي عليه: "من فزد"، أي من فُصد. جاء في «القاموس المحيط» (ص306): «لم يُحْرَمَ مَنْ فُزِدَ له، أي: مَنْ فُصِدَ له». وقال ابن جني في «الخصائص» (2 / 146): «وعليه قول العرب في المثل "لم يُحْرَمَ مَنْ فُزِدَ له" أصله فُصِدَ له»، وكذا قال في «سر صناعة الإعراب» (1 / 65)، وقال في «المحيط في اللغة» (9 / 31): يقولون: «لم يُحْرَمَ مَنْ فُزِدَ له» أي مَنْ فُصِدَ له: أي ذُبِحَ له. اه. وقال ابن السكيت في «القلب والإبدال» (ص13 ت.ش): «قال وسمعت خلفا يقول سمعت أعرابيا يقول لم يحرم من فزد له. أراد فُصِدَ له فخفف وأبدل الصاد زايًا»، وانظر أيضا: «الكنز اللغوي في اللسان العربي» (ص44).

3 تفسير الكشاف مع حاشية الطيبي (5 / 269)

4 السيرة النبوية لابن هشام (1 / 335)

مَنْ قَتَلَهُ؟ قالوا: الله، قالوا: فما قتل الله تحرمونه وما قتلتم أنتم تحلونونه؟ فأنزل الله "ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق" الآية¹. اهـ وهذا الذي قالوه إنما هو "من الأقيسة الباطلة التي وقعوا فيها في الأحكام.. قاسوا الميتة على المذبوحة المدكاة، فقالوا: إن قياس الأولى يقتضي أن تقول: أتمنعوننا -يردون على رسول الله حكمه- مما قتل الله، وتطعموننا ما قتلتم أنتم؟! فما هو الأولى أن نأكله ونطعمه الذي قتله الله من الميتة، أو الموقوذة، أو المنخقة، أو المرتدية، أو الذي قتلتم أنتم؟"². اهـ

(2) وأما أكلهم الدم، فقد أخرج الطبراني والحاكم وصححه وغيرهما عن أبي أمامة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي أَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَعْرَضَ عَلَيْهِمْ شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ، فَأَتَيْتَهُمْ فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ جَاءُوا بِقِصْعَةِ دَمٍ وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهَا يَأْكُلُونَهَا قَالُوا: هَلْمْ يَا صَدِي فُكُلْ. قلت: ويحكم! إِنَّمَا أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ مَنْ يَحْرِمُ هَذَا عَلَيْكُمْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ. قالوا: وما ذاك؟ قال: فتلوت عليهم هذه الآية حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير الآية³، وقال البيضاوي في تفسيره: {أو دما مسفوحا} وكان أهل الجاهلية يصبونه في الأمعاء ويشوونها⁴. اهـ

(3) وأما أكلهم ما ذبح على النصب: فقد أخرج الطبري وغيره عن مجاهد في قوله "وما ذبح على النصب" قال: كانت حجارة حول الكعبة يذبح عليها أهل الجاهلية ويبدلوها بحجارة: إِذَا شَأَوْا أَعْجَبَ إِلَيْهِمْ مِنْهَا⁵.

(4) أما المصبورة، فقد قال الدهلوي: ونهى رسول الله ﷺ أن تصبر بهيمة وعن أكل المصبورة، أقول: كان أهل الجاهلية يصبون البهائم ويرمونها بالنبل⁶. اهـ

¹ الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (6/ 185)

² مسائل خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية، لمحمد حسن عبد الغفار (17/ 11)، ت.ش.

³ الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (5/ 174)

⁴ تفسير البيضاوي مع حاشية الشيخ زادة (2/ 191)

⁵ الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (5/ 177)

⁶ حجة الله البالغة (2/ 283)

(5) أما أكلهم ما أبين من حيّ، فقد قال الكاساني: وروي أن أهل الجاهلية كانوا يقطعون قطعة من إلية الشاة ومن سنام البعير فيأكلونها فلما بعث النبي المكرم عليه الصلاة والسلام نهاهم عن ذلك¹. اهـ

وبالمقابل كانوا يحرّمون على أنفسهم ما أحلّ الله، قال الطبري: القول في تأويل قوله تعالى ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير..﴾ يعني تعالى ذكره بذلك: لا تحرّموا على أنفسكم ما لم أحرمه عليكم أيها المؤمنون بالله وبرسوله من البحائر، والسوائب، ونحو ذلك، بل كلوا ذلك فإني لم أحرم عليكم غير الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغيري². اهـ ويشير الطبري هنا إلى قوله ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ..﴾ [المائدة: 103]، حيث قال الطبري في هذه الآية: يقول تعالى ذكره: ما بحر الله بحيرة، ولا سيّب سائبة، ولا وصل وصيلة، ولا حمى حاميا، ولكنكم الذين فعلتم ذلك أيها الكفرة، فحرمتموه افتراء على ربكم³.

مما سبق يتبين لنا أن العرب كانت تتعاطى كثيرا من صور إزهاق الروح، إحداها هي الذكاة الشرعية، وما تبقى نُهي عنه كما تقدّم، كما أنهم كانوا يأكلون كثيرا مما نُهي عنه كما تقدم في النصوص الكثيرة السابقة من الكتاب والسنة وأقوال العلماء بمن فيهم ابن تيمية وأتباعه، فكيف يُغض النظر عن كل ذلك ثم يُركز على قضية ذبحهم في الحلق واللبة التي ليس عليها دليل أصلا وإن ثبتت فلم تكن تدينا كما سبق بيانه؟!

المطلب الثاني: الطلاق وتحريم المحارم في النكاح عند أهل الجاهلية

المرصد الأول: تحريم المحارم

وفي ذلك يقول الشمس الأفغاني عن المشركين "وكانوا يحرّمون المحارم كالأم والبنت والأخت" (4)، ويشهد له ما قاله «مُحَمَّد بن السائب الكلبي: كانت العرب في جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن

1 بدائع الصنائع (5/ 44)

2 جامع البيان ط هجر (3/ 53)

3 جامع البيان ط هجر (9/ 26)

(4) جهود علماء الحنفية (1/ 212).

بتحريمها. كانوا لا ينكحون الأمهات، ولا البنات، ولا الخالات، ولا العمات، وكان أقبح ما يصنعون»¹.

والجواب: نعم كان ذلك، فقد روى الطبري بسنده عن ابن عباس، قال: «كان أهل الجاهلية يجرمون ما يحرم إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين» قال: فأنزل الله: {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف} {وأن تجمعوا بين الأختين}2، وروى بسنده عن قتادة «كان أهل الجاهلية يجرمون ما حرم الله، إلا أن الرجل كان يخلف على حليلة أبيه، ويجمعون بين الأختين»، «وكان أقبح ما يصنعون أن يجمع الرجل بين الأختين، أو يختلف على امرأة أبيه، وكانوا يسمون من فعل ذلك الضيزن. قال أوس بن حجر التميمي يعير قوما من بني قيس بن ثعلبة تناوبوا على امرأة أبيهم ثلاثة، واحدا بعد آخر:

والفارسية فيكم غير منكرة ... وكلكم لأبيه ضيزن سلف

نيكوا فكيهة وامشوا حول قبتها ... مشي الزرافة في آباطها الحجف

وكان أول من جمع بين الأختين من قريش: أبو أحيحة سعيد بن العاص جمع بين هند وصفية ابنتي المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم»³.

فمن ثم قال الله: {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف}. وقال العيني: وكان فيهم بقية من دين إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، منها: الختان، وتحريم ذوات المحارم إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين⁴. وذكر "السهيلي" أن الزواج بزوجة الأب كان مباحًا في الجاهلية بشرع متقدم.. لأنه أمر كان في عمود نسب رسول الله" وبسط ذلك⁵.

1 «الملل والنحل» (90 /3) وستأتي تنمة كلام الكلبي.

2 جامع البيان ط هجر (6 /549)

3 «الملل والنحل» (90 /3)

4 عمدة القاري شرح صحيح البخاري (9 /354)

5 الروض الأنف ت الوكيل (2 /357)، وانظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (10 /20)،

ولكن هذا كله . أي تحريم العرب لنكاح المحارم في الجاهلية . لم يكن من العرب إلا على سبيل اتباع العرف العام الذي يقبح مخالفته ولاسيما في مسألة تمسّ الأعراض، ولم يكن على سبيل التدين ولا اتباعا لشريعة إبراهيم الخليل ولا لغيرها من الشرائع، وذلك لأنهم لا يؤمنون بيوم الدين ، فضلا عن الأسباب التالية:

أولاً: أنه لو كان هذا منهم على سبيل اتباع شريعة إبراهيم الخليل لما اقتصروا كثيرا من القبائح التي يبرأ منها إبراهيم الخليل وعلى رأسها عبادة الأصنام، وقد سبق بيان ذلك¹.

ثانياً: أنه لو كان هذا منهم لكوّنهم يرون حرمة الفروج لما تعاطوا الزنا بصوره المختلفة حتى التي فيها مساس بالعرض ودخول بالديانة كنكاح الاستبضاع وغيره، كما سبق².

ثالثاً: أن الله تعالى يقول {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ} [النساء: 22]، وقد بيّن الطبري أن الاستثناء هنا "بمعنى الاستثناء المنقطع؛ لأنه يحسن في موضعه: لكن ما قد سلف فمضى"³، وأن النهي يتناول نكاح الآباء في الجاهلية وصوره الفاسدة، ولا يتناول تحريم نكاح زوجة الأب فحسب، لأنه لو كان ذلك لعبر بـ "من" التي هي للعاقل، فقال "ولا تنكحوا من نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف؛ لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب"⁴، ولما عبر بـ "ما" صار المقصود النهي عن "ما كان من مناكح آبائهم التي كانوا يتناكحونها في جاهليتهم، فحرم عليهم في الإسلام بهذه الآية نكاح حلائل الآباء، وكل نكاح سواه، نهي الله - تعالى ذكره - ابتداءً مثله في الإسلام مما كان أهل الجاهلية يتناكحونه في شركهم.. {ومقتا وساء سبيلا} أي بنس طريقا ومنهجها ما كنتم تفعلون في جاهليتكم من المناكح التي كنتم تتناكحونها)). اهـ.

1 انظر: ص (206) عند قولي : (الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء)

2 انظر: ص (166) عند قولي : هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم

3 جامع البيان ط هجر (6 / 552)

4 جامع البيان ط هجر (6 / 552)

فتأمل قوله : "ما كنتم تفعلون في جاهليتكم من المناكح التي كنتم تتناكحونها" تجد أن المشركين كانوا يتعاطون كثيرا من صور النكاح الباطلة، وهذا صرح به ابن تيمية حيث قال: وأقر أهل الجاهلية على مناكحهم التي كانت في الجاهلية، مع أن كثيرا منها كان غير مباح في الإسلام¹.
 رابعا: كثير من الملاحدة يأنفون من نكاح المحارم ليس لكونه حراما، وهو لا يؤمن برب ولا بدين ولا بحلال ولا بحرام أصلا، وإنما يجد نفسه تعافه أو لكونه يساير المجتمع أو نحو ذلك، وكذلك كان عرب الجاهلية.

المرصد الثاني: الطلاق في الجاهلية

جاء في المحبر: «السنن التي كانت الجاهلية سنتها فبقى الاسلام بعضها وأسقط بعضها، من ذلك أنهم كانوا يطلقون ثلاثا. وكان الرجل يقول لامرأته: أنت طالق واحدة، فهو أحق الناس بها. فإن طلقها اثنتين، فكذلك. فإن طلقها ثلاثا، فلا سبيل له عليها. وقد قال الأعشى، وتزوج امرأة فرغب بها قومها عنه، فتهددوه إن لم يطلقها أن يضربوه، فقال:

أيا جارتا! بيني، فانك طالقه ... كذاك أمور الناس غادٍ وطارقه
 فقالوا: «ثنه». فقال:

وبيني فإن البين خير من العصا ... وإلا تزال فوق رأسك بارقه
 فقالوا له: «ثلث». فقال:

وبيني حصان الفرج غير ذميمة ... وموموقة فينا كذاك ووامقه
 وكان أول من طلق إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما²

والجواب: أولا: كتاب المحبر سبق أن قلنا إن مؤلفه مات في القرن الثالث الهجري أي بعد عصر الجاهلية بزمان بعيد، فما فيه من أخبار تكون منقطعة، أو تكون عن طريق الكلبي الكذاب كما سبق.

¹ مجموع الفتاوى (8 / 22)

² «المحبر» (ص 309)، وانظر أيضا ذلك في «الملل والنحل» (3 / 91)، «تاريخ الفكر الديني الجاهلي» (ص 409)

ثانيا: إن هذا الذي ورد في كتاب المحبر مخالف لما ذكره بعض الفقهاء والمفسرين من السلف والخلف من أنه لا حدّ للطلاق في الجاهلية، وتلك بعض النصوص في ذلك:

(1) جاء في مصنف عبد الرزاق «عن الثوري، عن بعض الفقهاء قال: "كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ما شاء لا تكون عليها عدة.. فأنزل الله: {الطلاق مرتان} فنسخت هذه كلّ طلاق في القرآن"»¹.

(2) «(قال الشافعي): وقد قال بعض أهل العلم بالتفسير، إن قول الله عز وجل {وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف} إنما نزلت في ذلك كان الرجل يطلق امرأته ما شاء بلا وقت، فيمهل المرأة حتى إذا شارفت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، فنزل {الطلاق مرتان}. أخبرنا مالك عن هشام عن أبيه، قال: كان الرجل إذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تقضي عدتها كان ذلك له وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها، حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها. ثم طلقها، قال: والله لا آويك إلي ولا تحلين أبدا. فأنزل الله عز وجل {الطلاق مرتان ...}»².

(3) قال الكاساني: وقيل فيه نزل قوله - سبحانه وتعالى - {ولا تتخذوا آيات الله هزوا} وكان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ثم يراجع، فيقول كنت لاعبا، ويُعتق عبده ثم يرجع فيقول كنت لاعبا، فنزلت الآية فقال ﷺ «من طلق أو حرّر أو نكح فقال إني كنت لاعبا فهو جائز منه»³.

1 «مصنف عبد الرزاق» (6/ 338 ت الأعظمي)، «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (1/ 663)

2 «الأم» للإمام الشافعي (5/ 258 ط الفكر)

3 «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» (3/ 100)

4) وقال الفخر الرازي: «كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ثم يراجعها قبل أن تنقضى عدتها، ولو طلقها ألف مرة كانت القدرة على المراجعة ثابتة له، فجاءت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها، فشكت أن زوجها يطلقها ويراجعها يضارها بذلك، فذكرت عائشة رضي الله عنها ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل قوله تعالى: الطلاق مرتان»¹.

5) وقال ابن القيم: «أن الطلاق كان في الجاهلية بغير عددٍ كما قالت عائشة: كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة، وإن طلقها مئة مرة أو أكثر، حتى قال رجل لامرأته، والله لا أطلقك فتبيني مئتي، ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك، فكلما هممت عدتُك أن تنقضى راجعتك. فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة رضي الله عنها فأخبرتها، فسكتت عائشة حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فسكت، حتى نزل القرآن: {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [البقرة: 227]»².

6) وقال ابن كثير: «وعن عائشة، قالت: " كان الناس والرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة وإن طلقها مئة مرة أو أكثر، حتى نزل القرآن: "الطلاق مرتان".. الآية، فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً من كان طلق، ومن لم يكن طلق"، مختصر من الترمذي»³.

ثالثاً: إن أهل الجاهلية ثبت عنهم أنواعاً من الأنكحة الباطلة التي ينكحون نساءً متزوجات أصلاً دون طلاق من أزواجهن أصلاً، كما رأينا في نكاح الاستبضاع، بل كانوا ينكحون بدون زواج كما في نكاح الرايات والرهن والخذن، وغير ذلك مما سبق⁴.

1 «مفاتيح الغيب» (6/ 442)

2 «أحكام أهل الذمة - ط عطاءات العلم» لابن القيم (1/ 430)، ط 2/ 2021 م.

3 «إرشاد الفقيه إلى معرفة أدلة التنبيه» لابن كثير (2/ 158) وحديث الترمذي فيه ضعف لوجود مجهول فيه، انظر: «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» (7/ 162).

4 انظر: ص (142) عند قولي: (طهرت من طمئتها)

(تحقيق الطلاق الثلاث الذي وقع في شعر الأعشى)

رابعاً: أما ورد في شعر الأعشى من أنه طلق ثلاثاً فقط، فنعم هذا ورد في بعض الكتب الفقه والتفسير والسنة فضلاً عن كتب الأدب، فقال بعض المفسرين «والطلاق الجاهلي أيضاً كان ثلاثاً. كما سئل ابن عباس عنه فأُشيد للأعشى: أيا جارتني بيني فإنك طالقة»¹.

ولعل مستنده الخبر الطويل الذي أخرجه الطبراني والذي فيه سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس وفيه: «قال: صدقت، فأخبرني عن قول الله عز وجل {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء} [الطلاق: 1]، هل كان الطلاق في الجاهلية؟ قال: نعم، طلاقاً بئناً ثلاثاً، أما سمعت قول أعشى بن قيس بن ثعلبة حين أخذه أختانه عنزة فقالوا له: إنك قد أضرتت بصاحبتنا، وإنا نقسم بالله ألا نضع العصا عنك أو نطلقها، فلما رأى الجد منهم وأنهم فاعلون به شرا قال: يا جارتنا بيني فإنك طالقة.. ثم ذكر بقية الأبيات السابقة ثم قال: فأبأنها بثلاث تطليقات»².

وكذا ذكره الشهرستاني فقال «وكانوا يطلقون ثلاثاً على التفرقة، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أول من طلق ثلاثاً على التفرقة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وكان العرب يفعلون ذلك، فيطلقها واحدة وهو أحق الناس بها، حتى إذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس حين تزوج امرأة فرغب قومها عنه، فأتاه قومها، فهددوه بالضرب أو يطلقها: أيا جارتني بيني فإنك طالقة.. إلى قوله: قالوا: ثلث، فقال: وبيني حصان الفرج غير ذميمة.. وموموقة قد كنت فينا وواقمة»³.

1 «باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن» (1/ 226 ت.ش): محمود بن أبي الحسن النيسابوري الغزنوي، الشهير بـ (بيان الحق)

(ت بعد ٥٥٣هـ)، (رسالة علمية) ت: سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي، جامعة أم القرى، ١٩٩٨ م.

2 «المعجم الكبير للطبراني» (10/ 256)

3 «الملل والنحل» (3/ 91)

ولذا قال **المزني** بعد أن ذكر أبيات الأعشى «هذا البيت ليس هو عن الشافعي، وإنما نحن روينا، وقال عروة: «نزل الطلاق موافقا لطلاق الأعشى»¹، وقال **البيهقي**: «قال الشافعي في القديم في غير هذه الرواية: فقال عروة بن الزبير: وافق طلاق الأعشى ما نزل من القرآن في الطلاق»²، وقال **الماوردي** «وكان السبب في قول الأعشى ذلك أنه تزوج امرأة كرهه قومها وأخذوه بالنزول عنها فلم يقتنعوا منه بالطلقة الأولى ولا بالثانية، فلما طلقها الثالثة كفّوا عنه، فعند ذلك قال عروة بن الزبير: نزل الطلاق موافقا لطلاق الأعشى»³

والجواب: أما حديث الطبراني: "فأبأنها بثلاث تطبيقات" فقد قال **المهشمي**: رواه الطبراني، وفيه **جويبر وهو متروك**⁴. وأما قول الشهرستاني "وكانوا يطلقون ثلاثا على التفرقة.." فهذا نقله عن الكلبي وهو متروك أيضا كما سبق. وأما ما ذكره بعض الفقهاء **كالمزني والبيهقي والماوردي** من أن الطلاق في القرآن نزل ثلاثا موافقا لطلاق الأعشى، فهذا إن قالوه اعتمادا على حديث ابن عباس السابق أو على نقل الكلبي، فهذا لا يصحّ كما قلنا آنفا، وإن كان اعتمادا على كتب الشعر والأدب فلا يؤخذ منها حكم شرعي.

خامسا: إن ثبت الطلاق عندهم في الجاهلية فلعله مجرّد عرف أو عادة عند بعض العرب، وعليه يحمل ذكر الطلاق الذي ورد في شعر الأعشى السابق، وربما وصلتهم هذه الشريعة من شرائع سابقة ولا سيما شريعة سيدنا إبراهيم أو ابنه إسماعيل. عليهما السلام. كما ذكر في كتاب المحبر نفسه حيث قال فيه "وكان أول من طلق إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما"، ولكن العرب لم يكونوا يرجون من تطبيق هذه الشريعة. شريعة الطلاق. ثوبا ولا من مخالفتها عقابا! لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلا! كما قلنا مرارا،

1 «مختصر المزني» (1/ 622 ت الداغستاني):

2 «معرفة السنن والآثار» للبيهقي (8/ 314)

3 «الحاوي الكبير» للماوردي (7/ 231)، وانظره أيضا في «شرح منتهى الإرادات لابن النجار = معونة أولي النهي» (6/ 389)

4 مجمع الزوائد (7/ 9)

ولذا كانوا يراجعون المرأة في عدتها مهما طلقوها دون التقيد بعدد ولا يرون بذلك بأساً، فضلاً عن أنهم كانوا يتلاعبون بالطلاق كما سبق!

المطلب الثالث: الختان في الجاهلية

يقول الشمس الأفغاني: "ويعتقدون أصول أنواع البر وكثيرا في الشعائر كالختان ونحوه.."(1).
والجواب: أولا: نسلم أن العرب في الجاهلية كانت تحتتن مع أن الخصم لم يأت على ذلك بدليل، ولكني
 وقفت على ما يدل على ذلك وهو حديث هرقل مع أبي سفيان الذي رواه البخاري، حيث جاء
 فيه: "فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما
 استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا **أختتن** هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه محتتن، وسأله عن العرب
 فقال: **هم يختنون**" وهو ظاهر في أن الختان كان في الجاهلية. **وقال العيني:** كان فيهم بقية من دين
 إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، منها: **الختان** 2. اهـ وهو أحد الأشياء العشرة التي كان يفعلها "العرب دون
 من سواها من الأمم" 3. اهـ

ثم وجدته **منصوصا عليه في كتاب المخبر** حيث قال فيه «وكانت العرب، دون من سواها من
 الامم، **تصنع عشرة أشياء**، منها (في الرأس) **خمسة**: وهي المضمضة والاستنشاق والسواك والفرق وقصّ
 الشارب. و(في الجسد) **خمسة**: وهي الختانة وحلق العانة ونتف الإبطين وتقليم الأظفار والاستنجاء.
 خصت بهذا العرب دون الامم»⁴.

ولكن نبهنا مرارا أن الأخبار في كتاب **المخبر** هذا منقطعة لا أساس لها، وربما هي من أقاصيص
 الكلبي، وهذا ما صرح به الشهرستاني حيث نسب هذا الخبر وأمثاله إلى الكلبي⁵، وقد سبق التنبيه على
 ذلك⁶. وما أظن إلا أن الكلبي **ركبه من أحاديث الفطرة المرفوعة**، منها حديث «عشر من الفطرة:
 قصّ الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقصّ الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط،

(1) جهود علماء الحنفية (1 / 212).

2 عمدة القاري (9 / 354)

3 كتاب المخبر (ص: 329)

4 «المخبر» (ص 329)

5 الملل والنحل (3 / 94)

6 انظر: ص (94) عند قولي: (تقاليد العرب التي أقرها)

وحلق العانة، وانتقاص الماء»¹ ، وستأتي أحاديث أخرى مشابهة ولكن فيها ذكر الختان، فيبدو أن الكلبي أخذ هذه الخصال ونسبها إلى العرب في الجاهلية مع أنها مما أتى بها الإسلام!

ثانيا: إن الختان في الإسلام من خصال الفطرة كما في حديث الشيخين "الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الآباط"²، وهو من دين سيدنا إبراهيم فقد (اختن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدم) كما في الحديث³، وأما الختان في الجاهلية فلم يكن على هذا الوجه تدينا، وإنما هو "من العادات الجاهلية القديمة"⁴، فهو عندهم مجرد عادة أو عرف اجتماعي لا أكثر، وليس كما زعم بعضهم فقال "كان العرب في جاهليتهم يختنون اقتداء بسنة إبراهيم عليه السلام"⁵، إذ لو كان الأمر كذلك لما عبدوا الأصنام التي حذر منها إبراهيم الخليل وتبرأ منها وكسرها، كما قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } [إبراهيم: 35]، وقال: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ } [الزخرف: 26]، وقال: { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ } (57) فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } [الأنبياء: 57-58]، ولما قتلوا أولادهم أحياء ولما أكلوا الربا ولما شربوا الخمر إلى غير ذلك من الفواحش والقبائح الكثير التي كانوا يقترفونها ثم يزعمون أن الله أمرهم بها: { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف: 28] فهم يتقولون على الله قولاً "بلا علم وهو التخريف والرجم بالغيب وقد عرفوا من صفات الله تبارك وتعالى ما يثبت به أنه سبحانه لا يأمر بالفحشاء، وعلموا حرمة الكذب وقبحه في أخبار الناس بعضهم عن بعض، فما الظن بالكذب على الله عز وجل. فتلك الكلمة إما افتراء محض وإما قولٌ

1 «صحيح مسلم» (1/ 223 ت عبد الباقي)

2 انظر: «صحيح البخاري» (5/ 2209 ت البغا)، صحيح مسلم - عبد الباقي (1/ 221)

3 «صحيح البخاري» (3/ 1225 ت البغا)، «صحيح مسلم» (7/ 97 ط التركية)

4 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (8/ 244)

5 من فتوى على موقع إسلام ويب بعنوان "هل كان العرب في الجاهلية يختنون"، وهذا رابطته:

بلا علم"¹. فهل هذا الشرك وهذه القبائح والفواحش الكثيرة التي يقتربونها كانت من دين إبراهيم حتى يقتدي به عرب الجاهلية كما اقتدوا به في الختان كما زعم ذلك الزاعم!؟

نعم "قال الأخفش: وكان في الجاهلية يقال: من اختن، وحج البيت، قيل له: حنيف، لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الختان، وحج البيت، وقال الزجاج: الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت، ويغتسل من الجنابة، ويختن، فلما جاء الإسلام كان الحنيف: المسلم، لعدوله عن الشرك"². اهـ

ولكن الطبري ردّ هذا فقال: الحنيف³ عندي هو الاستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته. وذلك أن الحنيفية لو كانت حج البيت لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء، وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله: {ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين} فذلك القول في الختان؛ لأن الحنيفية لو كانت هي الختان لوجب أن يكون اليهود حنفاء، وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله: {ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً}، فقد صح إذاً أن الحنيفية ليست الختان وحده، ولا حج البيت وحده، ولكنه هو ما وصفنا من الاستقامة على ملة إبراهيم واتباعه عليها والائتمام به فيها⁴.

وفي قول الطبري "الحنيف عندي هو الاستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته.." إشارة إلى ما قلنا من أن المشركين ليسوا من الحنفاء لكونهم متورطين في كثير من القبائح التي يبرأ منها إبراهيم الخليل، فكيف يقال بأن ختانهم هو اتباع منهم لإبراهيم عليه السلام!؟ والمشركون أصلاً

1 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 112)

2 تاج العروس من جواهر القاموس (23/ 170)

3 "الحنيف" كذا في طبعة هجر من تفسير الطبري، وفي طبعة دار التراث التي حققها الأستاذ شاكر: "الحنف" وقال في حاشية «تفسير الطبري جامع البيان - ط دار التربية والتراث» (3/ 107): «في المطبوعة: "الحنيف عندي هو الاستقامة"، وهو كلام مختلف، صوابه ما أثبت.»

4 جامع البيان ط هجر (2/ 594)

ينكرون الرسل بحجة أنهم بشر كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: 94] فكيف يتبعون إبراهيم عليه السلام؟!

الحنفاء في الجاهلية وما وقع من لبس في تعريفهم في بعض المعاجم القديمة

يتحصل لنا مما سبق أن ثمة قولين في معنى الحنفاء . جمع حنيف . في الجاهلية؛ القول الأول: قول الزجاج أنه "الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت، ويغتسل من الجنابة، ويختنق"، وقريب منه قول الأخفش ولكن مع حذف الغسل من الجنابة. والقول الثاني: قول الطبري: "الحنيف عندي هو الاستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته.."، والفرق بينهما أن المشركين قد يقال عنهم حنفاء على القول الأول لتمسكهم ببعض الشرائع كالحج . على ما دخله من شركيات . والختان، وأما على القول الثاني فليسوا حنفاء لأنهم يعبدون الأوثان، وهو ما اختاره الطبري وانتصر له بما سبق.

ولعل هذا الاختلاف في معنى الحنيف والحنفاء في الجاهلية انعكس على بعض المعاجم العربية، فبعضها عرف الحنفاء بأنهم الذين كانوا دين إبراهيم، وينكرون عبادة الأوثان في الجاهلية كما نحى إليه الطبري كما رأينا، وهذا ما جاء في المعجم الوسيط وهو أن: "الحنفاء) فريق من العرب قبل الإسلام، كانوا ينكرون الوثنية، منهم أمية بن أبي الصلت¹، ومن كان على دين إبراهيم عليه السلام في الجاهلية"². اهـ ومنهم النابغة الجعدي «الذي يقال عنه إنه أنكر في الجاهلية الخمر، وهجر الأوثان..»³، «وتحنف في الجاهلية، وهجر الأوثان والأزلام، وكان يصوم ويستغفر وهو القائل:

الحمد لله لا شريك له.. من لم يقلها فنفسه ظلما»⁴

1 وقد تحدث عن بعض هؤلاء الحنفاء في كتابي السابق وهو : البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الروبوية ص188

2 المعجم الوسيط (1/ 203)

3 «في تاريخ الأدب الجاهلي» لعلي الجندي (ص75)، ط دار التراث الأول، ١٩٩١م.

4 «إيضاح شواهد الإيضاح» (1/ 430)، أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي (ت ق ٦هـ)، ت محمد بن حمود الدعجاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1/ ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م. وانظر أيضا «سمط الآلي في شرح أمالي القاضي» لأبي عبيد البكري الأندلسي (1/ 248).

وأما أبو عبيدة فيبدو أنه يختار القول الأول لأنه قال: «الحنيف في الجاهلية من كان على دين إبراهيم، ثم سُمي من اختنق وحج البيت حنيفا لما تناسخت السنون، وبقي من يعبد الأوثان من العرب قالوا: نحن حنفاء على دين إبراهيم، ولم يتمسكوا منه إلا بحج البيت، والختان والحنيف اليوم: المسلم»¹. اهـ فهذا الكلام قريب من كلام الأخفش والزجاج إلا أن فيه فائدة زائدة، وهي أنه يشرح لنا كيف سمي عبدة الأوثان حنفاء، بعد أن كان هذا الاسم مقصورا على من هو على دين إبراهيم عليه السلام.

ولكن يبدو أن هذا النص لأبي عبيدة نقله عنه الأزهري بالمعنى أو اختصره فقال: «قال: وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حنفاء على دين إبراهيم، فلما جاء الإسلام سُموا المسلم حنيفا»². وعن الأزهري نقله كل من ابن منظور³ والزيدي⁴.

فهذا النص الذي نقله الأزهري وابن منظور والزيدي عن أبي عبيدة يختلف في المعنى عن نص كلام أبي عبيدة في مجاز القرآن؛ لأن نص كلامه يفيد أن الحنفاء هم في الأصل من كان على دين إبراهيم كاملا بعقائده وشرائعه، ولكن بعد أن تبدل ودخله الشرك وعبادة الأوثان على أيدي الناس ظنّ من تمسك ببعض شرائعه كالختان أنه من الحنفاء حتى ولو عبد الأوثان!

فهذا ما يفيد نصّ أبي عبيدة الذي في مجاز القرآن، وأما ما نقله عنه الأزهري ومن بعده فهو بالمعنى، ولذا أوهم أن الحنيف هو من كان يعبد الأوثان في الجاهلية! وهذا لم يرده أبو عبيدة ولم يقله! ولا يفيد نص كلامه كما سبق، بدليل قول الأزهري نفسه بعد ذلك "فلما جاء الإسلام سُموا المسلم حنيفا" لأنه إذا كان الحنفاء . جمع حنيف . هم عبدة الأوثان فكيف أطلق الحنيف بعد ذلك على المسلم الموحد الذي ينبذ عبادة الأوثان؟! ولعل هذا التناقض شعر به الزيدي، فلذا زاد ما قاله

¹ «مجاز القرآن» (58 / 1)، مكتبة الخانجي، ط / 1381

² «تهذيب اللغة» (71 / 5)

³ «لسان العرب» (57 / 9)

⁴ «تاج العروس من جواهر القاموس» (170 / 23)

الزجاج وهو قوله: فلما جاء الإسلام كان الحنيف: المسلم، لعدوله عن الشرك¹. اه! والواقع أن الأمر ربما يحتاج إلى مزيد بحث ونظر لعلنا نأتي عليه في مقام آخر، والله أعلم.

ثالثاً: إن الختان مختلف في حكمه عند الفقهاء بين الوجوب والندب، والقول بالندب أو السنّة هو قول الأكثر، فقد ذهب إلى الندب الحنفية والمالكية ورواية عن أحمد وقول لبعض الشافعية²، فهل يعقل أن أهل الجاهلية يحرصون على الختان الذي هو سنة . في قول معظم الفقهاء . وفي الوقت نفسه يقتربون أكبر الكبائر من الشرك وقتل أولادهم وأكل الربا وشرب الخمر إلى غير ذلك؟! والحاصل أن العرب في الجاهلية كانت تحتن اتباعاً للعرف السائد لا أكثر، وهذا ليس من التدين في شيء، وقد ثبت في عصرنا الحاضر أن "الختان يساعد في سهولة تنظيف القضيب ويقلل من سرطانات القضيب ويقي من سرطان عنق الرحم عند زوجاتهم، لأجل ذلك يتوجه الكثير من الغرب من غير المسلمين لعملية الختان وذلك لما له من فوائد صحية"³، فهل يقال بعد ذلك بأن تلك المجتمعات متبعة في ذلك لإبراهيم الخليل عليه السلام مع أنهم نصارى ويهود بل كثير منهم ملحدون لا يؤمنون برب ولا رسول ولا دين؟!!

المطلب الرابع: اللحية عند أهل الجاهلية

حيث قال بعضهم⁴ عن المشركين بأنهم "كانوا مُلتَحِينَ"، واحتجّ بأنّ أبا جهل كان له لحية، كما في حديث البخاري.. فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد . قال: أنت أبو جهل؟

¹ «تاج العروس من جواهر القاموس» (170 /23)

² الموسوعة الفقهية الكويتية (19 /27)، وانظر مقال على شبكة الألوكة " حكم ختان الذكر"، وهذا رابطته:

[/http://www.alukah.net/sharia/0/39329](http://www.alukah.net/sharia/0/39329)

³ مقال بعنوان: "ما حكم الختان في الاسلام" على موقع : موضوع كوم، وهذا رابطته:

http://mawdoo3.com/%D9%85%D8%A7_%D8%AD%D9%83%D9%85_%D8%A7%D9%84%D8%AE%D8%AA%D8%A7%D9%86_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85

⁴ انظر: مقال على الشبكة بعنوان " الرد على شبهة إسلام الشعوب لإظهارهم بعض شعائر الإسلام "

قال: فأخذ بلحيته. قال: وهل فوق رجل قتلتموه أو رجل قتله قومه. اهـ فقوله: فأخذ بلحيته أي فأمسك ابن مسعود بلحية أبي جهل¹، فدللّ على أن المشركين كانوا يطلقون لحاهم. والجواب: إطلاق المشركين لحاهم لم يكن تديناً، لأنهم لا يؤمنون بيوم الدين كما قلنا، وإنما كانت اللحية عند العرب رمز الرجولة وزينتها وسيماء تكريم الرجل وتقديره. وإهانة اللحية عند العرب وعند الساميين هي من أعظم الإهانات التي لا تغتفر، وتقبلها عندهم من علامات التقدير والاحترام والإجلال. ويعدُّ نتف اللحية أو حرّها أو حلقها إهانةً كبيرةً تنزل بصاحبها².

1 منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (4/ 323)

2 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (8/ 200)

الفصل الرابع : مكارم الأخلاق عند أهل الجاهلية

ذكر السلفية أن العرب اشتهروا في الجاهلية ببعض مكارم الأخلاق، واستدلوا على ذلك بعدة أدلة تدل على وجود تلك المكارم إجمالاً، ثم ذكروا بعض مكارم الأخلاق بشكل مفصّل مثل النجدة والشهامة والغيرة والشجاعة والكرم والوفاء بالعهد.

وسوف نبسط ذلك إن شاء الله في مبحثين :

المبحث الأول: دعوى وجود مكارم الأخلاق إجمالاً في الجاهلية وفيه مطلبان:

المطلب الأول: اتصاف النبي ﷺ بالصفات الحميدة

المطلب الثاني: اتصاف أهل الجاهلية بالصفات الحميدة

المبحث الثاني: تفصيل بعض مكارم الأخلاق في الجاهلية وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: صلة الأرحام

المطلب الثاني: إكرام الضيف

المطلب الثالث: الاهتمام بآبن السبيل

المطلب الرابع: النجدة والشجاعة والوفاء بالعهد

والله ولي التوفيق والسداد

المبحث الأول: دعوى وجود مكارم الأخلاق إجمالاً في الجاهلية

اتصف العرب بمحاسن ومناقب عديدة في الجاهلية و((تلك المحاسن والمناقب هي من بقايا دين إبراهيم الخليل وولده إسماعيل -عليهما السلام-، بقيت بين العرب بشكل أو بآخر، وهذا ما نجده في قوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». والواقع أن القيم الرفيعة والخلال الحميدة، انتشرت بين العرب في الجاهلية انتشاراً واسعاً، عجت بها أشعارهم، وسارت فيها أخبارهم، وكان من هذه الخلال ما اجتمعوا عليها أو كادوا، وكان منها ما تحلى بها الكثير منهم. ومن أهم ما اجتمعوا عليه ثلاث: الكرم والشجاعة والغيرة. وأما التي تحلى بها الكثير منهم: العفة والترفع عن الدنيا، ومنها الصدق والوفاء، ومنها حفظ السر والترفع عن جليس السوء.. ومنها الحلم والرزانة وغير ذلك))¹.

«والعقود قبل الإسلام والعقائد والأخلاق كانت كثيرة، ومنها ما هو صالح، ومنها ما هو طالح، وحين جاء الإسلام لم يقرّها كلها ولم يلغها، وإنما نظر بعين العدل إليها إما مقرراً لها باعتبارها مضت مع تقرير ما يجب أن يكون عليه كعقد النكاح، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ [الأنفال: 38]. أو باعتبارها خلقاً حميداً كالشجاعة والإقدام.. وفي هذا يقول الرسول: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وإما ملغياً لها كالعقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة، فتلك أمور تتنافى مع الدين الحنيف»².

والجواب عن ذلك أن لدينا أمرين نبسطهما في مطلبين:

الأول: اتصاف النبي ﷺ بالصفات الحميدة

ثانياً: اتصاف أهل الجاهلية بالصفات الحميدة

المطلب الأول: اتصاف النبي ﷺ بالصفات الحميدة

إن الشمس الأفغاني لم يذكر أدلة على دعواه باتصاف أهل الجاهلية بهذه المناقب! اللهم سوى زعمه أن الحنفية قالوا بذلك، ثم أحالنا إلى كتب شكري الألووسي وكتب الدهلوي ككتاب حجة الله

1 مقال أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام، لمحمد الناصر، منشور في «مجلة البيان» (18/24 ت.ش).

2 «بغية المقتصد شرح بداية المجتهد» (15/9372): شرح صوتي مفرغ للشيخ محمد بن حمود الوائلي، اعتنت به وعلقت عليه: كاملة

الكواري، الناشر: دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط1/1440 هـ - 2019 م.

البالغة وغيره، وبالرجوع إلى الشيخ الدهلوي نجده يقول: وكان المعمول عندهم منها قرى الضيف وابن السبيل وحمل الكَلِّ والصدقة على المساكين وصلة الأرحام والإعانة في نوائب الحق، وكانوا يُمدحون بها، ويعرفون أنها كمال الإنسان وسعادته، قالت خديجة: فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكَلِّ، وتعين على نوائب الحق، وقال ابن الدغنة لأبي بكر الصديق ﷺ مثل ذلك¹.

وحاصل هذا هو استدلال الدهلوي بقول خديجة للنبي "والله! إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكَلِّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". أخرجه الشيخان²، ويقول ابن الدغنة عن أبي بكر: "أُتخرجون رجلاً يُكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكَلِّ، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق"³، أخرجه البخاري.

والجواب عن ذلك من وجوه:

أولاً: إن كلا الحديثين السابقين لا ينهضان دليلاً على الدعوى، إذ الدعوى أعمّ من ذلك، فالدعوى هي أن أهل الجاهلية عامةً يتصفون بصلة الرحم وقرى الضيف وغير ذلك، وهذان الحديثان يدلان على أن هذه الصفات الحميدة كان يتصف بها رسول الله ﷺ قبل البعثة وصاحبه أبو بكر، فأين فيهما أن أبا جهل وأبا هب وسائر المشركين كانوا يتصفون بذلك؟ لو كان الأمر كذلك لما كان لوصف خديجة للنبي، ووصف ابن الدغنة لأبي بكر بهذه الصفات كبير فائدة، إذ الوصف والفخر يكون بأوصاف مميزة يتصف به النادر، لا بأوصاف عامة يتصف به القاصي والداني، والشريف والوضيع!

بل في حديث ابن الدغنة ما يفيد أن المتّصف بهذه الصفات نادر جداً حيث جاء فيه "فارتحل ابن الدغنة، فرجع مع أبي بكر فطاف في أشراف كفار قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يُخرج مثله ولا

1 حجة الله البالغة (1/ 222)

2 انظر: «صحيح البخاري» (1/ 7 ط السلطانية)، «صحيح مسلم» (1/ 139 ت عبد الباقي)

3 «صحيح البخاري» (3/ 1418 ت البغا)

يُخْرِجُ، تُخْرِجُونَ رجلا يُكسب المعدوم ويصل الرحم..¹، فلو كان المتّصف بهذه الخلال كل المشركين، ولم يكن المتّصف بها نادرا جدا، لكان وصف ابن الدغنة لأبي بكر أمام المشركين عبثا! إذاً لكان وصفه هذا بمنزلة قوله: كيف تُخْرِجُونَ رجلا يأكل ويشرب وينام ويبول كما يفعل سائر الناس..! كما أن في تقييد ابن الدغنة النوائب بنوائب الحق في (ويعين على نوائب الحق): "إخراجاً لنوائب الباطل كما كانت العرب تفعله من صرف الأموال رياءً وفخراً"²، وبالتالي فهذا نفسه دليل على أن العرب في الجاهلية لم تكن على هذه الأخلاق التي كان عليها النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر ﷺ.

ثانياً: أن هذه الصفات التي وصفت بها خديجة النبي ﷺ كانت صفات اتصف بها النبي ﷺ قبل البعثة لتكون دليلاً على صدق نبوته حين يُبعث، وهذه قرّرها ابن تيمية حيث قال: ومّا يدخل في مسمى حديثه: بعض أخباره قبل النبوة وبعض سيرته قبل النبوة مثل: تحنّته بغار حراء، ومثل: حسن سيرته؛ لأنّ الحال يستفاد منه ما كان عليه قبل النبوة: من كرائم الأخلاق ومحاسن الأفعال كقول خديجة له: كلاً والله لا يخزيك الله أبداً: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ.. وأمثال ذلك ممّا يُستدلّ به على أحواله التي تنفع في المعرفة بنبوته وصدقه فهذه الأمور ينفع بها في دلائل النبوة كثيراً³.

وقال ابن تيمية أيضاً: وحينئذ فالقائل إن قال إن النبي حُصّ بقوى في نفسه يمتاز بها عن غيره في علمه وعمله، فهذا ممّا يُقرّ به الجمهور ولا ريب في تفضيل الله للأنبياء بفضائل في أنفسهم، وأن من خصّه الله بالفضائل فقد أراد به خيراً كما قالت خديجة "إنك لتصل الرحم"⁴. اهـ، وقرّر نحوه ابن أبي العز حيث قال: والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال. فكيف يشبهه الصادق فيها بالكاذب؟.. ثم ذكر حديث خديجة ثم قال بأنها

¹ صحيح البخاري بتحقيق د. البغا (2/ 803)

² الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (7/ 87)

³ مجموع الفتاوى (9/ 18)

⁴ الصفدية (1/ 225)

ذكرت "ما كان مجبولاً عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وقد علم من سنة الله أن من جبله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة: فإنه لا يخزيه"¹.

فثبت أن هذه الأخلاق التي ذكرتها السيدة خديجة ووصفت بها النبي ﷺ هي من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام كما ذكر ابن تيمية وابن أبي العز. لا يقال: لو كانت من أعلام النبوة لما اتّصف بها أبو بكر، لأننا نقول: هذه الصفات بعض أعلام النبوة وليست كلها، كما أنها ليست هي النبوة نفسها، أو بعبارة أخرى من يكون نبياً لا بد من اتصافه بتلك الصفات الكسبية، ولكن ليس كل من اتصف بها هو نبي لأن النبوة هي منحة ربانية وليست أمراً كسبياً كما هو مقرر، فالنبوة أمر زائد عن تلك الصفات إذ هي وحي من الله لمن اختصه الله بالنبوة والرسالة.

المطلب الثاني: اتصاف أهل الجاهلية بالصفات الحميدة

والجواب عن ذلك من وجوه

أولاً: إن كنتم أردتم أن هذه المناقب اتصف بها بعض الأفراد في الجاهلية كقولكم من قبل "وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب وبعضهم يؤمن بالقدر.." ⁽¹⁾ فهذا القدر مسلّم، بل ثمة أخلاق كثيرة سوى ما ذكرتم اتصف بها بعض أهل الجاهلية مثل "نصرة المظلوم والشجاعة وغض البصر والعفة والشرف" ²، ومثل "الوفاء بالعهد، عزّة النفس، المضي في العزائم، الحلم والأناة والتؤدة" ³. أضف إلى ذلك "الكرم والشجاعة والغيرة..والعفة والترفع عن الدنيا، ومنها الصدق والوفاء، ومنها حفظ السر والترفع عن جليس السوء..ومنها الحلم والرزانة وغير ذلك" ⁴.

ولكن كما "كان منهم الأوفياء الصادقون، كان منهم الغدّارون والكذّابون، وكما كان منهم الأوفياء وحفظة العهود كان منهم الخونة واللصوص والبخلاء" ⁵، فليس كون بعضهم أوفياء صادقين منقبة لأهل الجاهلية بأولى من العكس، وهو أن يُجعل وجود غدارين كذابين فيهم منقصة لأهل الجاهلية. بل إنه جاء ما يفيد أن أهل الجاهلية كانوا على عكس كثير من هذه الصفات بدليل قول جعفر للنجاشي: "أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف" ⁶.

والحاصل أنه لا يصحّ تعميم هذه الصفات على كل المجتمع الجاهلي ولا على أغلبه؛ لأن الجاهلية امتلأت بالقبائح وصارت مرتعا لكل صفة ذميمة كما سنرى، ولذا قيل في تعريفها: "والجاهلية ما قبل

(1) تيسير العزيز الحميد ص27.

2 انظر مقال على الشبكة بعنوان الأخلاق.. بين الجاهلية والألفية الثالثة، د. حسام الدين السامرائي، ورابطه:

<http://www.alukah.net/sharia/0/50898/>

3 مقال على الشبكة بعنوان : مكارم الأخلاق عند العرب في الجاهلية

http://islamayeh.blogspot.com.tr/2008/06/blog-post_15.html

4 مجلة البيان (24 / 18): أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام، مُجّد الناصر.

⁵ مجلة البيان (24 / 18): أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام، مُجّد الناصر.

6 السيرة النبوية لابن هشام (1 / 335)، انظر: ص (216، و 260) عند قولي : (ويأكل القوي منا)

رسالته ﷺ سَمَوْا بِذَلِكَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ فَاحِشِ الْجَهَالَةِ¹. اهـ وحسبك قوله تعالى: { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ } [المائدة: 50]، وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث الشيخين: "يا أبا ذر أعيرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية"²، وسيأتي بسط ذلك.

ثانياً: إن هذه المناقب معارضة بصفات ذميمة كثيرة لا تعد ولا تحصى اتصف بها أهل الجاهلية، فوجود الفضائل بينهم "لا ينفي انتشار النقائص والرذائل التي كانت سائدة في عرب الجاهلية"³. وقد جمع منها ابن عبد الوهاب في رسالة سمّاها "المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية" فبلغت 131 مسألة، ثم جاء بعض أتباعه وهو عبد الله بن محمد الدويش، فاستدرك عليه وألّف كتاب زوائد مسائل الجاهلية فذكر فيها 211 مسألة لم يذكرها ابن عبد الوهاب، فصار المجموع 342 مسألة جاهلية، "والظاهر أن الشيخ الدويش لم يُرد أيضاً الحصر، حيث إنه فاته شيء كثير جداً"⁴.

ثالثاً: على التسليم بأن هذه الصفات شائعة عند عرب الجاهلية فلا اعتبار بها شرعاً، إذ لم يفعلها أهل الجاهلية ابتغاء رضوان الله وثوابه في اليوم الآخر لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلاً كما بسطناه، وإنما فعلوا رياء وسمعة وتفاخراً كما سنرى، ومن كان يؤمن بالآخرة منهم فقد قلنا هذا من الأحناف الذين كانوا يرفضون عبادة الأصنام أصلاً.

رابعاً: وأما حديث "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"⁵، فالجواب عنه: أن الشرح ذكروا في معنى هذا الحديث عدة أقوال؛ الأول: أنه جاء ليكمل شرائع الأنبياء التي قبله ((وعليه قوله تعالى: { أولئك الذين

1 شرح النووي على مسلم (2/ 202)، «البحر المحييط الثجاج» (4/ 389)، «الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (4/ 144)

2 «صحيح البخاري» (1/ 20 ت البغا)، «صحيح مسلم» (5/ 93 ط التركية).

3 عمود الشعر النشأة والمفهوم ص 307، د. محمد بن مريسي الحارثي، ط 1/ 1996.

4 مقدمة تحقيق رسالة المسائل التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية، يوسف بن محمد السعيد ص 45

5 الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (2/ 613) وصححه ووافقه الذهبي، وأحمد بلفظ "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"، وصححه

محققو المسند كما في حاشية مسند أحمد ط/ الرسالة (14/ 513)، والبخاري في الأدب المفرد (ص 104)، وقد رواه مالك في

الموطأ بلاغا (2/ 904)، جاء في «التمهيد - ابن عبد البر» (16/ 276 ت بشار) عن «مالك، أنه بلغه أن رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - قال: "إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق". وهذا الحديث يتصل من طرق صحاح، عن أبي هريرة وغيره، عن النبي ﷺ،

هدى الله فبهدهام اقتده} [الأنعام: 90]، قال الإمام فخر الدين: الآية دالة على فضله عليه الصلاة والسلام، لأنه تعالى أمره بالافتداء بدهامهم، ولا بد له من امتثاله لذلك الأمر، فوجب أن يجتمع فيه جميع خصائلهم وأخلاقهم المتفرقة، وإلى المعنى الأول أشار ﷺ بقوله: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه وترك موضع لبنة منه»¹، إلى قوله: «فكنت أنا سدّدت موضع تلك اللبنة حتى تمّ بي البنيان»². اهـ

والثاني - وهو قريب من الأول -: أنه يجمع ما تفرق منها في الشرائع السابقة، قال الطيبي: «وقوله: ((لأتمّ حسن الأخلاق)) يحتمل أن يراد به أنه كملها بعد النقصان، وأنه جمعها بعد التفرقة...»³، «ويدخل في هذا المعنى الصلاح، والخير كله، والدين، والفضل، والمروءة، والإحسان، والعدل؛ فبذلك بعث ليتمّمه - ﷺ -»⁴.

الثالث: ((يحتمل أن يريد به بعثت بالإسلام لأتمّم شرائعه، وحسن هديه وزيّه وسمته حسن الأخلاق؛ لأن العرب وإن كانت أحسن الناس أخلاقاً بما بقي عندهم مما تقدم من الشرائع قبلهم، فقد كانوا أضلوا بالكفر عن كثير منها، ومنها ما خصّ به نبينا - ﷺ - فتتمّ بالأمرين محاسن الأخلاق))⁵.

وهكذا نرى أن الحديث محتمل لعدة معاني خلاصتها ثلاثة؛ أنه تمّ مكارم الأخلاق التي أتى بها الأنبياء قبله، أو أنه جمع ما تفرق منها في الشرائع السابقة، وهذان المعنيان متقاربان، والثالث: أنه تمّ مكارم الأخلاق التي كانت لدى العرب، ووصلت إليهم من الشرائع قبله، فيكون هذا المعنى الثالث قريباً

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (8/ 573): ((رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح)). اهـ وحسن الألباني إسناده كما في السلسلة الصحيحة (75/1).

1 أخرج الشيخان واللفظ للبخاري «عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (مثلي ومثل الأنبياء، كرجل بني دارا، فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع اللبنة)»، انظر: «صحيح البخاري» (3/ 1300 ت البغا)، «صحيح مسلم» (4/ 1790 ت عبد الباقي).

² «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (8/ 3183)

³ «شرح المشكاة للطبي الكاشف عن حقائق السنن» (10/ 3240)

⁴ «التمهيد - ابن عبد البر» (16/ 277 ت بشار)

⁵ «المنتقى شرح الموطأ» (7/ 213)، «شرح الزرقاني على الموطأ» (4/ 404) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (8/ 3183)

أيضا من الأول والثاني، وبالتالي تكون المعاني الثلاثة متقاربة، وحاصلها أن تتم مكارم الأخلاق التي كانت في الشرائع السابقة للأنبياء عليهم السلام.

وبالتالي فإن تلك المكارم منسوبة في الأصل لشرائع الأنبياء وليست منسوبة للعرب في الجاهلية، غاية ما هناك أنه تبقت بعض هذه المكارم بين العرب في الجاهلية التي وصلت إليهم من الشرائع السابقة، «قال الباجي: كانت العرب أحسن الناس أخلاقا بما بقي عندهم من شريعة إبراهيم، وكانوا ضلّوا بالكفر عن كثير منها، فبعث ﷺ ليتمم محاسن الأخلاق ببيان ما ضلّوا عنه وبما خصّ به في شريعته»¹. فتأمل كيف نصّ على أن ما عند العرب من مكارم الأخلاق هو مما بقي من شريعة إبراهيم عليه السلام! وأنه ضلّوا بكفرهم عن كثير منها! فيكون الحديث نفسه يدل بمفهوم المخالفة على أن العرب في الجاهلية اتصفت بكثير من الصفات الذميمة، فيكون حجة على السلفية الذين احتجوا بها على وجود مكارم الأخلاق عند أهل الجاهلية!

حتى من تخلّق من أهل الجاهلية بتلك المكارم التي بقيت من شرائع الأنبياء لم يتخلق به تدينا أي رجاء ثواب أخروي؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا تطبيقا لشرائع الأنبياء السابقة، لأنهم لا يؤمنون بالأنبياء أصلا كما سنرى، وإنما كان يتّصفون بها للمدح والثناء والرياء، ونحو ذلك من الأغراض الدنيوية سيأتي تفصيله في المبحث الثاني بعون الله.

هذا كله طبعاً لو قلنا بأن معنى الحديث هو المعنى الثالث وهو أنه تتم مكارم الأخلاق التي كانت في الجاهلية، فأما إن قلنا إن المراد به هو المعنى الأول، أو الثاني وهو أنه تتم مكارم الأخلاق التي أتى بها الأنبياء قبله أو أنه جمع ما تفرق منها في شرائعهم، فلا حجة في الحديث أصلاً على اتصاف العرب بمكارم الأخلاق في الجاهلية كما هو ظاهر.

وبذلك أكون تناولت مكارم الأخلاق بشكل مجمل عند أهل الجاهلية، وانتقل الآن للكلام على بعض الأخلاق الحميدة بشكل مفصل عند أهل الجاهلية. وبالله التوفيق

¹ «تنوير الحوالك شرح موطأ مالك» (2/ 211)، وكذا قال البيضاوي كما في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (8/ 3183)

المبحث الثاني: تفصيل بعض مكارم الأخلاق في الجاهلية

ذكر السلفية بعض مكارم الأخلاق عند أهل الجاهلية على سبيل التفصيل منها "قرى الضيف والاهتمام بابن السبيل وحمل الكلّ.. وصلة الأرحام والإعانة على نواب الحق" (1). اهـ وسنفضّل القول في هذه المكارم في أربعة مطالب بحول الله:

المطلب الأول: صلة الأرحام

فقد قال بعض السلفية إن المشركين كانوا "يصلون الرحم"²، والجواب أن هذا غير مسلم، وبيان ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن الغالب على أهل الجاهلية قطع الأرحام، يدلّ على ذلك ما يلي:

(1) { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ } [مُحَمَّد: 22] قال الطبري: فعلكم إن توليتم عن تنزيل الله جلّ ثناؤه، وفارقتم أحكام كتابه، وأدبرتم عن محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعما جاءكم به.. (وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التشّت والتفرّق بعد ما قد جمعكم الله بالإسلام، وألّف به بين قلوبكم.. ثم نقل بسنده عن قتادة: فهل عسيتم كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطّعوا الأرحام، وعصّوا الرحمن³. اهـ فدلّ ذلك على أن اتباعهم للنبي هو الذي يحملهم على صلة الأرحام وأنهم بدون ذلك يعودون على قطعهم للأرحام، وهذا يعني أنهم في الجاهلية كانوا على قطيعة الأرحام إلا ما ندر كما سيأتي.

(2) قول جعفر بن أبي طالب للنجاشي: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام.. ونقطع الأرحام.. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا.. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة

(1) جهود علماء الحنفية (1 / 212).

2 شرح كشف الشبهات لخالد المصلح (1 / 10، ت.ش). وانظر: جهود علماء الحنفية (1 / 212)

3 جامع البيان ط هجر (21 / 213)

وصلة الرحم ..¹.. اه فتأمل كيف قال كنا "نقطع الأرحام"، ثم ذكر أن النبي ﷺ أمرهم بعكس ذلك أمرهم بصلة الرحم، فهذه شهادة ممن كان من أهل الجاهلية أنفسهم يشهد أنهم كانوا يقطعون الأرحام، فهل صدقه أم نصدق من جاء بعدهم بخمسة عشر قرناً؟! (3) أنه لكثرة قطعهم للأرحام قامت بعض الأحلاف للتعاهد على صلة الرحم ونحو ذلك، وفيه جاء حديث مسلم «لا حلف في الإسلام، وأبما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة»²، أي "ما كان منه في الجاهلية على نصّر المظلوم وصلة الأرحام كحلف المُطَيِّبين وما جرى مجراه.. لم يزد الإسلام إلا شدة، يريد من المُعاقدة على الخير ونصرة الحق"³. وهذا يدل كما ترى على أن أهل الجاهلية كان الأصل أو الغالب فيهم قطع الأرحام حتى يقوموا بمثل هذه الأحلاف التي يتعاهدون فيها على صلة الأرحام ونحوه، فلا يقال: هذه الأحلاف نفسها مزية لأهل الجاهلية لكونها كانت على "نصّر المظلوم وصلة الأرحام"، لأننا نقول: سبب قيام هذه الأحلاف هو تفشي عكس هذه الأمور التي تحالفوا عليها، فلو كانوا يقومون بها من تلقاء أنفسهم لما احتاجوا أحلّافاً وتعاهدات للقيام بها، هذا فضلاً عن أنهم تحالفوا "في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله صلى الله

1 أخرج أحمد في مسنده (3/ 268) ط الرسالة، وقال محققو المسند: إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير مُجَدِّ بن إسحاق، فقد روى له مسلم متابعة، وهو صدوق حسن الحديث إلا أنه مدلس، لكنه هنا صرح بالتحديث فانفتت شبهة تدليسه.. وهو في "السيرة" لابن هشام 357/1-362 عن ابن إسحاق، بهذا الإسناد. وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" 115/1-116 مختصراً.. وأخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" 301/2-304.. وأبو نعيم في "دلائل النبوة" (194). اه وقال الهيثمي في المجمع: 24/6 - 27 "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع". وفي صحيح السيرة النبوية لعلي الشبلي (ص: 76): "فالحديث بهذا صحيح.. وقد صححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند، حديث رقم: 1740"، وانظر السيرة النبوية لابن كثير 2/ 11، وفتح الباري لابن حجر 7/ 189، وعيون الأثر لابن سيد الناس 1/ 118، وزاد المعاد لابن القيم 2/ 51، والسيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري 1/ 174، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية لمهدي رزق ص: 208-209.

2 صحيح مسلم (4/ 1961)

3 النهاية في غريب الحديث والأثر (1/ 425)، وانظر نحوه: أيضا المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (6/ 483)، فتح الباري لابن حجر (4/ 473)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (13/ 304)

عليه وسلم «لا حلف في الإسلام»¹. فأن يكون "قيامهم بحلف المطيبين"، دليلا على فضلهم ليس بأولى من أن يكون قيامهم بالأحلاف المضادة دليلا على جهلهم وعدوانهم!!
 حتى الأحلاف التي كانت تقوم في الجاهلية على التناصر كان فيها ظلم "وذلك أن المتحالفين كانا يتناصران في كل شيء، فيمنع الرجل حليفه؛ وإن كان ظالما، ويقوم دونه، ويدفع عنه بكل ممكن، فيمنع الحقوق، وينتصر به على الظلم والبغي والفساد، ولما جاء الشرع بالانتصاف من الظالم.. أبطل ما كانت الجاهلية عليه ممن ذلك"².

الوجه الثالث: أن معظم من كان يصل الأرحام في الجاهلية، ويأمر بذلك كان على الحنيفية ينبذ الأصنام، كالنبي ﷺ حيث قالت خديجة عنه في حديث البخاري السابق: "كلا والله لا يجزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف"، وكأبي بكر حيث قال عنه ابن الدغنة "فإنك تكسب المعدوم وتصل الرحم" كما في حديث البخاري السابق، ومنهم "كعب بن لؤي بن غالب" أحد أجداد النبي. فقد "كان على الحنيفية، وإليه كانت تجتمع قريش في كل جمعة.. ويحثهم على صلة الأرحام"³. ومثل ((الأفوه بن مالك" الأودي، كان من المتألهين كذلك، وأنه لما شعر بدنو أجله أوصى قومه: مذحج، بتقوى الله، وصلة الأرحام))⁴.

الوجه الرابع: أن من كان من أهل الجاهلية يصل الرحم، ولم يكن من الأحناف، بل كان على الشرك، فهذا لم يقد بصلة الأرحام ونحوها تدينا لكونه منكرا ليوم الدين، وإنما يفعله رياء وسمعة، بدليل ما رواه مسلم عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله: ابن جدعان كان في الجاهلية، يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نفعه، قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين. قال النووي: معنى هذا الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة،

¹ النهاية في غريب الحديث والأثر (1/ 424)

² المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (6/ 482)، فتح الباري لابن حجر (10/ 502)

³ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (12/ 83)

⁴ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (18/ 389)

لكونه كافرا وهو معنى قوله ﷺ: لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين، أي لم يكن مصدقا بالبعث،
ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل¹. اهـ

وقال ابن القيم في فصل خصّصه لفتاوى إمام المفتين عليه الصلاة والسلام: وسأله صلى الله عليه وسلم - عديّ بن حاتم، فقال: إن أبي كان يصل الرحم، وكان يفعل ويفعل. فقال: إن أباك أراد
أمرا فأدركه يعني الذكر². اهـ والحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه تحت عنوان "ذكر القصد الذي كان لأهل الجاهلية في استعمالهم الخير في أنسابهم"، وحسنه الألباني³.

ونحوه قول ابن رشد الجد: "ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها.. والكافر ما عمل في حال كفره من صلة رحم أو فعل معروف أو عتق رقاب أو قرأ⁴ ضيف فإنما يريد بذلك أن يحمّد بذلك ويشكر عليه، فليس له بما فعله من ذلك إلا ما نوى به، وإذا كان المسلم لا يكون له بما عمله إذا لم يرد به وجه الله إلا ما نواه من أمر دنياه، فأحرى ألا يكون للكافر إلا ذلك، ويؤيد هذا ما روي عن عدي ابن حاتم.. أي إنما كان ذلك منه لمعنى قد بلغه وناله في دنياه، فلا ثواب له عليه في أخراه، وقد ينتفع بذلك ولده من بعده فيكون له به شرف عند الناس وحرمة⁵. اهـ

المطلب الثاني: إكرام الضيف

فقد كان فيهم "قرى الضيف"⁽⁶⁾. والجواب: نعم هذا شيء مشهور عن العرب ولا سيما قريش، فقد ذكر ابن كثير نقلا عن ابن الكلبي قال: كان النضر بن كنانة تُسمّى قريشا؛ لأنه كان يقرش

1 شرح النووي على مسلم (3/ 87)

2 إعلام الموقعين عن رب العالمين (5/ 385)

3 سلسلة الأحاديث الصحيحة (7/ 50)، التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان للألباني (1/ 366)

4 كذا رسمت في المطبوع من البيان والتحصيل (قرا ضيف)! والمشهور كتابتها بالألف المقصورة، أي هكذا (قرى ضيف).

5 البيان والتحصيل (17/ 251)

(6) جهود علماء الحنفية (1/ 212).

عن خلة الناس، وحاجتهم فيسدّها بماله، والتقرّش هو التفتيش، وكان بنوه يقرّشون أهل الموسم عن الحاجة، فيرفدوهم بما يبلغهم بلادهم، فسّموا بذلك من فعلهم¹.

وينبه ابن حبيب على ضيافة القرشيين قائلا: "فمن مكارمهم في الجاهلية أنهم كانوا على حالة شركهم يترافدون على سقاية الحاج وإطعام أهل الموسم وحمل المنقطع به من الحاج ومعونته على بلاغ منزله، فكان القيمّ بذلك في زمانه هاشم بن عبد مناف، فكانت قريش تجمع إليه الفضول من أموالها أيام الحج.. ثم قام به بعده ابنه عبد المطلب فزاد في سنة أبيه وأضعف في مكارم قريش، فكان إذا كان أيام الحج أعدّ للحجاج الطعام ووضع الأعلاف للوحوش وكان يسمى «مطعم الناس في السهل، والوحوش والسباع في الجبل»². اهـ

وتشهد الروايات أن القرشيين كانوا يقومون بالرفادة والسقاية³، حيث ولي "الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف.. وكان هاشم موسرا فكان - فيما يزعمون - إذا حضر الحاج قام في قريش فقال: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته، وهم ضيف الله، وأحقّ الضيف بالكرامة ضيفه، فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاما أيامهم هذه التي لا بد لهم من الإقامة بها، فإنه والله لو كان مالي يسع لذلك ما كلفتموه. فيُخرجون لذلك خرجا من أموالهم كل امرئ بقدر ما عنده فيصنع به للحجاج طعاما حتى يصدروا منها"⁴. اهـ

وكان في العرب رجال اشتهروا بالكرم، ومن هؤلاء حاتم الطائي فقد كان "أشهرهم بالكرم ذكرا"⁵، فهو "أحد الأجواد الذين يضرب بهم المثل"⁶، فقليل: "أجود من حاتم" و"السخاء حاتم"، و"ذهب حاتم بالسخاء"¹، ورووا عنه قصصا كثيرا في الجود والسخاء، يرينا أن الجود فيه سجية².

1 البداية والنهاية ط هجر (3/ 223)

2 المنمق في أخبار قريش (ص: 27)

3 الجود والبخل في الشعر الجاهلي، مجّد فؤاد نعناع ص181

4 السيرة النبوية لابن هشام (1/ 135)

5 ثمرات الأوراق لابن حجة 1/ 114

6 سمط اللآلئ للبكري 1/ 606

فهذا كله مسلم لا ريب فيه، ولكن: أولاً: صفة الكرم هذه اتصف بها سادات العرب عامة وسادات قريش خاصة، وهؤلاء قسمان: **القسم الأول من الحنفاء: آباء النبي ﷺ وأجداده كعبد المطلب وهاشم وغيرهما كما سبق أخبارهم، وآباء النبي ﷺ كانوا طاهرين، وأكثر العلماء على أنهم من الحنفاء كما رأينا في كلام شكري الألويسي³.**

القسم الثاني: من المشركين، وهؤلاء لم يكن كرمهم تدينا لأنهم لا يؤمنون بيوم الدين، وإنما كان كرمهم لأمرين دنيويين:

الأول: للرياء والسمعة والشهرة واكتساب مدح الناس، ف "العرب كانوا يكرمون الضيف لكلفهم بحسن الأحدثة وطيب الثناء، ولأنهم ذوو أريحية تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع.. وكان المال وسيلة عندهم لا غاية، وسيلة إلى كسب المحامد. كان الكرم وسيلة هامة من وسائل السيادة. يقول حاتم الطائي: يقولون لي: أهلك مالك فاقتصد.. وما كنت لولا ما تقولون سيداً"⁴. اه. وقد سبق حديث عدي بن حاتم "إن أي كان يصل الرحم وكان يفعل ويفعل فقال: إن أباك أراد أمراً فأدركه يعني الذكر"⁵.

وإذا كان إنفاقهم للأموال وكرمهم من أجل الرياء فهذا أمر لا يحمد شرعاً، بل هو مذموم في آيات وأحاديث كثيرة، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } [البقرة: 264]، قال الطبري: وذلك أن ينفق ماله فيما يرى الناس في الظاهر أنه يريد الله تعالى ذكره، فيحمدونه عليه وهو يريد به غير الله ولا طالب منه الثواب، وإنما ينفقه كذلك ظاهراً ليحمده الناس عليه فيقولوا: هو سخي كريم⁶. اه. وقال ابن تيمية

1 الجود والبخل في الشعر الجاهلي، مجّد فؤاد نعناع ص178، نقلا عن مجمع الأمثال للميداني، جمهرة الأمثال للعسكري، والمستقصى في أمثال العرب للزنجشيري.

2 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (8/ 167)

3 انظر كتابنا: البراهين الشرعية ص (217) عند قولي: كانوا موحدين في اعتقادهم

4 مجلة البيان (18/ 24): أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام، مجّد الناصر.

5 انظر: ص (223) عند قولي: فقال إن أباك أراد أمراً

6 جامع البيان ط هجر (4/ 659)

"فبين أن المنّ والأذى يبطل الصدقة فيجعلها باطلا لا حقا كما يبطل الرياء وعدم الإيمان الإنفاق أيضا"¹، فقد أبطل الله صدقة المنان وصدقة المرئي"²، "ولهذا صارت أعمال الكفار والمنافقين باطلة.. لم يبق فيها منفعة له"³.

وقال تعالى: { وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا } [النساء: 38، 39]، وقال الطبري: { وأنفقوا مما رزقهم الله }، يقول: وأدوا زكاة أموالهم التي رزقهم الله، وأعطاهموها طيبة بما أنفسهم، ولم ينفقوها رياء الناس، التماس الذكر والفخر عند أهل الكفر بالله، والمحمدة بالباطل عند الناس⁴. اهـ

وفي حديث الثلاثة التي تسعّر بهم النار، ولفظه عند مسلم "ورجل وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار"⁵، قوله: (ولكنك فعلت) أي: "وأنفقت ذلك (ليقال) فيك (هو جواد) كثير العطاء (فقد قيل) فيك ذلك فهو جزاؤك (ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي) ورمي (في النار) ليعذب بما على عمله لأنه أشرك بالرياء"⁶.

الأمر الثاني: أنه «كان العرب يعيشون في بادية شحيحة بالزاد وحياتهم ترحال وتجوّال، وكل واحد منهم معرض لأن ينفد زاده، فهو يقري ضيفه اليوم لأنه سيضطر إلى أن يضيف عند غيره في

1 مجموع الفتاوى (2 / 417)

2 مجموع الفتاوى (8 / 221)

3 مجموع الفتاوى (11 / 348)

4 جامع البيان ط هجر (7 / 28)

5 صحيح مسلم (3 / 1513)

6 الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (20 / 247)

يوم، فليس في البادية ملجأ يلجأ الفرد إليه غير الخيام المضروبة هنا وهناك، ملاجئ تعتبر قوارب النجاة.¹

ثانياً: أن الله وبَّخ المشركين على فخرهم بقيامهم بالسقاية ونحو ذلك من استضافتهم للحجاج، فقال تعالى: { أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ } [التوبة: 19]، قال الطبري: وهذا توبيخ من الله تعالى ذكره لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت، فأعلمهم جلّ ثناؤه أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله لا في الذي افتخروا به من السدانة والسقاية.²

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله "أجعلتم سقاية الحاج" الآية وذلك أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خيرٌ ممن آمن وجاهد فكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعمّاره فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال: لأهل الحرم من المشركين "قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامراً تهجرون" .. فخير الإيمان بالله والجهاد مع نبي الله ﷺ على عمران المشركين البيت وقيامهم على السقاية، ولم يكن ينفعهم عند الله تعالى مع الشرك به.³

لا يقال: إنما ذمهم لشركهم كما قال ابن عباس هنا "ولم يكن ينفعهم عند الله تعالى مع الشرك به"، لأننا نقول: لم يذمهم لشركهم فقط بل لكونهم "مشركين، مع كونهم يكذبون الرسل، مع كونهم لا يؤمنون باليوم الآخر، مع ذلك كله يريدون أن يكونوا أفضل من غيرهم من الناس .. لكونهم سدنة البيت .. فذمهم الله تعالى"⁴ كما أقرتم بذلك، وكما دل على ذلك ظاهر قوله تعالى: "كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.." حيث دلّ على أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر حيث كانوا منكبين لليوم الآخر،

1 مجلة البيان (18/24): أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام، مُجد الناصر نقلاً منه عن تاريخ العرب قبل الإسلام: د جواد علي 4 / 575.

2 جامع البيان ط هجر (377/11)

3 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (269/7)

4 شرح مسائل الجاهلية للحازمي (2/14)، ت.ش.

وكانوا شاكين بقدرة الله على البعث ويشكّون في علمه وسمعه بل كانوا يشكّون بالله كما قال تعالى { أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ } "أي إذا سئلوا: من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون"¹. وقد سبق بسط ذلك كله².

وكما دلّ على ذلك آيات سورة المؤمنون السابقة، قال الطبري فيها، أي في قوله تعالى: { قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرا تهجرون } يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين من قريش: لا تضجوا اليوم وقد نزل بكم سخط الله وعذابه، بما كسبت أيديكم واستوجبتموه بكم آيات ربكم. { قد كانت آياتي تتلى عليكم } يعني: آيات كتاب الله، يقول: كانت آيات كتابي تقرأ عليكم فتكذبون بها، وترجعون مؤلّين عنها إذا سمعتموها كراهيةً منكم لسماعها³.

ثم روى الطبري بسنده عن مجاهد: { تهجرون } قال: «بالقول السيئ في القرآن»⁴. ثم روى بسنده عن الحسن: «تهجرون» كتاب الله ورسوله⁵. وقرأ آخرون: «سامرا تُهجرون» بضم التاء، وكسر الجيم بمعنى: يفحشون في المنطق، ويقولون الخنا.. وذكر أنهم كانوا يسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم⁶. اهـ

وهكذا فإن الله لم يذمّ المشركين لشركهم فحسب حين افتخروا بالسقاية ونحوها، بل ذمهم أيضا لإنكارهم اليوم الآخر ولتكذيبهم الرسل ولسبّهم رسول الله وطعنهم في القرآن وكفرهم به كما سبق.

1 البحر المحيط (8/ 149)

2 انظر: ص (299)

3 جامع البيان ط هجر (17/ 79)

4 جامع البيان (17/ 85)

5 جامع البيان (17/ 86)

6 جامع البيان (17/ 85)

المطلب الثالث: الاهتمام بابن السبيل

يقول جواد علي: وكانت لهم مكرمات فعلوها في الجاهلية عن خلق ودين، ورغبة في شهرة وسمعة؛ منها أنهم كانوا يتصدقون بأموالهم على أبناء السبيل وعلى الفقراء والمحتاجين. ذكر أن الأسود بن ربيعة بن أبي الأسود اليشكري، قال لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله إن أبي كان تصدق بمالٍ من ماله على ابن السبيل في الجاهلية، فإن تكن لي مكربة تركتها، وإن لا تكن لي مكربة، فأنا أحق بها: فقال: بل هي لك مكربة فتقبلها". وذكر أن رسول الله قال: "ألا إن كل مكربة كانت في الجاهلية، فقد جعلتها تحت قدمي، إلا السقاية والسدانة"¹. وهذه المكرمات هي من مآثر العرب في الجاهلية، مكارمها وتفآخرها التي تؤثر عنها².

والجواب: أنه مثلما كان فيهم من يهتم بابن السبيل فكذلك فيهم قطع السبيل الذين يقطعون الطريق، وينهبون الأموال من القوافل وأبناء السبيل، "وكلما كانت الأموال ثمينة وكثيرة كانت القافلة كبيرة، يجرسها عدد كبير من الحراس؛ لحمايتها من لصوص الطرق وقطاع السبل الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب. ونقل التجارة بالقوافل طريقة عالمية قديمة، أشير إليها في الكتابات وفي الكتب المقدسة"³.

1 أخرج أحمد في مسنده، ألا إن كل مآثرة كانت في الجاهلية تعد، وتدعى، وكل دم أو دعوى موضوعة تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج. انظر: مسند أحمد ط الرسالة (24/ 108) وأخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (ص 143) بلفظ: ألا إن كل دم ومال ومآثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي .. .»

2 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11/ 208)

3 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (14/ 7)

المطلب الرابع: النجدة والشجاعة والوفاء بالعهد

فقد ((كانت الشجاعة عند العرب صنو الكرم في تعشقهم لها، وافتخارهم بها.. إنها إقدام في مواطن الإحجام، وعدم مبالاة بالحياة ولا بالممات. (والعرب لم تنزل رماحهم متشابكة وأعمارهم في الحروب متهاككة، وسيوفهم متقارعة، قد رغبوا عن الحياة، وطيب اللذات.. كانوا يتمادحون بالموت، ويتهاجون به على الفراش، ويقولون فيه: مات فلان حتف أنفه)¹، و(قد صار البأس لهم خلقاً والشجاعة سجية)².

(وإذا تقصينا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة، ولدت معه، وأنه شبّ وكبر وهي تتمشى في دمه.. وطالما فرع طفلاً على قعقة السلاح، وصيحات المقاتلين، وسمع الأقسايس عن شجعان من القبيلة حمّوها وردّوا المغيرين عليها، أو هجموا على أخرى وأجلّوها، ثم شبّ فرأى الأبطال في ميدان الوغى تتنازع، ثم كبر فشارك في المواقف وأفنى العمر في المعارك، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقاً عاماً عند العرب)³.

وقد اختار الغالب منهم سكنى البوادي على الحضر، لما كان فقد العز فيه، والجنب إنما ينشأ من حب رغد العيش وطيب الحياة وعدم المبالاة بما يزرى بعلو الحسب، وأين ذلك منهم؟⁴.

مظاهر الشجاعة عند العرب

وقد كان للشجاعة عند العرب مظاهر متعددة، ومن تلك المظاهر الأنفة والحمية وإباء الضيم. يقول عنتر بن شداد:

لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل⁵

¹ بلوغ الأرب: الألو سي 1 / 103 - 104

² مقدمة ابن خلدون: 105 / ط الأزهرية بمصر

³ الحياة العربية من الشعر الجاهلي: الدكتور الحوفي، ص 331، ط هـ

⁴ بلوغ الأرب: الألو سي 1 / 107

⁵ ديوان عنتر، ص 120، شرح عبد المنعم شليبي

ومن مظاهر الشجاعة عندهم حب النجدة وإجابة الصريخ إذ لا يفعل ذلك إلا الشجعان الأقوياء، ولا يتخلف عنه إلا المبلد الجبان. يقول طرفة بن العبد:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أني ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وإن أدع للجلي أكن من حُماتها ... وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد¹

وكانوا يعدّون حبّ المغامرة والترحال من مزايا الرجال الأشداء. يقول النمر بن تولب:

خاطرٌ بنفسك كي تصيب غنيمة ... إن الجلوس مع العيال قبيح

فالمال فيه تجلّة ومهابة ... والفقير فيه مذلة وقبوح²

ومن مظاهر شجاعتهم أيضاً إصرارهم على الثأر مهما كلف الأمر، وقد بالغوا في ذلك كثيراً، وكان من محامد القبيلة أن تكثر قتلها في الحروب، لأن هذا دليل على ألفتهم لها. قال بشامة بن حزن النهشلي:

إني لمن معشر أفنى أوائلهم ... قول الكمأة: ألا أين المحامونا

لو كان في الألف منا واحد فدعوا ... من فارس؟ خالهم إياه يعنوننا

ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم ... مع البكاة على من مات ييكونا³

قال وليد . وفقه الله .: كذا قالوا ، والجواب عن ذلك؛ أولاً: صحيح أن العرب في الغالب كانوا

يتصفون بالشجاعة، ولكن هي شجاعة مع بطش وظلم وتعصب للقبيلة، وهذا كله نهي عنه الإسلام

وهذبّه. ((إن ما دعا إليه الإسلام هو الجوهر الحقيقي للشجاعة..الشجاعة في الحق، لا الحمية في

الباطل، والجهاد الخالص، لا للسمعة والرياء تلك الحمية التي تجعل مائة ألف سيف تغضب لغضبة

رجل، لا يسألونه في أي شيء غضب؟!))⁴.

¹ شرح القصائد للتبريزي / 96

² الديوان / 9 / 4، والبيتان منسوبان أيضاً لعروة بن الورد في ديوانه / 43

³ شرح الحماسة: العسيلان / 77، وبعضهم ينسبها إلى المرقش الأكبر

⁴ واقعنا المعاصر: الأستاذ مُجّد قطب / 167

«فقد كان الفرد جزءاً من قبيلته، يعيش لها ويدور في فلکها في كل أمر: خير أو شر، ويعبر عن ذلك قول دريد بن الصمة:

وهل¹ أنا إلا من غزيرة إن غوت ... غويت وإن ترشد غزيرة أرشد
ومن قولهم: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً".
ويقول شاعرهم:

قوم إذا الشرّ أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووجدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا². «فما معنى قولهم ذلك؟
أليس هو الولاء الأعمى لمن يستحق ومن لا يستحق؟ للظالم أو المظلوم على حد سواء، لقد بقيت
تلك المقاييس العوجاء في الموالاتة والمعاداة، أحقاباً من الزمن، حتى أشرقت عليهم شمس الإسلام بعدالة
الملك العلام»³.

ثانياً: لم يكن هذا حال جميع العرب، إذ كان فيهم الشجعان وكان فيهم الجبناء، والشعر العربي صور
هؤلاء وهؤلاء، أي ((أن الشعر لم يكن كله تصويراً لشجاعة الشجعان، وإنما سجل حالات كثيرة
من اعتراف الشاعر بجنبه أو جنب حلفائه أو عشيرته! فليس كل عربي بشجاع بالضرورة، وإنما طبيعة
الحياة البشرية أن تتنازعها بواعث عدة أو صفات شتى، ولكل قاعدة شواذ.. لقد صرح كثير من
الشعراء بفرارهم، وتلمسوا المعاذير لنفوسهم، ولا تهمنا هذه المعاذير، إنما يعيننا أنهم اعترفوا بالفرار ولم
يكتموا، فرّ ذات يوم أوس بن حجر من جموع بني عبس، واعتذر بأنه لما شهد الجموع خاف لأنهم
شجعان، ودافع عن نفسه بأن فراره اليوم لا معرّة فيه لأن شجاعته مشهورة وبلاءه محمود! فهو يقول:
أجاعلة أم الحصين خزاية ... علي فراري إذا لقيت بني عبس

¹ وفي «حماسة البحتري» (ص176):

«وما أنا إلا من غزيرة إن غوت ... غويت وإذ ترشد غزيرة أرشد»

² «منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام» (1/280)، د. حمود الرحيلي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط 1/2004 م.

³ «الموالاتة والمعاداة في الشريعة الإسلامية» (1/60)، محماس الجلود، دار اليقين، ط 1/1987 م

وليس الفرار اليوم عاراً على الفتى ... إذا جربت منه الشجاعة بالأمس¹.
وهذا البيت يروى عن عنتره العبسي نفسه الذي تغنى الركبان بشجاعته !!! ولذا قيل
«أليس عنتره يقول:

وليس الفرار اليوم عاراً على الفتى ... وقد جربت منه الشجاعة بالأمس
ويقول لامراته لما عاتبته على إثارة فرسه باللبن دون عياله:

إن العدو لهم إليك وسيلة ... أن ياخذوك تكحلي وتخضي

وأنا أمرؤٌ إن ياخذوني عنوة ... أقرن إلى شر الجمال وأجنب»²

« يريد أنها إذا أخذت كُحِلت وخضبت وإنما تؤخذ إذا أُسر فإذا أخذ قُرُن إلى بعض الركاب
وجنب كما يفعل بالأسير»³. وأما قوله ((أن ياخذوك، أي لهم قرية إليك في أخذهم إياك، قذفها بإرادتها
أن تؤخذ مسيبةً، فلذلك قال: «تكحلي وتخضي»))⁴.

«وكان لعنتره بن شداد فرس اسمه الأجر بن نعامة، وكان يسقيه الحليب قبل أن يسقي زوجته،
فعاتبته على ذلك فقال :

لا تحسدي مهري وما أسقيته ... ما أنت إلا في مقام أعظم

فإذا غضبت فلي إليك وسيلة ... إما بعقد أو بثوبٍ مُعلم

وابن النعامة ما إليه وسيلة ... إلا بطيبة مشرب أو مطعم

إلى أن يقول:

إني أحاذر أن تقولي مرة ... هذا غبار ساطع فتقدم

فيخونني وقت الطعان فتصبحي ... مسيبةً بتخسرٍ وتندم»¹!

1 «غرر الخصائص الواضحة» (ص465)، أبو إسحق برهان الدين مُجد بن إبراهيم بن يحيى المعروف بالوطواط (ت ٧١٨هـ)، ت.

ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1/ ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

2 «المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية» (ص226)، وانظر «العقد الفريد» (3/ 354):

«لامراته»

3 «المعاني الكبير في أبيات المعاني» لابن قتيبة (1/ 90)، دار الكتب العلمية، ط1 (تصوير عن الطبعة الهندية) // ١٩٨٤ م.

4 «أمالي ابن الشجري ت الطناحي» (1/ 398)

و«اعتذار هارب زعم أن هربه نبوة² أو قدر، قال شاعر:

أيذهب يوم واحد إن أسأته ... بصالح أيامي وحسن بلائيا

ولم تبد مئى نوبة قبل هذه ... فراري وتركى صاحبي ورائيا³

«وقيل لبعضهم: لم انهزمت؟ فقال: إنما لي نفس واحدة، وأنا حقيق بالنظر إليها لئلا يذهب رأس المال!

وليم آخر على فراره، فقال: الحرب سجال، وعثراتها لا تقال..وقيل لآخر ولى في حرب: ويملك لا

تهرب يغضب الأمير عليك، فقال: غضب الأمير علي وأنا حيّ أحب إلي من رضاه عني وأنا ميت⁴

ثالثاً: إن هذه الشجاعة لم تكن من أجل إعلاء كلمة الله كما هو في الإسلام، وإنما كانت غالباً من أجل

الغزو والنهب والسلب، «وكثيراً ما يتخذون من السلب والغارة، وسيلة من وسائل العيش، فيسلبون

الأموال والنساء والأولاد، ثم تتربص القبيلة المغار عليها، فتفعل ما فعلت القبيلة المعتدية، بل إن القبيلة

تقاتل نفسها إذا لم تجد عدواً من غيرها، يمثل ذلك قول القطامي:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا⁵

¹ «نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد» (ص4 ت.ش)، مُجَّد (باشا) ابن الأمير عبد القادر ابن محيي الدين الحسيني الجزائري (ت ١٣٣١هـ). والأبيات بتمامها:

لا تحسدي مهري وما أسقيته ... ما أنت إلا في مقام أعظم

فإذا غضبت فلي إليك وسيلة ... إما بعقد أو بثوب معلم

وابن النعامة ما إليه وسيلة ... إلا بطيبة مشرب أو مطعم

إن كان حبك في الفؤاد محله ... في أعظمي يجري كما يجري دمي

فاروي صداه من الظما فلعله ... ينجيك من هول الغبار المظلم

2 يشير إلى البيت قبله:

فلم تُبل مئى نبوة قبل هذه ... فراري وتركى صاحبي ورائيا

انظر: «المخبر» (ص495)، وهو أيضاً في حماسة الخالدين.

³ «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» (2/ 202)، أبو القاسم الحسين بن مُجَّد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت

٥٠٢هـ)، شركة دار الأرقم - بيروت، ط1/ ١٤٢٠ هـ.

⁴ «غرر الخصائص الواضحة» (ص466)

⁵ «منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام» (1/ 280)

أو تكون من أجل الثأر والتعصب القبلي الأعمى كما سبق! وهكذا فإن ((هذه الطاقات الهائلة، وهذه الشجاعة النادرة.. بعد أن كانت تسخر للغزو أو للثأر، وجهها الإسلام لإحقاق الحقوق، وردّ المظالم ونشر العدل في كل مكان. وصار المسلم يقاتل في سبيل إعلاء كلمة الله، ومن أجل إنقاذ المستضعفين في الأرض. قال تعالى: [وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةً ويكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ] [البقرة: 193]، أصبحت غاية الجهاد في الإسلام، مرضاة الله تعالى، وجنة عرضها السماوات والأرض: [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ] [التوبة: 111]))¹.

و"لقد تخرج على منهج هذا الدين قادة عظام خاضوا معارك فاصلة في تاريخ العالم، فخالد بن الوليد بطل اليرموك، وسعد بطل القادسية، وأبو عبيدة قائد فتوح الشام.. أخضعوا الدول الكبرى من أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله خفاقة، ونشر العدل والمساواة في رحاب الإسلام"².

رابعا: كانت هذه الشجاعة بقصد التبخر والرياء والسمعة! «فالشاعر الحجازي لا يكفيه أن يعلم الناس أنه شجاع وأنه كريم ومرح، ولكنه يريد أن ينتزع الاعتراف بذلك من زوجته؛ لأنها هي المرجع والحكم في كل ذلك. ومهما استفاضت شجاعته، وطابت سمعته عند مجتمعه، فإن الكلمة الأخيرة في ذلك تبقى لزوجته التي يغار عليها أن تفضل عليه أحدا. والحجازي يفخر بأنه شجاع وبأن زوجته تعلم أنه شجاع في حالتي الكر والفر ويتجتم المتاعب في سبيل أمانيه، وأنه كريم للضيوف، ويضحى بناقته في سبيل إكرام ندمائه، ويضحى بردائه ليعلم عن سروره»³.

فإذن كانت الشجاعة والكرم وغيرها في الجاهلية هي بقصد المفاخرة والرياء أمام الزوجة والقبيلة، طبعاً هذا من الرياء المذموم في الإسلام، بدليل حديث مسلم أن أول ما تسعّر النار بثلاثة، أحدهم قاتل ليقال عنه شجاع، وآخر أنفق ليقال عنه جواد⁴! لذا لم تكن "الشجاعة في الإسلام للتبختر والخيلاء،

1 مقال في «مجلة البيان» (25 / 28 ت.ش) بعنوان "أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام" للكاتب مُجَّد الناصر.

2 "أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام" للكاتب مُجَّد الناصر.

3 «قصة الأدب في الحجاز» (ص463)، عبد الله عبد الجبار - مُجَّد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية.

4 ولفظ الحديث: " إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد. فأتي به فعرفه نعمه فعرّفها. قال: فما عملت فيها؟ قال:

قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال جريء. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في

والاعتداد بالقوة والرياء، وإنما جعلت لإظهار حق في هذه الحياة.. أو طمس باطل أمر الله بطمسه، ودفنه وإخفائه"¹.

خامسا: إن الشجاعة كانت في الجاهلية **ممزوجة بكثير من الظلم والعدوان**، بخلاف الشجاعة في الإسلام فإنها ((شجاعة مقيدة بأوامر الشرع، فلا شطط ولا ظلم ولا عدوان، إنما عزيمة صادقة لإحقاق الحق، وإرادة نافذة لضبط النفس عن شهواتها ونزواتها))²، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

سادسا: إن الشجاعة كانت في الجاهلية بدافع فطري هو الذود عن الأعراس، فمن «بواعث الشجاعة عند العرب في قتالهم أن يحموا نساءهم من السبي والعار، فلو هربوا عنهنّ لكان معنى ذلك أن يستبيحن الأعداء؛ والشاعر والمرأة كلاهما ينفر من ذلك، وهي تحرضه ليستमित دفاعا عنها، مما يدل على خطرها ورفيع منزلتها عند مجتمعها.. فإن صاحب اللواء في الحرب ذو رتبة عليّة، قد ارتقت إليها ببسالة وإعجاب **عمرة بنت علقمة الحارثية**، لما أنقذت لواء قريش في غزوة أحد، وحوّلت النصر إلى جانبهم بعد أن سقط لواءهم، وفي ذلك يقول **حسان:**

فلولا لواء الحارثية أصبحوا... يباعون في الأسواق بيع الجلائب³

والنساء مشاركات حتى في الحروب؛ فهن يسرن مع الجيش يعالجن الجرحى ويحملن الماء، ويحرضن المقاتلين⁴.

النار.. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى في النار"، «صحيح مسلم» (3/ 1514 ت عبد الباقي).

1 انظر المعتقدات والقيم: 778

2 "أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام" للكاتب محمد الناصر.

3 سيرة ابن هشام 3/ 26.

4 «قصة الأدب في الحجاز» (ص463):

خاتمة الباب الأول

وهكذا ينتهي الباب الأول بحول الله حول مناقب العرب في الجاهلية، وقد تبين أن هذه المناقب من عقائد وشرائع وأخلاق إما أنه لم يثبت أنها مناقب أصلاً، أو كان يتصف بها قلة من العرب وهم الحنفاء ومنهم النبي ﷺ، أو اتصف بها كثيرون ولكن مزجت بكثير من المثالب كالشجاعة التي مزجت بالظلم والجور والتفاخر والتعصب القبلي، وأن هذه المناقب كانت مما بقي من شرائع الأنبياء السابقين، ومن طبّقها من أهل الجاهلية لم يكن بنية التطبيق لتلك الشرائع النبوية وتدينا ليوم الآخرة، لأنهم لا يؤمنون بالأنبياء ولا بالآخرة كما سنرى في الباب الثاني الذي نتقل إليه. وبالله التوفيق

الباب الثاني: مثالب المشركين في الجاهلية

يأتي هذا الباب الثاني في فصلين:

الفصل الأول: بيان الحال التي كان عليها المشركون في الجاهلية، وفيها تفصيل لموبقاتهم وجهالاتهم وقبائحهم.

الفصل الثاني: بيان الحال التي آل إليها المشركون بعد البعثة، وفيها تفصيل لحصول الإيمان التي كفروا بها بعد بعثة النبي ﷺ ودعوته إياهم إلى الإسلام.

الفصل الأول: بيان حال الجاهلية التي كان عليها المشركون وتفصيل موبقاتهم وقبائحهم

تمهيد

لا تكاد تخلو صحيفة في القرآن الكريم من ذكر موبقات المشركين، ومن تفصيل قبائحهم وجرائمهم الكثيرة، وهي تتراوح بين الكفر والفسق، هذا كله سوى عبادتهم للأصنام وما يتعلق بها! ونكتفي هنا بسرد خمسة مواضع من كتاب الله تبيّن ذلك:

الموضع الأول: قوله تعالى: { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصَلِينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ } [المدثر: 42 - 46]، ومعنى: وكنا نحوض.. أي: "كلما غوى غاوي غوبينا معه" ¹ قاله قتادة¹، وقال الطبري: وكنا نحوض في الباطل وفيما يكرهه الله مع من يخوض فيه"². فدلّت هذه الآيات على "أن من الأسباب التي سلكتهم في سقر - أي أدخلتهم النار - عدم الصلاة، وعدم إطعام المسكين، وعَدَدَ ذلك مع الكفر بسبب التكذيب بيوم الدين"³، فقد وصف الكافر: "بترك الصلاة كما وصفه بترك التصديق ووصفه بالتكذيب"⁴.

الموضع الثاني: قوله تعالى { فَأَقْبَلِ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لِتَزِدَّيْنِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ } [الصفوات: 50، 59]

1 جامع البيان ط هجر (11 / 131)، تفسير الماوردي المسمى النكت والعيون (2 / 312)

2 جامع البيان ط هجر (11 / 131)، تفسير الماوردي المسمى النكت والعيون (2 / 312)

3 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (7 / 123)، ونحوه في تيسير العزيز الحميد (ص: 264).

4 مجموع الفتاوى (7 / 612)

فتأمل آيات الصفات والمدثر هذه التي ذكرت مصير هؤلاء في النار، ما سبب دخولهم فيها؟ هل ترى فيها ذكراً قط لعبادة غير الله أو لقضية توحيد الألوهية التي زعم السلفية أنها هي فقط معركة الرسل مع أقوامهم، وأنها محل الخلاف الوحيد بينهم؟! لقد تضمنت آيات المدثر أربعاً من موبقات المشركين وهي: تركهم للصلاة، وعدم إطعامهم المسكين، خوضهم مع الخائضين، وتكذيبهم بيوم الدين، وآيات الصفات تضمنت تكذيبهم بيوم الدين أيضاً.

الموضع الثالث: { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30) وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال: 30 - 32]. فذكر في هذه الآيات عدة جرائم للمشركين، وهي ما يلي:

(1) قوله تعالى: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ": فهذا ذكر أن المشركين مكروا بالنبي ليثبته، أي يحبسوه ويقيده، وقيل ليسحروه وقيل غير ذلك¹، أو ليقتلوه، أو ليخرجوه من مكة، فهذه ثلاث جرائم.

(2) قوله تعالى: "لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"، فهذا ثمة جريمتان للمشركين، الأولى تقليلهم من شأن القرآن وزعمهم القدرة على محاكاته، والثانية قولهم بأن القرآن مجرد أساطير.

(3) قوله تعالى: "اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ"، وقولهم هذا فيه استهزاء بالله وبالذعاء، واستعجالهم بالعذاب، واستخفافهم بعذاب الله فضلاً عن أن فيه تكديبا للقرآن وللنبي، فهذه خمس جرائم على الأقل.

1 جامع البيان ط هجر (11/ 131)، تفسير الماوردي المسمى النكت والعيون (2/ 312)

وهكذا نرى أن آيات الأنفال هذه احتوت على حوالي عشر موبقات للمشركين أو أكثر وجلها إن لم يكن كلها: كفر، وليس في شيء منها قضية التشفع بالأصنام ولا ما يتعلق بها من قريب أو بعيد...!!

الموضع الرابع: قوله تعالى: { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [النحل : 57 - 60]، فهنا موبقتان شنيعتان اقترفهما المشركون، وكلاهما كفر! الأولى: أنهم جعلوا له تعالى البنات أو الأنتى التي يسود وجه أحدهم إذا بُشِّرَ بها. ثانيا: كذبوا باليوم الآخر.

الموضع الخامس: قال تعالى: { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ } [المؤمنون: 33]، "فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشرا مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري وكذبوا بلقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجثمي"¹.

فهذه موبقات كثيرة للمشركين سردناها بشكل مجمل من خمسة مواضع من القرآن فقط، كثير منها كفر، وكلها لا علاقة لها بالأصنام لا من قريب ولا من بعيد، فما بالك لو استقرأنا القرآن كله؟! فكيف يقال بعد هذا إن المشركين ما كفروا إلا بسبب تشفعهم بالأصنام؟!

وبعد هذا التمهيد نشرع . بحول الله . ببيان مطلب حال الجاهلية التي كان عليها المشركون وتفصيل موبقاتهم وقبائحهم حتى في مناقبهم، وسيكون هذا الفصل في مباحث:

المبحث الأول: حال الجاهلية من خلال نصوص الكتاب والسنة وكلام العلماء.

المبحث الثاني: تفصيل لموبقات أهل الجاهلية وقبائحهم.

المبحث الثالث: قبائح الجاهلية في مناقبهم المزعومة.

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (10 / 122)

المبحث الأول: حال الجاهلية من خلال نصوص الكتاب والسنة وكلام العلماء

كانت الجاهلية مرحلة ظلامية فظيعة جاء ذمها جملة وتفصيلا في الكتاب والسنة وأقوال العلماء سلفا وخلفا، وإليكم بسط ذلك في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ذم الجاهلية في القرآن

الآية الأولى: { أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [المائدة: 50]، فليس "وراء ما أنزله إلا اتباع الهوى الذي يضل عن سبيله وليس وراء حكمه إلا حكم الجاهلية"¹. "من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم"². ومن هنا نفهم أن الله ينكر في هذه الآية على اليهود وكأنه يقول "أييغي هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك فلم يرضوا بحكمك وقد حكمت فيهم بالقسط: حكم الجاهلية، يعني أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك"³.

الآية الثانية: { وَقَرَنَ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى } [الأحزاب: 33]، قال قتادة: "كانت لهن مشية وتكسر وتغنج، يعني بذلك الجاهلية الأولى فنهاهن الله عن ذلك"⁴. وإن في الآية "ذما للتبرج وذما لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابھتهم في الجملة..⁵ فالآية تفيد النهي "عن التشبه بأهل الجاهلية.. وأن ما عليه أهل الجاهلية مذموم إلا ما وافق الشرع"⁶.

الآية الثالثة: { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران: 154] أي "يظنون بالله الظنون الكاذبة، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكاً في أمر الله، وتكذيباً لنبيه ﷺ، ومحسبة منهم أن الله

¹ الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة (ص: 696)

² تفسير القرآن العظيم لابن كثير (5/ 251). وهذا النص نقله عن ابن كثير كثير من السلفية² منهم الحفيد في تيسير العزيز الحميد الذي تساءل فيه عن السبب الذي أوجب سفك دماء أهل الجاهلية، انظر: تيسير العزيز الحميد (ص: 802) مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 258)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة (1/ 134)، شرح كتاب التوحيد للحازمي (81/ 24، ت.ش).

³ جامع البيان ط هجر (8/ 503)

⁴ جامع البيان ط هجر (19/ 97)

⁵ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 235)

⁶ زوائد مسائل الجاهلية (ص: 9)

خاذل نبيه، ومُعَلِّ عليه أهل الكفر به"1. "فهؤلاء كانوا في ظنهم ظن الجاهلية ظنا ينافي اليقين بالقدر، وظنا ينافي بأن الله ينصر رسوله، فكان عقابهم على ترك اليقين ووجود الشك وظن الجاهلية ومثل هذا كثير"2. وأيضاً قد "فَسَّرَ بظَنِّهِمْ أَنْ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَلَا حِكْمَةً لَهُ فِيهِ، فَفَسَّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدْرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ وَيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوِّءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ بِهِ سبحانه وتعالى في سورة الفتح حيث يقول: {وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّءِ..} [الفتح: 6]، وإنما كان هذا ظنَّ السَّوِّءِ، وظنَّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنَّ غير الحق، لأنه ظنَّ غير ما يليق بأسمائه الحسنی، وصفاته العلیا، وذاته المبرأة من كلِّ عيبٍ وسوءٍ، بخلافٍ ما يليقُ بحكمته وحمده، وتفردِهِ بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يُخْلَفُهُ، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصُرُهُمْ ولا يخذُلُهُمْ، ولجندِهِ بأنهم هُمُ الغالبون"3، قال الحفيد بعد أن نقل هذا الكلام عن ابن القيم: "وهو أحسن ما قيل فيها"4.

الآية الرابعة: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} [الفتح: 26]، "لأن الذي فعلوا من ذلك كان جميعه من أخلاق أهل الكفر، ولم يكن شيء منه مما أذن الله لهم به، ولا أحد من رسله"5. "فحمية الجاهلية مذمومة"6، وجاء من "إضافة الحمية إلى الجاهلية..فما كان من أخلاقهم وأفعالهم، فهو كذلك"7. و"لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه سكينه تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ المؤمنین السكينه في قلوبهم وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية

1 جامع البيان ط هجر (165 /6)

2 مجموع الفتاوى (112 /14)

3 زاد المعاد في هدي خير العباد (228 /3)

4 تيسير العزيز الحميد (ص: 1188) وانظر شرح كتاب التوحيد للحازمي (91 /12، ت.ش)

5 جامع البيان ط هجر (309 /21)

6 شرح مسائل الجاهلية للفوزان (ص: 13)

7 اقتضاء الصراط المستقيم (1 /236)

الجاهلية في قلوبهم وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم، فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جندا من جند الله أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان"¹. "وكانت حميتهم أنهم لم يقرّوا أنه نبي الله، ولم يُقرّوا بيسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت"². و"الأجلها صدّوا رسوله وعبادته عن بيته، ولم يُقرّوا بيسم الله الرحمن الرحيم، ولم يُقرّوا لحمد بأنه رسول الله مع تحقّقهم صدقه، وتيقّنهم صحة رسالته .."³. وهذه الحمية دفعت المشركين لسب الله حين تُسبّ أصنامهم "فالحمية الجاهلية تحملهم على ذلك"⁴.

المطلب الثاني: ذم الجاهلية في السنة

يقول ابن تيمية: ذم في الحديث من دعا بدعوى الجاهلية، وأخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذما لمن لم يتركه، وهذا كله يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلمهم، فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم.. ومنه قوله لأبي ذر رضي الله عنه لما عير رجلا بأمه: «إنك امرؤ فيك جاهلية». فإنه ذمّ لذلك الخلق ولأخلاق الجاهلية التي لم يجرى بها الإسلام. ومن هذا ما رواه البخاري في صحيحه، عن عبيد الله بن أبي يزيد أنه سمع ابن عباس قال: ثلاث خلال من خلال الجاهلية الطعن في الأنساب والنياحة..⁵ اهـ وقد نقل هذا النص بتمامه الحفيدان⁶، ونقله غيره من السلفية⁷.

والأحاديث التي تذمّ الجاهلية كثيرة جدا، وسأقتصر على ما ورد منها في صحيح البخاري ومسلم أو في أحدهما، ويمكن تقسيم تلك الأحاديث إلى أقسام:

1 إعلام الموقعين عن رب العالمين (5/ 109)

2 صحيح البخاري بتحقيق البغا (2/ 974)

3 زاد المعاد في هدي خير العباد (3/ 314)

4 جهود علماء الحنفية (1/ 262)

5 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 235)

6 تيسير العزيز الحميد (ص: 976)، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: 322)

7 شرح كتاب التوحيد للحازمي (68/ 20، ت.ش)

القسم الأول: أحاديث تدمّ الجاهلية بالجملة.

القسم الثاني: أحاديث تدمّ الجاهلية بالتفصيل.

القسم الثالث: أحاديث فيها توجّس الصحابة ﷺ من كل ما كان في الجاهلية.

وفيما يلي بسط هذه الأقسام الثلاثة بعون الله وذلك في ثلاثة مراصد.

المرصد الأول: أحاديث تدمّ الجاهلية بالجملة، ومنها ما يلي:

(1) روى الشيخان من حديث جابر في قصة الرجل الذي كسع¹ "أنصاريا فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا وقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فخرج النبي ﷺ فقال ما بال دعوى أهل الجاهلية .. دعوها فإنها خبيثة". "يعني: لا تداعوا بالقبائل بل تداعوا بدعوة واحدة بالإسلام.. وتسميتها: دعوى الجاهلية، لأنها كانت من شعارهم وكانت تأخذ حقها بالعصية، فجاء الإسلام بإبطال ذلك، وفصل القضاء بالأحكام الشرعية إذا تعدى إنسان على آخر حكم الحاكم بينهما وألزم كلا ما لزمه"².

(2) وفي حديث الشيخين: "قال رجل يا رسول الله: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر". اهـ قال الخطابي: وإنما يؤخذ بما جنّاه في الإسلام من المعصية، ويُعيّر بما كان منه في الكفر ويُبيكّ به، كأنه³ يقال له: أليس قد فعلت كيت وكيت وأنت كافر؟ فهلّا منعتك إسلامك من معاودة مثله إذ أسلمت؟ ثم يُعاقب على قدر ما يستحقّه من المعصية التي اكتسبها في الإسلام ولا يجوز

1 من الكسع وهو ضرب دبر غيره بيده أو رجله وقيل هو ضرب العجز بالقدم . كذا قال أستاذنا د. البغا في تحقيقه لصحيح البخاري (3/ 1296)

2 عمدة القاري (16/ 122)

3 كذا في أعلام الحديث للخطابي "كأنه"، وكذا وقع في «عمدة القاري» للعيني (24/ 76)، ولعل الأصوب "كأن" كما وقع في

«الكواكب الدراري» للكرماني (24/ 43)

أن يُعاقب عُقوبة الكفار؛ لأن المسلم لا يُخَلد في النار والكافر مُخَلد فيها أبداً.¹ اهـ وقال ابن الدماميني "ولم يزل مرتكب المعاصي، يعاقبه الله بما فعله في الإسلام، وُيَبِّكْتُهُ بِمَا فَعَلَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فيقال له: كنتَ تفعلُ في الجاهلية كذا، ولم يمنعك الإسلامُ من ذلك الفعل، وأمّا أن يُعاقبَ بما كان يفعلُه في الكفر فلا"².

(3) روى البخاري حديث "ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب، ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم وقالوا: نحن الذين آمننا بالله واتبعنا رسوله، فنحن هم أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام، فإننا ولدنا في الجاهلية، فبلغ النبي ﷺ فخرج فقال: هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتون..³ قوله: " (لا يسترقون) الجمع بين هذا وبين.. أمره بالاسترقاء.. أن المأمور به ما كان بقوارع القرآن ونحوه، والمذموم ما كان يرقى به العزامون وأهل الجاهلية.. (ولا يتطيرون) أي: يتشاءمون بالطيور ونحوها كفعل الجاهلية.. (ولا يكتون) أي: معتقدين كالجاهلية أن الشفاء فيه"⁴.

(4) قال البخاري: باب المعاصي من أمر الجاهلية.. ثم روى بسنده عن أبي ذر قال: "إني ساءت رجلاً فغيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: (يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية. إخوانكم خولكم..) قال ابن بطال: إنك امرؤ فيك جاهلية، يريد إنك في تعبيره بأمه على خلق من أخلاق الجاهلية، لأنهم كانوا يتفاخرون بالأنساب، فجهلت وعصيت الله في ذلك، ولم تستحق بهذا أن تكون كأهل الجاهلية في كفرهم بالله تعالى⁵. اهـ

1 أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (4/ 2312)

2 مصابيح الجامع لابن الدماميني (10/ 28)، ونحوه في عمدة القاري (24/ 116)

3 صحيح البخاري بتحقيق البغا (5/ 2157)

4 اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح للبرماوي (14/ 307)

5 شرح صحيح البخاري لابن بطال (1/ 85)

وقال ابن تيمية: ففي هذا الحديث أن كل ما كان من الجاهلية فهو مذموم؛ لأن قوله "فيك جاهلية" ذمٌ لتلك الخصلة، فلولا أن هذا الوصف يقتضي ذمٌ ما اشتمل عليه لما حصل به المقصود.¹ اهـ ولذلك عدّ ابن عبد الوهاب . مستدلاً بحديث أبي ذر هذا . من مسائل الجاهلية: "تعيير الرجل بما في غيره"². "فتعيير الشخص بشيء ليس فيه، وإنما هو في غيره، أو بدناءة نسبه، هو من أمور الجاهلية"³. فقد "كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك كثيراً، وتارة يُعَيَّرُونَ الرجل بحقارة نسبه والاستخفاف به، وتارةً بالطعن في حسبه، وتارةً بالطعن في مهنة آبائه وأجداده"⁴.

(5) وفي حديث مسلم "فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شرّ من أهل الجاهلية..⁵ ومعنى "هم شر": أي هم أشر وأقبح حالاً وكفراً"⁶.

(6) وفي حديث مسلم عن حذيفة "فقلت: يا رسول الله، إننا كنا في جاهلية وشر ف جاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: نعم..⁷ وقوله "إننا كنا في جاهلية وشر" يشير إلى ما كان قبل الإسلام، من الكفر، وقتل بعضهم بعضاً، ونهب بعضهم بعضاً، وإتيان الفواحش، والتقاتل والتناحر، والبغضاء"⁸. ففي الحديث "بيان أن ما عليه الكفار هو شر وقبيح وسيئ قبل الرسل"⁹.

1 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 236)

2 مسائل الجاهلية (ص: 22)

3 شرح مسائل الجاهلية للفوزان (ص: 253)، وانظر أيضا فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: 323)

4 شرح مسائل الجاهلية للحازمي (1/ 14، ت.ش)

5 مختصر صحيح مسلم للمنذري ت الألباني (2/ 290)

6 الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (20/ 289)

7 مختصر صحيح مسلم للمنذري ت الألباني (2/ 333)

8 فتح المنعم شرح صحيح مسلم (7/ 473)

9 مجموع الفتاوى (11/ 677)

(7) وفي حديث مسلم: "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية"¹. أي "على هيئة ما مات عليه أهل الجاهلية، من كونهم فوضى لا يدينون لإمام"². حيث إن "أهل الجاهلية من العرب ونحوهم لم يكونوا يطيعون أميراً عاماً على ما هو معروف من سيرتهم. ثم ذكر الذي يقاتل تعصبا لقومه، أو أهل بلده ونحو ذلك وسمى الراية عمية لأنه الأمر الأعمى الذي لا يدرى وجهه فكذلك قتال العصبية"³.

(8) وروى مسلم "ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة.. وربا الجاهلية موضوعة"⁴. وفيه "إبطال أفعال الجاهلية وبيعها التي لم يتصل بها قبض وأنه لا قصاص في قتلها"⁵. ويشمل أيضا "الأمر التي أحدثوها، والشرائع التي كانوا أشرعوها في الحج وغيره"⁶. ويدخل فيه أيضا "ما كانوا عليه من العادات والعبادات، مثل دعواهم: يا لفلان ويا لفلان، ومثل أعيادهم، وغير ذلك من أمورهم. ثم خصّ -بعد ذلك- الدماء والأموال التي كانت تستباح باعتقادات جاهلية.. ولا يدخل في هذا اللفظ: ما كانوا عليه في الجاهلية، وأقرّه الله في الإسلام"⁷.

1 مختصر صحيح مسلم للمنذري ت الألباني (2/ 334)

2 إكمال المعلم بفوائد مسلم (6/ 258)

3 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 249)

4 مختصر صحيح مسلم للمنذري ت الألباني (1/ 188)

5 شرح النووي على مسلم (8/ 182)

6 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (3/ 333)

7 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 342)

المُرصد الثاني: أحاديث تدم الجاهلية بالتفصيل أي تدم خصاها الكثيرة وتحددها.

- (1) روى الشيخان "ليس منّا من لطم الحدود وشنق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية"¹. أي "قال في البكاء مما يقوله أهل الجاهلية مما لا يجوز في الشريعة، كقولهم: واجبلاه واعضداه، ونحو ذلك"².
- (2) وروى الشيخان من حديث ابن عباس، وفيه: "ثم قال عمر والله إن كنا في الجاهلية ما نَعُدُّ للنساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهنّ ما قسم". وفي لفظ للبخاري: "وكنا معشر قريش نغلب النساء"³. "أي نحكم عليهن ولا يحكمن علينا، بخلاف الأنصار فكانوا بالعكس من ذلك، وفي رواية يزيد بن رومان: كنا ونحن بمكة لا يكلم أحد امرأته إلا إذا كانت له حاجة قضى منها حاجته.. وفي رواية: ولا ندخلهن في أمورنا"⁴. اهـ وقيل أي "ما نعتبر للنساء أمرا أو نهيًا، ولا نعتدّ لهنّ برأي. (حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل) من حقوق ورفع شأن، واعتداد بالرأي. (وقسم لهن ما قسم) من حقوق مالية، وحقوق تعليمية وحقوق أدبية"⁵.
- (3) روى البخاري أن عائشة قالت بأن "النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء.. " وقد سبق بيانه مطولا⁶.
- (4) روى الشيخان عن زينب أنها سمعت أم سلمة، وفيه مرفوعا، أن العدة "إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكنّ في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول.. ثم قالت زينب: "كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حِفْشا⁷ ولبست شرّ ثيابها ولم تمسّ طيبا حتى تمرّ"

1 صحيح البخاري بتحقيق البغا (1/ 435)، صحيح مسلم (1/ 99)

2 عمدة القاري (8/ 127)

3 صحيح البخاري بتحقيق البغا (4/ 1866)، صحيح مسلم (2/ 1109)

4 فتح الباري لابن حجر (9/ 281)

⁵ فتح المنعم شرح صحيح مسلم (6/ 97)

6 انظر: ص 166 ، وانظر أيضا: ص: 260

7 «(حِفْشا) بيتا ذليلا ضيقا، وربما بني من حوص النخل الذي تصنع منه القفف». انظر: حاشية «صحيح البخاري» (5/ 2042 بتحقيق أستاذنا د. البغا).

بها سنة، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طائر فتفتض به، فقلما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطى بعة فترمي، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره¹. اهـ

ويذكر هنا الشراح ما كانت تلاقيه المعتدة في الجاهلية حيث " كانت لا تغتسل ولا تمسّ ماء ولا تقلم ظفرا سنة"²، كما يذكرون تفسيرات عديدة لرمي البعة هنا، منها قول الكرماني: "والغرض من هذا الكلام أنكن لا تستكثرن العدة الإسلامية ومنع الاكتحال فيها فإنها مدة قليلة بالنسبة إلى ما كانت عليه في الجاهلية"³. اهـ ومنها أنه "إشارة إلى أن الفعل الذي فعلته من التربص، والصبر على البلاء الذي كانت فيه لما انقضى كان عندها بمنزلة البعة التي رمتها استحقاقا له وتعظيما لحق زوجها"⁴. اهـ

(5) روى البخاري عن عبد الله قال إن أهل الإسلام لا يسيّون، وإن أهل الجاهلية كانوا يسيّون. اهـ قال الخطابي: معناه إبطال حكم السائبة في الولاء والميراث، وهو أن يعتق الرجل مملوكه سائبة، فلا يكون له عليه ولاء، ولا يكون له منه ميراث على عادة أهل الجاهلية في ذلك⁵. اهـ

(6) وروى البخاري حديث "أبغض الناس إلى الله ثلاثة؛ ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية..". الحديث. "فكل من أراد في الإسلام أن يعمل بشيء من سنن الجاهلية دخل في هذا الحديث. والسنة الجاهلية كل عادة كانوا عليها.. فمن عمل بشيء من سننهم فقد اتبع سنة جاهلية، وهذا نصّ عام يوجب تحريم متابعة كل شيء من سنن الجاهلية في أعيادهم وغير

1 صحيح البخاري (5/ 2042)، صحيح مسلم (2/ 1124)

2 كما نقل ذلك ابن قتيبة عن الحجازيين انظر: الكواكب الدراري (19/ 240)، عمدة القاري (21/ 6)

3 الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (19/ 240)، وانظر أيضا: عمدة القاري (21/ 4)

4 فتح الباري (9/ 490)

5 أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (4/ 2290) وانظر أيضا: مصابيح الجامع (9/ 508)، عمدة القاري (23/ 393)

أعيادهم¹. "وسنة الجاهلية اسم جنس يعمّ جميع ما كان أهل الجاهلية يعتمدونه من أخذ الجار بجاره والحليف بجليفه، ونحو ذلك، ويلتحق بذلك ما كانوا يعتقدونه، والمراد منه ما جاء الإسلام بتركه، كالطيرة والكهانة وغير ذلك"².

(7) وروى البخاري "دخل أبو بكر على امرأة من أمّس يقال لها زينب فرآها لا تكلم، فقال: ما لها لا تكلم؟ قالوا: حجت مصمتة. قال لها: تكلمي، فإن هذا لا يحلّ هذا من عمل الجاهلية.. قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم. قال العيني: (فإن هذا) أي: ترك الكلام (لا يحل).. (هذا) أي: الصمت من عمل الجاهلية.. ثم ينقل عن ابن قدامة أنه: "ليس من شريعة الإسلام صمت الكلام، وظاهر الأخبار تحريمه"³. اهـ ويقول ابن تيمية: وأما الصمت عن الكلام مطلقاً في الصوم، أو الاعتكاف، أو غيرهما، فبدعة مكروهة، باتفاق أهل العلم. اهـ ثم يسوق حديث أبي بكر⁴. و"الأمر الصالح" أي "الإسلام ووقت البقاء بالاستقامة إذ باستقامتهم تقام الحدود وتؤخذ الحقوق، ويوضع كل شيء في موضعه"⁵. وقيل بأنه "دين الإسلام وما اشتمل عليه من العدل واجتماع الكلمة ونصر المظلوم"⁶. وهذا كله يعني أن الجاهلية كانت تماماً على خلاف هذا الذي جاء به الإسلام.

(8) وروى البخاري أن القاسم كان يمشي بين يدي الجنابة ولا يقوم لها، ويخبر عن عائشة قالت: "كان أهل الجاهلية يقومون لها يقولون إذا رأوها: كنت في أهلك، ما أنتِ مرتين". ومعنى قولهم

1 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 254)

2 فتح الباري (12/ 211)، وانظر إرشاد الساري (10/ 53)

3 عمدة القاري شرح صحيح البخاري (16/ 399)

4 الفتاوى الكبرى (2/ 479)

5 الكواكب الدراري للكرماني (15/ 67)

6 التوشيح شرح الجامع الصحيح للسيوطي (6/ 2411)

هذا "أي: الذي أنت فيه كنت في الحياة مثله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وذلك فيما كانوا يدعون من أن روح الإنسان تصير طائرا مثله، وهو المشهور عندهم بالصدى والهام"¹.
ويحتمل أن المعنى "كنت مرة في القوم ولست بكائن فيهم مرة أخرى، كما هو معتقد الكفار،
حيث قالوا: {ما هي إلا حياتنا الدنيا}"².

(9) وفي حديث مسلم "قلت يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالا يأتون الكهان، قال: فلا تأثم"³، وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان لأبي بكر غلام.. وفيه أن الغلام قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك⁴.. اهـ وروى البخاري بينما عمر جالس إذ مرّ به رجل جميل فقال: لقد أخطأ ظني، أو إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم.. إلى أن يقول له عمر: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني. قال: كنت كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك⁵. اهـ وقد سبق هذان الحديثان حين تكلمنا عن الكهانة في الجاهلية.
و"الكاهن الذي يتعاطى الخبر من الأمور المغيبة وكانوا في الجاهلية كثيرا"⁶.

(10) روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان أهل الجاهلية يتبايعون لحوم الجوزور إلى جبل الحبله.. فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك. قال ابن تيمية: وكل ما نهي عنه النبي صلى الله عليه وسلم من بيع المعدومات: مثل نهي عن بيع الملائيح والمضامين وجبل الحبله، وهو بيع ما في أصلاب الفحول وأرحام الإناث ونتاج النتاج، ونهي عن بيع السنين.. وهذا هو الذي كان أهل الجاهلية

1 عمدة القاري (16 / 402)

2 عمدة القاري (16 / 402)

3 صحيح مسلم (1 / 381)

4 صحيح البخاري بتحقيق البغا (3 / 1395)

5 صحيح البخاري بتحقيق البغا (3 / 1403)

6 فتح الباري (7 / 179)

يفعلونه.. وهذه البيوع التي نهى عنها النبي ﷺ هي من باب القمار الذي هو ميسر، وذلك أكل مال بالباطل¹. اهـ

(11) وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خلأٌ من خلال الجاهلية الطعن في الأنساب والنياحة، ونسي الثالثة، قال سفيان: ويقولون إنها الاستسقاء بالأنواء². وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً "اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت". "فيه أقوال أصحها أنّ معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية"³. وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً "أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونهن؛ الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة"⁴. اهـ و"فيه دليل على تحريم المسائل الأربع المذكورة.. وأن هذه الأمور من كبائر الذنوب"⁵. اهـ وذكر الفوزان أن الفخر بالأحساب "من دين الجاهلية؛ لأنهم كانوا يجتمعون في منى، وبدل أن يذكروا الله عز وجل يذكرون مفاخر آبائهم.. والاستسقاء بالنجوم: اعتقاد أن المطر ينزل من تأثير طلوع النجم أو غروبه، وهذا من دين الجاهلية". وأما الطعن في الأنساب فهو "إدخالهم العيب في أنساب الناس تحقيراً لآبائهم، وتفضيلاً لآباء أنفسهم على آباء غيرهم"⁶. وقال الحازمي بأن هذا الحديث يدل على "أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام"⁷.

1 مجموع الفتاوى (237 /30)

2 صحيح البخاري بتحقيق البغا (3 /1398)

3 شرح النووي على مسلم (2 /57)

4 مختصر صحيح مسلم للمنذري ت الألباني (1 /126)

5 إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (2 /38)

6 فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية لشكري الألوسي ت علي مخلوف (ص: 141)

7 شرح كتاب التوحيد للحازمي (68 /28، ت.ش)

(12) وفي حديث الشيخين: فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي؟ فقال: "أبوك حذافة". قال بعض الشراح "سبب سؤاله أن بعض الناس كان يطعن في نسبه على عادة الجاهلية في الطعن في الأنساب"¹ وقال القرطبي: وسبب هذا ما كانت أنكحة الجاهلية عليه؛ فإنها كانت على ضروب..منها: أن المرأة يطؤها جماعة؛ فإذا حملت، فولدت دُعي لها كل من أصابها، فتلحق الولد بمن شاءت، فيلحق به. فرما يكون الولد من خسيس القدر، فتلحقه بكبير القدر، فإذا نفي عمّن له مقدار، وألحق بمن لا مقدار له لحقه من ذلك نقص وعار. فكانوا يسألون رسول الله ﷺ عن تحقيق ذلك لينسب لأبيه الحقيقي الذي ولد من نطفته، وتزول عنه تلك المعرفة². اهـ

(13) روى البخاري حديثا وفيه "وكان من تبني رجلا في الجاهلية دعاه الناس إليه، وورث من ميراثه حتى أنزل الله تعالى { ادعوهم لآبائهم }..³

(14) وروى البخاري عن جرير قال: "كان بيت في الجاهلية يقال له ذو الخلصة والكعبة اليمانية والكعبة الشامية فقال لي النبي ﷺ ألا تريخي من ذي الخلصة.. " وهذا الكعبة "لختعم فكانوا قد بنوا بيتا يضاهاون به الكعبة..سموها بذلك مضاهاة للكعبة، والكعبة البيت الحرام بالنسبة لمن يكون جهة اليمن شامية فسموا التي بمكة شامية والتي عندهم يمانية تفريقا بينهما و..كان يقال لها اليمانية باعتبار كونها باليمن والشامية باعتبار أنهم جعلوا بابها مقابل الشام⁴. اهـ هذا "وقد وقع ذكر ذي الخلصة في حديث أبي هريرة عند الشيخين.. "لا تقوم الساعة حتى تضرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة وكان صنما تعبد دوس في الجاهلية" والذي يظهر

1 اللامع الصحيح بشرح الجامع الصحيح (2/ 13)

2 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (6/ 162)

3 صحيح البخاري بتحقيق البغا (4/ 1469)

4 فتح الباري (8/ 71)

لي أنه غير المراد في حديث الباب.. لأن دوسا قبيلة أبي هريرة.. فبينهم وبين خثعم تباين في النسب والبلد"¹.

(15) روى مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي - رضي الله عنه - قال كنا نرقى في الجاهلية فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك. فقال: اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك². اهـ ويذكر الخطابي أن الرقى مشروعة، ولكن "الذي يكره من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون ذلك من قبل الجن ومعونتهم"³. اهـ وقد نقل هذا الحفيد ثم قال: ويدل على ذلك: "قول علي بن أبي طالب: إن كثيراً من هذه الرقى والتمايم شرك، فاجتنبوه"⁴. اهـ ويحمل ابن تيمية الحديث على أن "المشركين يقرؤون من العزائم والطلاسم والرقى ما فيه عبادة للجن وتعظيم لهم"⁵.

(16) روى مسلم من حديث بن عباس، وفيه "رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول وُلد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبّح حملة العرش⁶. قال الطيبي: ((ما

¹ فتح الباري (71 / 8)

² مختصر صحيح مسلم للمنذري ت الألباني (2 / 384)

³ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (1 / 462)،

⁴ تيسير العزيز الحميد (ص: 323)، وانظر أيضا فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: 126)، جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة ص486

⁵ مجموع الفتاوى (13 / 19)

⁶ مختصر صحيح مسلم للمنذري ت الألباني (2 / 393)

كنتم تقولون)) ليس للاستعلام؛ لأنه ﷺ كان عالماً بذلك؛ ولذلك قالوا: الله ورسوله أعلم، بل لأن يجيبوا عما كانوا يعتقدونه في الجاهلية، فيزيل عنهم ويقلعه عن سنخه¹.

1 شرح المشكاة للطبي الكاشف عن حقائق السنن (9 / 2995)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (7 / 2910)، ومعنى السنخ كما «تهديب اللغة» (7 / 84): «سنخ: قَالَ اللَّيْثُ: السِّنْخُ أَصْلُ كُلِّ شَيْءٍ... وَسِنْخُ الْكَلِمَةِ أَصْلُ بِنَائِهَا».

المُرصد الثالث: أحاديث فيها توجُّسُ الصحابة ﷺ من كل ما كان في الجاهلية حتى يعلموا أن الشارع استثناه وأذن به.

(1) روى البخاري أن القاسم كان يمشي بين يدي الجنازة ولا يقوم لها، ويخبر عن عائشة، قالت: كان أهل الجاهلية يقومون لها، يقولون إذا رأوها: كنت في أهلك ما أنتِ مرتين. قال العيني: كان أي أهل الجاهلية يقومون لها إذا رأوا الجنازة، والظاهر أن أمر الشارع بالقيام لها لم يبلغ عائشة، فَرَأَتْ أَنْ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، ولكن الشارع فعله، واختلف في نسخه، فقالت الشافعية ومالك: هو منسوخ بجلوسه، ﷺ، والمختار أنه باق، وبه قال ابن الماجشون..¹

(2) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم فنزلت { ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم } في مواسم الحج. اهـ وفي لفظ للبخاري أيضا: "فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت.."، وإنما تأثموا "لأنه كان من آثار الجاهلية"². فهم "خشوا من الوقوع في الإثم للاشتغال في إياها النسك بغير العبادة"³ كما يدل عليه حديث الحاكم، وفيه "فخافوا البيع وهم حُرْمٌ"، وحديث: "كانوا يمنعون البيع والتجارة في أيام الموسم يقولون: إنها أيام ذكر فنزلت"⁴.

(3) وفي حديث البخاري أن أنسا سئل "عن الصفا والمروة، فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى { إن الصفا والمروة من شعائر الله.. }"⁵، وفي لفظ لمسلم: كانت الأنصار يكرهون أن يطوفوا بين الصفا والمروة"⁶. وفي رواية الترمذي "إنما

1 عمدة القاري شرح صحيح البخاري (402 / 16)

2 الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (32 / 8)

3 فتح الباري لابن حجر (594 / 3)

4 فتح الباري لابن حجر (594 / 3)

5 صحيح البخاري بتحقيق البغا (1635 / 4)

6 صحيح مسلم (930 / 2)

كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية، وقال آخرون من الأنصار إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى { إن الصفا والمروة من شعائر الله } .. نزلت في هؤلاء وهؤلاء¹. ومعنى "(من أمر الجاهلية)؛ أي: كان فعل غير الأنصار، فالفريقان كانا في الإسلام يتحرجان، الفريق الأول للتشبيه بما كانوا يفعلونه في الجاهلية، والثاني - أي الأنصار - للتشبيه بالفريق الأول"²، "ويحتمل أن يكون الأنصار في الجاهلية كانوا فريقين منهم من كان يطوف بينهما على ما اقتضته رواية أبي معاوية، ومنهم من كان لا يقربهما على ما اقتضته رواية الزهري، واشترك الفريقان في الإسلام على التوقف عن الطواف بينهما لكونه كان عندهم جميعاً من أفعال الجاهلية"³. والحاصل "أن سبب نزول الآية على هذا الأسلوب كان للرد على الفريقين الذين تخرجوا أن يطوفوا بينهما لكونه عندهم من أفعال الجاهلية، والذين امتنعوا من الطواف بينهما لكونهما لم يُذكرا.. لأن قوله (وليطوفوا بالبيت العتيق) دلّ على الطواف بالبيت ولا ذكر للصفا والمروة فيه حتى نزل (إن الصفا والمروة من شعائر الله) بعد نزول وليطوفوا بالبيت"⁴.

ونحو ذلك في حديث عائشة عند مسلم وفيه: فتحرجوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة. وكان ذلك سنة في آبائهم، وفي لفظ آخر لمسلم "فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما. لذي كانوا يصنعون في الجاهلية"، قال الحافظ: فهذه الرواية تقتضي أن تحرجهم إنما كان لئلا يفعلوا في الإسلام شيئاً كانوا يفعلونه في الجاهلية لأن الإسلام أبطل أفعال الجاهلية إلا ما أذن فيه الشارع فخشوا أن

1 سنن الترمذي، ت شاكر (5/ 208)

2 اللامع الصبيح للبرماوي (11/ 515)، الكواكب الدراري للكرماني (17/ 19)

3 فتح الباري لابن حجر (3/ 501)

4 فتح الباري لابن حجر (3/ 501)

يكون ذلك من أمر الجاهلية الذي أبطله الشارع¹. "تحرزاً من موافقة نسكهم للعمل الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية"².

وحاصل ما سبق هو أن الأحاديث التي ذمت الجاهلية على ثلاثة أقسام وهي:

القسم الأول: أحاديث تدم الجاهلية بالجملة أو بشكل عام، وتضمن هذا القسم ثمانية أحاديث.

القسم الثاني: أحاديث تدم الجاهلية بالتفصيل أي تدم خصاها الكثيرة وتحدها، ويتضمن ستة عشر حديثاً.

القسم الثالث: أحاديث فيها توجسُ الصحابة رضي الله عنهم من كل ما كان في الجاهلية حتى يعلموا أن الشارع استثناه وأذن به، وتضمن ثلاثة أحاديث.

فيكون مجموع هذه الأحاديث التي تدم الجاهلية 28 حديثاً، وكلها في صحيح البخاري ومسلم أو في أحدهما، وننتقل الآن إلى الكلام عن الجاهلية في نظر العلماء من السلف والخلف بمن فيهم ابن تيمية وأتباعه.

1 فتح الباري لابن حجر (3/ 500)

2 الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (14/ 231)

المطلب الثالث: الجاهلية في نظر العلماء من السلف والخلف

بعد أن بسطنا الحال القائمة التي كان عليها أهل الجاهلية من خلال الكتاب والسنة، وبسطنا ذلك من خلال أقوال المفسرين والشراح، نأتي إلى بيان تلك الحالة المظلمة من خلال كلام السلف والخلف الذين وصفوا تلك الحال، وإليكم طائفة من النصوص في ذلك:

(1) قال سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو يبعوا¹. اهـ

(2) وقال المغيرة بن شعبه رضي الله عنه للفرس يوم القادسية: «..كنا قوما نعبد الحجاره والأوثان، فإذا رأينا حجرا أحسن من حجر ألقيناه وأخذنا غيره، ولا نعرف ربّا حتى بعث الله إلينا رسولا من أنفسنا»².

(3) وقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك³.

(4) وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: "إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء.. يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها.. ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن

1 انظر الصفحات (21 / 70 / 260) من هذا الكتاب.

2 المستدرک على الصحيحین للحاکم (3 / 510) وصصحہ علی شرط الشیخین ووافقه الذہبی، وقال محقق «سیر أعلام النبلاء - ط الرسالة» (16 / 363): «رجاله ثقات».

3 السیرة النبویة لابن ہشام (1 / 335)، قال الهیثمی فی «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (6 / 27): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحیح غیر إسحاق، وقد صرح بالسماع»، وحسنه محققو المسند، انظر: «مسند أحمد» (3 / 268 ط الرسالة).

أرادهن دخل عليهن.. فلما بعث النبي ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم¹.

(5) وقال ابن عباس رضي الله عنه: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام {قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها.. وما كانوا مهتدين}². اهـ وقال في بعض قبائل العرب: "كانوا يدفنون بناتهم أحياء في الجاهلية"³، وقال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زمانا من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجرا أحسن منه يعبد الآخر ويترك الأول⁴.

(6) وقال أبو رجاء العطاردي . وهو مخضرم⁵ : "كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به.."⁶.

(7) وقال قتادة: كان أهل الجاهلية يقتلون بناتهم مخافة السبي والفاقة، إلا ما كان من بني كنانة فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك⁷. وقال: {والمنخنقة} كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة، حتى إذا ماتت أكلوها⁸. وقال: {والمتردية} كانت تتردى في البئر فتموت فيأكلونها⁹ وقال: {والموقودة} كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصا، حتى إذا ماتت أكلوها¹⁰.

¹ «صحيح البخاري» (7/ 15 ط السلطانية)

² صحيح البخاري بتحقيق د. البغا (3/ 1297)، «صحيح البخاري» (4/ 184 ط السلطانية)

³ عمدة القاري (16/ 128)

⁴ تفسير ابن أبي حاتم (8/ 2699) السنن الكبرى للنسائي (10/ 254)، المستدرک - الهندية (2/ 454)

⁵ تقريب التهذيب - ت، عوامة (ص: 430)

⁶ صحيح البخاري بتحقيق البغا (4/ 1591).

⁷ عمدة القاري (16/ 128)، «تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (2/ 185)

⁸ جامع البيان ط هجر (8/ 56)، وروي عن ابن عباس أيضا، انظر الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (7/ 270)

⁹ جامع البيان ط هجر (8/ 59)

¹⁰ جامع البيان ط هجر (8/ 57)، وانظر فتح الباري (9/ 599)، عمدة القاري (21/ 135)

- (8) وقال المغيرة بن زرارة¹ في حوار مع ملك الفرس يزيدجرد: كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا..ديننا أن يقتل بعضنا بعضا، وأن يغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية ؛ كراهية أن تأكل من طعامه..فبعث الله إلينا رجلا معروفا ..².
- (9) وقال النعمان بن مقرن ليزدجرد أيضا في نفس الحوار السابق: إن الله رَحِمنا فأرسل إلينا رسولاً يدُلُّنا على الخير ويأمرنا به، ويعرِّفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة³.
- (10) **وقال الطبري:** "يقول تعالى ذكره مخبراً عن هؤلاء المشركين أنهم قالوا: وما يهلكنا فيفنيها إلا مرّ الليالي والأيام وطول العمر، إنكاراً منهم أن يكون لهم ربّ يفنيهم ويهلكهم"⁽⁴⁾. وقال: ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكاً في أمر الله، وتكذيباً لنبيه ﷺ، ومحسبة منهم أن الله خاذل نبيه، ومعلٍ عليه أهل الكفر به⁵.
- (11) **وقال الخطابي** بأن الرقى مشروعة ولكن "الذي يكره من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون ذلك من قبل الجن ومعونتهم"⁶. اهـ وقال أيضا "وكان من عادة أهل الجاهلية إذا أصابهم شدة من الزمان..أضافوه إلى الدهر..كانوا لا يثبتون لله ربوبية"⁷

1 لم أجد له ترجمة ولكن كان في معركة القادسية برفقة سعد بن أبي وقاص والنعمان بن مقرن، وكلاهما من الصحابة رضي الله عنهم فيكون المغيرة هذا من التابعين، والله أعلم.

2 تاريخ الرسل والملوك للطبري (2/ 391)، البداية والنهاية ط هجر (9/ 627)

3 البداية والنهاية ط هجر (9/ 625)

(4) جامع البيان (22 / 78)

5 جامع البيان ط هجر (6/ 165)

6 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (1/ 462)،

7 انظر كلام الخطابي في شرحه على البخاري المسمى أعلام الحديث 1904/3.

(12) وقال القاضي عياض: "مات مينة جاهلية أي على هيئة ما مات عليه أهل الجاهلية، من كونهم فوضى لا يدينون لإمام"¹.

(13) وقال الأبي: "لأن العرب والعجم كانوا حينئذ ضلّالا إلا بقايا من أهل الكتاب"².

(14) وقال الشاطبي: وذلك أن رسول الله ﷺ بعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وفي جاهلية جهلاء، لا تعرف من الحق رسماً، ولا تقيم به في مقاطع الحقوق حكماً، بل كانت تنتحل ما وجدت عليه آباءها.. من الآراء المنحرفة، والنحل المخترعة، والمذاهب المبتدعة"³.

(15) وقال النووي: "والجاهلية ما قبل رسالته ﷺ سُموا بذلك لما كانوا عليه من فاحش الجهالة"⁴. اهـ وقال النووي أيضا في موضع آخر وتبعه كثير من شراح البخاري كالكرماني والعيني والبرماوي والقسطلاني، كلهم قالوا بأن الجاهلية: "سميت بذلك لكثرة جهالاتهم"⁵.

(16) وقال البوصيري في الهمزية :

وَأَطَاعَتْ لِأَمْرِهِ الْعَرَبُ الْعَرَّ ... بَاءً وَالْجَاهِلِيَّةُ الْجُهْلَاءُ

(والجاهلية الجهلاء ... فيه تجنيس ... كليل أليل ... وخص هذين؛ لأن تصميمها على الكفر بلغ من القوة والشدة ما لم يبلغه تصميم غيرهم)⁶.

(17) وقال ابن كثير: ".. كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم"⁷.

1 إكمال المعلم بفوائد مسلم (6/ 258)

2 شرح الأبي على صحيح مسلم 7/ 227

3 كتاب الاعتصام للشاطبي (1/ 2)، شرح النووي على مسلم (17/ 197)

4 شرح النووي على مسلم (2/ 202)

5 شرح النووي على مسلم (1/ 139)، عمدة القاري (1/ 323)، الكواكب الدراري للكرماني (15/ 65)، إرشاد الساري للقسطلاني (6/ 174)، اللامع الصبيح للبرماوي (10/ 398).

⁶ المنح المكية في شرح الهمزية لابن حجر الهيتمي (ص: 229)، دار المنهاج، ط 2/ 2005.

7 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (5/ 251).

(18) وقال ابن حجر: "وسنة الجاهلية اسم جنس يعم جميع ما كان أهل الجاهلية.. ويلتحق

بذلك ما كانوا يعتقدونه، والمراد منه ما جاء الإسلام بتركه كالطيرة والكهانة وغير ذلك"¹.

وقال: "الكاهن الذي يتعاطى الخبر من الأمور المغيبة، وكانوا في الجاهلية كثيرا"².

(19) وقال العيني: وتسميتها: دعوى الجاهلية، لأنها كانت من شعارهم، وكانت تأخذ حقها

بالعصبية، فجاء الإسلام بإبطال ذلك، وفصل القضاء بالأحكام الشرعية"³. وقال عن

المشركين إنهم "خسروا في الدنيا والآخرة. وأما في الدنيا: فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيّقوا

عليهم في أموالهم، وحرّموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم. وأما في الآخرة: فيصيرون إلى

شرّ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم"⁴.

وهكذا نكون أثبتنا الدعوى التي بدأنا بها، وهي أن الجاهلية مرحلة ظلامية فظيعة تعجّ

بالوان وأصناف كثيرة من الكفر والشرك والموبقات الشنيعة، ولذا جاء ذمّها جملة وتفصيلا في

الكتاب والسنة وأقوال العلماء سلفا وخلفا، وهذا كله يتنافى مع الصورة المشرقة للجاهلية التي

ترسمها نظرية تقسيم التوحيد وأن المشكلة فيها فقط في الاستشفاع بالأنبياء والأولياء! بل هذا

يتنافى مع كلام لابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب وأتباعه الذين وصفوا الجاهلية بأشنع

الأوصاف، وهذا ما سنبيّنه فيما يلي بعون الله.

1 فتح الباري (12/ 211)، وانظر إرشاد الساري (10/ 53)

2 فتح الباري (7/ 179)

3 عمدة القاري شرح صحيح البخاري (16/ 122)

4 عمدة القاري (16/ 128)

المطلب الرابع: الجاهلية في نظر السلفية

وفيه مراد :

المرصد الأول: الجاهلية في نظر ابن تيمية وابن القيم

(1) يقول ابن تيمية: اعلم أنّ الله سبحانه وتعالى بعث مُحَمَّدًا ﷺ إلى الخلق على فترة من الرسل، وقد مقت أهل الأرض: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب ماتوا - أو أكثرهم - قبل مبعثه. والناس إذ ذاك أحد رجلين: إما كتابيّ معتصم بكتاب: إما مبدّل، وإما مبدّل منسوخ ودين دارس، بعضه مجهول، وبعضه متروك، وإما أميّ من عربي وعجمي، مقبل على عبادة ما استحسنه، وظن أنه ينفعه: من نجم، أو وثن، أو قبر، أو تمثال، أو غير ذلك. والناس في جاهلية جهلاء، من مقالات يظنونها علما وهي جهل، وأعمال يحسبونها صلاحا وهي فساد. وغاية البارع منهم علما وعملا، أن يحصل قليلا من العلم الموروث عن الأنبياء المتقدمين، قد اشتبه عليهم حقه بباطله. أو يشتغل بعمل القليل منه مشروع، وأكثره مبتدع لا يكاد يؤثر في صلاحه إلا قليلا.. فهدى الله الناس ببركة نبوة مُحَمَّد ﷺ..¹

(2) ويقول أيضا: وهذا نصّ عام يوجب تحريم متابعة كل شيء من سنن الجاهلية في أعيادهم وغير أعيادهم.²

(3) ويقول أيضا: فإن إضافة الحمية إلى الجاهلية اقتضى ذمّها، فما كان من أخلاقهم وأفعالهم، فهو كذلك.³

(4) ويقول: ذمّ في الحديث من دعا بدعوى الجاهلية.. وهذا كله يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى

1 اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 74)، وانظر: مجموع الفتاوى (19/ 101).

2 اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 254)

3 اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 236)

الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الدم..ومنه قوله لأبي ذر رضي الله عنه..«إنك امرؤ فيك جاهلية». فإنه ذمّ لذلك الخلق ولأخلاق الجاهلية التي لم يجئ بها الإسلام. ومن هذا: ثلاث خلال من خلال الجاهلية الطعن في الأنساب والنياحة"¹.

(5) وقال "أن التحليل والتحریم لا يتعلق باستطابة العرب ولا باستخباثهم؛ بل كانوا يستطيعون أشياء حرمها الله؛ كالدّم والميتة؛ والمنخنقة والموقوذة؛ والمتردية والنطيحة؛ وأكيلة السبع؛ وما أهل به لغير الله.."² أه

(6) "وأقر أهل الجاهلية على مناكحهم التي كانت في الجاهلية، مع أن كثيرا منها كان غير مباح في الإسلام."³

(7) "إن الله بكمال رحمته وإحسانه لا يعذب أحدا إلا بعد إرسال رسول إليهم وإن كانوا فاعلين لما يستحقون به الذم والعقاب، كما كان مشركو العرب وغيرهم ممن بعث إليهم رسول فاعلين للسيئات والقبايح التي هي سبب الذمّ والعقاب، والرب تعالى مع هذا لم يكن معذبا لهم حتى يبعث إليهم رسولا"⁴.

قال وليد: فتأمل هذا الوصف القائم الدقيق من ابن تيمية لأهل الجاهلية، وما كانوا عليه من ظلمات بعضها فوق بعض..فأين مناقبهم المزعومة السابقة التي تغنى بها ابن عبد الوهاب وأتباعه وجعلها كعصر ذهبي؟! ونصُّ ابن تيمية هذا نقله عديد من السلفية⁵، وفيهم أولئك الذين

1 اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 235)

2 مجموع الفتاوى (19/ 24)

3 مجموع الفتاوى (22/ 8)

4 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (8/ 492)

5 حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد لمحمد الغامدي (ص: 152)، عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي لصالح

العبود (1/ 7)، العذر بالجهل تحت المجهر الشرعي لمحدث آل فراج (ص: 18)

تَعَنُّوا بالجاهلية، وعدادوا مناقبها¹ كالأفغاني الذي قال بعد نقله له بأن النبي ﷺ جاء بالهدى "بعد تشتت تام وعداوة كاملة، وانهيار خلقي، وانحلال ديني وفساد عقدي.."².

فلا أدري أين ذهب ذلك الثناء العاطر على المشركين من الأفغاني نفسه الذي ذكر أنهم كانوا "يعبدون الله تعالى ببعض العبادات كالصلاة والحج والصوم.. وكان فيهم الزكاة، وقرى الضيف والاهتمام بابن السبيل.. وكان فيهم القصاص والدية والقسامة وعقوبات الزنا والسرقة.. ويعتقدون أصول أنواع البر وكثيرا في الشعائر كالحلتان ونحوه.. إلخ (3). وكيف تنسجم هذه الصورة المشرفة الزاهية التي صورها الأفغاني عن الجاهلية مع أنه هو ذاته يقول عنها في الكتاب نفسه بأنها "انهيار خلقي، وانحلال ديني وفساد عقدي"؟!!

(8) وأما ابن القيم فيرسم صورة أشد قتامة للجاهلية، فيذكر أن الله أرسل نبيه "على حين فترة من الرسل ودروس من الكتب وطموس من السبل، وقد استوجب أهل الأرض أن ينزل بساحتهم العذاب.. وكانت الأمم إذ ذاك ما بين مشرك بالرحمن.. عابد للشمس.. كافر بالله الحي القيوم أو تائه في ببداء ضلالتة حيران قد استهواه الشيطان وسدّ عليه طريق الهدى والإيمان، فالمعروف عنده ما وافق إرادته ورضاه، والمنكر ما خالف هواه.. فباب الهدى دونه مسدود، وهو عن الوصول إلى معرفة ربه واتباع مرضاته مسدود، فأهل الأرض بين تائه حيران وعبد للدنيا، فهو عليها لهفان ومنقاد للشيطان جاهل أو جاحد، أو مشرك بالرحمن فالأرض قد غشيتها ظلمة الكفر والشرك والجهل والعناد.. إلى أن يقول: فبعث الله رسوله وأهل الأرض أحوج إلى رسالته.. يُذهب عنهم حنادس الظلمات.."⁴ اهـ

1 شرح مسائل الجاهلية للحازمي (4 / 3، ت.ش).

2 جهود علماء الحنفية (20 / 1)

(3) جهود علماء الحنفية (212 / 1).

4 الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطلة (ص: 59)

ويستفيض ابن القيم في ذلك، ويتفنن في ذم الجاهلية بما لا يتسع المقام لسرده هنا.
ويؤكد في موضع آخر أن الناس كانوا ما بين "عبادة الأوثان أو الصلبان أو النيران أو الكواكب
والشمس والقمر" وما بين "الحيرة والشك أو السحر أو تعطيل الصانع والكفر به.. فأطلع الله
شمس الرسالة في تلك الظلم سراجاً منيراً"¹.

المرصد الثاني: الجاهلية عند ابن عبد الوهاب

إن ابن عبد الوهاب الذي عدّ لنا مناقب المشركين في كتابه كشف الشبهات من أنهم "يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً" (2). وأنه "يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو.. (3)، وحصر كفرهم وسفك دمائهم في قضية التشفع حيث قال "وأن قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دمائهم وأموالهم" (4). هو نفسه ألف رسالة سماها "المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية"، وقال عنه حفيده إنه "مصنف لطيف، ذكر فيه ما خالف رسول الله ﷺ فيه أهل الجاهلية، بلغ مائة وعشرين مسألة⁵. اهـ بيد أن الرسالة المطبوعة ضمن الدرر السنية في الأجوبة النجدية، وكان قد جمعها الشيخ عبد الرحمن القاسم النجدي بلغ عدد المسائل فيها 131 مائة وواحد وثلاثون مسألة⁶!!

1 الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة (ص: 712)

(2) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14

(3) كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص14.

(4) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص16

5 فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: 322)

6 وثمة نسخ ومخطوطات وطبعات أخرى لرسالة مسائل الجاهلية هذه تختلف فيما بينها في عدد مسائل الجاهلية التي وردت في رسالة ابن عبد الوهاب، وقد بسط ذلك يوسف السعيد الذي حقق رسالة مسائل الجاهلية له في رسالة ماجستير ص49 وما بعدها، وحاصل ما ذكره أن عدد المسائل يتراوح ما بين 124 مسألة في بعض النسخ، إلى 128 مسألة في نسخ أخرى، إلى 129 في أخرى، إلى 131 في النسخة التي ذكرناها أعلاه، وفي النسخة التي شرحها الألوسي بلغت مسألها 99 فقط، قال السعيد "وهذه النسخة أتى ببعض المسائل بالمعنى"، ثم قال السعيد ص52: "ما رأينا من تفاوت في عدد المسائل مما يستدعي مراجعة الأصول للتحقق من ذلك".

يقول ابن عبد الوهاب في أول رسالته: هذه أمور خالف فيها رسولُ الله ﷺ ما عليه أهلُ الجاهلية الكتابيين والأميين، مما لا غنى للمسلم عن معرفتها.. وبضدها تتبين الأشياء..¹، ثم ذكر "المسألة الأولى: أنهم يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته، يريدون شفاعتهم عند الله..2". اهـ فإذا طرحنا المسألة الأولى هذه . التي جعلها ابن عبد الوهاب هي السبب الوحيد لسفك دماء المشركين في كتابه كشف الشبهات . يبقى لدينا 130 مسألة، إذن لدينا 130 مسألة خالف النبي فيها أهل الجاهلية..! فكيف حصر ابن عبد الوهاب كُفَر المشركين وقبائحهم في كتابه كشف الشبهات في قضية واحدة هي قضية التشفع بالصالحين وأنه لولاها لم يكن بينهم وبين النبي ﷺ خلاف أصلا، مع أن هذه القضية تشكل نسبة 1 من 131 مسألة خالفهم فيها رسول الله!!؟

وللعلم فإن كثيرا من تلك المسائل الجاهلية التي عددها ابن عبد الوهاب هي قطعاً كفر بواح! وإليك بعضها كما جاءت في رسالة مسائل الجاهلية لابن عبد الوهاب بالأرقام التي رُقمت بها:

- (1) [51] : قولهم في القرآن: {إن هذا إلا قول البشر}.
- (2) [75] : دعوتهم إياهم إلى الكفر مع العلم.
- (3) [103] : الكفر بالملائكة.
- (4) [104] : الكفر بالرسول.
- (5) [105] : الكفر بالكتب.
- (6) [107] : الكفر باليوم الآخر.
- (7) [108] : التكذيب بقاء الله.
- (8) [109] : التكذيب ببعض ما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر. اهـ

قال وليد: فهذه ثمان مسائل مكفّرة عددها ابن عبد الوهاب نفسه لا علاقة لها بقضية التشفع بالصالحين!.. أي أن أهل الجاهلية لو لم يتشفعوا بالأصنام ولا عبدوها أصلا لكفروا، ولحقَّ للنبي أن يسفك دماءهم لارتكابهم واحدة من هذه المسائل الثمانية، فما بالك باجتماعها؟! فكيف ضرب ابن

1 مسائل الجاهلية (ص: 5)

2 مسائل الجاهلية (ص: 5)

عبد الوهاب صفحا عن كل هذا الذي كتبه هو نفسه في رسالته مسائل الجاهلية، ثم راح يحدثنا في كتابه كشف الشبهات عن مناقب كثيرة للمشركين، وأنهم لم يكفروا إلا من أجل التشفع بالصلحين؟!

وإذا غاب عن ابن عبد الوهاب في كتابه كشف الشبهات ما قاله هو نفسه في كتابه الآخر مسائل الجاهلية، فإن الطريف أن من طبع كتاب فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية لشكري الألويسي هو نفسه يقول في مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب مردداً كلام ابن عبد الوهاب في كشف الشبهات من أن المشركين الذين أرسل لهم النبي ﷺ كانوا "يتعبدون ويحجون ويتصدقون، ويحبون الله ويذكرونه كثيراً، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله، يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله، ونريد شفاعتهم عنده مثل الملائكة وعيسى ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين"¹..!

والأعجب أن كثيراً ممن شرحوا كتاب كشف الشبهات هم أنفسهم شرحوا رسالة مسائل الجاهلية، وذلك مثل الحازمي والفوزان وصالح آل الشيخ، فكلمهم لهم شروح على كتابي ابن عبد الوهاب "كشف الشبهات"، و"مسائل الجاهلية"، ولكن تجدهم في شروحهم لكتاب "كشف الشبهات" يتوسعون في سرد مناقب المشركين في الجاهلية كما فعل ابن عبد الوهاب هناك، وفي شروحهم لرسالته في "مسائل الجاهلية" يتوسعون في سرد قبائحهم وموبقاتهم وكفرهم كما فعل ابن عبد الوهاب فيها..واقعين في تناقض مضحك!

والسؤال هنا: لماذا مدح ابن عبد الوهاب أهل الجاهلية، وعدد لنا مناقبهم في كتابه كشف الشبهات؟ لكن ألم يفعل النقيض من ذلك في رسالته مسائل الجاهلية؟! وفيها مضى يعدد مئة وعشرين

مسألة ونيفا من مسائل الجاهلية، كثير منها كفر لا علاقة له بقضية ما يسمى بتوحيد الألوهية أصلاً؟!

والجواب أن ابن عبد الوهاب كان غرضه في الكتابين مختلفا، فقد كان يريد في كتابه كشف الشبهات أن يجمّل أهل الجاهلية، ويُضفي عليهم من المناقب الكثيرة ليحصر كفرهم في سبب واحد وهو قضية التشفع بالصلحين، وهذا ما صرح به في قوله بأن "قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم."⁽²⁾ ليوظّف ذلك في تكفير

1 مقدمة الطبعة الأولى لكتاب فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية ت علي مخلوف (ص: 6).

(2) كشف الشبهات لابن عبد الوهاب ص16.

خصمه حين يقول "الكفار يريدون منهم، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار المدبر لا أريد إلا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء، ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم"، فيجيبه ابن عبد الوهاب: إن هذا قول الكفار سواء بسواء¹. اه فلذلك راح في أول الكتاب يثني على المشركين بأنهم كانوا "يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا"(2). وبأنهم "يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو.." ⁽³⁾. اه في محاولة منه لمساواة خصومه بالمشركين من كل وجه.

غير أنه لو بدأ كتابه "كشف الشبهات" بتعداد قبائح المشركين في الجاهلية - وكثير منها كفر كما رأينا - لما تسنى له أن يحصر كفرهم في قضية التشفع بالصلحين، بمعنى أنه لو قال مثلا بأن الله أرسل نبيه إلى قوم يكفرون بالرسول والكتب واليوم الآخر إلى غير ذلك - كما ذكره ابن عبد الوهاب نفسه في رسالته مسائل الجاهلية- لما استطاع أن يزعم بأن "قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم." ⁽⁴⁾. وبالتالي كما تم له غرضه من كتابه كشف الشبهات وهو تكفير خصومه..!

وأما في كتابه مسائل الجاهلية فألفه ليثبت أن خصومه المسلمين مثل أهل الجاهلية "كالتعبد بإشراك الصالحين، والفرقة والاختلاف، وعدم طاعة الأئمة، والقياس الفاسد، وإنكار القياس الصحيح، والتعطيل، والإلحاد في الأسماء والصفات، والقول بالجبر والقدر، وغيرها من المسائل المشهورة. فمن هذه المسائل: مسألة الاغترار بالكثرة، فهذه المسألة مما احتجّ بها عليه خصومه، وادعوا شذوذه ومفارقة الإجماع ونحو ذلك من الألفاظ"⁵. "فهذه الأمثلة التي تدل على أن المؤلف إنما قصد بتأليفه معالجة

¹ كشف الشبهات ص 25.

(2) كشف الشبهات ص 14.

(3) كشف الشبهات ص 14.

(4) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص 16

⁵ المسائل التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية، ت يوسف بن محمد السعيد ص 41.

الأوضاع الخاطئة الذي يعيشها أهل زمانه وهذا هو السبب الوحيد الذي أرى أن المؤلف اقتصر على هذه المسائل دون ما عداها لأجله¹.

1 المسائل التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية، ت يوسف بن مُجَدِّ السعيد ص44.

المردد الثالث: الجاهلية عند أتباع ابن عبد الوهاب

ذكر اليمانيّ المعلميّ أن النبي ﷺ أرسل على "حين فترة من الرسل، وانتشار من الأهواء والنحل؛ والجاهلية في عنفوانها وطفوح طوفانها، والعصبية في ريعانها واضطراب نيرانها، والعرب عاكفة على أوثانها، مطلقة لعنانها بيد شيطانها، والأمم مجمعة على الضلالة، متنافسة في الجهالة"¹. "لا تعرف من الحق رسماً، ولا تقيم به في مقاطع الحقوق حكماً، وإنما ينتحلون ما تحواه نفوسهم، وما تزينه لهم شياطينهم، وما وجدوا عليه آباءهم"²، "ولم يكن قبل بعثة الرسول ﷺ من بقايا النور السماوي الذي جاءت به الأنبياء إلا أضواء خافتة لا تكفي للهداية والاستقامة على المنهج الرباني، لضياح ذلك المنهج واختلاطه بذلك الباطل الكثير"³. "فهذا الوقت الذي قبل الإسلام سمي بالجاهلية لعدم وجود العلم فيه"⁴. إذ "كان العالم كله يموج في ضلال وكفر وإحاد.. فأصبح الظلام حالكا في الأرض"⁵، "تلك كانت أحوالهم المتردية في أحوال الجاهلية، ولكن لما سطع نور النبوة، وأشرقت شمس الرسالة، خرج من بين ظهراني أهل الجاهلية الأولى أفضل جيل عرفه التاريخ"⁶.

وإذا كان ابن عبد الوهاب قد ذكر في رسالة له 131 مسألة من مسائل الجاهلية التي خالفهم فيها رسول الله ﷺ: فإن بعض أتباع ابن عبد الوهاب وهو عبد الله بن محمد الدويش (ت: 1409هـ) استدرك عليه وألف كتاب زوائد مسائل الجاهلية، فذكر 211 مئتان وإحدى عشرة مسألة لم يذكرها ابن عبد الوهاب! حيث قال الدويش في مقدمة كتابه هذا بعد أن سرد بعض النصوص الكتاب والسنة في ذم الجاهلية: ..إذا عرف هذا، وأن ما عليه أهل الجاهلية مذموم إلا ما وافق الشرع، فالواجب على كل مسلم معرفة ذلك لئلا يقع فيه وهو لا يشعر، وقد جمعت أشياء من ذلك وهي عامة لأهل الجاهلية

1 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (3 / 22)

2 شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (2 / 1)

3 العقيدة في الله، د. عمر الأشقر (ص: 292)

4 إغاثة المستفيد شرح كتاب التوحيد (2 / 33)

5 شرح مسائل الجاهلية للفوزان (ص: 12)

6 فتح العلي الحميد في شرح كتاب مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، مدحت آل فراج (ص: 166)

من أهل الكتاب وغيرهم، فإن قيل ألف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مسائل الجاهلية، فما فائدة ما جمعه؟ فالجواب: أن هذه ما ذكرها الشيخ ثم ليعلم أن هذا ليس استدراكاً عليه، لأنه لم يذكر أنه جمع كل ما عليه أهل الجاهلية، وإنما ذكر أموراً خالفهم فيها رسول الله - ﷺ - فلم يدع الحصر حتى يقال إن هذا استدراك عليه¹. اهـ

فإذا جمعنا 131 مسألة من مسائل جاهلية التي ذكرها جمعها ابن عبد الوهاب في رسالته إذا جمعناها مع 211 مسألة جاهلية زادها الدويش فالنتيجة هي: 342 مسألة جاهلية...!! يعني أن هناك 342 مسألة خالف النبي فيها أهل الجاهلية..! ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل إن أحد أتباع ابن عبد الوهاب، وهو يوسف السعيد الذي حقق رسالة مسائل الجاهلية ونال بذلك درجة الماجستير، يقول في مقدمة تحقيقه: "إنه من خلال معاشتي مدة هذا البحث لكتب الشيخ رحمه الله تبين لي أنه اقتصر على هذه المسائل فقط لكونها كانت منتشرة في زمنه كثيراً.."²، ثم يذكر أمثلة على ذلك ثم يقول: فهذه بعض الأمثلة التي تدل على أن المؤلف إنما قصد بتأليفه معالجة الأوضاع الخاطئة الذي يعيشها أهل زمانه، وهذا هو السبب الوحيد الذي أرى أن المؤلف اقتصر على هذه المسائل دون ما عداها لأجله³. ثم يذكر السعيد أن الدويش زاد على مسائل ابن عبد الوهاب، ثم يقول: والظاهر أن الشيخ الدويش لم يُرد أيضاً الحصر، حيث إنه فاتته شيء كثير جداً، تبين لي من خلال مقارنة ما ذكره بما تركه، وهو من خصال الجاهلية⁴. فلا جرم أن الفوزان قال: "فالحاصل أن أمور الجاهلية كلها مذمومة، ونحننا عن التشبه بأهل الجاهلية في كل الأمور والجاهلية انتهت ببعثة النبي ﷺ"⁵.

1 زوائد مسائل الجاهلية (ص: 9)

2 المسائل التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية - يوسف بن محمد السعيد ص41

3 المسائل التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية - يوسف بن محمد السعيد ص44

4 المسائل التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية - يوسف بن محمد السعيد ص45

5 شرح مسائل الجاهلية للفوزان (ص: 12)

المبحث الثاني: تفصيل لموبقات أهل الجاهلية وقبائحهم

إن انحرافات أهل الجاهلية وقبائحهم وموبقاتهم كثيرة جدا تبلغ المئات كما ذكرها ابن عبد الوهاب وأتباعه كما سبق، وقد سبق أيضا أن بسطنا الذم الذي في الكتاب والسنة للجاهلية وخصالها ونعيد ذكرها هنا باختصار، وهي ما يلي:

- (1) حكم الجاهلية.
- (2) تبرج الجاهلية.
- (3) ظنّ الجاهلية.
- (4) حمية الجاهلية.
- (5) لطم الخدود وشق الجيوب ودعوى الجاهلية.
- (6) النكاح في الجاهلية كان على صور، كثير منها زنا بل دياثة، كنكاح الاستبضاع والرهط والرايات والخذن.
- (7) إتيان الكهان.
- (8) بيع المعدومات، كبيع الملاقيح والمضامين وحبل الحبلة ونتاج النتاج وبيع السنين، كما ذكر ذلك ابن تيمية.
- (9) الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة.
- (10) التمايم والطلاسم ورقى الجاهلية، وما فيه من عبادة للجن كما يقول ابن تيمية.
- (11) كان إذا رمي نجم يقولون ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم.

هذا وثمة قبائح أخرى لأهل الجاهلية في سلوكهم مذكورة في القرآن، لم يسبق أن ذكرناها، منها ما يتعلق بأكل المال الباطل نحو أكل الربا والميسر، ومنها شرب الخمر، ومنها النسيء، وفيما يلي بسط ذلك في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أكلهم للمال بالباطل

أولاً: أكل الربا

كان العرب في الجاهلية يأكلون الربا، يدل على ذلك ما يلي:

(1) قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً} [آل عمران: 130] أي "لا

تأكلوا الربا في إسلامكم، بعد إذ هداكم له، كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم"1.

(2) وقال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [البقرة: 275] قال

مجاهد، قال في الربا الذي نهى الله عنه: "كانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين،

فيقول: لك كذا وكذا وتؤخر عني فيؤخر عنه"2

(3) وقال عز وجل: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ.. وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة:

276، 277] أي "ولا خوف عليهم يومئذ من عقابه على ما كان سلف منهم في جاهليتهم

وكفرهم قبل مجيئهم موعظة من ربهم من أكل ما كانوا يأكلون من الربا بما كان من إنابتهم،

وتوبتهم"3.

(4) حديث مسلم "ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع.. وربا الجاهلية موضوع"4.

فقد "كانوا إذا حل أجل الدين يقول الغريم لرب الدين: أنظرنى وأزيدك. فينظره إلى وقت

آخر على زيادة مقررة، فإذا حل ذلك الوقت الآخر قال له أيضا كذلك، وربما يؤدي ذلك إلى

1 جامع البيان ط هجر (49 /6)

2 جامع البيان ط هجر (38 /5)

3 جامع البيان ط هجر (48 /5)

4 مختصر صحيح مسلم للمنذري ت الألباني (188 /1)

استئصال مال الغريم في نذر يسير كان أخذه أول مرة، فأبطل الله تعالى ذلك، وحرمه، وتوعد عليه¹.

ونختم بقول جواد علي: وفي جملة وسائل استثمار المال: الربا، وقد كان شائعاً بين أهل الجاهلية². إلى أن يخلص إلى القول: فنحن إذن أمام أفراد وأمام شركاء كانوا يتعاملون بالربا، أي: قرض المال في مقابل جر مغنم منه، وقد حصل هؤلاء المرابون على أموال طائلة منه³.

ثانياً: الميسر

من خصال الجاهلية "اكتساب المال بالميسر"⁴، و"الميسر: قمار كان للعرب في الجاهلية"⁵، ((و"القمار" من الألعاب المتفشية كثيراً بين الجاهليين، ولم يكن الباعث عليه التسلية واللهو في الغالب، وإنما كان طمعاً في الربح.. وذكر أن اشتقاق "الميسر" إما من اليسر لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب، أو من اليسار لأنه سلب يساره.. ويظهر أن قسماً ممن كان يلعب الميسر لم يكن يلعبه ابتغاء الكسب، وإنما كان يلعبه للتسلية وللترفيه عن الآخرين، وذلك بإعطائه ما يكسبه للمحتاجين وللفقراء.. وأما القسم الآخر ممن كان بيسر، فكان يبغى الكسب والمال، لذلك كان يقامر بكل ما يملك في سبيل الحصول على المال للمياسرة))⁶.

"وكان أهل الجاهلية يُسرفون في النفقة في اللذات، ويغنون السبأ في الخمر، ويتَمَمون الأيسار في الميسر، وأقوالهم في ذلك كثيرة في أشعارهم"⁷، "وقد كان أهل الجاهلية لا ينفقون إلا في اللذات، والمفاخرة والمقامرة، ومعاقرة الخمر، وقد وصفهم القرآن بذلك في مواضع كثيرة"¹.

1 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (3/ 333)

2 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (14/ 109)

3 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (14/ 121)

⁴ زوائد مسائل الجاهلية (ص: 33)

⁵ التحرير والتنوير (2/ 346)

6 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (9/ 126)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (3/ 435)

⁷ التحرير والتنوير (19/ 71)

قال الطبري في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [المائدة: 90]: إن الخمر التي تشربونها، والميسر الذي تتياسرونه.. "رجس"، يقول: ثم ونثرت سخطه الله وكرهه لكم "من عمل الشيطان"، يقول: شربكم الخمر، وقماركم على الجزر.. من تزيين الشيطان لكم، ودعائه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربكم، ولا مما يرضاه لكم، بل هو مما يسخطه لكم "فاجتنبوه"، يقول: فاتركوه وارضضوه ولا تعملوه "لعلكم تفلحون"، يقول: لكي تنجحوا فتدركوا الفلاح عند ربكم بترككم ذلك². اهـ

ثم روى الطبري عن ابن عباس، قال: "الميسر: القمار، كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله"³، وروى الطبري عن قتادة، قال: «كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله، فيقعد حزينا سلبيا ينظر إلى ماله في يدي غيره، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاء، فنهى الله عن ذلك..⁴»

وقال القرطبي في آية المائدة: قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا" خطاب لجميع المؤمنين بترك هذه الأشياء، إذ كانت شهوات وعادات تلبسوا بها في الجاهلية وغلبت على النفوس، فكان بقي منها في نفوس كثير من المؤمنين⁵. وقال الزمخشري: وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر، وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر، وإظهار أن ذلك جميعا من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، فوجب اجتنابه بأسره⁶. وقال السعدي في تفسيره عند قوله: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ.. }: أي: يسألك -يا أيها الرسول- المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام⁷. اهـ

¹ التحرير والتنوير (27/ 368)

² جامع البيان ط هجر (8/ 655)

³ جامع البيان ط هجر (3/ 674)

⁴ جامع البيان ط هجر (8/ 662)

⁵ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (8/ 156)

⁶ الكشاف (1/ 675)

⁷ تفسير السعدي (ص: 98)

وقال ابن تيمية: إن مفسدة الميسر أعظم من مفسدة الربا لأنه يشتمل على مفسدتين : مفسدة أكل المال بالحرام، ومفسدة اللهو الحرام، إذ يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ويوقع في العداوة والبغضاء ، ولهذا حرم الميسر قبل تحريم الربا¹، وينقل ابن تيمية عن بعض السلف وهو عقبة بن عامر قال: لأن أعبد صنما يعبد في الجاهلية أحب إلي من أن ألعب بهذا الميسر².

المطلب الثاني : شرب الخمر

كان العرب في الجاهلية من عشاق الخمر ومدمنييه ، ولشدة كلفهم به سموه نحو مئة اسم، قال أبو العباس ابن المعتز: للخمر أسماء كثيرة، والعرب إذا أحببت أو هابت شيئاً أكثرت سُمَاه.. ثم سرد لها ثمانية وتسعين اسماً³. "وقد كان أهل الجاهلية لا ينفقون إلا في اللذات ، والمفاخرة والمقامرة ، ومعاقرة الخمر"⁴. "ومعاقرة الخمر إدمان شربها. وقيل سميت عقاراً لأن أصحابها يعاقرونها أي يلازمونها أو لعقرها شاربها عن المشي"⁵ "وشيوخ شرب الخمر في الجاهلية معلوم لمن علم أدهم وتاريخهم فقد كانت الخمر قوام أود حياتهم ، وقصارى لذاتهم ومسرة زمانهم وملهى أوقاتهم"⁶

1 الموسوعة الفقهية الكويتية (39/ 406) نقلا عن مجموع فتاوى ابن تيمية 32 / 337 ، والقرطبي 3 / 57. بيد أني لم أجد هذا النص لابن تيمية، بل نص في غير موضع على أن الربا أعظم مفسدة من الميسر. منها قوله في الفتاوى الكبرى (4/ 471): فالربا في ظلم الأموال أعظم من القمار، ومع هذا فتأخر تحريمه وكان آخر ما حرم الله تعالى في القرآن، فلو لم يكن في الميسر إلا مجرد القمار لكان أخف من الربا لتأخر تحريمه. اهـ وفصل في موضع آخر من الفتاوى الكبرى (4/ 472) فقال: فتبين أن الربا أعظم من القمار الذي ليس فيه إلا مجرد أكل المال بالباطل.. إلى أن يقول: ويُنهي عما يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقع بالعداوة والبغضاء. ولو كان بغير أكل مال، فإذا اجتمعا عظم التحريم، فيكون الميسر المشتمل عليهما أعظم من الربا. اهـ وانظر أيضا: مجموع الفتاوى (32/ 236).

2مجموع الفتاوى (32/ 242)

3 الرسالة العاشرة فوائد لغوية منتقاة من كتاب "الكنز المدفون" ضمن آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (20/ 273)

4 التحرير والتنوير (27/ 368)

5 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (8/ 256)

6 التحرير والتنوير (2/ 339)

وهكذا «كان شرب الخمر واسع الشبوع شديد الرسوخ فيهم، تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء، وشغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم، وكثرت أسمائها وصفاتها في لغتهم، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً يرفرف عليها علم يسمى غاية.

يقول لبيد:

قَدْ بَتُّ سَامِرَهَا وَغَايَةَ تَاجِرٍ ... وَاقَيْتُ إِذْ رُفِعَتْ وَعَزَّ مُدَامَهَا¹

وكان من شيوخ تجارة الخمر أن أصبحت كلمة التجارة مرادفة لبيع الخمر، كما قال لبيد: وغاية تاجر.

وقال عمرو بن قميئة:

وَأَسْحَبُ الرِّبَطَ وَالْبُرُودَ إِلَى ... أَدْنَى تِجَارِي² وَأَنْفُضُ اللَّيْمَا³

ويقول المنخل اليشكري:

ولقد شربت من المدامة ... بالصغير وبالكبير

فإذا سكرت⁴ فإنني ... رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإنني .. رب الشويهة والبعير⁵

1 البيت من معلقة لبيد، انظر: «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لابن الأنباري (ص574)، «ديوان لبيد بن ربيعة العامري» (ص113) اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفة، ط1/ 2004 م.

2 قال أبو القاسم الفارسي: «المروط: الأكسية الدقيقة تجلب إلى أرض العرب ولا تعمل هناك، والتجار الخمارون واحدهم تاجر. المعنى: كنت في شببتي أجر ردائي خيلاً إلى باعة الخمر، وأتبختر، وعبر عن التبختر بنفض اللمم، لأنه إذا تبختر حرك رأسه». انظر: «شرح حماسه أبي تمام للفارسي» (3/ 11)، أبو القاسم زيد بن علي الفارسي (ت 467 هـ)، ت د. مُجَدَّ عثمان علي، دار الأوزاعي - بيروت.

3 «ديوان عمرو بن قميئة» (ص41)، الدكتور خليل إبراهيم العطية، دار صادر - بيروت، ط2/ 1994 م.

4 "فإذا سكرت" كذا وقع في «قطب السور في أوصاف الأنبذة والخمور» (ص94 بترقيم الشاملة آلبا)، لأبي اسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق النديم القيرواني (ت نحو 425 هـ)، ووقع في «شرح ديوان الحماسة للتبريزي» (1/ 205): "فإذا انتشيت".

5 الأبيات الثلاثة في «شرح ديوان الحماسة للتبريزي» (1/ 205).

وغير هذا كثير في الشعر الجاهلي¹، حتى قد "عرف الشعر الخمري عند الشعراء الجاهليين؛ وقليل منهم من لم يعرض للخمر في شعره، ولهم في ذلك تعابير جيّدة بالنسبة إلى ذلك العصر وبالنسبة إلى أذواق الناس التي تلائم تلك البيئة، ومن أهم الشعراء الجاهليين الذين تناولوا الخمر في قصائدهم وتكلّفوا بها: طرفة بن العبد، وعدي بن زيد العبادي، وعمرو بن كلثوم، وعنترة بن شدّاد، والمنخّل اليشكري، الأعشى الأكبر. وبإمكاننا أن نقسّمهم إلى قسمين:

الأوّل: هم الذين افتخروا بشرائها وشربها وإسرافهم في هذا الأمر دون أن يصفوها إلا قليلاً.

والثاني: هم الذين وصفوا الخمر وأجادوا فيها بعض الإجادة دون أن يكون وصفهم عميقاً، وإتّما كانوا يقنعون بالظواهر، فيصفون لون الخمر ومظهرها، ويصفون أقداحها وأباريقها، ويذكرون مكان شرائها، ويصفون طعمها ولونها وصفاً مجملاً، ويشيرون إلى مفعولها في النفس.

ومن الذين كانوا يفتخرون بشربها كافتخارهم بالبطولة والشجاعة: عنترة بن شدّاد²، وقد يلاحظ عند بعض الشعراء أنّ إفراطهم في شراء الخمر وشربها قد يؤدي بهم إلى الفقر وهذا كان يدلّ على جودهم وسماحتهم كما نرى عند طرفة بن العبد³، ولأبي عبّاد عمرو بن كلثوم التغلبي معلقة

1 «موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللّغام» (10 / 358)، أحمد بن سليمان أيوب وآخرون، دار إيلاف، ط1 / 2015م، نقلاً عن ظلال القرآن، والنص موجود أيضاً في كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لأبي الحسن الندوي (ص57)، مكتبة الإيمان.
2 حيث يقول:

«ولقد شربتُ من المدامة بعد ما.. ركد الهواجزُ بالمشوف المعلم

فإذا شربتُ فإنّي مستهلكٌ.. مالي، وعرضي وافرٌ لم يُكَلِّم

وإذا صحوتُ فما أقصّر عن ندى.. وكما علمتِ شمائلي وتكرّمي»

انظر: «أشعار الشعراء الستة الجاهليين» (ص78 ت.ش)، «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لابن الأنباري (ص337)، «شرح القصائد العشر» للتبريزي (ص196)، هذا وللمنخّل اليشكري وللبيد أبيات تشبه أبيات عنترة هذه، وقد سبق للتو بعضها.

3 حيث يقول طرفة:

«وما زال تشراي الخمرَ ولذّي.. وبيعي وإنفاقي طريقي ومثلي

إلى أن تحامتني العشيرةُ كلّها.. وأفردتُ أفراد البعير المعبّد»

«ديوان طرفة بن العبد» (ص25)، ت مهدي مُجّد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط3 / 1423 هـ - 2002 م.

يستهلها بنسب **خمري** دون النسب **الطللي الشائع** عند الشعراء **الجاهليين** 1، وأما الأعشى الأكبر فعنده للخمر منزلة كبيرة، ولهذا أكثر من وصف الخمر، وقد أطل وأجاد في وصفها **كوصف عاشق لمعشوق**.. وكادت جميع المعاني الخمرية الموجودة في الجاهلية تجتمع فيه بصورة كاملة وكان الشاعر يزجها في قصائده، أيًا كان أغراضها ويتوسل بها للمدح وغيره 2"3، ولشدة حبه للخمر امتنع من الهجرة إلى النبي ﷺ للدخول في الإسلام، وله في ذلك قصة 4.

1 حيث يقول: ألا هبّي بصحنك فاصبحينا.. ولا تُبقي خمور الأندرينا

مشعشعة كأن الحُصَّ فيها .. إذا ما الماء خالطها سخينا

تجوُّ بذي اللبنة عن هواه .. إذا مذاقها، حتى يلينا

ترى اللجَزَ الشحيح إذا أمرت .. عليه، لماله، فيها، مُهينا

قال الزوزني في شرح المعلقات السبع ص 215 في شرح البيت الثاني: وإذا خالطها الماء وشربناها وسكرنا جُدننا بعقائل أموالنا وسمحنا بذخائر أعلاقنا (نفائسنا). اهـ وقال النحاس في شرح القصائد التسع المشهورات (أي المعلقات) ص 615: أي إذا شربناها سخينا

كما قال حسان: ونشربها فتتركنا ملوكاً.. وأسدأ ما يُنهِنها اللقاء

2 وهذا يظهر واضحاً في معلقته حيث يتحدث عن اللهو وشرب الخمر، قائلاً:

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعني.. شاوٍ مثلٌ شلُولٌ، شُلشَلٌ، شَوْلٌ

نازعتُهُم فُضْبَ الرِيحانِ، مُتَكنا.. وقهوةٌ مُرَّةٌ راووقها حَضِلٌ

لا يستفيقونَ منها، وهي راهنة.. إلا بـ «هات» وإن علوا وإن هملوا

قال التبريزي في شرح القصائد العشر (ص: 296): والحانوت: بيت الخمار... نازعتهم حُسن الأحاديث وظريفها... والمرة والمزاء: التي فيها مزاة. والراووق: إناء الخمر.. والحضل: الدائم الندى... لا يستفيقون: أي شربهم دائم ليس لهم وقت معلوم يشربون فيه، والراهنة:

الدائمة.. وقوله (إلا بهات) أي بقولهم هات، أي إذا أبطأ عليهم الساقى قالوا: هات. اهـ

3 انظر: مقالا علميا على موقع ديوان العرب بعنوان: دراسة الشعر الخمري عند العرب قبل أبي نواس، بقلم يوسف هادي بور.

<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article26126>

4 وتفصيلها أن الأعشى هذا قد ((عزم على الدخول في الإسلام وأراد الذهاب إلى الرسول لينشده ويعلن أمامه دخوله في

الإسلام، ونظم شعراً في مدحه، فأدرك "أبو سفيان" ما في شعر "الأعشى" في مدح الرسول والإسلام من أثر في تصرفه وفي إضعاف

قريش، فلقيه وحادثه وكلمه، وجاءه من ناحية نقطة الضعف التي كانت فيه. وهي حبه للخمر. فهيج أشجانه فيها، وأظهر له

كيف أن الإسلام حرمها على المسلمين، وجعل في شربها الحد.. فأثر كلام "أبو سفيان" فيه، وأخذ الإبل وذهب بها إلى قومه، وأقام

بـ "منفوحة" حتى مات بها قبل الحول)) انظر: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (8/ 255):

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: نزل تحريم الخمر في سورة المائدة بعد غزوة الأحزاب وليس للعرب يومئذ عيش أعجب إليهم منها¹، "وما حَرَّمَ عليهم شيئاً أشد من الخمر"²، "فلا جرم أن جاء الإسلام في تحريمها بطريقة التدرج، فأقر حقبة إباحة شربها"³. ولذلك قالت السيدة عائشة: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً"⁴. "وذلك لانطباع النفوس بالنفرة عن ترك المألوف"⁵، "فإن النفوس كانت قد اعتادتها عادة شديدة، ولم يكن حصل عندهم من قوة الإيمان ما يقبلون ذلك التحريم.. فلهذا وقع التدرج في تحريمها، فأنزل الله أولاً فيها: {يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما}، ثم أنزل فيها - لما شربها طائفة وصلوا فغلط الإمام في القراءة - آية النهي عن الصلاة سكارى، ثم أنزل الله آية التحريم"⁶.

وهذا يدلنا على أنه لم يكن شرب الخمر مقتصرًا على العرب في الجاهلية، بل كان الصحابة رضي الله عنهم يشربونها في صدر الإسلام في مكة ثم في المدينة قبل أن ينزل تحريمها، وكانت بيوت المدينة المنورة مخزونة بالخمر حتى أريققت بعد تحريمها في شوارع المدينة، فعن أنس رضي الله عنه: كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة وكان خمرهم يومئذ الفضيخ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً ينادي ألا إن الخمر قد حرمت قال فقال لي أبو طلحة أخرج فأهرقها فخرجت فهرقتها فجرت في سكك المدينة ..⁷ "أي طُرقها، وفيه إشارة إلى توارد من كانت عنده من المسلمين على إراقتها حتى جرت في الأزقة من كثرتها"⁸.

¹ الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (467 /5)

² تفسير البغوي (250 /1)

³ التحرير والتنوير (339 /2)

⁴ صحيح البخاري بتحقيق د. البغا (1910 /4)

⁵ عمدة القاري شرح صحيح البخاري (31 /20)

⁶ مجموع الفتاوى (202 /17)

⁷ صحيح البخاري بتحقيق البغا (869 /2)، صحيح مسلم (1570 /3)

⁸ فتح الباري لابن حجر (39 /10)

كما يدلنا ما سبق على أن معاقره الخمر لم تكن في أوقات اللعب واللهو والسمر، ولا في أيام أو أعياد أو مناسبات أو أفراح بعينها فحسب، كفرحهم حين نجت قافلة أبي سفيان، فقيل "انصرفوا فقد سلّمت العير التي جئتم لنصرتها، فأبوا وقالوا: نأتي بدرنا فنشرب بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث بنا العرب لمكانتنا فيها، فسئقوا مكان الخمر كؤوس المنايا"¹. وإنما كاد يستغرق سائر أوقاتهم حتى أوقات الصلاة حيث كانوا "يصلون وهم سكارى؛ فخلطوا في القراءة؛ فأنزل الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون}، فنهاهم عن شربها قرب الصلاة"².

يدل على ذلك ما أخرجه الترمذي وحسنه عن علي بن أبي طالب، قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا، وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموني، فقرأت: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون. فأنزل الله يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون³.

ولم يكن شرب الخمر متعلقا بموضع إقامتهم ولا كان حكرا على الأغنياء بل "كانوا يضعون خمرهم في زقّ يحملونه معهم، فأينما يكون الإنسان يكون خمره معه. وقد كانوا يكثرون من استعماله كما يظهر ذلك من روايات أهل الأخبار مع فقر شاربها وعدم وجود طعام عنده"⁴. نعم كانت أواني الخمر التي يستعملونها "تناسب مع منزلة الشارب ومكانته. وقد كان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة يشربون بالآنية الغالية، وبعضها منقوش. وكذلك تفنّن أغنياء مكة في الشرب، فاستعمل عبد الله بن جدعان

1 جامع البيان ط هجر (11/ 216)، كذا رسمت الهمزة على نبرة في ط هجر، وفي طبعة شاعر كتبت على واو هكذا: "كؤوس المنايا" انظر جامع البيان ت شاعر (13/ 578).

2 مجموع الفتاوى (34/ 192)

3 ذكر السيوطي في الدر المنثور (4/ 446) أنه أخرجه عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس والحاكم وصححه.

4 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (8/ 258)

الأواني المصنوعة من الذهب في شربه، حتى ضُرب به المثل، فقيل: "أقرى من حاسي الذهب"¹. "وكانوا يشترون الخمر بأثمان غالية ويُعدّون المماكسة في ثمنها عيباً، قال لبيد :

أُعْلِي السِّبَاءَ بِكُلِّ أَدَكْنٍ عَاتِقٍ ... أَوْ جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وَفُضَّ خِتَائُهَا"².

كما أن خمرهم لم تكن مستخلصة من مادة بعينها بل "إن الجاهليين كانوا يصنعون الخمر من أي شيء يقع في أيديهم مما يمكن تخميره، للحصول على مادة مسكرة منه، مثل الحبوب والأعشاب وغير ذلك، بل كان منهم من يخمر اللبن، ولا سيما ألبان الإبل، للانتشاء بها"³.

وهكذا نرى إلى أي درجة كانت شدة تعلق العرب بالخمر، فاقتضت حكمة التشريع التدرج في تحريمها، ولعل سبب هذا التعلق الشديد بالخمر أن المجتمع الجاهلي يغلب عليه الفراغ والفقر، وتقلّ فيه وسائل اللهو، ولذلك في "مجتمع كهذا المجتمع لا بد أن يُقْبِلَ الناسُ فيه على قتل فراغهم بالبحث عن شيء ينسيهم فراغهم وفقرهم وشدة حاجتهم، ويلهيهم عن قساوة الطبيعة عليهم، ويبعث فيهم الأمل.. فكان إقبالهم على الخمر شديداً، حتى أفرطوا في شربه وآذى بعضهم نفسه من شدة إقباله عليه، فصار آفة من الآفات، حتى ضحّى شاربه بمركزه وماله في سبيله.. وقد كان الخمر من متع الحياة الثلاث بالنسبة للشباب؛ والمتع الثلاث: الخمر والقمار والنساء، فإذا أضيف الشجاعة إليها صار الفتى من خيرة الفتيان، لذلك كان الشباب يفتخرون إذا جمعوا بين هذه المتع ويتباهون على غيرهم بها"⁴.

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (8/ 255)

³ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (8/ 257)

4 ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته:

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى.. وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عَوْدِي

فَمِنْهُمْ سَبْقِي الْعَاذِلَاتِ بِشُرْبِي.. كُفَيْتِ مَتَى مَا تُعَلِّقُ الْمَاءَ تُزِيدِ

وَكَرِي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَنَّبًا.. كَسِيدِ الْعَصَا نَبَّهْتَهُ الْمَتَوَرِّدِ

وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجَبٌ.. بَبْهَكْنَةٍ تَحْتَ الطَّرَافِ الْمُعَمِّدِ

قال الزوزني: يقول: إحدى تلك الخلال أني أسبق العواذل بشرية من الخمر كُفَيْتِ اللون متى صُبَّ الماء عليها أزيدت، يريد أن يباكر شرب الخمر قبل انتباه العواذل.. والخصلة الثانية: إغاثته المستغيث وإعانتة اللاجئ إليه، والخصلة الثالثة أني أقصر يوم الغيم

وربما ارتكبوا المعاصي والمخالفات في سبيل الحصول على المال للإنفاق على متعهم هذه وعلى ملذاتهم وملاهيهم في هذه الحياة"¹.

نعم قد يقال: إنه على الرغم من تفشّي شرب الخمر في الجاهلية إلا أن بعض العقلاء منهم كانوا يجرّمونها على أنفسهم، أو شربوها حيناً ثم أقلعوا عنها، وقد عقد النويري فصلاً بعنوان "ذكر أخبار من تنزّه عنها في الجاهليّة وتركها ترفّعاً عنها" قال تحته: «كان ممن تركها في الجاهلية عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعبد المطلب بن هاشم، وعبد الله بن جدعان التيميّ وكان سيّداً جواداً من سادات قريش، وسبب تركه لها أنه شرب مع أميّة بن أبي الصلت الثقفيّ فأصبحت عين أميّة مخضرةً فخاف عليها الذهاب، فسأله عبد الله: ما بال عينك؟ فقال: أنت صاحبها أصبتها البارحة، قال: وبلغ منّي الشراب ما أبلغ معه من جليسي هذا المبلغ، فأعطاه عشرة آلاف درهم وقال: الخمر عليّ حرام، لا أذوقها أبداً. وقال فيها: شربت الخمر حتى قال صحيبي ... أأست عن السقاة بمستفيق؟

وحتى ما أوسد في مبيت ... أنام به سوى التّرب السحيق

وممن حرّمها في الجاهليّة: قيس بن عاصم المنقريّ، والسبب في ذلك أنه سكر فغمز عكنة²

ابنته أو أخته فهربت منه، فلما صحا أخبروه فحرّم الخمر على نفسه، وقال في ذلك³:

وجدت الخمر جامحة وفيها ... خصال تفضح الرجل الكريماً⁴

فلا والله أشربها حياتي ... ولا أدعو لها أبداً ندبما

بالتمتع بامرأة ناعمة حسنة الخلق تحت بيت مرفوع بالعمد. انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (ص: 108)، وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري (ص: 194)، شرح القصائد العشر للتبريزي (ص: 83).

1 الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (8/ 255)

ولا أعطي لها ثمنا حياتي ... ولا أشفي بها أبدا سقيما
فإن الخمر تفضح شاربها ... وتجشمهم بها أمرا عظيما
إذا دارت حُمياها تعلّت ... طوالع تسفه الرجل الحليفا
ومنهم: عامر بن الظرب العدواني، قال:

سألة للفتى ما ليس في يده ... ذهابة بعقول القوم والمال

أقسمت بالله أسقيها وأشربها ... حتى يفرّق ترب القبر أوصالي¹

ومنهم: صفوان بن أمية بن محرث الكتامي.. ومقيس بن عدي السهمي، وكان سكر فجعل يخط

ببوله:

أنعامه أو بعيرا، فلما أفاق وأخبر بذلك حرّمها.

ومنهم: العباس بن مرداس السلميّ قيل له: لم تركت الشراب وهو يزيد في جرأتك وسماحتك؟

فقال: أكره أن أصبح سيّد قومي وأمسي سفيهم.

ومنهم: سعيد بن ربيعة بن عبد شمس وورقة بن نوفل والوليد بن المغيرة.

وقال زيد بن ظبيان²:

بئس الشراب شراب حين تشربه ... يوهي العظام وطورا يوهي العصب

إني أخاف مليكي أن يعذبني ... وفي العشيرة أن يزري على حسبي

وقال رجل لسعيد بن سلم: ألا تشرب النبيذ؟ فقال: تركت كثيره لله تعالى وقليله للناس³.

3 نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (4 / 87)، ط/ دار الكتب العلمية، ت يحيى الشامي، وص 89 من ط/ دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، كذا وقع في الطبعين "يوهي العصب" وفي الحاشية كُتب: كذا بالأصل ولعل صوابه: وطورا موهن العصب. اهـ ووقع بلفظ "وطورا يأتنيك بالغضب" في التذكرة الحمدونية (8 / 343)، دار صادر. بيد أن أخي العلامة الشيخ أحمد زاهر سالم . حفظه الله . رأى أن هذا اللفظ الأخير ينكسر به البيت وأن صوابه: يأت بالغضب. والله أعلم

وقد كان ((ابن جدعان" يشرب الخمر على عادة الجاهليين في شربها، بقي يشربها حتى كبر فعافها، ودخل فيمن عاف الخمر على كبره من سادات قريش وأشرافها. وكان من عادتهم إذا كبروا ولعب بهم العمر، حرموا شرب الخمر على أنفسهم، "ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمر استحياءً مما فيها من الدنس، ولقد عابها ابن جدعان قبل موته" ¹). بل كان "العرب يمدحون من يمسك نفسه عن اللغو ونحوه في شرب الخمر، وكان قيس بن عاصم المنقري ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية وقال :

فإن الخمر تفضح شاريها.. وتجنّهم بها الأمر العظيم². اهـ

فهذا كله يفيد أنه ليس كل العرب كانت تعاقب الخمر، بل لو فرضنا أن كل العرب كانوا يعاقرون الخمر فليس فيه مذمة عليهم؛ إذ لم يبلغهم حرمة الخمر ولا حُرِّمت أصلاً إلا في المدينة، ولو كان شربهم للخمر مذمة لكان شرب الخمر مذمة للصحابة أنفسهم الذي استمروا على شرب الخمر بعد أن أسلموا وقبل أن ينزل تحريمه.

والجواب أننا نقول: أولاً: وهو ما سبق ذكره مرارا وهو أنكم إن كنتم تعولون على بعض العرب في ذكر مناقبهم في الجاهلية فإن بعضهم كان ينبذ الأصنام فليكن هذا من مناقبهم إذن! ثم إن من ترك الخمر منهم لم يتركها تدينا، كيف؟ وأنتم أنفسكم تقولون بأنها لم تحرم إلا في المدينة، وإنما حرّمها من حرّمها من أهل الجاهلية لما عاينوه من مضارها ولاسيما إذهابها للعقل، وما يسبب ذلك من أفعال يُستحى منها ويُتَزَّه عنها العقلاء مؤمنين كانوا أو كافرين، فابن جدعان ترك الخمر بعد أن فعل بعين صاحبه أمية ما فعل وهو سكران فقال: الخمر عليّ حرام، لا أذوقها أبدا. وقيس بن عاصم سبب تركه للخمر أنه "سكر فغمز عكنة ابنته أو أخته فهربت منه، فلما صحا أخبروه فحرّم الخمر على نفسه"، وعامر بن الظرب قال عنها: ... ذهّابة بعقول القوم والمال. وقال عنها:

تورث القوم أضغانا بلا إحن .. مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي³.

1 الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (7/ 101)

2 التحرير والتنوير (30/ 46)، والبيت قد سبق مع أبيات أخرى سردها النويري في نهاية الأرب.

3 الملل والنحل (3/ 87)، وانظر: نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (4/ 89).

والعبّاس بن مرداس السلميّ تركها قائلاً: أكره أن أصبح سيّد قومي، وأمسي سفيهم. وقد سبق ذلك كله في سياق القصص التي ساقها النويري لمن ترك الخمر من أهل الجاهلية، وهذا كلّه يبيّن أنّهم تركوها ليس تديّنًا، وإنما تنزها من السفه التي يؤدي إليه السكر، فضلًا عن الأضغان التي تورثها وغير ذلك.

ولذلك نجد بعض الدول الغربية تقنّن شرب الخمر وتضع له شروطًا، بل إن أمريكا في عهد الرئيس ويلسون قرّرت منعه قانونًا، حيث "مرّر الكونغرس الأمريكي قانونًا مؤقتًا يحظر بيع وتصنيع ونقل المشروبات التي تحتوي على نسبة كحول أعلى 2.75%، وتمّ تنفيذ القانون في 30 يونيو 1919، وعرف القانون باسم (العطشى أولاً) كونه صدر في أيام هدنة الحرب العالمية الأولى أملًا في توفير القمح"1، ثم "تمّ إلغاء القانون في 5 ديسمبر 1933"2. بل "يذكر موقع واين سيرشر أن ثمة ولايات واصلت العمل بقانون حظر الكحول حتى 1966، بل إن هناك مقاطعات أميركية لا تزال تمنع تصنيع الكحول حتى اليوم"3. ونحو ذلك حدث في فنلندا والتشيك4، وكلهم إنما فعلوا ذلك لما تجرّه الخمر من مفساد دنيوية لا لأسباب دينية، لأن هذه دول علمانية وبعضها لا دينية أصلاً، وغالبها يبيح الشذوذ الجنسي والإلحاد ونحو ذلك، بل لا مانع لديهم من شرب الخمر من حيث المبدأ، وغاية ما هنالك أنّهم قيدوا شربها ببعض القيود التي تخفف من مفسادها في المجتمع.

نعم قد يكون هناك من ترك الخمر في الجاهلية تديّنًا كما في قول زيد بن ظبيان السابق: إني أخاف ملكي أن يعذبني.. وكما في قول رجل لسعيد بن سلّم: ألا تشرب النبيذ؟ فقال: تركت كثيره لله تعالى وقليله للناس⁵. اهـ ولكن هؤلاء الذين تركوا الخمر في الجاهلية تديّنًا هم من الحنفاء الموحدين الذي يؤمنون بالبعث والنشور والثواب والعقاب، كما كان من عامر بن الظرب حيث "حرم الخمر على

¹ انظر : http://www.wikiwand.com/ar/حظر_الكحوليات_في_الولايات_المتحدة

² انظر : http://www.wikiwand.com/ar/حظر_الكحوليات_في_الولايات_المتحدة

³ انظر مقال في الشبكة العنكبوتية على موقع سكاى نيوز بعنوان: عندما حُظرت "الكحوليات" في بلاد العم سام.

⁴ انظر مقال "هذه الدول تجرم بيع الكحوليات" على الرابط التالي

http://www.huffpostarabi.com/2016/11/01/story_n_12745282.html

نفسه فيمن حرّمها" كما سبق¹، وقد عدّه ابن الجوزي من الحنفاء المؤمنين بالبعث كما سبق²، وسبق أيضا أن ابن الطرب هذا قال: "إني أرى أموراً شتى، وحتى، قيل له: وما حتى؟ قال: حتى يرجع الميت حياً، ويعود لا شيء شيئاً، ولذلك خلقت السموات والأرض"³.

ثانياً: وأما قضية أن شرب الخمر ليس مذمّة لأهل الجاهلية لأن الخمر لم تحرم إلا في المدينة، فحاصل كلامكم هذا أن أهل الجاهلية غير مؤاخذين بشرب الخمر في الجاهلية، لكونه لم يكن محرماً، بدليل شرب الصحابة رضي الله عنهم في صدر الإسلام قبل أن ينزل تحريمها، وهذا يلزم منه أن لا يؤاخذوا بشيء من الموبقات التي فعلوها في الجاهلية للسبب عينه، وهو أن الإسلام لم يكن بعد، وبالمقابل يجب ألا تعتدوا بشيء من عباداتهم التي نسبتموها إليهم كالصلاة وغيرها، لأن الصلاة ومعظم الفرائض والأحكام والشرائع لم تكن فرضت إلا في المدينة، وإنما الذي فرض أولاً هو التوحيد والنهي عن الشرك كما في حديث عائشة السابق "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام..".

فكيف ذهبتم تُعدّدون من مناقب الجاهلية الصلاة والصوم والزكاة والحج، وهي لم تكن فرضت أصلاً، فإن أبيتم إلا أن تعدّوها مناقب فيجب أن تعدّوا تعاطيهم للخمر والميسر والربا والزنا، وغير ذلك من مذاقهم وإن نزل تحريمها بعد البعثة، تماماً كما جعلتم صلاتهم وصيامهم ونحو ذلك من العبادات مناقب لهم مع أنها لم تفرض بعد، أما أن تعدّوا عباداتهم مناقب مع أنها لم تفرض، ثم تعتذرون عن قبائحهم بحجة عدم نزول تحريمها فهذا كيل بمكيالين، لا تكيلون بمثله لمن يشهد أن لا إله إلا الله!!

1 يُنظر كتابي: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (233) .

2 انظر: ص (38) عند قولي : ساعدة وعامر بن الطرب

3 انظر: ص (290) عند قولي : حتى يرجع الميت حياً

المطلب الثالث: النسيء

فمن مسائل الجاهلية "استحلالهم الشهر الحرام وتحريمهم غيره، فأنزل الله فيه {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} الآية¹، وبيان ذلك أن الله تعالى يقول: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَلُّونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ} [التوبة: 37] أي "إنما التأخير _ الذي يؤخره أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرام منهم حلالا والحلال منهم حراما _ زيادة في كفرهم وجحودهم أحكام الله وآياته"²، وقال ابن تيمية أيضا: "بل أهل الجاهلية لما ابتدعوا النسيء الذي يتضمن إبدال وقت الحج بوقت آخر..³ فهذا هو "النسيء الذي كان في العرب: الذي هو زيادة في الكفر"⁴.

وقال عليه السلام في حديث الشيخين "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم.."، "معناه: أنهم في الجاهلية يتمسكون بملة إبراهيم - صلى الله عليه وسلم - في تحريم الأشهر الحرم، وكان يشقّ عليهم تأخير القتال ثلاثة أشهر متواليات، فكانوا إذا احتاجوا إلى القتال أخرّوا تحريم الحرم إلى الشهر الذي بعده وهو صفر، ثم يؤخّرونه إلى السنة الأخرى إلى شهر آخر، وهكذا يفعلون في سنة بعد سنة حتى اختلط عليهم الأمر.. فأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الاستدارة صادفت ما حكم الله به يوم خلق السموات والأرض"⁵.

ويذكر ابن إسحاق أن "أول من نساأ الشهور على العرب فأحلّت منها ما أحلّ، وحرّمت منها ما حرّم القلمس، وهو حذيفة بن عبد بن فقيم.."، و أن جنادة بن عوف كان آخرهم وعليه قام الإسلام. وكانت العرب إذا فرغت من حجّها اجتمعت إليه، وأنه إذا أراد أن يحلّ منها شيئا أحلّ المحرمّ

1 زوائد مسائل الجاهلية (ص: 32)

2 جامع البيان ط هجر (11 / 449)

3 مجموع الفتاوى (31 / 233)

4 مجموع الفتاوى (6 / 590)

5 شرح النووي لصحيح مسلم، 11 / 181

فأحلّوه، وحرّم مكانه صفرَ فحرّموه، وأنه يقول: اللهم إني قد أحللت لك أحد الصفرين الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل.. وفي ذلك يقول بعضهم وهو يفخر بالنسأة على العرب لقد علمت معد أن قومي.. كرام الناس أن لهم كراما
ألسنا الناسئين على معد .. شهور الحل نجعلها حراما¹.

1 السيرة النبوية لابن هشام (44 / 1)، «الروض الأنف ت الوكيل» (245 / 1)، «سمط اللآلي في شرح أمالي القالي» (11 / 1)

المبحث الثالث: قبائح الجاهلية في مناقبهم المزعومة

وأقصد بها ما ذكرته من تلك القبائح حين ناقشت المناقب التي ذكرها السلفية للمشركين، وفيما يلي ذكر المنقبة وذكر ما فيها من قبائح، وأبسط ذلك في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: قبائح الجاهلية في عباداتهم

1. الصلاة: وقد ذكرت أن صلاتهم كانت عبارة عن التصفيق والتصفير، وكانوا يمنعون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الصلاة في المسجد الحرام كما قال تعالى " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا".

2. الزكاة والصدقات، وهذا ما نفاه الله عنهم في آيات كثيرة سبقت، نعم كانوا يصرفون أموالهم ولكن تقرباً لأصنامهم لا لله، ومن هذا الباب ما يفعلونه من تسييب السوائب لأهنتهم، والفرع والعتيرة من هذا الباب أيضاً كما سبق.

3. الحج والعمرة، وذكرت أن من قبائحهم في الحج والعمرة ما يلي:

(1) في التلبية: "كان المشركون يقولون لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك"

(2) كانوا لا يذكرون الله فيه، وإنما يذكرون آباءهم ويفخرون بهم.

(3) وكانوا لا يسألون الله فيه إلا حاجات الدنيا دون الآخرة لأنهم لا يؤمنون بها أصلاً.

(4) كانت قريش لا تقف في الحج بعرفات.

(5) وكانوا يغيرون زمان الحج بالنسيء.

(6) وكانوا يطوفون فيه عراً.

(7) وكانوا يطوفون بالأصنام التي أحاطوها بالكعبة، ويجعلون لأهنتهم نصيباً في تلبيتهم.

(8) وكانوا يحجّون إلى بيوت أخرى غير الكعبة.

4. **الجهاد دفاعاً عن الكعبة** ضد أبرهة حين همّ بهدمها، وقد قلنا إن منهم من تقاعس عن ذلك، بل تواطأ بعضهم مع أبرهة لهدم الكعبة، والذين قاموا بالدفاع عنها إنما فعلوا ذلك . في الغالب . لما تدرّ

عليهم من أرباح وفيرة وكذلك دفاعا عن أصنامهم التي أحاطوا بها الكعبة، وأما بعد البعثة فقد قاتلوا في سبيل الطاغوت والشيطان، وحاربوا الله ورسوله ليردّوه وأصحابه عن دينهم.

5. **النذر والاعتكاف**، ذكرنا أن النذر مختلف في مشروعيته بل جاء النهي عنه صريحا، وعلى التسليم بمشروعيته فقد كان المشركون يندرون لأصنامهم لا لله، ويندرون في معاص أخرى. وأنهم كانوا لا يوفون بندورهم، وإن وفوا فحذرا من الهامة. وأما الاعتكاف فقد كانوا يعكفون على أصنامهم كما جاء في آيات كثيرة.

6. **ذكر الله**، فقلْتُ إنهم على العكس من ذلك، فقد كانوا يذكرون أصنامهم في ذبائحهم، ويذكرون آباءهم في الحج بدل ذكر الله، وكانوا يشتمون من مجرد ذكر الله وحده، ويستبشرون بذكر آلهتهم، بل كانوا يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم.

7. **دعاء الله عند الشدة**، قلنا كان ذلك مكرًا منهم بالله لينجّيهم فيعيشوا أكثر، ويستمتعوا بالحياة الدنيا وملذّاتها، حلالها وحرامها، وليعودوا إلى شركهم وكفرهم، وهذا ما كان يحدث حقا بعد أن ينجّيهم من الشدة.

8. **الخلوة**، وقد ردّدنا بأن الخلوة عندكم معدودة من بدع الصوفية، وأن ما فعله النبي ﷺ من الخلوة في حراء ليس بحجة لأنه كان قبل البعثة، وعلى التسليم بأنها مشروعة عندكم فهي لو علمنا ما كانوا يفعلون فيها فلعلنا وجدنا فيها شركا أو أوهاما باطلة كما في رقايم.

المطلب الثاني: قبائح الجاهلية في مناقبهم في الشرائع

- 1) التذكية والذبح في الحلق واللبة، وذكرنا أنهم كانوا يُزهِقون روح الحيوان بطرق كثيرة شنيعة، ويأكلونها كالمخنقة والموقوذة والمتزدية والنطيحة وما أكل السبع، وكانوا يأكلون الميتة والدم وما دُبِح على النصب والمصبورة ونحو ذلك.
- 2) الدية؛ وقد قلنا إنهم كانوا يغدرون حيث يأخذون من القاتل الدية في أول الأمر، ثم إذا ظفروا بالقاتل قتلوه، وأن الدية كانت تتفاوت عندهم بحسب تفاوت شرف المقتول وحسنته.
- 3) عقوبة الزنا بالرجم أو القتل، وقد قلنا بأن الزنا كان منتشرًا عندهم وبصور كثيرة، أما عقوبة الزنا عندهم فهي - إن ثبتت طبعًا - تُطبَّق بشكل انتقائي.
- 4) قطع يد السارق، وقد قلنا بأنهم كانوا يأكلون المال من غير حِلِّه، كالربا والقمار وغير ذلك.
- 5) القصاص، وقلنا: كانوا لا يرون حُرمة للدماء ولا للأموال كما قال ابن تيمية، وكانوا يسفكون دماء كثيرة بغير حق، وإنما كانوا يطبِّقون القصاص أحيانًا انتقامًا وخشيةً من الهامة، فضلًا عن أنهم لم يراعوا العدل في القصاص حيث كانوا يقتلون الجماعة بالواحد، ويقتلون بالمرأة رجلًا وبالعبد حرا وهكذا.

المطلب الثالث: قبائحهم في مناقبهم في مكارم الأخلاق

فذكروا أن المشركين كانوا يصلون الأرحام، ويكرمون الضيف وابن السبيل، وكانوا يتمتعون بالشهامة والشجاعة والوفاء، ونحو ذلك، وقد قلنا: بأن الجاهلية كانت مرتعا لكل خلق ذميم، وما كان فيهم من مكارم الأخلاق وإنما يتصف بها أفراد من علية القوم الذين كان معظمهم من الحنفاء الذين نبذوا عبادة الأصنام أصلا، ومن لم يكن من الحنفاء فعل تلك المكارم رياءً وسمعة، وهذا بحد ذاته مذمة في الشرع لا منقبة كما بسطناه.

الفصل الثاني: بيان الحال التي آل إليها المشركون بعد البعثة

وفيها تفصيل للوجوه الكثيرة التي كفر من أجلها المشركون بعد البعثة، وبسببها قاتلهم النبي ﷺ، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

الوجه الأول: كفرهم في باب الإيمان بالله.

الوجه الثاني: كفرهم في باب الإيمان بالملائكة.

الوجه الثالث: كفرهم في باب الإيمان بالنبوات.

الوجه الرابع: كفرهم في باب الإيمان بالكتب السماوية.

الوجه الخامس: كفرهم في باب البعث والحشر واليوم الآخر.

وقد ذكر ابن عبد الوهاب نفسه معظم هذه الوجوه في رسالته في مسائل الجاهلية، وأوردها هنا مرقمة بترقيمه:

(1) [51]: قولهم في القرآن: {إن هذا إلا قول البشر}.

(2) [103]: الكفر بالملائكة.

(3) [104]: الكفر بالرسل.

(4) [105]: الكفر بالكتب.

(5) [107]: الكفر باليوم الآخر.

وهي خمسة كما ترى، ولكن لم يذكر قضية كفرهم في باب الإيمان بالله، وذكر بدلا منها قضيتين؛

الأولى: كفرهم بالقرآن، والثانية: كفرهم بالكتب السماوية، وقد دمجت بينهما وزدت وجه كفرهم في باب

الإيمان بالله، وفيما يلي بسط لهذه الأوجه الخمسة في خمسة مباحث. وبالله التوفيق

المبحث الأول: كفرهم في باب الإيمان بالله.

يمكن القول بأن معظم المشركين يؤمنون بأصل فكرة وجود الله، وأن قلة منهم كانوا منكرين لوجوده تعالى كما سبق بيانه¹، إلا أن إيمان هؤلاء يعتره كثير من السذاجة والخلط والخطب والشك والريب والشرك في الربوبية والألوهية ومعظم صفاته تعالى!!

وحاصل ذلك أن إيمان المشركين بالله فيه خلل عظيم، وهذا الخلل يمكن أن ينقسم إلى أقسام، قسم يتعلق بشركهم فيما يسمى بتوحيد الألوهية، وهذا نخصص له الباب الثالث إن شاء الله، وثمة قسمان آخران هما:

القسم الأول: الخلل المتعلق بتصورهم العام عن الله وصفاته.

القسم الثاني: الخلل المتعلق بشركهم فيما يسمى بتوحيد الربوبية.

وفيما يلي بسط هذين القسمين في مطلبين بتوفيق الله.

1 انظر: ص (22) عند قولي : (..المرتابين في الصانع أو الجاحدين له...)

المطلب الأول: الخلل المتعلق بتصورهم العام عن الله وصفاته.

وهذا الخلل يتجلى في كثير من الأمور، وقد سبق ذكر كثير منها مبسوطاً، ومنها ما نبسطه لاحقاً بعون الله، ولكن نجملها هنا فيما يلي:

(1) نسبتهم الولد إلى الله - سبحانه - كما قال تعالى: { أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) } [الصفات: 151، 152] كما ذكرنا سابقاً، ونبسطه لاحقاً 1.

(2) كانوا "يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم كما قال تعالى: { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ } [الأنعام: 108]"². "فلولا تعظيمهم لآلهتهم على الله لما سبوا الله إذا سبت آلهتهم"³، "فهؤلاء لما سبت آلهتهم سبوا الله مقابلة، فجعلوهم مماثلين لله وأعظم في قلوبهم"⁴. وهذا نبسطه لاحقاً 5.

(3) اتخذوا الأصنام آلهة من أجل أن تُعزِّهم من دون الله { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا } [مریم: 81]، وسيأتي بيانه 6.

(4) واتخذوا الأصنام آلهة من أجل أن تنصرهم من دون الله { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ } [يس: 74]، وسيأتي بيانه 7.

1 انظر: ص (312) عند آية: مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ

2 مجموع الفتاوى (7/ 632)

3 منهاج السنة النبوية لابن تيمية (5/ 397)

4 منهاج السنة النبوية (2/ 395)

5 انظر: ص (334) عند جملة: إذا سبت آلهتهم

6 انظر: ص (550)

7 انظر: ص (550)

- (5) زعموا أن آلهتهم تقدر على إلحاق الأذى برسله: { إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آهْتِنَا بِسُوءٍ } (هود: 54) لذلك "خوفوا أنبياءهم من بطشهم" 1 كما في قوله تعالى: { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ } [الزمر: 36]، وقد سبق أيضا².
- (6) كانوا يعدلون الأصنام برهم كما في قوله { ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [الأنعام: 1].
- (7) وكانوا يساوونها به، كما في قوله: { إِذْ نُسَوِّبُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء: 98].
- (8) وأنها أنداد له . تعالى . كما في قوله { وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [فصلت: 9] وقد سبق بيان هذه الثلاثة الأخيرة³.
- (9) وكانوا يحبونها كحب الله كما في قوله: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } [البقرة: 165]⁴.
- (10) كانوا يشكّون في قدرته تعالى، ولذلك استبعدوا إحياءه الموتى لأجل البعث والنشور: { إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } [ق: 3] وقال { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } [يس: 78]⁵.
- (11) وكانوا يشكّون في سمعه لنجواهم { أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } [الزخرف: 81]⁶.

1 محاسن التأويل للقاسمي نقلا منه عن القاشاني مقرا له (8/ 383)، وأول كلام القاسمي: ولما كانت هذه الآية وأخواتها من معارك الأنظار قديما وحديثا آثرت أن أنقل هنا ما لحققي المفسرين، جريا على قاعدتنا في التقاط نفاث ما للمتقدم، وتحلية مصنفاتنا بها، فنقول: قال القاشاني: لما سمعوا من الأنبياء تعليق الأشياء بمشيئة الله تعالى، افترضوه وجعلوه ذريعة في الإنكار. وقالوا ذلك لا عن علم وإيقان، بل على سبيل العناد والإفحام.. ولهذا ردهم الله تعالى بقوله: ما لهم بذلك من علم إذ لو علموا ذلك لكانوا موحدين.. اهـ

2 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (314).

3 انظر: ص (299)

4 انظر: ص (497)

5 انظر: ص (378)

6 انظر كتابنا: "ولفن سألتهم" ص (92)

- 12) وأخرجوا الرسول وأصحابه من ديارهم لمجرد قولهم "الله ربنا"، كما قال تعالى {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} [الحج: 40]، قال صديق حسن خان: "أي أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم: ربنا الله وحده"¹. اهـ وكما في قوله {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} [المتحنة: 1]، قال الطبري: وذلك إخراج مشركي قريش رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة.. يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ لِأَنْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ². وقال الشنقيطي: "أي يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم"³.
- 13) كانوا يشتمزون من مجرد ذكر الله وحده، ويستبشرون بذكر ما سواه، كما قال تعالى {وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر: 45] وقد سبق⁴.
- 14) وكانوا يشكّون في علمه بهم كما قال تعالى: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} {5، أي "ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون من المعاصي فاجترأتم على فعلها، قيل: كان الكفار يقولون: إن الله لا يعلم ما في أنفسنا، ولكن يعلم ما نظهر دون ما نُسِرّ. قال قتادة: الظن هنا بمعنى العلم، وقيل: أريد بالظن معنى مجازي يعمّ معناه الحقيقي، وما هو فوقه من العلم"⁶، وقوله تعالى: "وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم"، أي "هذا الظن الفاسد،

1 فتح البيان في مقاصد القرآن (9/ 56) لصديق حسن خان، المكتبة العصرية، تحقيق الشيخ عبد الله الأنصاري.

2 جامع البيان ط هجر (22/ 558)

3 أضواء البيان للشنقيطي (7/ 453)

4 انظر: ص (145) عند قولي: (ينقبضون من ذكر الله)

5 [فصلت: 22]

6 فتح القدير للشوكاني (4/ 587)

وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرا مما تعملون، هو الذي أتلّفكم وأرداكم عند ربكم¹.

روى البخاري عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله تعالى: {وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم}². قال الغنيمان: والآخر الذي هو أفقه من هذا علّق علم الله بذلك بقوله: "إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا"، فهو شك في ذلك، ولهذا وصفهم عبد الله ﷺ بقلة الفقه³. اهـ فهو شك "لأنه لم يجزم به، وإنما بنى الأمر على الاحتمال"⁴، فلما "لم يعتقد حقيقة ما قال، وشك فيه، ولم يقطع على سمع الله تعالى بقوله: إن كان يسمع، لم يحكم له النبي (ﷺ) بالفقه⁵، وسوى بينهم في أنه قليل فقه

1 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (230 / 12)

2 صحيح البخاري بتحقيق البغا (6 / 2735)

3 شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (2 / 505)

4 الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (11 / 296)

5 كذا قال ابن بطلال، وفيه نظر؛ لأن هذا الحديث موقوف على ابن مسعود لا مرفوع كما نبهني بعض الأفاضل، فالصواب أن يقول: لم يحكم له ابن مسعود بالفقه، ولعل الحافظ تنبه لذلك فاستخدم الفعل المبني للمجهول "وُصف" حين نقل كلام ابن بطلال فقال في «فتح الباري» (13 / 496): «وإنما وُصف الجميع بقلة الفقه لأن هذا الذي أصاب لم يعتقد حقيقة ما قال بل شك بقوله إن كان...» وكذا فعل العيني في «عمدة القاري» (25 / 179)، ولكن وقع في كلام ابن الملقن حيث قال في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (33 / 500): «فإن أصاب في قياسه فكيف جعله الشارع من جملة الذين شهد لهم بقلة الفقه؟ قيل له: لما لم يعتقد حقيقة...»، فقول ابن الملقن " فكيف جعله الشارع " ظاهره أن الحديث مرفوع عنده كما ذكر ابن بطلال، وقد سبق أنه موقوف، اللهم إلا أن يقال إن قول ابن مسعود الموقوف هذا له حكم الرفع؛ لأنه وارد في سبب نزول الآية، وهذا له حكم الرفع كما ذكروا في مصطلح الحديث، وفي ذلك يقول الشيخ محمد أبو شُهبة في «المدخل لدراسة القرآن الكريم» (ص135): «وقول الصحابي في سبب النزول، له حكم المرفوع، كما نبه على ذلك الحاكم وابن الصلاح وغيرهما من أئمة علوم الحديث؛ لأنه قول فيما لا مجال للرأي فيه، ويبعد كل البعد أن يقول ذلك من تلقاء نفسه، فهو محمول على السماع أو المشاهدة».

قلوبهم"¹. اه فإذا كان هذا حال من أثبت علم الله في الجهر والخفاء، وهو حال الشك، فما

بالك بمن نفى أو شك في علم الله بكليهما أو بأحدهما كما في شأن الآخرين؟!

15) بل كانوا يشكّون في وجود الله نفسه كما في قوله { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ

الْحَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ } [الطور: 35، 36]، قال

الحافظ نقلا عن الخطابي: ((ثم قال "أم خلقوا السماوات والأرض" أي إن جاز لهم أن

يدعوا خلق أنفسهم فليدعوا خلق السماوات والأرض وذلك لا يمكنهم فقامت الحجة، ثم

قال "بل لا يوقنون" فذكر العلة التي عاقبتهم عن الإيمان وهو عدم اليقين الذي هو موهبة

من الله ولا يحصل إلا بتوقيفه فهذا انزعج جبير حتى كاد قلبه يطير ومال إلى الإسلام

انتهى))². وقال أبو حيان: ("بل لا يوقنون": أي إذا سئلوا: من خلقكم وخلق السموات

والأرض؟ قالوا: الله، وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون)³.

16) كانوا يسيئون الظن بالله، ويشكّون في حكمته وفي نفوذ قضائه وقدره، كما قال تعالى:

{ وَيُعَدِّبُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ

دَائِرَةُ السَّوْءِ وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ } [الفتح: 6] وقد بسط ذلك ابن تيمية وابن القيم كما

سبق⁴.

17) لم يكن عندهم قداسة أو تعظيم لله تُذكر، وإنما القداسة هي لأصنامهم وأقوامهم

وأنفسهم، فهي مقدّمة عندهم على الله، أما أن القداسة عندهم لأصنامهم على الله فلاأنهم

كانوا "يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم"⁵، "فلولا تعظيمهم لآلهتهم على الله لما سبّوا الله إذا

1 شرح صحيح البخاري لابن بطال (10/ 523).

2 فتح الباري (8/ 603)

3 البحر المحيط (8/ 149)

4 انظر: ص (46، و 242) عند قولي: (ظن الجاهلية ظنا ينافي)

5 مجموع الفتاوى (7/ 632)

سُبِّتَ آلهتهم" 1 وقد سبق، وأما تعظيمهم لأقوامهم على الله، فيدل عليه قول شعيب عليه السلام { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذُواهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا } [هود: 92]، أي "يا قوم أعزتم قومكم، فكانوا أعز عليكم من الله، واستخفتم بربكم، فجعلتموه خلف ظهوركم، لا تأتمرون لأمره، ولا تخافون عقابه، ولا تعظمونه حق عظمته" 2. وقال السمعاني: "أمكان رهطي عندكم أهيب وأمنع من الله تعالى؟" 3. اهـ

(18) ولذا قال تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الأنعام: 136]، أي "إن رأوا ما عيّنوا لله أزكى بدّلوه بما لآلهتهم، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حبا لآلهتهم" 4، "ساء ما يحكمون في إثارة آلهتهم على الله تعالى وعملهم ما لم يشرع لهم" 5. وفي "هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم وجهلهم وإثارةهم لآلهتهم على الله سبحانه" 6.

(19) وأما تعظيمهم لأنفسهم على الله، فيوضحه قول ابن تيمية: { ويجعلون لله ما يكرهون.. } فبيّن سبحانه وتعالى أنهم يفضلون أنفسهم على ربحهم ويجعلون له ما يكرهون.. 7 اهـ فكان "المشركون يقولون: إن الملائكة بنات الله.. وهم مع هذا يجعلون البنات نقصا وعيبا ويرون الذكر كمالا فقال لهم: كيف تصفون ربكم بأنقص الوصفين وأنتم مع هذا لا ترضون هذا

1 منهاج السنة النبوية لابن تيمية (5/ 397)

2 جامع البيان ط هجر (12/ 555)

3 تفسير السمعاني (2/ 454)

4 أنوار التنزيل وأسرار التأويل (2/ 184)

5 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (2/ 68)

6 فتح القدير للشوكاني (2/ 187)

7 درة تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7/ 363)

لأنفسكم"¹، وبذلك يتبين "فرط جهلهم وظلمهم إذ جعلوا لله ما لا يرضونه لأنفسهم فكانت أنفسهم عندهم أعظم من الله سبحانه"².

وهكذا نرى كم كان يعتري عقيدة العرب من زيغ في تصورهم عن الله، ومن هنا نعلم خطأ ما ذكره جواد علي في كتابه "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" حول عقيدة عرب الجاهلية في الله، حيث صور عقيدتهم وكأنها لا تشوبها شائبة، فمثلاً قال بعد أن ذكر تحت عنوان "الله الخالق": "إن قريشاً كانوا يؤمنون بإله واحد خلق الكون، وهو رب السماوات والأرض..³ وقد سبق أن سردنا كلامه هنا ورددنا عليه، ثم ذكر ما يوهم أن العرب كلهم يعتقدون بأن الله يعلم كل شيء حيث قال ((و"الله" كما جاء في شعر زهير بن أبي سلمى، عالم بكل شيء، عارف بالخبائيا وبالأسرار، وبما ظهر من الأعمال وما بطن...))، وقد سبق أن سردنا كلامه هذا أيضاً حين تكلمنا عن إيمان زهير بن أبي سلمى بالبعث خلافاً لسائر العرب في الجاهلية سوى الحنفاء، فلذلك لا يصح أن يجعل شعر زهير هو المقياس لعقيدة كل العرب، فهذا تعميم خاطئ فضلاً عن أنه ينقضه الآيات السابقة التي تبين أن العرب كان تشك في علمه وقدرته وسمعه، ثم يقول جواد: والله "كريم" لا يكدر نعمة، إذا دُعي أجاب. وهذا هو رأي الأعشى في الرب، إذ يقول:

ربي كريم لا يُكدر نعمة .. وإذا يناشد بالمهراق أنشدا⁴.

قلت: أولاً: "ربه هذا إنما يعني به سيداً كريماً متفضلاً عليه كما يتضح من البيت السابق لهذا

البيت"⁵، حيث قال الأعشى قبل ذلك:

أذلت نفسك بعد تكربة لها .. أو كنت ذا عوز ومنتظراً غدا

أم غاب ربك فاعترتك خصاصة .. فلعل ربك أن يعود مؤيداً¹

1 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7/ 362)

2 مجموع الفتاوى (27/ 364)

3 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11/ 103)

4 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (11/ 106)

5 مصادر الشعر الجاهلي (ص: 65)، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، ط7/ 1988.

قال ابن السِّيد البطليوسي: (ربي كريم لا يكدر نعمه) عنى بربه كسرى، وكان الحارث بن وعله أغار على بعض سواد كسرى، فأخذ كسرى قيس ابن مسعود ومن وجد من بني بكر فحبسهم، فلذلك قال الأعشى هذا يستعطفه به، ويسأله نعمته عليهم، وألا يكدرها 2 بإساءة من أساء منهم 3. اهـ

ثانيا: ثمة من شكك في هذا البيت، ف قيل بأنه أدخله بعض النصارى ليوهم أن الأعشى كان نصرانيا، يقول ضيف "المهارق هنا الصحف الدينية؛ فكأنه يعترف بأنه نصراني، ترتل لربه الأناشيد الكنسية؛ غير أن هذا ليس حتمًا؛ فقد تكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهارق كانوا يتلون فيها بعض أدعيتهم. وقد يكون البيت دخيلاً على القصيدة، وسنعرف بعد قليل أن راوي ديوانه كان مسيحياً، وأغلب الظن أنه هو الذي أدخل هذا البيت في القصيدة" 4.

ثالثاً: ولو سلمنا بأن البيت ثابت وبأنه قصد بربه هنا الله، فهذا لا يعني أن العرب كلهم أو جلهم في الجاهلية كانوا يقولون بأن الله كريم، فهذا أيضاً تعميم خاطئ، وإذا كان اليهود قالوا عن الله بخيل كما كنوا عن ذلك في قوله تعالى { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ } [المائدة: 64]، "فمراد اليهود هنا، عليهم لعائن الله، أن الله بخيل، فأجاب سبحانه عليهم بقوله: "غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ" دعاء عليهم بالبخل.. ثم رد سبحانه بقوله: بل يدها مبسوطتان أي بل هو في غاية ما يكون من الجود" 5. اهـ فإذا كان هذا شأن اليهود وهم أهل كتاب ومع ذلك وصفوا الله بالبخل فما بالك بأهل الجاهلية!؟

-
- 1 الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (3/ 354)، ابن السِّيد البطليوسي، ت السقا، دار الكتب المصرية، 1996م.
 - 2 قوله "وأن يكدرها" كذا في الاقتضاب من طبعة الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة، وظاهر من السياق أن الجملة منفية! أي سقطت "لا" فالصواب: وأن لا يكدرها. والله أعلم
 - 3 الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (3/ 353) ت مصطفى السقا مع حامد عبد المجيد، ط/ 1983م.
 - 4 تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي (ص: 338)، شوقي ضيف، دار المعارف.
 - 5 فتح القدير للشوكاني (2/ 66)

سُبُّهُمْ لِلَّهِ رَدًّا عَلَىٰ مَنْ يَسُبُّ آهْتَهُمْ

يدلّ عليه قوله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: 108]، أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس في قوله (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) الآية، قال: قالوا: يا مُجِدِّ لتنتهين عن سبِّ أو شتم آهتنا أو لنهجون ربك. فنهاهم الله أن يسبوا أو يثامهم فيسبوا الله عدواً بغير علم. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قصة طويلة حاصلها أنه لما حضر أبا طالب الموت ذهب قريش إليه وقالت له: "يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، وإن مُجِدِّاً قد آذانا وآذى آهتنا، فنحب أن تدعوه فنتناه عن ذكر آهتنا ولدعوه وإلهه". وفي آخرها أنهم قالوا للنبي: "لتكفن عن شتم آهتنا أو لنشتمك ونشتم من يأمرك. فأنزل الله ولا تسبوا الذين..". وأخرج الطبري وغيره عن قتادة قال: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله، فأنزل الله ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله¹.

فالحاصل من الآية ومن هذه الآثار أن هؤلاء المشركين كانوا يسبون الله إذا سب المسلمون أصنامهم، "ولا ريب أن سبَّ الله عزَّ وجلَّ يُعدُّ أقبح وأشنع أنواع المكفَّرات القوليَّة التي تناقض الإيمان"²، ومع ذلك فقد حاول بعض السلفية تأويل الآية السابقة والاعتذار عن المشركين، فأورد في ذلك تأويلات واعتذارات، نوردها مع الجواب عنها فيما يلي:

الاعتذار الأول: أن المشركين أرادوا سبَّ رسول الله لا سب الله..!! وفي ذلك يقول الأفغاني: "إن المراد من سبِّهم الله سبِّهم رسول الله ﷺ بحيث يُفضي سبُّهم إلى الله من دون قصد وعلم، يدلّ عليه قوله تعالى في الآية نفسها: {بِغَيْرِ عِلْمٍ}؛ لأنهم كانوا يقرون بعظمة الله، وإنما عبدوا آهتهم لتكون شفعاء لهم عنده"³. اهـ واستدل بعض السلفية⁴ بقول الفخر الرازي في هذه الآية "إن الصحابة متى شتموا

1 انظر تحريج هذه الآثار في الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (6/ 168)

2 انظر نواقض الإيمان القولية والعملية للبعد اللطيف ص 108.

<https://www.saaaid.net/Doat/almuwahid/9.htm>

3 جهود علماء الحنفية (1/ 261)، شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 294

4 انظر مقال على الشبكة: الاستغاثة والرد على مُجِدِّ علوي المالكي "الحلقة الرابعة"

الأصنام، فهم كانوا يشتمون الرسول عليه الصلاة والسلام، فالله تعالى أجرى شتم الرسول مجرى شتم الله تعالى كما في قوله (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله)..¹.

قلنا: أولاً: إن الرازي ذكر هذا مجرد احتمال عقلي لا أكثر من بين ثلاثة احتمالات، أولها: حمل الآية على ظاهرها، وأن المقصود أنهم كانوا يسبّون الله نفسه لا رسوله، ولكن حمل هذا على بعض المشركين النافين للصانع حيث قال "واعلم أنّا قد دللنا على أن القوم كانوا مقرّين بوجود الإله تعالى، فاستحال إقدامهم على شتم الإله، بل ها هنا احتمالات أحدها: أنه ربما كان بعضهم قائلاً بالدهر ونفي الصانع، فما كان يبالي بهذا النوع من السفاهة. وثانيها: أن الصحابة متى شتموا الأصنام..².

مع ذلك ردّ هذه الاحتمالات أبو حيان الأندلسي في تفسيره قائلاً: "وهذه احتمالات مخالفة للظاهر.. كما سيأتي، ولعل مراد الرازي - كما قال لي بعض الفضلاء - هو "أن الرسول ﷺ يؤذيه سبّ الله والمشركون أرادوا ذلك"، أي أنهم أرادوا بسبهم لله أن يؤذوا رسوله بذلك، فهذا مراد الرازي بقوله "فهم كانوا يشتمون الرسول عليه الصلاة والسلام". والله أعلم

ثانياً: هذا الذي ذكره الرازي تأويل للآية وحمل لها على مجاز الحذف، وهو منسجم مع مذهب الرازي الأشعري في جواز التأويل - بشروطه طبعاً - ووجود المجاز فلا حرج عليه في ارتكابه لتأويل هذه الآية وحملها على مجاز الحذف، وأما التأويل عند ابن تيمية وأتباعه³ فهو: أمر منكر وتحريف، والمجاز بدعة جهمية، حيث إن "تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز وتقسيم دلالتها أو المعاني المدلول عليها إن استعمل لفظ الحقيقة والمجاز في المدلول أو في الدلالة، فإن هذا كله قد يقع في كلام المتأخرين.. وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة لم يتكلم به

<https://www.saaaid.net/Doat/almuwahid/9.htm>

¹ مفاتيح الغيب (13 / 109)، ط/ التراث. وانظره أيضاً في «اللباب في علوم الكتاب» (8 / 363)

² مفاتيح الغيب (13 / 109)

³ فمثلاً يقول الأفغاني جهود علماء الحنفية (1 / 104): فلا يفعل ما يفعله كثير ممن أحل بهذا التوحيد - من المتكلمة والمقلدة -؛

حيث يعرضون قول الرسول ﷺ وأمره وخبره على أقوال المشائخ والأئمة. فإن وافق قولهم - قبلوه ونفذوه؛ وإلا فوضوا فيه وأعرضوا عنه؛

أو حرفوه عن مواضعه، وسمو تحريفه تأويلاً وحملًا. اهـ.

أحد من الصحابة رضي الله عنه ولا التابعين لهم بإحسان ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم.. ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ولا من سلف الأمة وعلمائها، وإنما هذا اصطلاح حادث، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين" ¹.

نقول للسلفيين: أنتم أصلا من أنكر على الرازي وأمثاله ممن حملوا بعض نصوص الصفات على مجاز الحذف ²، بل إن ابن القيم جعل التأويل والمجاز "أصل خراب الدين والدنيا" ³، وأطال في ذلك، وقال شيخه ابن تيمية بأن التأويل: "من باب تحريف الكلم عن مواضعه، من جنس تأويلات القرامطة والباطنية، وهذا هو التأويل الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه" ⁴، فما بال مجاز الحذف صار هنا مقبولا، وهو في الصفات مرفوض؟! وما بال تأويل الرازي صار هنا حجة وهناك في الصفات صار تحريفا؟! تحريفا؟!

ثالثا: إنكم حين يُحمل كلام المسلم على المجاز، ولا سيما مجاز الحذف، فأنتم أنفسكم تفاديا من تكفيره تنكرون هذا الصنيع؛ فمن قال مثلا: إن استغاثة المسلم بالميت هو "من قبيل المجاز العقلي، كقولهم: بنى الأمير المدينة" ⁵ قلتم ردا عليه: لو فُتح هذا التأويل لما صحَّ الشرك، وحكم الكفر على أحد من الناس؛ وإن سبَّ الله تعالى، وسبَّ الأنبياء عليهم السلام - نعوذ الله من ذلك.. مثلا يكون

1 مجموع الفتاوى (7/ 88)

2 كحديث النزول الذي حمّله الرازي على نزول الرحمة أو الملائكة، وكآية "وجاء ربك" التي حمل فيها الرازي المجيء على مجيء أمر الله بالمحاسبة، أو على مجيء قهره، انظر: أساس التقديس (ص: 112، و 114)، وكلا الحاملين من باب مجاز الحذف أو حذف المضاف كما سماه الرازي كآية "واسأل القرية" أي أهلها، وقد أنكر ابن تيمية وأتباعه ذلك، وشنعوا على الرازي وأمثاله وأطالوا في ذلك. انظر: بيان تلبس الجهمية (8/ 203)، ومجموع الفتاوى (7/ 112)، ومختصر الصواعق المرسلّة (ص: 844) ط/ أضواء السلف، موسوعة الألباني في العقيدة (6/ 106)، شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (2/ 124)، والمفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات ص 1680، لمحمد بن عبد الرحمن المغراوي، وموقف شيخ الإسلام ابن تيمية من الإمام فخر الدين الرازي في الإلهيات ص 410، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى للباحثة ابتسام أحمد مُجدّ جمال.

3 أعلام الموقعين 5/ 187 - 189، ط/ دار ابن الجوزي، وانظر: مختصر العلو للألباني ص 23، و ص 33، وما بعدها.

4 مجموع الفتاوى لابن تيمية 4/ 69، وانظر 3/ 67.

5 جهود علماء الحنفية (2/ 1023)

معنى قول القائل: "الرسول خالق السماوات والأرض": "رب الرسول" - بحذف المضاف.. فما قال أحد من المسلمين بهذه التأويلات الفاسدة في الاعتقاد¹.

قال وليد: فتأمل هذا النص الذي مفاده أنه لا يجوز تأويل كلام المسلم وحمله على المجاز، لأنه لو فتح الباب لما صحَّ الحكم بالشرك والكفر على أحد، لأنَّ من سبَّ الله يمكن أن يتأول له بأن مراده سبُّ الشياطين التي خلقها الله، ومن قال بأن الرسول خالق، فيمكن أن يتأول بأن مراده ربُّ الرسول خالق وهكذا.. كذا قالوا هناك، وأما حينما يسبُّ المشركون الكفرةُ الله تعالى فيصبح حمل كلامهم على مجاز الحذف أمراً واجباً أو على الأقل لا حرج فيه تفادياً للحكم عليهم بالكفر، كل ذلك ليقى سببُ كفر المشركين الوحيد هو تشقُّعهم بالصالحين لينتج عند القوم: القول بكفر المسلمين الذين يتشفعون بالصالحين..!! فنعوذ بالله من الخذلان.

رابعاً: أما ما استدلوا به على هذا التأويل بما "قاله كفار قريش للنبي.. لتكف عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ولنشتمنَّ من يأمرك"². اهـ **فالجواب:** أن هذا الأثر رواه الطبري عن أسباط عن السدي من قوله، وهذا مرسل، فضلاً عن أن أسباط هو: أسباط بن نصر الهمداني.. صدوق كثير الخطأ يُغرب، كما في التقريب³.

ثم الأثر صريح بأنهم يهددونه بسبِّه وسبِّ من أمره لقولهم "أو لنشتمنك ولنشتمن من يأمرك"، والذي أمره هو الله، بدليل أثر السدي نفسه فإن أوله "فحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولندعه وإلهه"، فهم هنا يطلبون منه أن لا يذكر آلهتهم بسوء مقابل ألا يذكروا إله النبي بسوء، والإله الوحيد للنبي هو الله، بدليل الأثر نفسه حيث ورد أنه قال عليه الصلاة والسلام فيه لهم: "قولوا: لا إله إلا الله. فأبوا واشتأزوا.. فقالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمك ونشتم من يأمرك"، فهذا كله يدل على أن أنهم أرادوا سبَّ الله، لذلك قال تعالى "فيسبوا الله"، وقد صرحوا بذلك في أثر ابن عباس السابق حيث قالوا: "أو لنهجون ربك" فنصّوا على أنهم يريدون هجاء الربِّ تعالى، وأصرح من ذلك أثر قتادة السابق:

1 جهود علماء الحنفية (2/ 1023)

2 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص294، وقد عزا الأثر إلى تفسير الطبري.

3 تقريب التهذيب - عوامة (ص: 98)، وانظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة (14/ 169)

"فيسب الكفار الله"، فهذا كله يؤكد أنهم سبوا الله نفسه، ولذلك فآثر السدي هذا إن صح يفيد أن المشركين جمعوا بين كفرين، هما سب الله وسب رسوله معا، فكيف يكون هذا عذرا لهم يا قومنا؟!
 واعترض بعض السلفية فقال: إن قريشا لا تعتقد أن الله أرسله، بل هم يكذبونه في ذلك، فحين يسبون من أرسله لا يقصدون سب الله، واستدل على زعمه¹ هذا بقول ابن الجوزي في تفسيره: فيسبوا الله، أي فيسبوا من أمركم بعبئها، فيعود ذلك إلى الله تعالى لا أنهم كانوا يصرحون بسب الله تعالى لأنهم كانوا يقرّون أنه خالقهم وإن أشركوا به². اهـ

واستدل أيضا بقول الفخر الرازي في تفسيره "ربما كان في جهالهم من كان يعتقد أن شيطانا يحمّله على ادعاء النبوة والرسالة، ثم إنه لجهله كان يسمي ذلك الشيطان بأنه إله مُجّد عليه الصلاة والسلام، فكان يشتم إله مُجّد بناء على هذا التأويل"³.

قلنا: أما قولكم "إن قريشا لا تعتقد أن الله أرسله بل هم يكذبونه في ذلك" يردّه قولكم الآخر بأن "اليهود كانوا يثبتون أن مُجّداً نبياً، بل ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، بل إن مشركي قريش قال الله عنهم {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون}"⁴. ولذلك فإن المشركين "لم يُقرُّوا لمحمد بأنه رسول الله مع تحقّقهم صدقه، وتيقّنهم صحّة رسالته بالبراهين التي شاهدوها وسمعوا بها في مدة عشرين سنة"⁵.

وأما هذا الذي ذكره الرازي فهو ثالث الاحتمالات التي أوردتها فقال: "ثالثها: إنه ربما كان في جهالهم.."، ولم يورد على هذا الاحتمال ما يسانده من النقل، بل إن النقل يردّه، لأن المشركين لا يكفرون بالنبى مُجّد فحسب، وإنما يكفرون برسول الله أجمعين بحجة أنهم بشر كما بيّنّا ذلك مرارا⁶.

1 مقال على الشبكة: الاستغاثة والرد على مُجّد علوي المالكي "الحلقة الرابعة"

<https://www.saaaid.net/Doat/almuwahid/9.htm>

² زاد المسير (102 /3)

3 مفاتيح الغيب (110 /13)، ط/ التراث.

4 الرد الشامل للموجان ص102

⁵ زاد المعاد في هدي خير العباد (314 /3)

6 انظر: ص (347)، و ص(385)

فلا جرم أن أبا حيان ردّ هذه الاحتمالات كلها، فقال: "فيسبوا الله" أنهم يقدمون على سبّ الله إذا سبّ آلهتهم وإن كانوا معترفين بالله تعالى، لكن يحملهم على ذلك انتصارهم لآلهتهم وشدة غيظهم لأجلها فيخرجون عن الاعتدال.. اهـ ثم يقول عن احتمالات الرازي بأنها "احتمالات مخالفة للظاهر وإنما أوردتها لأنه ذكر أن المعترفين بوجود الصانع لا يجسرون أن يقدموا على سبّ الله تعالى، وقد ذكرنا ما يحمل على حمل الكلام على ظاهره"¹. ونصّ أبي حيان هذا ذكره الخصم نفسه.

خامسا: جعل الله تكذيبهم لرسوله تكذيبا له تعالى، قال تعالى: {قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: 33]، فما بالكم عكستم الحال؟! والرازي الذي تستدلون به لتأويل آية الأنعام السابقة وهي "ولا تسبوا.."، يقول عند آية الأنعام هذه "قد نعلم إنه ليحزنك.." بعد أن يذكر علم قريش بصدق النبي ﷺ: "إنه لما ظهرت المعجزات القاهرة على وفق دعواه، ثم إن القوم أصروا على التكذيب فالله تعالى قال له إن القوم ما كذبوك، وإنما كذبوني، ونظيره أن رجلا إذا أهان عبدا لرجل آخر، فقال هذا الآخر: أيها العبد، إنه ما أهانك، وإنما أهانني.. وتقريره: أن إهانة ذلك العبد جارية مجرى إهانته، ونظيره قوله تعالى: إن الذين يباعدونك إنما يباعدون الله. اهـ ونحوه قول الفوزان: والله تعالى قال عن المشركين: {فإنهم لا يكذبونك}، فهم يعرفون أنه رسول الله، لكن الكبر والحمية الجاهلية². اهـ

سادسا: أن أقرب ما يرد هذا التأويل هو كلام ابن تيمية وتلميذه، حيث أقرّ ابن تيمية بأن المشركين كانوا يسبّون الله نفسه، وإليك نصوصهم في ذلك:

- 1) قال ابن تيمية: فمعلوم أن المشركين قد يحبّون آلهتهم كما يحبّون الله أو تزيد محبتهم لهم على محبتهم لله؛ ولهذا: يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم³. اهـ ثم سرد آية الأنعام.
- 2) قال ابن تيمية: حرّم سبّ الآلهة مع أنه عبادة لكونه ذريعة إلى سبهم لله سبحانه وتعالى؛ لأن مصلحة تركهم سبّ الله سبحانه راجحة على مصلحة سبنا لآلهتهم¹.

1 تفسير البحر المحيط (202 /4)

2 إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (360 /1)

3 مجموع الفتاوى (632 /7)

(3) وقال ابن تيمية أيضا تعقيبا على آية الأنعام: فلولا تعظيمهم لأهتهم على الله لما سبوا الله إذا سببت آهتهم².

(4) وقال أيضا ابن القيم: فحرم الله تعالى سب آلهة المشركين، مع كون السب غيظا وحمية لله وإهانة لأهتهم، لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لأهتهم³. اهـ

سابعاً: أن من المعلوم أن المشركين كانوا ينسبون الولد إلى الله، كما في قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ يُقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الصفافات: 151، 152]، و"من زعم أن الله ولدا، فقد سب الله تعالى، لخبر «شتمني ابن آدم، فزعم أن لي ولدا»⁴، وقوله في الحديث " (ابن آدم) المراد به بعض بني آدم وهم من أنكر البعث من العرب وغيرهم من عباد الأوثان والدهرية وغيرهم.. (وستمني) ابن آدم أي بعضهم، وهم من ادعى أن الله ولداً من اليهود والنصارى، ومن مشركي العرب من قال إن الملائكة بنات الله، والشتم توصيف الشيء بما فيه ازدراء ونقص، وإثبات الولد له كذلك؛ لأنه قول بمائلة الولد في تمام حقيقته، وهي مستلزمة للإمكان المتداعي إلى الحدوث، وذلك غاية النقص في حق البارئ تعالى، ولأن الحكمة في التوالد استبقاء النوع، فلو كان البارئ تعالى متخذاً ولداً لكان مستخلفاً خلفاً يقوم بأمره بعد عصره، فيلزم زواله وفناؤه"⁵. فلو سلمنا أن آية "ولا تسبوا الذين يدعون" مؤولة وأنهم أرادوا سب رسول الله لا سب الله، فهل تقولون أن المقصود بهذا الحديث "وستمني ابن آدم" أي شتم رسولي لأنه نسب لرسولي الولد؟!!

1 الفتاوى الكبرى (6/ 174)

2 منهاج السنة النبوية (5/ 397)

3 إعلام الموقعين، لابن القيم، دار الجوزي (4/ 5)

4 حاشية الروض المربع لابن القاسم النجدي (7/ 407)، وكذا في الشرح الكبير على المقنع ت التركي (27/ 138)، وفي المبدع في

شرح المقنع (7/ 487)

5 مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (1/ 83)

ثامنا: هبّ أنهم أرادوا سبّ رسوله، فهل سبّ رسول الله ﷺ حسنة أو هو كفر وسبّ لله؟ وهو ما تشير إليه آية الأنعام السابقة {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} على ما سبق تقريره من كلام الرازي نفسه الذي تحتجون به في تأويل آية الأنعام الأخرى "ولا تسبوا الذين؟! " وقد سبق أن سردنا أقوال العلماء في حكم سبّ الرسول وأنه "كفرٌ ظاهرًا وباطنًا"¹، بل يقول ابن تيمية: "فَعُلِمَ أن سبّ الرسل والطعن فيهم ينبوع جميع أنواع الكفر وجماع جميع الضلالات، وكل كفر ففرع منه، كما أن تصديق الرسل أصل جميع شعب الإيمان وجماع مجموع أسباب الهدى"².

فسواءً أراد المشركون سبّ الله كما هو الراجح لظاهر الآية، أو أرادوا سبّ رسوله؛ فكلا الأمرين كفر بالإجماع، وهذا موجب لقتالهم، وقد قرر ذلك ابن القيم حيث قال: فجعل همهم بإخراج الرسول موجبا لقتالهم لما فيه من الأذى له، ومعلوم قطعا أن سبّه أعظم أذى له من مجرد إخراجة من بلده.. فالذمي إذا أظهر سبّه فقد نكث عهده.. فيجب قتاله"³. فكيف تزعمون أن "قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم.. هو الذي أحل دماءهم وأموالهم."⁽⁴⁾ وأنه "الإله هو المعبود، خلافا لما يعتقد عباد القبور وأشباههم في معنى الإله أنه الخالق أو القادر على الاختراع.. وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع.. لو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول ﷺ وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبون دعوته، إذ يقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله، بمعنى: أنه لا قادر على الاختراع إلا الله. فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا"⁽⁵⁾!

1 الصارم المسلول لابن تيمية (ص: 513)

2 الصارم المسلول لابن تيمية (ص: 251)

3 أحكام أهل الذمة (3/ 1388)

(4) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص16

(5) تيسير العزيز الحميد ص182.

الاعتذار الثاني: هو "أنهم كانوا يسبّون الله صريحًا وقت الغضب، فالحمية الجاهلية تحملهم على ذلك لا لأجل التدين والاعتقاد، ومثل هذا قد يحدث عن المسلم أيضًا، فتحمله شدة الغيظ على التكلم بالكفر. فمثل هذا إن صدر عن شخص لا يصدر منه تدينًا واعتقادًا، بل فسقًا وحميةً وغضبًا"⁽¹⁾.

قلنا: أولاً: نعم حملهم على سبِّ الله "انتصارهم لآلهتهم وشدة غيظهم لأجلها" كما قال أبو حيان، فهو إذن الغضب لآلهتهم وأصنامهم لأن المشركين "يحبّون معبوداتهم مثل حبِّ الله أو أشد منه"² "ولهذا: يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم"³ فأين ما تزعمون من أن المشركين كانوا "يعظمون الله تعالى"⁽⁴⁾، ويقولون عنه "إلهنا القديم والعتيق، وإله الآلهة، ورب الأرباب، وغير ذلك مع كفرهم"⁵ وأنهم "لم يكونوا يعدلون آلهتهم بالله"⁶، فهل من هذا شأنه يسبُّ الله من أجل الأصنام التي يتخذها آلهة والتي يعتقد أن الله إله تلك الآلهة؟! يعني هو يسب الإله الكبير غضبا لسبِّ الإله الصغير!

ثانياً: أن الشرك إنما حُرِّم "لقبحه في نفسه، وكونه متضمنًا: مسبة الرب، وتنقصه"⁷، ولكن هذا لا يستقيم ما دتم لم تأهبوا بالسبِّ الحقيقي لله الذي صدر من المشركين، وهو الذي حكاه الله عنه في قوله {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ}، حيث تأولتم ذلك واعتذرتم عن المشركين بما سبق، فالأمر عندكم إلى أن سبَّ المشركين لله جهارًا نهارًا قللتم من شأنه واعتذرتم عنه بما سبق، وأما ما يؤول إلى سبِّ الله أو ما يتضمن سبِّ الله كالشرك تشددتم فيه وربطتم به كفر المشركين، وهذا من أعجب العجب.!

(1) جهود علماء الحنفية (1 / 262)، وانظر أيضا: شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص295

2 شرح كشف الشبهات للحازمي (4 / 7، ت.ش)

³ مجموع الفتاوى (7 / 632)

(4) جهود علماء الحنفية (1 / 212).

5 درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (8 / 509) وانظر (7 / 458)

6 جهود علماء الحنفية (1 / 372)

7 المختصر المفيد في عقائد أئمة التوحيد (ص: 370)

ثالثا: أن المسلم إذا صدر منه سبّ لله أو لرسوله فهو لا يسبّ الله ولا رسوله انتصارا لآلهة يتخذها من دون الله، كيف؟ وهو يشهد أن لا إله إلا الله! وإن فُرض أنه فعل ذلك . أي سبّ الله غضبا للآلهة . فقد كفر باتخاذة للآلهة قبل أن يكفر بسبّ الله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن من يسبّ الله أو رسوله في الغضب أو لأي سبب آخر فقلبه خالٍ من تعظيم الله ورسوله، مستخفّ بالله ورسوله ومهين لهما، وإلا لما سبّ الله ورسوله مهما كان الدافع، اللهم إلا إن كان مكرها. قال بهاء الدين المقدسي الحنبلي: ومن جعل لله ولدا فقد كذب على الله تعالى، ومن سبّه فقد استخف به¹، وهذا قرّره أيضا ابن تيمية نفسه فهو يقول: فالسبّ إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف به، فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة امتنع أن يكون فيه انقياد أو استسلام، فلا يكون فيه إيمان، وهذا هو بعينه كفر إبليس². اهـ

بل إن ابن تيمية يقرر أن "التصديق بالقلب يمنع إرادة التكلم وإرادة فعل فيه استهانة واستخفاف كما أنه يوجب المحبة والتعظيم واقتضاؤه وجود هذا وعدم هذا أمر جرت به سنة الله في مخلوقاته كاقضاء إدراك الموافق للذة وإدراك المخالف للألم"³.

ومن جهة ثالثة إن المسلم الذي يصدر منه سبّ لله أو لرسوله فقد ارتدّ عن الدين، وهذا بسطه ابن تيمية نفسه، ونقله عن كثير من الفقهاء من السلف والخلف كما سيأتي⁴، فليزم المسلم الأصل الذي سبّ الله أو رسوله تجديده إسلامه بالنطق بالشهادتين، فهل نطق المشركون بالشهادتين بعد سبّهم الله أو رسوله؟! فكيف يكون ذلك السبّ عذرا للمشركين دون المسلمين؟! وكيف يكون كفرا على المسلمين، ولا يكون كفرا على المشركين مع أنهم لا يسبّون الله ورسوله فقط بل يسبون أيضا القرآن وينكرون اليوم

¹ العدة شرح العمدة، بهاء الدين المقدسي الحنبلي ج 1 ص 617

² الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية (ص: 519)، وانظر: نواقض الإيمان القولية والعملية ص 108، د. عبد العزيز العبد اللطيف، مدار الوطن للنشر.

³ الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: 524)

⁴ انظر: ص (354) عند قولي: (سب رسوله كفر)

الآخر ويستتهزؤون بالرسول وبالقرآن وباليوم الآخر؟! كل هذا ليس كفرا وإنما كفرهم الوحيد هو تشفعهم بالصالحين..! يا للعجب العجاب والأمر المستراب!

الاعتذار الثالث: اعتذروا¹ بما قاله الراغب "وسبُّهم لله ليس على أنهم يسبُّونه صريحا، ولكن يخوضون في ذكره فيذكرونه بما لا يليق به، ويتمادون في ذلك بالمجادلة، فيزدادون في ذكره بما تنزه تعالى عنه.."².

قلنا: ما يصدر منهم من ذكر لله "بما لا يليق به" و"ذكره بما تنزه تعالى عنه": نوع من أنواع السبِّ والشتم له تعالى، إذ السبِّ والشتم لا معنى له سوى نسبة العيب والنقص للمسبوب، وقد جاء في حديث مسلم "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر". قال النووي: السبُّ في اللغة الشتم والتكلم في عرض الإنسان بما يعيبه³. اهـ وقال ابن تيمية بأن السبِّ هو "الكلام الذي يُقصد به الانتقاص والاستخفاف، وهو ما يفهم منه السبِّ في عقول الناس على اختلاف اعتقاداتهم كاللعن والتقبيح ونحوه وهو الذي دل عليه قوله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ..}"⁴.

ومن ذلك: نسبة الولد إليه سبحانه، فإن ذلك سبٌّ وشتم له تعالى، كقول المشركين: الملائكة بنات الله، وكقول النصارى المسيح ابن الله، يدل على ذلك حديث الصحيحين: "وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك فأما شتمه إياي فقلوه اتخذ الله ولدا"، ولهذا كان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول في النصارى: "لا ترحمهم فلقد سبوا الله مسبة ما سبّه إياها أحد من البشر"، قال ابن تيمية بعد أن أورد أثر معاذ: ولهذا يعظّم الله فريتهم على الله في القرآن أشد من تعظيم افتراء غيرهم كقوله: وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جتتم شيئا إدا.."⁵. اهـ ثم ساق حديث الصحيحين: "وشتمني ابن آدم".

1 انظر: مقال على الشبكة: الاستغاثة والرد على مُجَّد علوي المالكي "الحلقة الرابعة"، وانظر نواقض الإيمان القولية والعملية للعبد اللطيف ص109.

2 المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: 220)

3 شرح النووي على مسلم (53/2)

4 الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: 561)

5 الجواب الصحيح (4/ 457)

والحاصل أن ما يصدر من المشركين من ذكرِ الله -بما لا يليق به وبما يتنزه تعالى عنه- هو سبّ وشتم له تعالى وإن كان غير صريح أو غير مباشر، ولكن هو في النتيجة سبّ له سبحانه كما في الحديث السابق، بل كلام الراغب نفسه يفيد ذلك حيث قال "وسبّهم لله ليس على أنهم يسبّونه صريحاً"، فقد نفي السبّ الصريح عنهم، ومعلوم أن نفي المقيّد هو نفي للقيّد فحسب، وبالتالي فمفهوم كلام الراغب أنهم يسبّون الله سبّاً غير صريح حين يذكرونه "بما لا يليق" كما هو نص الراغب نفسه!

وفي الختام أقول إن كنتم تعتذرون عن سبّ المشركين لله بأنهم لم يقصدوا سبّ تعالى وإنما قصدوا سبّ رسوله! أو حملهم على ذلك الانتصار لأهّتهم وشدة غيظهم! أو أنهم لم يسبّوه تعالى صراحة، وإنما تكلموا فيه بما لا يليق! أقول: إذا كنتم تعتذرون بهذه الأعذار عن سبّهم الله فلماذا لا تعتذرون عن عبادتهم للأصنام بنيتهم الطيبة في ذلك وهو أنهم . كما سيأتي بسطه¹. رأوا أنفسهم أحقر من أن يعبدوه مباشرة، أو أنهم صوروا تماثيل الصالحين لتكون رؤيتها حافزا لهم على كثرة عبادته تعالى كما فعل أولئك الصالحون!؟

طبعاً أنتم لن تعتذروا عنهم بذلك لأن هذا سيقوّض نظرية تقسيم التوحيد التي قامت على أن سبب كفرهم الوحيد هو عبادة الأصنام! أي هو الشرك في الألوهية لا في الربوبية، أي أنكم دائرون مع النظرية حيث دارت، مع أنها هي أصلاً محل النزاع!! فضلاً عن أن دلائل الكتاب والسنة ينقضها كما رأينا.

¹ انظر: ص (62، و ص 338) عند قولي : (أجل من أن يعبدوا الواحد منا)

المطلب الثاني: الخلل المتعلق في شركهم فيما يسمى بتوحيد الربوبية.

كنا قد سردنا ما يزيد على العشرين قادحا ارتكبه المشركون في توحيد الربوبية، وأتينا بالأدلة على ذلك، وبيان وجه قدح كل منها بتوحيد الربوبية مدغمين كل ذلك بنصوص لابن تيمية وأتباعه، وفيما يلي سرد تلك القوادح مختصرا، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى موضعها من كتابنا "البراهين الشرعية":

1) اتخاذ المشركين الأصنام آلهة وأربابا من دون الله¹، واعتقادهم الضر والنفع والتأثير فيها².

2) كان المشركون يرون آلهتهم تعدل الله تعالى، وتساويه، وتمثاله³، بل هي أعظم عندهم من الله، "فلولا تعظيمهم لآلهتهم على الله لما سبوا الله إذا سبت آلهتهم"⁴.

3) إن المشركين كانوا ينسبون كثيرا من الحوادث إلى غير الله⁵، كنسبتهم البلاء إلى الدهر⁶، والمطر إلى الكواكب⁷، ونسبتهم دفع البلاء للتمائم⁸.

4) كان أهل الجاهلية يعتقدون بتأثير الجن ويخشون ضررهم، ولذلك كانوا يستعيذون بهم⁹

5) كان المشركون يأتون الكهّان في الجاهلية¹⁰.

1 لطفنا انظر: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (459)

2 البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (263)

3 البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (464)

4 منهاج السنة النبوية لابن تيمية (5/ 397)

5 البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (442)

6 البراهين الشرعية ص (351)

7 البراهين الشرعية ص (393)

8 البراهين الشرعية ص (417)

9 البراهين الشرعية ص (531)

10 البراهين الشرعية ص (412)

- (6) كان أهل الجاهلية يعتقدون أن الأمراض ليست من الله، وإنما هي بفعل العدو وتأثيرها الذاتي 1.
- (7) كان أهل الجاهلية يتطيرون 2.
- (8) كان عرب الجاهلية وسائر المشركين في كل الأمم يتعاطون السحر 3.
- (9) كان أهل الجاهلية يشترعون الأحكام ويتحاكمون إلى الطاغوت 4.
- (10) كانوا ينكرون البعث والنشور 5
- (11) كانوا ينسبون إلى الله الولد 6.
- (12) كان المشركون ينسبون إلى الله مصاهرة الجن 7.
- (13) أنهم كانوا يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم 8.
- (14) أن المشركين كانوا يقتلون أولادهم خشية الإملاق، وكانوا ينسبون الرزق لغير الله 9.
- (15) كان أهل الجاهلية يعتقدون بضرّ الهامة ويتشاءمون منها 10.
- (16) أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً لك تملكه وما ملك 11.

-
- 1 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (293) .
- 2 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (455) .
- 3 انظر: البراهين الشرعية ص (435) .
- 4 البراهين الشرعية ص (500) .
- 5 انظر: ص (30، و 380) عند قولي : (أنكره الكفار من عهد نوح إلى عهد محمد)
- 6 انظر: ص (321) عند قولي : (الذين جعلوا له بنين وبنات)
- 7 انظر: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (557) .
- 8 انظر: ص (298، و 311) عند قولي : (يشتمون الله إذا شتمت)
- 9 انظر: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (536) .
- 10 البراهين الشرعية ص (428).
- 11 البراهين الشرعية ص (439).

(17) أن المشركين كانوا يعتقدون أن أصنامهم تشفع لهم بغير إذن الله 1.

(18) إخراجهم الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ لقولهم: الله ربنا 2.

1 كما سيأتي ص (337) عند قولي : (...بدون توقف ذلك على إذن الله)

2 كما سبق ص (124) عند آية : (إِلَّا أَنْ يُقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ)

المبحث الثاني: كفرهم في باب الإيمان بالملائكة

كان المشركون يقولون عن الملائكة: بنات الله - تعالى الله عن ذلك ، وهذا أمر مشهور عن المشركين، وبرغم ذلك سوف نثبته بالأدلة من الكتاب والسنة وكلام العلماء ولاسيما ابن تيمية وأتباعه فيما يلي:

الدليل الأول: { فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبِّكَ الْبَنَاتُ وَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ } [الصفات : 149 - 153]. فالله تعالى "ذكر أن مشركي قريش كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونها"¹، فالآية صريحة في أن "مشركي العرب..جعلوا له بنين وبنات..وكانوا يقولون: الملائكة بنات الله"².

الدليل الثاني: قوله { وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (18) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا .. } [الزخرف: 15 - 19]، أي "وجعل هؤلاء المشركون لله من خلقه نصيبا، وذلك قولهم للملائكة: هم بنات الله"³، "وهم مع هذا يجعلون البنات نقصا وعيبا ويرون الذكر كمالا فقال لهم: كيف تصفون ربكم بأنقص الوصفين وأنتم مع هذا لا ترضون هذا لأنفسكم؟"⁴، و"المراد بالجزء في الآية: الولد..فالكفار لما قالوا: الملائكة بنات الله - أنكر الله عليهم أشد الإنكار، موجبا لهم أشد التوبيخ ؛ حيث افتروا عليه الولد، ثم جعلوا له أنقص الولدين وأحقرهما، وهو الأثنى"⁵.

1 جامع البيان ط هجر (640 / 19)

2 دره تعارض العقل والنقل (127 / 1)

3 جامع البيان ط هجر (560 / 20)

4 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (362 / 7)

5 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (231 / 7)

الدليل الثالث: { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) } [النحل: 57 - 60]، ومثله قوله { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } [الزخرف: 17]، قال الطبري في آيات النحل: يقول تعالى ذكره: ومن جهل هؤلاء المشركين وخبث فعلهم وقبح فريتهم على ربه، أنهم يجعلون لمن خلقهم وديرتهم وأنعم عليهم.. { البنات }، ولا ينبغي أن يكون لله ولد ذكر ولا أنثى . سبحانه .، نزه عَلَّاهُ بذلك نفسه عما أضافوا إليه ونسبوه من البنات . " فجعلوا له أولادا إناثا وشركاء إناثا فجعلوا له بنات وأخوات وهم لا يحبون أن تكون لأحدهم أنثى.. فتبين فرط جهلهم وظلمهم إذ جعلوا لله ما لا يرضونه لأنفسهم فكانت أنفسهم عندهم أعظم من الله سبحانه"¹. اه فهم "يفضلون أنفسهم على ربه ويجعلون له ما يكرهون"².

وقال الشنقيطي: إن الكفار يعتقدون أن لله بنات إناثا.. فزعموا لله الأولاد، ومع ذلك زعموا له أخس الولدين وهو الأنثى، فالإناث التي جعلوها لله يكرهونها لأنفسهم ويأنفون منها³. وهكذا "نجد القرآن ينوع ما ينسبه إليهم إلى أنواع، مألها إلى أمرين: الأول: قولهم: الملائكة بنات الله"، فالعرب كغيرهم من الأمم إنما اتخذوا الأصنام تماثيل أو تذاكير للملائكة، مع زعمهم أنهم إناث هن بنات الله"⁴. اه

الدليل الرابع: { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ } [النجم: 21]، قال الطبري: "سمى المشركون أوثانهم بأسماء الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه، فقالوا من (الله): اللات، ومن (العزير): العزى، وزعموا أنهم بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، فقال جل ثناؤه لهم: أفأريتم أيها الزاعمون أن اللات والعزى

1 مجموع الفتاوى (364 /27)

2 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (363 /7)

3 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (343 /3)

4 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6 /177) وانظر أيضا (3 /627)، و(2 /511)

ومناة بنات الله، ألكم الذكر..¹ وقال الشنقيطي: وهذا الإنكار متوجه على الكفار في قولهم: الملائكة بنات الله.. فقد جعلوا له الأولاد! ومع ذلك جعلوا له أضعفها وأردأها وهو الإناث، وهم لا يرضونها لأنفسهم. وقد بين الله تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ألكم الذكر وله الأنثى..² اهـ وهكذا نرى أن هذه الآيات وأمثالها "كلها تدل على أن مشركي العرب في الجاهلية كانوا يعتقدون في الملائكة أنهم بنات الله، كما كان هذا اعتقادهم في بعض الأصنام"³.

الدليل الخامس: جاء في حديث الصحيحين "وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك فأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد.."⁴. "وهذا متناول "قطعا لكفار العرب الذين قالوا هذا"⁵. حيث قالوا "إن الملائكة بنات الله، والشتم توصيف الشيء بما فيه ازدراء ونقص، وإثبات الولد له كذلك؛ لأنه قول بمماثلة الولد في تمام حقيقته، وهي مستلزمة للإمكان المتداعي إلى الحدوث، وذلك غاية النقص في حق الباري تعالى، ولأن الحكمة في التوالد استبقاء النوع، فلو كان الباري تعالى متخذاً ولداً لكان مستخلفاً خلفاً يقوم بأمره بعد عصره، فيلزم زواله وفناءه سبحانه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً"⁶، و"من أعظم الكفر في دين الرسل.. قول من يقول ولد الله وإهم لكاذبون ومن خرق له بنين وبنات.. أخبر عنه رسوله في الحديث الصحيح: شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك.."⁷ اهـ

1 جامع البيان ط هجر (46 / 22)

2 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (3 / 701)

3 الشرك في القديم والحديث ص 496

4 الجواب الصحيح (4 / 457)

5 مجموع الفتاوى (17 / 294)

6 مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري (1 / 83)، وانظر أيضاً: مرعاة المفاتيح لملا علي القاري (1 / 94)، «تحفة الأبرار

شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (1 / 57)، «شرح المشكاة للطبي الكاشف عن حقائق السنن» (2 / 468)، «اللامع الصبيح

بشرح الجامع الصحيح» للبرماوي (9 / 278)، «فيض القدير» للمناوي (4 / 472).

⁷ بغية المرئاد لابن تيمية (ص: 357)

وحاصل هذه الأدلة من الكتاب والسنة أن العرب كانوا . ودون أدنى ريب . قائلين بأن لله ولدا
وبأن الملائكة بنات الله، وقد نزه الله نفسه عن ذلك، وردّ على قائله وجعله افتراء وشركا وكفرا كما
سبق بيانه من نصوص العلماء ولا سيما ابن تيمية نفسه وأتباعه.

محاولة بعض السلفية التقليل من قول المشركين: "الملائكة بنات الله"

حاول السلفية التقليل من شأن قول المشركين عن الملائكة بأنهم بنات الله، بالقول تارة: إن هذا القول إنما هو لبعض قبائل العرب وجهلتهم وليس لكلهم، وتارةً بالقول: إن هذا ليس سبب كفرهم، وتارةً بالتماس النية الحسنة والأصل المعقول لقولهم هذا.

فلدينا هنا ثلاثة أمور:

- 1) الادعاء بأن هذا القول إنما هو لبعض قبائل العرب وجهلتهم.
- 2) إنكار أن يكون هذا القول سبب كفرهم.
- 3) التماس النية الحسنة والأصل المعقول للمشركين في قولهم هذا.

وفيما يلي بيان كل ذلك بحول الله.

الأمر الأول: الادعاء بأن هذا القول إنما هو لبعض قبائل العرب وجهلتهم، وفيما يلي نصوصهم في ذلك:

- 1) قال ابن تيمية: وأما الذين كانوا يقولون من العرب: إن الملائكة بنات الله¹.
- 2) قال ابن عبد الوهاب: وطائفة من العرب قالوا: الملائكة بنات الله².
- 3) وقال ناصر الشيخ: "والجهلة من مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله"³.

واستدلوا على⁴ ذلك بما ذكره بعض المفسرين كالقرطبي حيث قال "وذلك أن جهينة وخزاعة وبني مليح وبني سلمة وعبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله"⁵، وبما قاله الفخر الرازي في تفسيره "ونقل

1 مجموع الفتاوى (17 / 272)

2 المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية (ص: 97)، فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية ت علي مخلوف (ص: 55)

3 مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 91)

4 مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 93)

5 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (18 / 108)، وانظر أضواء البيان للمعلمي (3 / 343).

الواحدى عن المفسرين أنهم قالوا إن قريشا وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا: الملائكة بنات الله¹.

والجواب: أولاً: هذه دعوى ليس عليها دليل ناهض يدل على أن بعض مشركي العرب أو أن الجهلة منهم هم من قال بأن الملائكة بنات الله، بل ظاهر الآيات السابقة وعمومها تشير إلى أن كل مشركي العرب قائلون بذلك، وما ذكره الرازي والقرطبي ليس فيه دليل على ذلك، وإنما ذكروا كل ما قيل في الآية بغض النظر عن مدى صحته.

ثانياً: أن ظاهر نصوص كثير من السلفية أن هذا قول لسائر مشركي العرب، وفيما يلي بعض نصوصهم:

- (1) "وقد كان أكثر ضلال الأمم في صفة الولد،.. وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله"².
- (2) "إذاً العرب نسبت البنات للرب جل وعلا وأولئك نسبوا الأبناء، بل وزعموا أن الملائكة بنات الله تعالى"³.

(3) وقال المعلمي: وهذه الآية تقدّمها في سورة الزخرف ذكر شأن مشركي العرب في عبادتهم الملائكة، وقولهم: "بنات الله"، وذكر شأن النصارى في عبادتهم عيسى وقولهم: "ابن الله"⁴. ويقول المعلمي أيضاً: فأما ما يُحكى عنهم أنهم كانوا يقولون: أمّهات الملائكة بنات سروات الجن: فلم يثبت. فإن ثبت فعسى أن يكون اختراعاً من بعض متسرّعيهم.. ولو كان قول جميعهم لكثُر في القرآن تبكيتهم عليه، كما كثر في قولهم: "بنات الله"⁵. اهـ فتأمل قوله: "ولو كان قول جميعهم لكثُر في القرآن تبكيتهم عليه، كما كثر في قولهم: "بنات الله" فإنه صريح في أن المشركين كلهم يقولون بأن الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك.

1 مفاتيح الغيب (26/ 359)

2 حقيقة المثل الأعلى وآثاره (ص: 27)

3 شرح مسائل الجاهلية للحازمي (9/ 2، ت.ش)

4 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 50)

5 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6/ 164)

ثالثاً: أن كل المشركين جهلة سخيفو العقول متجرئون على مقالة الباطل، بل على أشد الباطل دون أدنى تأمل منهم في مقالاتهم، والآيات في ذلك كثيرة، فكيف تقصرون الجهل على من قال بأن الملائكة بنات الله فحسب. يقول الرازي: اعلم أنه تعالى لما قال: ولئن سألتهم من خلق.. بين أنهم مع إقرارهم بذلك، جعلوا له من عباده جزءا والمقصود منه التنبيه على قلة عقولهم وسخافة عقولهم¹.

ويقول ابن كثير: أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره "من خلقهم ليقولن الله"، أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل². اهـ وقال أيضاً (يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن "إن هذا إلا إفك" أي كذب..)³. ويقول أيضاً: يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء المالك لأزمة الأمور الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لم يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فكيف يملكون لعابديهم؟ اهـ

ويقول الشنقيطي عند قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا} [الفرقان: 60]، وفي هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على سخافة عقول الكفار؛ لأنهم عاكفون على ذكر أصنام لا تنفع ولا تضر، ويسوءهم أن تذكر بسوء، أو يقال: إنها لا تشفع، ولا تقرب إلى الله. وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوجدانية فهم به كافرون لا يصدقون به، فهم أحق بأن يتخذوا هزواً من النبي ﷺ الذي اتخذوه هزواً، فإنه محق وهم مبطلون⁴.

1 مفاتيح الغيب (27 / 623)

2 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (12 / 331)

3 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (10 / 285)، وانظر جامع البيان ط هجر (17 / 401)

4 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (4 / 714)

ثم إن الفترة التي عاش فيها مشركو العرب اسمها أصلاً الجاهلية وقد "سميت بذلك لكثرة جهالاتهم"¹، و"لما كانوا عليه من فاحش الجهالة"² "والناس في جاهلية جهلاء"³ "والأمة مُجمعة على الضلالة، متنافسة في الجهالة"⁴. "لا تعرف من الحق رسماً، ولا تقيم به في مقاطع الحقوق حكماً، وإنما ينتحلون ما تهواه نفوسهم، وما تزينه لهم شياطينهم"⁵، و"كان العالم كله يموج في ضلال وكفر والحاد.. فأصبح الظلام حالكا في الأرض"⁶، فكيف يكون فقط قولهم بأن الملائكة بنات الله هو قول لجهلتهم، مع أن الجاهلية كلها جهالات وحماقات وضلالات، كما ترى وكما سيأتي بسطه.

أصلاً الشرك هو أمّ الجهالات، ولذا قال تعالى عن بني إسرائيل: {قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [الأعراف: 138]، وقد قال الحفيد: "المتخذ للشفعاء والأنداد، إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى مَنْ يدبّر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو معين، وهذا أعظم التنقص.. وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرته الشفيع، وإما أن يظن أنه لا يعلم حتى يعلمه الشفيع.. أو يظن أنه لا يسمع حتى يرفع الشفيع إليه ذلك، أو يظن أن للشفيع عليه حقاً.. وكلّ هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقها"⁷. اهـ فلاحظ كيف قرّر أن الشرك مبعثه الجهل بالله وبكلماته.

1 شرح النووي على مسلم (1/ 139)، عمدة القاري (1/ 323)، الكواكب الدراري للكرماني (15/ 65)، إرشاد الساري للقسطلاني (6/ 174)، اللامع الصبيح للرماعي (10/ 398).

2 شرح النووي على مسلم (2/ 202)

3 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 74)

4 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (22/ 3)

5 شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (1/ 2)

⁶ شرح مسائل الجاهلية للفوزان (ص: 12)

⁷ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، دار الصميعي، الرياض (ص: 499)، وانظر إغاثة اللهفان من مصاديق الشيطان لابن القيم (1/ 62) قوله: فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى.. اهـ، وانظر آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي

اليماني (3/ 851)

رابعاً: أنه كما قد قيل بأنه ليس كل العرب قد قالوا عن الملائكة بنات الله وإنما هذا قول بعض قبائلهم، فأيضاً قد قيل بأن بعض قبائلهم عبدوا الملائكة وليس كل العرب، وذلك "أن حياً يقال لهم بنو مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله، وهو قوله: وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا"¹، وروى الطبراني عن ابن عباس أنه لما نزلت: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم}، قال ابن الزبير: وهذه بنو تميم تعبد الملائكة فهؤلاء في النار؟ فأنزل الله عز وجل: {إن الذين سبقت لهم..}2. وهذا أقرّ به الشنقيطي فقال: "والملائكة عبدتهم بعض العرب"³.

وهكذا فإن عبادة الملائكة، والقول بأنهم بنات الله؛ كلا الأمرين مقتصر على بعض مشركي العرب أو على بعض قبائلهم، بل قيل بأن هؤلاء الفريقين فريق واحد أصلاً، أي أن الذين عبدوا الملائكة هم أنفسهم قالوا بأنها بنات الله، قال الرازي "إن بعضهم كان يعبد الملائكة، وكانوا يقولون: الملائكة بنات الله"⁴، بل هم ما عبدوا الملائكة إلا لكونهم اعتقدوا أنها بنات الله كما ذكر ذلك المعلمي نفسه، فقال: "والعرب وإن كانت تزعم أنها تعبد الملائكة، فهي في الحقيقة إنما كانت تعبد إناثاً متوهمةً، تزعم أنها بنات الله وأنها الملائكة"⁵، فلماذا عمّتم الأول وقصرتم الثاني، حيث جعلتم كل المشركين يعبدون الملائكة كما ستأتي نصوصكم؟!⁶ بينما قصرتم قولهم عن الملائكة بنات الله على أنه قول لبعض المشركين؟! الجواب

1 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (17 / 326)

2 روى الطبراني في المعجم الكبير 12 / 153، برقم (12739) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (7 / 169): رواه الطبراني وفيه عاصم بن مبدلة وقد وثق وضعفه جماعة.

3 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (7 / 274)

4 مفاتيح الغيب (11 / 221)

⁵ آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (3 / 606)

⁶ انظر: ص (476) عند قولي: (شفعاء من الملائكة)

واضح، وهو أنكم أردتم المحافظة على أحد أصول نظرية تقسيم التوحيد؛ وهو أن سبب كفر المشركين الوحيد هو عبادة الأنبياء والملائكة والأولياء والتشفع بهم!

وكذلك يقال في آيات الباب الثماني . أي: لئن سألتهم من.. فهذه لا تشمل كل العرب والمشركين والعالمين، بل هي مقصورة على بعض مشركي العرب في عهد النبي ﷺ، سواء كان هذا البعض قليلا أو كثيرا، بدليل أن بعض العرب كانوا منكرين للصانع كما ذكر ذلك ابن تيمية نفسه¹، وبدليل أنه قد جاءت آيات فيها سؤال عن الخالق دون أن يُذكر فيها جواب للمشركين، بل يأتي الجواب من الله أو من رسوله أو يبقى دون جواب، والسبب في ذلك أن المشركين كانوا معاندين ومترددن في وجود الله، فمرة يثبتون كما في آيات الباب الثمانية، وأخرى ينفون كما في الآيات الأخرى المشار إليها، وهذا كله بسطناه في كتابنا "ولئن سألتهم"²، ونقلنا فيه نصوص المفسرين في ذلك، بل نقلنا إقرار ابن تيمية بذلك³، وثمة أدلة أخرى تدل على تشكك المشركين في وجوده تعالى سبق ذكرها⁴.

فكما قصرتم مقولة "الملائكة بنات الله على بعض المشركين" يمكن قصر آيات الباب الثمانية على بعضهم، أو على معظمهم ولكن أحيانا وأحيانا، أي أن معظمهم كانوا يقرّون بالخالق في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى يعاندون ويترددون، ويمكن أن تقصر أيضا عبادة المشركين للملائكة على بعض المشركين لا على كلهم، والجواب هنا هو نفسه الجواب هناك.

خامسا: أنه على التسليم بأن مقولة "الملائكة بنات الله" قول لبعض المشركين لا كلهم، فهو لا يفيدكم، لأن قريشا التي أرسل إليها رسول الله ﷺ واستباح دماءها ممن كانت تقول بأن الملائكة بنات الله، وهذا مذكور في النصّ نفسه الذي استندتم إليه! وهو قول الرازي "ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا إن قريشا وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا الملائكة بنات الله"، فلا يمكن أن تحصروا كفر قريش في قضية الشفاعة بالأصنام.

1 انظر: ص (22) عند قولي : (..المرتابين في الصانع أو الجاحدين له...)

2 انظره: ص (58،59)

3 "ولئن سألتهم" ص (59)

4 انظر: ص (302) عند قولي : (التي عاقبتهم عن الإيمان)

الأمر الثاني: إنكار أن يكون قول المشركين عن الملائكة بنات الله سبب كفرهم، وإنما علة كفر المشركين هي " اتخاذهم الأصنام، أو الأولياء شفعاء كي تقرّبهم عند الله زلفى¹، وليست هي " اعتقادهم في الأنبياء والملائكة أنهم أبناء الله وبناته² .

كذا قال بعضهم، وقد سبق أن رددنا عليه مطولاً³، ونضيف هنا بأن المعلمي اليماني قد ذكر ما حصله أن سبب عبادة المشركين للملائكة هو أنها بنات الله وأهم قالوا " إذا عبدنا ولده فكأننا إنما عبدناه⁴، فإن كنتم تريدون التقليل من شأن قولهم عن الملائكة بنات الله، وأن هذا ليس سبباً لكفرهم، فكان يجب عليكم من باب أولى أن تقللوا من شأن عبادتهم للملائكة لأنهم ما عبدوا الملائكة إلا لأنها بنات الله، وأن عبادتهم لها بمنزلة عبادة الله كما قرر المعلمي نفسه، أي أنهم لو لم يعتقدوا أنها بنات الله لما عبدوها أصلاً، فكيف ربطتم كفرهم بالنتيجة وهي عبادتهم للملائكة دون السبب وهو قولهم عن الملائكة بنات الله؟!

الأمر الثالث: التماس بعض السلفية الأصل المعقول، والنية الحسنة في قول المشركين عن الملائكة بنات الله؛ أما التماس النية الحسنة لهم في ذلك، فهي أن المشركين اختاروا أن ينسبوا إلى الله الولد "ليكونوا قد نزهوه عن العقر⁵"، لأن "العرب كانوا يرون العاقر - وهو مَنْ لا يولد له - معيباً ناقصاً.. فأروا أنه ينبغي لهم أن ينزهوا ربهم عز وجل عن هذا العيب في زعمهم⁶". وأما أنهم اختاروا أن ينسبوا له البنات لا الذكور فذلك لـ "كيلا يلزمهم الإشراف في الملك والتدبير⁷"، حيث إنهم كانوا "لا يثبتون للملائكة شيئاً من التصرف⁸"، وإنما جعلوا "تماثيل أو تذاكر للإناث الوهيمات التي هي في

1 دعوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 286)

2 دعوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 279)

3 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (514)

4 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6/ 162)

5 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6/ 163)

6 آثار المعلمي اليماني (6/ 162)

7 آثار المعلمي اليماني (6/ 177)

8 آثار المعلمي اليماني (6/ 177)

زعمهم بنات الله عز وجل، وهي عندهم الملائكة، فلم يعتقدوا في الأصنام ذاتها نفعا ولا ضرا، وإنما يعتقدون أن تعظيمها ينفع من حيث هو تعظيم للأشخاص التي جعلت تماثيل أو تذاكر لهم"1، وبيان ذلك أن المشركين "يعرفون من عادتهم أن الولد الذكر يشارك أباه في ملكه، حتى لقد يتغلب عليه، وأما الأنثى فهي كلٌ على أبيها، ليس لها شيء من ملكه، حتى إنهم لا يورثونها منه، وهي عندهم مستضعفة لا شأن لها مع أبيها ألبتة"2. فاختاروا أن يقولوا: إن لله عز وجل بنات؛ ليكونوا قد نزهوه عن العقر، بدون أن يلزمهم أن يشركوا معه في الملك والتدبير"3.

وأما التماس الأصل المعقول فهو أنه "الذي يظهر أنهم لما أطلقوا هذه الكلمة "بنات الله" أرسلوها مجملة، بل لعلَّ أوائلهم إنما أطلقوها تجوُّزا، بمعنى: المختارات عند الله، غير أنه لَمَّا طال العهد

1 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 500)

2 اختلف في ضبط همزة "البتة" أهي همزة قطع أم وصل؟ قال الأزهري في التصريح 333/1: لم يُسمع في (ألبتة) إلا قطع الهمزة، والقياس وصلها"اه. وقال الزبيدي في تاج العروس (4/ 431): "ولا أفعله ألبتة، بقطع الهمزة كما في نسختنا، وضبط في الصحاح بوصلها، ونقل شيخنا عن الدماميني في شرح التسهيل: زعم في اللباب أنه سمع في ألبتة قطع الهمزة، وقال شارحه في العباب: إنه المسموع. قال البدر: ولا أعرف ذلك من جهة غيرهما؛ وبالغ في ردّه وتعقبه، وتصدى لذلك أيضا عبد الملك العصامي في حاشيته على شرح القطر للمصنف.اه وقال ابن حجر في الفتح (7/ 483): قوله «ألبتة» معناه القطع، وألفها ألف وصل، وحزم الكرماني بأنها ألف قطع على غير قياس، ولم أر ما قاله في كلام أحدٍ من أهل اللغة. قال الجوهري: الانبثاق الانقطاع، ورجلٌ منبتٌ أي منقطع به، ويقال: لا أفعله ببتة ولا أفعله البتة لكل أمر لا رجعة فيه، ونصبه على المصدر. انتهى ورأيت في النسخ المعتمدة بألف وصل.اه وفي كتاب الكليات لأبي البقاء ص368: وقولهم: ألبتة، أي أبت هذا القول قطعة واحدة ليس فيها تردد...وهو مصدر منصوب على المصدرية بفعل مقدر أي {بت} بمعنى {قطع}، ثم أدخل الألف واللام للجنس والتاء للمبالغة. والمسموع قطع همزته على غير القياس.اه وفي حاشية الصبان: وأل في البتة لازمة الذكر، وقيل: يجوز حذفها، ولم يسمع فيها إلا قطع الهمزة والقياس وصلها. قاله في التصريح.اه وقيل إن للإمام العلامة الشريف أبي العباس أحمد بن المأمون البلغيتي العلوي الفاسي المتوفى حوالي سنة 1348 مؤلفٌ في الموضوع. والأستاذ محمد العدناني في كتابه معجم الأخطاء الشائعة ص33 ذكر أن في المسألة ثلاثة أقوال:
- قطع الهمزة، ونسبه لصاحب اللباب.

- وصل الهمزة، ونسبه للخليل وسيبويه وابن السكيت والجوهري وغيرهم.

- جواز الوجهين: ونسبه للزبيدي والآلوسي الكبير وغيرهما. ولم يرجح قولاً منها.

وانظر <https://www.ahlalloghah.com/showthread.php?t=152>

3 آثار المعلمي اليماني (6/ 162)

صاروا يرون لها صلة أقرب من الاختيار، وإن لم يحدِّدوها". "ثم طال الزمان فصار أخلافهم يقولون: بنات الله، ولا يحققون المعنى، ولم يكونوا يُثبتون أن لله عزَّ وجلَّ صاحبةً"¹.

وحاصل هذا كله أن المشركين قالوا عن الملائكة بنات الله بنية حسنة وهي أن ينزهوه عن العقر دون أن يلزمهم الشرك في التدبير والملك، لأنهم لا يثبتون للملائكة التصرف أو الملك، وكذا أصل قولهم هذا هو معنى معقول، حيث قصد آباؤهم بقولهم "الملائكة بنات الله": أن الملائكة مختارات عند الله أي مقربون منه.

والجواب عن ذلك فيما يلي:

أولاً: إن هذه كلها مجرد تحرّصات لا دليل عليها! وحسبك أنها ابتدأت بـ "لعل" كما في قوله "بل لعلَّ أوائلهم..!"

ثانياً: لو كان الأمر كذلك لاستحقوا الثناء على حسن نيّتهم على الأقل، أي لو فرضنا أن المشركين فعلاً قالوا بأن "الله عزَّ وجلَّ بنات؛ ليكونوا قد نزهوه عن العقر، بدون أن يلزمهم أن يشركوا معه في الملك والتدبير" لكان المفروض أن تأتي الآيات وتكيل لهم الثناء، على الأقل لحسن نيّتهم في تنزيه الله عن عيبي العقر والشرك في الملك والتدبير، ولكن وجدنا الآيات تنكر عليهم أشد الإنكار نسبتهم البنات إلى الله، وتصفهم بأشنع الأوصاف من أجل هذه النسبة، وحسبك قوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا } [مريم: 88 - 92]، وقد سردنا سابقاً العديد من تلك الآيات، وسردنا أيضاً تعليق ابن تيمية عليها.

ثالثاً: أن ابن تيمية نفسه يرد هذا، ويقول عكس ما قاله المعلمي، فابن تيمية يذكر مراراً أن المشركين يفضّلون أنفسهم على الله فضلاً عن تعظيمهم لآلهتهم أكثر من تعظيمهم لله، فهو مثلاً يقول معلقاً على قوله تعالى: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم}: فلولا تعظيمهم

¹ آثار المعلمي اليماني (11/ 443)

لأهنتهم على الله لما سبوا الله إذا سبت آهنتهم¹. اه، وقال أيضا: فهؤلاء لما سبت آهنتهم سبوا الله مقابلة، فجعلوهم مماثلين لله وأعظم في قلوبهم². ويقول أيضا: فبين سبحانه وتعالى أنهم يفضلون أنفسهم على ربه ويجعلون له ما يكرهون..³ ويقول فكان "المشركون يقولون: إن الملائكة بنات الله.. وهم مع هذا يجعلون البنات نقصا وعيبا، ويرون الذكر كمالا، فقال لهم: كيف تصفون ربكم بأنقص الوصفين وأنتم مع هذا لا ترضون هذا لأنفسكم"⁴، وبذلك يتبين "فرط جهلهم وظلمهم إذ جعلوا لله ما لا يرضونه لأنفسهم، فكانت أنفسهم عندهم أعظم من الله سبحانه"⁵. فتأمل كيف بين ابن تيمية أن المشركين بنسبتهم البنات إليه تعالى ما أرادوا إلا نسبة النقص والعيب إليه.

رابعا: أن هذا يرده كلام المعلمي نفسه الذي قال في موضع آخر: فإن قولهم: إن تلك الأوثان بنات الله - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا - من أبطل الباطل وأحل المحال، وإنما كان القوم متهورين متهورين لا يباليون بما قالوا، فكل ما نفته الشيطان في نفوسهم تبعوه بلا حياء ولا خجل.. فلا يشك أحد أن الظن في هذه الآية هو مجرد الوهم الفاسد، بل الخرص الكاذب، بل البهتان العظيم⁶. اه.

فبين أن المشركين إنما قالوا عن الملائكة بنات الله تحريصا وكذبا وبهتانا وتهورا وتهوسا واتباعا للشيطان دون خجل ولا وجل، وهذا كله ينسف ما زعمه المعلمي هنا من أن المشركين نسبوا لله البنات تنزيها له عن عيب العقر والظهير.

خامسا: وأما قوله بأن المشركين "لا يثبتون للملائكة شيئا من التصرف"⁷ واستدلله بآيات "ولئن سألتهم من خلق.. فقد سبق رد هذا الاستدلال وبيان ضعفه، وفضلا عن ذلك فإن هذا يرده قول ابن تيمية: {وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا..}، فإن الولد يماثل أباه وكذلك الشريك

1 منهاج السنة النبوية (5/ 397)

2 منهاج السنة النبوية (2/ 395)

3 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7/ 363)

4 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7/ 362)

5 مجموع الفتاوى (27/ 364)

6 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (4/ 29)

7 آثار المعلمي اليماني (6/ 177)

بماثل شريكه، فهم ضربوا الإنانث مثلاً، وهم جعلوا هذه شركاء لله سبحانه فكانوا يجعلونها أندادا لله¹. اهـ فتأمل قوله "الولد بماثل أباه"، أي أنهم بقولهم عن الملائكة بنات الله يثبتون لها من صفات الخلق والتدبير والقدرة ما ثبت مثله لله.

ثم إن تدبير الملائكة وتأثيرهم في العالم - بإذن الله - ثابت في القرآن والسنة بآيات وأحاديث كثيرة كما بيّن ذلك ابن تيمية نفسه فضلا عن بعض تلامذته وأتباعه، قال تعالى: { فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا } [النازعات: 5]، قال ابن كثير: قال علي ومجاهد وعطاء وأبو صالح والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي هي الملائكة، زاد الحسن تدبير الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها عز وجل، ولم يختلفوا في هذا، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك إلا أنه حكى في المدبريات أمرا أنها الملائكة ولا أثبت ولا نفى 2. اهـ

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن علي في قوله: والنازعات غرقا، قال: هي الملائكة تنزع أرواح الكفار، والناشطات نشطا هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها، والساجحات سبحا هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض، فالسابقات سبقا هي الملائكة يسبق بعضها بعضا بأرواح المؤمنين إلى الله، فالمدبريات أمرا قال: هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة 3. اهـ

هذا وقد أفاض ابن تيمية نفسه بسرد كثير من الآيات التي تثبت للملائكة أفعالا وتدبيراً، فهو يقول: وقال تعالى "إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة.."، وقال تعالى "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين.. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا".. وأيضاً قال تعالى "ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم"، وقال تعالى: "إن الذين توفاهم الملائكة".."فهذه الآيات يخبر فيها بتوفى الملائكة للأنفس، وخطابهم للموتى إما بخير وإما بشرّ، وفعلهم ما يفعلونه بهم من نعيم وعذاب.. فهذه النصوص

1 مجموع الفتاوى (27/ 364)

2 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (14/ 239)

3 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (15/ 218)

وأمثالها صريحة بإثبات الملائكة وأفعالها وكلامها وتأثيرها في العالم بالقول والفعل.. وحينئذ فما يحصل من خوارق العادات بأفعال الملائكة أعظم مما يحصل بمجرد القوى النفسانية ..¹ اهـ

فتأمل قول ابن تيمية: فهذه النصوص وأمثالها صريحة بإثبات الملائكة وأفعالها وكلامها وتأثيرها في العالم بالقول والفعل .. وحينئذ فما يحصل من خوارق العادات بأفعال الملائكة... اهـ تأمل كيف أثبت ابن تيمية للملائكة ليست تأثيرا في العالم وتدبيرا بالقول والفعل فحسب بل أثبت لها خوارق العادات، وهذا أثبتته آيات كثيرة من القرآن، وأنا لم أذكر إلا بعضها، والباقي حذفته اختصارا، فإذا كان الله في القرآن قد أثبت التدبير والتصريف والتأثير في العالم للملائكة مع أنه تعالى يقول عنهم بأنهم عبيد له كما في قوله تعالى: { وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِآثَا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ } [الزخرف: 19]، فكيف ينفي المشركون التأثير عن الملائكة على الرغم من أنهم يقولون عنهم بأنهم بنات الله، و"الولد يماثل أباه" كما سبق؟!

ولذلك رد الله عليهم فقال: { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } [الأنبياء: 26، 27]، قال ابن كثير: يقول تعالى رادًا على من زعم أن له - تعالى وتقدس - ولدا من الملائكة كمن قال ذلك من العرب إن الملائكة بنات الله، فقال "سبحانه بل عباد مكرمون"، أي الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلًا.. لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية"². اهـ

وتأمل كيف ردّ الله على المشركين بأن الملائكة بنات الله في الآية السابقة، وفي الوقت نفسه أثبت لهم العمل فقال "وهم بأمره يعملون"، وعمل الملائكة هو تدبير للكون وتأثير فيه بأمر الله، "فإن الملائكة يقومون على مختلف شؤون الكون مما نشاهده، وما لا نشاهده.. مثل حملة العرش.. (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية)"، وملك الجبال.. ففي صحيح البخاري ومسلم "فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله

1 الصفدية لابن تيمية (1/ 204)، ت د. مجّد رشاد سالم، ط2/ 1406هـ.

2 «تفسير ابن كثير - ط العلمية» (5/ 296)، «تفسير ابن كثير - ت السلامة» (5/ 338)، وانظر أيضا: «التفسير المنير - د.

الزحيلي» (17/ 37)، «آراء ابن عجيبة العقدية عرضا ونقدا» (ص425 ت.ش).

عزّ وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال.. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟"¹. والموكلون بالقطر والنبات والأرزاق: يقول ابن كثير: (ميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، يصرفون الرياح والسحاب، كما يشاء الرب جلّ جلاله)².. وعلى كل فالملائكة موكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: (فالمدبرات أمرا)، وقال: (فالمقسمات أمرا)، ويزعم المكذبون للرسول المنكرون للخالق أن النجوم هي التي تقوم بذلك كله، وكذبوا، فالذي يدبر ذلك كله الملائكة بأمر الله تعالى"³ اهـ.

إذن "الملائكة يقومون على مختلف شؤون الكون.. وتدبر ذلك كله بأمر الله تعالى"، هذا مع اعتقادنا أنهم عباد الله، فما بالك بمن يعتقد - كمشركي العرب - أنهم آلهة وأنهم بنات الله، فهل يقال: ما كانوا يعتقدون فيهم التأثير والتدبير والتصرف؟!!

لا يقال: المراد هنا أن المشركين لا يعتقدون في الملائكة التصرف المستقل للكون، وليس مطلق التأثير والتصرف، أي أنهم يعتقدون فيهم تدبير الكون والتصرف فيه بإذن الله وأمره. لأننا قد فندنا من قبل هذا الأمر، وبيّنا أن أهل الجاهلية كانوا لا يستخدمون عبارة "إن شاء الله" أو عبارة "بإذن الله" إلا على سبيل الاستهزاء⁴، فضلا عن أننا أتينا بنصوص للسلفية أنفسهم أقرّوا فيها بأن المشركين يعتقدون بحدوث حوادث بغير إذن الله، ومن ذلك قول ابن القيم: فإنه سبحانه نفى الشفاعة الشركية التي كانوا يعتقدونها وأمثالهم من المشركين، وهي شفاعة الوسائط لهم عند الله في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم بذواتها وأنفسها بدون توقف ذلك على إذن الله ومرضاته لمن شاء أن يشفع فيه الشافع⁵ اهـ.

1 صحيح مسلم: 1420/3. ورقمه: 1795. واللفظ له. ورواه البخاري: 312/6. ورقمه: 3231.

2 البداية والنهاية، ط هجر: 105/1.

3 عالم الملائكة الأبرار، د. عمر الأشقر، (ص: 81.79)، باختصار وتصرف يسير.

4 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (290)

5 مفتاح دار السعادة لابن القيم (2/ 269).

وهكذا نرى الهنات التي في كلام المعلمي حول التماس النية الحسنة والأصل المعقول لقول

المشركين عن الملائكة بنات الله، ثم أقول بعد التي واللتيا: إذا التمسست النية الحسنة والأصل المعقول لقول المشركين عن الملائكة بنات الله فلماذا لا تلتمس أيضا النية الحسنة والأصل المعقول لعبادتهم للأصنام، إذ إن أصل عبادة الأصنام ومنشأ ذلك أمران كما قيل وهما:

الأول: هو أنهم "كانوا يقولون: إن إله العالم أجلّ من أن يعبده الواحد منا، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنهوا عن ذلك"1، إذن هم رأوا أنفسهم أحقر وأذلّ من أن يعبدوا الله مباشرة فاختاروا وسيطا أرفع منهم يعبدونه وهو الأصنام كما سبق بسط ذلك2.

والثاني: هو أنّ . وذلك بحسب أثر ابن عباس الذي سيأتي . تلك الأصنام التي كانت في قوم نوح هي أصلا "أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصبا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبت" أي أنهم صوّروا تلك الصور بقصد حسن معقول وهو "ليتأنسوا برؤية تلك الصورة، ويتذكروا أحوالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم، ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم، فمضت لهم بذلك أزمان، ثم إنهم حَلَف من بعدهم خَلَف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان: أن آباءهم وأجدادهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها، فعبدها"3.

وهذا يفيد أن أصل عبادة الأصنام . بحسب هذا الأثر الأخير . بدأ بتصوير أولئك الصالحين لتكون صورهم حافزا لمن صورهم على الإكثار من عبادة الله كما أكثر أولئك الصالحون من عبادته تعالى،

1 فتح القدير للشوكاني (3/ 215) وانظر أيضا: فتح البيان في مقاصد القرآن (7/ 284).

2 انظر: ص (62) عند قولي : (أجل من أن يعبده الواحد منا)

3 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم 127/2، وانظر ذلك أيضا في فتح الباري لابن حجر (1/ 525)، «عمدة القاري» (4/ 174)، «إرشاد الساري» للقسطاني (2/ 437)، «فيض القدير» للمناوي (4/ 466)، «البدر التمام شرح بلوغ المرام ت الزين» للشيخ اللاعي المغربي (2/ 392)، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (2/ 58)، «البحر المحيط النجاج» للأثيوبي (12/ 128) «آراء القرطبي والمازري الاعتقادية» (ص290).

ولكن هذا القصد الحسن نُسي على تطاول الزمن حتى جاء من ظن أن تلك الصور آلهة كانت تُعبد فعبدها.

وسواء كان منشأ عبادة الأصنام الأمر الأول أم الثاني أم كليهما، فهل يحسن بنا أن نلتمس لهم عذرا لعبادتهم الأصنام بحجة أن قصدهم كان حسنا؟! وبعبارة أخرى: هل يصلح الاعتذار عن المشركين في عبادتهم للأصنام بحجة أن قصدهم الأول ومنشأه نية طيبة، وهي أنهم رأوا أنفسهم أحقر من أن يعبدوه مباشرة، أو أنهم صوروا تماثيل الصالحين لتكون رؤيتها حافزا لهم على كثرة عبادته تعالى كما فعل أولئك الصالحون؟! فإذا لم يصلح هذا فكذا لا يصلح الاعتذار عنهم بالتماس النية الحسنة لقول المشركين عن الملائكة إنهم بنات الله - سبحانه -، ولا الاعتذار عنهم لسببهم الله بحجة أنهم أرادوا سب رسوله أو نحو ذلك مما ذكرتم من أعدار لهم سبق بيانها وتفنيدها¹.

1 انظر: ص (306) عند قولي: (المراد من سبهم الله سبهم رسول الله ...)

حكم من نسب الولد إلى الله

بعد أن ثبت أن المشركين قائلون بأن الملائكة بنات الله ، فالسؤال: ما حكم من ينسب لله الولد؟!
والجواب: أجمع العلماء على أن هذا كفر عظيم وشرك أكبر، لا ريب في ذلك، وهذا شيء معروف لا حاجة للإطالة فيه، ومع ذلك ننقل طائفة من أقوال فقهاء المذاهب الأربعة فيما يلي:

(1) نصوص الحنفية: قال الكاساني: والكتابية مشركة على الحقيقة؛ لأن المشرك من يشرك بالله تعالى في الألوهية، وأهل الكتاب كذلك، قال الله تعالى: {وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله} ¹.

(2) وقال ابن نجيم: (وَحَلَّ تَزْوِجَ الْكِتَابِيَّةِ)..واعترض بأنهم مشركون لقوله تعالى: {وقالت اليهود عزيز ابن الله} إلى قوله: {سبحانه عما يشركون} ²

(3) نصوص المالكية: قال الرجراجي: وأما اليهود: فمن كان منهم مشركا يقول: عزيز ابن الله... ³.

(4) وقال القاضي عليش: وسواء كَفَّرَ (ب) قول (صريح) في الكفر كقوله..المسيح ابن الله أو العزير ابن الله ⁴.

(5) وقال ابن غنيم: وكذا لو سبَّ الله بما به كَفَّرَ، كقول النصراني: الله ثالث ثلاثة، أو المسيح ابن الله، وكقول اليهودي: عزيز ابن الله لا يجوز قتله، لأن شرعنا أقرَّهم على ذلك بأداء الجزية ⁵.

¹ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (2/ 270)

² النهر الفائق شرح كنز الدقائق (2/ 194)

³ مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة وحل مشكلاتها (3/ 13)، أبو الحسن علي بن سعيد الرجراجي (ت بعد 633هـ)، دار ابن حزم، ط 1/ 2007 م.

⁴ منح الجليل شرح مختصر خليل (9/ 205)

⁵ الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (2/ 203)

- (6) وقال اللخمي: وأما اليهود فمن كان منهم مشركًا يقول: عزير ابن الله..¹.
- (7) وقال الزرقاني في باب الجزية وما يُنتقض به عقد الذمة عند قول خليل: (وسبّ نبيّ بما لم يكفر به): أي بما لم نقرهم عليه من كُفْرهم لا بما أقرّ به نحو عيسى ابن الله..²، ونحوه قول الخرشبي: وأما ما كُفّر السابُّ به كقوله لم يُرسل إلينا إنما أرسل إلى العرب وكالشريك والولد ونحوهما فليس نقضاً³. ونحوه قال الزرقاني⁴،
- (8) وقال العدوي: [قوله: أي رجوع عن الإسلام]، أي بصريح لفظه كقوله: العزير ابن الله..⁵ "أو عيسى ابن الله"⁶.
- (9) في إعانة الطالبين من كتب الشافعية: قد كُفّر بعضهم من وَقَف على نحو قوله تعالى {وقالت اليهود}، وابتدأ بقوله {عزير ابن الله} أو {وقالت النصارى}، وابتدأ بقوله {المسيح ابن الله}.. والمحققون على أنه لا يطلق القول بالتكفير ولا بالحرمة، بل إن كان مضطراً وابتدأ بما بعده غير معتقد لمعناه لا يكفر، وإن اعتقد معناه كفر مطلقاً وقف أم لا، وعليه يحمل كلام من أطلق⁷.
- (10) وقال الرحيباني الحنبلي: "وقال: إن جهر بين المسلمين بأن المسيح هو ابن الله"، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، "عوقب على ذلك إما بالقتل أو بما دونه"، لإتيانه بهتاناً عظيماً⁸.
- نصوص ابن تيمية وأتباعه في أن نسبة الولد إلى الله كفر وشرك:**

¹ التبصرة للرخمي (3/ 1345)

² بلغة السالك لأقرب المسالك (2/ 316)

³ شرح مختصر خليل للخرشي (3/ 149)

⁴ شرح الزرقاني على مختصر خليل وحاشية البناي (3/ 260)

⁵ حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني (2/ 315)

⁶ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (4/ 301)

⁷ إعانة الطالبين (4/ 137)

⁸ مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (2/ 626)

- (1) يقول ابن تيمية: وقد ضاهوا في ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولدا شريكا..¹.
- (2) وقال ابن تيمية: فإذا كان الذين قالوا: إنه هو الله وإنه اتحد به أو حل فيه قد كفرهم وعظم كفرهم؛ بل الذين قالوا إنه اتخذ ولدا حتى قال: { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا }². اهـ
- (3) وقال ابن تيمية في سياق رده على الفلاسفة: وأيضا فزعمهم أن العقول والنفوس التي جعلوها الملائكة وزعموا أنها معلولة عن الله.. هو قول بتولدها عن الله، وأن الله ولد الملائكة، وهذا مما رده الله ونزه نفسه عنه وكذب قائله وبين كذبه..³. اهـ ثم سرد آيات كثيرة في ذلك سبق بعضها.
- (4) وقد سبق أن نقلنا قول ابن تيمية في سياق رده على الفلاسفة أيضا: "وأن ذلك من أعظم الكفر في دين الرسل، وأن حقيقته حقيقة قول من يقول ولد الله".
- (5) وقال أيضا: فلقد سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر ولهذا يعظم الله فريتهم على الله في القرآن أشد من تعظيم افتراء غيرهم، كقوله: وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا.. وفي الصحيحين.. "وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك فأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا" ..⁴. اهـ
- (6) وقال أيضا: وزعم كثير من الكفار أن الله سبحانه وتعالى بنين وبنات وأن الملائكة بناته.. فنزه الله عن أن يتخذ ولدا كما نزهه عن أن يكون له ولد. اهـ ثم سرد آيات كثيرة جدا في ذلك.⁵

1 الجواب الصحيح (3/ 185)

2 مجموع الفتاوى (3/ 394)، وانظر أيضا: مجموع الفتاوى (2/ 440)

3 مجموع الفتاوى (4/ 127)

4 الجواب الصحيح (4/ 457)

5 الجواب الصحيح (4/ 151)

(7) وقال ابن تيمية في سياق كلامه عن أهل الكتاب: وهو مع ذلك يصفهم بما ابتدعوه من الشرك، كما في قوله تعالى: "وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله"¹. اهـ

(8) وهذا ابن عبد الوهاب يقول وهو يقرر كفر العرب في استشفاعهم ودعائهم للملائكة والأنبياء، فيورد إيرادا لخصمه ويردّ عليه، فيقول: "فإن قال: إنهم لا يكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما يكفرون لما قالوا الملائكة بنات الله، فإننا لم نقل عبد القادر ابن الله ولا غيره. فالجواب: أن نسبة الولد إلى الله كفر مستقل"². اهـ

(9) بل هذا المعلمي اليماني الذي التمس لهم النية الحسنة والأصل المعقول قد نصّ على أن أقوال مشركي العرب في الملائكة جمعت بين "ثلاثة أقوال، كل واحد منها أشد كفراً وأعظم كذباً. أولاً: جعلوهم بنات الله.. ثانياً: جعلوهم إناثاً.. ثالثاً: أنهم.. عبدوا الملائكة"³. اهـ وقال المعلمي اليماني وهو يتكلم عن أهل الجاهلية: "فكان من الباطل زعمهم أن الملائكة بنات الله - تعالى الله عن قولهم - وزعمهم: أنه يجوز أن يُعبد مع الله بعض مملوكاته ليكونوا شفعاء لهم إليه.. فقرر القرآن في عدة آيات أن الله تعالى تنزّه عن أن يكون له ولد، وأنه لا يستحق أن يُعبد إلا هو سبحانه⁴. ويقول المعلمي اليماني أيضاً بعد أن يسوق آيات الزخرف السابقة: فوبّخهم الله عزّ وجلّ على قولهم: إن الله ولدًا، ثم على قولهم: إن ذلك الولد إناثٌ، ثم على قولهم: الملائكة إناث، ثم على قولهم: {لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ}، فدلّ أن كلّ أمرٍ من هذه منكرٌ على حدة⁵. اهـ

1 بيان تلبيس الجهمية (7/ 33)

2 كشف الشبهات (ص: 28)

3 مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 94)

4 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (22/ 245)

5 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (3/ 711)

10) وقال ابن عثيمين: اليهودية إذا قالت: عزير ابن الله فإنه لا تحل؛ لأنها مشركة¹. وقال أيضاً: ..«أو ولدًا»، كأن زعم أن الله ابناً، أو أن الله بنتاً، فهو كافر، ونقول في العلة: لأنه مكذب لله عز وجل.. وهل أحد من الناس قال: إن لله ولداً؟ نعم، قالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله.. وقال المشركون: الملائكة بنات الله².

11) وقال الألباني: كيف يصح أن يقال في اليهود والنصارى: إنهم ليسوا من المشركين، والله عز وجل قال:..«وقالت اليهود عزير ابن الله..» فمن جعل لله ابناً؛ كيف لا يكون من المشركين؟! أه

12) وقال د. جابر أمير: "ومن ذلك مقاتلهم الكفرية إن الله اتخذنا ولداً.. ثم سرد أمير الآيات السابقة ثم قال: "فأنكر عز وجل مقاتلهم الكفرية ونزه نفسه سبحانه وتعالى أن يكون له ولد"⁴.

13) وقال الملكاوي بعد أن ساق الآيات المنزهة لله عن الولد: فاعتبروا أيها المشركون، يا من تنسبون إلى الله الولد، ويا من تقولون بأن الملائكة وعزير والمسيح أبناء الله، وإن لم تنتهوا عما تقولون من الكفر والافتراء على الله بنسبتكم الولد إليه ليصين الذين كفروا منكم عذاب أليم⁵.

وحاصل ما سبق هو أن قول مشركي العرب عن الملائكة بنات الله كفر، وشرك مستقل عن عبادتهم للملائكة فهو كفر وشرك آخر، أي أنهم وقعوا في أمرين كل منهما كفر وشرك على حدة كما ترى، وإنما أكثرت من الأدلة والنقول والنصوص على أن نسبة المشركين الولد إلى الله كفر وشرك بحد ذاته لأنه قد سبق أن رأينا أن بعض أتباع ابن عبد الوهاب يقول بالحرف: يتبين من خلال هذه

¹ الشرح الممتع على زاد المستقنع (12 / 147)

² الشرح الممتع على زاد المستقنع (14 / 414)

³ موسوعة الألباني في العقيدة (2 / 147)

⁴ مقالة التشبيه وموقف أهل السنة منها (1 / 215)، د. جابر أمير، أضواء السلف.

⁵ عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: 210)

القول أن هؤلاء الخصوم يدعون أن العلة التي أوجبت كفر المشركين، هي اعتقادهم في الأنبياء، والملائكة أنهم أبناء الله وبناته - تعالى الله عن ذلك-، أو اعتقادهم أن الأصنام تنفع وتضر، وليست علة كفرهم اتخاذهم الأصنام، أو الأولياء شفعاء كي تقرّبهم عند الله زلفى¹.. اهـ

فواضح أن هذا القائل لا يرى أن قول المشركين عن الملائكة أنهم بنات الله موجبا لكفرهم، بل رأينا أن إحدى مقدمات تقسيم التوحيد وأتباعه تقول إن السبب الوحيد لقتال النبي ﷺ للمشركين هو قضية توحيد الألوهية، فهو قاتل "مشركي العرب لأنهم أشركوا في الإلهية"²، أي "أن قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم."³ "فما كان كفرهم، وشركهم إلا نداؤهم⁴ لألهتهم والندور التي كانوا يندرون لها. واتخاذهم لهم شفعاء ووكلاء"⁵. فالخلل عند المشركين هو "بجعل الوسائط شركاء مع الله في العبادة زعماً منهم أنهم أقرب منهم إلى الله وسيلة. هذا هو شركهم الذي صاروا به كفاراً مرتدين"⁶.

وهذا الزعم التي قامت عليه نظرية تقسيم التوحيد من أن سبب كفر المشركين الوحيد هو تشفعهم بالأصنام يعني ببساطة أن كل سبب لكفر المشركين سوى ذلك غير صحيح عند أصحاب هذه النظرية، أي أن قول المشركين عن الملائكة بنات الله ليس كفراً! وهذا يتناقض مع نصوص كثيرة لابن تيمية نفسه وأتباعه يقررون فيها كفر من يقول بأن الملائكة بنات الله، كما سبق، وقد رأينا كيف سرد ابن تيمية نفسه وأتباعه آيات كثيرة فضلاً عن بعض الأحاديث والآثار مستشهدين بما كلها على أن قول مشركي العرب بأن الملائكة بنات الله هو شرك أكبر وكفر عظيم، بل من أعظم الكفر، وأنه من أشد الكذب والافتراء، وأنه شتم وسب لله تعالى.

1 دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 286)

2 مجموع الفتاوى (1/ 91)

(3) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص16

⁴ سيأتي بيان أن الصواب كتابة الهمزة على السطر، انظر: ص (465) عند قولي: كتبت الهمزة على واو

5 جهود علماء الحنفية (1/ 372)، و(1/ 412).

⁶ شرح كشف الشبهات لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص: 29)، جهود علماء الحنفية (1/ 165)

فكيف يقال بعد كل ذلك إن نسبة الولد لله ليست كفرا! وأنه لم يكفر المشركون بسبب ذلك! ولا على ذلك قاتلهم رسول الله ﷺ وإنما قاتلهم فقط على الشفاعة بالملائكة أو بالأنبياء أو الأولياء!؟

المبحث الثالث: كفرهم في باب النبوات

وهذا الكفر متعدد الوجوه، فهو يتضمن أموراً كثيرة وهي: إنكارهم للنبوة والرسالة وتشكيكهم في ذلك، وإيذاؤهم للنبي معنوياً، مثل شتمهم له . فداه أبي وأمي .، واستهزائهم به، والتحريض ضده، وإيذاؤهم له جسدياً مثل إخراجهم له من بلده، وهمهم بقتله، ومحاربتهم له عليه الصلاة والسلام. ويمكن أن تتلخص هذه الوجوه الكثيرة في ثلاثة أمور وهي: إنكارهم للنبوة، وإيذاؤهم للنبي معنوياً، وجسدياً . وإليكم بسط ذلك في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: إنكارهم للنبوة والرسالة

المطلب الثاني: إيذاؤهم للنبي معنوياً

المطلب الثالث: إيذاؤهم للنبي جسدياً

المطلب الأول: إنكارهم للنبوة والرسالة

فالمشركون منكرون لفكرة الرسالة والنبوة من أصلها زاعمين "أن الرسول لا يكون بشراً"¹، فكانوا "منكرين لبشرية الرسل، ويعتقدون أن الرسل ليسوا من جنس البشر"² كما قال تعالى: { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } [الإسراء: 94]، فقد "أنكروا أن يبعث الله بشراً رسولا وجعلوا ذلك منكرًا ممتنعاً في عقولهم"³، وقال تعالى: { إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } [فصلت : 14]، وقال: { وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } [الأنبياء: 3] والآيات في ذلك كثيرة، سردها ابن تيمية وأتباعه⁴.

1 جهود علماء الحنفية (2 / 893)

2 جهود علماء الحنفية (2 / 894)

3 درة تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7 / 62)

4 انظرها في: الجواب الصحيح (2 / 360)، جهود علماء الحنفية (2 / 893)

وكانوا يتعجبون من إرسال نبي بشرا أو رجلا، أو "من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر"¹ كما قال تعالى: { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ } [ق: 2]، بل كان أكل الرسول للطعام ماثرا للتساؤل والاستغراب عندهم، كما في قوله تعالى: { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ } [الفرقان: 7]، وكما في قوله تعالى: { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ } (33) وَلَنْ أُطْعَمَ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ } [المؤمنون: 33، 34]، "فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشرا مثلهم واستنكفوا عن اتباع رسول بشري.."². "وصفوه بمساواتهم في البشرية، وفي الأكل مما تأكلون منه والشرب مما تشربون منه، وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له عليهم.. ولئن أطعتم بشرا مثلكم فيما ذكر من الأوصاف إنكم إذا لخاسرون أي: مغبونون بترككم آلهتكم واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم"³.

وكما في قوله { أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ } [الأعراف: 63]، فقد "أنكر تعالى في هذه السورة الكريمة على قوم نوح، وقوم هود عجبهم من إرسال رجل؛ وبين في مواضع آخر أن جميع الأمم عجبوا من ذلك.. وردّ الله عليهم ذلك في آيات كثيرة.."⁴.

والحاصل أن المشركين منكرون للنبوة والرسالة وجاحدين للرسول والأنبياء، و"هذا مذهب المشركين من سائر الأمم"⁵، وهذا أيضا كفر قطعاً وياجتماع الأمة، وإليكم نصوص العلماء في حكم منكر النبوة والرسالة:

(1) قال ابن تيمية: وأيضاً فمن خصائص الأنبياء أن من سبّ نبيا من الأنبياء قُتل باتفاق الأئمة وكان مرتداً، كما أن من كفر به وبما جاء به كان مرتداً، فإن الإيمان لا يتم إلا بالإيمان بالله

1 الجواب الصحيح (2/ 360)

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (10/ 122)

(3) فتح القدير للشوكاني (3/ 571)

4 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (2/ 381)

5 إغاثة اللهفان (2/ 253)

وملائكته وكتبه ورسله 1. ويقول أيضا: فإن الإيمان بجميع النبيين فرض واجب، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم 2.

(2) قال ابن القيم: وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص؛ فالمطلق: أن يحدد جملة ما أنزله الله وإرساله الرسول 3.

(3) قال بهاء الدين المقدسي الحنبلي: (ومن جحد نبيا) فقد كفر لقوله سبحانه: {إن الذين يكفرون بالله ورسله.. أولئك هم الكافرون حقا} 4.

(4) قال القاضي عليش: .. أو ينفي نبوته أو رسالته أو وجوده أو يكفر به فهذا كافر بإجماع 5.

(5) ذكر القرافي أن من الكفر ما هو متفق عليه مثل "جحد البعث أو النبوات" 6.

(6) قال النووي في منهاجه: "فمن نفى الصانع أو الرسل أو كذب رسولا.. كفر" قال الخطيب الشربيني: (أو) نفى (الرسل) بأن قال: لم يرسلهم الله، أو نفى نبوة نبي.. 7.

(7) قال الدميري: وكذلك يكفر من جحد جواز بعثة الرسل، أو أنكر نبوة نبي من الأنبياء أو رسولا من الرسل عليهم السلام 8.

(8) قال الباجي: وأما إن سبّه فقال ليس بنبي ولم يرسل، أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو نبي بقوله ونحوه، فهذا يقتل 9.

1 الصفدية لابن تيمية (1/ 261)، ت محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر، ط2/ 1406هـ.

2 الصفدية (2/ 311)

3 مدارج السالكين- ابن القيم (1/ 255)

4 العدة شرح العمدة 617/1، بهاء الدين المقدسي الحنبلي، القاهرة، دار الحديث، 2003 م.

5 منح الجليل 234/9، دار الفكر، 1989م.

6 أنوار البروق في أنواء الفروق، عالم الكتب، 1/ 122.

7 مغني المحتاج 5/ 429، دار الكتب العلمية، ط1/ 1994م. وانظر: تحفة المحتاج (9/ 87)، نهاية المحتاج (7/ 415)

8 النجم الوهاج في شرح المنهاج للدميري (9/ 79)

9 المنتقى 208/7، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2.

المطلب الثاني: إيذاؤهم للنبي معنوياً

أولاً: شتمهم للنبي، وذلك بقولهم عنه شاعر وكاهن وساحر ومجنون وكذاب، حاشاه عليه الصلاة

والسلام، وفيما يلي بسط ذلك:

1. قول المشركين عن رسول الله ﷺ إنه ساحر، وهذا دلّ عليه آيات منها قوله تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [ص: 4]، وقوله: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ} [الذاريات: 52].

2. قول المشركين عن الرسول إنه كاهن، وقد أشار إلى ذلك في قوله تعالى: {وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَدَكَّرُونَ} [الحاقة: 42]، وفي قوله: {فَدَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مُجْنُونٍ} [الطور: 29]، فقد ذكر الله في هذه الآيات وغيرها ما افتراه المشركون على الرسول فقد قالوا فيه "ساحر، شاعر، كاهن"¹، "وقد ردّ الله عليهم هذه الدعاوى الباطلة في آيات من كتابه، كردّه دعواهم أنه شاعر أو كاهن في قوله تعالى:..ولا بقول كاهن"²، بل "قد كفر الله من جعل القرآن العربي قول البشر..{ولا بقول كاهن}"³.

3. قول المشركين عن الرسول إنه كذاب مفتر. حاشاه عليه الصلاة والسلام،، ويدل على ذلك آيات كثيرة منها ما يلي:

(1) {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}

[النحل: 101] "يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم وأنه لا يتصور

منهم الإيمان، وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها

1 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (4/ 178)

2 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (4/ 694)

3 مجموع الفتاوى (12/ 50)

قالوا لرسول الله ﷺ (إنما أنت مفتر) أي كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد¹.

(2) {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [ص: 4]، أي "وعجب هؤلاء المشركون من قريش أن جاءهم منذر ينذرهم بأس الله على كفرهم به من أنفسهم، ولم يأتم ملك من السماء بذلك.. وقال المنكرون وحدانية الله: هذا - يعنون محمدًا ﷺ - ساحر كذاب"².

(3) {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} [الأنبياء: 5]، أي "ما صدقوا بحكمة هذا القرآن، ولا أنه من عند الله، ولا أقروا بأنه وحي أوحى الله إلى محمد ﷺ، بل قال بعضهم: هو أهويل رؤيا رآها في النوم، وقال بعضهم: هو فرية واختلاق افتراه، واختلقه من قبل نفسه، وقال بعضهم: بل محمد شاعر، وهذا الذي جاءكم به شعر. {فليأتنا}.. فليجئنا محمد إن كان صادقاً.. {بآية} يقول: بحجة، ودلالة على حقيقة ما يقول ويدعي"³.

(4) {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا} [الفرقان: 4]، (يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن: "إن هذا إلا إفك" أي كذب "افتراه" يعنون النبي ﷺ)⁴.

(5) {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} [السجدة: 3]، ونحو قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ} [هود: 35]، ونحو قوله تعالى: {أَمْ

1 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (8/ 354)

2 جامع البيان ط هجر (20/ 17)

3 جامع البيان ط هجر (16/ 225)

4 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (10/ 285)، وانظر جامع البيان ط هجر (17/ 401)

يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ { [يونس: 38] أي "أم يقول هؤلاء المشركون: افتري محمد هذا القرآن من نفسه، فاختلقه وافتعله. قل يا محمد لهم: إن كان كما تقولون إني اختلقته وافتريته، فإنكم مثلي من العرب، ولساني وكلامي مثل لسانكم، فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن"¹.

رابعاً: قول المشركين عن النبي ﷺ إنه شاعر، كما جاء ذلك في عدة آيات:

الآية الأولى: { بَلْ قَالُوا أَضْعَافُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ } [الأنبياء: 5]، قال الطبري: ما صدقوا بحكمة هذا القرآن ، ولا أنه من عند الله، ولا أقروا بأنه وحي أوحى الله إلى محمد ﷺ ، بل قال بعضهم: هو أهاويل رؤيا رآها في النوم، وقال بعضهم: هو فرية واختلاق افتراه ، واختلقه من قبل نفسه، وقال بعضهم: بل محمد شاعر، وهذا الذي جاءكم به شعر². اهـ

الآية الثانية: { وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ } [الصفوات: 36].

الآية الثالثة: { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ } [الحاقة: 41].

الآية الرابعة: { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [الطور: 30].

الآية الخامسة: { وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ } [الشعراء: 224]، قال الشنقيطي: فهذه الآية تدل "على تكذيب الكفار في دعواهم، أن النبي - ﷺ - شاعر؛ لأن الذين يتبعهم الغاوون، لا يمكن أن يكون النبي - ﷺ - منهم. ويوضح هذا المعنى ما جاء من الآيات، مبينا أنهم ادعوا عليه - ﷺ - أنه شاعر وتكذيب الله لهم في ذلك..³ ثم سرد الآيات السابقة وغيرها.

5. قول المشركين عن النبي ﷺ أنه مجنون، كما جاء ذلك في آيات عدة:

الآية الأولى: { وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ } [الصفوات: 36]

الآية الثانية: { فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ } [الطور: 29].

الآية الثالثة: { ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ } [الدخان: 14].

1 جامع البيان ط هجر (182 / 12)

2 جامع البيان ط هجر (225 / 16)

3 أضواء البيان للشنقيطي (430 / 6)

الآية الرابعة: { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ } [الذاريات:

52] وهي صريحة في أن هذا "القول تداوله كل الكفار" 1.

الآية الخامسة: { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } [المؤمنون: 70]،

قال الشنقيطي: "وما نفتته هذه الآية الكريمة من دعواهم عليه الجنون صرح الله بنفيه في مواضع آخر

كقوله تعالى: وما صاحبكم بمجنون، وقوله تعالى: فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون، وهذا

الجنون الذي افتري على آخر الأنبياء، افتري أيضا على أولهم، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة

عن قوم نوح إنهم قالوا فيه: إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين، وقد بين في موضع آخر أن

الله لم يرسل رسولا إلا قال قومه: إنه ساحر، أو مجنون، كأنهم اجتمعوا فتواصوا على ذلك لتواطؤ أقوالهم

لرسلهم عليه" 2.

وهكذا نرى أن المشركين تفتنوا في شتم رسول الله ﷺ "وَحَارُوا فِيْمَا يَقْدِفُونَهُ بِهِ، فَتَارَةٌ مِنْ إِفْكَهِمْ

يَقُولُونَ سَاحِرًا، وَتَارَةٌ يَقُولُونَ شَاعِرًا، وَتَارَةٌ يَقُولُونَ مُجْنُونًا، وَتَارَةٌ يَقُولُونَ كَذَّابًا" 3، فهم "اختلفوا فيه؛

فَقِيلَ سَاحِرٌ وَقِيلَ مُجْنُونٌ وَقِيلَ شَاعِرٌ وَقِيلَ كَاهِنٌ، كَمَا قِيلَ فِي الْقُرْآنِ إِنَّهُ سَحَرٌ وَإِنَّهُ شَعْرٌ وَإِنَّهُ

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.. " 4، و"كل هذه الأقوال المختلفة التي حكاها الله عنهم صدرت من طائفة متفقة لا

يثبتون على قول، بل تارة يقولون هو ساحر، وتارة شاعر، وهكذا؛ لأن المبطل لا يثبت على قول

واحد. وقال بعض أهل العلم: كل واحد من تلك الأقوال قالته طائفة" 5.

حكم من يشتم رسول الله ﷺ عند العلماء

بعد أن ثبت أن المشركين تفتنوا في شتمه عليه الصلاة والسلام، فما حكم من يشتم رسول الله؟!!

فلنقف على أقوال العلماء في حكم من سب رسول الله ﷺ كما نقلها ابن تيمية نفسه حيث يقول:

1 معارج القبول (2/ 544)

2 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (5/ 876)

3 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (10/ 285)

4 بيان تلبيس الجهمية (8/ 511)

5 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (4/ 694)

"إن سبَّ الله أو سبَّ رسوله كفرٌ ظاهرًا وباطنًا، وسواءً كان السابُّ يعتقد أن ذلك محرم، أو كان مستحلًّا له، أو كان ذاهلاً عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل".¹، ثم نقل ابن تيمية أقوال الأئمة رحمهم الله، ومنها:

(1) "قول الإمام أحمد رحمه الله: من شتم النبي ﷺ قُتِلَ، وذلك أنه إذا شتم فقد ارتدَّ عن الإسلام، ولا يشتم مسلم النبي ﷺ".

(2) وكذلك قال مُحَمَّد بن سحنون، وهو أحد الأئمة من أصحاب مالك و زمنه قريب من هذه الطبقة: أجمع العلماء أن شاتم النبي عليه الصلاة والسلام المنتقص له كافر، والوعيد جار عليه بعذاب الله، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر.

(3) وقول القاضي أبي يعلى: من سبَّ الله أو سبَّ رسوله فإنه يكفر، سواء استحلَّ سبَّه أو لم يستحلَّه".

(4) وقول ابن راهويه: قد أجمع المسلمون أن من سبَّ الله أو سبَّ رسوله ﷺ، أو دفع شيئاً مما أنزل الله، أو قتل نبياً من أنبياء الله؛ أنه كافر بذلك وإن كان مقرراً بكلِّ ما أنزل الله². اهـ
ونكمل فيما يلي فننقل أقوال مماثلة لأئمة آخرين:

(5) قال أبو يوسف: وأيما رجل مسلم سبَّ رسول الله ﷺ، أو كذبه أو عابه أو تنقصه؛ فقد كفر بالله وبانت منه زوجته؛ فإن تاب وإلا قُتِلَ³.

(6) وقال مالك: من سب النبي ﷺ من المسلمين قُتِلَ ولم يُستتب⁴.

(7) وقال ابن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سبَّ النبي ﷺ يُقتل⁵.

(8) وقال ابن حزم بأن مَنْ "سب نبيا من الأنبياء ، أو استهزأ به .. فهو بذلك كافر مرتد"¹.

1 الصارم المسلول لابن تيمية (ص: 513)

² الصارم المسلول (ص: 513)

3 الخراج لأبي يوسف (ص: 199)

4 الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشمني (2/ 216)

5 الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشمني (2/ 214)

9) وقال الباجي: وأما إن سبّه فقال ليس بنبي ولم يرسل أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو نبي بقوله ونحوه، فهذا يقتل².

10) وقال المواق: من أضاف إلى النبي ﷺ الكذب فيما بلغه أو أخبر به، أو سبّه، أو استخفّ به أو بأحد من الأنبياء، أو أزرى عليهم، أو آذاهم؛ فهو كافر بإجماع³.

وأختم بهذا النصّ لابن تيمية حيث يقول فيه: "فعلّم أن سبّ الرسل والطعن فيهم ينبوع جميع أنواع الكفر وجماع جميع الضلالات، وكل كفر فرع منه، كما أن تصديق الرسل أصل جميع شعب الإيمان وجماع مجموع أسباب الهدى"⁴.

ثانيا: استهزأؤهم برسول الله وسخرتهم منه، كما دلّ على ذلك عدة آيات، منها ما يلي:

الآية الأولى: قال تعالى: { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الحجر: 94 - 96]، قال الطبري: إنا كفيناك المستهزئين يا محمد، الذين يستهزئون بك ويسخرون منك، فاصدع بأمر الله، ولا تحف شيئا سوى الله، فإن الله كافيك من ناصبك وأذاك كما كافك المستهزئين، وكان رؤساء المستهزئين قوما من قريش معروفين⁵، وهم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس السهمي، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والآفات التي كانت سبب هلاكهم مشهورة في التاريخ⁶.

الآية الثانية: { وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا } [الفرقان: 41]، أي "ما يتخذونك إلا سخرية يسخرون منك"⁷.

1 المحلى (دار الكتب العلمية-بيروت-د.ط-د.ت) ج12 ص435-444

2 المنتقى (دار الكتاب الإسلامي-القاهرة-الطبعة الثانية-د.ت) ج7 ص208-211

3 التاج والإكليل لمختصر خليل (8/379)

4 الصارم المسلول لابن تيمية (ص: 251)

5 جامع البيان ط هجر (14/145)

6 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (3/244)

7 جامع البيان ط هجر (17/458)

الآية الثالثة: { وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آهَتَكُمْ وَهُمْ يَدْعُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ } [الأنبياء: 36] قوله هزوا "أي مستهزأ به مستخفاً به..و«إن» في قوله: إن يتخذونك نافية، والاستفهام في قوله أهذا الذي يذكر آهتكم..يريدون بالاستفهام المذكور التحقير بالنبي صلى الله عليه وسلم"¹

الآية الرابعة: { يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [يس: 30]
الآية الخامسة: { وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [الزخرف: 7]، "فاستهزؤوا بالرسول ﷺ لما نهاهم عن الشرك، وما زال المشركون يسبون الأنبياء، ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعوهم إلى التوحيد؛ لما في أنفسهم من عظيم الشرك"².

حكم الاستهزاء بالرسول والأنبياء

(1) قال أبو بكر ابن العربي في قوله تعالى { قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } [التوبة: 65]:
لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جذاً أو هزلاً، وهو كيفما كان كفر؛ فإن الهزل بالكفر كفر، لا خُلف فيه بين الأمة³.

(2) وقال ابن تيمية: {قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون} تدل على أن الاستهزاء بالله كفر وبالرسول كفر من جهة الاستهزاء بالله وحده كفر بالضرورة، فلم يكن ذكر الآيات والرسول شرطاً؛ فعلم أن الاستهزاء بالرسول كفر وإلا لم يكن لذكره فائدة وكذلك الآيات⁴.

(3) وقال ابن تيمية أيضاً معلقاً على هذه الآية: وهذا نص في أن الاستهزاء بالله وبآياته ورسوله كفر، فالسب المقصود بطريق الأولى وقد دلت هذه الآية على أن كل من تنقص رسول الله ﷺ جاداً أو هازلاً فقد كفر⁵.

1 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (4/ 712)

2 مجموع الفتاوى (15/ 48)

3 أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (2/ 543)

4 مجموع الفتاوى (15/ 48)

5 الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: 31)، وانظر: نواقض الإيمان القولية والعملية للعبد اللطيف ص109.

4) قال ابن عثيمين: الاستهزاء بالله تعالى أو برسوله ﷺ، أو سنة رسوله ﷺ، كفر وردة يخرج به الإنسان من الإسلام¹.

5) وقال ابن باز: أجمع علماء الإسلام في جميع الأعصار والأمصارع على كفر من استهزأ بالله أو رسوله أو كتابه أو شيء من الدين².

6) وقال الشنقيطي: اعلم أن عدم احترام النبي ﷺ المشعر بالغضب منه، أو تنقيصه والاستخفاف به أو الاستهزاء به؛ ردة عن الإسلام وكفر بالله. اهـ

ثالثاً: تحريض المشركين ضد رسول الله ﷺ

فقد أغروا به السفهاء كما روى البخاري: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة وجمع قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرأئي، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهلها حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجدا فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك³. اهـ بل أغروا به العقلاء كأبي معيط الذي كان رجلاً حليماً لا يؤذي النبي ﷺ فاجتازوا منه وقالوا: تأتيه في مجلسه، وتبصق في وجهه وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم. ففاعل⁴.

ومن ذلك تحريض عمه أبي لهب ضده عليه الصلاة والسلام حيث كان يصدّ الناس عنه، ويقول لهم عنه "إنه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب" كما جاء في حديث أحمد وسيأتي بتمامه⁵.

1 مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (2/ 155)

2 مجموع فتاوى ابن باز (6/ 253)

3 انظر: صحيح البخاري (498)، كتاب الصلاة، أبواب سترة المصلي باب المرأة تطرح عن المصلي شيئاً من الأذى.

4 أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر الدر المنثور للسيوطي (6/ 250).

5 انظر: ص (379) عند قولي: (يتبعه حيث ذهب)

المطلب الثالث: إيذاؤهم للنبي جسدياً

أولاً: الأحاديث الدالة على ذلك

لقد تفننت قريشُ بإيذاء النبي ﷺ إيذاءً معنوياً ومادياً؛ أما الإيذاء المعنوي فقد شتموه وسبّوه بأشنع الشتائم من رميّه بالكذب والجنون والسحر والكهانة، واستهزؤوا به وسخروا منه، وقد سبق أن سردنا آيات كثيرة في ذلك، وأما الإيذاء المادي فهو إيذاؤهم الجسدي له ﷺ، وتضييقهم عليه، فقد دل على عدة أحاديث، منها الحديثان السابقان، ومنها أيضاً ما يلي:

الحديث الأول: روى البخاري عن عكرمة قال ابن عباس قال أبو جهل: لئن رأيت مُحمّداً يصلي عند الكعبة لأطأَنَّ على عنقه ¹..، وروى مسلم عن أبي هريرة نحوه وزاد: "فأنزل الله عز وجل، لا ندري في حديث أبي هريرة، أو شيء بلغه: {كلا إن الإنسان ليطغى.. رأيت الذي ينهى، عبداً إذا صلى، رأيت إن كان على الهدى..}" ². أي " (أرأيت) أي أخبرني أيها الإنسان الجاهل الضال المتّاع لمحمد عن العبادة، وهو خطاب لأبي جهل (إن كان) العبد الذي صلّى وهو مُحمّد ﷺ (على الهدى) في نفسه" ³.

الحديث الثاني: روى البخاري عن ابن مسعود قال: بينما النبي ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة ابن أبي معيط بسلى جزور فقذفه على ظهر النبي ﷺ، فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره ⁴.

الحديث الثالث: وروى الشيخان عن عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي

¹ صحيح البخاري بتحقيق البغا (4/ 1896) كتاب التفسير باب تفسير سورة {اقرأ باسم ربك الذي خلق} حديث رقم (4675).

² صحيح مسلم (4/ 2154).

³ الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (25/ 401).

⁴ صحيح البخاري بتحقيق البغا (3/ 1399).

على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب.. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين..¹

الحديث الرابع: روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم.. وهو بمنى: نحن نازلون غدا بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر. يعني ذلك المحصب، وذلك أن قريشا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أو بني المطلب ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي صلى الله عليه وسلم². **قال ابن القيم:** ثم أسلم حمزة عمُّه وجماعة كثيرون، وفشا الإسلام، فلما رأت قريش أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلو والأمور تتزايد أجمعوا أن يتعاقدوا على بني هاشم وبني المطلب وبني عبد مناف ألا يبايعوهم ولا يناكحوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة.. وبقوا محصورين مضيقاً عليهم جداً مقطوعاً عنهم الميرة والمادة نحو ثلاث سنين حتى بلغ بهم الجهد³.

الحديث الخامس: عن ابن عباس، قال: إن الملائم من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمدًا، لقد قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله⁴.

الحديث السادس: روى الترمذي في سننه وحسنه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد**⁵.

1 صحيح البخاري بتحقيق البغا (3/ 1180) وأخرجه مسلم في الجهاد والسير باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين رقم 1795.

2 صحيح البخاري بتحقيق البغا (2/ 576)

3 زاد المعاد في هدي خير العباد (3/ 29)

4 مسند أحمد ط الرسالة (4/ 486)، وحسن إسناده السندي، انظر مسند أحمد ط الرسالة (4/ 487)، وأخرجه الحاكم 163/1 وقال: هذا حديث صحيح. وأخرجه ابن حبان في صحيحه (14/ 430) قال شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح، وقال الهيثمي في المجمع: 8/ 228 أخرجه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، وصححه أحمد شاکر برقم: 2762.

5 سنن الترمذي (4/ 645)، وقال حسن غريب، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته (2/ 911)

ثانيا: همهم بإخراج النبي ﷺ

فقد همّ المشركون بإخراج النبي ﷺ من مكة، بل قد أخرجوه هو وأصحابه منها فعلا، وقد دل على ذلك عدة آيات، وإليكم بعضها:

الآية الأولى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ} [الأنفال: 30]، وهؤلاء "كفار قريش أرادوا ذلك بمحمد ﷺ قبل أن يخرج من مكة"¹. وأخرج غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق - يريدون النبي صلى الله عليه وسلم - وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك.. الحديث². وأخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال: لما أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، ليهلكن...³.

الآية الثانية: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} [الحج: 40]، أي "لا ذنب لهم يستوجبون به الإخراج إلا الإيمان بالله"⁴.

الآية الثالثة: قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر: 8].

1 قاله مجاهد كما في تفسير الطبري (11/ 138)، وأخرجه أيضا عن مجاهد: أبو الشيخ وعبد بن حميد، انظر: الدر المنثور للسيوطي (7/ 101).

2 ذكر السيوطي في الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (7/ 94) أنه أخرجه "عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والخطيب". وهذا الحديث مشهور بحديث نسج العنكبوت لما وقع فيه من قوله "فأروا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا، لم يكن نسج العنكبوت على بابه"، وقد اختلفوا في درجته فكثير من الحفاظ والعلماء حسنوه كالحافظ في فتح الباري (7/ 236) والزرقاني في (شرح المواهب 1/ 323)، وكذا ابن كثير حيث قال في البداية والنهاية ط هجر (4/ 451): وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ. اهـ وقال الألباني: واعلم أنه لا يصح حديث في العنكبوت والحمامتين (سلسلة الأحاديث الضعيفة 3/ 339).

3 سنن الترمذي (5/ 325)، وصححه الألباني، انظر: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (7/ 103).

4 أضواء البيان (7/ 453)

الآية الرابعة: { أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ } [التوبة: 13]، قال الشنقيطي: ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن كفار مكة هموا بإخراجه ﷺ من مكة، وصرح في مواضع آخر بأنهم أخرجوه بالفعل، كقوله: يخرجون الرسول وإياكم الآية، وقوله: وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك، وقوله: إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا الآية، وذكر في مواضع آخر: محاولتهم لإخراجه قبل أن يخرجوه، كقوله: وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، وقوله: وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها¹.

الآية الخامسة: { يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ } [المتحنة: 1]، "أي يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم"².

والسؤال هنا: ما حكم همهم بإخراجهم له عليه الصلاة والسلام؟! يجيبنا ابن القيم قائلاً: "فجعل همهم بإخراج الرسول موجبا لقتالهم لما فيه من الأذى له"³. فكيف وقد: "أخرجوه فعلا بمكرهم المذكور"⁴ كما ثبت ذلك في الآيات السابقة؟!

ثالثاً: محاربتهم له.

هذا سبق أن ذكرنا طرفاً منه⁵، ونزيد بيانا فنقول: قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } [الأنفال: 36]، قال الحكمي: وبذل المشركون جهدهم ومجهودهم في عداوته وقتاله وألبوا وتحزبوا كما قال الله تعالى: { إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون } [الأنفال: 36] الآيات. وقال تعالى: { يريدون ليطفئوا نور الله

¹ أضواء البيان (2/ 506)

² أضواء البيان للشنقيطي (7/ 453)

³ أحكام أهل الذمة (3/ 1388)

⁴ أضواء البيان للشنقيطي (7/ 453)

⁵ انظر: ص (123) عند آية: { يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ }

بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون { [الصف: 8]، فقد فعل تبارك وتعالى¹. اهـ

وحاصل الوجه الثاني من أوجه كُفر المشركين هو أن المشركين كفروا بالرسول وأنكروا الرسالة والنبوة أصلاً، وكذبوه وتفننوا في سبّه والسخرية منه وإيذائه ومحاربتة وقتاله والصدّ عنه، وهذا جمع ألوانا من الكفر القطعي بالإجماع فإن "إيذاء رسول الله ﷺ محادّة لله ولرسوله.. ودلّ ذلك على أن الإيذاء والمحادة كفر"².

¹ معارج القبول للحكيمي (3/ 1087)

² الصارم المسلول (ص: 32)

المبحث الرابع: كفرهم في باب الإيمان بالكتب السماوية

وهو يتضمن كفرهم بالقرآن، وافتراءهم عليه، وسخرتهم منه؛ قال الحكمي: وليس القرآن بمفترى كما قاله كفار قريش وغيرهم من أعداء الله تعالى حيث قالوا فيه إن هذا إلا سحر يؤثر، وقالوا إن هذا إلا إفاك افتراه، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها.. وقالوا شعر وقالوا كهانة، وقالوا إن هذا إلا اختلاق.. وغير ذلك من مفترياتهم وإفكهم، وكل ذلك إنما قالوه عنادا ومكابرة¹. اهـ وقال ابن قتيبة: {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ}، أي: فرَّقوه وعَضُّوه.. ويقال: فرَّقُوا القول فيه. فقالوا: شعر، وقالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين². اهـ

وفيما يلي بسط ذلك:

أولا: كفرهم بالقرآن وتكذيبهم له: كما دلّ على ذلك آيات كثيرة جدا منها ما يلي:

الآية الأولى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا} [الفرقان: 4]، "أي: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد ﷺ، وأعانه عليه على الإفك الذي افتراه قوم آخرون.. ثم ذكر أن هذا المعنى "جاء مبينا في آيات أخرى؛ كقوله تعالى: بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج، وقوله تعالى: وكذب به قومك وهو الحق الآية، والآيات في ذلك كثيرة معلومة³. اهـ

الآية الثانية: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} [الأنعام: 66]، قال السدي أي: "كذبت قريش بالقرآن، وهو الحق"⁴. فإذا "قومه هم قريش"⁵، ففي الآية "ذمهم والرد عليهم"⁶، وفيها

1 معارج القبول (1/ 281)

2 غريب القرآن لابن قتيبة ت أحمد صقر (ص: 239)

3 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (6/ 303)

4 جامع البيان ط هجر (9/ 310)، الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (6/ 85)

5 مجموع الفتاوى (15/ 254)

6 المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد (ص: 77)، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (ت: 1285هـ)/ دار الهداية،

ط/1/1991م.

دليل أيضا على أنه قد "كفى الله مجّدا من عاداه وانتقم منهم ولم ينفعهم أنسابهم ولا فضل مدينتهم، فإن الله إنما يثبت بالإيمان والتقوى لا بالبلد والنسب"¹.

الآية الثالثة: { بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ } [ق: 5]، قال قتادة: أي كذبوا بالقرآن².
الآية الرابعة: قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } [سبأ: 31]، قال قتادة أي: "قال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن، ولا بالذي بين يديه من الكتب والأنبياء"³.

ثانيا: افتراءهم على القرآن: فقد تفنّن المشركون بالافتراء عليه "فقال بعضهم: هو شعر. وقال بعضهم: هو سحر. وقال بعضهم: كهانة. وقال بعضهم: أساطير الأولين، وقال بعضهم: اختلقه محمد ﷺ"⁴. وقد دلّ على ذلك آيات كثيرة، نسردها في المجموعات التالية:

المجموعة الأولى هي: الآيات التي تضمنت قولهم عن القرآن إنه أساطير الأولين، منها ما يلي:

- (1) { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [النحل: 24].
- (2) { وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } [الفرقان: 5].
- (3) { وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام: 25].
- (4) { وَإِذَا تُنزِلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنفال: 31]
- (5) { إِذَا تُنزِلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [القلم: 15]⁵.

وقد ردّ الله عليهم ذلك في آيات كثيرة، ووصف القرآن بعكس ما وصفوه به؛ فمثلا قال تعالى: { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ } [البروج: 21، 22]، "أي: ليس الأمر، كما قال المكذّبون

¹ الجواب الصحيح (6/ 275)

² جامع البيان ت شاكر (22/ 329)

³ جامع البيان ط هجر (19/ 290)

⁴ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (3/ 239)

⁵ وهذه الآية نفسها هي أيضا من سورة المطففين 13.

لرسول الله - ﷺ - أن ما يقوله شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين اكتتبها، ليس الأمر كذلك، بل هو قرآن مجيد¹ أي هو "كريم شريف كثير الخير، ليس كما زعم المشركون أنه شعر وكهانة"². وقد عُدَّ قولهم "في القرآن: أساطير الأولين، سحر، شعر، كهانة"³ من مسائل الجاهلية⁴.

المجموعة الثانية: قول المشركين عن القرآن إنه سحر، وقد دلَّ على ذلك آيات كثيرة منها ما يلي:

الآية الأولى: { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } [الأنعام: 7].

الآية الثانية: { وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } [سبأ: 43].

الآية الثالثة: { وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ } [الأحقاف: 7] فدلت الآية على "أن الكفار إذا قرئت عليهم آيات هذا القرآن العظيم الذي هو الحق ادعوا أنها سحر مبين واضح، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من افتراءهم على القرآن أنه سحر، وعلى النبي ﷺ أنه ساحر: جاء موضحا في آيات كثيرة"⁵.

الآية الرابعة: { فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ } (24) إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُضْلِيهِ سَقَرٌ [المدثر: 24 - 26]، ومعنى { إن هذا } "أي: القرآن"⁶، "ومعنى يؤثر: يرويه محمد ﷺ عن غيره في زعمهم الباطل". أي أنهم يريدون القول: "ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضا كلام البشر الأخيار، بل كلام الفجار منهم والأشرار، من كل كاذب سحار"⁷.

¹ شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (58 / 3)

² تفسير البغوي (389 / 8)

³ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (178 / 4)

⁴ زوائد مسائل الجاهلية (ص: 31)

⁵ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (398 / 7)

⁶ تفسير السمعي (94 / 6)

⁷ تفسير السعدي (ص: 896)

المجموعة الثالثة: قولهم عن القرآن بأنه شعر، كما دلّ عليه قوله تعالى { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ } [يس: 69]، فقد ردّ الله على المشركين قولهم عن القرآن "شعر وكهانة"¹، وقوله تعالى: { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ } [الحاقة: 41]، أي "وما هو بقول شاعر كما تزعمون لأنه ليس من أصناف الشعر ولا مشابه لها"². وقد سبقت طائفة من الآيات³ التي اتهم المشركون فيها النبي ﷺ بنظم الشعر مشيرين بذلك إلى القرآن.

ثالثاً: استهزأؤهم وسخرتهم من القرآن، ويدل على ذلك آيات كثيرة منها ما يلي:

- (1) { وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } [الجنّة: 9].
- (2) { فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [الأنعام: 5].
- (3) { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَتَعَدُّوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } [النساء: 140].
- (4) { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّؤَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ } [الروم: 10].
- (5) { وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا } [الكهف: 56] أي "أن الكفار اتخذوا آياته التي أنزلها على رسوله، وإنذاره لهم هزواً، أي: سخرية واستخفافاً، والمصدر بمعنى اسم المفعول، أي: اتخذوها مهزوءاً بها مستخفاً بها: كقوله: إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً. وهذا المعنى المذكور هنا جاء مبيناً في آيات كثيرة"⁴.

حكم الكفر بالقرآن والافتراء عليه والسخرية منه

أنقل ما جاء في موسوعة الدرر السنية في حكم من ينكر القرآن، مع ذكر مراجعهم في ذلك:

1 معارج القبول (1/ 282)

2 فتح القدير للشوكاني (5/ 341)

3 انظر: ص (352) عند آية: (وما هو بقول شاعر)

4 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (4/ 180)

- (1) قال علي بن أبي طالب عليه السلام: من كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله 1.
- (2) وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من كفر بحرف منه فقد كفر به أجمع ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (2/ 232)).
- (3) وقال عبد الله بن المبارك: من كفر بحرف من القرآن فقد كفر، ومن قال: لا أؤمن بهذه اللام فقد كفر ((مجموع الفتاوى لابن تيمية (4/ 182)).
- (4) ويقول ابن قدامة: ولا خلاف بين المسلمين أجمعين أن من جحد آية، أو كلمة متفقاً عليها أو حرفاً متفقاً عليه أنه كافر 2.
- (5) ويقول ابن بطة: من كذب بآية أو بحرف من القرآن، أو رد شيئاً مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كافر ((الإبانة الصغرى)) (ص 201).
- (6) وقال القاضي عياض في الشفا: ومن قال هذا كافر، وكذلك من أنكر القرآن، أو حرفاً منه، أو غير شيئاً منه، أو زاد فيه.
- (7) وقال ابن نجيم - في البحر الرائق -: ويكفر إذا أنكر آية من القرآن، أو سخر بآية منه إلا المعوذتين، ففي إنكارهما اختلاف، والصحيح كفره.
- (8) وجاء في (الفتاوى البزازية): إدخال القرآن في المزاح، والدعابة كفر؛ لأنه استخفاف به.
- (9) وجمع محمد بن إسماعيل الرشيد الحنفي أقوال الحنفية في هذه المسألة، فكان مما أورده: وفي (الخلاصة): من قرأ القرآن على ضرب الدف والقضيب يكفر، وكذا من لم يؤمن بكتاب من كتب الله تعالى، أو جحد وعداً أو وعيداً مما ذكره الله تعالى في القرآن، أو كذب شيئاً منه.
- (10) وفي (يتيمة الفتاوى): من استخف بالقرآن.. كفر.
- (11) وفي (جواهر الفقه) أن من "أنكر آية من كتاب الله، أو عاب شيئاً من القرآن، أو أنكر المعوذتين من القرآن غير مؤول كفر".

1 وعزوه في الدرر السننية إلى: ((حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة)) (ص 33).

2 وعزوه ((حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة)) (ص 33).

- (12) وفي (الفتاوى الظهيرية): من قرأ آيةً من القرآن على وجه الهزل يكفر.
- (13) وذكر النووي - في الروضة - أن من جحد آيةً من القرآن على وجه الهزل يكفر). انتهى باختصار من ما جاء في الدرر السنينة¹.
ونزيد هنا نصوص أخرى:
- (14) قال ابن القيم: وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص؛ فالمطلق أن يجحد جملة ما أنزله الله².
- (15) قال ابن حزم أن من "سب آية من آيات الله تعالى، أو استهزأ بها، والشرائع كلها، والقرآن من آيات الله تعالى فهو بذلك كافر مرتد"³.
- (16) وقال بهاء الدين المقدسي الحنبلي: (وكذا من جحد كتاب الله أو شيئاً منه فقد كفر)⁴.
- (17) وقال ابن تيمية " إن الاستهزاء بالله وآياته وبرسوله ﷺ كُفْر"⁵
- (18) وقال الجصاص: ودلّ أيضاً على أن الاستهزاء بآيات الله.. كُفْر⁶.
- (19) قال الخطيب الشربيني: ..أو جحد آية من القرآن مجمعا على ثبوتها، أو زاد فيه آية معتقدا أنها منه⁷.

والحاصل مما سبق هو أن الوجه الثالث من أوجه كُفْر المشركين هو أنهم كذبوا بالقرآن، وتفننوا بالافتراء عليه والاستهزاء به، وهذا كُفْرٌ عظيم بل في ذلك ألوان من الكفر الشنيع وأفنان، دلّ على ذلك

¹ الموسوعة العقديّة - الدرر السنينة (6/ 452)، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف.

² مدارج السالكين- ابن القيم (1/ 255)

³ المحلى (دار الكتب العلمية-بيروت-د.ط-د.ت) ج 12 ص 435-444

⁴ العدة شرح العمدة، بهاء الدين المقدسي الحنبلي ج 1 ص 617

⁵ الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: 31)، وانظر: نواقض الإيمان القولية والعملية للعبد اللطيف ص 109.

⁶ أحكام القرآن للجصاص (4/ 349)، تحقيق: نُجْد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، 1405.

⁷ مغني المحتاج 5/ 429، دار الكتب العلمية، ط 1994/1م. وانظر المزيد في نواقض الإيمان القولية والعملية ص 199

نصوصٌ كثيرةٌ من الكتاب والسنة فضلا عن إجماع الأمة بمن فيهم ابن تيمية وأتباعه كما بيّناه مفصّلاً. وننتقل إلى الوجه الرابع من أوجه كفر المشركين، وهو إنكارهم للبعث والنشور والحساب.

المبحث الخامس: كفرهم في باب البعث والحساب.

فالمشركون منكرون للبعث والنشور وليوم القيامة والحساب، والآيات في ذلك كثيرة جدا، سبق سردها، ورددنا حينها على من قال من السلفية الوهابية بأن المشركين ما كانوا ينكرون البعث¹، ومعلوم أن إنكار البعث كفر بإجماع، دلّ على ذلك آيات كثيرة، ونصّ عليه العلماء، بل انعقد عليه الإجماع، وفيما يلي بيان ذلك:

وأما الأدلة من الكتاب على كفر منكري البعث فكثيرة منها الآيات التالية:

(1) { وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {

[الرعد: 5]، "أي أولئك المنكرون لقدرتهم سبحانه على البعث هم المتمادون في

الكفر الكاملون فيه، وفيه دليل على كفر منكري البعث"².

(2) { مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ حَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ

لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ

رَجُلًا } [الكهف: 36، 37]، أي "قال للكافر صاحبه المؤمن حال محاورته له

منكرا عليه ما قاله: أكفرت بالذي خلقك من تراب بقولك: ما أظن الساعة

قائمة"³. فدلّت على أن "منكر المعاد كافر برب العالمين وإن زعم أنه مُقَرَّبٌ به"⁴.

(3) { ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ

خَلْقًا جَدِيدًا } [الإسراء: 98]، أي "هذا الذي وصفنا من فعلنا يوم القيامة

بهؤلاء المشركين، ما ذكرت أنا نفعل بهم من حشرهم على وجوههم عميا وبكما

وصما، وإصلاطنا إياهم النار.. بكفرهم في الدنيا بآياتنا.. ويقولهم إذا أمروا بالإيمان

1 انظر: ص (30، و 380) عند قولي : (أنكره الكفار من عهد نوح إلى عهد مُجَدِّ)

2 فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق خان (7 / 20)

3 فتح القدير للشوكاني (3 / 339)

4 إعلام الموقعين عن رب العالمين (1 / 267)

بالميعاد، وبثواب الله وعقابه في الآخرة: نبعث بعد ذلك خلقا جديدا كما
ابتدأناه أول مرة في الدنيا؟! استنكارا منهم لذلك، واستعظاما وتعجبا من أن
يكون ذلك"¹.

(4) { أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (35) هِيَ هَاتِ
هِيَ هَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ
(37) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) قَالَ رَبِّ
انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (39) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ { [المؤمنون: 35 -
40] فقد "صرحوا بنفي البعث، وأن الوعد به منه افتراء على الله فقالوا: ما نحن
بمبعوثين إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا، أي: ما هو فيما يدعيه إلا مفترٍ
للكذب على الله، وما نحن له بمؤمنين أي: بمصدقين له فيما يقوله.. قال نبيهم
لما علم بأنهم لا يصدقونه البتة: رب انصُرني عليهم وانتقم لي منهم بسبب تكذيبهم
إياي.. عَمَّا قَلِيلٍ من الزمان ليصبحن نادمين على ما وقع منهم من التكذيب
والعناد والإصرار على الكفر"².

(5) { وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ {
[السجدة: 10]، "أي: جاحدون له مكابرة وعناداً، فإن اعترافهم بأنه المبدئ
للخلق، يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة"³.

(6) { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ { [النحل: 38، 39]، أي "وحلف هؤلاء المشركون من قريش
بالله جهد أيمانهم حلفهم، لا يبعث الله من يموت بعد مماته، وكذبوا وأبطلوا في

¹ جامع البيان ط هجر (96 / 15)

² فتح القدير للشوكاني (572 / 3)

³ فتح البيان في مقاصد القرآن (19 / 11)

أيمانهم التي حلفوا بها كذلك، بل سيبعثه الله بعد مماته، وعدا عليه أن يبعثهم.. ليبين لهؤلاء الذين يزعمون أن الله لا يبعث من يموت ولغيرهم الذي يختلفون فيه من إحياء الله خلقه بعد فنائهم، وليعلم الذين جحدوا صحة ذلك وأنكروا حقيقته أنهم كانوا كاذبين في قائلهم لا يبعث الله من يموت"¹. وإن "اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت، أي استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه"².

أما نصوص العلماء على أن منكر البعث كافر فكثيرة، نسوق بعضها:

- 1) فقهاء الحنفية، ففي الفتاوى الهندية: ومنها ما يتعلق بيوم القيامة وما فيها من أنكر القيامة أو الجنة أو النار أو الميزان أو الصراط أو الصحائف المكتوبة فيها أعمال العباد يكفر ولو أنكر البعث فكذلك³.
- 2) فقهاء المالكية، فقد قال ابن غنيم: "والحاصل أن البعث من ضروريات الدين فإنكاره كفر"⁴.
- 3) وقال الدردير: (أو) قول (بتناسخ الأرواح).. فهو كافر؛ لأن فيه إنكار البعث⁵.
- 4) فقهاء الشافعية، قال ابن حجر الهيتمي: فكلّ هذا وشبهه لا شك في تكفير قائله.. أو أنكر الجنة أو النار أو البعث أو الحساب⁶. وقال أيضا: ومنكر البعث أو شيء من متعلقاته.. وإنما تركت ذكرهم لأن كفرهم معلوم مما قررته في هذا الكتاب⁷.

1 جامع البيان ط هجر (219 / 14)

2 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (311 / 8)

3 الفتاوى الهندية (274 / 2)

4 الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (254 / 2)

5 بلغة السالك لأقرب المسالك (434 / 4)

6 الإعلام بقواطع الإسلام لابن حجر الهيتمي (ص: 165)

7 الإعلام بقواطع الإسلام (ص: 84)

(5) وقال قليوبي في باب الردة: ..أو أنكر غير جاهلٍ معذورٍ البعث أو مكة أو الكعبة، أو المسجد الحرام أو الجنة أو النار أو الحساب أو الثواب أو العقاب¹.

(6) فقهاء الحنابلة، فقد قال البهوتي: (أو) جحد (البعث) كفر لتكذيبه للكتاب والسنة وإجماع الأمة².

وأما الإجماع فقد "أجمع علماء هذه الأمة على تكفير منكري البعث، وقد حكى هذا الإجماع غير واحد من أهل العلم"³. وفيما يلي بعض نصوصهم في ذلك:

(1) قال ابن حزم: اتفق جميع أهل القبلة على تناهد فرقههم على القول بالبعث في القيامة، وعلى تكفير من أنكر ذلك⁴.

(2) وقال ابن عبد البر: وقد أجمع المسلمون على أن من أنكر البعث فلا إيمان له ولا شهادة⁵.

(3) وقال القاضي عياض: وكذلك من أنكر الجنة أو النار أو البعث أو الحساب أو القيامة فهو كافر بإجماع⁶.

(4) وذكر القرافي أن من الكفر المتفق عليه "جحد البعث"⁷.

خلاصة الأوجه الخمسة لكفر المشركين:

فهذه خمسة وجوه من أوجه الكفر القطعي التي ارتكبتها المشركون، وهي ما يلي:
الوجه الأول: نسبتهم الولد لله، بقولهم عن الملائكة بنات الله.

1 حاشيتا قليوبي وعميرة (4/ 176)

2 كشاف القناع (6/ 168)، ونحوه في دقائق أولي النهى لشرح المنتهى (3/ 394)، ومطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (6/ 277) وانظر المزيد من نصوص العلماء في نواقض الإيمان القولية والعملية، د. عبد العزيز العبد اللطيف ص 226 وما بعدها.

3 نواقض الإيمان القولية والعملية، د. عبد العزيز العبد اللطيف ص 228.

4 الفصل في الملل والأهواء والنحل (4/ 66)

5 التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (9/ 116)

6 الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشمسي (2/ 290)

7 أنوار البروق في أنواء الفروق (عالم الكتب-د.ط-د.ت) ج 1 ص 122-125

الوجه الثاني: إنكارهم للنبوة، وشتيمهم للنبي، واستهزاؤهم به، والتحريض ضده، وإيذاؤهم له، وإخراجهم له من بلده، وهمهم بقتله، ومحاربتهم له.

الوجه الثالث: كفرهم بالقرآن، وافتراؤهم عليه، وسخرتهم منه.

الوجه الرابع: إنكارهم للبعث.

الوجه الخامس: سبهم لله ردا على من يسب آلهتهم.

وكل وجه من هذه الوجوه بمفرده كفر بالله وردة توجب سفك الدم، وكما ترى أنه ليس منها شيء يتعلق بقضية التشفع بالأصنام والتي حصر السلفية كفر المشركين وسبب سفك دمائهم فيها كما رأينا! فمثلا قال ابن عبد الوهاب النجدي: "إن قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دمائهم وأمواهم"⁽¹⁾. بل إن حفيد ابن عبد الوهاب وقع في حيرة من أمره! وطلب منا أن نفتش عن سبب لكفر المشركين! حيث قال: "فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم، وسبي نسائهم، وإباحة أمواهم"⁽²⁾!!

ويحسن بنا أن نختم بنص للعلامة الدجوي حيث يقول بعد أن يسرد بعض قبائح المشركين: أما التيميون فيقولون بعد هذا كله إنهم موحدون توحيد الربوبية، وأن الرسل لم يقاتلوهم إلا على توحيد الألوهية الذي لم يكفروا إلا بتركه، ولا أدري ما معنى هذا الحصر مع أنهم كذبوا الأنبياء وردوا ما أنزل عليهم، واستحلوا المحرمات، وأنكروا البعث واليوم الآخر، وزعموا أن الله صاحبة وولدا... إلخ، وذلك كله لم يقاتلهم عليه الرسل في رأي هؤلاء، وإنما قاتلوهم على عدم توحيد الألوهية كما يزعمون)⁽³⁾.

وفي نهاية المطاف يقال: إذا كان سبُّ الله ونسبة الولد إليه والتكذيب بالقرآن والاستهزاء به، والكفر باليوم الآخر، والكفر بالنبي ﷺ ورميه بالكذب والسحر والشعر والجنون والكهانة: ليس كافيا عندكم

(1) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص16

(2) تيسير العزيز الحميد ص27، دار النشر: عالم الكتب - بيروت - 1999م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي.

(3) مجلة نور الإسلام، المجلد الرابع، مقال للعلامة يوسف الدجوي بعنوان "توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية" ص259

للكم على الإنسان بالكفر والشرك، فبم يكفر الإنسان ويحكم عليه بالشرك إذن؟ هل يكفر ويشرك بدعاء الموتى والتبرك بالقبور والذبح لها والطواف بها؟!

حسنا، ولكن كيف يُحكم بأن هذه الأمور كفر؟ أليس بالكتاب والسنة؟! فكيف يتم ذلك ما دمتم لم تكفروا من كفر بالقرآن وكذب النبي، وكذب باليوم الآخر أصلا..!! أيكفر من خالف الآيات والأحاديث التي تستدل بها على قضية دعاء الموتى ونحو ذلك، ويخلد في النار، ولا يكفر من كفر بالقرآن كله وكذب النبي ﷺ في كل ما جاء به، وكفر بالجنة والنار واليوم الآخر في أصله؟! إن هذا من أعجب وأغرب ما سمعناه على الإطلاق، وما أظن أن أحدا من أهل الملل والنحل والمذاهب يخطر بباله مثل ذلك فضلا عن أن يتخذه ديناً أو مذهباً؟!

الاعتراض بأن المشركين إنما ارتكبوا كل تلك الموبقات لأجل رفضهم لشهادة لا إله إلا الله

وبيانه أنه قد يقال: صحيح أن المشركين فعلوا كل ما ذكرتم من صنوف الكفر والقبائح والجرائم والموبقات العظام، وعلى رأس ذلك أنهم كذبوا رسول الله ﷺ وبالقرآن الذي أنزل عليه، ولكنهم إنما كذبوا الرسول وما أنزل عليه بسبب أنه دعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وعبادة الله وحده، فتعجبوا من ذلك ورفضوه واستكبروا عنه كما في قوله تعالى: { أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [ص: 5]، وقوله { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ } [الصفوات: 35]. وكذا في حديث أحمد والترمذي وحسنه عن ابن عباس، قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ وعند أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ قال: "إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية". قال: "كلمة واحدة؟" قال: "كلمة واحدة"، "قال: "يا عم، يقولوا: لا إله إلا الله". فقالوا: إلهها واحدا؟! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق. قال: فنزل فيهم القرآن: ص.. إلى قوله: إن هذا إلا اختلاق².

¹ كذا جاء في سنن الترمذي وغيره من كتب السنة بإثبات همزة "ابن"، مع أن القاعدة أنها تحذف بعد النداء كما سبق، وكذا جاء بحذفها في «تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن» (15/ 150). انظر: ص(82) عند قولي: القاعدة أنها تحذف بعد النداء إذا وقعا بعد (يا) التي للنداء، نحو: "يا بن الذي دان له المشركان"، يابنة عبد الله.

² انظر: سنن الترمذي - (5 / 365) حديث (3232)، مسند أحمد ط/ الرسالة (3 / 458).

فهذا يبيّن أن المشركين "لما دعاهم إلى كلمة واحدة ((لا إله إلا الله)) نفروا منه" فكذبوه صلى الله عليه وسلم وكذبوا القرآن وحاربوه دفاعاً عن شركهم، "وما زال رسول الله ﷺ يعلن دعوته ويظهر رسالته ويدعو الخلق إليها وهم يؤذونه ويجادلونه ويكلمونه ويردون عليه بأقبح الرد، وهو صابر على أذاهم"1؛ فيكون سبب كفرهم الأصلي هو إنكارهم لتوحيد الألوهية، ثم استتبع ذلك تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإنكارهم للقرآن ولليوم الآخر ونحو ذلك.

والجواب من وجوه: الأول: أن حديث الترمذي السابق ضعفه الألباني⁽²⁾. **الوجه الثاني:** إن قريشا كذبت النبي صلى الله عليه وسلم في رسالته ونبوته قبل أن يدعوهم إلى التوحيد أصلاً؛ وبرهان ذلك ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال: لما نزلت {وأندر عشيرتك الأقربين} صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر يا بني عدي لبطن قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي). قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقا. قال (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت {تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب} . اهـ

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله {وأندر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: 214] قال: «يا معشر قريش، -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ -، لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد ﷺ - سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً».

¹ الجواب الصحيح لابن تيمية (1/ 389)

⁽²⁾ ضعيف سنن الترمذي للألباني - (1/ 409)، وجاء في حاشية مسند أحمد ط/ الرسالة (3/ 458): إسناده ضعيف، يحيى بن عمار، ويقال: يحيى بن عباد، ويقال: عباد، تفرد عنه الأعمش فهو في عداد المجهولين وإن ذكره ابن حبان في "الثقات". اهـ

فهذان الحديثان¹ يبيّنان مبدأ دعوة النبي ﷺ للمشركين، وإلى أي شيء دعاهم، وكيف أنهم كذّبوه لا لأنه دعاهم إلى التوحيد، لأنه لا ذكر للتوحيد أصلاً فيهما كما ترى²، لا في خطابه الذي خاطب به بني عبد مناف ومن معهم كما حديث أبي هريرة، ولا في خطابه لأهل مكة في أول دعوته كما في حديث ابن عباس، والذي ألقاه عليهم على جبل الصفا للمرة الأولى تلبية منه لما أمره الله بإنذار عشيرته الأقربين، وإنما الذي ذكره لهم ودعاهم إليه، وكذّبوه فيه أمران: الأول: ذكّر لهم أنه مرسل من ربه إليهم وذلك في قول: "قائني نذير لكم". الثاني: حدّثهم من عذاب يوم القيامة وهو الذي أشار إليه في قوله "بين يدي عذاب شديد"؛ أي أنه دعاهم للإيمان برسالته وللإيمان باليوم الآخر، فأنكروا الأمرين معاً، فكذّبوا النبيّ صلى الله عليه وسلّم في رسالته وكذّبوا باليوم الآخر دون أن يذكر لهم شهادة أن لا إله إلا الله، أو أن يطالبهم بها، فهذا حدث بعد ذلك.

والحاصل أن المشركين كذّبوه - عليه الصلاة والسلام - قبل أن يدعوهم إلى لا إله إلا الله، فبطل الزعم بأنه إنما كذّبوه لأنه دعاهم إلى لا إله إلا الله، ويبطل زعمكم أيضاً بأنهم إنما كذّبوه لأنهم فهموا المعنى الصحيح لها حيث عرفوا "أنها تقتضي ترك عبادة ما سوى الله وإفراد الله بالعبادة"، ولم يفهموا منها أنه لا خالق إلا الله إذ "لو كان هذا معنى لا إله إلا الله؛ لما أنكرت قريش على النبي ﷺ دعوته وآمنت به

1 وكلاهما من مراسيل الصحابة، قال الحافظ في فتح الباري (8/ 502): قوله عن ابن عباس قال لما نزلت "وأندرتك الأقربين" هذا من مراسيل الصحابة ﷺ وبذلك جزم الإسماعيلي لأن أبا هريرة إنما أسلم بالمدينة، وهذه القصة وقعت بمكة، وابن عباس حينئذ إما لم يولد وإما كان طفلاً، ويؤيد الثاني نداء فاطمة فإنه يشعر بأنها كانت حينئذ بحيث تخاطب بالأحكام وقد قدمت في باب من انتسب إلى آبائه في أوائل السيرة النبوية احتمال أن تكون هذه القصة وقعت مرتين، لكن الأصل عدم تكرار النزول، وقد صرح في هذه الرواية بأن ذلك وقع حين نزلت. اهـ وبسط ذلك.

(2) ولقد سمعت بعض السلفية وهو د. عائض القرني (وذلك على قناة "اقرأ" بتاريخ 2010/10/1، س6، 45) يُدرج في حديث ابن عباس ذكر التوحيد، فقال: إنه دعاهم في ذلك الموقف إلى "لا إله إلا الله". اهـ كذا قال وهذا وهم محض، فلا ذكر للتوحيد قط، كما يُعلم من ألفاظ الحديث التي بلغت 33 لفظاً، من أكثر من ألف كتاب حديث مسند بالاستعانة بالحاسوب. نعم ورد في رواية مكذوبة يرويها الرافضة أنه دعاهم حينها إلى كلمة التوحيد فأجابه علي بن أبي طالب فجعله خليفته ووصيه، والقصة طويلة وقد ردّها ابن تيمية وبيّن بطلانها من وجوه كثيرة أحدها أنها مخالفة لما في الصحيحين أو أحدها كحديث ابن عباس وأبي هريرة وغيرهما. انظر منهاج السنة النبوية (7/ 297).

وصدقت؛ لأن قريشاً تقول: لا خالق إلا الله..¹، وبه يُعلم أنه "لم يكن بين الرسول ﷺ وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبّون دعوته"⁽²⁾. إذ هم "لم يكونوا يشكّون في أن الله خالق كل شيء وربّه، فلو كان هذا هو الإلهية لكانوا قائلين إنه لا إله إلا هو"³.

فهذا كله غير صحيح كما ترى بنصّ حديثي ابن عباس وأبي هريرة حيث دلّا بشكل جليّ على أن قريشاً كذبوا النبي ﷺ من أول خطاب دعاهم فيه، ودون أن يذكر لهم كلمة التوحيد، ولا دعاهم إلى لا إله إلا الله حينها، وإنما ذكر لهم جملة واحدة في حديث أبي هريرة، وهي "لا أغني عنك من الله شيئا"، وفي حديث "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" كما في حديث ابن عباس، فكذبوه ثم صاروا يتفنون في شتمه ومخالفة أمره، فكل قول يقوله لهم صاروا يستشنعونه ويستغربون منه ويردونه عليه، كالتوحيد والنبوة والبعث وغير ذلك، فلو أننا ادعينا عكس ما قلمت لكان أولى، فنقول: إن تكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلّم ولليوم الآخر كان هو الأصل ثم استتبع ذلك تكذيبهم بالتوحيد وما إلى ذلك مما جاءهم به، كما قال تعالى: {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [ق : 1 - 3] فقد كذبوه "تعجبا من أن جاءهم منذر ينذرهم عقاب الله منهم، يعني بشرا منهم من بني آدم، ولم يأتمم ملك برسالة من عند الله"⁴، ودلّت على أنهم عجبوا من البعث أيضا فقالوا "كيف يحيينا الله، وقد صرنا عظاما ورفاتا، وضللنا في الأرض"⁵، وهذا كله يدل على أنهم استغربوا من رسالته واستبعدوا البعث فكذبوا بهما معا، وذلك كله قبل أن يدعوهم إلى لا إله إلا الله كما وقع في حديث ابن عباس السابق.

وأصرح من ذلك سورة ص التي تستدلون بالآية الخامسة منها حيث استغربوا فيها من كونه جعل الإله واحدا، إذ الآية الرابعة قبلها دلت على أنهم عجبوا من كونه مرسلا أيضا، حيث قال الله فيها:

1 القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (1/ 39)

(2) تيسير العزيز الحميد لحفيد ابن عبد الوهاب ص 181.

³ الفتاوى الكبرى (6/ 566)

4 جامع البيان ط هجر (21/ 402)

5 جامع البيان (21/ 403) نقلا عن الضحاك في تفسيره لآية ق هذه.

{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص : 4 ، 5]، فقد "عجب الكفار.. أن جاءهم.. رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمروا على الكفر"1، "ولم يأتهم ملك من السماء بذلك"2، وهذا دليل واضح على أنهم عجبوا من كونه نذيرا قبل أن يعجبوا من كونه جعل الآلهة لها واحدا..!

ولقد فطن السلفية إلى أن حديثي أبي هريرة وابن عباس السابقين ينقضان عليهم دعواهم بأنه لو لم يدعهم إلى لا إله إلا الله لصدقوه، فلذلك أعرض السلفية عن الحديثين وراحوا يزعمون أن "أول ما بدأ، بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وإنكار الشرك، وكان ﷺ يقول: "قولوا: لا إله إلا الله؛ تفلحوا"³، "هكذا بدأهم، ما أمرهم بالصلاة أو الزكاة أولا، أو ترك الخمر أو الزنا أو شبه ذلك".

والجواب: أن الحديث الذي احتجوا به ليس فيه أن هذا حدث في أول دعوته بل سياقه يدل على أنه حدث بعد ذلك حينما كان يدعو الناس باستمرار إلى التوحيد، وهذا سياق الحديث من مسند أحمد عن ربيعة بن عباد.. قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: "يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا". والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضىء الوجه، أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ، وقالوا لي: هذا عمه أبو لهب⁵. اه فقوله "رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز.. " يدل على أن هذا في أثناء دعوته

1 فتح القدير للشوكاني (4/ 482)

2 جامع البيان (20/ 17)

3 أخرجه أحمد في مسنده (492/3) (63/4، 341)، وابن حبان في صحيحه (رقم 6528) والطبراني في الكبير (61/5) رقم 4582 (الدارقطني في السنن (3/ 45) والبيهقي في دلائل النبوة (5/380) والحاكم في المستدرک (3/512) رقم 4275)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الصنعاني في تطهير الاعتقاد (ص: 30): أخرجه الإمام أحمد بإسناد صحيح. اه

4 شرح مسائل الجاهلية للفوزان (ص: 23)، تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد للصنعاني (ص: 30)

5 أخرجه أحمد في مسنده (492/3) (63/4، 341)، وابن حبان في صحيحه (رقم 6528) والطبراني في الكبير (61/5) رقم 4582 (الدارقطني في السنن (3/ 45) والبيهقي في دلائل النبوة (5/380) والحاكم في المستدرک (3/512) رقم 4275)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الصنعاني في تطهير الاعتقاد (ص: 30): أخرجه الإمام أحمد بإسناد صحيح. اه

وليس في أولها كما هو ظاهر، بخلاف حديث ابن عباس السابق الذي فيه "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" فإنه صريح بأن ذلك كان أول الدعوة كما دل عليه سياقه.

الوجه الثالث: أن المشركين رفضوا كثيرا من الأمور التي جاء بها الرسل مما لا علاقة له بقضية التشفع بالأصنام. فقد جاء الرسل عليهم السلام بأشياء كثيرة لا علاقة لها بالتشفع بالأصنام ولا بما تسمونه توحيد الألوهية لا من قريب ولا من بعيد، وبرغم ذلك رفضوها وكفروا بها، وأسرد طائفة من هذه الأمور:

(1) دعا الرسل أقوامهم إلى الإيمان بالبعث والنشور واليوم الآخر فكفروا بذلك، فالبعث "أنكره الكفار من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ ولا يؤمن به إلا المنتسبون إلى دين الرسل"¹، فقد: "استبعدوا منذرا من الله، وهم بهذا عطلوا أفعال الله عز وجل وحكمته في خلقه"²، وقد سبق بسط ذلك³.

(2) دعا الرسل أقوامهم إلى الإيمان بهم وبرسل الله جميعا، فكفروا بهم ورموهم بالكذب والسحر والجنون ونحو ذلك، كما قال تعالى: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذاريات: 52]، بل أنكروا فكرة الرسالة والنبوة أصلا، مستبعدين أن يرسل الله بشرا مثلهم، كما قال تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا} [الإسراء: 94]، وقد سبق بسطه ذلك أيضا⁴.

(3) دعا الرسل أقوامهم إلى الإيمان بالكتب السماوية، فكفروا بها وجعلوها أساطير الأولين، وسحرا وشعرا، كما قال تعالى: {وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال: 31].

1 شرح العقيدة الطحاوية للبراك (ص: 241)

2 الشرك في القديم والحديث ص 443

3 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (542)

4 انظر: ص (350)، و ص (380، 542) عند آية: (إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

(4) دعا صالح قومه ثمود لعدم إيذاء الناقة، فعقروها كما قال تعالى: { فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا } [الشمس: 13، 14].

(5) دعا نبينا قومه إلى تنزيه الله عن الولد فرفضوا، وجعلوا الملائكة بنات الله، كما سبق بيانه مطولا¹.

(6) دعا سيدنا شعيب أهل مدين إلى أن يوفوا الكيل والميزان، فرفضوا ذلك، تماما كما رفضوا عبادة الله وحده، وقالوا { قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } [هود: 87].

(7) دعا لوط قومه إلى ترك الفاحشة فرفضوا ذلك وأخرجوه كما قال تعالى { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بَجْهَلُونَ (55) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْتَهَرُونَ } [النمل: 54 . 56].

(8) أمر إبليس بالسجود لآدم فأبى استكبارا فلعن وطرده من الجنة، ولم يُطرد لكونه يتشفع بالأنبياء أو يسجد لهم أو لأصنامهم...!! قال تعالى: { إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [البقرة: 34]، وقال: { قَالَ فَاخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } [الحجر: 34، 35].

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة وكما ترى فإن هذه الأمور لا علاقة لها بالتشفع بالأصنام ولا بتوحيد الألوهية وبرغم ذلك رفضوها فكيف يقال "إنّ المعركة بين أهل التوحيد والمشركين في الألوهية فقط"². وكيف يقال بأن توحيد الألوهية هو "الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم"³، لو كان زعمكم هذا صحيحا، لاستجابوا لهذه الأمور ولاسيما قضية الوفاء بالكيل والميزان وترك الفاحشة وترك إيذاء

1 انظر: ص (321) عند آية: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)

2 جهود علماء الحنفية (1/ 117)، و(1/ 206، 217).

3 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (3/ 489)

الناقة، إذ ما علاقة هذه الأمور بالتشفع بالأصنام؟! وهذا يدل على أن هؤلاء الأقوام مكذبون معاندون مستكبرون لا همّ لهم إلا الكفر بالله وبرسله وبما جاؤوا به، سواء أكان له علاقة بالأصنام أم لا. وقد أقر بعض السلفية بهذه الحقيقة، وهي أن الأمم نازعوا الرسل في عدة قضايا، حيث "يلاحظ المرء المتابع لسيرة الأنبياء وجدال المشركين لهم أن القضايا التي كانت مثار الشبهات والشكوك واحدة، بحيث لا نجد نبيا إلا قد ابتلي بمن عارضه في هذه القضايا، وهي: 1- قضية الألوهية، ووجود الله ووحدايته. 2- قضية النبوة. 3- قضية البعث¹. اهـ

الوجه الرابع: أن ثمة أسبابا أخرى كثيرة جعلتهم ينكرون توحيد الله، وأهمها ما يلي: **السبب الأول:** اتهامهم للأنبياء بالسحر والجنون: كما حكى الله عنهم في آيات عديدة سبقت منها: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [الذاريات: 52]، ومنها قوله تعالى {وَيَقُولُونَ أَأَنْتَا لَتَأْتِكُنَّ لَشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصفافات: 36]، وهذه الآية الأخيرة صريحة في أن السبب الذي منعهم من التوحيد هو أنه اتهم ممن سمّوه "شاعر مجنون"، ومفهومه أنه لو اتهم ممن صدّقوا بنبوته لتركوا شركهم، فهم رفضوا التوحيد بناءً على اتهامهم للنبي بالجنون كما سبق وبالكذب كما سيأتي، ولم يأت رفضهم للتوحيد أولا ثم جاء بعد ذلك تكذيبهم للنبي واتهامهم له بالجنون، كما زعم الحفيد فقال: وهو عليه السلام إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها، ويتركوا عبادة غير الله، ولهذا قالوا: {أَأَنْتَا لَتَأْتِكُنَّ لَشَاعِرٍ مَجْنُونٍ}. وقالوا: {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِهَاءً وَاحِدًا}. فلهذا أبوا عن النطق بها². اهـ فهذا غير صحيح بل هو عكس للآية.

السبب الثاني: أنهم "نسبوا الكذب إلى النبي ﷺ"³ ((فإن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: "إنما أنت مفتر"، فأجابهم الله.. كأنه قال: "إنما يفتر الكذب هم لا النبي")⁴. وهذا أشار إليه تعالى أيضا في سورة ص نفسها حيث قال: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ

1 الوحي والإنسان - قراءة معرفية، د.الجليند، دار قباء (ص: 31).

2 تيسير العزيز الحميد (ص: 184)

3 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (24 / 47)

4 آثار الشيخ المعلمي اليماني (19 / 278)

كَذَابٌ (4) أَجَعَلَ الْإِلَهَةَ لَهَا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ.. مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اِخْتِلَاقٌ { [ص: 5 - 7]، فدل ذلك على أنهم قد كذبوا النبي قبل أن ينكروا التوحيد كما سبق أن أشرنا، وثمة آيات كثيرة صرحوا فيها بذلك كقوله { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ } [الفرقان: 4].

وكذا سائر المشركين والكفار كانوا يتهمون فيها أنبياءهم بالكذب كاتهامهم موسى بالكذب كما في قوله تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (23) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } [غافر: 23، 24]، وكما في صالح إذ قال عنه قوم ثمود: { أَلْقَيْتِ الذُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ } [القمر: 23 - 25]، وقالوا عن نوح { إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } [المؤمنون: 38، 39].

بيد أن هذا السبب والذي قبله أي اتهامهم للنبي بالكذب والسحر والجنون هي أسباب ظاهرية تدرّجوا بها لئلا يؤمنوا، فهي مجرد تُهم باطلة وافتراءات منهم، فإنهم كانوا يعلمون صدق النبي صلى الله عليه وسلم وبعده عن هذه التهم والافتراءات. قال ابن كثير عند قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا } [الفرقان: 4]: "أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً وهم يعلمون أنه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه"¹، وقد سبق قول ابن القيم "ولم يُقَرُّوا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صدقه، وتيقنهم صحة رسالته بالبراهين التي شاهدوها وسمعوا بها في مدة عشرين سنة"².

السبب الثالث: تمسُّكهم بما ورثوه عن آبائهم تقليدا لهم، كما قال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا سَوِيًّا وَلَا يَهْتَدُونَ } [المائدة: 104]، وكما قال تعالى { فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ } [هود: 109]، أي "أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم وأن عبادتهم عبادة

1 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (10/ 285)

2 زاد المعاد (3/ 314)، وقد سبق أن ذكرناه ص (244، و ص 310) عند قولي : (مع تحققهم صدقه)

آبائهم.. وفي الخازن يعني أنه ليس لهم في عبادة هذه الأصنام مستند إلا تقليد آبائهم"¹. فإنه تعالى يخبر "أنهم لم يعبدوا ما عبدوا من الأوثان إلا اتباعا منهم منهاج آبائهم، واقتفاء منهم آثارهم في عبادتهموها"²، لا عن أمر الله إياهم بذلك، ولا بحجة تبينها توجب عليهم عبادتها"³.

وقال الشوكاني عند قوله تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الأعراف: 70]: "هذا استنكار منهم لدعائه إلى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله، وإنما كان هذا مستكرا عندهم لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه، ونذر ما كان يعبد آباؤنا، أي: نترك الذي كانوا يعبدونه، وهذا داخل في جملة ما استنكروه"⁴، قال أبو السعود: "أنكروا عليه . عليه السلام . مجيئه لتخصيصه تعالى بالعبادة والإعراض عن عبادة الأوثان انهماكا في التقليد وحبما لما ألفوه وألفوا أسلافهم عليه"⁵، و"حبا لما نشؤوا عليه وتألفا لما وجدوا آباءهم عليه"⁶.

ولذلك قال كعب بن زهير . حين كان مشركا . أبياتا يلوم فيها أخاه بجيرا على إسلامه، ومنها قوله:
وخالفت أسباب الهدى واتبعته .. على أي شيء ويب غيرك دلكا⁷
على حُلُق لم تُلف أمّا ولا أبا .. عليه ولم تدرك عليه أخا لكا

1 فتح البيان في مقاصد القرآن (6/ 258)

2 كذا وقع في ط هجر من تفسير الطبري: «واقتفاء منهم آثارهم في عبادتهموها»، وكذا في «تفسير الطبري - ط دار التربية والتراث» (491 / 15)، والمفروض أن يفصل الضمير الثاني هنا فيقال: عبادتهم إياها، ولكن وصله جائر كما قال ابن مالك في ألفيته:

وفي اتحاد الرتبة الزم فصلا ... وقد يبيح الغيب فيه وصلا

جاء في «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» (1/ 107): «إذا اجتمع ضميران وكانا منصوبين واتحدا في الرتبة كأن يكونا لتكلمين أو مخاطبين أو غائبين فإنه يلزم الفصل في أحدهما فتقول أعطيتني إياي وأعطيتك إياك وأعطيته إياه ولا يجوز اتصال الضميرين فلا تقول أعطيتني ولا أعطيتك ولا أعطيته نعم إن كانا غائبين واختلف لفظهما فقد يتصلان نحو الزيدان الدرهم أعطيتهما».

3 جامع البيان ط هجر (12/ 590)

4 فتح القدير للشوكاني (2/ 248)

5 تفسير أبي السعود (3/ 239)

6 تفسير البحر المحيط (4/ 328)

7 ويب غيرك: أي هلكت هلاك غيرك، كذا في حاشية السيرة النبوية لابن هشام (2/ 501).

ولما سمع عليه الصلاة والسلام قوله "على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه" قال: أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه. ثم قال بجير لكعب:

من مبلغ كعبا فهل لك في التي .. تلوم عليها باطلا وهي أحزم

إلى الله (لا العزى ولا اللات) وحده .. فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت .. من الناس إلا طاهر القلب مسلم¹.

وقال الفوزان: شبهة تكاد تكون مشتركة بين طوائف المشركين في مختلف الأمم، وهي: شبهة

الاحتجاج بما كان عليه الآباء والأجداد، وأنهم ورثوا هذه العقيدة خلفا عن سلف².

السبب الرابع: ومنها أنهم أنكروا أن يكون الرسول الذي يدعوهم إلى التوحيد إنسانا، كما قال الله

تعالى: { إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً

فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } [فصلت : 14]، فالآية تشير إلى أن سبب كفرهم وجحودهم لعبادة الله

وحده هو كون الرسول بشرا لا ملكا، وهذا جاء به مصرحا في قوله تعالى: { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ

جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } [الإسراء: 94]، حيث "صرح بأن هذا العجب من

إرسال بشر مانع للناس من الإيمان"³، "والمعنى: أن هذا الاعتقاد الشامل لهم، وهو إنكار أن يكون

الرسول من جنس البشر، هو الذي منعهم عن الإيمان بالكتاب وبالرسول"⁴، وقد سبق بسطه⁵.

بل إن آية ص { أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } التي يحتج بها السلفية دائما على

استغراب المشركين من أن يكون الإله واحدا، قبلها قوله تعالى: { وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ

الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } [ص: 4]، فذكر أن المشركين عجبوا من كونه رسولا قبل أن يذكر أنهم

عجبوا من جعله الآلهة إلهها واحدا كما سبق.

1 السيرة النبوية لابن هشام (2 / 501)، الروض الأنف ت الوكيل (7 / 257).

2 الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد (ص: 62)

3 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (2 / 381)

4 فتح القدير للشوكاني (3 / 308)

5 انظر: ص (347) عند قولي: (منكرا ممتنعا في عقولهم)

السبب الخامس: الحسد والكبر، كما قال تعالى { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف : 31]؛ "يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم .. من مكة والطائف وذلك أنهم . قبحهم الله . كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسدا وعنادا واستكبارا"¹. لأنهم "أرادوا أن تكون الرسالة في العظماء الذي هم أعلى منهم رتبة وشرف حتى لا يكون في صدورهم حرج من أتباعه"². قال القرطبي: "والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنه لأشراف الناس من الكفار في عصره وكذلك العلماء، وحكام العدل، ألا ترى إلى قولهم: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى، والصبر أن يجبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذلك عن الضجر"³.

وكما في قوله تعالى: { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ } [الصفات: 35]، أي "كانوا في الدنيا إذا قيل لهم: قولوا { لا إله إلا الله يستكبرون } يقول: يتعظمون عن قيل ذلك ويتكبرون"⁴، وكما في قوله: { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } [الإسراء: 46]، أي "وإذا قلت: لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه { ولوا على أدبارهم نفورا } يقول: انفضوا، فذهبوا عنك نفورا من قولك استكبارا له واستعظاما من أن يوحد الله تعالى"⁵ اهـ.

وشأنهم في ذلك شأن اليهود الذين قال الله فيهم " {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }، فهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، وأنه نبي الله، ولكنهم جحدوا هذا تكبرا وحسدا لرسول الله ﷺ، وحسدا للعرب"⁶.

1 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (6/ 162) وانظر: أضواء البيان (7/ 257)

2 شرح مسائل الجاهلية - صالح آل الشيخ (ص: 32)

3 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (15/ 390)، ونقله الشنقيطي في أضواء البيان (6/ 334)

4 جامع البيان ط هجر (19/ 528)

5 جامع البيان ط هجر (14/ 609)

6 إغاثة المستفيد شرح كتاب التوحيد للفوزان (2/ 449)، وانظر أيضا (1/ 360).

السبب السادس: التعنت والعناد كما دلّ على ذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا} [الإسراء: 90 - 93]، فقد "بين الله جلّ وعلا في هذه الآيات الكريمة شدة عناد الكفار وتعنتهم، وكثرة اقتراحاتهم لأجل التعنت لا لطلب الحق"¹.

ومنها قوله تعالى {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [الأنعام: 50]، وهذا من الدلائل على عنادهم وتعنتهم وهو أنهم "يطالبون الرسول ﷺ تارة بعلم الغيب كقوله: {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين}.. وتارة بالتأثير كقوله: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا..} وتارة يعيرون عليه الحاجة البشرية كقوله: {وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق}، فأمره أن يخبر أنه لا يعلم الغيب ولا يملك خزائن الله ولا هو ملك غني عن الأكل والمال، إن هو إلا متبع لما أوحى إليه"²، وكأنه يقول لهم: "ككيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر على ذلك غيره"³.

ومنها قوله تعالى: {مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا} [الكهف: 55]، قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً"⁴، "والآيات الدالة على طلبهم الهلاك والعذاب عنادا وتعنتا كثيرة جدا، كقوله عن قوم شعيب: فأسقط علينا كسفا من السماء

1 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (3/ 740)

(2) مجموع الفتاوى (11/ 312)

(3) جامع البيان ط هجر (15/ 87)

(4) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (9/ 159)، وانظر تفسير البيضاوي (ص: 505-)

إن كنت من الصادقين، وكقوله عن قوم هود: قالوا أجبئنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، وكقوله عن قوم صالح: وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين¹، والآية على هذا المعنى "على حذف مضاف؛ أي ما منع الناس من الإيمان والاستغفار إلا طلب أو انتظار إتيان سنة الأولين، وإنما احتيج إلى حذف المضاف إذ لا يمكن جعل إتيان سنة الأولين مانعاً عن إيمانهم، فإن المانع يقارن الممنوع، وإتيان العذاب متأخر عن عدم إيمانهم بمدة كثيرة"².

ومنها قوله تعالى: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَزْرُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ} [الملك: 21]، قال ابن كثير: "بل لجوا" أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم "في عتوٍ ونفور" أي في معاندة واستكبار ونفور على إديبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه.³

السبب السابع: إن استغراب المشركين من توحيد الآلهة ناتج من عقيدتهم الفاسدة في الله؛ حيث كانوا يستبعدون أن يكون إله واحد يحيط علمه بكل شيء، كما قال تعالى: {وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ} [فصلت: 22]، وكانوا يستبعدون أن يكون إله واحد يسمع دعاء كل من يدعوه ويلببه، وقد جاءت بعض الآثار عن السلف في هذا المعنى، قال الطبري: قوله (أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا) يقول: وقال هؤلاء الكافرون الذين قالوا: مُجَّد سَاحِر كَذَاب: أجعل مُجَّد المعبودات كلها واحداً، يسمع دعاءنا جميعنا، ويعلم عبادة كل عابده منا (إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ): أي إن هذا لشيء عجيب؛ ثم أسند الطبري عن قتادة أنه قال في هذه الآية: عَجِبَ المشركون أن دُعوا إلى الله وحده، وقالوا: يسمع لحاجتنا جميعاً إله واحد! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة⁴.

(1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (175 / 4)

(2) فتح البيان في مقاصد القرآن (71 / 8)، وفي الآية قول آخر بدون تقدير حذف المضاف وهو ما رجحه الشنقبي فقال وهو "أظهر عندي؛ لأن ما لا تقدير فيه أولى مما فيه تقدير" فيكون "معنى الآية: وما منع الناس من الإيمان والاستغفار إذ جاءتهم الرسل بالبينات الواضحات، إلا ما سبق في علمنا: من أنهم لا يؤمنون، بل يستمرون على كفرهم حتى تأتيهم سنة الأولين من الكفار، وإتيان العذاب إياهم يوم القيامة قبلاً، وعلى هذا القول فالآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً، كقوله تعالى: إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم... انظر أضواء البيان (173 / 4)

3 تفسير ابن كثير (77 / 14)

(4) جامع البيان، للإمام الطبري - (21 / 149)

ويقول صديق حسن خان بأن قول المشركين: "كيف يسع الخلق كلهم إله واحد"، ومنشؤه أن القوم ما كانوا أصحاب نظر واستدلال، بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات، فلما وجدوا في الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفي قدرته وعلمه بحفظ الخلائق قاسوا الغائب على الشاهد¹.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عطاء قال : نزل على النبي ﷺ بالمدينة { وَإِهْكُمِ إِلَهَ وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } [البقرة : 163]، فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟! فأنزل الله إن في خلق السموات والأرض إلى قوله تعالى لقوم يعقلون، فبهذا يعلمون أنه إله واحد وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء⁽²⁾. وقد قرر هذا الحفيد تبعا لابن القيم كما سيأتي⁽³⁾.

السبب الثامن: { وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا } [القصص: 57]، أي "وقالت كفار قريش: إن نتبع الحق الذي جئتنا به معك، وننتزعا من الأنداد والآلهة، يتخطفنا الناس من أرضنا بإجماع جميعهم على خلافنا وحرينا"⁴، فنحن "إن ندخل في دينك، ونعمل به يا مُجِدُّ يتخطفنا العرب من مكة، وننتزع منها بسرعة ولا طاقة لنا بهما، وهذا من جملة أعدائهم الباطلة وتعللاتهم العاطلة"⁵. فأجابهم الله "أولم نمكِّن لهم حرما آمنا" أي "هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمنا لهم في حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمنا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق"⁶.

وهكذا نكون قد سردنا ثمانية أسباب منعتهم من الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام، كتقليد آباءهم والحسد والكبر والتعنت وكون الرسول بشرا، وسوء ظنهم بالله وبسعة علمه وقدرته.. وكل تلك الأسباب

1 فتح البيان في مقاصد القرآن (12 / 13)

(2) الدر المشهور (1 / 395)

(3) انظر: ص (603) عند قولي : (اتخاذ الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية)

4 جامع البيان ط هجر (18 / 287)

5 فتح البيان في مقاصد القرآن (10 / 134)

6 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (10 / 474)

لا علاقة لها بقضية التشفع بالأصنام ولا لأنهم فهموا من لا إله إلا الله "أنها تخدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس وتكُتُّ بناءً سؤال الشفاعة من غير الله وصرف الإلهية لغيره لأُمّ الرأس..(1)" كما زعم الحفيد.

وهذا ابن تيمية نفسه يقول بعد أن يسرد بعض الأسباب السابقة التي منعتهم من الإيمان: "وهذه الأمور وأمثالها ليست حججا تقدر في صدق الرسل، بل تبين أنها تخالف إرادتهم وأهواءهم وعاداتهم فلذلك لم يتبعوهم، أبو طالب وغيره كانوا يحبون النبي ﷺ ويحبون علو كلمته وليس عندهم حسد له وكانوا يعلمون صدقه، ولكن كانوا يعلمون أن في متابعتهم فراق دين آبائهم وذم قريش لهم فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة واحتمال هذا الذم فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بصدق الإيمان به؛ بل هوى النفس"². اه فتأمل قوله "فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بصدق الإيمان به؛ بل هوى النفس" فإنه يلخص الأسباب الثمانية السابقة في سبب واحد وهو الهوى، فالهوى هو الذي منعه من الإيمان وإلا فهم يعلمون صدق النبي ﷺ كما سبق بيانه.

وبذلك أكون قد انتهيتُ من بسط الأوجه الكثيرة التي كَفَّرَ المشركون من أجلها، وبَسَطت أيضا الأسباب الثمانية التي جعلتهم يكفرون بالنبي ﷺ وبرسالته وبما جاء به ولا يؤمنون به، وكما رأينا فكل ذلك لا علاقة له بقضية التشفع بالأصنام، وهو خلاف نظرية تقسيم التوحيد التي جعلت قضية التشفع بالأصنام هي السبب الوحيد لكفر المشركين وجعلتها أيضا المانع الوحيد لعدم إيمانهم، وهذا ما أثبتنا خلافه بالأدلة والبراهين كما سبق بسطه بعون الله وتوفيقه.

(1) تيسير العزيز الحميد لحفيد ابن عبد الوهاب ص182، 183، جهود علماء الحنفية (1/ 166)

2 مجموع الفتاوى (7/ 192)

الباب الثالث: حقيقة شرك المشركين في توحيد الألوهية

مدخل

بعد أن انتهينا من الباب الثاني الذي بيّنا فيه حال المشركين في الجاهلية وما فيها من قبائح وموبقات استمرت إلى ما بعد البعثة، وفصلنا أوجه الكفر وأصنافه المتعددة التي ارتكبتها المشركون من تكذيبهم للنبي وللقرآن وإنكارهم للبعث وقولهم عن الملائكة إنها بنات الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - إلى غير ذلك، وبيّنا أن هذا كله لا علاقة له بقضية التشفع بالأصنام ونحو ذلك مما يسمى بتوحيد الألوهية الذي هو السبب الوحيد لكفرهم وشركهم حسب نظرية ابن تيمية في تقسيم التوحيد!

نأتي الآن إلى الباب الثالث والأخير لنبيّن فيه - بحول الله - مناط أو حقيقة شرك المشركين في توحيد الألوهية، ونوضّح فيه ما وقع من خلط وخبط حول حقيقة الشرك الذي وقع فيه المشركين فيما يسمى بتوحيد العبادة أو توحيد الألوهية عند السلفية الذين قصروا سبب كفر المشركين عليه! والذي يتلخص في عبادتهم للأصنام! والذي يؤول في نهاية المطاف إلى قضية التشفع بالرسول والصالحين!!

فنقول: نعم، وقع المشركون في كفر عظيم وفي الشرك الأكبر بسبب قضية عبادتهم بالأصنام، ولكن هنا أمران، الأول: أن هذا أحد أسباب كفرهم وشركهم وليس هو السبب الوحيد، لأن ثمة أموراً كثيرة كفروا وأشركوا بسببها لا علاقة لها بقضية التشفع بالأصنام، وهذا سبق بيانه مطولا. والثاني: ما مناط كفرهم فيما تسمونه بتوحيد الألوهية؟

هذا ما سنتكلم عليه في هذا الباب بحول الله، حيث نبيّن مناط كفر المشركين فيما يتعلق بقضية عبادتهم للأصنام وتشفعهم بها ونحوه مما يسمى بتوحيد الألوهية، وبعبارة أخرى نتكلم عن علّة كفرهم وعن ماهية شركهم في هذا الباب، هل هو مجرد تشفعهم بالأصنام وتوسلهم بالصالحين، أو هو أمر وراء ذلك؟

فنقول وبالله التوفيق: إنه من المعلوم أن النبي ﷺ قاتل المشركين حتى يقولوا لا إله إلا الله كما جاء في الحديث، بيد أن المعنى الصحيح لكلمة لا إله إلا الله - طبعاً بحسب نظرية ابن تيمية في تقسيم التوحيد - هو حظر التشفع، سواء أكان هذا التشفع بالمعنى الضيق للشفاعة، وهو الطلب من الشفيع أن يشفع عند ربه ليقضي حاجة المستشفع، أو بالمعنى الواسع للشفاعة وهو اتخاذ وسطاء بين الله وخلقه وعبادتهم

من دون الله، فالشفاعة بكلام المعنيين ينافي مقتضى شهادة التوحيد حسب النظرية السابقة! اللهم إلا التشفع بالمعنى الضيق فهذا جائز عند ابن تيمية وأتباعه، ولكن بشروط سنأتي على ذكرها عندهم .
 وبجسب هذه النظرية أيضا فإن المشركين كانوا يعرفون هذا المعنى الصحيح، وأنهم لذلك أبوا أن ينطقوا بها، وأن النبي ﷺ إنما قاتلهم ليقروا بمعناها الصحيح الذي عرفوه وليعملوا بمقتضاه، ولم يقاتلهم على مجرد النطق بها؛ وفي نهاية المطاف تخلص النظرية إلى أن سبب كفر المشركين الذي قاتلهم لأجله هو قضية التشفع هذه، وهو ما يسمى بجسب النظرية بـ "توحيد الألوهية" الذي هو قسيم لما يسمى بـ "توحيد الربوبية" حيث تفترض النظرية أن المشركين أقروا به في حين جحد المشركون بـ "توحيد الألوهية"، وأنه بذلك يتم الفرق بين قسمي التوحيد هذين؛ وهما توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية! وأتبعهما ليسا شيئا واحدا!

فلدينا هنا أربع دعاوى وهي:

- (1) أن المعنى الصحيح لكلمة "لا إله إلا الله" هو باختصار: حظر التشفع بالمعنى الواسع، وهو اتخاذ الوسطاء وعبادتهم من دون الله.
- (2) أن المشركين كانوا يعلمون هذا المعنى الصحيح لكلمة التوحيد، ولذلك أبوا أن ينطقوا بها.
- (3) أن النبي ﷺ قاتل المشركين ليُقِرُّوا بهذا المعنى الصحيح ويعملوا بمقتضاها، ولم يقاتلهم على مجرد النطق بها.
- (4) أن سبب كفر المشركين هو قضية التشفع، وهو ما يسمى بتوحيد الألوهية، فيكون التوحيد قسامين ألوهية وربوبية.

قال وليد: وسوف نبسط هذه الدعاوى الأربع وناقشها واحدة تلو الأخرى بحول الله، ونخصص لكل منها فصلا مستقلا.

فيكون لدينا أربعة فصول وهي:

الفصل الأول: دعوى أن معنى كلمة التوحيد هو حظر التشفع واتخاذ الوسطاء

الفصل الثاني: دعوى أن المشركين كانوا يعلمون المعنى الصحيح لكلمة التوحيد

الفصل الثالث: دعوى أن المشركين قوتلوا ليقروا بمعنى كلمة التوحيد ومقتضاها

الفصل الرابع: دعوى أن سبب كفر المشركين الوحيد هو التشفع بالصالحين

والله الموفق

الفصل الأول: دعوى أن معنى كلمة التوحيد هو حظر التشفع واتخاذ الوطاء

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: معنى شهادة التوحيد لا إله إلا الله

المبحث الثاني: اشتمال الشهادتين على كل العقائد

المبحث الثالث: العبادات يشترط فيها نية العبادة

المبحث الأول: معنى شهادة التوحيد لا إله إلا الله

في الواقع إذا نظرنا في تفسير ابن تيمية وأتباعه لكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" نجد أنهم يفسرونها بتفسيرات؛ أحدها: مجمل وهو أن معناها: لا معبود بحق إلا الله، وإفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه، والمعنى الثاني: أن يذكروا معناها مجملا ثم يفصلوا فيذكروا بعض أنواع العبادات التي تحظرها كلمة التوحيد، فيقولون إن معناها لا معبود إلا الله، وإنه لا دعاء ولا ذبح ولا نذر ولا حلف ولا طواف ولا سجود إلا لله، وهذه العبادات المفصلة من الدعاء والذبح والنذر ونحو ذلك هو ما يسمى توحيد الألوهية أو التشفع. وفيما يلي أسرد نصوصهم في كلا التفسيرين:

أما نصوصهم التي تفسر كلمة التوحيد تفسيراً مجملاً:

(1) يقول ابن تيمية: فلا يجوز أن يكون إله معبود إلا هو، والإلهية تتضمن استحقاقه للعبادة والدعاء¹.

(2) وقال الفوزان: فتبين بهذا المعنى أن معنى لا إله إلا الله ومقتضاها إفراد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه²، فهي تعني "ترك عبادة الأصنام وعبادة الله وحده"⁽³⁾.

(3) "وهي تعني إفراد الله بالعبادة وحده لا شريك له، والبراءة من كل معبود سواه، فمعنى لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله⁴.

(4) (ف"لا إله إلا الله" تعني إفراد الله سبحانه بالعبادة وحده لا شريك له، والبراءة من كل معبود سواه⁵).

(5) "فعلم أن المقصود الأعظم من لا إله إلا الله هو إفراد الله بالعبادة واجتناب عبادة الطاغوت بكافة أشكاله وصوره الحسية¹.

¹ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (3/ 142)

² معنى لا إله إلا الله ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع، للفوزان (ص: 22).

(3) بيان حقيقة التوحيد الذي جاءت به الرسل ودحض الشبهات التي أثيرت حوله ص24، صالح الفوزان، جامعة ابن سعود، 1987م.

⁴ آراء ابن حجر الهيتمي الاعتقادية للشايخ ص141

⁵ ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف للغفيلي ص309.

وفيما يلي نصوصهم التي تفسر كلمة التوحيد تفسيراً مجملاً ثم يفصلونه، وأحياناً يفصلونه ثم يجمعونه:

- 1) قال ابن عبد الوهاب بأن النبي ﷺ قاتل المشركين: "ليكون الدعاء كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادات كلها لله.. ثم قال: التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون.. هو معنى قولك (لا إله إلا الله)"².
- 2) قال الحفيد: (ومعنى "لا إله إلا الله"، أي: لا معبود بحق إلا إله واحد)³، وهي "تقتضي ترك عبادة ما سوى الله، وإفراد الله بالعبادة"⁴، و" (لا إله إلا الله) متضمنة لهذا المعنى"⁵، كالدعاء فإن المشركين فهموا من لا إله إلا الله "أنها تخدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس، وتكُتُبُ بناءً سؤال الشفاعة من غير الله وصرف الإلهية لغيره لأُمِّ الرأس.."⁶.
- 3) (بل بعث رسله، وأنزل كتبه، لإخلاق توحيده، وإفراجه بالعبادة لا يتم إلا بأن الدعاء كله لله والنداء والاستغاثة، والاستعانة، والرجاء..)⁷.
- 4) قال الهذيل بأن معنى الشهادة: "أن يتركوا كل ما كانوا يعبدونه مع الله تعالى.. فلا يدعى إلا هو، ولا يرجى إلا هو، ولا يتوكل إلا عليه ولا يتدلل إلا إليه عز وجل ثناؤه.. وهو معنى لا إله إلا الله"⁸.

1 منهج الإمام ابن أبي العز الحنفي وآراؤه في العقيدة من خلال شرحه للطحاوية ص206، عبد الله الحايي، دار ابن الجوزي.

2 كشف الشبهات لابن عبد الوهاب (ص: 16).

³ تيسير العزيز الحميد لحفيد ابن عبد الوهاب ص 177

⁴ تيسير العزيز الحميد لحفيد ابن عبد الوهاب ص 183

⁵ تيسير العزيز الحميد لحفيد ابن عبد الوهاب ص148

(6) تيسير العزيز الحميد لحفيد ابن عبد الوهاب ص182، 183، جهود علماء الحنفية (1/ 166)

7 دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 336)

8 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص232.

(الرابط بين تفسير شهادة (لا إله إلا الله) وبين تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية)

والسؤال الذي يهمنا هنا: ما الرابط بين الأمرين: تفسير كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وتقسيم التوحيد؟! أو كيف يلزم الثاني من الأول؟! **والجواب:** أنه بحسب نظرية ابن تيمية في تقسيم التوحيد فإن تفسير كلمة التوحيد بما سبق وهو أن معناها الصحيح "لا معبود بحق إلا الله" هو تفسير لها بتوحيد الألوهية، وأما تفسيرها خطأً بـ "لا خالق إلا الله" فهو تفسير لها بتوحيد الربوبية، ومن هنا يظهر الفرق بين التوحيدين.

يقول ابن تيمية: "وقول صاحب الشرع أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، لم يقل حتى يقولوا إن لهم ربا، إذ هم عارفون بذلك، وإنما أمرتهم الرسل أن يصلوا معرفة التوحيد بمعرفة الربوبية والوحدانية فأبوا"⁽¹⁾، "فدل ذلك على أن هذا الإقرار منهم ليس هو تحقيق قول لا إله إلا الله، فدل على أنهم أقروا بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية"⁽²⁾، ودل أيضا على أن التوحيد ليس فقط توحيد الربوبية الذي يقرون به "بل هناك معنى زائد وهو توحيد الله تعالى في ألوهيته"⁽³⁾ الذي أباه المشركون، ولذلك "قاتلهم رسول الله ﷺ إلى أن يقروا بتوحيد الألوهية"⁽⁴⁾، وبذلك تبين "أن المشركين من العرب الأول كانوا يقرون بربوبية الله تعالى، وينكرون وحدانيته تعالى في الألوهية.. فلأجل ذلك تنوع التوحيد بنوعين توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، فإنكار هذا إنكار الحسن"، فهما ليسا شيئا واحدا بل "الطامة الكبرى التي هي أم الطامات المتولدة منها.. جهل القبورية بحقيقة توحيد الألوهية وجعلهم إياه عينا لتوحيد الربوبية"⁽⁵⁾.

(1) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية - (8 / 510)

2 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 214

³ شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 233، وانظر: ص 232

(4) جهود علماء الحنفية - (1 / 166)

5 جهود علماء الحنفية (1 / 178)

دعوى السلفية بأن شهادة أن لا إله إلا الله لا يجوز تفسيرها بلا خالق إلا الله بحجة أن هذا أقر به

المشركون

إذن فبحسب النظرية لا يمكن أن تُفسر كلمة التوحيد وهي "لا إله إلا الله" بتوحيد الربوبية، بل هو تفسير خاطئ وإن ذهب إليه المتكلمون حيث قالوا "التوحيد هو توحيد الربوبية، والإلهية عندهم هي القدرة على الاختراع ولا يعرفون توحيد الإلهية، ولا يعلمون أن الإله هو المألوه المعبود، وأن مجرد الإقرار بأن الله رب كل شيء لا يكون توحيداً حتى تشهد أن لا إله إلا الله¹"، و"الحاذق منهم يظن أن معناه لا يخلق ولا يرزق إلا الله ولا يدبر الأمر إلا الله²"، بل قد ((أَلَّفَ بعضهم رسالة في معنى "لا إله إلا الله" ففسرها: لا رب إلا الله! وهذا المعنى هو الذي كان المشركون يؤمنون به وكانوا عليه، ومع ذلك لم ينفعهم إيمانهم هذا⁽³⁾)؛ فقد كان "المشركون من قريش وغيرهم - الذين أخبر القرآن بشركهم واستحلّ النبي ﷺ دماءهم وأموالهم وسبى حريمهم وأوجب لهم النار - كانوا مقرّين بأن الله وحده خلق السموات والأرض"⁴، "ومع ذلك لم يمنعهم ذلك أن يُسمّوا بالمشركين لَمَّا عبدوا مع الله غيره⁵".

وعليه فإنّ "الإله هو المعبود، خلافاً لما يعتقد عباد القبور وأشباههم في معنى الإله أنه الخالق أو القادر على الاختراع.. وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع.. لو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبّون دعوته، إذ يقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله، بمعنى: أنه لا قادر على الاختراع إلا الله. فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا"⁽⁶⁾.

والجواب عن ذلك فيما يلي:

1 مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (5 / 128) وانظر أيضا مجموع الفتاوى (8 / 100)

(2) كشف الشبهات لابن عبد الوهاب ص 17.

(3) التوحيد أولا يا دعاة الإسلام للألباني ص 7.

⁴ مجموع الفتاوى (1 / 155)

5 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 174

(6) تيسير العزيز الحميد ص 182.

أولاً: بيان المعنى المطابقي لشهادة التوحيد والرد على الفوزان بأنه إفراد الله بالعبادة

فقول الفوزان: "معنى لا إله إلا الله ومقتضاها: إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه"¹، غير صحيح لأنه خلط بين المعنى المطابقي لكلمة التوحيد وبين مقتضاها ومعناها الالتزامي، فمعناها المطابقي هو: لا معبود بحق إلا الله، أي لا يستحق العبادة سواه تعالى، لأنه الخالق وحده، وأما المعنى اللازم لها فهو وجوب عبادته تعالى وحده والنهي عن عبادة ما سواه، فهذا المعنى لازم لكلمة التوحيد ومقتضى لها، وليس هو المعنى المطابق لها كما يدعي الفوزان وأضرابه، والذي يدل على ذلك أمران:

الأمر الأول: أن معنى كلمة التوحيد المطابقي هو عقيدة، ومقتضاها ومعناها الالتزامي عمل، أما العقيدة التي تفيدها كلمة التوحيد فهي ألا تعتقد بوجود إله سواه، وأما العمل فهو ألا تعبد سواه، وإنما تعبد وحده تعالى، فتصلي وتصوم وتحج وتزكي له وحده تعالى.

وفرق بين العقيدة والعمل، ولذا قال معظم أئمة السلف "الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان"². وبعضهم "ربما قال: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان أي بالجوارح"³، و"لا يصح الدين إلا بالتصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، مثل الصلاة، والزكاة والصيام، والحج، والجهاد"⁴، و"الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، ثم اعلّموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقاً، ولا تجزئ معرفة بالقلب، ونطق باللسان، حتى يكون عمل بالجوارح"⁵.

1 معنى لا إله إلا الله ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع، للفوزان (ص: 22).

2 مجموع الفتاوى (7/ 144)

3 مجموع الفتاوى (7/ 505)

4 الشريعة للأجري (2/ 556)

5 الشريعة للأجري (2/ 611)، أبو بكر محمد بن الحسين الأجرّي (ت: 360هـ)، د. عبد الله الدميحي، دار الوطن - الرياض،

ط/ 2/ 1999 م.

الأمر الثاني: العقيدة السليمة شرط لصحة العبادة، والشرط يغير المشروط بدهاءة، وقد تقرر أن العبادة والعمل الصالح لا بد "أن يكون مبنيًا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن الله يقول: من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فقيّد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح. وقد أوضح - جل وعلا - هذا المفهوم في آيات كثيرة، كقوله في عمل غير المؤمن: {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: 23]¹. إذن "العقيدة هي الأساس، الذي يقوم عليه البناء، وما لم يتم العمل على هذه العقيدة فإنه سيكون هباءً منثورًا، لا ينفع صاحبه"². ودلت آية الفرقان أيضا على أن "التوحيد هو أساس العمل"³.

الفرق بين المعنى المطابقي والالتزامي لشهادة التوحيد

بناء على ما سبق يتبين أن المدلول المطابقي لشهادة التوحيد "لا إله إلا الله" هو عقيدة، وهو أن تعتقد بألوهيته وحده تعالى وأنه لا مستحق للعبادة سواه، وأما مدلولها الالتزامي فهو عمل وهو أن تعمل له وحده تعالى وتعبده وحده، ولا ينبغي الخلط بين هذين المدلولين المطابقي والالتزامي لشهادة التوحيد. وعليه فلا يصح قول الفوزان السابق "إن معنى لا إله إلا الله ومقتضاها إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه" ونحوه قول الألباني، "فمعنى الشهادتين أن تخلص لله عز وجل في عبادته فلا تشرك معه أحداً في شيء من العبادات"⁴، ومثله قول الغنيمان: والإيمان بالله تعالى هو: إفراده بالعبادة.. وهذا هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله"⁵، وغيرهم كثير من السلفية وقد سبقت نصوصهم⁶، وإنما لم يصح ذلك لما سبق من أنه خلط بين معنى الشهادة المطابقي ومعناها الالتزامي، وبعض السلفية تفتن إلى هذا فنصّ

¹ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (3/ 423)، وانظره أيضا في: أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة لمحمد الخميس (ص: 252)،

² مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص: 39) لعثمان ضميرية. وانظر جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية 1/ 343

³ القول المفيد في شرح قاعدة التوحيد (ص: 55)، وليد بن راشد السعيدان.

⁴ موسوعة الألباني في العقيدة (2/ 89)

⁵ شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (1/ 38)

⁶ انظر: ص (395) عند قولي: (تعني إفراد الله سبحانه بالعبادة)

عليه، فمثلاً قال الحفيد: (ومعنى " لا إله إلا الله"، أي: لا معبود بحق إلا إله واحد)¹، وهي "تقتضي ترك عبادة ما سوى الله، وإفراد الله بالعبادة"²، و" (لا إله إلا الله) متضمنة لهذا المعنى"³.

وإعراب كلمة الشهادة يؤكد ما قلنا فإن "(لا) في كلمة الإخلاص نافية للجنس"⁴ وليست ناهية، وهذا بإقرار الفوزان نفسه في كتابه السابق نفسه حيث قال: فإن العلماء رحمهم الله قد اهتموا بإعراب لا إله إلا الله - فقالوا: لا - نافية⁵. اهـ وفرق بين النفي والنهي، لأن النفي إخبار، والنهي إنشاء، فحين تقول: أنت لا تصلي بعد العصر، غير قولك: لا تُصَلِّ بعد العصر، فالأول إخبار يفيد أنك تعتقد أن مَنْ تخاطبه لا يصلي بعد العصر، والثاني: نهي عن الصلاة بعد العصر أي أنك تنهاه عن الصلاة بعد العصر، لذلك جزمت الفعل بحذف حرف العلة في الثاني دون الأول.

وكذا هنا في كلمة التوحيد فهي تخبر بنفي وجود إله سواه، ولا تأمر بشيء ولا تنهى عن شيء، ولكن بما أن الله أخبر بما فقال {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: 2]، وهو أنه لا إله إلا هو، فالواجب على المسلم هو أن يقولها ويعتقد مضمونها وهو عدم وجود إله سواه كما قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [مُجَد: 19]، "أي: إذا علمت أن مدار الخير هو التوحيد والطاعة، ومدار الشر هو الشرك والعمل بمعاصي الله، فاعلم أنه لا إله غيره ولا رب سواه، والمعنى: اثبت على ذلك واستمر عليه، لأنه ﷺ قد كان عالماً بأنه لا إله إلا الله"⁶. اهـ "فاعلم يا مُحَمَّد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة، ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه"⁷.

¹ تيسير العزيز الحميد لحفيد ابن عبد الوهاب ص 177

² تيسير العزيز الحميد لحفيد ابن عبد الوهاب ص 183

³ تيسير العزيز الحميد لحفيد ابن عبد الوهاب ص 148

⁴ معنى لا إله إلا الله - الزركشي (ص: 73)، وانظر الجدول في إعراب القرآن (2/ 323)

⁵ معنى لا إله إلا الله ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع، للفوزان (ص: 16).

⁶ فتح القدير للشوكاني (5/ 43)

⁷ جامع البيان ط هجر (21/ 208)

وهذه الآية . أي فاعلم أنه لا إله إلا الله . دليل آخر على أن شهادة التوحيد هي خبر وعقيدة وليست عملاً، ولذلك نجد البخاري قد "بوّب في كتابه: باب العلم قبل القول والعمل لقول الله عز وجل: فاعلم أنه لا إله إلا الله"¹. "قال ابن المنير: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل فنّبّه المصنف على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم إن العلم لا ينفع إلا بالعمل تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه"²، "وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به "فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك" فأمر بالعمل بعد العلم"³.

المبحث الثاني: اشتمال الشهادتين على كل العقائد

إن العلماء من كل المذاهب ولاسيما المتكلمين فسّروا كلمة التوحيد بلا معبود بحقّ إلا الله⁴. وكذا كثير من السلفية كما سبق⁵. ولم يقولوا بأن معناها المطابقي هو النهي عن عبادة غير الله! نعم تفسيرها بـ "لا معبود بحقّ إلا الله" يقتضي ويلزم منه النهي عن عبادة غيره تعالى، ولكن نحن لا نتكلم هنا عن مقتضى الشهادة ولا عن لوازمها ولا عما يستتبط منها! لأن هذا شيء آخر يطول جداً، فإن كلمة التوحيد يلزم منها لوازم كثيرة وتحتوي معان كثيرة جداً، فمثلاً يقول الصاوي: "لا إله إلا الله تفيد ثبوت الألوهية لله أي العبودية بحق.. فمعنى لا إله إلا الله المطابقي: لا معبود بحق إلا الله، ومعناها الالتزامي: لا مستغن عن كل ما سواه ومفتقر إليه كل ما عداه إلا الله.. والمنفّي هو المعبود بحق غير الله في ذهن المؤمن وفي نفس الأمر، لا ذهن الكافر"⁶.

1 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (9/ 399)، وانظر: صحيح البخاري بتحقيق البغا (1/ 37).

2 فتح الباري (1/ 160)، عمدة القاري (2/ 58)

3 الجامع لأحكام القرآن (19/ 267)، والأثر في حلية الأولياء (7/ 285) ولفظه: سئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال ألم تسمع الى قوله حين بدأ به فقال فاعلم أنه لا إله إلا الله ثم أمره بالعمل فقال واستغفر لذنبك وهو شهادة أن لا إله إلا الله لا يغفر إلا بها من قالها غفر له. وانظر: فتح الباري (1/ 160).

4 يُنظر كتابي: تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله ص (223)

5 انظر: ص (396) عند قولي: (لا معبود بحق إلا إله واحد)

6 حاشية الصاوي على الجوهرة ص44

وليس هذا فحسب، بل إن بعض العلماء استنبطوا منها كل صفات الله بل كل علم العقائد!!
 وذكروا بأنها بحر لا ساحل له كما سنرى، ولذا قال العلامة اللقاني في جوهرة التوحيد في البيت الثاني
 والستين، وذلك بعد أن بيّن في الأبيات السابقة كلها ما يجب لله وما يستحيل عليه وما يجوز له، وكذا
 الواجب والجائز والمستحيل على الرسل عليهم السلام:

وَجَامِعٌ مَعْنَى الَّذِي تَقَرَّرَا ... :شَهَادَاتَا الْإِسْلَامِ فَاطْرِحَ الْمِرَا¹

قال الشيخ الصفاقسي فقال: (وجامع معنى الذي تقررا) لك من الإلهيات والنبويات (شهادتا
 الإسلام) اللتين لا يقبل من أحد الإيمان ولا يحصل الإسلام إلا بهما². اهـ وهذا نصّ عليه الناظم نفسه
 في شرحه الصغير فقال: والمعنى أن الشهادتين جمعتا جميع العقائد الإيمانية الواجبة الاعتقاد شرعا،
 سواء تعلقت بالله تعالى أو برسله أو بكتبه أو بالجنة والنار، أو بشيء من المغيبات التي وردت بها
 الأخبار، وسواء رجعت للواجب العقلي أو للممتنع العقلي أو للجائز العقلي³. اهـ

وقال في الخريدة البهية:

وَيَنْطَوِي فِي كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ * مَا قَدْ مَضَى مِنْ سَائِرِ الْأَحْكَامِ

فَأَكْثَرُنَ مِنْ ذِكْرِهَا بِالْأَدَبِ * تَرَقَّى بِهَذَا الذِّكْرِ أَعْلَى الرَّتَبِ⁴

أي "واعلم أن كلمة الإسلام (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، ينطوي في معناها جميع ما مرّ
 ذكره من الأحكام، ولذا جعلها الشارع ترجمة على ما في القلب. ولذا كانت أفضل الأذكار"⁵، فإن قيل:
 كيف ينطوي في معناها جميع ذلك مع قصر لفظها؟ أجاب العلامة الصاوي فقال: "يعني تصريحا
وتلويحا"⁶.

1 جوهرة التوحيد مع شرح الناظم عليها (هداية المرید) (1/ 721)، ت مروان البجاوي، دار البصائر بالقاهرة، ط1/ 2009م

2 تقريب البعيد إلى جوهرة التوحيد للشيخ علي بن محمد صفاقسي (ص: 74).

3 هداية المرید لجوهرة التوحيد 1/ 722 .

4 مجموع الحواشي السننية على شرح الخريدة البهية (ص: 728)، تحقيق د. محمد نصار، دار الإحسان بالقاهرة، ط1/ 2018م.

5 مختصر شرح الخريدة البهية للشيخ د. سعيد فودة (ص: 43)

6 حاشية الصاوي من مجموع الحواشي السننية على شرح الخريدة البهية (ص: 728).

هذا كله فضلا عن أن الله إله واحد ولا إله سواه بغضّ النظر عبّد أو لم يعبد، عبّد وحده أو عبده معه سواه، بل هو تعالى إله من الأزل حيث لا عباد يعبدونه ولو كان معنى الشهادة أنه المعبود بحق، أو أنه لا تنبغي عبادة ما سواه لما صدق كونه إلهًا من الأزل كما سبق بيانه.

قال الطبري: {يا قوم اعبدوا الله} [الأعراف: 59] الذي له العبادة، وذّلوا له بالطاعة واخضعوا له بالاستكانة، ودعوا عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنه ليس لكم معبود يستوجب عليكم العبادة غيره¹. وقال الشوكاني: قوله {ما لكم من إله غيره}، هذه الجملة في حكم العلة لقوله "اعبدوا" أي: اعبدوه لأنه لم يكن لكم إله غيره، حتى يستحق منكم أن يكون معبوداً².

ومثّل من يفسر لا إله إلا الله بأنه لا عبادة إلا لله، كمثل من يفسر: لا خالق إلا الله، وأن معناها المطابقي: لا مخلوقات إلا لله، فهذا تحريف للكلام وتلاعب به لأنه تفسير لاسم الفاعل باسم المفعول! وقد أقرتم بأنه "لا يصح تفسير اسم الفاعل باسم المفعول" 3، وذلك كمن يفسّر "القاتل" بالمقتول في قولنا: زيد قاتل! فيقول معناه: زيد مقتول! فيجعل القاتل مقتولاً!

وكذا إذا فسرت قولنا: "لا قاتل إلا زيد" فقلت: معناه: لا مقتول إلا زيد! فهذا لا يقبل، فإن قلت: المراد بذلك أنه لا مقتول إلا لزيد؛ أي لا مقتول إلا وزيد قاتله! قلنا: أولاً: هذا لازم المعنى وليس هو المعنى المطابقي أو المنطوق، فمنطوق كلامك أنه لا يوجد قاتل سوى زيد، ولازمه أو مفهومه أنه لا مقتول إلا وقاتله زيد. ثانياً: إنك رجعت وأقررت بأن المراد هو "زيد قاتل" وحصر القاتلية فيه، بدليل قولك في نهاية الجملة "إلا وزيد قاتله" فلماذا هذا العدول وهذا التطويل!؟

وكذا لو قلنا: لا نجار إلا خالد ففسرناها بلا منجورات إلا لخالد، أي لا طاولة ولا باب ولا نافذة إلا وهي من صنعه، بدل أن تفسرها بأنه لا يوجد شخص نجار سوى خالد، وإن كان يلزم من كلامك أنه لا منجورات إلا وخالد صانعها.

¹ جامع البيان ط هجر (260 / 10)

² فتح القدير للشوكاني (246 / 2)

³ دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 344)

وكذا هنا في كلمة التوحيد فبينما كانت تعني "الاعتقاد بأنه وحده المعبود بحق" تحوّلت عندهم للكلام عن العبادات التي يجب صرفها إلى الله وحده، وإن كان هذا الأخير حق ولازم للأول ولكن هذا عمل ناتج من اعتقاد الأول ولازم له وليس أن هذا العمل . وهو عبادته تعالى وحده . هو عين منطوق كلمة التوحيد كما تزعمون.

فإن قيل: بل محتوى كلمة التوحيد كلا الأمرين وهو الاعتقاد والعمل، وليس أحدهما، ويضاف إلى ذلك النطق، فهذا هو الإيمان وهو مركب من ثلاثة أمور اعتقاد ونطق وعمل.

قلنا: نحن لا نتحدث الآن عن الإيمان ومعناه، هل هو التصديق أو الاعتقاد فحسب أو هو اعتقاد ونطق وعمل؟ وإنما نتكلم عن المعنى المطابقي لكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" هل هو اعتقاد أو عمل أو كلاهما؟ فإن قلتم بالأول؛ أي أن معناها المطابقي اعتقاد فلا كلام لأنه قولنا. وإن قلتم بالثاني أو الثالث فغير مسلم لما سبق بيانه، ولأن كلمة التوحيد لا تأمر بفعل شيء ولا تنهى عن فعل شيء، فهي بمعناها المطابقي طبعاً. لا تأمر بعبادته تعالى ولا تنهى عن عبادة غيره، وإنما تنفي وجود إله معه تعالى، فهي خبر وليس إنشاء، وكون هذا يلزم منه ألا تعبد سواه فهذا أمر آخر، نعم جاءت نصوص صريحة في الكتاب والسنة تأمر بعبادته وحده دون سواه كقوله تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: 23]، وقوله {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} [هود: 2]، كما جاءت آيات تنفي إلهًا سواه كقوله {وَإِهْكُمُ إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [البقرة: 163]، وقوله {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: 2]، فينبغي عدم الخلط بين المدلول المطابقي لهذه الآيات، فأيتا الإسراء وهود تأمران بعبادته وحده دون سواه، وآيتا البقرة وآل عمران تنفيان وجود إله سواه.

والحاصل أن المعنى المطابقي لكلمة التوحيد هو اعتقاد أن لا إله سواه لا أن لا تعبد سواه، وإنما هذا عمل لازم لاعتقاد أنه لا إله سواه، والقول بأن معناها المطابقي هو أن لا نعبد سواه، فهو خلط بين المعنى المطابقي واللزومي، وهو أيضا تفرغ للكلمة من محتواها الاعتقادي كما سبق بيانه، وتفرغ كلمة التوحيد من محتواها الاعتقادي أمر باطل حتى عند الخصم لأن الاعتقاد عنده جزء من أجزاء الإيمان الثلاثة وهي الاعتقاد والنطق والعمل.

ولا يصح أن يقال: كونك لا تعبد سواه يلزم منه أنك تعتقد أنه لا معبود بحق إلا الله وإلا لعبدت غيره. لأننا نقول: هذا عكس للآية! إذ العاقل لا يعمل شيئاً إلا بناء على اعتقاد سابق وليس العكس، أي أن العاقل يعتقد ويخطط ثم يعمل وفقاً لاعتقاده وتخطيطه، وليس يعمل ثم يخطط! ولذا قال المتكلمون¹ أول واجب النظر في هذا الكون لتعلم افتقاره إلى صانع وخالق، ثم تعلم أنه خالق واحد ثم تعلم أنه لا ينبغي أن يعبد سواه، وذلك لأن "العبادة أعظم أنواع التعظيم، فهي لا تليق إلا بمن صدر عنه أعظم أنواع الإنعام.. فإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله سبحانه وتعالى، وجب ألا تليق العبادة إلا بالله سبحانه"⁽²⁾.

وأما ابن تيمية فعكس الآية وقال بل أول واجب شهادة أن لا إله إلا الله، والتي معناها عنده أن لا تعبد سواه، فإن عبدت سواه فهذا يعني أنك تعتقد أن هذا المعبود الآخر إله سوى الله، لأن هذا نقض لشهادة أن لا إله إلا الله!! وأما عدم عبادتك لغير الله فهذا يلزم منه أنك تعتقد أنه لا خالق سواه تعالى، لأن العبادة لا تكون إلا للخالق فقط، وهذا يتضمن بالضرورة أنك - بعبادة الله وحده - تعتقد بوجود صانع واحد، وبذلك صار توحيد الألوهية عندهم مغنياً عن توحيد الربوبية! لأن الأخير - أي توحيد الربوبية - متضمن في الأول أي في توحيد الألوهية!! ولذا يقولون إنك إن حققت توحيد الألوهية فإنك لا محالة ستحقق توحيد الربوبية، دون عكس أي قد تحقق توحيد الربوبية دون توحيد الألوهية كما هو الحال في مشركي قريش وغيرهم!!

قال وليد . أيده الله . : كذا قالوا، ولكن هذا عكس للآية، أو كما يقال هو وضع للعربة أمام الحصان، وفضلاً عن ذلك من قال إنَّ عدم عبادتك لغير الله يلزم منه أنك تعتقد أنه لا معبود بحق، وأنه لا يستحق العبادة سواه؟ ليس بالضرورة ذلك فأنت عندما لا تتصدق إلا على فقير بعينه في عمرك كله هل هذا يعني أنه لا يوجد فقير سواه؟ أو هل يعني ذلك أنك لا تعتقد بوجود فقير سوى هذا الذي

1 «الإرشاد للجويني (ص: 3)»، المحصل للرازي: 44 ، مجرد مقالات الاشعري لابن فورك: 248، «البحر المحيط في أصول الفقه» للزركشي (1/ 72)، «فتح الباري لابن حجر» (13/ 349)، «حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني» (1/ 48)، «التحبير شرح التحرير» للمرادوي (2/ 737)، «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (3/ 934).

(2) مفاتيح الغيب (17/ 62)، وانظر: تقسيم التوحيد في الميزان ص21، بقلم عبد الله بن عبد الرحمن المكِّي، دار النور المبين.

تتصدق عليه؟ ليس من الضروري لأنك قد تعتقد بوجود فقير سواه يستحق الصدقة، ولكن ترى أن من سواه مكفي من أقربائه، أو أن هذا الذي تتصدق عليه مقدّم عليهم لتقواه أو لكونه طالب علم ونحو ذلك.

وكذا لو قال لك والدك: لا تحسن إلا لصديقك خالد، أو إلا لجارك رشيد، فهل هذا يعني أنه لا صديق لك سوى خالد، ولا جار لك سوى رشيد؟ وهل هذا يعني أن لا أحد من أصدقائك ولا من جيرائك يستحق الإحسان؟ وهل تظن أن والدك قصد هذا أو دار ذلك بخلده؟! أقلّ ما يقال هنا: ليس بالضرورة أن يقصد والدك ذلك، بل ربما أراد أنه لا أحد من أصدقائك ولا من جيرائك يستحق الإحسان أكثر من خالد ورشيد، أو أنه يرى أن من سوى خالد ورشيد ثمة من يحسن إليهم سواك.

نعم لو قال لك والدك: لا أحد يستحق الإحسان والزيارة سوى صديقك خالد أو سوى جارك رشيد، أو قال: لا صديق لك إلا خالد ولا جار لك إلا رشيد، فهنا انتهى الكلام لأنه كلام صريح، بل هو محتمل لأنه قد يريد لا جار لك كامل إلا رشيد كما قال الشراح في الحديث المشهور: "لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد"¹، فقد "أريد به نفي الكمال المستحب"²، «وقد تمسك بظاهره الظاهرية على أن الجماعة واجبة ولا حجة فيه بفرض صحته، لأن النفي المضاف إلى الأعيان يحتمل أن يراد به نفي الإجزاء ويحتمل نفي الكمال وعند الاحتمال يسقط الاستدلال»³.

وعليه فإنه ليس من الضروري حين لا تعبد سواه تعالى أنك تعتقد بأنه لا يستحق العبادة سواه، بل يحتمل أنك تعتقد بوجود معبود بحق سواه، ولكن أنت فضّلت أن تعبده دون سواه لما سبق بيانه،

1 قال الإمام السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص 726 ت الخشت): «حديث: لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد، الدارقطني والحاكم والطبراني فيما أملاه، ومن طريقه الديلمي عن أبي هريرة، والدارقطني أيضا عن جابر عن علي، كلاهما به مرفوعا، وابن حبان في الضعفاء عن عائشة، وأسانيدها ضعيفة، وليس له كما قال شيخنا في تلخيص تخريج الرافعي إسناد ثابت، وإن كان مشهورا بين الناس، وقد قال ابن حزم: هذا الحديث ضعيف، وقد صح من قول علي انتهى، وهو عند الشافعي من طريق أبي حيان التيمي عن أبيه عن علي»

2 «مجموع الفتاوى» (34/7)، «تحفة الأحوذى» (93/1)

3 «فيض القدير» (6/431)، للإمام زين الدين المناوي، المكتبة التجارية الكبرى - مصر

تماما كما أنك حين فضّلت أن تتصدق على ذلك الفقير سوى غيره، لا لأنك تعتقد أنه الوحيد المستحق للصدقة، وإنما لأنك وجدته الأجدر بالصدقة لتقواه أو لكبر سنه ونحو ذلك. فثبت أنه لا يلزم بالضرورة من كونك لا تعبد سواه أنك لا تعتقد أن سواه لا يستحق العبادة، ولو سلمنا ذلك لما لزم منه توحيد الربوبية، أي ربما لا تعبد سواه تعالى وتعتقد أنه لا يستحق العبادة سواه، ولكن هذا لا يلزم منه بالضرورة أنك تعتقد أن الخالق واحد، وهذا أقرّ به بعض السلفية فقال: ويمكن أن..يعتقد أن المستحق للعبادة واحد، ولا يعتقد وحدانية الرب، بل يقول إن الأرباب كثيرة متفرقة، ويمكن أن يجتمعا في مادة واحدة كمن يعتقد أن الرب والإله واحد"¹.

إقرار ابن عثيمين أن الشهادة خبر لا إنشاء

إذن قول القائل: "لا رجل في الدار إلا أحمد" هو خبر لا إنشاء، أي منطوقه الإخبار بعدم وجود أحد من الرجال سوى أحمد، وليس منطوقه إنشاء، أي ليس هنا منطوقه النهي، بمعنى: لا تنسبوا الرجولة لأحد في الدار إلا لأحمد، وإنما هذه دلالة تبعية أو لزومية ربما، وعليه "فيقال في مثل: لا إله إلا الله، ولا عالم إلا زيد: إن الخبر (مُقَدَّر)، والمعنى: لا إله في الوجود إلا الله، ولا عالم في الدنيا إلا زيد"². وتعالوا نسوق كلام ابن عثيمين هنا حيث يقول: (لا التي لنفي الجنس)، أي: لنفي جنس مدخولها، وتكون في ذلك نصاً في العموم؛ لأنك إذا قلت: لا رجل في البيت، فالمعنى: لا يوجد هذا الجنس في البيت، لا واحد ولا اثنان ولا أكثر، فتنفي الجنس، ولهذا قالوا: إنها نص في العموم، بخلاف ما إذا قلت: لا رجل في البيت، فإنه ليس نصاً في العموم، إذ يحتمل أن المعنى: لا رجل واحد في البيت، أما إذا قلت: لا رجل في البيت، فلا يمكن أن تقول: بل رجلان، أما إذا قلت: لا رجل في البيت، فيصح أن تقول: بل رجلان. ف (لا) إذا لنفي الجنس، أي: لنفي جنس مدخولها الشامل للواحد والمتعدد³. اهـ

¹ صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان (ص: 448).

² شرح ألفية ابن مالك للشاطبي = المقاصد الشافية (2/ 414)

³ شرح ألفية ابن مالك للعثيمين (2/ 27، ت.ش)

تفسير شهادة التوحيد بأن لا تعبد سواه خطأ من وجهين

والخلاصة أن تفسير كلمة التوحيد لا إله إلا الله بألا تعبد سواه: خطأ من وجهين، الأول: أن هذا خلط بين معناها المطابقي ومعناها اللزومي، الثاني: أنه تفرغ لكلمة التوحيد من محتواها الاعتقادي إلى محتوى عملي! وهذا باطل حتى عند الخصم.

وقولكم بأن عبادة الله وحده دون سواه يلزم منه اعتقاد أنه لا معبود سواه: لا يستقيم لسببين؛ الأول: لأنه عكس للآية يجعل العمل سابق على الاعتقاد، والصحيح أن الاعتقاد سابق على العمل كما سبق بيانه. الثاني: إن هذا الذي جعلتموه لازماً هو غير لازم في حقيقة الأمر؛ حيث زعمتم أنه يلزم من كون المكلف لا يعبد إلا الله أنه بذلك يعتقد أنه لا معبود بحق سواه! فهذا غير لازم بالضرورة؛ لأنك قد تعبد وحده ولا تعتقد بالضرورة أنه وحده المعبود بحق، تماماً كما لو خصصت الصدقة فقيراً بعينه طول عمرك فهذا لا يلزم منه بالضرورة أنك لا تعتقد بوجود فقير سواه، كما بيّنا سابقاً.

ثم إن تفسيرها بلا معبود بحق إلا الله لا يلزم منه أن تفسيرها بلا خالق إلا الله: تفسير خاطئ كما زعمتم، بل كلا التفسيرين صحيح، لأن المعبود بحق حسب التفسير الأول هو نفسه الخالق إذ لا يكون معبوداً بحق إلا إن كان خالقاً كما أقررتم بذلك في نصوص كثيرة سبق نقلها⁽¹⁾، ومن جهة أخرى فإن الإنسان لا يعبد إلا من يتخذه ربا، ولا يتخذ ربا إلا من يعبد، إذ لا يستحق العبادة والتأليه إلا من كان ربا، ولا معنى لأن نعبد من لا نعتقد فيه أنه رب ينفع ويضر..⁽²⁾ وهذا أقررتم به فقلتم بأن "من صرف شيئاً من العبادة إلى غير الله فقد اتخذها إلهاً رباً.. لأن الربوبية من لوازم الإلهية، فنفي أحدهما نفي للآخر، وإثبات أحدهما إثبات للآخر"⁽³⁾.

ولهذين السببين نجد العلماء - كما نقلنا نصوصهم من قبل - تارة يفسرون كلمة التوحيد بالتفسير الأول وهو أنه لا معبود بحق إلا الله⁽⁴⁾، وتارة بالتفسير الثاني وهو أنه لا خالق إلا الله⁽¹⁾، بل أحيانا تجد

(1) انظر كتابنا: تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله ص (396)

2 مجلة نور الإسلام، المجلد الرابع، مقال بعنوان "توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية" للعلامة يوسف الدجوي ص 255، 256.

(3) صيانة الإنسان للسهبواني (ص: 450)

⁴ انظر كتابنا: تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله ص (224)

العالم الواحد يفسرها بهذا التفسير تارة، وبهذا تارة، وربما بتفاسير أخرى قريبة. وأضرب على ذلك بعلمين من الأشاعرة وهما الفخر الرازي والصابوي.

يقول الرازي إن ظاهر هذه الآية يدل على أن الإله هو الذي يستحق العبادة لأن قوله: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إثبات ونفي فيجب أن يتواردا على مفهوم واحد حتى يستقيم الكلام، فكان المعنى اعبدوا الله ما لكم من معبود غيره حتى يتطابق النفي والإثبات، ثم ثبت بالدليل أن الإله ليس هو المعبود وإلا لوجب كون الأصنام آلهة وأن لا يكون الإله إلهها في الأزل لأجل أنه في الأزل غير معبود فوجب حمل لفظ الإله على أنه المستحق للعبادة². اهـ فهنا يفسر الإله بالمستحق للعبادة، فصار معنى الشهادة: لا مستحق للعبادة إلا الله.

ولكن في مواضع يفسر الإله بالخالق والرب، ويفسر الإلهية بالربوبية وبالخالقية وبالقدرة على الاختراع، فمثلاً يقول: إن موسى عليه السلام لما قال: إني رسول رب العالمين، قال فرعون وما رب العالمين، فاحتج موسى عليه السلام على إثبات الإلهية بقوله رب السماوات والأرض³. اهـ ونحوه ما وقع في آخر تفسير الرازي عند قوله تعالى اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم: احتج الأصحاب بهذه الآية على أنه لا خالق غير الله تعالى، قالوا: لأنه سبحانه جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله تعالى عن سائر الذوات، وكل صفة هذا شأنها فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها، قالوا: وبهذا الطريق عرفنا أن خاصية الإلهية هي القدرة على الاختراع، ومما يؤكد ذلك أن فرعون لما طلب حقيقة الإله، قال: وما رب العالمين؟ قال موسى: ربكم ورب آبائكم الأولين، والربوبية إشارة إلى الخالقية التي ذكرها هاهنا، وكل ذلك يدل على قولنا⁴. اهـ

(1) انظر كتابنا: تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله ص (413)

² مفاتيح الغيب (14 / 296)

³ مفاتيح الغيب (7 / 22)

⁴ مفاتيح الغيب (32 / 217)

وأما الصاوي فيقول مثلاً: حقيقة الإله هو المستغني عمّا سواه، المفتقر إليه كل ما عداه¹. ومرة فسّر "الإله" بأنه "الخالق لكل شيء"². ومرة قال: "لا إله إلا الله تفيد ثبوت الألوهية لله أي العبودية بحق.. فمعنى لا إله إلا الله المطابقي: لا معبود بحق إلا الله، ومعناها الالتزامي لا مستغن عن كل ما سواه ومفتقر إليه كل ما عداه إلا الله.. والمنفّي هو المعبود بحق غير الله في ذهن المؤمن وفي نفس الأمر، لا ذهن الكافر"³.

فأنت ترى أن الرازي والصاوي فسّرا الإله في كلمة التوحيد مرة بالمعبود بحق أو المستحق للعبادة، ومرة بأنه الرب الخالق، وفسّرا الإلهية بالربوبية والخالقية والقدرة على الاختراع لا باستحقاقه للعبادة، وهذا ليس اضطراباً منهما؛ بل تمام الاتساق والتوافق لأن المعبود بحق أو المستحق للعبادة هو الخالق القادر على الاختراع، وكل معبود لا يقدر على الخلق والاختراع فليس بإله بنصّ ابن تيمية نفسه ونصوص أتباعه كما بسطنا ذلك مراراً⁴، فلا تنافي ولا تغاير بين التفسيرين بل هما متلازمان، وبالتالي فلا حاجة إلى تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية.

ثانياً: وأما ما ذكرتم من أن تفسير كلمة التوحيد بلا خالق إلا الله يلزم منه أن المشركين موحدون ناجون لأنهم يشهدون أنه لا خالق ولا رب إلا الله، فهذا غير صحيح لأنه مبني على أن المشركين موحدون في الربوبية، وهذا ما نقضناه من حوالي عشرين وجهاً، ونقلنا إقرار كثير من السلفية بذلك. وكذا ما ذكرتم من أنه لو فسّرت كلمة التوحيد بذلك لما كان بين المشركين وبين الرسول خلاف، ولما كان ثمة سبب ليستحلّ دماءهم، فهذا مما تضحك منه الثكلى، وهذا ما نقضناه أيضاً وبيننا أن المشركين كفروا وأشركوا من وجوه كثيرة سوى ما يسمى بقضية توحيد الألوهية، وأتينا بما لا يحصى عدداً من الآيات التي تثبت ذلك، أصلاً هم كذبوه قبل أن يعرض عليهم كلمة التوحيد كما سبق بيانه.

1 حاشية الصاوي على الجلالين 280/1

2 حاشية الصاوي على الجلالين 34/2

3 حاشية الصاوي على الجوهرة ص 44

4 تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله ص (396)

ثالثاً: وأما تفصيلكم لأنواع العبادات في تفسيركم لكلمة التوحيد كقول ابن عبد الوهاب: "قاتلهم ليكون الدعاء كله لله ، والنذر كله لله ، والاستغاثة كلها بالله ، وجميع أنواع العبادات كلها لله.. وهذا التوحيد هو معنى قولك (لا إله إلا الله)"¹. فكلام ابن عبد الوهاب هذا ومن نحنا نحوه بذكر بعض أنواع العبادات في تفسير كلمة الشهادة: أشد بطلانا من كلام الفوزان ومن نحنا نحوه، فذكر أن معنى الشهادة هو ألا تصرف العبادة إلى غير الله، دون ذكر أمثلة ودون تفصيل للعبادة وأنواعها، أي أن من كلام من فصل بذكر أنواع العبادات في معنى كلمة التوحيد أشد بطلانا من كلام من لم يفصل واقتصر على أن معناها عدم صرف العبادة بشكل عام إلى غير الله، وإنما قلنا أشد بطلانا لعدة أسباب:

السبب الأول: هو ما سبق ذكره آنفاً، وهو أن كلمة التوحيد هي خبر لا إنشاء، فهي تخبر أنه لا معبود بحق سوى الله أي على المرء أن يعتقد ذلك، وليست هي إنشاء وعمل، أي ليست أمراً بعبادته تعالى وحده ونهي عن عبادة ما سواه، فهي تخبر بوحداية المعبود ولا تأمر بالعبادة له دون سواه، وإن كان هذا لازماً وجاءت في آيات وأحاديث صريحة. وصنيع ابن عبد الوهاب هنا في تفسير كلمة التوحيد كما لو قيل: لا تجار إلا أحمد، فجاء وفسرها بأن معناها لا تنسبوا أي منضدة ولا باب ولا أي شيء يصنع من الخشب إلا لأحمد!

السبب الثاني: أن العبادة ليست محصورة في هذه الأمور وأمثالها بل كل طاعة هي عبادة لله، وقد عرف جمهور العلماء العبادة بأنها "الطاعة لله تعالى"، والطاعة موافقة الأمر"²، ولذلك تجد تعريف ابن تيمية للعبادة واسعاً جداً حيث قال بأن العبادة: "هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة؛ وبر الوالدين

1 كشف الشبهات لابن عبد الوهاب (ص: 16).

2 المجموع شرح المذهب (312 / 1)

وصلة الأرحام والوفاء بالعهود.. وأمثال ذلك من العبادة"1. ثم ذكر أمثلة أخرى، وهو "أحسن التعريفات كلها لفظاً ومعنى، وأشملها جمعاً ومنعاً، وأدقها طرداً وعكساً، وأوضحها كلا وجزءاً"2.

ونحوه قول الفخر الرازي: "العبادة: عبارة عن كل فعل وترك يؤتى به لمجرد أمر الله تعالى بذلك، وهذا يدخل فيه جميع أعمال القلوب وجميع أعمال الجوارح"3، "وهذا من أوضح تعريفات العبادة، لشموله جميع ما يصدر من العبد. استجابة لأمر الله. من الأفعال والتروك الظاهرة والباطنة"4.

وليس هذا فحسب بل الأمور الجبلية و"المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف"، لحديث مسلم "وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر"5، وجاء في حديث الشيخين⁶ "ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك"7، ففيه "أن الإنفاق على العيال يثاب عليه إذا قصد به وجه الله تعالى، وفيه أن المباح إذا قصد به وجه الله تعالى

1 مجموع الفتاوى (10/ 149)، الفتاوى الكبرى (5/ 155)

2 جهود علماء الحنفية (1/ 320) وص 1385 و 1386، وانظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: 14) القول السديد شرح كتاب التوحيد ط النفائس (ص: 61) لعبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، معارج القبول (1/ 84)، تيسير العزيز الحميد (ص:

137)، إغاثة المستفيد شرح كتاب التوحيد (1/ 39)، شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (1/ 40).

3 مفاتيح الغيب (10/ 75)، ط/ التراث. وثمة تعاريف أخرى أوردها الرازي حيث قال في مفاتيح الغيب (1/ 25): وأما قوله تعالى إياك نعبد وإياك نستعين فاعلم أن العبادة عبارة عن الإتيان بالفعل المأمور به على سبيل التعظيم للأمر، وفي قال في (1/ 208):

العبادة عبارة عن الفعل الذي يؤتى به لغرض تعظيم الغير. اه وفي (17/ 314): والعبادة عبارة عن إظهار الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل، وهذا لا يليق إلا بالخالق المدبر الرحيم المحسن، فثبت أن عبادة غير الله منكراً، والإعراض عن عبادة الله منكر. وفي (20/ 321): العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم.

4 جهود أئمة الشافعية في تقرير توحيد العبادة 1 / 156

5 صحيح مسلم (2/ 697)

6 صحيح البخاري - (4/ 1600)، برقم (4147)، كتاب المغازي، باب حجة الوداع. صحيح مسلم - (3/ 1250)، برقم

(1628)، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث.

7 صحيح البخاري بتحقيق البغا (3/ 1431)، صحيح مسلم (3/ 1251).

صار طاعة ويثاب عليه، وقد نبه ﷺ على هذا بقوله ﷺ حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك لأن زوجة الإنسان هي من أخص حظوظه الدنيوية وشهواته وملآذه المباحة، وإذا وضع اللقمة في فيها فإنما يكون ذلك في العادة عند الملاعبة والملاطفة والتلذذ بالمباح، فهذه الحال أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة وبرغم هذا أخبر ﷺ أنه إذا قصد بهذه اللقمة وجه الله تعالى حصل له الأجر بذلك، فغير هذه الحالة أولى بحصول الأجر إذا أراد وجه الله تعالى، ويتضمن ذلك أن الإنسان إذا فعل شيئاً أصله على الإباحة وقصد به وجه الله تعالى يثاب عليه، وذلك كالأكل بنية التقوي على طاعة الله تعالى والنوم للاستراحة ليقوم إلى العبادة نشيطاً والاستمتاع بزوجته وجاريته ليكف نفسه وبصره ونحوهما عن الحرام، وليقضي حقها، وليحصل ولدا صالحاً"1.

فأنت إذا نمت وأكلت وشربت تنوي التقوي على طاعة الله كقيام ليل وتلاوة ونحو ذلك، فأنت تعبد الله في أكلك وشربك ونومك، أما إذا أكلت وشربت ونمت تنوي أن تتقوى على معصية الله؛ بمعنى أنك تقصد بذلك التقوي على سهر الليل بالزنا أو الميسر أو شرب الخمر ونحو ذلك، فأنت بذلك صرفت النوم والأكل والشرب لغير الله! بل أكثر من ذلك لو جامع الرجل زوجته ليستعف بهذا عن الزنا فهو بجماعه يعبد الله تعالى لأنه يعفّ بذلك نفسه عن الزنا الذي نهى الله عنه، وبالتالي فلا معنى لأن تقول من صرف الدعاء والذبح والنذر لغير الله فقد أشرك، فهذا كلام سمج! أولاً: لأن هذه الأمور لا تكون عبادة إلا بنية العبادة وليس هي بذواتها عبادة، ثانياً: لأن كل الأفعال الجبلية إذا فعلت بنية العبادة فهي كذلك وإلا فقد صرفتها لغير الله.

(قول ابن القيم: لا يكون الفعل عبادة إلا بالنية والقصد)

السبب الثالث: أن حتى هذه الأمور التي ذكرتموها كالدعاء والنذر والذبح والطواف والسجود والحلف، وغيرها كالصلاة والصيام والحج والزكاة، لا تكون عبادة إلا بنية القربة والطاعة والعبادة، فإن فعلت لا بنية

1 شرح النووي على مسلم - (11 / 78)، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - (6 / 333) وهذا كله بسطناه في رسالة مستقلة بعنوان "قول أهل الإجازة في معنى العبادة".

العبادة بل بنية الاستهزاء مثلاً أو الرياء أو لغرض من أغراض الدنيا فليست عبادة! بل قد تكون إثماً يعاقب عليه، وربما تصل إلى الكفر كما في حال فعلها استهزاء.

وقد دل على ذلك أحاديث كثيرة كحديث الثلاثة . وهم عالم وكريم وشهيد . الذي تُسعر بهم النار لريائهم⁽¹⁾، وكحديث الشيخين : "الأعمال بالنية ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه"²؛ وفي ذلك يقول ابن القيم: أما العبادات فتأثير النيات في صحتها وفسادها أظهر من أن يحتاج إلى ذكره فإن القربات كلها مبناها على النيات، ولا يكون الفعل عبادة إلا بالنية والقصد، ولهذا لو وقع في الماء ولم ينو الغسل أو دخل الحمام للتنظيف أو سبح للتبرّد لم يكن غسله قرابة ولا عبادة بالاتفاق فإنه لم ينو العبادة فلم تحصل له..⁽³⁾ اهـ وليتضح الأمر أكثر نضرب مثالا على ذلك بالسجود.

(1) ولفظه في صحيح مسلم (3/ 1513): "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار".

² «صحيح البخاري» (1/ 30 ت البغا)، «صحيح مسلم» (6/ 48 ط التركية)

(3) إعلام الموقعين - (3 / 110)، ط/دار الجيل. وانظر: جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة ص 369.

المبحث الثالث: العبادات يشترط فيها نية العبادة

نبين في هذا المبحث أن العبادات وعلى رأسها السجود لا يكون عبادة إلا بنية العبادة، فقد زعم بعض السلفية أن من "سجد لآخر فقد اتخذه ربا وعبدته، وإن لم يسم سجوده عبادة والمسجود له ربا"⁽¹⁾، ولا سيما إذا كان السجود للكواكب والقبور فإن "السجود لذلك كفر"⁽²⁾ لأنه "لا يتأتى إلا عن عبادة وخضوع وتقرب فهو سجود شركي"⁽³⁾.

وحاصله أن السجود عبادة مطلقا، ولذلك من سجد لغير الله فقد عبده واتخذ ربا!! وبذا أشرك وكفر، ولا سيما إن كان السجود للقمر والكواكب! قال وليد . أصلح الله أمره في الدارين :. هذا غير صحيح بل السجود قد يكون عبادة وقد يكون للتحية والاحترام، والنية هي التي تحدد ذلك كما سنرى، كما أقرّ بذلك بعض السلفية أنفسهم، فقال: "القول بأن السجود لغير الله شرك مطلقاً، لأن مطلق السجود عبادة لا تصرف لغير الله ، فقول ضعيف"⁽⁴⁾ بل هذا باطل، والدليل على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: قوله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [البقرة: 34] ونحوه قوله { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى } [طه: 116] { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } [الحجر: 28 - 31]، ونحو ذلك من الآيات التي دلت على أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ولو كان مطلق السجود عبادة لكان معنى الآية أن الله أمر الملائكة أن يعبدوا آدم، وهذا ظاهر البطلان "إذ من المعلوم ضرورة أن الله تعالى لم يشرع لأي أحد أن يعبد غيره مهما كان، في أيّ

(1) جهود علماء الحنفية (3 / 1428).

(2) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (440/2) وكلامه بتمامه: "المدافن التي فيها نبي أو رجل صالح: لا يستحب تقبيلها ولا التمسح بها باتفاق الأئمة، بل منهي عن ذلك، وأما السجود لذلك فكفر".

(3) نواقض الإيمان القولية والعملية ص 18، وأول العبارة: لو سجد لشمس أو قمر أو قبر فمثل هذا السجود لا يتأتى..

4 انظر: "هل السجود والركوع على سبيل التحية من الشرك؟" وهو استفتاء على موقع سلفي وهو موقع الإسلام سؤال وجواب ، على الرابط:

<https://islamqa.info/ar/answers/229780> هل-السجود-والركوع-على-سبيل-التحية-من-الشرك

زمن من الأزمان"1 قال تعالى: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 28]، بل السجود المأمور به هنا هو "سجود تحية وتكرمة، لا سجود عبادة"². وقد اتفقت الأمة على أن السجود لآدم، لم يكن سجود عبادة"³. "ولا خلاف بين أحد من أهل الإسلام في أن سجودهم لله تعالى سجود عبادة، ولآدم سجود تحية وإكرام"⁴. وقال ابن تيمية: فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة له وقربة يتقربون بها إليه، وهو لآدم تشریف وتكريم وتعظيم"⁽⁵⁾. فهو سجود "تشریف وتكريم له"⁽⁶⁾. فلم يكن سجودهم له عبادة له، إذ لا يلزم من كل سجود أن يكون عبادة للمسجود له، بل كان سجودهم له طاعة لربهم، وامتنالا لأمره، حيث أمرهم بذلك"⁷.

ومنهم من تأوّل السجود لآدم فقال: "إن الملائكة لم يكن سجودها إلا لله تعالى، وإنما كان آدم عليه السلام قبلة السجود"⁸. لكن هذا ردّه ابن تيمية نفسه وهاجم القائل به إذ قال: "وقد قال بعض الأغبياء: إن السجود إنما كان لله وجعل آدم قبلة لهم يسجدون إليه كما يسجد إلى الكعبة، وليس في هذا تفضيل له عليهم، كما أن السجود إلى الكعبة ليس فيه تفضيل للكعبة على المؤمن عند الله بل حرمة المؤمن عند الله أفضل من حرمتها، وقالوا: السجود لغير الله محرّم بل كفر"⁽⁹⁾. ثم شرع ابن تيمية يرد هذا القول من وجوه كثيرة، منها قوله: والجواب: أن السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه بإجماع من يسمع قوله ويدل على ذلك وجوه: أحدها: قوله لآدم: ولم يقل: إلى آدم. وكل حرف له معنى ومن التمييز في

¹ شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 609

² جامع البيان (14 / 65).

³ أحكام القرآن لابن العربي (1 / 27).

⁴ الفصل في الملل والأهواء والنحل (2 / 129).

(5) مجموع الفتاوى لابن تيمية (4 / 360)

(6) مجموع الفتاوى لابن تيمية (4 / 358).

⁷ شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 605

⁸ شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 606

(9) مجموع الفتاوى لابن تيمية (4 / 358)

اللسان أن يقال: سجدت له وسجدت إليه¹.. كما قال تعالى: { لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون } وقال { والله يسجد من في السماوات والأرض }. وأجمع المسلمون على أن السجود لغير الله محرم، وأما الكعبة فقد كان النبي ﷺ يصلي إلى بيت المقدس ثم صلى إلى الكعبة، وكان يصلي إلى عنزة ولا يقال لعنزة.. والثاني: أن آدم لو كان قبلة لم يمتنع إبليس من السجود أو يزعم أنه خير منه، فإن القبلة قد تكون أحجارا وليس في ذلك تفضيل لها على المصلين إليها².

الوجه الثاني: السجود لسيدنا يوسف . عليه السلام . من قبل إخوته وأبيه يعقوب، وكانت هذه رؤيا كما في قوله تعالى { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } [يوسف: 4]، ثم تحققت رؤياه كما في قوله تعالى: { فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ أَمِينًا (99) وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا } [يوسف: 99، 100]، ويقال هنا ما قيل في آيات السجود لآدم وهو أن السجود في " (وخرّوا له سُجْدًا): ذلك السجود تشرفاً، كما سجدت الملائكة لآدم تشرفاً، ليس بسجود عبادة. وإنما عنى من ذكر بقوله: إن السجود كان تحية بينهم، أن ذلك كان منهم على الخلق، لا على وجه العبادة من بعضهم لبعض"³. "وقد كان هذا سائغا في شرائعهم؛ إذا سلّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى"⁴. "وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام، ألا ترى أن يوسف لو سجد لأبويه تحية لم يكره له؟"⁽⁵⁾. "أبو يوسف وإخوته خرّوا له

¹ مجموع الفتاوى (4 / 358)

² مجموع الفتاوى (4 / 358)

³ جامع البيان (13 / 356).

⁴ تفسير القرآن العظيم (4 / 412).

(5) مجموع الفتاوى لابن تيمية (4 / 360)

سُجِّدًا، ويقال كانت تحيتهم، فكيف يقال: إن السجود حرام مطلقاً؟ وقد كانت البهائم تسجد للنبي والبهائم لا تعبد الله¹، فكيف يقال يلزم من السجود لشيء عبادة؟!⁽²⁾.

والحاصل: إن "السجود الذي سجده الملائكة لآدم، وسجدة يعقوب وولده ليوسف عليهم السلام لم يكن سجود عبادة.. بل هو لم يُفعل إلا بإذن الله وتحقيقاً لأمره"³. وهذا "الذي لا شك فيه أنه لم يكن سجود عبادة ولا تذلل، وإنما كان سجود كرامة فقط؛ بلا شك"⁴. "ولو كان شركاً لما فعله أنبياء الله. ولا يقال هنا: إن هذا من شريعة من قبلنا، فإن الشرك لم يبح في شريعة قط، فالتوحيد لم تتغير تعاليمه وشرائعه منذ آدم إلى نبينا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ"⁵. "لأن قواعد العقائد لم تنسخ، وكذلك حفظ الكليات الخمس"⁶، "أن الأديان الإلهية لا تناسخ بينها فيما بينها من الأمور التي لا يتناولها النسخ بل هي متحدة في العقائد وأمّهات الأخلاق وأصول العبادات والمعاملات وفي صدق الأخبار المحضة فيها صدقاً لا يقبل النسخ والنقض"⁷.

الوجه الثالث: ما ورد من هم الصحابة رضي الله عنهم من السجود للرسول، بل سجد بعضهم له فعلاً، وبيان ذلك، أما هم الصحابة بالسجود له، فقد جاء عن معاذ بن جبل: أنه لما رجع من اليمن، قال: يا رسول الله، رأيت رجالاً باليمن يسجد بعضهم لبعض، أفلا نسجد لك؟ قال: "لو كنت أمراً بشراً يسجد لبشر،

1 كذا في المطبوع من مجموع الفتاوى (4 / 360) ط/ الملك فهد! ولعل الأصح: والبهائم لا تعبد إلا الله، لعموم قوله تعالى:

سَمِعَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ سَجَى [الإسراء: 44] ، كما أشار إلى ذلك بعض الفضلاء.

والله أعلم

(2) مجموع الفتاوى لابن تيمية (4 / 360)

3 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 606

4 محاسن التأويل (6 / 250).

5 انظر مقال: "هل السجود والركوع على سبيل التحية من الشرك؟"

6 إرشاد الفحول: 1 / 353.

7 مناهل العرفان في علوم القرآن (2 / 213)، وانظر بحثاً في مجلة البحوث الإسلامية (29 / 207) بعنوان النسخ في القرآن الكريم،

إعداد: عبد الله بن حمد الشبانية .

لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها"1، وإنما قال ذلك "لعظم حقه عليها، ومعلوم أنه لم يقل: لو كنت أمرا أحدا أن يعبد"2.

وروى أحمد عن أنس قصة، وفيها: "فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خرّ ساجدا بين يديه.. فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك. فقال: لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر.."(3)، فدلت القصة على أنه "قد كانت البهائم تسجد للنبي"(4).

وأما أن بعض الصحابة ﷺ سجد فعلا، فعن عبد الله بن أبي أوفى، قال: لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ، فقال: "ما هذا يا معاذ؟" قال: أتيت الشام فوافقتهم⁵ يسجدون لأسافقتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال رسول الله ﷺ: "فلا تفعلوا، فإنني لو كنت أمرا

1 مسند أحمد ط الرسالة (36/ 312)، وقال محققوه: صحيح لغيره.

2 مجموع الفتاوى (4/ 360)

(3) وقد صحح إسنادها محققو المسند، ط الرسالة (20 / 64)، فقالوا: ورواه البزار كما في مجمع الزوائد 9 / 4، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير حفص ابن أخي أنس وهو ثقة. وقال المنذري: رواه أحمد بإسناد جيد رواه ثقات. قال الألباني في إرواء الغليل (7 / 55): وهو كما قال لولا أن خلف بن خليفة - وهو من رجال مسلم وشيخ أحمد فيه - كان اختلط في الآخر فلعل أحمد سمعه منه قبل اختلاطه. اهـ قال وليد: كذا قال الألباني وفي كلامه أوهام: فأولا: ابن خليفة ليس شيخ أحمد في هذا الحديث وإنما شيخه هو حسين بن بهرام رواه عن ابن خليفة هذا كما في مسند أحمد ط/ الرسالة، وصرح محققو المسند أنه قد سقط "حسين" هذا في بعض نسخ المسند. ثانيا: إن أحمد لم يسمع من ابن خليفة قبل اختلاطه، إذ لقبه أحمد في آخره عمره بعدما كبر وفلج واختلط، وقد صرح أحمد بذلك فقال: قد أتيت فلم أفهم عنه. كما في تهذيب الكمال (8 / 287)، ثم إن أحمد التقى به سنة 180هـ، وتوفي ابن خليفة سنة 181 هـ على الراجح، أي مات بعد لقاء أحمد به بعام، فكيف يسمع منه قبل الاختلاط؟ انظر: تهذيب التهذيب 3/ 151، ميزان الاعتدال 1/ 659، لسان الميزان 7/ 210، الاغتباط بمن رمي من الرواة بالاختلاط لسبط ابن العجمي ص 114. (4) مجموع الفتاوى لابن تيمية - (4 / 360)

5 كذا وقع «فوافقتهم» في «سنن ابن ماجه» (1/ 595 ت عبد الباقي)، ومثله في «سنن ابن ماجه» (3/ 59 ت الأرنؤوط)، وكذا في «حاشية السندي على سنن ابن ماجه» (1/ 570)، ووقع في «تهذيب سنن أبي داود - ط عطاءات العلم» (1/ 456): «فوافقتهم»، وكذا في «نبيل الأوطار» (6/ 247)، وفي «تحفة الأحوذى» (4/ 272)، وفي «عون المعبود وحاشية ابن القيم» (6/ 125).

أحدا أن يسجد لغير الله، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها.. (1). ففي الحديث "نهيه لمعاذ بن جبل أن يسجد لما قدم من الشام وسجد له سجود تحية"².

هذا وللحافظ الذهبي كلام رائع حول هذا الحديث، يجدر بنا أن نسوقه لمناسبته للمقام، فهو يقول في سياق كلامه عن جواز تقبيل قبر النبي ﷺ لزارته: وهذه الأمور لا يحركها من المسلم إلا فرط حبه للنبي إذ هو مأمور بأن يحب الله ورسوله أشد من حبه لنفسه وولده والناس أجمعين.. ألا ترى الصحابة من فرط حبهم للنبي قالوا: ألا نسجد لك؟ فقال: لا، فلو أذن لهم لسجدوا له سجود إجلال وتوقير لا سجود عبادة كما قد سجد إخوة يوسف عليه السلام ليوسف، وكذلك القول في سجود المسلم لقبر النبي على سبيل التعظيم والتبجيل لا يكفر به أصلا بل يكون عاصياً، فليعرف أن هذا منهي عنه، وكذلك الصلاة إلى القبر⁽³⁾. اهـ

الوجه الثالث: إن السجود لله قد يكون معصية يعاقب عليه المكلف وليس عبادة يتقرب بها إليه ويثاب عليها، وذلك فيما لو كان السجود لله رياء، وقد دل على ذلك حديث البخاري الطويل يوم القيامة وفيه: (فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقا واحدا)⁽⁴⁾، وقوله " (رئاء) أي ليراه الناس و (سمعة) أي ليسمعونه"⁽⁵⁾ و (طبقاً

(1) سنن ابن ماجه (59 / 3) قال محققه الأرنؤوط: صحيح لغيره، والحديث أخرجه أيضا ابن حبان في صحيحه (9 / 470) ولفظه: " لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله ﷺ" وقال الأرنؤوط محقق الإحسان: إسناده حسن، وأخرجه أحمد في مسنده (32 / 145) ط/ الرسالة، وقال محققو المسند: حديث جيد، وقال الألباني في إرواء الغليل (7 / 56): وهذا إسناد حسن، هذا وقد سرد الألباني شواهد لهذا الحديث عن عدد من الصحابة.

2 جامع المسائل (1 / 25).

(3) معجم الشيوخ أو المعجم الكبير 73/1، للحافظ محمد بن أحمد الذهبي (ت 748)، تحقيق محمد حبيب الهيلة، مكتبة الصديق بالطائف، ط 1/1988 م. ومن طبعة دار الكتب العلمية 56/1.

(4) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب يوم يكشف عن ساق، حديث: 4638.

(5) "ليسمعونه" كذا بالنون وقعت في المطبوع من الكواكب الدراري للكرماني (18 / 163)، وكذا وقع في عمدة القاري (19 / 370)، وكذا أيضا في اللامع الصبيح للبرماوي (12 / 522)، ولكن الصواب حذفها كما هو واضح لأنه الفعل منصوب بلام السببية، وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، ووقع في إرشاد الساري للقسطلاني (10 / 404): ليراه الناس (وسمعة) ليسمعهم. اهـ والله أعلم

واحداً) أي لا ينثني للسجود ولا ينحني له" (1)، "ويختر كل منافق على قفاه، ويجعل الله تعالى أصلاً بهم كصيامي (2) البقر، وفي رواية: ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن في ظهورهم السفافيد فيذهب بهم إلى النار" (3). اهـ

فتبين من ذلك أن السجود لله رياء هو معصية يعاقب عليها المكلف هذه العقوبة الشديدة، ولو كان السجود لله عبادة مطلقاً لأثبوا عليه ولم يعاقبوا، وبالمقابل فقد كان سجود الملائكة لآدم طاعة لله. إذن فليس السجود بحد ذاته عبادة ولا السجود لشيء عبادة له، بل ابن تيمية نفسه استنكر ذلك فقال: "فكيف يقال يلزم من السجود لشيء عبادته" (4).

الوجه الرابع: أن التفريق بين سجود التحية وسجود العبادة هو ما عليه جمهور العلماء من مختلف المذاهب، وفيما يلي سرد بعض النصوص في ذلك:

(1) قال فخر الدين الزيلعي: "وما يفعلون من تقبيل الأرض بين يدي العلماء: فحرام، والفاعل والراضي به: آثم؛ لأنه يشبه عبادة الوثن.

(2) وذكر الصدر الشهيد: أنه لا يكفر بهذا السجود؛ لأنه يريد به التحية" (5).

(3) وقال ابن نجيم الحنفي: "والسجود للجبابرة: كفر، إن أراد به العبادة؛ لا إن أراد به التحية، على قول الأكثر" (6).

(4) وقال النووي: "ما يفعله كثير من الجهلة من السجود بين يدي المشايخ.. ذلك حرام قطعاً بكل حال، سواء كان إلى القبلة أو غيرها، وسواء قصد السجود لله تعالى، أو غفل، وفي بعض صورته ما يقتضي الكفر، أو يقاربه، عافانا الله الكريم" (1).

(1) الكواكب الدراري للكرماني (163 / 18)

(2) صيامو البقر: أصلاً بها، جاء في تاج العروس (532 / 32): (الصَّيِّمُ كَفَنَّب)، أهمله الجوهري، وفي اللسان: هو (الصُّلْبُ الشَّدِيدُ المَجْتَمِعُ الخَلْق).

(3) عمدة القاري للعيني (370 / 19)

(4) مجموع الفتاوى لابن تيمية (4 / 360)

5 تبين الحقائق (6 / 25).

6 البحر الرائق (5 / 134).

5) وقال شهاب الدين الرملي: "مجرد السجود بين يدي المشايخ لا يقتضي تعظيم الشيخ كتعظيم الله عز وجل، بحيث يكون معبودا، والكفر إنما يكون إذا قصد ذلك"².

6) وقال الرحيباني: "السجود للحكام والموتى بقصد العبادة: كفر، قولا واحدا، باتفاق المسلمين. والتحية لمخلوق بالسجود له: كبيرة من الكبائر العظام"³.

التفريق بين سجود العبادة وسجود التحية عند ابن تيمية نفسه وكثير من أتباعه

وفيما يلي بعض نصوصهم على ذلك:

1) قال ابن تيمية: "السجود على ضربين: سجود عبادة محض، وسجود تشريف، فأما الأول فلا يكون إلا لله"⁴. ويقول أيضا: أما الخضوع والقنوت بالقلوب والاعتراف بالربوبية والعبودية فهذا لا يكون على الإطلاق إلا لله سبحانه وتعالى وحده، وهو في غيره ممتنع باطل. وأما السجود فشرعية من الشرائع إذ أمرنا الله تعالى أن نسجد له ولو أمرنا أن نسجد لأحد من خلقه غيره لسجدنا لذلك الغير طاعة لله عز وجل إذ أحب أن نعظم من سجدنا له، ولو لم يفرض علينا السجود لم يجب البتة فعله، فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة له وقربة يتقربون بها إليه، وهو لآدم تشريف وتكريم وتعظيم، وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام. ألا ترى أن يوسف لو سجد لأبويه تحية لم يكره له⁵. وقال ابن تيمية: والمقصود هنا أن القلب هو الأصل في جميع الأفعال والأقوال، فما أمر الله به من الأفعال الظاهرة فلا بد فيه من معرفة القلب وقصده، وما أمر به من الأقوال، وكل ما تقدم والمنهي عنه من الأقوال والأفعال إنما يعاقب عليه إذا كان بقصد القلب، وأما ثبوت بعض الأحكام كضمان النفوس والأموال إذا أتلفها مجنون أو نائم أو مخطئ أو ناس فهذا من باب العدل في حقوق العباد ليس هو من باب العقوبة". والنوع الثاني "ما يكون باطنا

1 المجموع شرح المهذب (4/ 69).

2 نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (1/ 122).

3 مطالب أولي النهى (6/ 278).

4 مجموع الفتاوى (4/ 361).

5 مجموع الفتاوى (4/ 360).

في القلب كالإخلاص وحب الله ورسوله والتوكل عليه والخوف منه، وكنفس إيمان القلب وتصديقه بما أخبر به الرسول فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر فإنه محلّه.. وما كان كفراً من الأعمال الظاهرة: كالسجود للأوثان وسب الرسول ونحو ذلك فإنما ذلك لكونه مستلزماً لكفر الباطن، وإلا فلو قدر أنه سجد قدام وثن ولم يقصد بقلبه السجود له بل قصد السجود لله بقلبه لم يكن ذلك كفراً، وقد يباح ذلك إذا كان بين مشركين يخافهم على نفسه فيوافقهم في الفعل الظاهر ويقصد بقلبه السجود لله، كما ذكر أن بعض علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب فعل نحو ذلك مع قوم من المشركين، حتى دعاهم إلى الإسلام فأسلموا على يديه، ولم يظهر منافرتهم في أول الأمر¹.

(2) وقال الشيخ محمد بن إبراهيم: "الانحناء عند السلام حرام إذا قصد به التحية، وأما إن قصد به العبادة فكفر"².

(3) وقال الشيخ عبد العزيز عبد اللطيف: "فمن المعلوم أن سجود العبادة، القائم على الخضوع والذلّ والتسليم والإجلال لله وحده: هو من التوحيد الذي اتفقت عليه دعوة الرسل، وإن صرف لغيره فهو شرك وتنديد. ولكن لو سجد أحدهم لأب أو عالم ونحوهما، وقصده التحية والإكرام: فهذه من المحرمات التي دون الشرك، أما إن قصد الخضوع والقربة والذلّ له فهذا من الشرك"³.

(4) إذن "ينبغي أن نفرق بين سجود العبادة، وسجود التحية"⁽⁴⁾.

(5) وهكذا "يتبين أن مجرد السجود لا يستلزم العبادة، وأن من سجد لغير الله لا يلزم أن يكون عابداً له. ولا يكون مشركاً، إلا إذا قصد بسجوده العبادة والتقرب لغير الله، أما مجرد السجود للتعظيم فهو بعد نسخه حرام، لكنه ليس شركاً، لأن الشرك لا يحتمل الجواز والنسخ، وإنما يكون ذلك في الشرائع"⁵.

¹ مجموع الفتاوى (119 / 14)

² فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (1 / 109).

³ نواقض الإيمان القولية والعملية (ص: 278).

(4) نواقض الإيمان القولية والعملية د. عبد العزيز العبد اللطيف ص(17).

5 ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة لعبد الله بن محمد القرني ص(296).

6) وعليه "فهذا السجود شريعة شرعها الله تعالى في زمن دون زمن، ولا يلزم من كل سجود أن يكون عبادة، إذ من المعلوم ضرورة أن الله تعالى لم يشرع لأي أحد أن يعبد غيره مهما كان، في أي زمن من الأزمان"¹.

والحاصل من هذه النصوص أن السجود قد يكون عبادة، وقد يكون تحية كما في السجود الذي حدث لآدم وليوسف عليهما السلام، فعلى الرغم من أن شكل السجود في كلا الحالين واحد، ولكن الذي يفرق بينهما هو النية؛ لأن المقرر أن الشيء الواحد قد يُفعل بصورة واحدة، ولكن النية المقترنة بها تعطيهما حكما مختلفا فيما لو تغيرت النية، كما هنا فالسجود صورته واحدة، ولكن إن كان بنية التحية كان تحية، وإن كان بنية العبادة كان عبادة.

وقد سبق قول ابن القيم: .. أما العبادات فتأثير النيات في صحتها وفسادها أظهر من أن يحتاج إلى ذكره فإن القربات كلها مبناها على النيات، ولا يكون الفعل عبادة إلا بالنية والقصد. ولهذا لو وقع في الماء ولم ينو الغسل، أو دخل الحمام للتنظيف أو سبح للتبريد لم يكن غسله قرينة ولا عبادة بالاتفاق، فإنه لم ينو العبادة فلم تحصل له⁽²⁾. اهـ ولكن لا يجوز في شريعتنا السجود لغيره تعالى ولو بنية التحية فقد "أجمع المسلمون على أن السجود لغير الله محرم"³، "فإن نصوص السنة، وإجماع الأمة تحرم السجود لغير الله في شريعتنا، تحية أو عبادة، كنهيه لمعاذ بن جبل أن يسجد لما قدم من الشام وسجد له سجود تحية"⁴.

وحين نقول إن السجود لا يكون عبادة إلا بنية العبادة فهذا يعني أن يكون السجود بنية التقرب إلى من يُعتقد فيه الألوهية أو الربوبية، وقال الشوكاني: "فلا بد من تقييده بأن يكون سجوده هذا قاصدا لربوبية من سجد له، فإنه بهذا السجود قد أشرك بالله عز وجل، وأثبت معه إلها آخر. وأما إذا لم يقصد إلا مجرد التعظيم، كما يقع كثيرا لمن دخل على ملوك الأعاجم: أنه يقبل الأرض تعظيما له،

¹ شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 609

⁽²⁾ إعلام الموقعين - (3 / 110)، ط/دار الجيل. وانظر: جهود المالكية في تقرير توحيد العبادة ص 369.

³ مجموع الفتاوى (4 / 358).

⁴ جامع المسائل (1 / 25).

فليس هذا من الكفر في شيء، وقد علم كل من كان من الأعلام أن التكفير بالإنزام من أعظم مزالق الأقدام؛ فمن أراد المخاطرة بدينه فعلى نفسه تجتنب¹.

ومن هنا أجيب عن الاستشكال الذي استشكله القرافي وشيخه العز ابن السلام وهو "إن العلماء لم يكفروا من سجد لولي أو عالم أو سجد لوالديه تعظيماً وتذلاً، مع تكفيرهم لمن يسجد للصنم على وجه التعظيم له، ثم قال القرافي: والفرق بينهما عسير⁽²⁾، ثم ذكر ما يرد على ذلك، ولكن تعقبه العلامة ابن الشاط فقال: "أغفل الوصف المفرق فعسر عليه الفرق، والوصف المفرق: أن سجود من سجد للأصنام لم يسجد لها لمجرد التذلل والتعظيم، بل لذلك مع اعتقاد أنها آلهة وأنها شركاء لله تعالى، ولو وقع مثل ذلك مع الوالد أو العالم أو الولي لكان ذلك كفراً لا شك فيه، وأما إذا وقع ذلك أو ما في معناه مع الوالد لمجرد التذلل والتعظيم لا لاعتقاد أنه إله وشريك لله عز وجل فلا يكون كفراً وإن كان ممنوعاً سداً للذريعة⁽³⁾. اهـ

فهل يقال بعد كل هذا إن "من سجد لآخر فقد اتخذ ربا وعبدته، وإن لم يسم سجوده عبادة والمسجود له ربا"⁽⁴⁾. ولو صح هذا لكان يعقوب اتخذ ابنه يوسف ربا حين سجد له، ولكانت الملائكة أيضا اتخذوا آدم ربا لهم من دون الله ولكان الله آمرا لهم بذلك! فما كان جوابكم هو جوابنا. وإذا كان هذا حال السجود وهو أنه لا يُعَدَّ عبادة إلا بنية العبادة مع أن السجود بحمد ذاته فيه غاية الخضوع والتذلل للمسجود له أي تتحقق فيه معنى العبادة لغة لأن "أصل العبودية الخضوع والتذلل"⁵، وقيل: "معنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع"⁶، وقيل "والعبادة الطاعة والتذلل. وطريق

¹ السيل الجرار (4 / 580).

⁽²⁾ أنوار البروق في أنواع الفروق (1 / 125)

⁽³⁾ انظر: حاشية أنوار البروق في أنواع الفروق (1 / 125) لابن الشاط.

⁽⁴⁾ جهود علماء الحنفية - (3 / 1428)

⁵ لسان العرب (4 / 2776).

⁶ معاني القرآن وإعراجه للزجاج (1 / 48)، وكذا قال ابن الأثير فيما نقله الزبيدي في تاج العروس (8 / 331)، وكذا قال الأزهري في

تهذيب اللغة 2/234.

معبد إذا كان مذللاً للسالكين، قاله الهروي¹، وقيل "العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل"²، وقيل "والعبادة الطاعة مع التذلل والخضوع"³، "ومنه قوله: {إياك نعبد} لك اللهم نخشع ونذل ونستكين"⁴. وقيل "والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه: ثوب ذو عبْدَةٍ، إذا كان في غاية الصفاقة وقوّة النسج"⁵، والسجود تتحقق فيه هذه المعاني كلها للعبادة لأن السجود وكذا الركوع "هما غاية الذل والخضوع"⁶.

أقول: إذا كان حال السجود الذي يتحقق فيه المعنى اللغوي للعبادة كما رأينا بأجلى صورته، وهو أقصى الخضوع والتذلل والذي اهتمت خصومكم بأنهم "لم يفهموا من العبادة سوى الركوع والسجود، ولم يجدوا في معلومهم سواه"⁷، وأنهم قالوا "العبادة هي السجود فقط، مع اعتقاد أنها أرباب"⁸. فما بالكم بما دون ذلك من أمور مثل "الدعاء والاستغاثة بالأولياء ونداءهم وطلب المدد منهم عند البلاء"⁹، التي زعمتم أنها عبادة لغير الله وأنكرتم على من قال: "ليست هذه الأمور من العبادة في شيء، ولا من الشرك بالله عز وجل"¹⁰!

¹ الجامع لأحكام القرآن، ط/ الرسالة (1/ 261).

² مفردات القرآن للراغب (ص: 319).

³ تفسير البغوي (1/ 53).

⁴ جامع البيان (1/ 159).

⁵ انظر الكشاف مع حاشية الطيبي (1/ 744)، وكذا في تفسير البيضاوي (ص: 63).

⁶ قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (2/ 259): في حديث علي قال: «نحاني أن أقرأ وأنا راعع أو ساجد» قال الخطابي: لما

كان الركوع والسجود - وهما غاية الذل والخضوع - مخصوصين بالذكر والتسبيح نهاه عن القراءة فيهما، كأنه كره أن يجمع بين كلام الله

تعالى وكلام الناس في موطن واحد؛ فيكونان على السواء في محل والموقع. اهـ.

⁷ جهود علماء الحنفية (1/ 331).

⁸ تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس (ص: 97) عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ (ت: 1293هـ).

⁹ جهود علماء الحنفية (3/ 1381).

¹⁰ جهود علماء الحنفية (3/ 1381)، وانظر: (1/ 292).

اضطراب ابن تيمية في كون السجود لغير الله كفرا وفي إشراك النصارى في الربوبية وفي إنكار فرعون لوجود الله

ولا بد من الإشارة إلى أن ابن تيمية اضطرب قوله في مسألة السجود لغير الله كما رأينا؛ فمرة يقول هي كفر مطلقا، ومرة يجعل "السجود على ضربين: سجود عبادة محضة، وسجود تشريف، فأما الأول فلا يكون إلا لله"¹، ومرة قال "إن السجود لغير الله محرم"²، ومرة يقول ليس بكفر ولا حرام، بل يردّ على من قال بذلك من وجوه عديدة.

هذا الاضطراب والتناقض الظاهر في كلام من ابن تيمية سببه اختلاف المقام، فحين كان يرد على المعتزلة لتفضيلهم الملائكة على البشر، ويسرد الأدلة على تفضيل صالحى البشر على الملائكة، ومن جملة ذلك أنه يستشهد بسجود الملائكة لآدم يقول: وهذا تشريف وتكريم له³، فيورد هنا اعتراضا على هذا: **وقد قال بعض الأغبياء: إن السجود إنما كان لله، وجعل آدم قبلة لهم يسجدون إليه كما يسجد إلى الكعبة؛ وليس في هذا تفضيل له عليهم..** وقالوا: السجود لغير الله محرم بل كفر⁴. اه ثم يشرع ابن تيمية بالرد على هذا وقد سردنا بعضه، ومن جملته وهو الذي يهمننا هنا وهو ردّه على قول المعتزلة: "السجود لغير الله محرم بل كفر"، فيردّه من وجوه عديدة منها: **ورابعها: أبو يوسف وإخوته خروا له سجدًا** ويقال: كانت تحيتهم؛ فكيف يقال: إن السجود حرام مطلقا؟ وقد كانت البهائم تسجد للنبي ﷺ والبهائم لا تعبد الله. **فكيف يقال يلزم من السجود لشيء عبادته؟.. وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام**⁵. اه ومنه سجود معاذ للنبي حيث "سجد له سجود تحية"⁶.

¹ مجموع الفتاوى (4 / 361).

² مجموع الفتاوى (4 / 358).

³ مجموع الفتاوى (4 / 358)

⁴ مجموع الفتاوى (4 / 358)

⁵ مجموع الفتاوى (4 / 360)

⁶ جامع المسائل (1 / 25).

وأما حين كان يتكلم وفق نظريته لتقسيم التوحيد، وما نتج عنها من مفهوم جديد للتوحيد والشرك والعبادة، جعل السجود للقبور كفرا مطلقا، فقال: "المدافن التي فيها نبي أو رجل صالح: لا يستحب تقبيلها ولا التمسح بها باتفاق الأئمة، بل منهى عن ذلك، وأما السجود لذلك فكفر" (4).
 وحدث هذا الاضطراب لابن تيمية مرارا؛ حيث يثبت شيئا في موضع، وينفيه في موضع آخر بحسب المقام، كقضية السجود لغير الله هذه كما رأينا، وكقضية إشراك النصارى في الربوبية فأیضا اضطرب قوله فيها، وذلك أنه حينما كان يقرر نظريته في تقسيم التوحيد وأصولها، ومنها أن أحدا من الناس - بمن فيهم النصارى - لم يشرك في الربوبية فقال: "إن أحدا من الخلق لم يزعم أن الأنبياء والأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم شاركوا الله في خلق السموات والأرض"¹، وحين كان يرد على النصارى قال بأنهم "قالوا عن المسيح إنه خالق السموات والأرض القديم الأزلي علام الغيوب القادر على كل شيء"²!!

ونضرب مثالا ثالثا، وهو أن ابن تيمية يثبت من ينكر وجود الله تارة، وينفيه أخرى بحسب المقام، فحين كان يقرر نظريته في تقسيم التوحيد وأصولها قرّر أن أحدا لم ينكر وجود الله حتى فرعون، وإنما كان يتظاهر "بإنكار الصانع" ..وقد كان مستيقنا به في الباطن"³، وحين كان ابن تيمية يرد على الشيخ الأكبر ابن العربي ويطعن فيه قال عنه: فليس عنده رب وعالم كما تقوله الفلاسفة الإلهيون الذين يقولون بواجب الوجود؛ وبالعالم الممكن؛ بل عنده وجود العالم هو وجود الله، وهذا يطابق قول الدهرية الطبائعية الذين ينكرون وجود الصانع مطلقا ولا يقرّون بوجود واجب غير العالم. كما ذكر الله عن فرعون وذويه؛ وقوله مطابق لقول فرعون لكن فرعون لم يكن مقرا بالله⁴!! إذن فرعون منكر لوجود الله

1 مجموع الفتاوى (3/ 96)، وانظر جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة للغنيمان ص112

2 الجواب الصحيح (2/ 260)

3 شرح الطحاوية ت الأرنؤوط (1/ 26)، وانظر أيضا: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (3/ 488)، القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد (ص: 22)، معارج القبول (1/ 108)، موسوعة الألباني في العقيدة (4/ 164)، جهود علماء الحنفية (1/ 303)، موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 154)، إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (1/ 360)، منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى ص155، خالد بن عبد اللطيف بن محمد نور، مكتبة الغرباء الأثرية.

4 مجموع الفتاوى (2/ 241)

حين يرد ابن تيمية على ابن العربي ويشبّهه به، وفرعون عارف بالله مقرّر به حين يقرر ابن تيمية نظريته في تقسيم التوحيد وأصولها!

لا يصح المعنى الذي ذكره النجدي لشهادة التوحيد لعدة أسباب

وبالعودة إلى ما كنا فيه وهو معنى الشهادة، فالحاصل أنه لا يصحّ المعنى التفصيلي الذي تذكرونه لكلمة لا إله إلا الله وهو: لا ذبح ولا طواف ولا نذر ولا دعاء ولا سجود ولا ولا..إلا لله؛ وذلك لأمر: **الأول**: أن الشهادة هي خبر عن وجود المعبود الحق وهو الله وحده، وليس خبراً ولا إنشاء يتعلق بالعبادات وأنواعها كما بسطناه. **الثاني**: لأن العبادات ليست محصورة في هذه الأمور، وإنما كل طاعة عبادة، بل المباحات والأمور الجبليّة تصير عبادة بالنيّة كما سبق، فكان يجب عليكم أن تقولوا بأن معنى لا إله إلا الله: لا ذبح ولا طواف ولا سجود ولا نوم ولا أكل ولا شرب ولا جماع ولا مشي ولا جلوس ولا تكلم ولا ولا..إلا لله. **الثالث**: لأن العبادات الصرفة كذلك لا تكون إلا بنيّة العبادة والقربة، فكان يجب عليكم أن تقولوا مثلاً إن معنى كلمة التوحيد: لا ذبح ولا طواف ولا سجود ولا نوم ولا جماع ولا أكل ولا شرب بنيّة العبادة إلا لله. وهذا المعنى والذي قبله لكلمة التوحيد فيه ركة وحشو يعني عنه القول بأن معناها لا معبود بحق إلا الله، وهذا ما اقتصر عليه كبار العلماء والمحققون كما سبق¹، وأحياناً يقولون بأن معناها كما سبق: لا خالق إلا الله²، وكلاهما بمعنى واحد إذ المعبود بحق هو الخالق، وأحياناً يجمعون بين الأمرين فيقولون مثلاً: معناها لا خالق ولا معبود بحق إلا الله³، وبعضهم يقول بأن معناها: لا مستغني عن كل ما سواه إلا الله⁴.

قال وليد . أقال الله عشرته . : لقد بيّنا في كتابنا (تنوير الرب الإله) أن كل هذه الأقوال في تفسير شهادة التوحيد: صحيحة وسائغة ومقبولة، وأنه لا تعارض بينها بل يكمل بعضها بعضاً، هذا إن لم تكن بمعنى واحد، ولذلك نجد العالم الواحد يفسرها بهذا التفسير تارة، وبهذا تارة كما رأينا ذلك عند الرازي

1 انظر كتابنا: تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله ص (224)

2 تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله ص (413)

3 المصدر السابق نفسه

4 تنوير الرب الإله ص (211)

والصاوي¹، فلا معنى لإنكار أيّ منها، وأقصى ما يمكن أن يصار إليه هنا هو ترجيح أحدها على الآخر فحسب، دون القطع ببطلان ما سواه مما ذكرنا، نعم الذي يقطع ببطلانه هو ذلك المعنى آنف الذكر الذي انتهى إليه السلفية وهو أنه معنى كلمة التوحيد: لا ذبح ولا طواف ولا نذر ولا دعاء ولا سجود إلا لله، لأنه مردود للوجهين السابقين.

1 انظر: ص (402) عند قولي : (الله تفيد ثبوت)

الفصل الثاني: دعوى أن المشركين كانوا يعلمون المعنى الصحيح لكلمة التوحيد

يدعي السلفية أن المشركين كانوا يعلمون المعنى الصحيح لكلمة التوحيد! ولذلك أبوا أن ينطقوا بها لما لها من مقتضيات والتزامات! وهذه إحدى مقدمات نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية، وحاصلها أن عدم نطق المشركين بكلمة التوحيد سببه فهمهم الصحيح لها، فإن هؤلاء "الكفار الجهال يعلمون أنّ مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو: إفراد الله تعالى بالتعلق، والكفر بما يُعبد من دون الله، والبراءة، فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفرة"⁽¹⁾.

إذن "عرفوا أنّها تقتضي ترك عبادة ما سوى الله وإفراد الله بالعبادة"، و"أنّما تقدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس وتكبُّ بناءً سؤال الشفاعة من غير الله وصرف الإلهية لغيره لأتمّ الرأس.. فتبّ لمن كان أبو جهل ورأس الكفر من قريش وغيرهم أعلم منه بـ لا إله إلا الله.."⁽²⁾، "أدركوا أن الرسول حينما قال لهم: قولوا لا إله إلا الله، فقد طلب منهم ترك عبادة الأصنام وعبادة الله وحده"⁽³⁾،

(1) كشف الشبهات لابن عبد الوهاب ص16، ونقل هذا النص الأفغاني في كتابه جهود علماء الحنفية (1/ 166) نقله على أنه لأحد علماء الحنفية وهو الخجندي، وهكذا معظم النقول التي ينقلها الأفغاني عن الحنفية هي أصلها لابن تيمية وأتباعه كابن عبد الوهاب ثم يتلفها وهابية الحنفية المتأخرين فيحسبها الأفغاني على الحنفية!! هذا إن سلمنا بأنهم حنفية، وإلا فكثير منهم يبنون التقليد من أصله كالخجندي، فهو مُجدِّ سلطان المعصومي الخجندي، وهو ممن يدعون إلى الاجتهاد وينبذ التقليد، وقد ألف كتابا سماه رسالة "هل المسلم مُلزم باتباع مذهب معيّن من المذاهب الأربعة؟" وخلاصة ما جاء فيه: تأكيد تحريم تمسك المسلم أياً كان بأي مذهب من المذاهب الأربعة، وأن التزام واحد منها ضلال وكفر، وأنه اتخاذاً للناس أرباباً من دون الله، وأن عليه أن يأخذ من الكتاب والسنة مباشرة، فإن لم يستطع فعليه أن يظل متنقلاً بين المذاهب المختلفة، يتبع هذا أنا ويتبع الثاني أنا آخر. اهـ هذه هي خلاصة الكراس كما بيّن ذلك د. البوطي في كتابه القيم: "اللامذهبية أخطر بدعة تحدّد الشريعة الإسلامية" فلا أدري كيف صار الخجندي من علماء الحنفية على الرغم من أنه يرى أن الالتزام بتقليد المذاهب الأربعة: ضلال وكفر؟! وعلي الحلبي الذي حقق كتاب الخجندي هذا المسمى مفتاح الجنة لم يأت على سيرة أن المؤلف من الحنفية قط بل ذكر ص8 أنه لما ظهرت عليه علامات التحقيق "اكتشف أغلاط المقلدة وتناقضاتهم، فبدأ بإعلان ذلك جهاراً نهاراً مما أثار عليه المتعصبة فضيقوا عليه تضيقاً بالغا!"

(2) تيسير العزيز الحميد لحفيد ابن عبد الوهاب (182) و(184).

(3) بيان حقيقة التوحيد الذي جاءت به الرسل ص24، صالح الفوزان، جامعة ابن سعود، 1987م. وانظر: معنى لا إله إلا الله

ومقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع للفوزان (ص: 22)

وذلك "أن العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ كانوا عارفين بمقاصد اللغة، والنبي ﷺ كانوا يدعوهم إلى تحقيق لا إله إلا الله، فهم يدركون معنى هذه الكلمة إذا أقرّوا بها وهو أن يتركوا كل ما كانوا يعبدونه مع الله تعالى.. فلا يُدعى إلا هو، ولا يرجى إلا هو، ولا يُتوكل إلا عليه ولا يُتدلل إلا إليه عز وجل ثناؤه"1، فقد ((عرفوا معنى: "لا إله إلا الله"، وأبوا عن النطق والعمل بها، فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلهية))²، و"تضاعف المصيبة حينما نعلم أن الكفار كانوا يفهمون معنى لا إله إلا الله لكن لا يخضعون له، أما كثير من جهلة المسلمين اليوم لا يفهمون معنى لا إله إلا الله"³.

فالمشركون علموا المعنى الصحيح لكلمة التوحيد، وهو ما لم يعلمه المسلمون وعلماءهم من مخالفي ابن عبد الوهاب، وعلم المشركين بمعنى كلمة التوحيد هو الذي منعهم من النطق بها لأنهم عرفوا أنها ستقطع عليهم عبادة الأوثان ودعاء الأموات!! ولذلك لم يقولوها لئلا يُخلّوا بالالتزام بها!! وهذا حاصله أمران، الأول أن المشركين . بحكم كونهم أهل اللسان علموا المعنى الصحيح لكلمة التوحيد . وهو أنه لا استغاثة ولا ذبح ولا سجود.. إلا لله. والثاني أن علمهم بالمعنى الصحيح هو الذي منعهم من النطق بها! وكلا الأمرين غير صحيح، وإليك بيان هذين الأمرين، كل منهما في مبحث وباللّٰه التوفيق.

المبحث الأول: أن المشركين يعلمون المعنى الصحيح لكلمة التوحيد

وفيها مطلبان :

1 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص232

2 تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، دار الصميعي، الرياض (ص: 185) وانظر جهود علماء الحنفية (1 / 167) حاشية

الفقي على فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: 123)

³ موسوعة الألباني في العقيدة (2 / 58)

المطلب الأول : نقض هذه الدعوى عن طريق القياس الشرطي المتصل

سبق أن بيّنا سببين لبطلان دعوى أن المشركين علموا المعنى الصحيح لشهادة أن لا إله إلا الله وهو أنه لا نذر ولا طواف ولا استغائة ولا ذبح ولا سجود إلا لله¹، ونزيد هنا سببا ثالثا، فنقول: إن هذا المعنى للشهادة لو كان صحيحا لعلمه الله ورسله وملائكته عليهم السلام، بيد أن هذا المعنى لا يعلمه الله ورسله وملائكته، فبطل أن يكون هذا المعنى الذي ذكرتموه للشهادة صحيحا.

ومن أجل أن نبرهن على صحة ذلك فإننا نصوغ هذا في قياس شرطي متصل²، طبعاً القياس الشرطي المتصل مؤلف من مقدّم وتالي ونتيجة، كما قال الأخضري في السلم المنورق:

وَإِنْ عَلَى التَّعْلِيقِ فِيهَا قَدْ حُكِمَ ... فَإِنَّهَا شَرْطِيَّةٌ وَتَنْقَسِمُ

أَيْضاً إِلَى شَرْطِيَّةٍ مُتَّصِلَةٍ ... وَمِثْلُهَا شَرْطِيَّةٌ مُنْفَصِلَةٌ

جُزْأَهُمَا مُقَدَّمٌ وَتَالِيٌّ ... أَمَّا بَيَانُ ذَاتِ الْإِتِّصَالِ

مَا أَوْجَبَتْ تَلَاوِمَ الْجُزْأَيْنِ ... 3

وبيان ذلك، أن المقدم هو قولنا: إن هذا المعنى . الذي ذكره السلفية لشهادة أن لا إله إلا الله . لو كان صحيحا لعلمه الله ورسله وملائكته، وسيأتي البرهان عليه.

والتالي هو قولنا: إذ هذا المعنى الذي ذكروه لا يعلمه الله ورسله وملائكته، وسنبرهن على ذلك بعد قليل.

والنتيجة هي بطلان القول بأن هذا المعنى للشهادة هو الصحيح، أي أن ما تزعمون من أن (المعنى الصحيح لشهادة أن لا إله إلا الله هو أنه لا نذر ولا طواف ولا استغائة ولا ذبح ولا سجود إلا لله) زعم باطل غير صحيح.

1 انظر: ص (412) عند قولي : (هي اسم جامع لكل ما)

2 ضوابط المعرفة ص 78، للشيخ عبد الرحمن حبنكة، دار القلم، ط4/1993م.

3 متن السلم المنورق بحاشية الباجوري (ص: 62)، شرح القويسني على السلم المنورق للأخضري (7/ 6 ت.ش)، وانظر أيضا:

الكوكب المشرق في سماء علم المنطق ص: 301، مُجد الأمين الأثيوبي الهري، دار المنهاج، ط 1/ 2015.

ونأتي الآن إلى البرهان على المقدم والتالي، أما البرهان على المقدم وهو أن هذا المعنى لو كان صحيحا لعلمه الله ورسله وملائكته، فلأن الله نفسه شهد أنه لا إله إلا هو، وكذا رسله وملائكته فكلهم شهدوا أنه لا إله إلا هو، بَدَلِيلِ قَوْلِهِ { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران: 18]، وبَدَلِيلِ قَوْلِهِ { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء: 25] وثمة آيات كثيرة في هذا الباب¹، وما دام الله شهد بذلك وكذا رسله وملائكته، فلا بد أنهم يعلمون معنى ما شهدوا به من أنه لا إله إلا الله، أما الله فلأنه كما قال عن نفسه { إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [العنكبوت: 62]، وأما رسله وملائكته فلأنهم أعلم الخلق بالله تعالى وبتوحيده فضلا عن أنهم يوحى إليهم وهم أصلا من بلّغوا عن الله شهادة أن لا إله إلا الله، فيستحيل أن يكون الرسل والملائكة غير عالمين بمعناها.

وأما البرهان على التالي وهو أن الله ورسله وملائكته لا يعلمون هذا المعنى التفصيلي للشهادة؛ فلأن الله أمر ملائكته بالسجود لآدم، فسجد الملائكة لآدم كما في قوله { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [البقرة: 34] وقد سبق بيانه، فلو كان الله يعلم أن من معاني لا إله إلا الله أن لا سجود إلا له تعالى لَمَا أَمَرَ بالسجود لغيره، ولمَّا أمر بالسجود لغيره علمنا أنه ليس من معانيها ذلك، وأن الله لا يعلم هذا المعنى للشهادة لأنه غير صحيح كما أنه لا يعلم أن له شريكا كما في قوله { قُلْ أَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [يونس: 18] "وما لا يعلم أنه موجود فهو باطل لا حقيقة له، ولو كان موجودا لعلمه موجودا"²، فمعنى "بما لا يعلم" أي "بما ليس موجودا، لأن ما لم يعلمه الله تعالى موجودا فليس بموجود"³.

إلا أن يقال: إن الله أمر بالسجود لآدم على وجه التكريم له لا على وجه العبادة لأن الله لا يأمر بعبادة غيره، ولكن هذا مصيره إلى قولنا وهو أن السجود ليس بحد ذاته عبادة أو ليس منحصرًا في فعله

1 سوف نسط الكلام عليها في المجلد الخامس من نقض نظرية تقسيم التوحيد "الصواعق الصلاحية" إن شاء الله.

² مجموع الفتاوى (6/ 195)

³ آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 501)

على وجه العبادة للمسجود له، بل قد يفعل على وجه التكريم والاحترام ونحوه كما كان الحال في الشرائع السابقة كما في سجود سيدنا يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام، وقد سبق تقريره من كلام ابن تيمية نفسه، وما دام قد سجد بعض الأنبياء لبعضهم، وسجد الملائكة لآدم بأمر من الله، فهذا يدل على أن الله ورسوله وملائكته لا يعلمون أن من معنى لا إله إلا الله: لا سجود إلا لله، وإلا لما تمّ كله هذا كما هو ظاهر.

المطلب الثاني: حلف النبي ﷺ وأصحابه بغير الله يطل هذا المعنى للشهادة

من المعاني التي يذكرها السلفية للشهادة أنه: لا حلف إلا بالله، بيد أنه قد وقع الحلف بغير الله من الله ورسوله وصحابته، أما حلف الله بغيره تعالى فقد أقسم الله بكثير من مخلوقاته في القرآن فقد أقسم "بالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والذكر والأنثى والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها.. فإن الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لأنها آياته ومخلوقاته"¹ "ليعجب بها المخلوقين، ويعرفهم قدرته لعظم شأنها عندهم، ولدلائنها على خالقها"².

وأما حلف النبي بغير الله، فقد قال ابن القيم "صح عنه أنه قال: أفلح وأبيه إن صدق"³، والحديث أخرجه مسلم⁽⁴⁾، "وقال للذي سأله: أي الصدقة أفضل: (أما وأبيك لئن بآته)، رواه مسلم ونحو ذلك من الأحاديث"⁵. فدلّ على أن النبي ﷺ نفسه حلف بغير الله⁽⁶⁾، بغض النظر عن التخريج لهذا الحلف لفك التعارض بين مثل هذه الأحاديث وبين الأحاديث التي تنهى عن الحلف بالآباء، فقيل أن حديث "أفلح وأبيه" من باب يمين اللغو وهو أن يقول المرء "لا والله وبلى والله من غير قصد لعقد

1 مجموع الفتاوى (1/ 289)

2 تيسير العزيز الحميد (ص: 1019) نقلا عن الطبري عن مطرف.

3 إعلام الموقعين (3/ 431)

(4) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام - حديث: 37.

5 تيسير العزيز الحميد (ص: 1019)

(6) وهذا سلم به حفيد ابن عبد الوهاب ولكن قال "إن هذا كان في أول الأمر ثم نسخ" انظر: تيسير العزيز الحميد (1/ 528)

اليمين"¹، وكذا هنا فهو من قبيل "جريان اللفظ على اللسان من غير إرادة لمعناه"²، كذا ذكر ابن القيم و"ذكره البيهقي وقال النووي: إنه المرضي"³، بيد أن الحفيد رده بقوله "قلت: هذا جواب فاسد، بل أحاديث النهي عامة مطلقة ليس فيها تفريق بين من قصد القسم، وبين من لم يقصد". ولكن الحفيد نفسه رجع فقال بعد ذلك جوابا عن حلف بعض الصحابة ﷺ باللات والعزى «غاية ما يقال: إن من جرى ذلك على لسانه من غير قصد معفو عنه، أما أن يكون ذلك أمراً جائزاً للمسلم أن يعتاده فكلا»⁴.

وذكر ابن عبد البر بأن لفظة "وأبيه" في حديث مسلم الأول (غير محفوظة.. من حديث من يحتج به، وقد روى هذا الحديث مالك وغيره عن أبي سهيل لم يقولوا ذلك فيه، وقد روي عن إسماعيل بن جعفر هذا الحديث وفيه "أفلح والله إن صدق أو دخل الجنة والله إن صدق"، وهذا أولى من رواية من روى "وأبيه"؛ لأنها لفظة منكورة تردّها الآثار الصحاح)⁵.

بيد أن الحفيد قد رد هذا بعد أن حكاه بقوله: "وهذا جواب عن هذا الحديث الواحد فقط ولا يمكن أن يجاب به عن غيره"⁶. كذا قال ولكن محقق كتابه شكك أيضا في لفظة "وأبيك" التي وقعت في حديث مسلم الثاني بنحو ما ذكره ابن عبد البر في الحديث الأول⁷، ولذا قال بعض السلفية "لا شك إن شاء الله في أن كلاً من اللفظتين - (وأبيه) و (وأبيك) - غير محفوظتين بل هما شاذتان لأن من زادهما قد خالفوا من هم أوثق منهم وأكثر عددًا وهم لا يتحملون مثل هذه الزيادة؛ بل ورد في الثنتين أيضًا (والله) مكاهما"⁸.

1 إعلام الموقعين (3/ 431)

2 إعلام الموقعين (3/ 431)

3 تيسير العزيز الحميد (ص: 1020)، دار الصميعي، الرياض.

4 انظر «تيسير العزيز الحميد» (ص513)، ط/ المكتب الإسلامي.

5 «التمهيد - ابن عبد البر» (9/ 255 ت بشار)

6 تيسير العزيز الحميد (ص: 1020).

7 تيسير العزيز الحميد (ص: 1019).

8 انظر: <http://www.ahlalhdeth.com/vb/showthread.php?t=77778>

وقيل "(وأبيك) قسم على معنى وربّ أبيك"¹ أي أنه "أضمر وربّ أبيه كما في إقسام الله في كتابه بمخلوقاته، أي: وربّ الليل إذا يغشى، وربّ الضحى، ونحوه"²

والذي ارتضاه الحفيد "أن هذا كان في أول الأمر ثم نسخ ونهي عن الحلف بغير الله.. وهذا الجواب هو الحق"³، بيد أن هذا الجواب ارتضاه وجعله الحق يرد عليه أنه إن كان "الحلف بغير الله من اتخاذ الأنداد لله سبحانه وتعالى"⁴، وكان أيضا "الحلف عبادة لا يجوز صرفها لغير الله"⁵، بل إن كانت كلمة لا إله إلا الله تعني من ضمن ما تعنيه أن لا حلف إلا بالله، فكيف يصح القول هنا بالنسخ؟! فإن كلمة التوحيد هي "شهادة أن لا إله إلا الله، وبها بعث الله جميع الرسل"⁶، فهل يتغير معناها من رسول إلى آخر؟! وهل جاز الشرك في شريعة دون أخرى؟! بل هل يقال إن الحلف بغير الله كان مباحا في صدر الإسلام ثم نسخ فصار شركا؟! غاية ما يمكن هنا هو التشكيك بهذه الأحاديث وبهذه الألفاظ على نحو ما سلكه ابن عبد البر وبه جزم الألباني فقال الحديث الأول: (("أفلح وأبيه إن صدق.. " فزاد: وأبيه"، وهي شاذة كما حققته في "الضعيفة")⁷، وقال في الحديث الثاني: (صحيح دون لفظ "وأبيك")⁸، لأنها "زيادة شاذة غير محفوظة"⁹.

-
- 1 شرح الزرقاني على الموطأ (4/ 253)، وانظر: أوجز المسالك إلى موطأ مالك (15/ 436)، والتعليق المجد بشرح موطأ نَجْد (3/ 321). وقد علق بعض الفضلاء هنا فقال: تقديرُ "وربّ أبيه" حلف بما كان يعبدُه أبو الرجل من الأوثان، وذلك لا يستقيم، فدل ذلك على أن الحلف ليس من العبادات أو أن هذه الصيغة لا تُعدُّ ميمناً. اهـ
 - 2 إكمال المعلم بفوائد مسلم (1/ 224)
 - 3 تيسير العزيز الحميد (ص: 1021).
 - 4 إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد (2/ 222)
 - 5 جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة للغنيمان ص 651
 - 6 مجموع الفتاوى (3/ 94)
 - 7 سلسلة الأحاديث الصحيحة (6/ 696)، صحيح أبي داود (2/ 246)، سلسلة الأحاديث الضعيفة (10/ 756).
 - 8 صحيح الأدب المفرد للألباني (ص: 291)
 - 9 سلسلة الأحاديث الضعيفة (10/ 755)

وهو ما أباه ابن القيم حيث صحح لفظ "أفلح وأبيه" كما رأينا، وأيضا أباه المعلمي فصحح كلا اللفظين¹، ثم سرد كلاما طويلا في توجيههما حاصله أن القسم فيهما هو من قبيل أن "في المحلوف به دلالة على المحلوف عليه، فكأن الحالف جعله كفيلا وشاهدا"² و"كأنه ﷺ استشهد حال ذلك الرجل؛ لأنها تدل على أنه سيفلح"³، إلى أن يقول "وقد علمت من تفسيرنا للحديثين والأثر عن أبي بكر أننا نرى أن لفظ الأب مقحم فيها كما هو مقحم في الأبيات المارة، وكان الباعث على الإقحام أن واو القسم لا تدخل على الضمير فتوصل إليه بإقحام لفظ الأب وبعث آخر معنوي، وهو تبعيد إيهام التعظيم؛ فإنه يتوهم تعظيم المخاطبين؛ لأنهم مسلمون، بخلاف آبائهم المشركين"⁴، ثم سرد أجوبة أخرى منها الطعن في صحتها ((ومنها: قول السهيلي: إنه للتعجب، كأنه أراد أن قوله: "وأبيه" بمنزلة قولهم: "لله أبوه"، وقس عليه. هذه أقوى الأجوبة فيما أرى، والجواب الذي قدمته أشرفها))⁵ أي أفضلها⁶، وبالتالي فقد اختار المعلمي أن القسم في الحديثين ثابت عنه عليه الصلاة والسلام، بيد أنه حمله على أنه من باب الشهادة والكفالة كما سبق.

ومهما يكن من أمر فإنه إن ثار جدل حول ثبوت حلف النبي ﷺ بغير الله، فإنه لم يثر مثل هذا الجدل في أن الصحابة ﷺ حلفوا بغير الله، إذ وردت عدة أحاديث تدل على ذلك، منها ما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه أدرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم..⁷، فلو كان الفاروق يعلم أن شهادة (لا إله إلا الله) تعني أو تتضمن أنه لا حلف إلا بالله، لما حلف بأبيه، ولما نهى النبي ﷺ بنهي جديد، ولقال له أين قولك: لا إله إلا الله؟! أليست (لا إله إلا الله) تتضمن أنه: لا حلف إلا بالله!؟

1 آثار الشيخ المعلمي اليماني (3/ 1000)

2 آثار الشيخ المعلمي اليماني (3/ 1005).

3 آثار الشيخ المعلمي اليماني (3/ 1007).

4 آثار الشيخ المعلمي اليماني (3/ 1009).

5 آثار الشيخ المعلمي اليماني (3/ 1011)

6 الصحاح 4/ 1382. وانظر حاشية آثار الشيخ المعلمي اليماني (3/ 1011).

7 إعلام الموقعين (3/ 433)

ومنها حديث سعد عند أحمد والنسائي قال: كنا نذكر بعض الأمر وأنا حديث عهد بالجاهلية،
فحلفت باللات والعزى.. الحديث¹. ومنها قول أبي بكر الصديق في حديث الموطأ "وأبيك ما ليلاك
 بليل سارق"².

فإن قلت: قوله ((فحلفت باللات والعزى " أي جرى ذلك منه على العادة، وليس قاصدا
 لذلك، كما يرشد إليه السياق))³. **قلنا:** هذا قيل في حديثي مسلم السابقين وردّه الحفيد كما سبق
 بقوله: "أحاديث النهي عامة مطلقة ليس فيها تفریق بين من قصد القسم وبين من لم يقصد"⁴.
 والحاصل أنه لا يصح أن يكون من معاني لا إله إلا الله إلا الله: لا سجود إلا لله ولا حلف إلا
 بالله، لأن الله شهد بأنه لا إله إلا هو، وكذا شهد له الأنبياء والملائكة والصحابة، وبرغم ذلك لا الله، ولا
 ملائكته، ولا رسله عليهم السلام، ولا الصحابة عليهم السلام يعلمون أن الشهادة تتضمن هذا المعنى لما سبق
 بيانه. طبعاً لسنا هنا في معرض الكلام عن حكم السجود لغير الله والحلف بغير الله، فهذا فيه تفصيل
 وكلام للعلماء والفقهاء لعلنا نبسطه فيما بعد، وإنما قصدنا التأكيد على أن الزعم بأن شهادة أن لا إله
 إلا الله تعني "لا سجود إلا لله ولا حلف إلا بالله" غير صحيح.

فبما لم يكن المشركون يعلمون هذا المعنى الذي زعمتموه لكلمة التوحيد، لأنهم حلفوا بغير الله،
 هذا فضلاً عما سبق من أنه قد همّ الصحابة عليهم السلام بالسجود للرسول بل سجد له فعلاً سيدنا معاذ رضي الله عنه
 كما سبق، ولو كان الصحابة عليهم السلام يعلمون أن الشهادة من معناها أن لا سجود إلا لله ولا حلف إلا
 بالله، لما حدث هذا منهم، فإذا كان الصحابة عليهم السلام الذين أخرجهم الرسول من الظلمات إلى النور لا
 يعلمون ذلك المعنى للشهادة فمن أين يعلمه المشركون الجاهليون؟! هذا فضلاً عن أن الصحابة عليهم السلام كان
 معظمهم مشركين قبل إسلامهم وإيمانهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، فالمفترض أنهم كانوا يعلمون هذا المعنى التفصيلي

1 انظر مسند أحمد ط الرسالة (3/ 150)، "المجتبى للنسائي 7/7 - 8، و"اليوم والليله" (990)، و"السنن الكبرى للنسائي
 (11545) (4/ 437)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (2097)، وابن حبان (4364). قال في ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (30/

318): حديث سعد .. هذا صحيح. اهـ

2 موطأ مالك ت الأعظمي (5/ 1221)

³ ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (30/ 317)

4 انظر التمهيد لابن عبد البر (14/ 367).

لِلشهادة، ومنه أنه لا سجود إلا لله ولا حلف إلا بالله، فلماذا إذن هموا بالسجود له عليه الصلاة والسلام، بل سجد معاذ له فعلا؟! ولماذا حلفوا بغير الله؟! ولماذا نهاهم النبي ﷺ عن كلا الأمرين بنهي جديد، كان يكفيهم أن يذكرهم بشهادتهم التي شهدوا فيها أن لا إله إلا الله ما دامت تتضمن أنه لا حلف إلا بالله ولا سجود إلا لله؟! وقد قلنا من قبل إن السجود أقصى مظاهر الخضوع، ومتفق على أنه عبادة من حيث الجملة، فما بالك بما سواه من المعاني التفصيلية التي تذكرونها لمعنى الشهادة من النذر والاستغاثة والحلف التي هي أصلا محل خلاف في كونها عبادة؟!

المبحث الثاني: دعوى أن المشركين امتنعوا عن النطق بكلمة التوحيد لعلمهم بالمعنى الصحيح لها

فدعواكم أن "علمهم بالمعنى الصحيح هو الذي منعهم من النطق" غير صحيح! وذلك لسببين؛ الأول: أن هذا مخالف لأحاديث في الباب، والثاني أن ثمة ما ينقض ذلك من كلام النجدي نفسه . وإليك بيان ذلك في مطلبين:

المطلب الأول: نقض دعواكم بأحاديث في الباب

لقد رفض مشركو قريش دعوة النبي ﷺ قبل أن يطلب منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، مجرد أنه قال لهم "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" كما سبق بيانه¹، ولذلك ذكر تعالى في سورة ص إنكارهم للرسول قبل أن يذكر إنكارهم للتوحيد، هذا فضلا عن أن الذي منعهم من الإيمان بالنبي والتوحيد، وبما جاء به أمور أخرى كثيرة كالحسد والكبر والتعنت وتقليد الآباء، ونحو ذلك مما سبق بسطه².

والذي يدل على ما قلناه هو ما رواه البخاري: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال (أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله) . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به على ملة عبد المطلب .. الحديث³.
فها هو أبو طالب أبي النطق بكلمة التوحيد وهو على

¹ انظر: ص (376) عند حديث : (بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب)

² انظر: ص (386) عند آية : (على رجل من القريتين)

³ صحيح البخاري - (3 / 1409)، 3671، كتاب فضائل الصحابة، باب أيام الجاهلية، باب قصة أبي طالب.

فراش الموت، فأبي أصنام ستمنعه شهادةً (لا إله إلا الله) من عبادتها؟! وأي أموات ستقطع تلك الشهادة عن دعائها، وهو على فراش الموت؟!!

وروى مسلم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله لعمه: "قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة"، قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينك..¹. "وقوله: لولا أن تعيرني قريش.. أي: تسبني وتقبح علي"². اهـ

ويؤكد ذلك أبو طالب في شعره فيقول³:

وأيده رب العباد بنصره .. وأظهر ديننا حقه غير زائل

فوالله لولا أن أجيء بسبة .. تجر على أشياخنا في المحافل

لكننا اتبعناه على كل حالة .. من الدهر جدا غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مكذب .. لدينا ولا يعني بقول الأباطل⁴

قال القرافي: "فهذا تصريح باللسان واعتقاد بالجنان غير أنه لم يدعن"⁵. وقال القرطبي: والذي

اختلف فيه المشركون والمسلمون أمور: منها البعث، ومنها عبادة الأصنام، ومنها إقرار قوم بأن محمدًا حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد، كأبي طالب⁶. اهـ

وقال الشنقيطي: وقد بين أبو طالب في شعره: أن السبب المانع له من اعتناق الإسلام ليس كراهية

الحق، ولكنه الأنفة والخوف من ملامة قومه أو سبهم له كما في قوله: لولا الملامة أو حذار

¹ صحيح مسلم - (1 / 55)، 42، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع.

² المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (1/ 194)، صحيح مسلم مع شرح الأبي (1/ 112)

³ وقد نقل هذه الأبيات وغيرها صاحب كتاب شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص215، مستدلاً بها على أن أبا طالب كان مقراً بتوحيد الربوبية.

⁴ وهي قصيدة طويلة أوردها ابن هشام في سيرته (1/ 278)، وابن كثير في البداية والنهاية ط هجر (4/ 142) ثم قال: هذه قصيدة عظيمة فصيحة بليغة جداً؛ لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعاً. اهـ وانظر الموسوعة في صحيح السيرة النبوية - العهد المكي (ص: 285)، لمحمد إلياس الفالوذة، مطابع الصفا.

⁵ شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (2/ 46)، وانظر السيرة الحلبية (1/ 496).

⁶ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (12/ 325)

مسببة.. لوجدتني سمحا بذاك يقينا¹. اهـ "ثبت بهذا أن أبا طالب لم يعتقد أن ما كان قومه عليه من الشرك حقا، ولم يمنعه من الدخول في الإسلام إلا خوف أن يسب أسلافه فقط، ومع هذا مات مشركا كما ثبت في الصحيح، وهذا يبين فساد هذا القيد"².

ويؤيده أيضا ما رواه الكلبي أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة، جمع إليه وجوه قريش، فأوصاهم فقال:.. وإني أوصيكم بمحمد خيرا، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن..3. اهـ

وقال الحافظ ابن حجر: حكى الله تعالى عن كفار قريش: وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا، فكان كفرهم عنادا، ومنشؤه من الأنفة والكبر، وإلى ذلك أشار أبو طالب بقوله: لولا أن تعيرني قريش⁴.

فقول أبي طالب: "لولا أن تعيرني قريش"، وقوله: "فوالله لولا أن أجيء بسببة.. تجرّ على أشياخنا في المحافل"، صريح بأن الذي منعه من الإيمان هو التعيير والسببة، وهذا منشؤه الكبر كما قال الحافظ، ولم يقل أبو طالب أنا لن أؤمن لأن ذلك سيقطع عليه دعاء الأموات كما يدعي ابن عبد الوهاب وأحفاده وأتباعه.

المطلب الثاني: قول النجدي (وأنا ذلك الوقت لا أعرف معنى "لا إله إلا الله") ينقض دعواكم

يصرّح ابن عبد الوهاب النجدي في رسائله ومخاطباته بأنه هو ومشايخه ومن قبلهم من العلماء والعوام لا يعلمون معنى الشهادة، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يعرف معناها أجلاف العرب ومشركوهم!!؟

¹ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (5/ 878)

² بيان كلمة التوحيد والرد على الكشميري عبد الحمود (مطبوع ضمن الرسائل والمسائل النجدية، الجزء الرابع، القسم الأول) (ص: 334)

³ شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (2/ 46)، الروض الأنف ت السلامي (4/ 20)

⁴ الإصابة في تمييز الصحابة (7/ 114)

وإليكم بعض مراسلات النجدي في ذلك، فهو يقول مثلاً: "من مُجَّد بن عبد الوهاب، إلى من يصل إليه هذا الكتاب من المسلمين.. قاموا يجادلون ويلبسون على الناس، ويقولون: كيف تكفرون المسلمين؟ كيف تسبّون الأموات؟.. وأنا أخبركم عن نفسي، والله الذي لا إله إلا هو، لقد طلبت العلم، واعتقدت من عرفني أن لي معرفة، وأنا ذلك الوقت لا أعرف معنى "لا إله إلا الله"، ولا أعرف دين الإسلام قبل هذا الخير الذي من الله به، وكذلك مشايخي، ما منهم رجل عرف ذلك. فمن زعم من علماء العارض أنه عرف معنى "لا إله إلا الله"، أو عرف معنى الإسلام قبل هذا الوقت، أو زعم عن مشايخه أن أحداً عرف ذلك، فقد كذب وافتري، ولبس على الناس، ومدح نفسه بما ليس فيه"¹. اهـ

ويقول ابن عبد الوهاب في رسالة أخرى: من مُجَّد بن عبد الوهاب، إلى عبد الله بن عيسى، وابنه عبد الوهاب.. وبعد، فقد ذكر لي أحمد أنه مشكل عليكم الفتيا بكفر هؤلاء الطواغيت، مثل أولاد شمسان وأولاد إدريس، والذين يعبدونهم مثل طالب وأمثال.. وأنتم ومشايخكم ومشايخهم لم يفهموه، ولم يميّزوا بين دين مُجَّد ﷺ ودين عمرو بن لحي الذي وضعه للعرب، بل دين عمرو عندهم دين صحيح، ويسمون رقة القلب، والاعتقاد في الأولياء، ومن لم يفعل فهو متوقف لا يدري ما هذا، ولا يفرق بينه وبين دين مُجَّد ﷺ². اهـ

وقد تم تفنيد هذا الكلام، وبيان ما فيه من تكفير لعلماء نجد في زمن ابن عبد الوهاب فضلاً عن عوامهم!! فقيل: ((لا ريب عندي وعند كل منصف إن شاء الله أن هذا فيه تكفير صريح للصفوة من علماء وقضاة أهل نجد وشيوخهم وشيوخ شيوخهم فكيف بالعوام؟! وهذا ما لا نقرّ به اليوم فكل الكتب التاريخية عن منطقة نجد تذكر العلماء والقضاة وطلبة العلم المسلمين من أيام ابن عضيبي في

1 الرسائل الشخصية (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ مُجَّد بن عبد الوهاب، الجزء السادس) (ص: 186)، و«احتساب الشيخ مُجَّد بن عبد الوهاب (رحمه الله)» (ص: 76)، مرفت بنت كامل أسرة، دار الوطن، و«حركة التجديد والإصلاح في نجد» (ص: 62)، عبد الله العجلان، ط1 / (1989م).

2 «الرسائل الشخصية (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ مُجَّد بن عبد الوهاب، الجزء السادس)» (ص: 240)، «الدرر السننية في الأجوبة النجدية» (57 / 10)

القرن التاسع إلى أيام الشيخ مُجَدِّد، وقد ترجم المؤرخون المعاصرون لكثير من علماء أشيقر وشقرا وبريدة وعنيزة وحرملاء والعينة والرياض والخرج والأفلاج وغيرها قبل الشيخ مُجَدِّد؛ وهناك إجماع معاصر على أن هؤلاء ليسوا كفاراً ولا عبدة أصنام.

نعم قد يكون عند بعضهم أو كلهم تجويز للتبرك بالصالحين أو ضعف دعوي أو بعض البدع.. وهي أمور غاية ما يقال فيها أنها بدع أو أخطاء عقديّة (إيمانية)، لكن أن يكونوا عبدة أصنام ويفضّلون دين عمرو بن لحي على دين مُجَدِّد بن عبد الله فهذا كلام باطل لا يقوّه منصف، ولا أظن عاقلاً يجرؤ على مثل هذا الكلام، ونبراً إلى الله من تكفير المسلمين، ونسأل الله أن يغفر للشيخ هذا (التكفير الصريح) لعلماء نجد رحمهم الله.

وقد ذكر الشيخ ابن حميد في كتاب (السحب الوابلة) كثيراً من علماء نجد في عصر الشيخ وقبله. وللشيخ عبد الله البسام كتاب (علماء نجد خلال ثمانية قرون)، ولم يتهم أحداً منهم بالبدعة فضلاً عن عبادة الأصنام وتفضيل دين عمرو بن لحي! وكتب الشيخ القاضي عن (علماء نجد) وكذا الشيخ بكر أبو زيد في كتابه (علماء الحنابلة) وغيرهم، ولم نجد أن أحداً منهم أو من غيرهم ممن ترجموا للعلماء قبل الشيخ أو في عصره أن أحد هؤلاء العلماء كان يعبد الأصنام أو يدين بغير الإسلام!! ونعوذ بالله من اعتقاد هذا، فهذا مثال واضح من الأمثلة التي تؤكد أن الشيخ وقع في التكفير وأخطأ فيه رحمه الله وسامحه)¹.

¹ داعية وليس نبياً قراءة لمذهب الشيخ مُجَدِّد بن عبد الوهاب في التكفير مع نقد تفصيلي لكتابه كشف الشبهات (ص: 82)، حسن بن فرحان المالكي، دار الرازي.

والحاصل أن المشركين لم يكونوا يعلمون أن شهادة لا إله إلا الله تعني أنه لا سجد ولا طواف ولا ذبح ولا نذر إلا لله؛ لأن كثيرا من الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يعلمون ذلك حتى بعد إسلامهم، وعلى التسليم بأنهم كانوا يعلمون ذلك فليس هذا المعنى هو الذي منعهم من النطق بها ومن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وكذبوه قبل أن يدعوهم إلى التوحيد مجرد أن قال لهم "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، مع أنهم كانوا يعلمون صدقه وأن ما يدعوهم إليه حق، ولكن الكبر والحسد وتقليد الآباء ونحو ذلك منعهم من الإيمان.

الفصل الثالث: دعوى أن المشركين قوتلوا ليقروا بمعنى كلمة التوحيد ومقتضاها

يدعي السلفية أن النبي ﷺ قاتل المشركين ليقروا بمعنى كلمة التوحيد ومقتضاها ولم يقاتلهم على مجرد النطق بها، وإيكم بسط ذلك ومناقشته في مبحثين، كل منهما في مطلبين:

المبحث الأول: عرض الدعوى ونقضها

المطلب الأول: دعوى الحفيد ونقضها

وفي ذلك يقول الحفيد "وعبأد القبور لما رأوا أن النبي ﷺ دعا قومه إلى قول لا إله إلا الله ظنوا أنه إنما دعاهم إلى النطق بها فقط، وهذا جهل عظيم، وهو عليه السلام إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها، ويتركوا عبادة غير الله.. وإلا فلو قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة لم يكونوا مسلمين، ولقاتلهم عليه السلام حتى يخلعوا الأنداد، ويتركوا عبادتها ويعبدوا الله وحده" (1). ولقاتلهم "ليكون الدعاء كله لله ، والنذر كله لله ، والاستغاثة كلها بالله ، وجميع أنواع العبادات كلها لله.." 2. فقد "أبيح قتالهم وعدم رفع السيف عنهم حتى يقروا بشهادة أن لا إله إلا الله تلفظاً، وفهم معنى وتنفيذ مقتضى، والكفر بما يعبد من دون الله" 3. وإن "طلب الشفاعة هو الذي حورب من أجله الأولون وأرسل لأجل قمعه المرسلون" 4.

والجواب: أن هذا كلام فيه خلط عجيب ودعاوى سبق إبطالها فضلاً عن أنه لا علاقة له بقضية تقسيم التوحيد، وفيما يلي بيان ذلك: أولاً: أما الدعوى التي سبق أن أبطلناها فأولها: أن المشركين موحدون في الربوبية، وثانيها: أن المعنى الصحيح لكلمة التوحيد هو "لا سجد ولا طواف ولا ذبح ولا نذر .. إلا لله"، وثالثها أن هذا المعنى لكلمة التوحيد علمه المشركون ولذلك أبوا النطق بها. فكل هذا سبق نقضه مطولاً، والله الحمد.

(1) تيسير العزيز الحميد ص 184

2 كشف الشبهات لابن عبد الوهاب (ص: 16).

3 مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 367)

4 جهود علماء الحنفية (3/ 1424)

ثانيا: ما الفائدة من تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية؟! إذا كانت الفائدة هي معرفة سبب كفر المشركين، فقد بيّنا أن المشركين ارتكبوا من الكفر ألوانا وأفنانا كثيرة، هذا كله سوى ما يتعلق بكفرهم بسبب عبادتهم للأصنام، وإن كانت الفائدة هي القول بأن عبادة غير الله شركٌ وكفر فهذا أمر مقرر في آيات بيّنات صريحة كثيرة تفوق الحصر، وهو معلوم من الدين بالضرورة بغضّ النظر عن الفرق بين الربوبية والألوهية، وإن كانت الفائدة هي أن تبطلوا تفسير لا إله إلا الله بـ لا خالق إلا الله، فقد ذكرنا أن هذا تفسير صحيح سلكه كثير من العلماء، ورددنا كل ما تعلقتم به لإبطال هذا التفسير، كما أننا ذكرنا أن تفسيرها بلا معبود بحق إلا الله هو نفسه تفسيرها بلا خالق إلا الله، لأن المعبود بحق هو الخالق بإقراركم كما سبق¹.

وإن كانت الفائدة هي القول بأن الشفاعة والاستغاثة والنذر والذبح والطواف والحلف والسجود، ونحو ذلك، لا يكون إلا الله، وأن فعله غيره شرك أو ذريعة إليه، فما هكذا تُوزع أحكام الشرك والكفر بناء على هذه النظرية المهلهلة لتقسيم التوحيد التي لم يثبت حتى الآن أيُّ من أصولها أو مقدماتها كما رأينا، وإنما هذه المسائل تناقش كل منها على حدة، ويعطى حكمها على ضوء الأدلة من الكتاب والسنة وما قرره فقهاء السلف والمذاهب الأربعة، وهو ما سنبسطه لاحقا في مجلد خاص نتحدث فيه عن آثار نظرية تقسيم التوحيد إن شاء الله تعالى.

ثالثا: لم نقل قط بأن المطلوب هو النطق بشهادة أن لا إله إلا الله وترديدها كالبيغاء فحسب، دون فهم معناها ولا التزامٍ بمقتضاها، وأنه يمكن للمكلف بعد ذلك أن يخرق السبع الطباقي، فيقول ما يشاء ويفعل ما يشاء، ثم يدخل الجنة بغير حساب بمجرد نطقه بلا إله إلا الله وإن قال بعد ذلك الكفر البواح! وارتكب من الموبقات والكبائر ما لا حصر له!! فهذا كله لم نقل به، بل نقول إن المكلف يجب أن ينطق بلا إله إلا الله ويكون عارفاً بمعناها فلا بد "من فهم لا إله إلا الله مُجِّد رسول الله، لأن من لم يفهم معناها لم ينتفع بها"²، وكذا يجب أن يكون عاملا بمقتضاها فإن من "أقرّ بالشهادتين فإن من لازم الإيمان بالله

1 تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله ص (396)

2 تهذيب شرح السنوسية، د. سعيد فودة (ص: 89)

ورسوله التصديق بكل ما ثبت عنهما والتزام ذلك فيحصل ذلك لمن صدق بالشهادتين"⁽¹⁾. وإنّ
"النطق بالشهادتين يدلُّ على الدخول في الدين والتصديق بكلِّ ما تضمَّنه"². وذلك "يتضمن التزام
جميع أحكام الإسلام"³.

ولكن السؤال هنا: ما هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وما هو مقتضاها؟ هنا محل الخلاف، فإن
كان معناها ومقتضاها ما تزعمون من أنه لا سجود ولا نذر ولا طواف ولا استغاثة إلا بالله، فهذا غير
صحيح كما بسطناه⁴، وإنما معناها الإجمالي لا خالق ولا معبود بحقٍ سواه تعالى.

المطلب الثاني: دعوى احتمال استمرار المشركين على شركهم مع نطقهم بكلمة التوحيد

لم نقل قط بأن المشركين لو نطقوا بلا إله إلا الله واستمروا في الوقت نفسه على عبادة الأوثان فإن
النبي ﷺ سيترك قتالهم، ولا هذا متصوّر أصلاً لسببين: الأول: كيف يقولون لا إله إلا الله ثم يستمرون
على عبادتها؟ وهم ما عبدوها أصلاً إلا لأنهم غالبوا فيها وادعوا لها الألوهية وعبدوها لضربها ونفعها. قال
ابن تيمية: "كانوا يتخذون آلهة يستجلبون بعبادتها المنافع ويستدفعون بها المضار"⁵. وقال ابن القيم
"ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتى جعل فيه حظ من الإلهية،
وشبهوه بالله سبحانه"⁶. اهـ وهكذا فافتراض أن يقولوا لا إله إلا الله ثم يستمروا في عبادة الأصنام هو
كافتراض أن يقولوا لا إله إلا الله ثم يستمروا على القول بتعدد الآلهة، ويستغربوا من أن يكون الإله واحداً
كما قال تعالى على لسانهم: {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: 5]، وإذا كان
الافتراض الأخير غير واقع فالأول كذلك.

(1) فتح الباري (13 / 354)

2 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (1 / 188)

3 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2 / 399)

4 انظر: ص (412) عند قولي: (هي اسم جامع لكل ما)

5 درة تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7 / 391)

6 إغاثة اللفغان من مصابيد الشيطان (2 / 226)

وذلك لأنهم إذا شهدوا أن لا إله إلا الله فقد تراجعوا عن قولهم بتعدد الآلهة، وعن زعمهم أن أصنامهم آلهة، وبالتالي سيتكون عبادتها ما داموا قد تراجعوا عن القول بإلهيتها، خصوصاً أنكم تقولون بأنهم فهموا من كلمة التوحيد "إفراد الله تعالى بالتعلق، والكفر بما يُعبد من دون الله، والبراءة"⁽¹⁾، "فعرفوا أنها تقتضي ترك عبادة ما سوى الله وإفراد الله بالعبادة"⁽²⁾. و"أدركوا أن الرسول حينما قال لهم قولوا لا إله إلا الله فقد طلب منهم ترك عبادة الأصنام وعبادة الله وحده"⁽³⁾، إذن فكيف يعبدونها بعد أن يُقرّوا أنه لا إله إلا الله!؟

السبب الثاني: إن النبي ﷺ مأمور أن يقاتلهم حتى يشهدوا أنه رسول الله لأن الحديث يقول "أمّرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. فإذا شهدوا له بذلك فقد شهدوا بأن النبي ﷺ صادق فيما ادّعاه من الرسالة والنبوة بعد أن كانوا يجحدون رسالته ويكذبونه، ويكذبون بكل ما جاء به من عند ربه كما قال تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [ص: 4]، فنطقهم بأن محمداً رسول الله ﷺ هو تراجع منهم عما اتهموا به رسول الله من الكذب والسحر والكهانة والشعر ونحو ذلك، بل إن شهادتهم بأن محمداً رسول الله هو أيضاً إقرار منهم أيضاً بأن الله واحد لا شريك له، لأنهم كانوا يكذبون النبيّ فيما ادّعاه من أن الإله واحد كما في قوله تعالى {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: 5]، وقوله {وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَرُكَو آهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصفّات: 36]، وهو . أي شهادتهم بأن محمداً رسول الله . إقرار منهم أيضاً ببطلان عبادتهم للأصنام، وذلك لأن النبيّ بلغهم عن ربّه مرارا وتكرارا أن الله هو الذي ينبغي أن يُعبد وحده، وأن عبادة غير الله أمر باطل وسفّه وشرك وكفر كما في قوله تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ }، {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}، وقوله

(1) كشف الشبهات لابن عبد الوهاب ص16.

² تيسير العزيز الحميد لحفيد ابن عبد الوهاب ص 183

(3) بيان حقيقة التوحيد للفوزان ص24.

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ }، والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدا، وقد بسطنا الكلام عليها في كتاب سابق¹.

وهكذا فمجرد إقرارهم بأن مُحمَّدًا رسول الله ﷺ: كاف لأن يتركوا عبادة الأوثان، ولو فرضنا جدلا أنهم استمروا على عبادة الأوثان بعد أن شهدوا أن مُحمَّدًا رسول الله، فهذا يعني أنهم كذبوه ثانية فيما جاء به من أن الإله واحد، وهو الله، وأن عبادة غير الله كفر وشرك، أي أنهم نقضوا الشهادتين، وبالتالي فللنبي أن يقاتلهم مرة ثانية حتى يشهدوا الشهادتين مرة ثانية، وهكذا.

والحاصل أن نبد عبادة الأوثان يتأتى من المشركين بمجرد الشهادة للنبي بالرسالة فقط، بل هم سوف يلتزمون بكل ما جاء به النبي ﷺ من عقائد وشرائع بمجرد شهادتهم أنه رسول الله ﷺ، ولذلك قال بعض الفقهاء بأن الوثني إذا شهد أن مُحمَّدًا رسول الله يكفيه ذلك للدخول في الإسلام كما سبق، وهو مذهب الحنفية، قال ابن مودود: إذا قال: لا إله إلا الله، أو قال: أشهد أن مُحمَّدًا رسول الله.. فهذا كله إسلام². اهـ وهو رواية عن أحمد، قال المجد ابن تيمية: ولا يغني قوله أشهد أن مُحمَّدًا رسول الله عن كلمة التوحيد، وعنه يعني³.

بل عرّف بعض العلماء الإيمان بأنه "تصديق القلب بما علم مجيء الرسول ﷺ به ودعاؤه الخلق إليه وحثّه الأمة عليه"⁴، وإليه ذهب الأشعري وغيره⁵، ويدلّ عليه حديث ابن صياد عند الشيخين وفيه "قال: أشهد أني رسول الله.."⁶. قال العيني: وفيه عرض الإسلام على الصغير، واحتج به قوم على

1 انظر كتابنا: تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله ص (498)

2 الاختيار لتعليل المختار (4/ 150)، وقال الكاساني في بدائع الصنائع (7/ 102): "وكذلك إذا قال أشهد أن مُحمَّدًا رسول الله

لأنهم يمتنعون من كل واحدة من كلمتي الشهادة فكان الإتيان بواحدة منهما أيتها كانت دلالة الإيمان". اهـ

3 المحرر في الفقه (2/ 168)، وانظر الإنصاف للمرداوي الحنبلي 335/10، دار إحياء التراث العربي ط2.

4 طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (1/ 87).

5 قال الزركشي في تشنيف المسامع (4/ 183): قال الأشعري: الإيمان: التصديق بكل ما علم بالضرورة مجيء الرسول به. ونحوه

قول اللقاني: الإيمان هو التصديق للرسول عليه السلام بما علم مجيئه به ضرورة. انظر: شرح مختصر خليل للخرشي (دار الفكر) ج8

ص67، وانظر: الغيث الهامع شرح جمع الجوامع (ص: 77)، وحاشية الصاوي على الجوهرة ص 16، وتحفة المرید للبيجوري ص 90.

⁶ صحيح البخاري بتحقيق البغا (5/ 2284)، صحيح مسلم (4/ 2244)

صحة إسلام الصبي إن قارب الاحتلام، وهو مقصود البخاري من تبويبه بقوله: وهل يعرض على الصبي الإسلام؟¹. وقال ابن حجر: ويدل على صحة إسلام الصبي، وأنه لو أقرّ لُقبل لأنه فائدة العرض².

إذن فالمشركون بمجرد أن يشهدوا أنه رسول الله ﷺ سيكفون عن عبادة الأصنام، فما بالك إذا نطقوا بالشرط الأول من الشهادة وهو أن لا إله إلا الله التي فيها رجوع عن زعمهم بأن أصنامهم آلهة تُعبد من دون الله، فما بالك إذا اتبعوا النبي ﷺ في كل ما جاء به، كما قال تعالى: { فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [الأعراف: 158]، فمن أين يتأتى لهم عبادة الأوثان حينئذ؟ فهل كان النبي ﷺ يعبد الأوثان . حاشاه . حتى يُتصور أن المشركين يمكن أن يؤمنوا به ويتبعوه ثم يستمروا على عبادة الأوثان؟! إن هذا من أعجب العجب الذي أفرزته لنا نظرية تقسيم التوحيد.

1 عمدة القاري (8 / 243)

2 فتح الباري (6 / 172)

المبحث الثاني: تقرير وجوب الكف فوراً عن نطق بكلمة التوحيد

إن من ينطق بلا إله إلا الله يجب الكف عنه بمجرد نطقه بها، حتى لو قالها نفاقاً أو خوفاً من السيف أو طمعا في دنيا أو نحو ذلك، فلا نفتش عن باطنه لنعلم هل قالها صدقا أو كذبا، ولا ننتظر حتى نرى هل فهم معناها وعمل بمقتضاها أو لا؟ وقد دلّ على ذلك عدة أحاديث صحيحة صريحة سنأتي على ذكر بعضها، هذا فضلا عن نصوص ابن تيمية نفسه ونصوص أتباعه في ذلك، وإليكم بسط ذلك في مطلبين.

المطلب الأول: الأحاديث الدالة على وجوب الكف عن قال لا إله إلا الله بمجرد نطقه بها

الحديث الأول: روى الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله" ¹، هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم نحوه وهو "فمن قال: لا إله إلا الله، عصم مني ماله، ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله" فالحديث صريح في أن مجرد قول لا إله إلا الله يعصم الدم والمال.

ولما كان الحديث صريحا في هذا المعنى راح ابن عبد الوهاب وأتباعه يؤوّلونه على معنى أن النبي ﷺ "إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها" ويتركوا عبادة غير الله "كما سبق، ورأينا كيف راحوا يشتمون من أخذ بظاهر الحديث، حيث قال الحفيد "وعباد القبور لما رأوا أن النبي ﷺ دعا قومه إلى قول لا إله إلا الله ظنوا أنه إنما دعاهم إلى النطق بها فقط" ⁽²⁾، ثم يستدرك الحفيد فيذكر دليله لهذا التأويل فيقول: "وإلا فلو قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة لم يكونوا مسلمين، ولقاتلهم عليه السلام حتى يخلعوا الأنداد ويتركوا عبادتها".

والجواب من وجوه: الوجه الأول: إن استنباط الحفيد لعلّة قتال النبي ﷺ للمشركين: باطل من أصله، لأن العلة منصوطة في قوله "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا .."، فإن "حتى" نصّ في العليّة

1 صحيح البخاري بتحقيق البغا (3/ 1077)، صحيح مسلم (1/ 52)

(2) تيسير العزيز الحميد ص 184

كما ذكر ذلك الأصوليون والنحويون⁽¹⁾، أي أنها أحد الحروف التي يُنصّ بها على علة الحكم، ومثله قوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [البقرة: 193]. فالنبي ﷺ في حديث "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" نصّ على علة قتاله نصّا فلا حاجة لاستنباطها، وليس هذا فحسب بل أكد النبي ﷺ ذلك بقوله في حديث أبي هريرة السابق "فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله"، ونحوه في حديث الشيخين . واللفظ للبخاري . عن ابن عمر: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم"². وفي حديث جابر مرفوعاً عند مسلم: فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها³. وفي حديث مسلم: ..فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله»⁴.

فأنت تلاحظ من خلال روايات الصحيحين هذه أو إحداهما أن النبي ﷺ يؤكد مرتين، في أول الحديث وفي آخره على أن قتاله للمشركين هو من أجل أن ينطقوا بلا إله إلا الله، وفي بعضها حتى ينطقوا بالشهادتين، وفي بعضها حتى ينطقوا بالشهادتين وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأنه إذا قالوا ذلك وفعلوه فقد عصموا دماءهم وأموالهم، فما دام النبي ﷺ قد نصّ على العلة فلا اجتهاد مع النص، ولا عبرة بقول أحد بعد قوله وتأكيده، وهذا أظهر على أصولكم منها أن من التوحيد "توحيد متابعة الرسول ﷺ - بكمال التسليم والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق؛ كأنه سمع رسول الله ﷺ مباشرة يقوله، وعدم معارضته بالقياس والعقول، وعدم تقديم أقوال الأئمة على أمره وقوله"⁵، ومنها عدم تأويل

(1) انظر: مغني اللبيب 1/122، البحر المحيط 3/226، مباحث العلة عند الأصوليين ص363، تعليل الأحكام ص160، الجنى

الداي ص554، الأزهية ص215.

² صحيح البخاري بتحقيق البغا (1/17)، صحيح مسلم (1/53)

³ صحيح مسلم - (1/52) برقم (35)، كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله.

⁴ صحيح مسلم (4/1871)

⁵ جهود علماء الحنفية - (1/104)

الآيات والأحاديث وتحريفها "تحريفات قرمطية"¹، فأين ذهبت أصولكم هذه حين ذهبتم تشتمون من أخذ بحديث النبي ﷺ وبنصّه؟!

الوجه الثاني: إن استنباط معنى من سياق الحديث أو سباقه يكرّر ويعود عليه بالبطلان: لا يصح؛ كما قرر ذلك الأصوليون(2)، وبذا فإن استنباطكم لعلّة القتال باطل، لأن المعنى الذي استنبطتموه يُبطل المنطوق وهو أن قتال المشركين معيّا بمجرد نطقهم بالشهادة، وأنتم تقولون إنهم لو نطقوا بها ولم يعملوا بمعناها لوجب قتالهم، فالمعول عليه عندكم هو العمل بمعناها لا بالنطق بها فحسب، وهذا إبطال للنص.

الوجه الثالث: حديث "أمرت أن أقاتل الناس.." هو أحد الأصول التي يستدل بها العلماء على أن المكلف بمجرد نطقه بالشهادة وجب الكفّ عنه ولو قالها كذبا ونفاقا أو خوفا من السيف أو نحو ذلك مستدلين . فضلا عمّا تقدم من أن النبي ﷺ نصّ مرتين فيه على أن العلة في قتال الناس هو مجرد النطق بالشهادة . بما وقع في آخر الحديث نفسه: "وحسابهم على الله:" "أي حساب سرائرهم إن أظهرها ما يحقن دماءهم ويعصمهم وأبطنوا خلافه كما فعله المنافقون"³. حيث "يُحكم له في الدنيا بأحكام المسلمين، وهو عند الله من أسوأ الكافرين"⁴. فبالنسبة للمنافقين "نحكم عليهم بالإيمان، ونؤاخذهم بحقوق الإسلام، بحسب ما يقتضيه ظاهر حالهم، والله سبحانه يتولى حسابهم، فيثيب المخلص، ويعاقب المنافق، ويجازي المسرّ بفسقه أو يعفو عنه"⁵. وهذا يدل على " أن محاسبة العباد على سرائرهم وخفيان اعتقادهم إلى الله دون خلقه، وأن الذي جعل للنبي (ﷺ)، وإلى الأئمة بعده ما ظهر من أمورهم دون ما خفي"⁶. "وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر، والاكتفاء في قبول الإيمان

1 جهود علماء الحنفية (191 /1)

(2) انظر البحر المحيط 152/5، شرح العضد 228/2، نشر البنود 149/2، تيسير التحرير 31/4، أصول السرخسي 165/2، حاشية البناني 247/2، شرح الكوكب 82/4، الآيات البيّنات 51/4، نهاية السؤل 117/3.

³ إكمال المعلم بفوائد مسلم (1 /248)

⁴ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (1 /189)

⁵ تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة للبيضاوي (1 /46) ونحوه في شرح المشكاة للطبي (2 /453)

⁶ شرح صحيح البخاري لابن بطلال (1 /77)

بالاعتقاد الجازم خلافا لمن أوجب تعلم الأدلة"¹. اه ففي "الحديث دليل على أن أمور الناس في معاملاتهم جارية على الظاهر من أحوالهم دون باطنها"⁽²⁾ و"فيه اشتراط التلفظ بكلمتي الشهادة في الحكم بالإسلام، وأنه لا يكف عن قتالهم إلا بالنطق بهما"⁽³⁾.

الحديث الثاني: روى الشيخان حديثا وفيه :.. قال خالد بن الوليد يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟ قال (لا لعله أن يكون يصلي) . فقال خالد: وكم من مُصَلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه! قال رسول الله ﷺ: (إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم)⁽⁴⁾. أي "إني أمرت بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر"⁵.

الحديث الثالث: جاء في حديث أسامة: فأدرت رجلا فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقه في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟» قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفا من السلاح، قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟»⁶. اه فيه "دليل على حمل الناس على الظواهر؛ لأن البواطن لا يوصل إليها، ولا يعلم ما فيها إلا علام السرائر"⁷. "ومعناه أنك إنما كلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه، فأنكر عليه امتناعه من العمل بما ظهر باللسان"⁸. وهذا "دليل على ترتيب الأحكام على الأسباب الظاهرة الجليلة، دون الباطنة الخفية"⁹.

¹ فتح الباري (1 / 77)

(2) شرح المصايح لابن الملك (1 / 37).

(3) عمدة القاري شرح صحيح البخاري - (1 / 489)

(4) صحيح البخاري بتحقيق البغا (4 / 1581)

5 شرح النووي على مسلم (7 / 163)

6 صحيح البخاري بتحقيق البغا (4 / 1555) صحيح مسلم (1 / 96)

7 إكمال المعلم بفوائد مسلم (1 / 373)

8 شرح النووي على مسلم (2 / 104)

9 المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (1 / 296)، فتح الباري (12 / 196)

والحاصل أن هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة تفيد الاقتصار على ما ينطق به اللسان من شهادة أن لا إله إلا الله، وأن بها فقط يُعصم الدم والمال والعرض حتى ولو قالها كذبا أو نفاقا أو خوفا أو لأي غرض دنيوي، ولكن في الآخرة لن تفيده إن قالها كذبا أو نفاقا أو نحو ذلك.

المطلب الثاني: نصوص ابن تيمية وأتباعه في وجوب الكف عن من قال لا إله إلا الله

فقد أكد ابن تيمية وأتباعه أيضا . ولو نظريا . على وجوب الكف عن من قال لا إله إلا الله بمجرد نطقه بها، وفيما يلي بعض نصوصهم:

(1) قال ابن تيمية "قبول الإسلام الظاهر يجري على صاحبه أحكام الإسلام الظاهرة : مثل عصمة الدم والمال.. وهذا يكفي فيه مجرد الإقرار الظاهر وإن لم يعلم ما في باطن الإنسان.. وأما الإيمان الباطن الذي ينجي من عذاب الله في الآخرة فلا يكفي فيه مجرد الإقرار الظاهر، بل قد يكون الرجل مع إسلامه الظاهر منافقا، وقد كان على عهد رسول الله ﷺ منافقون"¹.

(2) وقال ابن القيم : "وحسابهم على الله"، فاكتمى منهم بالظاهر ووكل سرائرهم إلى الله"².

(3) وقال الألباني: فقول المسلم أي مسلم كان: لا إله إلا الله محمد رسول الله هذا بلا شك ينجيه من عذاب الدنيا ألا وهو القتل.. لكن لا ينجو أمام الله عز وجل من الخلود في النار إلا إذا قام بحق هذه الكلمة، وأول حقها هو عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له³. اهـ

(4) وقال الألباني أيضا: فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا بها دماءهم وأموالهم، إذا قالوها عن عقيدة.. عن إيمان.. أو عن خوف قتل.. خوف دفع جزية أو ما شابه ذلك؛ لذلك كان الإسلام غير الإيمان، فالإسلام عمل ظاهري، والإيمان عمل باطني⁴.

وحاصل هذه النصوص أن مجرد نطق المكلف بالشهادة كافٍ في عصمة دمه في الحياة الدنيا لحديث "أمرت أن أقاتل الناس.."، فظاهر هذا الحديث مراد، وهو أن مجرد النطق بلا إله إلا الله كافٍ في عصمة

¹ درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7/ 434)

² إعلام الموقعين عن رب العالمين (3/ 506)

³ موسوعة الألباني في العقيدة (2/ 474)

⁴ موسوعة الألباني في العقيدة (4/ 121)

الدم ، وليس كما زعم الحفيد أنه مؤؤل! ولذا راح يشتم من قال بظاهره، وجعله من "عباد القبور"، كيف
 وقد سبق قول ابن تيمية "، وهذا يكفي فيه مجرد الإقرار بالظاهر وإن لم يعلم ما في باطن الإنسان"
 فهل ابن تيمية من عباد القبور!؟

وعليه فإن المشركين بمجرد أن ينطقوا بلا إله إلا الله عصموا دماءهم ولو قالوها كاذبين، وهذا بنصّ
 الأحاديث السابقة، وبالتالي فإن شهادة المشركين أن لا إله إلا الله لن تقطع عليهم دعاء الأموات كما
 زعم الحفيد، لأنه يمكن أن يشهدوا بألسنتهم أن لا إله إلا الله نفاقاً، ثم يستمرون في الباطن في دعاء
الأصنام وبيقون على الاعتقاد بألوهيتها، لأن عصمة دمائهم مناعة _ كما قال ابن تيمية _ بالظاهر
 _ وهو النطق بالشهادتين _ لا بالباطن ، وهكذا لن تقطع عليهم الشهادة شيئاً مما زعمه الحفيد!

الفصل الرابع: دعوى أن سبب كفر المشركين الوحيد هو التشفع بال صالحين

وبيان ذلك أن السلفية ذكروا أن المشركين "لم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل.. يعتقدون أن هذه تماثيل لقوم صالحين من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم شفعاء، ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب"¹. "فما كان كفرهم، وشركهم إلا نداؤهم² لآلهتهم.. واتخاذهم لهم شفعاء ووكلاء"³. "وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها"⁴. بل إن "قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم"⁵، مع أنهم "ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة"⁶. والحاصل أن "شرك المشركين كان شرك الوسيلة"⁷، أي "إنما كان شركهم شرك شفاعة وتوسل إلى الله بال صالحين أنبياء وأولياء لمكائنتهم ووجاهتهم عند الله"⁸.

والجواب: أولاً: هذا الكلام تضمن مقدمات غير مسلمة سبق نقضها: منها أن المشركين موحدون في الربوبية، ومنها أن المشركين لم يكفروا ولم يشركوا، ولم يقاتلهم النبي ﷺ إلا بسبب قضية التشفع بالأنبياء، ونحو ذلك مما تسمونه توحيد الألوهية، فقد بينا سابقاً أنهم غير موحدون في الربوبية⁹، وأنهم كفروا بوجوه كثيرة سوى قضية التشفع وعبادة الأصنام¹⁰.

1 شرح الطحاوية لابن أبي العزط الأوقاف السعودية (ص: 31)

2 كذا في الأصل، والصواب بالنصب أي: إلا نداؤهم، لأنه خير كان، وسيأتي بيان ذلك. انظر: ص (465) عند قولي: كتبت الهمة على واو

3 جهود علماء الحنفية (1/ 372)

4 مجموع الفتاوى (1/ 150)

(5) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص 16

6 كشف الشبهات (ص: 24)

7 موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 167)

8 موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 135)

(9) وذلك في كتابنا (البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية)

(10) انظر: ص (239) عند آية (وكنا نكذب بيوم الدين)

ثانيا: نأتي الآن إلى قضية كفر المشركين بسبب التشفع بالأنبياء ونحو ذلك، وهو ما يسميه ابن تيمية وأتباعه توحيد الألوهية، لنقول: إن القدر الذي نسلّم به هنا هو أن في سبب كفر المشركين في القسم المتعلق بما تسمونه توحيد الألوهية هو أمر واحد فقط، وهو أن المشركين لم يكونوا يشهدون أن لا إله إلا الله، بل كانوا يعددون الآلهة فيتخذون الأوثان آلهة من دون الله، ولذلك عبدوها.

والغريب أن ابن تيمية وأتباعه تجاهلوا هذا الأصل مع أنه واضح كالشمس في رابعة النهار. وهو تعدد الآلهة عند العرب . فلم يربطوا به سبب كفرهم وشركهم، وإنما راحوا يرتّبون كفرهم وشركهم على أمور كانت ثمرات وفروعا لهذا الأصل، مثل التشفع بالأصنام والسجود والذبح والنذر والسجود لها والطواف والاستغاثة بها ونحو ذلك، فأناط ابن تيمية وأتباعه الكفر والشرك هنا بالفروع، وتجاهلوا الأصل الذي انحدرت منه هذه الفروع وهو تعدد الآلهة عند المشركين، لذلك ترى ابن عبد الوهاب يقول عن المشركين بأن "قصدهم الملائكة ، والأنبياء ، والأولياء ، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم" ، وترى الأفغاني يقول "فما كان كفرهم، وشركهم إلا نداؤهم¹ لآلهتهم والنذور التي كانوا يندرون لها. واتخاذهم لهم شفعاء ووكلاء"².

فأنت ترى أن سبب كفر المشركين عند هؤلاء هو التشفع والنذور والاستغاثة بالأصنام ونحو ذلك، ولكن السؤال هنا: لماذا فعل المشركون هذه الأمور للأصنام، أي لماذا عبدوها؟ أليس لأنهم اتخذوها آلهة من دون الله؟! وتأمل قول الأفغاني نفسه "نداؤهم لآلهتهم" إذن هم ينادون الأصنام على أنها آلهة؟ فهل سبب الكفر هنا مجرد نداءهم أو هو كونهم يعتقدون الألوهية فيمن ينادونه؟! وهكذا يقال في سائر الأمور التي يؤدونها للأصنام من نذور وطواف وسجود وغير ذلك، فهذه الأفعال التي فعلوها للأصنام لا شك أنها كفر عظيم وشرك أكبر، ولكن الكفر والشرك جاء هنا لكونهم فعلوها عبادة لمن يعتقدون أنها آلهة من دون الله، لا لكون هذه الأمور من السجود والطواف والنداء والنذور ونحو ذلك هي: كفر وشرك بحد ذاتها، بل هذه طاعات إذا تُقرب بها إلى الله، وبالمقابل هي ليست شركا لكونها فُعلت لغير الله، لأن هذه الأمور قد تفعل على غير وجه العبادة

¹ سيأتي بيان أن الصواب كتابة الهمزة على السطر، انظر: ص (465) عند قولي: كتبت الهمزة على واو

كالسجود لغير الله للتكريم كسجود الملائكة لآدم، وكذا سجود يعقوب ليوسف عليهما السلام من باب التحية كما قرناه من كلام ابن تيمية نفسه¹، وليس كما زعمتم من أنه "من سجد لآخر فقد اتخذه ربا وعبده، وإن لم يسم سجوده عبادة والمسجود له ربا"²، وإلا لكان الملائكة عابدين لآدم بمجرد سجودهم له وكان يعقوب عابدا لابنه يوسف عليهم السلام، وهكذا، وقد بسطنا ذلك في كتاب خاص بتعريف العبادة وشروطها وسيطع لاحقا إن شاء الله.

والمقصود هنا أن السلفية أغفلوا الأصل الذي بسببه وقع المشركون في عبادة الأصنام وهو ادعائهم الألوهية في تلك الأصنام، وراحوا . أي السلفية . يرتبون الكفر والشرك على أمور مسائل متفرعة عن ادعاء المشركين الألوهية في أصنامهم، ثم زعموا أن هذه المسائل هي بحد ذاتها سبب كفر المشركين، وليس السبب هو زعم المشركين أن الأصنام هي آلهة يتقرب إليها بهذه الأمور !! وكذا قضية تشفع المشركين بالملائكة فهي ثمرة لادعاء المشركين أن الملائكة بنات الله، فجاء ابن عبد الوهاب وأتباعه ورتبوا الكفر على مجرد تشفع المشركين بالملائكة لا لكونهم زعموا أنها بنات الله! وقد سبق أن نقلنا قول أحد أتباعه وهو العبد اللطيف: "يتبين من خلال هذه النقول أن هؤلاء الخصوم يدعون أن العلة التي أوجبت كفر المشركين، هي اعتقادهم في الأنبياء، والملائكة أنهم أبناء الله وبناته - تعالى الله عن ذلك -، أو اعتقادهم أن الأصنام تنفع وتضر، وليست علة كفرهم اتخاذهم الأصنام، أو الأولياء شفعاء كي تقرهم عند الله زلفى" اهـ

والسؤال هنا لم أغفل السلفية الأصل وهو تعدد الآلهة عند العرب وربطوه بفروع هذا الأصل؟ بمعنى آخر لم لم يربطوا كفر المشركين بكونهم يعددون الآلهة؟! والجواب بسيط وهو أنهم لو ربطوه بالأصل لانسد عليهم تكفير خصومهم المسلمين بهذه الفروع والمسائل كالتشفع بالصالحين، فلو أنهم قالوا بأن المشركين كفروا بتعدد الآلهة لا بهذه المسائل، لما كفروا المسلمين بقضية التشفع هذه؛ لأنه لا أحد من المسلمين يعدد الآلهة، بل الكل يشهد أنه لا إله إلا الله، ولذلك هم . أي السلفية . ادعوا بأن مسألة التشفع بالصالحين بحد ذاتها كفر كما قال ابن عبد الوهاب عن المشركين: "قصدهم

1 انظر: ص (419) عند قولي : (سجدا ويقال كانت تحيتهم)

2 جهود علماء الحنفية (3/ 1428)

الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم"(1).

طبعاً هذا الإغفال والتجاهل الذي قام به السلفية لقضية تعدد الآلهة عند العرب ينسجم مع صنيعهم السابق حين تجاهلوا كل وجوه الكفر والشرك التي اقتصروا عليها المشركون جهاراً نهاراً من سبهم الله ونسبة الولد إليه وتكذيبهم للنبي واستهزائهم به، ورميه بالجنون والسحر والكهانة، ومن تكذيبهم للقرآن وقولهم عنه بأنه إفاك وأساطير الأولين وكفرهم بالبعث إلى غير ذلك من الوجوه الكثيرة التي سبقت، كل هذا تجاهلوه لكي يحصروا كفر المشركين بقضية التشفع بالصلحين وبالتالي ليكفروا المسلمين بها.

ليس هذا فحسب بل رأينا كيف راح كثير من السلفية يجادل عن المشركين، ويدافع عنهم، ويحاول تأويل كثير من خصال كفرهم، بل راح يسرد لهم مناقب كثيرة كما سبق بسطه، وهنا في هذا الباب أيضاً حاولوا أن يتأولوا للمشركين قضية تعديدهم الآلهة، ويقللوا من أهميتها وخطورتها لئلا يرتبوا الكفر عليها وإنما بالشفاعة كما رأينا، فزعموا أن الإله عند المشركين لم يكن بمعنى الخالق وإنما بمعنى من يُقصد للشفاعة والدعاء والنذر والعبادة، وفي ذلك ابن عبد الوهاب يقول: "وأن قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم. إلى أن يقول: فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور سواء كان ملكاً، أو نبياً، أو ولياً، أو شجرة، أو قبراً، أو جنياً لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدمت لك. وإنما يعنون بالإله ما يعنى المشركون في زماننا بلفظ (السيد)"². اهـ

ويذكر شراح كتابه أن "مراده بالسيد ما يعتقد الجهال في بعض الأشخاص الدجالين والمشعوذين الذي يلبسون على العوام بأنهم أهل كرامات وتصرف في الأمور وأنه ينبغي الالتجاء إليهم ودعائهم والتوسل بهم إلى الله.. وهذا مراد الشيخ رحمه الله"³. اهـ وقال الفوزان: وإنما يعنون

(1) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14

2 كشف الشبهات لابن عبد الوهاب (ص: 16)

3 الإبطال والرفض لعدوان من تجرأ على كشف الشبهات بالنقض (ص: 174)، عبد الكريم الحميد، دار الصفوة، ط1/ 2007 م.

بالإله ما يعني المشركون في زماننا أي زمان المؤلف بلفظ السيد، وإلى الآن يسمون هؤلاء الذي يدعون صلاحهم ويتقربون إليهم يسمونهم السادة كالسيد البدوي والسيد الرفاعي والسيد التيجاني، إلى غير ذلك يعتقدون أن هؤلاء السادة لهم منزلة عند الله تؤهلهم أن يتوسطوا لهم عند الله وتؤهلهم أن يدعوا من دون الله ويدبح وينذر لهم ويطاف بقبورهم ويتبرك بها. فالمشركون الأولون يسمون هذه الأشياء آلهة والمشركون المتأخرون يسمون هذه الأشياء وسائط ووسائل وشفعاء، والأسماء لا تغير الحقائق فهي آلهة¹.

قال الحازمي: "إذا السيد هو الذي يقصد لأجل التوسط عند الله، فالمشركون الأولون يسمون هذه الأشياء آلهة، والمتأخرون يسمونها السيد أو وسائط أو وسائل أو شفعاء أو الشيخ أو السر أو نحو ذلك، فهذه كلها ألفاظ وإن تغيرت وكثرت إلا أن مردها أنه الذي تُصرفُ إليه أنواع من العبادات، الذي يجعل واسطةً بين الخلق وخالقه فتصرف له أنواع من العبادات لأجل ذلك. إذاً لا فرق بينهم وبين أولئك²".

وقال المصلح: "(..في زماننا بلفظ السيد) الذي يصرفون له أنواع العبادات، وهذا موجود في بعض البلدان والأماكن فيطلقون على من يصرفون لهم أنواع العبادات: السادة أو الأولياء أو الصالحين، أو بما اصطلاحوا عليه من الألفاظ التي سموها هؤلاء الذين يصرفون لهم العبادات من دون الله"³.
"وأوضح الشيخ هذه العبارة في مؤلفاته الأخرى ، فقال: ((وأما قولي: إن الإله الذي فيه السر، فمعلوم أن اللغات تختلف، فالمعبود عند العرب، والإله الذي يسمونه عوامنا (السيد)، و(الشيخ)، و(الذي فيه السر)، والعرب الأولون يسمون الألوهية ما يسميها عوامنا (السر)؛ لأن السر عندهم هو القدرة على النفع الضر، وكونه يصلح أن يدعى ويرجى ويخاف ويتوكل عليه))"⁴، وقال صالح

1 شرح كتاب كشف الشبهات - الفوزان (ص: 36)

2 شرح كشف الشبهات للحازمي (7/ 12، ت.ش.)

3 شرح كشف الشبهات لخالد المصلح (3/ 3، ت.ش.)

4 تعليقات على كشف الشبهات (ص: 18)، د.عبد العزيز بن محمد بن علي آل عبد اللطيف.

آل الشيخ : ولهذا يستعملون في السادة الذين يقصدون لأجل العبادات والتوسط يقولون فيهم: قدس الله سرّ فلان¹.

فتأمل كيف حاول ابن عبد الوهاب وأتباعه التقليل من شأن تعديد المشركين للآلهة، والتهوين من إطلاق المشركين على أصنامهم "آلهة" بالقول إنهم لم يقصدوا بالآلهة أنها خالقة، وإنما قصدوا بالآلهة ما يقصد به خصوم ابن عبد الوهاب بـ "السيد، والشيخ، والسرّ" ونحو ذلك ممن يُقصد بالندر والذبح والتبرك ونحوها، وهي نفس القضايا التي سيكفر ابن عبد الوهاب خصومه!!
ومهما يكن من أمر فإن قولكم أن مشركي العرب لم يقصدوا بالإله الخالق، وإنما قصدوا به الذي يُقصد للتوسط وللشفاعة ويتقرب إليه بالندر والدعاء وسائر العبادات: ليس من ورائه طائل لأسباب؛ أولاً: إن قول المشركين بتعدد الآلهة هو كفر بحد ذاته بغضّ النظر عما يقصدون بكلمة إله أهو الخالق أم المعبود أم شيء آخر، وذلك لأن القول بتعدد الآلهة هو تكذيب للرسول جميعاً الذين جاؤوا بأنه لا إله إلا الله، كما قال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، قال ابن تيمية: وأما التوحيد الذي ذكره الله في كتابه وأنزل به كتبه وبعث به رسله واتفق عليه المسلمون من كل ملة فهو كما قال الأئمة شهادة أن لا إله إلا الله وهو عبادة الله وحده لا شريك له².

ثانياً: ليس كلامنا ولا نزاعنا الآن في مقصد المشركين من "الإله" هل هو الخالق أو هو المعبود، ولا كلامنا في هل قصدوا بقولهم عن أوثانهم بأنها آلهة: أنها خالقة أو لا؟ فهذا فرغنا من البحث منه، وأثبتنا أن المشركين مشركون في الربوبية وإقرار السلفية أنفسهم، وإنما كلامنا ونزاعنا هنا أنه هل تعدد الآلهة عند المشركين كما قال تعالى عنهم في الآية التي طالما استشهدتم بها وهي: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5]: هل هذا التعديد للآلهة بحد ذاته: كفر؟ أو أن الكفر هو فقط في عبادة غير الله؟ أو أن الكفر في كليهما: أي في تعديد الآلهة وفي عبادة غيره تعالى؟ وهل مجرد إطلاق المشركين على أوثانهم أنها آلهة كما قال تعالى ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾

1 شرح كشف الشبهات - صالح آل الشيخ (ص: 95)

2 الفتاوى الكبرى (6/ 564)

[الصفات: 36]: كفر أو هذا ليس بكفر؟ وأن الكفر فقط في عبادتهم للأوثان وليس في إطلاقهم عليها آلهة؟!]

لا يخلو: أن تقولوا إن مجرد إطلاق المشركين كلمة آلهة على أوثانهم: هو كفر ولو لم يتشفعوا بها وحتى لو لم يعبدوها، أو أن تقولوا: إن مجرد إطلاق المشركين كلمة آلهة على أوثانهم: ليس كفراً، وإنما الكفر والشرك هو في تشفعهم بها وعبادتهم لها، أو أن تقولوا: إن الكفر وقع بكليهما أي أن الكفر هو في إطلاقهم عليها آلهة وفي عبادتهم لها.

فهذه ثلاثة احتمالات، فإن قلتم بالأول؛ وهو أن مجرد إطلاق "إلهة" على أوثانهم هو شرك ولو لم يتشفعوا بها ولا عبدوها: فهذا مسلم ولكن هذا لا يخدمكم بل ينقض مذهبكم كما سيأتي، وكذا إن قلتم بالثالث؛ وهو أن الكفر وقع بكليهما أي بقولهم عنها آلهة وعبادتها، فهذا أيضاً مسلم ولا يخدمكم بل ينقض قولكم بأن "قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم"⁽¹⁾. ويبطل أيضاً قولكم "فما كان كفرهم، وشركهم إلا نداءهم² لآلهتهم والندور التي كانوا يندرون لها. واتخاذهم لهم شفعاء ووكلاء"³. اهـ

فهذا باطل ما دتمتم أقرتم بأن مجرد إطلاق كلمة الآلهة على أوثانهم كفر مستقل، ويبطل حصركم لكفرهم بقضية التشفع ونحوها، وبالتالي يبطل ما تبنون على ذلك من أن التشفع بالأنبياء. عليهم السلام. شركٌ قياساً على تشفع المشركين بالأوثان، بحجة أن هذا هو الذي كفر به مشركو العرب!! لأن هذه الحجة سيردها الخصم بأن الذي كفر به المشركون هنا هو تشفعهم بمن ادعوا فيه الإلهية، فالشرك هنا إنما هو في ادعائهم الإلهية فيمن تشفعوا فيه لا في التشفع نفسه، فمجرد ادعائهم الإلهية في أوثانهم: شرك بحد ذاته كما أقرتم بذلك هنا.

(1) كشف الشبهات لابن عبد الوهاب ص14

2 كذا وقعت في المطبوع، أي كتبت الهمزة على واو، وهو خطأ إذ الصواب كتابتها على السطر لأنها همزة شاذة منصوبة على أنها خبر كان، وقد كتبت الكلمة نفسها على الصواب في موضع آخر من الكتاب نفسه وهو «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» (2/ 1148): «فما كان كفرهم وشركهم إلا نداءهم لآلهتهم».

3 جهود علماء الحنفية (1/ 372)

فقياسكم باطل لأنه قياس مع الفارق المؤثر¹، وهو أن أولئك تشفعوا بأوثانهم على أنها آلهة بخلاف التشفع بالأنبياء من قبل المسلمين الذين يشهدون أن لا إله إلا الله كما سيأتي بسطه. وهذا تماما كتشفع المشركين بالملائكة التي زعموا أنها بنات الله، فالكفر هنا والشرك ليس في التشفع بهم، وإنما في زعمهم أنهم بنات الله، بل إنه "من الكفر العظيم القول بأن الملائكة بنات الله، وهو من مختلقات العرب الجاهليين"²، ولذا قال ابن باز " أمَّا وَصْفُهُم بِالْأَنْوَةِ فَهَذَا مُنْكَرٌ وَكُفْرٌ وَضَلَالٌ، وقد أنكره الله على المشركين"³.

وسيطل أيضا زعم ابن عبد الوهاب "أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله"، فهذا سيطل ما دتمتم أقرتم بأن مجرد إطلاقهم آلهة على أوثانهم هو بحد ذاته كفر وشرك أكبر مناقض لشهادة لا إله إلا الله التي قاتلهم النبي ﷺ على النطق بها كما تقدم بيانه.

وإن قلتهم بالاحتمال الثاني وهو أن مجرد إطلاق المشركين كلمة آلهة على أوثانهم ليس كفرا ولا شركا أكبر، وإنما الشرك الأكبر في تشفعهم بها وعبادتهم لها، فالأمر ظاهر ولا يحتاج جوابا أصلا، لأن هذا مؤداه أنه ليس من الشرك ولا من الكفر أن يدعي المكلف أن للكون إلهين، أو ثلاثة، أو حتى مليار إله أو ما لا يحصى من الآلهة، بل له أن يدعي الإلهية في كل شيء يريد، ولكن بشرط أن لا يتشفع به ولا يعبده...!!

1 وثمة فرق آخر وهو أن أولئك تشفعوا بالحجارة الصماء التي نحتوها بأيديهم وادعوا فيها الإلهية والشفاعة، وأما تشفع المسلمين فهو بالأنبياء والصالحين، والزعم بأن أوثان المشركين كانت رموزا لأنبياء وصالحين: باطل قطعاً لوجوه كثيرة أحدها أن المشركين يكفرون بالأنبياء ويتشاءمون بهم فكيف يتشفعون بهم؟ وسيأتي بسط ذلك بعون الله.

² انظر موقع إسلام ويب ، <https://www.islamweb.net/ar/fatwa/291181> /ماهية-الملائكة-وأوصافهم-في-الكتاب-والسنة

3 انظر على الشبكة العنكبوتية: الدرر السنية لعلوي السقاف / المطلب الخامس: الملائكة لا يُوصفون بالذكر ولا بالأنوثة.

<https://dorar.net/aqeeda/1109> /المطلب-الخامس-الملائكة-لا-يوصفون-بالذكورة-ولا-

بالأنوثة#:~:text=ضل%20مشركو%20العرب%20حين%20زعموا،ويُسألون%20%5B%20الزخرف%3

.A%2019%5D%20

وإذا آل الأمر إلى هذا المآل فما هو مصير ما تسمونه بتوحيد الألوهية الذي قلتم بأن الله لأجله "بعث رسله"¹ و"أن الله قد أنزل لتحقيقه الكتب وأرسل للدعوة إليه الرسل"² وأن شهادة لا إله إلا الله هي "تحقيق لتوحيد الإلهية"³، وأنه قد "تواتر عنه ﷺ أنه أول ما دعا الخلق إلى شهادة أن لا إله إلا الله"⁴، وأن المكلف "لا يعصمه أن يقول لا خالق إلا الله بإجماع المذاهب"⁵. وكذا "لا رب إلا الله.. لا رازق إلا الله.. الله إله، ونحو ذلك من الكلمات، فلا يدخل بها المرء في الإسلام البتة"⁶، وأنه من قال بدخول الإسلام بمثل هذه العبارات فقد "ارتكب حمقا جليا" و"كفى به ضلالا وإضلالا!!" فما مصير كل هذه الدعاوى الآن؟! وأي شيء يتبقى منها ومن نظرية تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية.. حتى نرد عليه ونهدمه!؟

فإن قلتم: "بل له أن يدعي الإلهية في كل شيء يريد، ولكن بشرط أن لا يتشفع به ولا يعبده:" هذا غير متصور، لأن الإله هو المعبود لأنه مشتق من إله يأله أي عبد عبادة، وبالتالي فكيف يدعي المشرك بأن شيئا ما هو إلهه، ولا يعبده؟ هذا معناه أنه يقول: هذا إلهي أي معبودي ولكن لا أعبد، وهذا هذيان لا ينطق به عاقل، وبالتالي فإطلاق كلمة الإله على الشيء، وعبادته بالشفع به ونحو ذلك: أمران متلازمان لا ينفكان إذ "الإله والتأليه" ما هو إلا "هذا الالتجاء والتوكل والرجاء، بمثل طلب الشفاعة".

قلنا: أولا: الإله مختلف في اشتقاقه ومعناه على أقوال كثيرة سبقت⁷، أحدها ما ذكرتم من أنه المعبود، فالإشكال السابق يرد على هذا القول، ولا يرد على ما سواه من الأقوال الكثيرة التي قيلت في الإله واشتقاقه، فمثلا على القول بأن الإله سُمي بذلك لأن القلوب تطرب بذكره، أو لأن العقول

1 دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 336)

2 جهود علماء الحنفية (1/ 117)

3 الفتاوى الكبرى (5/ 232)

4 مجموع الفتاوى (20/ 456)

5 دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 345)

6 جهود علماء الحنفية (1/ 200)

7 انظر كتابنا: تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله ص (49)

لا تسكن إلا إلى ذكره، أو لاحتياج الخلق إليه: كيف يَرِدُ على هذه الأقوال سؤالكم وهو أنه "كيف يدّعي المشرك بأن شيئاً ما هو إلهه، ولا يعبده؟ هذا معناه أنه يقول: هذا إلهي أي معبودي ولكن لا أعبده، وهذا هذيان!"!

ثانياً: سلّمنا أن الإله هو المعبود، ولكن لماذا قال "هذا إلهي أي معبودي" أليس بناءً على اعتقاده أنه فيه صفات يستحق بها الألوهية والعبادة، فإن "الآلهة الأصنام سُميت بذلك لاعتقاد المشركين أنها تستحق العبادة"¹. وما هي تلك الصفات التي استحققت بها الألوهية والعبادة سوى العلم بالغيب والتدبير والتأثير والضر والنفع؟! فإن "استحقاق العبادة إنما يكون بالقدرة الذاتية، فأما القدرة الموهوبة من الله فإنها لا تفيد في استحقاق العبادة، فإن بني آدم أنفسهم يملكون ما ملكهم الله تعالى ويعقلون بعقل موهوب لهم منه، ولم يستحقوا العبادة"²، ولذلك فقد "كانوا يتخذون آلهة يستجلبون بعبادتها المنافع ويستدفعون بها المضار"³. "ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتى جعل فيه حظ من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه"⁴. و"كانوا يعتقدون أن هذه الأصنام وما يسكنها من روحانيات لها تأثير في تحقيق ما يريدون"⁵، وأن تلك الأصنام والتماثيل "أولو قدرة غيبية"⁶، ولذلك "فهم ما صرفوا لها أنواع العبادة إلا لاعتقادهم أنها باب عظيم لحصول ما يرجون من نصره أو رزق أو نحو ذلك"⁷، وقد سبق بسطه⁸.

1 عقيدة التوحيد في القرآن الكريم لملكاوي (ص: 80)

2 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 502)

3 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7/ 391)

4 إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان (2/ 226)

5 تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي (2/ 168)

6 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (3/ 1003)

7 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 296، 297

8 انظر: ص (449) عند قولي: (الغلو في المخلوق)

ثالثاً: هذا - أي: هذا معبودي ولا أعبدته - مُتصوّر حتى على القول بأن الإله هو المعبود، فكم من المسلمين العصاة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله ولا يصلّون ولا يصومون ولا يقومون بأي عبادة لله بل يسرقون ويزنون، إلى غير ذلك.

رابعاً: قولكم "عبادة الشيء وإطلاق كلمة الإله عليه أمران متلازمان لا ينفكان" غير صحيح، بل هما أمران منفكان، فالأول منهما - وهو العبادة - هو ثمرة للثاني - وهو التأليه - وليس العكس، أي أن اعتقاد الألوهية في شيء ما: يأتي أولاً، ثم تأتي عبادته ثانياً كثمرة لذلك الاعتقاد، وليس العكس، فالمشركون عبدوا الأوثان لأنهم اعتقدوا أنها آلهة أي فيها صفات تستحق أن تعبد من أجلها كالقدرات الخارقة والتأثير الغيبي والضر والنفع كما سبق بيانه للتو، ولم يعبدوها أولاً ثم يطلقوا عليها آلهة ثانياً باعتبار أن المعبود يسمى إلهاً؛ فهذا غير صحيح لأنه عكس للقضية، ولأنه خلاف مفهوم الإله في القرآن!

إذ كثير من آيات القرآن نفت الإلهية عن الأصنام لأنها لا تعقل ولا تقدر، ولا تدفع عن أنفسها الضر والنفع، مثل قوله تعالى: قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: 98-99] ، وقال تعالى ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91] قوله "ولعلا بعضهم.. " أي "لنغالبوا، فلعلا بعضهم على بعض، وغلب القوي منهم الضعيف؛ لأن القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً"1، "والعاجز لا يفعل شيئاً، فلا يكون لا ربا ولا إلهاً"2.

لا يقال: لعل اعتقادهم بأنها تشفع وطلبهم الشفاعة منها هو تأليه وعبادة لها، لأننا نقول: هذا مردود بقول المعلمي اليماني نفسه "إذن فهل اعتقادهم في الملائكة أنهم يشفعون هو التأليه والعبادة أو ركن لهما؟ كلاً؛ فإنّ هذا الاعتقاد باعث لهم على العبادة فكيف يكون هو العبادة؟.. وأيضاً فاعتقاد أن الملائكة يشفعون في الجملة أمرٌ يقرُّ عليه الشرع ويثبتته، والآيات في ذلك كثيرة". اهـ ثم

1 جامع البيان ت شاكر (66 / 19)

2 منهاج السنة النبوية (315 / 3)

يذكر المعلمي أن التأليه والعبادة هنا هو في إشراكهم في التلبية في الحج، وتسميتهم عبد العزى ونحوه، وقسمهم بهذه الأسماء وذكرهم إياها عند الذبح ونحو ذلك¹.

فتأمل كيف جعل اعتقادهم الشفاعة باعنا لهم على العبادة، وهذا صريح في أن هذا الاعتقاد هو سبب عبادتهم للملائكة، فالعبادة إذن نتيجة لاعتقادهم وليست مقدمة.

فإن قلت: ولكن المشركين "لا يشبتون للملائكة شيئاً من التصرف"² كما ذكر المعلمي نفسه، وذكر أيضا أنهم إنما نسبوا لله البنات دون الذكور "كيلا يلزمهم الإشراف في الملك والتدبير"³، وذلك أن المشركين "يعرفون من عادتهم أن الولد الذكر يشارك أباه في ملكه، حتى لقد يتغلب عليه، وأما الأنثى فهي كل على أبيها، ليس لها شيء من ملكه.. فاختاروا أن يقولوا: إنَّ لله عزَّ وجلَّ بنات؛ ليكونوا قد نزهوه عن العقر، بدون أن يلزمهم أن يشركوا معه في الملك والتدبير"⁴. قلنا: سبق أن رددنا على قول اليماني هذا⁵ فلا معنى لإعادته.

ثم إن المشركين كانوا يزعمون في الملائكة وفي الأصنام التي يعبدونها أنها بنات الله، قال الطبري: فكذلك سمي المشركون أوثانهم بأسماء الله تعالى ذكره، وتقدست أسماءه، فقالوا من الله اللات، ومن العزيز العزى؛ وزعموا أنهن بنات الله، تعالى الله عما يقولون وافتروا⁶. اه فهم "إنما يعبدون الملائكة بعنوان أنهم

1 ونص المعلمي "إذن فما هو التأليه وما هي العبادة؟ ثم يجيب فيعدد منها:

أعمالهم التي فيها تعظيم للإنان الخيالات التي هي في زعمهم الملائكة.

كانوا يشركون في التلبية في الحج ..

وكانوا يسمون: عبد اللات، عبد العزى، عبد مناة.

وكانوا يُقسمون بهذه الأسماء ويذكرونها عند الذبح.

وكانوا يجعلون لهم نصيباً من أموالهم يصرفونه في تطيب الأصنام.

انظر: آثار المعلمي اليماني (2/ 536)

2 آثار المعلمي اليماني (6/ 177)

3 آثار المعلمي اليماني (6/ 177)

4 آثار المعلمي اليماني (6/ 162)

5 انظر: ص (334) عند قولي: (الشريك بمائل شريكه)

6 جامع البيان ط هجر (22/ 46)

بنات الله، تعالى الله عن ذلك، بحيث لو اعترفوا أنهم ليسوا بنات الله لما عبدوهم، فالعبادة موجّهة إلى صفة البنتيّة وقد قام البرهان على عدمها¹، إذن "شركهم في الألوهية.. كان عندهم مرتبطاً بدعوى الولد، كما هو بيّن من عدة آيات.. وفي قصة إسلام طلحة.. فقال طلحة: أدعوك إلى عبادة اللات والعزّى، فقال أبو بكر: وما اللات والعزى؟ فقال طلحة: بنات الله.."². و"قولهم: إن تلك الأوثان بنات الله.. من أبطل الباطل وأحلّ المحال، وإنما كان القوم متهوّرين متهوّسين لا يبالون بما قالوا"³.

فإن قلت: نحن نسلم بأن تعديدهم للآلهة هو بحدّ ذاته كفر وشرك، وكذا قولهم عن الملائكة بنات الله، ولكن أيضاً تشقّعهم بها كفر بحدّ ذاته. وفي ذلك يقول ابن عبد الوهاب في كشف الشبهات، وهو يقرّر إيرادا لخصمه، ثم يرد عليه: ((فإن قال: إنهم لا يكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما يكفرون لما قالوا: الملائكة بنات الله، فإننا لم نقل: عبد القادر ابن الله ولا غيره. فالجواب: إن نسبة الولد إلى الله كفر مستقل))⁴. اهـ

قلنا: إذن لمّ زعم ابن عبد الوهاب في أول كتابه أن "قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دمائهم وأمواهم(5)"، ولمّ زعمتم أنه "فما كان كفرهم، وشركهم إلا نداؤهم⁶ لألهتهم والندور التي كانوا يندرون لها، واتخاذهم لهم شفعا ووكلاء"⁷؟ فهنا أنتم في هذه النصوص وغيرها حصرتم كفرهم وشركهم في قضية التشفع؟! والآن تراجعتم عن هذا الحصر، وهذا يبطل زعمكم أن التشفع بحدّ ذاته شرك، لأن حجّتكم على ذلك كانت هي الحصر، حيث كنتم تزعمون . كما فعل ابن عبد الوهاب في أول كتابه كشف الشبهات . أنه لا شيء أوجب سفك دمائهم وكفرهم

¹ آثار المعلمي اليماني (518 /2)

² آثار المعلمي اليماني (443 /11)

³ آثار المعلمي اليماني (29 /4)

⁴ كشف الشبهات (ص: 29)

(5) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص16

⁶ سبق بيان أن الصواب كتابة الهمزة على السطر، انظر: ص (465) عند قولي : كتبت الهمزة على واو.

⁷ جهود علماء الحنفية (372 /1)

سوى قضية التشفع هذه! ثم أقرّ في ثنايا كتابه أن ثمة كفرا مستقلا سوى ذلك وهو قول المشركين عن الملائكة أنها بنات الله، تعالى الله عن ذلك.

وليس هذا هو التراجع الوحيد بل ثمة تراجع آخر من أحد أتباع ابن عبد الوهاب حيث قال: "أما تكذيب قريش بالبعث فكفر مستقل حتى لو لم يشركوا"¹، بل هذا ابن تيمية يقول عن المشركين بأنهم كانوا "ينكرون توحيد الإله وبعث رسله وشرائع دينه، وبه وقع منهم الكفر"²، فإنكار المشركين للبعث كفر مستقل، وإنكارهم للرسل كفر مستقل، وقولهم عن الملائكة بنات الله: كفر مستقل، فكيف يقال إن سبب كفرهم هو فقط تشفعهم بالأنبياء!؟

ثم إنه من الغريب أن تجعلوا "من يقول: (لا إله إلا الله)، ولكن لا يفهم معناها، ولا يعمل به فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا"⁽³⁾! حسنا، هذا شأن من يقولها ولا يفهم معناها فما بالكم بمن أبي أن ينطق بها؟ فما بالكم بمن استنكرها فقال - كما حكى الله عنه - {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: 5]، فما بالكم بمن قال عن النبي ﷺ شاعر مجنون لأنه - أي النبي - قال بها، كما في قوله {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} [الصفات: 36]، فما بالكم إذا زاد على ذلك، وقال عن الملائكة التي يتشفعون بها: بنات الله؟ فما بالكم إذا أضف على ذلك إنكار القرآن كله والاستهزاء به وبالرسول وبإنكار اليوم الآخر؟! كل هذا ليس كفرا يوجب سفك دماء المشركين...!! فقط الذي أوجب سفك دمائهم هو "قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دمائهم وأموالهم"؟!؟

إن ابن تيمية يرى أن "كل طائفة ممتنعة عن شريعة واحدة من شرائع الإسلام الظاهرة، أو الباطنة المعلومة، فإنه يجب قتلها، فلو قالوا: نشهد ولا نصلي قوتلوا حتى يصلوا، ولو قالوا: نصلي ولا نزكي قوتلوا..ولو قالوا: نفعل هذا لكن لا ندع الربا، ولا شرب الخمر، ولا الفواحش، ولا نجاهد..ونحو ذلك.

1 الإبطال والرفض لعدوان من تجرأ على كشف الشبهات بالنقض (ص: 39)

2 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (8/ 511)

(3) انظر: جهود علماء الحنفية (1 / 165) وانظر تيسير العزيز الحميد (183)

قوتلوا حتى يفعلوا ذلك"1، فتأمل كيف يرى أن أكل قوم للربا مثلا موجب لقتالهم وسفك دمائهم وهذا متحقق في أهل الجاهلية حيث كانوا يأكلون الربا كما سبق في حديث، "وربا الجاهلية موضوع"²، أي أن أكل الربا بمفرده موجب لقتالهم فما بالك إذا انضم إلى ذلك الكفر بالقرآن وبالرسول وباليوم الآخر والقول بأن الملائكة بنات الله؟!

وإذا كنتم لا تسلمون لنا بأن كل هذه الأمور السابقة من تكذيب القرآن وتكذيب الرسول والتكذيب بالبعث ونحو ذلك هي: كفر، مع أنها أمور جلية قطعية متفق عليها والآيات الصريحة التي تدل على أن هذا كفر: لا تعد ولا تحصى، فكيف تريدون أن نسلم لكم بما زعمتم من أن سبب كفر المشركين هو تشفعهم بالأنبياء؟!

ونحن نسأل: هل وجدتم في القرآن آيات تدل على أن السبب الذي أوجب كفر المشركين وتخليدهم في النار هو تشفعهم بالأنبياء؟! فإن قلتم: نعم والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدا.

قلنا: أولا: أوجدتم ذلك، ولم تجدوا في القرآن أن كفرهم بالأنبياء واستهزاءهم بهم ورميهم بالجنون والسحر وبالكهانة وبالكذب، ومحاربتهم وقتالهم لهم: كفر؟!

أوجدتم في القرآن آيات كثيرة جدا تدل على أن تشفعهم بالأنبياء: كفر، ولم تجدوا في القرآن أن كفرهم بالقرآن نفسه وقولهم عنه بأنه إفك وأساطير الأولين وسحر وشعر وكهانة: كفر؟! أوجدتم في القرآن ذلك ولم تجدوا فيه أن كفرهم بيوم القيامة وجحدهم البعث والنشور وتكذيبهم بالجنة والنار فيه: كفر يخلدهم في النار يوم القيامة؟! إن هذا لشيء عجيب!!

ثانيا: رأيتم تلك الآيات الكثيرة التي تتحدثون عنها، ما قولكم في رجل جحدها! أو على الأقل شكك في ثبوتها وليس بدلالاتها فحسب؟! أليس كافرا إجماعا؟ فما بالكم إذا قال بأن تلك الآيات إفك مبين وشعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين؟! فما بالكم إذا قال بأن القرآن كله جملة وتفصيلا كذلك، وليس تلك الآيات التي تتحدث عن قضية التشفع بالأنبياء كما قال تعالى عن المشركين { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ

1 مجموع الفتاوى (51 / 22)، وانظر أيضا مجموع الفتاوى (511 / 28)، الفتاوى الكبرى (3 / 557)

2 انظر: ص (158، و 248، 276) عند حديث: (وربا الجاهلية موضوع)

الأولین اکتتبها فهی تملى علیه بُکرَةً وَأَصِيلاً { [الفرقان: 4، 5]؟! فما بالکم إذا أضاف إلى ذلك قولاً بأن النبي ﷺ كان ساحراً مجنوناً شاعراً - حاشاه - ولم يكتفِ بذلك بل استهزأ به وحاربه؟ فما بالکم إذا أضاف إلى كل هذه الظلمات إنكارَ البعث والنشور، وأقسم على بطلانه كما قال تعالى عن المشركين: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ} [النحل: 38]، فما قولکم إذا زاد على كل هذه الموبقات نسبة الولد إلى الله كما قال تعالى عن المشركين: {أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الصافات: 151 - 152]!!!؟ فكيف كفر المشركون عندكم بالتشفع بالأنبياء ولم يكفروا بكفرهم بالأنبياء كلهم؟! فضلا عن كفرهم بالقرآن وبالكتب السماوية كلها، علاوة عن كفرهم بالبعث والنشور، ونسبتهم الولد إلى الله؟! إن هذا هو من أعجب العجب!

والحاصل أن إنكار الله على المشركين تشفعهم بالأصنام كان لأمرين:

الأول: أنهم ادعوا أن أصنامهم هذه التي يتشفعون بها آلهة من دون الله ولذلك عبدوها من دون الله.
الثاني: أسباب أخرى مثل كون أصنامهم حجارة صماء هم نحتوها بأيديهم ثم ادعوا لها المنزلة والشفاعة عند الله.

وأما الزعم بأن سبب كفرهم في هذا الباب هو مجرد تشفعهم بالأنبياء والأولياء، فهذا دونه خرق القتاد، لسبب بسيط هو أن المشركين منكرون للأنبياء أصلاً، بل هم محاربون لهم ولأتباعهم وعلى رأسهم الأولياء، وليس هذا فحسب بل هم يتشاءمون منهم فكيف يتشفعون بهم؟ وقد سبق بسطه، فضلا عن أن التشفع بالصالحين من حيث الجملة أمر ثابت في الشرع، وما أنكره إلا المبتدعة من الخوارج والمعتزلة "إذ منعوا أن يشفع لمن يستحق العذاب أو أن يخرج من النار من يدخلها، ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب في زيادة الثواب، ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة: إثبات الشفاعة لأهل الكبائر"¹.

وأما القول بتعدد الآلهة وعبادتهم من دون الله فهذا لم يرد قط؛ لا في شرعنا ولا في شرع من قبلنا، بل هو كفر في كل الشرائع قطعاً إجماعاً، فكيف يُنات كفرهم بمسألة هي من حيث الجملة

1 قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (1/ 116) وانظر شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص995

مشروعة وهي قضية الشفاعة، ولا يناط بما هو كفر قطعي إجماعاً؟! ولقد فطن لهذا المعلمي اليماني فقال: إذن فهل اعتقادهم في الملائكة أنهم يشفعون هو التأليه والعبادة أو ركن لهما؟ كلاً.. وأيضاً

فاعتقاد أن الملائكة يشفعون في الجملة أمرٌ يقرُّ عليه الشرع ويُثبته، والآيات في ذلك كثيرة¹. اهـ

فإن قلتم: نسلم أن التشفع بالصالحين مشروع من حيث الجملة بيد أن هذا التشفع المشروع مشروع بشروط بدونها يكون تشفعاً منهيًا عنها بل يكون شركاً، وهو ما وقع فيه المشركون حيث تشفعوا بالصالحين دون أن يلتزموا بشروط الشفاعة، وليس هذا فحسب بل راحوا يعبدون شفعاءهم بشتى العبادات رجاء أن يشفعوا لهم، ولولا رجاءهم أن يشفعوا لهم لما عبدوهم، وبالتالي فإنّ تشفع المشركين هو سبب شركهم وكفرهم وعبادتهم لغير الله.

قلنا: حاصل ما ذكرتم بأن التشفع الذي تجعلونه سبب كفر المشركين ينحصر في ثلاث دعاوى:

الأول: أن المشركين كانوا يتشفعون بالصالحين من الأنبياء والملائكة والأولياء.

الثاني: أن سبب كفر المشركين هو تشفعهم بالصالحين، لعدم التزامهم بشروط الشفاعة.

الثالث: أن المشركين إنما عبدوا الشفعاء ليشفعوا لهم، ولولا ذلك لما عبدوهم.

وفيما يأتي مناقشة هذه الدعاوى الثلاثة في ثلاثة مباحث، كل منها في مبحث إن شاء الله، ونضيف

إليها مبحثاً رابعاً هو: استنتاج السلفية مما سبق أن التوحيد قسمان ألوهية وربوبية. والله المستعان.

¹ آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 536)

المبحث الأول: دعوى أن المشركين كانوا يتشفعون بالصالحين

من المقدمات والدعاوى التي قامت عليها نظرية ابن تيمية في تقسيمه التوحيد هو أن المشركين "كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين"¹. وكانوا يقولون "نحن نستشفع بهم بعد مماتهم"². "ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا"³. فهم "يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم شفعاء، ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب"⁴. وهذا الشرك يتمثل في "قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم(5)".

لا يقال كانت العرب تتشفع بالأصنام والأحجار وتعبدها دون سواها؛ لأن العرب "إنما اتخذوا الأصنام تماثيل أو تذاكير للملائكة.. وطمعوا أن تعظيمهم لها يقربهم من الملائكة، فيشفعوا لهم"⁶. بمعنى أنهم "إنما عظموا الأصنام على أنها تماثيل أو تذاكر للإناث الوهميات التي هي في زعمهم بنات الله عز وجل، وهي عندهم الملائكة، فلم يعتقدوا في الأصنام ذاتها نفعا ولا ضرا، وإنما يعتقدون أن تعظيمها ينفع من حيث هو تعظيم للأشخاص التي جعلت تماثيل أو تذاكر لهم"⁷، فالمعبود "لهم لم يكن هذا الحاضر من الصنم المنحوت من الحجر أو الخشب، بل المعبود إنما كان ذلك الغائب الذي صوروه وجعلوا له صنما"⁸. فكان "قصدهم هؤلاء الأنبياء والصلحاء دون الأحجار"⁹. فالأوثان "والأنصاب إنما نُحِتَتْ وصُوِّرَتْ وعُبدت حباً وغُلُوًّا في الصالحين كما فعل قوم نوح بود وسواع

¹ مجموع الفتاوى (150 / 1)

² مجموع الفتاوى (150 / 1)

³ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (111 / 12)، وشبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 1004

⁴ شرح الطحاوية - ط الأوقاف السعودية (ص: 31)

(5) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص 16

⁶ آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6 / 177)

⁷ آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2 / 500)

⁸ جهود علماء الحنفية - (1 / 504)

⁹ عداء الماتريدية للعقيدة السلفية 3 / 198

ويغوث ويعوق ونسر لأنهم رجال صالحون"¹. فالمشركون "يعترفون بأن الله هو الرب وحده ثم مع ذلك يشركون به. وإنما كان شركهم شرك شفاعة وتوسل إلى الله بالصالحين أنبياء وأولياء لمكانتهم ووجهتهم عند الله"².

والجواب: أن هذه الدعوى غير صحيحة، بل الصحيح والذي قامت عليه الأدلة هو أن المشركين كانوا يعبدون ويتشفعون بالجمادات والحجارة ونحوها، حيث يصورون وينحتون منها الأصنام والأوثان، وأما أنها ترمز عندهم للأنبياء ولا للأولياء فهذا أمر غير صحيح أو هو أمر مشكوك فيه على الأقل، وما ذكره السلفية من الأدلة على ذلك فغير مسلم به، ولا يرقى لإثبات دعواهم، ولا يعدو في أحسن أحواله أن يكون مجرد احتمال عقلي لا أكثر، وهذا ما نبسطه بحول الله .

فلدينا الآن أمران، وهما:

الأول: الأدلة على أن المشركين كانوا يعبدون الجمادات من الأصنام والكواكب ونحوها، وما كانوا يعبدون العقلاء من الأنبياء ولا الأولياء والصالحين، ولا كانت أصنامهم ترمز لذلك.

الثاني: مناقشة أدلة السلفية التي استدلو بها على أن المشركين كانوا يعبدون العقلاء من الأنبياء والأولياء والصالحين، وأن الأصنام ترمز إليهم. وفيما يلي بسط ذلك في مطلبين، وبالله التوفيق.

1 انظر بحث المدخلي بعنوان: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (31/ 174).

2 موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 135)

المطلب الأول: الأدلة على أن معبودات المشركين كانت جمادات لا تعقل

نسرده هنا أدلتنا على أن المشركين ما كانوا يعبدون العقلاء من الأنبياء ولا الأولياء والصالحين، وإنما كانوا يعبدون الجمادات من الأصنام والكواكب ونحوها:

الدليل الأول: هو ما سبق أن بسطنا¹ وهو أن المشركين من كل الأمم كانوا ينكرون أصل الرسالة والنبوة من البشر، ويزعمون أنها لا بد أن تكون من الملائكة. وقد بين الله "عجبهم من إرسال رجل وبين في مواضع آخر أن جميع الأمم عجبوا من ذلك.. وصرح بأن هذا العجب من إرسال بشر مانع للناس من الإيمان"²، ولم يكونوا ينكرون الرسل والأنبياء فحسب، بل "ما زال المشركون يسبون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعواهم إلى التوحيد"³. بل كانوا "يقاتلون الأنبياء، وأتباعهم، ويمانعونهم ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله"⁴.

علاوة على أن المشركين من سائر الأمم "كانوا يتطرون بالأنبياء والصالحين، قال قوم صالح له: {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ} [النمل: 47]"⁵، "أي: ما رأينا على وجهك ووجه من اتبعك خيراً وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه. قال مجاهد: تشاءموا بهم وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون: {فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ} [الأعراف: 131]"⁶، "أي: يتشاءمون بهم ويقولون ما أصابنا هذا إلا بسببهم، بل قريش تطيرت بالنبي ﷺ حيث أخبر الله تعالى عنهم {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ} [النساء: 78]، أي: يقولوا هذه بشأمك"⁷.

1 انظر: ص (347) عند قولي: (...منكرين لبشرية الرسل)

2 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (2 / 381)

3 مجموع الفتاوى (48 / 15)

4 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (5 / 790)

5 شرح مسائل الجاهلية للحازمي (15 / 28، ت.ش.)

6 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (10 / 414)

7 شرح مسائل الجاهلية للحازمي (15 / 28، ت.ش.)

ولذلك عُدَّ من خصال الجاهلية "التشاؤم بالرسول وأتباعهم"¹. وكذلك فإن "فرعون وقومه إن أصابتهم سيئة أي قحط وجذب ونحو ذلك، تطيروا بموسى وقومه فقالوا: ما جاءنا هذا الجذب والقحط إلا من شؤمكم.. ويبيّن تعالى أن شؤمهم من قِبَل كفرهم، ومعاصيهم، لا من قِبَل الرسل؛ قال في «الأعراف»: ألا إنما طائرهم عند الله، وقال في سورة «النمل» في قوم صالح: قال طائرهم عند الله بل أنتم قوم تُفْتَنون، وقال في «يس»: قالوا طائرهم معكم"².

فإذا كان المشركون من كل الأمم يُنكرون أصل الرسالة والرسول، ويسبّونهم ويرمونهم بالسفاهة والضلال والجنون ويحاربونهم ويتشاءمون منهم، فكيف يتوسلون بهم؟! بل كيف يتوسلون بالأولياء؟! حيث إن الأولياء هم حُلص أتباع الأنبياء فكيف يتوسل بهم من ينكر الأنبياء أنفسهم بل يحاربهم فضلا عن أن يحارب أتباعهم كما سبق؟! إن هذا لشيء عجيب!

فإن قلتم: لكنّ مشركي قريش كان يُقرّون ببعض الأنبياء كإبراهيم الخليل عليه السلام. قلنا: هذا غير ثابت بل عموم الآيات السابقة تردّه؛ إذ هي تدلّ على أن أصل فكرة أن يرسل الله رسولا أو نبيا من البشر ممتنع عندهم! ولو أنه ثبت فهذا يدلّ على اضطرابهم وتناقضهم في فكرة الرسالة كما اضطربوا في قضية الألوهية وإثبات وجود الله كما سبق³، ولذا يقول الألوسي عند قوله تعالى { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } [الإسراء: 94]: وظاهر ذلك أن القوم لا يقولون في رسالة أحد من الرسل المشهورين كإبراهيم وموسى عليهما السلام أصلا، وصرّح بعضهم بأنهم لم ينكروا إرسال غيره منهم، وبأن قولهم هذا كان تعنتا، وهذا خلاف الظاهر هنا، ولعل القوم كانوا في ريب وتردد لا يستقيمون على حال، فتدبر⁴ اهـ.

الدليل الثاني: قوله تعالى { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ } [الزمر: 43] فنصّ الله نصا على أن هؤلاء الذين يستشفع بهم المشركون "لا يملكون شيئا ولا

1 زوائد مسائل الجاهلية لعبد الله الدويش (ص: 12)

2 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (2/ 389)

3 انظر: ص (302) عند قولي: (فيما يقولون لا يوقنون، و جهلوا من هو)

4 روح المعاني (15/ 171)

يَعْقِلُونَ " فالآية صريحة جدا بأن آلهة المشركين "ليس لها عقل تعقل به ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به بل هي جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير" 1. وهذا أقرّ به مفسّرو السلفية، قال صديق خان: " (ولا يعقلون) شيئا من الأشياء لأنها جمادات لا عقل لها" 2. وكذا قال الشوكاني 3، وقال السعدي: " { لا يملكون شيئا} ..بل وليس لهم عقل، يستحقون أن يُمدحوا به، لأنها جمادات من أحجار وأشجار وصور وأموات، فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلا؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلما؟" 4، ولو كانت ترمز تلك الجمادات لرجال صالحين لردّ المشركون الآية بالقول: معبودنا ليس "هذا الحاضر من الصنم المنحوت من الحجر أو الخشب، بل المعبود إنما كان ذلك الغائب" 5 النبي ﷺ أو الولي.

ومع أن الآية صريحة إلا أن بعض السلفية تأولها فقال المعلمي بأن المراد لا يعقلون دعاءكم إياهم أي لا يفهمونه؛ لأنهم غافلون عنه، وقد وصف الملائكة بكونهم غافلين عن دعاء المشركين في عدة آيات تقدم بعضها ويكون قوله: {ولا يعقلون} من باب نفي أحد المتلازمين بقصد انتفاء الآخر.. أي إذ كانوا لا يعقلون عبادتكم فهم لم يعلموا بها؛ إذ لو علموا بها لعقلوها!!

ويبدو أن المعلمي استشعر ضعف هذا التأويل، فلذلك استدرك بقوله "إلا أن الإطلاق في قوله: {ولا يعقلون} ربما يوهن هذا الاحتمال، ولكن يمكن الجواب عنه بأن حذف المفعول كثير في القرآن وغيره، والقرينة هنا قائمة، وهي أن المشركين إنما كانوا يرجون شفاعاة الملائكة، وقد بين الله عز وجل في عدة آيات صفات الملائكة الشريفة، وبيّن في عدة آيات أنهم لا يسمعون دعاء المشركين، وأنهم غافلون عنه، وبذلك تكون القرينة على الحذف ظاهرة. وهنا جواب آخر لعله أقوى من هذا، وهو أن

1 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (12 / 134)

2 فتح البيان في مقاصد القرآن (12 / 122)

3 فتح القدير للشوكاني (4 / 535)

4 تفسير السعدي (ص: 726)

5 جهود علماء الحنفية - (1 / 504)

المراد لا يملكون شيئاً ملكاً ذاتياً، أي بغير تمليك الله سبحانه إياهم، ولا يعقلون عقلاً ذاتياً أي غير موهوب لهم من الله عز وجل، والملائكة كذلك..¹.

قلت: وأين "بيّن الله عز وجل في عدة آيات صفات الملائكة الشريفة، وبيّن في عدة آيات أنهم لا يسمعون دعاء المشركين، وأنهم غافلون عنه" حتى يحق له القول إنّ هذا قرينة على تأويله؟! لم يورد المعلميّ شيئاً من تلك الآيات حتى ننظر في دلالتها على ما زعم من أن الله وصف فيها الملائكة بعدم سماع دعاء المشركين، وبالغفلة عن دعائهم ليحقّ له فيما بعد أن يؤول آية الزمر السابقة ويحملها على أن المقصود بها: "لا يعقلون دعاءكم إياهم أي لا يفهمونه؛ لأنهم غافلون عنه".

وإن كان يقصد بتلك الآيات آية الأحقاف "وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ"، أو آية يونس "إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ"، ونحوها فغير مسلم أن المقصود بها الملائكة، بل محمولة على الأصنام كما سيأتي بسطه². وأما جواب المعلميّ الثاني الذي قال عنه "لعله أقوى من هذا، وهو أن المراد لا يملكون شيئاً ملكاً ذاتياً.. ولا يعقلون عقلاً ذاتياً أي غير موهوب" فغير مسلم لأنه تقييدٌ دون دليل. لإطلاق الآية التي تفيد أن تلك الأصنام لا تملك شيئاً من الأشياء ولا تعقل أي شيء لأنها جمادات، كما نصّ على ذلك مفسّرو السلفية أنفسهم كما سبق!!

الدليل الثالث: قوله تعالى { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصفات: 95 - 96]، أي: "أعبدون أيها القوم ما تنحتون بأيديكم من الأصنام"³. "والله خلقكم وخلق الأصنام التي تنحتونها"⁴. "فبيّن لهم فساد عبادتها ووجوب عبادته دونها بأنها إذا كانت لا تصير أصناماً إلا بنحتكم لها، فأنتم أيضاً لن تكونوا على ما أنتم عليه من الصور والهيئات إلا بفعلي"⁵، "فمن السفاهة: أن تعبدوا تلك الصور، التي نحتتموها بأيديكم، ثم سميتوها كذباً وبهتاناً: آلهة، وقد علمتم: أنها

¹ آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (501 / 2)

² انظر: ص (528) عند آية : (وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)

³ جامع البيان ط هجر (575 / 19)

⁴ مجموع الفتاوى (121 / 8)

⁵ دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (197 / 7) رسالة إلى أهل الثغر للأشعري (ص: 161)

ما صارت صوراً، إلا بنحتكم إياها وعملكم"¹. "فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيماً لها"²؟

الدليل الرابع: أن الأنبياء تبرؤوا من آلهة المشركين وأصنامهم، وصرّحوا بمعاداتها، ولو كانت تلك الآلهة أنبياء أو أولياء أو ملائكة لما جازت البراءة منها ومعاداتها، وبيان ذلك أن الله قال {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} [الزخرف: 26، 27]. وقال أيضاً {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: 75 - 77]، قال السمعاني "ومعناه: فإني عدو لهم، ويجوز أن يكون معناه: فإنهم عدو لي، أي: لا أتوهم، ولا أطلب من جهتهم نفعاً، كما لا يتولى العدو ولا يطلب من جهته النفع"³.

وهاتان الآيتان في سورتي الزخرف والشعراء دليل واضح جدا على أن معبودات قوم إبراهيم كانت مجرد حجارة، إذ لو كانت ترمز للأنبياء والملائكة والأولياء لما جاز للخليل أن يقول "فإنهم عدو لي إلا رب العالمين" كما في آية الشعراء، ولا جاز أن يتبرأ منهم كما في آية الزخرف، وكيف يعادي الأنبياء والملائكة والأولياء مع أن النبي ﷺ قال كما في حديث البخاري: "إن الله قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب"⁴، فكيف بمن يعادي الأنبياء والملائكة؟!!!

فإن قلتم: معنى الآية أنهم سيكونون أعداءً لي يوم القيامة إن عبدتهم في الدنيا، وليس المعنى أني عدو لهم لأنهم اتخذوا آلهة من دون الله، وهو ما أشار إليه الطبري بقوله: فإنهم عدو لي - لو عبدتهم - يوم القيامة، كما قال جلّ ثناؤه {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلاً سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً} [مريم: 81]⁵. اهـ قلنا: ولكن الطبري قال بعد ذلك: ومعنى الكلام: أفرايتم كل معبود لكم ولآبائكم، فإني منه بريء لا أعبد، إلا رب العالمين⁶. اهـ وهذا أكده الطبري في تفسير آية الزخرف

1 شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (77 / 3)

2 مفاتيح الغيب (363 / 18)

3 تفسير السمعاني (53 / 4)

4 صحيح البخاري بتحقيق البغا (2384 / 5)

5 جامع البيان ط هجر (591 / 17)

6 جامع البيان ط هجر (591 / 17)

السابقة : "فقال: إني بريء مما تعبدون من شيء إلا من الذي فطرنى، يعني الذي خلقتني فإنه سيهدين"¹. فصرح الطبري في الموضوعين أن إبراهيم عليه السلام عدوّ هؤلاء المعبودات وليس أنهم هم عدو له، وهذا العداء منه لهم لا يجوز لو أنهم أنبياء أو ملائكة أو أولياء، ومعلوم أن معاداة شخص لهم هي كفر أو فسق كما سبق.

الدليل الخامس: أنه لو كانت آهتهم هي الأنبياء والملائكة والأولياء، أو ترمز إلى ذلك كما ادعيتهم، لما جاز تسفيه آهتهم وشتمها، إذ قد "اتفق الفقهاء على أن من سب أنبياء الله تعالى أو ملائكته.. أو استخف بهم .. فُتِل كَفَرًا"²، وشم الأولياء فسق لحديث " {من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة} فجعل معاداة عبده الولي معاداة له"³، ولكن التالي وهو عدم جواز تسفيه آهتهم وشتمها: باطل؛ لأن الشارع سقّه آهتهم وشتمها، فبطل المقدم وهو أن آهتهم أنبياء وأولياء، أما بطلان التالي وهو "عدم جواز تسفيه الآلهة وسبّها" فيدل عليه وجوه:

الأول: أن هذا خلاف المعلوم بالضرورة من آيات وأحاديث كثيرة في الكتاب والسنة التي تقبّح آلهة المشركين وشتمها وتسقّفها كما سيأتي، وقد فهم المشركون أنفسهم من هذه الآيات أنها تشتم آهتهم التي اعتقدوا فيها الخلق والتدبير، وقد دلّ على ذلك أحاديث عديدة أورد كثيرا منها ابن تيمية، منها ما يلي:

(1) جاء في حديث ابن عباس أن المشركين قالوا للنبي: لقد شتمت الآباء، وعبت

الدين، وسقّفهت الأحلام، وشتمت الآلهة⁴.

(2) وعنه أيضا: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل

فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آهتنا، ويفعل ويفعل⁵.

¹ جامع البيان ط هجر (20 / 575)

² الموسوعة الفقهية الكويتية (9 / 39)

³ مجموع الفتاوى (2 / 390)

⁴ أخرجه ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم. انظر: الدر المنثور - (5 / 337)

⁵ أخرجه ابن أبي شيبه وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن

مردويه عن ابن عباس كما الدر المنثور للسيوطي (7 / 142)

- (3) وعنه أن المشركين قالوا للنبي أيضا: وتكفّ عن شتم آهتنا، ولا تذكرها بسوء¹.
- (4) وعنه أنه (لما نزلت "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم.." شقّ على قريش فقالوا: أيشتم آهتنا؟ فجاء ابن الزبيري، فقال: ما لكم؟ قالوا: يشتم آهتنا..² اهـ.

- (5) وفي حديث جابر: فيم تشتم آهتنا وتضل آباءنا³؟
- (6) وفي حديث أحمد أن قريشا قالت عن النبي ﷺ بأنه "سقه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسب آهتنا" اهـ.
- (7) وقال ابن هشام: ولقي أبو جهل بن هشام رسول الله ﷺ - فيما بلغني - فقال له والله يا محمد لتتركن سب آهتنا، أو لنسبن إهلك الذي تعبد. فأنزل الله تعالى فيه {ولا تسبوا الذين يدعون..}، فذكر لي أن رسول الله ﷺ كفّ عن سب آهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله⁴.

الثاني: إن الله توعد آهتهم بالدخول في النار كما في آية الأنبياء السابقة، وهذا غاية في تسفيه آهتهم وتقبيحها.

الثالث: كذلك قوله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام : 108]، وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية أن المشركين قالوا للنبي: لتكفن عن شتم آهتنا أو لنشتمك ونشتم من يأمرك فأنزل الله الآية. قال ابن تيمية: حرّم سب الآلهة مع أنه عبادة لكونه ذريعة إلى سبهم لله سبحانه وتعالى؛ لأن مصلحة تركهم سب الله سبحانه راجحة على مصلحة سبنا لآهتهم⁵.

¹ أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في الدر المنثور (7 / 245)، وانظر مجموع الفتاوى (16 / 543)

² أخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق (40 / 329)، والواحدي في أسباب النزول ت زغلول (ص: 314)، وحسنه الحافظ في موافقة الخبر الخبر في تخریج أحاديث المختصر (2 / 174). وانظر موسوعة الحافظ ابن حجر الحديثية 4 / 544، والصحيح المسند من أسباب النزول لمقبل الوداعي (ص: 135).

³ أخرجه البيهقي في الدلائل وابن عساکر كما في الدر المنثور (7 / 310). وانظر أيضا الجواب الصحيح لابن تيمية (5 / 367).

⁴ السيرة النبوية لابن هشام (1 / 357)، البداية والنهاية ط هجر (4 / 217)، صحيح السيرة النبوية للألباني (ص: 195).

⁵ الفتاوى الكبرى (6 / 174)

قال ابن القيم: فحرم الله تعالى سب آلهة المشركين مع كون السب غيظا وحمية لله وإهانة لأهنتهم لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لأهنتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سبها في فعل ما لا يجوز¹. اهـ فصرح ابن القيم بأن سب أهنتهم جائز، بل قال ابن تيمية إن ذلك عبادة كما ترى، ولكن مُنِع منه سدا للذريعة أي لئلا يسبوا الله إذا سببت أهنتهم.

الرابع: قال تعالى على لسان إبراهيم: {أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنبياء : 67]، أي: "قبحا لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله²"، "وفي هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم"³، ومعلوم أنه لا يجوز أن يحتقر المرء الأنبياء والأولياء ولا يجوز أن يقول لهم: قبحا لكم، فلا يجوز للمرء بحال أن يحقر المسيح ولا أن يقول للنصارى قبحا لإلهكم ما داموا يجعلون المسيح إلهًا، بل الواجب توقيره لأنه نبي كريم وإن عبده من عبده، قال القاضي عياض: "من استخفَّ به - يعني بنبينا ﷺ - أو بأحد من الأنبياء.. فهو كافر بإجماع"⁴، وإنما صحَّ تقبيح إبراهيم الخليل لآلهة قومه لأنهم يعبدون أصناما نحتوها بأيديهم ليس لها أي حرمة كما قال في الآية الأخرى: {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} [الصفوات: 95]، "وهي جمادات لا حسَّ لها ولا إدراك، والإنسان هو الذي ركبها وصورها، فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها، وأن يضع الجبهة على التراب تعظيما لها"⁵؟

فثبت من هذه الوجوه أن الله كان يسفه أهنتهم ويشتمها ويقبحها، ولو كانت أهنتهم من الأنبياء والصالحين لما تكلم الله عليها بمثل هذا، بدليل أن الله أخبر أن النصارى اتخذت المسيح ابن مريم وأمه إلهين من دون الله: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَلَمْ أَقُلْ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْلِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [المائدة : 116]، وعلى الرغم من ذلك فإن الله لم يسفه عيسى وأمه، بل قال عنهما: {مَا

1 إعلام الموقعين، لابن القيم، دار الجوزي (5 / 4)

2 جامع البيان، للإمام الطبري 18 / 464

3 فتح القدير للشوكاني (3 / 489)

4 الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (284/2)

⁵ مفاتيح الغيب (18 / 363)

الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} [المائدة : 75]، "فأخبر أن المسيح رسول من هؤلاء الرسل قد خلت من قبله الرسل"¹، وجعل "غاية مريم الصديقية كما جعل غاية المسيح الرسالة وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية .."² وكان "النبي ﷺ يثني على عيسى الثناء الجميل، ويبين للناس أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه"³.

وفي الوقت نفسه بين لهم من خلال هذه الآية والمديح للمسيح وأمه أنهما ليسا بإلهين حيث تضمنت الآية "دليلين ببطلان إلهية المسيح وأمه أحدهما: حاجتهما إلى الطعام والشراب وضعف بنيتهما عن القيام بنفسهما، بل هي محتاجة فيما يقيمها إلى الغذاء والشراب، والمحتاج إلى غيره لا يكون إلهًا إذ من لوازم الإله أن يكون غنياً. الثاني: أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القدرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها"⁴ اهـ.

وما يهمننا هنا هو أن كل الآيات التي تحدتت عمن اتخذ إلهًا، وكان فعلا من الأنبياء أو الصالحين، فهؤلاء لم يتكلم عنهم الباري عز وجل إلا بما يليق من الإجلال والتعظيم كالحديث عن المسيح الذي اتخذ النصراني إلهًا، والحديث عن أمه السيدة مريم التي اتخذها بعض النصراني إلهًا! فقد ردّ الله عليهم فقال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: 75] فبين ما لهما من منزلة رفيعة عنده تعالى، بخلاف حديثه تعالى عن آلهة مشركي العرب فكان شتما لها وتسفيها كما سبق.

الدليل السادس: هو أنّ الله كثيرا ما شنع على المشركين أنهم يعبدون الأحجار التي لا تسمع ولا تبصر كما في قوله على لسان إبراهيم الخليل ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا

1 الجواب الصحيح لابن تيمية (2/ 231)

2 الجواب الصحيح (2/ 349)

3 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (7/ 274)

4 الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطلة (ص: 297)

يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مریم: 42]، أي "ما تصنع بعبادة الوثن الذي لا يسمع {ولا يبصر} شيئاً {ولا يغني عنك شيئاً} يقول: ولا يدفع عنك ضر شيء، إنما هو صورة مصورة لا تضر ولا تنفع"1. وأنها ليس لها أيدٍ ولا أرجل ولا أعين ولا آذان كما في قوله: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} [الأعراف: 195]، أي "الأصنامكم هذه أيها القوم {أرجل يمشون بها} فيسعون معكم ولكم في حوائجكم ويتصرفون بها في منافعكم؟ {أم لهم أيدٍ يبطشون بها} فيدفعون عنكم وينصرونكم بها عند قصد من يقصدكم بشر ومكروه.. فإن كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات التي ذكرتها، والمعظم من الأشياء إنما يعظم لما يرجى منه من المنافع التي توصل إليه بعض هذه المعاني عندكم، فما وجه عبادتكم أصنامكم التي تعبدونها، وهي خالية من كل هذه الأشياء التي بها يوصل إلى اجتلاب النفع ودفع الضر؟"2؟

ولو كان الأمر كما زعمتم لردّ المشركون على النبي ﷺ وقالوا: إننا لا نعبد هذه الأحجار وإنما نعبد ما يمثلها من الأنبياء والأولياء؛ بل لو كانت آلهتهم أنبياء وأولياء كما ادعيتم لما قال الله عنها أصلاً إنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، وليس لها أيدٍ ولا أرجل ولا آذان ولا أعين، كيف وهذا خلاف الواقع؟ إن الأنبياء لهم أيدٍ وأرجل وأعين وآذان، ولذلك نرى أن الله لما ردّ على النصارى اتخذهم عيسى إلهاً لم يردّ عنهم بأن عيسى لا يسمع ولا يبصر، وليس له يد ولا رجل ولا آذان، وإنما ردّ عليهم بأسلوب آخر مثل قوله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} [المائدة: 72]، فبين الله أن المسيح لم يأمرهم بعبادته، بل "أمرهم بالتوحيد، ونهاهم عن أن يشركوا به أو بغيره كما فعلوه"3.

(ملل ونحل تعبد أموراً غريبة)

الدليل السابع: أن ثمة مللا ونحلا كثيرة تعبد أشياء كثيرة من دون الله، أو ترمز لأشياء كثيرة لا علاقة لها بالأنبياء ولا بالأولياء، وإليكم أمثلة على ذلك:

1 جامع البيان ط هجر (549 / 15)

2 جامع البيان ط هجر (635 / 10)

3 مجموع الفتاوى (628 / 7)

المثال الأول: عبد كثير من الناس الشمس والقمر والكواكب، فهل الشمس والقمر رجال صالحون؟! وبيان ذلك أن الله قد تحدث لنا عن هؤلاء فقال: { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [فصلت: 37]، { إِيَّايَ وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ } [النمل: 23]، [24].

قال ابن تيمية: فإن إبراهيم عليه السلام سلك هذه السبيل لأن قومه كانوا يتخذون الكواكب أرباباً، يدعونها ويسألونها⁽¹⁾. اهـ وقال ابن تيمية أيضاً: ثم قوم إبراهيم انتقلوا إلى الشرك بالسماويات فالكواكب، وضعوا لها "الأصنام" بحسب ما رأوه من طبائعها، يصنعون لكل كوكب بيتا وطعاما وختاما وبخورا وأقوالا تناسبه. اهـ

وقال الطاهر ابن عاشور: وعلى هذا فالآية تقتضي أن قومه يعبدون الكواكب، وأنهم على دين الصابئة، وقد كان ذلك الدين شائعاً في بلدان الكلدان التي نشأ فيها إبراهيم عليه السلام، وأن الأصنام التي كانوا يعبدونها أرادوا بها أنها صور للكواكب وتمثيل لها على حسب تخيلاتهم وأساطيرهم مثلما كان عليه اليونان القدماء، ويحتمل أنهم عبدوا الكواكب، وعبدوا صوراً أخرى على أنها دون الكواكب كما كان اليونان يقسمون المعبودات إلى آلهة وأنصاف آلهة . على أن الصابئة يعتقدون أن للكواكب روحانيات تخدمها². اهـ

وقال ابن تيمية بأن قوم إبراهيم: كانوا مشركين مقرين بالصانع؛ وكانوا يتخذون الكواكب والشمس والقمر أرباباً يدعونها من دون الله وبينون لها الهياكل.. فكانوا يعبدون الكواكب السماوية ويتخذون لها أصناماً أرضية. اهـ

(1) اقتضاء الصراط المستقيم - (21 / 34)، ط/عالم الكتب. وانظر أيضاً: دره تعارض العقل والنقل (1 / 311)، وانظر أيضاً: بيان

تلبيس الجهمية (1 / 530)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة ص92.

2 التحرير والتنوير (7 / 320)

ونصوص ابن تيمية هذه كلها واضحة في أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون الكواكب ويتخذونها أربابا، ويصنعون لها الأصنام بحسب طبائعها، أي أن تلك الأصنام كانت رمزا للكواكب لا لرجال صالحين.

نعم قيل إنّ "الصابئة يعتقدون أنّ للكواكب روحانيات تخدمها"¹، "وزعموا أن لكل فلك روحا) يشير إلى ما ذهب إليه أصحاب الطلسمات من أن لكل فلك روحا كليا يدبر أمره، وتشعب منه أرواح كثيرة، مثلا للعرش - أعني الفلك الأعظم - روح يدبر"²، وأن "عباد الشمس زعموا أنها ملك من الملائكة، لها نفس وعقل..ومن شريعتهم في عبادتها: أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهرة على لون النار"³ و"أن هؤلاء الصابئين كانوا أولاً يعبدون الله تعالى، ولله ملائكة موكلون بالكواكب، فالله هو المعبود، والملائكة يعملون بأمره، والكواكب كأنها أجسام لتلك الأرواح، فعبادة الملك يتقربون بها إلى الله عز وجلّ، والكوكب حجاب أو جسمه أو نحو ذلك، فهو رمزه، والتمثيل في الأرض مذكّرات بالكواكب إذا غابت عنهم. إذا العبادات في نظرهم كلّها راجعات إلى الله تعالى.. فإذا عبدوا زُحِل أو المشتري فقد أرادوا بذلك أنهما ملكان"⁴. وعند الصابئة أيضا "أن الإبداع الخاص بالرب تعالى هو اختراع الروحانيات ثم تفويض أمور العالم العلوي إليها، والفعل الخاص بالروحانيات هو تحريك الهياكل (الكواكب) ثم تفويض العالم السفلي إليها، كمن يبنى معمله وينصب أركانا للعمل من الفاعل والمادة والصورة وتفويض العمل إلى التلاميذ"⁵.

فحاصل هذا أن الصابئة لا يعبدون عين الكواكب، وإنما يعبدون الروحانيات والملائكة التي تحرك تلك الكواكب ليتوسلوا بذلك إلى عبادة الله. قلنا: أولا: هؤلاء المعتقدون بالروحانيات هم طائفة من الصابئة، إذ إن الصابئة وعباد الكواكب ملل وفرق كثيرة وليسوا ملّة واحدة، قال ابن القيم: "الصابئة

1 التحرير والتنوير (7/ 320)

2 شرح المقاصد (3/ 290)، آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 455)

3 إغاثة اللفهان (2/ 223)، وانظر: معارج القبول (2/ 471).

4 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (3/ 677) نقلا عن تفسير الجواهر لطنطاوي جوهرى.

5 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 455) نقلا عن الشهرستاني في الملل والنحل.

فرق؛ فصابئة حنفاء، وصابئة مشركون، وصابئة فلاسفة، وصابئة يأخذون بمحاسن ما عليه أهل الملل والنحل من غير تقييد بملة ولا نحلة. ثم منهم من يقرّ بالنبوات جملة ويتوقف في التفصيل، ومنهم من يقرّ بها جملة وتفصيلا، ومنهم من ينكرها جملة وتفصيلا، وهم يقرّون أن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن العيوب والنقائص، ثم قال المشركون منهم: لا سبيل لنا إلى الوصول إلى جلاله إلا بالوسائط، فالواجب علينا أن نتقرب إليه بتوسطات الروحانيات القريبة منه، وهم الروحانيون المقربون المقدسون عن المواد الجسمانية وعن القوى الجسدانية، بل قد جُبلوا على الطهارة فنحن نتقرب إليهم ونتقرب بهم إليه، فهم أربابنا وأهتنا وشفعاؤنا عند رب الأرباب وإله الآلهة، فما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى⁽¹⁾.
ولذلك يقول ابن القيم في موضع آخر "وطائفة أخرى اتخذت للقمر صنما، وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي"²، أي أنه أقر في نهاية المطاف بأن هؤلاء رمزوا بالصنم . الذي عبده . للقمر وليس لرجل صالح ولا للروحانيات.

ثانيا: أن أصنام الصابئة لم تكن في النتيجة تماثيل للملائكة ولا للروحانيات، ولكن "الأصنام التي كانوا يعبدونها أرادوا بها أنّها صور للكواكب وتماثيل لها على حسب تخيلاتهم وأساطيرهم مثلما كان عليه اليونان القدماء"³.

ثالثا: حتى هؤلاء القائلون بالروحانيات يعتقدون أنّها مدبّرة للكون الأعلى، "ويقولون: إن لكل روحاني من الروحانيات العلوية جرما سماويا، وهو هيكله، فهو مدبّره والمتصرّف فيه"⁴، وأن الكواكب تدبّر الكون الأسفل كما في نصّ ابن القيم الأخير الذي فيه أن القمر عند بعض فرق الصابئة "إليه تدبير هذا العالم السفلي"، ويزعمهم أن هذا التدبير كان بتفويض من الله، وهذا نصّ عليه المعلميّ نقلا عن الشهرستاني كما سبق، وقد سبق أيضا أن سردنا نصوصا كثيرة في قضية تفويض الله تدبير الكون إلى غيره عند

(1) إغاثة اللفهان (2/ 252)، والشرك في القديم والحديث ص261، و263

2 إغاثة اللفهان (2/ 223). وانظر : معارج القبول (2/ 471)

3 التحرير والتنوير (7/ 320)

4 الشرك في القديم والحديث ص262

الصابئة وغيرهم¹، وهذا كله يدل على أن الصابئة يعبدون الروحانيات على أنها مدبرة، ولذلك كانوا يقولون عنهم بأنها "أربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عند رب الأرباب وإله الآلهة".

المثال الثاني: المجوس عبدوا النار وهم "إنما يعظمون النار لمعانٍ، منها: أنها جوهر شريف عُلوِيٌّ. ومنها: أنها ما أحرقت إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. ومنها: ظنهم أنّ التعظيم ينجيهم في المعاد من عذاب النار. وبالجملة هي قبلة لهم ووسيلة وإشارة"².

المثال الثالث: بنو إسرائيل عبدوا العجل واتخذوه إلهًا بعد أن جاءهم موسى كما في قوله تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْيِبِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُوَازٍ أَلَمَ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ } [الأعراف: 148]، وقال تعالى: {فَأَخْرَجَ هُمَ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُوَازٍ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ } [طه: 88] فقد "ظنوا أن العجل هو إله موسى، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى وظنوا أن موسى نسيه"³. ولو كان يرمز العجل عندهم لنيي أو وليّ لما تمت الحجة عليهم بقوله تعالى "أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ"، بل لقالوا نحن لا نعبد هذا العجل لذاته بل لما يرمز له.

نعم غاية ما قيل هنا بأن بني إسرائيل "وسوس إليهم الشيطان بأن الله تبارك وتعالى حلّ في ذلك العجل، تعالى الله عما يقولون. ولعل هذا أقرب إلى ظاهر الآيات من أن يقال: اتَّخَذُوا العجل على أنه رمزٌ لله عزَّ وجلَّ، وظنوا أنّ عبادته تقرب إلى الله عزَّ وجلَّ.. وقولهم: {إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى} ربما يؤيد الثاني؛ إذ لم يقولوا: ربكم ورب موسى. وكذا قول هارون في نصيحهم: {وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ} يأبى احتمال اعتقادهم الحلول؛ إذ لو اعتقدوه لما كان في ذلك ردٌّ عليهم؛ لأنهم يقولون: نعم، ربنا الرحمن، وهو حلّ في هذا العجل"⁴.

وهذا فضلا عن أنه مجرد زعم لم يأت صاحبه بآية أو حديث يدعمه، فإنه على فرض صحته لا يفيد، لأن حاصله أن بني إسرائيل ظنوا أن الله حلّ في العجل أو أنهم رمزوا به إلى الله، وكلا الاحتمالين

1 انظر كتابنا: البراهين الشرعية على بطلان بدعة توحيد المشركين في الربوبية ص (284)

2 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (3/ 635)

3 الجواب الصحيح (3/ 325)

4 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (3/ 635)

يمكن أن يقال في عبدة الأوثان أيضا، بأن يقال بأنهم ظنوا أن الله حلّ في أوثانهم أو أن أوثانهم ترمز إليه تعالى، أو يقال بأنهم ظنوا بأن هذه الأصنام حلّت فيها آلهة، أو ترمز لآلهة، أو "أنهم اعتقدوا أن الله تعالى جسم على أحسن ما يكون من الصورة"¹، ولا معنى لكونهم اتخذوا الأصنام آلهة إلا هذا، وهو كله بمعزل عن قضية أن الأصنام ترمز لرجال صالحين، كما تقول نظرية تقسيم التوحيد.

المثال الرابع: النصارى عبدوا المسيح ليس على أنه "نبي ولا عبد صالح بل هو رب الأنبياء، وخالقهم وبعثهم ومرسلهم وناصرهم ومؤيدهم ورب الملائكة"². فهم "مع كثرتهم يقولون إن المسيح هو الله"³. وقد حكى الله عنهم ذلك فقال: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [المائدة: 17]، وقد بسطنا ذلك في كتاب آخر بحمد الله⁴.

المثال الخامس: معبودات غريبة عجيبة ليست أصلا من جنس البشر ولا الكواكب ونحوها، فكثير من الناس عبدوا وما زالوا يعبدون الشياطينَ والبقرَ والجردان والفروج ونحو ذلك كثير "فكانوا يسجدون للشمس والقمر..والحيوانات، حتى الهوام، وأدنى حشرات الأرض"⁵، وفيما يلي تفصيل للكلام عن هذه المعبودات.

أولا: عبادة الجن والشياطين

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود: «{أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة} قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون فنزلت: {أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة}»⁶، أي «وبقي الإنس على عبادتهم،

1 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 333) نقلا عن التفتازاني.

2 هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم (2/ 490)

3 الجواب الصحيح لابن تيمية (3/ 325)

4 انظر كتابنا: تنوير الرب الإله في دعوى التباين بين كلمتي الرب والإله ص (104)

5 محاسن التأويل القاسمي (7/ 452)

6 «صحيح مسلم» (8/ 244 ط التركية)

فأنزل الله تعالى القرآن يخبرهم فيه: أن أولئك الذين تعبدونهم يدعون الله ويخافونه ويرجون رحمته، فكيف تعبدونهم وهم يعبدون الله ويخافونه؟! والذي يخاف ويرجو لا يصلح للعبادة»¹.

وقال أبو حيان عند قوله تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} [الإسراء: 56]: قال ابن مسعود: نزلت في عبدة الشياطين وهم خزاعة، أسلمت الشياطين وبقوا يعبدونهم. وقال ابن عباس في عزيز والمسيح وأمه...².

وقال الحافظ: قوله باب من حلف بملة سوى الإسلام..وهي نكرة في سياق الشرط فتعم جميع الملل من أهل الكتاب كاليهودية والنصرانية، ومن لحق بهم من المجوسية والصابئة وأهل الأوثان والدهرية والمعطلة وعبدة الشياطين والملائكة وغيرهم³. اهـ

وقد قيل عن عبدة الشياطين المعاصرين بأن "المهم لأتباع هذه الفرق والمتبنين لهذا الفكر هو نسف القيم والمقاييس، وإزالة العوائق والضغطات العائلية والدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية"..وأن موسيقى البلاك ميتال التي يدمنون عليها "تنشئ في نفس المستمع ميلا نحو الانتحار وتشويه الذات وتدمير النفس والتحريض على التدمير والتخريب والهيجان". وأما أشهر شخصيات الفكر الشيطاني وعبدة الشيطان: فيعتبر الإنجليزي كراولي (1875 - 1947) الأب الروحي لعباد الشيطان، ولد في أسرة كاثوليكية متدينة، رفض في عمر مبكر ديانة والديه..اهتم في البداية بالعبادات والظواهر الغريبة ودافع عن الإثارة والشهوات الجنسية ليشارك في جماعة انجليزية تسمى بجماعة العهد الذهبي وهي جماعة منغلقة على نفسها تشجع عبادة الشيطان بشكل خفي..وجد ضالته في هذه الجماعة، وكوّن صداقات كثيرة مع منظريها ومع الكثير من الشعراء في عصره، ساعده في ذلك ميوله الأدبي وعشقه للشعر خاصة الذي يتكلم عن ذات الشيطان والجن والسحر الأسود..عاش لسنوات طويلة في صقلية مع

1 «توفيق الرب المنعم بشرح صحيح الإمام مسلم» (8/ 509)، الشيخ عبد العزيز الراجحي، الناشر: مركز الراجحي، ط1/ 1439 هـ - 2018 م.

2 البحر المحيط (7/ 69)

3 فتح الباري (11/ 537)

عدد من أتباعه واشتهر بتعاطيه وترويجه للمخدرات خاصة منها: الأبيوم وتقديم الذبائح والأضاحي للشيطان¹. اهـ

ثانيا: عبادة البقر

إن البقرة ((هي من المعبودات الهندية التي لم تضعف قداستها مع الأيام؛ يقول المهاتما غاندي: "عندما أرى البقرة لا أعدني أرى حيواناً لأني أعبد البقرة، وسأدافع عنها أمام العالم أجمع.. إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعد نفسي واحداً من هؤلاء الملايين"))². اهـ

ثالثا: عبادة الفرج

وعبدة الفرج هم طائفة من البشر "قادها غلوها في تقديس المرأة، إلى ممارسة طقوس تمجد فرج المرأة، باعتباره مصدر الحياة واللذة، في فلسفتهم تعظيم وتقديس الأجزاء الحساسة للمرأة، حيث يعتبرون أن الإنسان ولد من هذا الفرج وجاء منه ولا بد أن يعود إليه، كما للفرج من قدسية ينال الثدي أهمية وقدسية ولكن بشكل أقل نظراً لأنه تعتبر بالنسبة لهم مصدر الغذاء الأول للإنسان"³.

وقد "شاعت عبادة فرج الأنتى في بلاد فارس قبل الإسلام بعدة قرون، وأول من دعا إليها (أرتكزيس منيمون)، وقد بلغت أشدها في عهد مزدك، وتعود هذه الديانة إلى القرون السابقة حيث اشتقت معظم تعاليمها من ديانات وعبادات وثنية كانت قائمة في منطقة الهلال الخصيب.. ثم اختلطت بالإسماعيلية وأخذت منها تعاليمها. في سوريا يبلغ تعدادهم حوالي 500 ألف نسمة.. و1.2 مليون في البرازيل والأرجنتين"⁴.

رابعا: عبادة الجرذان

"..فإن الهنود يبنون المعابد لفئرانهم ويقدمون لها الطعام والرعاية والحماية.. ويرجع سبب "تقديس الفئران" عند الهنود إلى أن "الهندوس" يعتقدون بأن هذه الفئران هي أرواح الأطفال الموتى، حيث تخبرنا

¹ انظر مقالا على موقع منتدى الإبداع بعنوان: "الماسونيه وعلاقتها بالنظام العالمي الجديد".

² انظر: الأديان والمذاهب، المؤلف: مناهج جامعة المدينة العالمية (ص: 322).

³ انظر مقال على النت بعنوان "الأيزديون بين عبادة الشيطان وعبادة فرج المرأة".

⁴ انظر مقال على النت بعنوان: "عبادة تقبيل فرج المرأة".

الأسطورة الهندية بأن الإلهة "كارني ماتا" حاولت استرجاع روح أحد الأطفال الموتى ولكنها فشلت في ذلك لأن ياما "إله الموت لدى الهندوس" كان قد استلم جسم الطفل ونسخه إلى إنسان ثان، ولذلك غضبت "كارني ماتا" لأنها لم تستطع إرجاع روح الطفل، وأمرت بأن تتقمص أرواح الأطفال الموتى شكل الفئران قبل أن تتحول إلى بشر مرة ثانية..¹.

فهل الشياطين والبقر والحشرات والهوام والجرذان والفروج رجال صالحون أيضا؟!!

¹ انظر مقال على النت على موقع "عجيبة" بعنوان: عبادة الفئران. <http://www.3agiba.com> /عبادة-الفئران/

المثال السادس: ثمة معبودات رمزية كالهوى قال تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا} [الفرقان: 43]، {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: 23]. وكذا الدينار والدرهم، كما في حديث البخاري عن أبي هريرة مرفوعا: "تعس عبد الدينار، والدرهم، والقטיפفة، والخميصة؛ إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض"⁽¹⁾، والدرهم والدينار فهل هؤلاء أنبياء وأولياء؟! ولنسب ذلك من نصوص السلفية، يقول ابن تيمية: "فالآلهة التي جعلها عابدها آلهة يعبدونها كثيرا؛ لكن هي لا تستحق العبادة فليست بآلهة كمن جعل غيره شاهدا أو حاكما أو مفتيا أو أميرا وهو لا يحسن شيئا من ذلك. ولا بد لكل إنسان من إله يأله ويعبده {تعس عبد الدينار وعبد الدرهم} فإن بعض الناس قد أله ذلك محبة وذلا وتعظيما"². "فكيف إذا استولى على القلب ما هو أعظم استعبادا من الدرهم والدينار من الشهوات والأهواء والمحوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته لما فيها من المزاحمة والشرك بال مخلوقات، كيف تدفع القلب وتزيغه عن كمال محبته لربه وعبادته وخشيته"³. "ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: {تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار}، فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد القטיפفة وعبد الخميصة"⁴، جعله عبدا ما يرضيه وجوده، ويسخطه فقدته حتى يكون عبد الدرهم⁵. اهـ وهذا هو عبد هذه الأمور، فلو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياها رضي؛ وإذا منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله؛ ويسخطه ما يسخط الله⁶. فقد "أطلق صلى الله عليه وسلم لفظ العبودية على من تعلق قلبه بالدنيا، وإن لم يسجد لها أو يركع"⁷.

(1) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال حديث: 6080

2 مجموع الفتاوى (173 / 14)

3 مجموع الفتاوى (600 / 10)

4 مجموع الفتاوى (180 / 10)

5 مجموع الفتاوى (597 / 10)

6 الفتاوى الكبرى (187 / 5)

7 دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: 479)، ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي (ص: 49).

"كذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قاذح في تمام التوحيد وكمالهِ، ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من هوى النفس أنها كفر وشرك؛ كقتال المسلم، ومن أتى حائضا أو امرأة في دبرها، ومن شرب الخمر في المرة الرابعة، وإن كان ذلك لا يخرجهُ من الملة بالكلية"¹، "فمن جعل ما يألُهُ هو ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه أي جعل معبوده هو ما يهواه، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه فهم يتخذون أندادا من دون الله يحبونهم كحب الله"².

والحاصل أن الهوى إله يُعبد من دون الله، فهل الهوى والدرهم والدينار رجال صالحون أيضا؟!

¹ معارج القبول (2/ 433)

² مجموع الفتاوى (10/ 260)

الدليل الثامن: قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ } [الأنبياء: 98، 99]، "أي: كل العابدين والمعبودين في النار خالدون لا يخرجون منها"¹، فلو كان معبودات المشركين أنبياء وملائكة وأولياء للزم أن يكونوا في النار وهذا ظاهر البطلان كما سيأتي، ومثله قوله تعالى { احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } [الصفات: 22، 23]، أي: "احشروا مع الكفار الشركاء التي كانوا يعبدونها من دون الله ليدخل العابدون والمعبودات جميعا النار"².

ولذلك لما نزلت آية الأنبياء "قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعزير، يُعبدون من دون الله، فنزلت: { إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون } عيسى وعزير³ والملائكة"⁴. وفي رواية أنه لما نزلت الآية الأولى: "قال ابن الزبير: أنا أخصم لكم محمدًا فقال: ..فهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيرا، وهذه بنو تميم تعبد الملائكة فهؤلاء في النار؟!"⁵ فنزلت. وفي رواية "قال: فقد عبّدت الشمس والقمر والملائكة وعيسى وعزير، فكل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟"⁶، "فعارضه بالمسيح وناقضه

¹ فتح القدير للشوكاني (3/ 506)، فتح البيان في مقاصد القرآن (8/ 374)

² أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (6/ 744)

³ قال ابن كثير في البداية والنهاية ط هجر (2/ 389): المشهور أن عزيرا نبي من أنبياء بني إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان، وبين زكريا ويحيى، وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها، فسردها على بني إسرائيل، كما قال وهب بن منبه: أمر الله ملكا فنزل بمغرفة من نور فقدمها في في عزير فنسخ التوراة حرفا بحرف، حتى فرغ منها.

⁴ أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وأبو داود في ناسخه والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (10/ 385) وانظر تفسير ابن أبي حاتم (8/ 2468).

⁵ قال الهيثمي في مجمع الزوائد (7/ 169): رواه الطبراني وفيه عاصم بن بهدلة، وقد وثق، وضعفه جماعة. انظر المعجم الكبير 12 / 153، برقم (12739).

⁶ أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور (5/ 679)، ورواه من طريقه الحافظ بسنده في موافقة الخبر الخبر في تخریج أحاديث

المختصر (2/ 172) وقال الحافظ هذا حديث حسن. وانظر موسوعة الحافظ ابن حجر الحديثية 4/ 544

به"1، أي "لما كانت آلهتنا تدخل النار لأنها عبدت من دون الله فكذلك ينبغي أن يدخل المسيح النار"2.

وحاصل هذه الروايات أن مشرقي قريش اعترضوا على آية الأنبياء الأولى "إنكم وما تعبدون.." بأن بعض القبائل وأهل الملل الأخرى عبدت الملائكة وعيسى وعزيرا، وهذا صريح في الرواية الثانية في قوله "فهذه النصارى تعبد عيسى"، فنزل استثناءهم في آية الأنبياء الثانية "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبدون"، ولو كانوا يعبدون الأنبياء لقالوا نحن أيضا نعبد الأنبياء والأولياء وليس فقط النصارى واليهود، ونحن أيضا نعبد الملائكة وليس فقط بنو تميم، وبعبارة أخرى لو كانت قريش تعبد الأنبياء والملائكة والأولياء لما اعترضوا بتلك الأمم والقبائل الأخرى، بل لما كان لاستثناءهم في الآية الثانية معنى، إذ من المفترض أن آية الأنبياء الأولى وكذا آية الصفات كلتاهما تتوعدان المشركين بأنهم سيدخلون النار هم وأصنامهم التي عبدوها من دون الله، "ووجه إلقاء الأصنام في النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك، ولا تحسّ به التبيكيت لمن عبدها، وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم، وقيل إنها تحمى فتلصق بهم زيادة في تعذيبهم"3، ثم لما اعترض المشركون بأن هذا يلزم منه دخول عيسى . وأمثاله ممن عبد من دون الله . في النار لأن النصارى قد عبدوه: نزلت آية الأنبياء الثانية لتستثني عيسى وأمثاله، وتبقى آية الأنبياء الأولى متناولة لآلهة المشركين، وأنت خبير بأن هذا إنما يصح على قولنا وهو أن آلهة المشركين ومعبوداتهم هي مجرد أصنام وأوثان وحجارة نحتوها بأيديهم وادعوا أنها آلهة.

أما على قولكم بأن معبوداتهم وآلهتهم كانت أنبياء وملائكة وأولياء، فما هو الفرق بين المستثنى الذي في آية الأنبياء الثانية "إن الذين سبقت" وبين المستثنى منه في آية الأنبياء الأولى "إنكم وما تعبدون" وكذا آية الصفات "احشروا الذين!!؟" أي ما هو المستثنى الذي لن يكون حصب جهنم، وما هو المستثنى منه الذي سيكون حصب جهنم؟! إن هذا يؤول حتما إلى أن بعض الملائكة والأنبياء والأولياء سيدخلون جهنم لكونهم عبدوا من دون الله، وبعضهم لن يدخلوا النار وإن عبدتهم من عبدتهم

¹ مجموع الفتاوى (40 /16)

² مجموع الفتاوى (540 /20)

³فتح البيان في مقاصد القرآن (8 /373) وكذا في فتح القدير للشوكاني (3 /506)

ما دامت كل معبوداتهم من الأنبياء والصالحين والملائكة، وهذا غاية في الفساد والبطلان كما ترى "فالمسيح والعزير والملائكة وغيرهم ممن عُبد من دون الله وهو من عباد الله الصالحين، وهو مستحق لكرامة الله بوعد الله وعدله وحكمته، فلا يعذب بذنب غيره فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى"¹.

فإن قيل: إن الله قد "أخرج من ذلك الملائكة وعيسى وعزيرا بقوله: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى.. لأنهم ما عبدوهم برضاهم، بل لو أطاعوهم لأخلصوا العبادة لله وحده"²، وبالتالي تكون آية الأنبياء الأولى والثانية تتحدثان عن معبودات عقلاء من البشر أو الملائكة سيدخلون النار مع عابديهم ولكن استثنى في الآية الثانية من المعبودين من لم يرض بعبادة من عبده كالمسيح فإنه لم يرض بذلك كما في قوله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [المائدة: 72]، فبقيت آية الأنبياء الأولى متناولة لمن عُبد من دون الله ورضي بذلك، فهذا يكون في النار مع عابديه.

قلنا: وهل أحد من الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء يرضى بأن يُعبد من دون الله؟! قطعاً لا أحد من هؤلاء يرضى بذلك وإلا لكان كافراً. والعياذ بالله. إذ عبادة غيره تعالى كفر، "والرضا بالكفر كفر"³، فلو سلّمنا جدلاً بأن آلهة المشركين من العقلاء فهم حتما ليسوا أنبياء ولا ملائكة ولا أولياء، بل هم من كفر العقلاء من البشر، وقد سبق أن ذكرنا أن اللات الذي عبده هو عمرو بن لحي الذي هو أول من أدخل الأصنام وعبادتها إلى جزيرة العرب على قول السهيلي⁴.

ويدخل في ذلك أيضاً كفر العقلاء من الجن والشیاطين، فالجن والشیاطين قد عُبدوا قديماً وحديثاً كما سبق أن بسطنا، ولذا قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [يس: 60]، وسواء كانت عبادتهم بطريقة مباشرة كما في قوله تعالى: {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ}

1 مجموع الفتاوى (20 / 541)

2 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (3 / 400)

3 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (7 / 185).

4 انظر: ص (106) عند قولي: (ورأيت فيها عمرو)

بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبأ: 41]، أو بطريقة غير مباشرة كما في قوله على لسان إبراهيم الخليل: {يَأْتِبِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} [مريم: 44]، فهذه عبادة غير مباشرة لأن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام كما في قوله {إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم: 42].

وقد حُمل قوله تعالى {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ} [الأنبياء: 98] على عبادة الشياطين بطريقة غير مباشرة! فقد رُوي أن بعض المشركين وهو ابن الزبيرى قال عند نزول هذه الآية: قد خصمتك ورب الكعبة! أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة؟! فقال ﷺ: بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك¹، فيكون المراد بـ "ما" في الآية: "الشياطين بناء على أنها هي الأمرة الراضية بذلك فهي معبوداتهم، ولذا قال إبراهيم عليه السلام يا أبت لا تعبد الشيطان مع أنه كان يعبد الأصنام ظاهرا"². فهم لم يعبدوا أولئك العباد "المكرمين في الحقيقة بل عبدوا الشياطين الذين أمروا بذلك، والتعبير عنهم بلفظ "ما" ليس مبنيًا على حمله على المعنى المجازي بل مبني على عدّهم أي عد الشياطين في عداد الأصنام الجامدة التي تبعد بمراحل عن العقل والتمييز³.

طبعًا هذا كله على القول بأن "ما" عامة في قوله آية الأنبياء الأولى "فإنكم وما تعبدون.."، وأما القول بأن المراد بها الأصنام فقط بحجة أن "ما" لما لا يعقل: فهو "خلاف ما عليه الجمهور"⁴! بل هو "ضعيف لأن (ما) عامة"⁵، بدليل أن "عبد الله بن الزبيرى قد فهم (ما) في جاهليته جميع من عبد،

1 تفسير البيضاوي (ص: 108)، روح المعاني (17/ 95)، والحديث المذكور ذكره صاحب الكشاف 3/ 136، وذكر الزيلعي في تحريجه لأحاديث الكشاف (2/ 370) أنه قد أخرجه الواحدى، والطبري وابن هشام في سيرته كلاهما عن ابن إسحاق، ولفظه عندهما: «نعم، كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنما يعبدون الشياطين ومن أمرهم بعبادته». انظر: السيرة النبوية لابن هشام (1/ 359) جامع البيان ط هجر (16/ 418).

2 روح المعاني (17/ 95) وانظر: موافقة الخُبر الخَبر لابن حجر (2/ 176).

3 حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي 3/ 370، روح المعاني (17/ 96)

4 روح المعاني (17/ 95)

5 فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرب (حاشية الطيبي على الكشاف) (10/ 408)

ووافقته على ذلك قريش وهم العرب الفصحاء، واللسن البلغاء، ولو لم تكن للعموم لما صح أن يستثنى منها، وقد وجد ذلك فهي للعموم وهذا واضح"¹، بل قد "روي أن ابن الزبير قال: هذا شيء لأهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال ﷺ «بل لكل من عبد من دون الله»"²3. وأما ما اشتهر من أن النبي - ﷺ - قال لابن الزبير: "ما أجهلك بلغة قومك! إن ما لما لا يعقل" فهذا "لا أصل له من طريق ثابتة ولا واهية"⁴.

وأما على القول الذي ذهب إليه "كثير من أهل العلم: فلا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة لأن (ما) لمن لا يعقل، ولو أراد العموم لقال: «ومن يعبدون». قال الزجاج: ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم"⁵، ولذلك فإن "هذا الذي قاله ابن الزبير خطأ كبير لأن الآية إنما نزلت خطابا لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقريبا وتوييحا لعابديها"⁶.

ولذلك جاء (أن رسول الله ﷺ قال لقريش: "إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير". فقالوا: ألسنت تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا وقد عبدته النصارى؟! فإن كنت صادقا فإنه كآهتهم. فأنزل الله "ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون"⁷. أي "إذا كانوا يعلمون من لغتهم أن الآية الكريمة لم تتناول عيسى بمقتضى لسانهم العربي، الذي نزل به القرآن - تحققنا أنهم ما ضربوا

1 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (14/ 291)

2 الحديث بهذا اللفظ قد سبق تخريجه ص (484)، وذكرنا أنه قد حسنه الحافظ ابن حجر وأخرجه بسنده من طريق الواحدي، انظر

موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر (2/ 173)

3 تفسير البيضاوي (4/ 61)

4 قال الحافظ في موافقة الخبر الخبر (2/ 175): وقع في كلام كثير من فضلاء العجم كالشراح العضد ما نصه: نقل أن النبي - صلى

الله عليه وسلم - قال لابن الزبير: "ما أجهلك بلغة قومك، إن ما لما لا يعقل" انتهى. وهذا لا أصل له من طريق ثابتة ولا واهية،

وكان الموقوع في ذلك قول ابن الحاجب: وأجيب بأن ما لما لا يعقل، فظنوا أنه من جواب النبي - ﷺ -، وقد قرر النبي - ﷺ - فهم

العموم كما تقدم، لكن أريد به الخصوص بمن يستحق العتاب ممن يعقل كالشياطين، وما لا يعقل كالأصنام والله أعلم. اهـ.

⁵ فتح القدير للشوكاني (3/ 506)، ونحوه في فتح البيان لصديق خان (8/ 373)، أضواء البيان للشنقيطي (7/ 275).

⁶ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (9/ 452).

⁷ أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس كما في الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (13/ 218).

عيسى مثلا إلا لأجل الجدل والخصومة بالباطل"¹. فيكون قوله عليه الصلاة والسلام السابق "بل لكل من عبَد من دون الله" على التنزل "بناء على ما فهم ابن الزبيري"² من أن "ما للعقلاء أيضا"³، وبالتالي فلا (وجه لسؤال ابن الزبيري لأن كلمة "ما" لا تتناول من يعقل، فقوله تعالى "وما تعبدون" لا يتناول الملائكة فإن الملائكة من العقلاء، بل يقتصر على الأصنام لكنه عليه الصلاة والسلام جراه، وألزمه بوجه آخر تنبيهها على أن لدفع شبهته طرقا متعددة)⁴، أو أنّ (سؤال ابن الزبيري وارد على طريق التعنت بناء على أنه جعل "ما" مستعملة بمعنى "من" مجازا أو حمله على التغليب)⁵.

وهذا ما اختاره ابن تيمية، فذكر أن الخطاب في الآية الأولى "للمشركين لا لأهل الكتاب، والمشركون لم يعبدوا المسيح وإنما كانوا يعبدون الأصنام"، والمراد بقوله: {وما تعبدون} الأصنام، فالآية لم تتناول المسيح لا لفظا ولا معنى"⁶. وإنما تناولت الآية "غير العاقل من الأشجار والأحجار وغيرها ممّا لا يعقل، فيشمّلها قوله تعالى: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم..ولكن الأحجار لا أرواح فيها وإنما يعذب بها من عبدها من دون الله"⁷.

على هذا القول نفسه الذي اختاره ابن تيمية نجده يؤكد أن المشركين كانوا يعبدون أصناما وحجارة صماء، وهذا صرح به ابن تيمية نفسه هنا بقوله "وإنما كانوا يعبدون الأصنام"، واختاره ابن كثير أيضا فقال بأن "الآية إنما نزلت خطابا لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل" وقال أيضا: وعوّل ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن "ما" لما لا يعقل⁸. اهـ واختاره أيضا الشوكاني فقال: ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة لأن "ما" لمن لا يعقل. اهـ وكذا اختاره صديق

1 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (7/ 275).

2 عناه القاضي وكفاية الراضي (6/ 274)

3 حاشية العصام القونوي على تفسير البيضاوي (12/ 591)

4 حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي 3 / 369

5 حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي 3 / 370

6 مجموع الفتاوى (20/ 540)

7 معارج القبول (2/ 488)

8 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (9/ 452).

خان والشنقيطي كما سبق، وهو ما ذهب إليه الطبري كما رأينا وكذا اختاره السهيلي¹، فكلهم أكدوا أن الآية تناولت الأصنام فقط دون غيرها من المعبودات لأنها "ما" لغير العاقل وأما عيسى ونحوه فإنه من العقلاء، وهذا صريح في أن أصنامهم ليست من العقلاء بل حجارة صماء لا تعقل.

والحاصل أنّ آية الأنبياء الأولى سواء أكان المقصود بها عموم المعبودات في النار، ثم استثنى الله الأنبياء ونحوهم في الآية الثانية، وبقيت آلهة المشركين متناولة فتكون في النار مع عابديهم تبكيتهما لهم، أم كان المقصود بالآية الأولى أصالة آلهة المشركين لأن "ما" لغير العاقل؛ فعلى كلا الاحتمالين آلهة المشركين غير عاقلة وليست من الأنبياء والأولياء والملائكة.

نعم قد يقال جاء في رواية للطبري أن ابن الزبير قال: "فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً.."². قلنا: أولاً: هذه رواها من طريق ابن إسحاق مرسله وكذا رواها ابن هشام عنه. ثانياً: هذه الرواية معارضة للروايات الكثيرة الأصح منها، ومنها رواية الطبراني وفيها قال ابن الزبير: "وهذه بنو تميم تعبد الملائكة فهؤلاء في النار؟" وفي رواية "وهذه بنو مليح تعبد الملائكة"³. ثالثاً: على فرض ثبوتها هي حجة على الخصم إذ لم يدّع المشركون أنهم يعبدون الأنبياء، وهذا غير ممكن أصلاً لأنهم ينكروهم كما سبق، وأما كونهم يعبدون الملائكة فهذا يمكن لأنهم يقرّون بها، ولكن يعتبرونها بنات الله، ولذلك هم عبدوهم، ولولا أنهم ادّعوا أنّها بنات الله لما عبدوها كما قال المعلمي فيما سبق⁴.

1 حيث قال في الروض الأنف ت الوكيل (3/ 317): ولو تأمل ابن الزبير وغيره من كفار قريش الآية لرأى اعتراضه غير لازم من وجهين: أحدهما: أنه خطاب متوجه على الخصوص لقريش وعبداء الأصنام، وقوله إنا نعبد الملائكة حيدة، وإنما وقع الكلام والمحااجة في اللات والعزى وهبل، وغير ذلك من أصنامهم. والثاني: أن لفظ التلاوة: إنكم وما تعبدون ولم يقل: ومن تعبدون، فكيف يلزم اعتراضه بالمسيح وعزير والملائكة وهم يعقلون، والأصنام لا تعقل، ومن ثم جاءت الآية بلفظ: ما الواقعة على ما لا يعقل، وإنما تقع ما على ما يعقل، وتعلم بقرينة من التعظيم والإبهام. وانظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (6/ 274).

² جامع البيان ط هجر (16/ 417)، وانظر السيرة النبوية لابن هشام (1/ 359)، صحيح السيرة النبوية (ص: 197)، البداية والنهاية ط هجر (4/ 218)،

³ أخرجها أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن مردويه والطبراني عن ابن عباس كما في الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (10/ 386)

⁴ انظر: ص (471) عند قولي: (فالعبادة موجّهة إلى صفة البنتيّة)

فإن قيل: إن آيات سورة الأنبياء يراد بها "ما كانوا يعبدونه من الأحجار التي كانت صور أصنام ولا يتناول ذلك الملائكة الذين زعموا أنهم يعبدونهم في هذه الصور ولا المسيح ولا عزيرا ولا أحدا من الصالحين لأن الآية لا تتناولهم لا لفظا ولا معنى فهم يعلمون أن ما ضربوه بعيسى ابن مريم من المثل جدل باطل كما قال الله تعالى: "ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون"¹.

قلنا: هذا غير مسلم من وجهين:

الأول: أن هذا لا يدفع ما قلناه مما حاصله أن مشركي قريش اعترضوا على آية الأنبياء الأولى "إنكم وما تعبدون" بأن بعض القبائل وأهل الملل الأخرى عبدت الملائكة وعيسى وعزيرا، فنزل استثناءهم في آية الأنبياء الثانية "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون"، ولو كانوا يعبدون الأنبياء لقالوا نحن أيضا نعبد الأنبياء والأولياء والملائكة وليس فقط النصارى واليهود وبنو تميم، بل لما كان لاستثناءهم في الآية الثانية معنى ما داموا يعبدون الأنبياء والأولياء والملائكة في كل الأحوال، فكيف يكون بعضهم حسب جهنم والبعض الآخر مستثنى؟!

الثاني: سبق أن بينا أن أصنام المشركين كاللات والعزى ومناة وإساف ونائلة هي أسماء لشجيرات وبيوت وأحجار وأشخاص مشركين وزناة²، ولم يثبت أن بعض أصنامهم كانت مسماة بأسماء الأنبياء والصالحين أو كانت صورا لهم.

الثالث: أن أصنام المشركين هي نفسها آهتهم وليس ما يرمز إليها هو آهتهم، بدليل قوله تعالى: {فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ { [الأنبياء: 58، 59]، فقالوا من فعل هذا بآهتنا ولم يقولوا من فعل بهذه الصور التي ترمز لآهتنا، وبدليل آيات كثيرة أطلقوا فيها الألهة على تلك الأحجار فرد الله عليهم كما سبق بيانه³.

الدليل التاسع: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَجْأِدِلُونِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ

1 صحيح السيرة النبوية للألباني (ص: 198).

2 انظر: ص (543) عند قولي: (ثلاث شجرات...)

3 انظر: ص (487) عند قولي: (فإن كانت آهتكم التي تعبدونها ليس فيها...)

وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ { [الأعراف: 70، 71]، أي "أتخاصمونني في أسماء سميتموها أصناما لا تضر ولا تنفع أنتم وآباؤكم"¹ فقلوه: " {سميتموها} أي الأصنام نحتموها وسميتموها أنتم وآباؤكم"² فهذه مجرد "أسماء، لأن مسميّاتها لا حقيقة لها بل تسميتها بالآلهة باطلة، فكأنها معدومة لم توجد بل الموجود أسماؤها فقط سميتموها أنتم وآباؤكم، أي: سميتم بها معبوداتكم من جهة أنفسكم أنتم وآباؤكم ولا حقيقة لذلك"³، وهذا كله لا يصح لو أن معبوداتهم أنبياء ونحوهم إذ كيف يقال حينها "مسميّاها لا حقيقة لها.. فكأنها معدومة لم توجد بل الموجود أسماؤها"؟! هذا يعني بأن الأنبياء ليس لهم مسمى ولا لهم وجود سوى وجود أسمائهم.. وهذا كفر بواح كما هو معلوم لأنه إنكار للأنبياء عليهم السلام.

قد يقال إن المقصود من الآية أتجادلونني "في أشياء سميتموها آلهة وليس فيها معنى الإلهية، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل" كما قال البيضاوي وغيره⁴، قلنا: هذا مصير إلى أن الإلهية والربوبية شيء واحد، إذ المقصود بقوله "وليس فيها معنى الإلهية" أي الربوبية، بدليل قوله بعد ذلك "لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل"، والإيجاد هو الخلق والاختراع وهو من خصائص الربوبية، وهذا كله خلاف أصل نظرية تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية، وأنهما قسمان متباينان لا مترادفان كما هو محصل قول البيضاوي وغيره هنا.

الدليل العاشر: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا} [العنكبوت: 17]، فصّح أنهم يعبدون الأوثان "والأوثان: هي الأصنام. وقال أبو عبيدة: الصنم ما يتخذ من ذهب، أو فضة، أو نحاس، والوثن: ما يتخذ من جصّ أو حجارة.. وتخلقون إفكا أي.. تعملونها وتحتونها للإفك"⁵، حيث

1 جامع البيان ط هجر (281 / 10)

2 تفسير السمعاني (193 / 2)

3 فتح القدير للشوكاني (249 / 2)

4 تفسير البيضاوي (19 / 3)، تفسير أبي السعود (240 / 3)، روح المعاني (159 / 8)، حاشية العصام القونوي على تفسير

البيضاوي (423 / 8)

5 فتح القدير للشوكاني (227 / 4)

"تحتون الأصنام بأيديكم وتعبدونها. وحكى أن بني حنيفة اتخذوا صنما من الخيس - وهو التمر مع السمن - ثم إنه أصابتهم مجاعة فأكلوه، قال الشاعر:

(أكلت حنيفة ربها .. زمن التفحم والمجاعة)

(لم يحذروا من ربهم .. سوء العواقب والتباعة)¹. اهـ

الدليل الحادي عشر: روى الطبري بسنده عن مجاهد، في قوله: { ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى } [الزمر: 3]، قال: «قريش تقول له للأوثان، ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزير»². اهـ. ففرق مجاهد بين معبودات قريش وهي الأوثان، ومعبودات غيرهم من أهل الملل الأخرى التي تعبد الأنبياء والملائكة كالنصارى الذين يعبدون عيسى، ولو كانت قريش تعبد الأنبياء لما كان لهذه التفرقة معنى.

الدليل الثاني عشر: روى البخاري في صحيحه بسنده عن أبي رجاء العطاردي أنه قال: "كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به.. اهـ" وإنما كان يلبون عليه ليصير مثل الحجر، وفيه نظر؛ إذ لو كان الغرض ذلك كان الماء أولى بذلك. والأظهر أن ذلك لأن قومه كانوا يعبدون الشاة. ذكره أبو عمر بن عبد البر في مناقب أبي رجاء"³. وروى ابن عبد البر عن أبي رجاء العطاردي أنه قال: أدركت النبي ﷺ، وأنا شاب أمرد. قال: ولم أر ناساً كانوا أضلّ من العرب، وكانوا يجيئون بالشاة البيضاء فيعبدونها فيجيء الذئب فيذهب بها، فيأخذون أخرى مكانها فيعبدونها، وإذا رأوا صخرة حسنة جاؤوا بها وذهبوا يصلون إليها، فإذا رأوا صخرة أحسن من تلك رموها، وجاؤوا بتلك يعبدونها⁴.

1 تفسير السمعاني (4/ 173)

2 جامع البيان ط هجر (20/ 157)، وأورده أيضا في مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 392)

3 الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري (7/ 352)

4 الاستيعاب في معرفة الأصحاب (3/ 1210)

ونحوه ما جاء في الإصابة: روى ابن أبي خيثمة من طريق حميد بن أبي عثمان، قال: كنا في الجاهلية إذا تحملنا حملنا حجرا على بغير، فإذا رأينا أحسن منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا سقط عن البعير قلنا سقط إلهكم، فالتمسوا غيره¹. اهـ ونحوه ما قاله ابن دريد: "ومن رجالهم الحارث بن قيس، وهو الذي كان إذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه فعبدته، وفيه نزلت: "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه"². اهـ ونحوه ما جاء في كتاب الأصنام للكلي: فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذها رباً"³. اهـ

وقوله: "وكانوا يجيئون بالشاة البيضاء فيعبدونها" صريح في أنهم كانوا يعبدون الشاة نفسها، وإلا فكيف يرمزون بها إلى الأنبياء والملائكة والأولياء؟ فما وجه الشبه في هذا الترميز؟ وكذا قوله "كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر" صريح في أنهم يعبدون الحجر نفسه وإلا لما استبدلوه بأحسن منه لو أنه مجرد رمز إلى ما هو غائب من الأنبياء كما يزعم الخصم!! والواقع أن من هذا حاله لا يعبد غائبا ولا حاضرا وإنما يعبد هواه، ولذلك قال ابن عباس، في آية {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه}، قال: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر⁴. وهو ما قاله ابن تيمية أيضا: "فمن جعل ما يألوه هو ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه، أي جعل معبوده هو ما يهواه، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه"⁵.

فهذه الأدلة كلها تدل على بطلان ادعاء ابن تيمية وأتباعه بأن المشركين كانوا يعبدون الأنبياء والأولياء، هذا كله فضلا عن الأخبار التي جاءت في أصل اتخاذ الأصنام والأوثان وتبطل هذه الدعوى، وإليك بعضها:

¹ الإصابة في تمييز الصحابة (5/ 100)

² الاشتقاق لابن دريد (ص: 122)

³ الأصنام للكلي (ص: 33)، تاريخ الفكر الديني الجاهلي (ص: 466)

⁴ السنن الكبرى للنسائي (10/ 254)، المستدرک - الهندية (2/ 454)

⁵ مجموع الفتاوى (10/ 260)

الخبر الأول: ذكر المعلمي اليماني تحت عنوان "كيف دخلت الأوثان الحجاز؟": صحَّ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه ذكر عمرو بن لحي، فقال: "هو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام" .. ثم ذكر رواية ابن هشام: "وحدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم (مآب) من أرض (البلقاء)، وهم يومئذ العماليق، رأهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه الأصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب، فيعبدونه؟ فأعطوه صنما يقال له: "هبل"، فقدم به مكة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه¹، ثم ذكر المعلمي لفظا آخر قد سبق وهو "فرآهم يعبدون الأصنام، فسألهم، فقالوا: هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العُلوية، نستنصرها ونستسقي، فتبعهم وأتى بصنم معه إلى الحجاز، وسؤل للعرب، فتبعوه"². اهـ

فواضح من هذا الخبر أن العرب عبدت الأصنام بأمر من ابن لحي هذا دون أي التفات إلى قضية أن هذه الأصنام ترمز إلى أنبياء وأولياء، بل ابن لحي نفسه لا علم له بذلك بدليل ما في هذا الخبر نفسه وهو قوله: "أن عمرو بن لحي مَرَّ بقوم بالشام، فرآهم يعبدون الأصنام، فسألهم، فقالوا: هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العُلوية، نستنصرها ونستسقي، فتبعهم" أي قلدهم فيما قالوه من أن تلك الأصنام أرباب تُتخذ للاستنصار والاستسقاء، ثم جعل العرب يتبعونه في ذلك دون أن يعلم هو ولا العرب ولا حتى من سألهم من أهل الشام أن تلك الأصنام هي رموز للصالحين.

الخبر الثاني: قال السهيلي: (أصل عبادة الأوثان).. وكان عمرو بن لحي.. قد جعلته العرب ربًّا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة؛ لأنه كان يطعم الناس، ويكسو في الموسم، فرما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حُلَّة حتى قيل إنه اللات الذي يلت السويق للحجيج على صخرة معروفة تسمى: صخرة اللات، ويقال إن الذي يلت كان من ثقيف، فلما مات قال لهم عمرو: إنه لم يمِت،

1 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6/ 171)، وانظر السيرة النبوية لابن هشام (1/ 77) والخبر أيضا في تليس إبليس (ص: 364)/ ط دار الوطن: بلفظ: نستسقي بما المطر ونستنصر بما على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة، واتخذت العرب الأصنام. اهـ وهو أيضا في كتاب الشرك في القديم والحديث ص 436.

2 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6/ 171، 172).

ولكن دخل في الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها، وأن يبنوا عليها بيتا يسمى: اللات.. وقد ذكر ابن إسحاق أنه أول من أدخل الأصنام الحرم، وحمل الناس على عبادتها¹. اهـ

الخبر الثالث: قال ابن القيم وهو يتكلم عن العرب نقلا عن ابن الكلبي إن "الذي حملهم على عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالبيت حبا للبيت وصبابة به، وهم على ذلك يعظمون البيت ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم عبدوا ما استحسنا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم غيره، فعبدوا الأوثان.."². اهـ

الخبر الرابع: ((وقد جاء في أشعارهم ما يدل على أن عبادتهم للأصنام لم تكن عميقة في قرارات أنفسهم لأنهم كانوا يدركون عدم جدواها ونفعها. وقد ذكر ابن كثير في كتابه "البداية" أن صنماً يقال له سعد، وكان صخرة طويلة فأقبل عليه رجل من كنانة يابل له لقصد التبرك به فلما أدناها منه نفرت وكان يهراق عليه الدماء فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه، فأسف عليها فأخذ حجراً ورماه به وقال: لا برك الله فيك إلهاً أنفرت عليّ إبلي، ثم سار في طلبها فجمعها وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا يُدعى³ لغني ولا رشد⁴

¹ الروض الأنف ت الوكيل (1/ 357)

² إغاثة اللفهان (2/ 210)

³ كذا وقع "لا تُدعى" في كتاب مباحث العقيدة في سورة الزمر، وهكذا وقع أيضا في «كتاب الأصنام» للكلبي (ص37)، ونَبّه محقق الكتاب أحمد زكي باشا على أنه وقع في نسخة أخرى من كتاب الأصنام "لا يدعو"، قال وليد: هذا اللفظ الأخير هو الذي وقع في «سيرة ابن هشام ت السقا» (1/ 81)، و«الروض الأنف ت الوكيل» (1/ 354)، و«البداية والنهاية» (3/ 196 ت التركي)، و«إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان» (2/ 968 ط عطاءات العلم)، و«لسان العرب» (3/ 218)، و«الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية» (2/ 488)، و«الملل والنحل» (3/ 82)، كلها بلفظ: «لا تَدْعُو»، وهذا هو الأرجح، لأنه تُدعى من قبل من يعبدها بدليل قوله "أتينا إلى سعد ليجمع شملنا"، ولكنها لا تدعو لغني ولا رشد لأنها جمادات. والله أعلم.

⁴ مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 359)، ناصر بن علي الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض، ط1/ 1415هـ/1995م.

فهذه الأخبار تدل على أن الأصنام اتَّخِذت آلهة لكونها تضرّ وتنفع عند من اتخذها، دون أي نظر إلى قضية أنها ترمز إلى أولياء أو أنبياء أو ملائكة، ثم تركوا عبادتها حين علموا أنها لا تضر ولا تنفع، وقد أقرّ ابن القيم بأن المشركين كانوا يعبدون الحجارة: ((وهكذا كان عباد الأصنام سواء، وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم فأولئك كانت آلهتهم من الحجر وغيرهم اتخذوها من البشر))¹. اهـ

المطلب الثاني: مناقشة أدلة السلفية على أن المشركين كانوا يعبدون العقلاء وليس الحجارة

زعم السلفية أن المشركين كانوا يعبدون عقلاء ولا يعبدون حجارة، فكانوا يعبدون الأنبياء والأولياء والصالحين، واستدلوا على زعمهم هذا بأربعة أنواع من الأدلة؛ استدلوا بالكتاب والسنة وبالمعقول وبإقرار بعض الأشاعرة بذلك، وإليكم بسط ذلك في المرصد التالية:

المرصد الأول: استدلال السلفية بآيات من القرآن على أن الأصنام من العقلاء

قالوا جاءت آيات كثيرة أشارت إلى الأصنام بصيغة العاقل، حيث "إن الله تعالى قال في صدد الردّ على المشركين مبيّنًا عجز آلهتهم: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النحل: 20 - 21]، وقال جل وعلا: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَزْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} [يونس: 28-29]. وقال سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأعراف: 194]، وقال عز وجل: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ} [الكهف: 102]، وقوله تبارك وتعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} [فاطر: 13-14]، وقال جل شأنه: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: 5-6]، وقال تعالى: {أُولَئِكَ

الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [الإسراء: 57]1.

فهذه الآيات وغيرها تحدثت عن "آلهة المشركين بصيغ العقلاء وصفات ذوي العقول.. نحو: الذين.. و(أموات)، وما يشعرون، و(يبعثون)، و(نحشرهم)، وقال شركاؤهم، و(لغافلين)، و"عباد أمثالكم" و"فليستجيبوا"، و"عبادي"، و"ما يملكون"، و"لا يسمعون"، و(لو سمعوا)، و(ما استجابوا)، و(يوم القيامة يكفرون بشرككم)، و(هم)، و(غافلون)، و(إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء)، و(كانوا بعبادتهم كافرين)، و{يبتغون إلى ربهم الوسيلة}، و(يرجون رحمته)، و(يخافون عذابه)، ونحو ذلك من الصيغ التي لا تستعمل إلا لذوي العقول عند العرب وغيرهم، والصفات التي لا توجد إلا في العقلاء في اللغة العربية، وغيرها؛ فإن الجمادات من الأصنام والأحجار والأشجار والتماثيل التي لا تعقل لا يقال فيها: (الذين لا يخلقون)، و(لا يشعرون)، ولا يملكون، ولا يستجيبون، ولا يسمعون.. وهذه كلها براهين باهرة وحجج ساطعة وأدلة قاطعة على أن آلهة المشركين السابقين إنما كانوا عقلاء، وأنهم كانوا من عباد الله تعالى وليسوا جمادات بحتة2

كيف؟ ونحن نجد القرآن يخاطبهم تارة على أنهم يعبدون الملائكة، كقوله: {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا.. وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم}3، و"قوله تعالى: {ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون}4، فدل على أن المشركين "كانوا يعبدون الملائكة"5، بيد أن الآية دلت على "أن الملائكة لم تأمرهم بذلك وإنما أمرتهم بذلك الجن ليكونوا عابدين للشياطين التي تتمثل لهم كما يكون للأصنام شياطين"6. ومما يدل على ذلك أيضا "قوله تعالى: {وإذ قال الله

1 جهود علماء الحنفية - (500 / 1)

2 جهود علماء الحنفية - (501 / 1)

3 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6 / 165)، وانظر (3 / 711)، و(7 / 58) و(19 / 103).

4 جهود علماء الحنفية (2 / 860)

5 مجموع الفتاوى (4 / 135)

6 مجموع الفتاوى (4 / 135)

ياعيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إهين من دون الله {¹}. ففيما سبق من الآيات "دلالة قاطعة على أن المراد أنهم كانوا يدعون الصالحين من الأنبياء والملائكة والأولياء"² "ليشفعوا لهم عند الله، كما تشهد به نصوص القرآن، وكتب التفسير والسير، والآثار طافحة بذلك"³.

(المنطوق مقدم على المفهوم)

والجواب عن هذه الآيات كلها مجمل ومفصل؛ وقبل ذلك ثمة جواب مسكت بآية واحدة تنسف كل استنباطات الخصم السابقة، وهي قوله تعالى { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ } [الزمر: 43]، فهذه الآية تنص نصًا على أن أصنامهم التي اتخذوها شفعاء لا تعقل! فهي وحدها تكفي للمنصف وتهدم ما بناه الخصم، والعجيب أن الخصم تجاهل هذه الآية الصريحة، وراح يبحث عن آيات أخرى يستنبط منها أن أصنامهم يعقلون! أي أنه ترك المنطوق وأخذ بالمفهوم! ومعلوم أن "المنطوق مقدم على المفهوم"⁴ كما هو مقرر في علم أصول الفقه⁵.

نعود الآن إلى الجواب المجمل والمفصل؛ أما المجمل فبيانه أن هذه الآيات استدلت بها الخصم بحجة أنها تكلمت عن الأصنام بصيغة العاقل معارضة بالآيات الكثيرة التي استُخدم فيها ضمير غير العاقل إشارة للأصنام، وهذه طائفة من الآيات في ذلك:

(1) { قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء: 66، 67].

(2) { إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } [مريم: 42].

(3) { فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ } [هود: 109].

1 جهود علماء الحنفية (2/ 860)

2 جهود علماء الحنفية (2/ 860)

3 تيسير العزيز الحميد (ص: 513)

4 «تفسير ابن كثير - ت السلامة» (2/ 262)، «البحر المحیط النجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج» (35/ 36)

5 «المحصل للرازي» (5/ 433)، «الذخيرة للقراني» (3/ 96)، «نفائس الأصول في شرح المحصول» (8/ 3718)، «التحقيقات

على شرح الجلال للورقات» (ص246)

- (4) { وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ } [الكهف : 16].
- (5) { فَلَمَّا اعْتَزَلْتُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } [مريم : 49].
- (6) { اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ } (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ { [الصفات : 22 ، 23].
- (7) { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ } [يونس : 18].
- (8) { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا } [النحل : 73].
- (9) { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا } [الحج : 71]
- (10) { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا } [الفرقان : 55].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المماثلة، وكلها أشارت إلى الأصنام بضمير الموصول "ما" وهو لغير العاقل كما هو معلوم، وليس هذا فحسب بل إن الله نصّ في آية صريحة على أن معبودات المشركين وشفعاءهم لا تعقل، فقال تعالى: { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ } [الزمر: 43]، قال صديق خان: (ولا يعقلون) شيئاً من الأشياء لأنها جمادات لا عقل لها¹. وكذا قال الشوكاني، ونحوه قول ابن كثير والسعدي وقد سبقت نصوصهم². هذا فضلا عما سبق من أدلة أخرى كثيرة دلت على أن أصنامهم وآلهتهم ومعبوداتهم وشفعاءهم إنما هي مجرد أحجار وجمادات هم نحتوها وصنعوها بأيديهم ثم زعموا أنها آلهة وشفعاء وعبودها ابتغاء نفعها وتجنب ضررها، تقليداً لأبائهم في ذلك الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون³.

غاية ما هنالك أن الآيات التي استدلوها بها وتحدثت عن "آلهة المشركين بصيغ العقلاء وصفات ذوي العقول" ليس لأنها تعقل فعلاً وإنما تنزيلاً لها منزلة العاقل لأغراض بلاغية كما ذكر النحاة والمفسرون، ومنهم بعض السلفية أنفسهم!

1 فتح البيان في مقاصد القرآن (12/ 122)

2 انظر: ص (480) عند قولي : (وليس لهم عقل، يستحقون أن يُمدحوا)

3 انظر: ص (514) عند قولي : (لأنها جمادات لا عقل لها)

وفي ذلك يقول الشنقيطي: وإنما كانوا غافلين عنها لأنهم جماد لا يعقلون، وإطلاق اللفظ المختص بالعقلاء عليهم، نظرا إلى أن المشركين نزلوهم منزلة العقلاء.. وكقوله تعالى في الأحقاف: (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين). فقد دل قوله تعالى: (وهم عن دعائهم غافلون) على أنهم لا يعقلون، ومع ذلك قال: (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وكقوله تعالى: (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا)، فصرح بأنهم أوثان، ثم ذكر أنهم هم وعبدتهم يلعن بعضهم بعضا. وكقوله تعالى: (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) إلى غير ذلك من الآيات¹.. اهـ

وقال السيوطي: الأصل في "من" وقوعها على العاقل ولا يقع على غير العاقل إلا في مواضع أحدها أن ينزل منزلته نحو {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له} عبر عن الأصنام بـ "من" لتنزيلها منزلة العاقل حيث عبدوها وقوله (أسرب القطا هل من يعير جناحه..). أنزل القطا منزلة العاقل لخطابه وندائه، الثاني والثالث أن يقترن معه في شمول أو تفصيل فالأول نحو {ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض}، والثاني نحو {ومنها من يمشي على أربع} لاقتارانه بالعاقل فيما فصل بمن في قوله {خلق كل دابة من ماء}، وزعم قوم منهم قطرب وقوع "من" على غير من يعقل دون اشتراط، أخذنا من ظاهر ما ورد من ذلك، والغالب في "ما" وقوعها على غير العاقل وقد يقع للعاقل نادرا، نحو {لما خلقت بيدي}، {والسماوات وما بناها}، {ولا أنتم عابدون ما أعبد}، وشع: سبحان ما سخركن لنا.2. اهـ

وأنت تلاحظ كيف جعل قوله {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له} إلى يوم القيامة { [الأحقاف : 5]، من هذا الباب وهو أنه نزل غير العاقل منزلة العاقل، وسيأتي قول الطبري في هذه الآية: لا تجيب دعاءه أبدا، لأنها حجر أو خشب.. لا تسمع ولا تنطق، ولا تعقل.. فأخرج ذكر

1 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (6/ 331)

2 همع الهوامع بجمع الجوامع للسيوطي (1/ 314)، وانظر أيضا: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك 1 / 147، لابن هشام، دار الجيل - بيروت، ط5/ 1979م.

الآلهة وهي جماد مخرج ذكر بني آدم، ومن له الاختيار والتمييز، إذ كانت قد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تخدم في خدمتهم إياها، فأجرى الكلام في ذلك على نحو ما كان جارياً فيه عندهم¹.

وقال القرطبي عند قوله تعالى: { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [النحل: 17]. قوله تعالى: " أفمن يخلق " هو الله تعالى، " كمن لا يخلق " يريد الاصنام.. أخبر عن الاوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع كما يخبر عن من يعمل على ما تستعمله العرب في ذلك، فإنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ "من" كقوله: " ألهم أرجل". وقيل: لاقتران الضمير في الذكر بالخالق. قال الفراء: هو كقول العرب: اشتبه عليّ الراكبُ وجهه فلا أدري من ذا ومن ذا، وإن كان أحدهما غير إنسان².

وقال الفراء عند قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [الأنبياء: 33]، قال: " في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ " لغير الآدميين للشمس والقمر والليل والنهار، وذلك أن السباحة من أفعال الآدميين فقيلت بالنون كما قيل: (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) لأن السجود من أفعال الآدميين³. اهـ وقال الشوكاني عند قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [فصلت: 11]: قالتا أتينا طائعين أي: أتينا أمرك منقادين وجمعهما جمع من يعقل لخطابهما بما يخاطب به العقلاء⁴.

الجواب المفصل عن تلك الآيات

وأما الجواب المفصل فنجيب فيه عن تلك الآيات التي استدلو بها، كلٌّ منها على حدة، وبالله

التوفيق.

1 جامع البيان ط هجر (116 / 21)

2 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (307 / 12)

3 معاني القرآن للفراء (201 / 2)

⁴ فتح القدير للشوكاني (582 / 4)

الآية الأولى: "أموات غير أحياء" والجواب عنها

قال تعالى { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [النحل: 20 - 21]، فالمراد بها الأصنام، قال السمعاني: أراد به الأصنام¹. ونحوه قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ } [الرعد: 14] أي فهي لا تستجيب لمن يدعوها لأن الصنم "جماد لا يشعر بحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ولا يدرى أنه طلب منه"²، "وأجرى- سبحانه- على الأصنام ضمير العقلاء في قوله "لا يستجيبون" مجازة للاستعمال الشائع عند المشركين، لأنهم يعاملون الأصنام معاملة العقلاء"³.

وقوله "وما يشعرون أيان يبعثون" قال الشوكاني: أي "ما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار، ويكون هذا على طريقة التهكم بهم لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة..وقيل..أي: وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث، ويؤيد ذلك ما روي أن الله يبعث الأصنام ويخلق لها أرواحا معها شياطينها فيؤمر بالكل إلى النار، ويدل على هذه قوله: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم، وقيل قد تم الكلام عند قوله: وهم يخلقون، ثم ابتداء فوصف المشركين بأنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون، فيكون الضميران على هذا للكفار، وعلى القول بأن الضميرين أو أحدهما للأصنام يكون التعبير عنها مع كونها لا تعقل بما هو للعقلاء جريا على اعتقاد من يعبدها بأنها تعقل"⁴.

¹ تفسير السمعاني (3/ 165) ونحوه قوله في الرعد: {والذين يدعون من دونه} يعني: الأصنام. انظر (3/ 85)

² فتح البيان في مقاصد القرآن (7/ 34)

³ التفسير الوسيط لطنطاوي (7/ 459)

⁴ فتح القدير للشوكاني (3/ 187)

وقال ابن كثير: "أخبر أن الأصنام التي يدعوها من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون كما قال الخليل "أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون"..وقوله "أموات غير أحياء"، أي هي جمادات لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل¹.

والحاصل أن الآية يراد بها الأصنام، ووُصفت بأنها لا تشعر لأنها جمادات، وأشار إليها بضمير العاقل تماشيا مع معاملة المشركين للأصنام حيث يتعاملون معها فيخاطبونها، ويطلبون منها كما لو أنها عاقلة قادرة.

الآية الثانية: "إن كنا عن عبادتكم لغافلين" والأقوال فيها

{ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمُ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ } [يونس: 28، 29]، وهذه الآية قد اختلف في المقصود بالشركاء فيها على أقوال:

القول الأول: أن المراد بالشركاء الأصنام، وهذا ذهب إليه جمهور المفسرين من السلف والخلف، فقد روي هذا القول عن ابن عباس²، ومجاهد كما سيأتي، ومقاتل بن سليمان³، ورجحه الطبري⁴ والسمعاني⁵ والبعغوي وابن عطية والسيوطي وابن عاشور، وغيرهم⁶.

¹ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (8/ 302)، ولابن كثير نصوص أخرى يبين فيها أن معبودات المشركين جمادات لا تعقل، فهو يقول مثلا في تفسيره (6/ 485): ..الأوثان وهي مخلوقة لله مربية مصنوعة لا تملك شيئا من الأمر ولا تضر ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر. اهـ وقد سبق قوله: .. الآية إنما نزلت خطابا لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل ليكون ذلك تقريرا وتوبيخا لعابديها".

² تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، للمجد الفيروز آبادي 1/ 173، دار الكتب العلمية.

³ تفسير مقاتل بن سليمان 2/ 90

⁴ جامع البيان ط هجر (12/ 170)

⁵ تفسير السمعياني (2/ 380)

⁶ مثل السمرقندي في تفسيره بحر العلوم 2/ 114، وابن أبي زمنين في تفسيره (2/ 62)، والواحدي في الوجيز 1/ 496، والثعلبي في تفسيره الكشف والبيان 5/ 131. انظر: ترجيحات القرطبي في التفسير من سورة التوبة إلى آخر يونس رسالة ماجستير للطالبة خلود العصيمي (ص304).

قال مجاهد: يُنطق الله الأوثان فتقول ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون، وما أمرناكم بعبادتنا¹.
وقال أيضا: "يكون يوم القيامة ساعة فيها شدة تنصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدون، فيقال: هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله، فتقول الآلهة: والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا فيقولون: والله لإياكم كنا نعبد. فتقول لهم الآلهة: {فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين}²."

فدَلَّ ذلك على "أن الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت"³، "ينطقها الله الذي أنطق كل شيء في ذلك الموقف فتقول لهم ما كنتم إيانا تعبدون"⁴، "فتكون بينهم هذه المحاورة"⁵، ومنها قولهم "(إن كنا أي ما كنا (عن عبادتكم لغافلين) إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل، لأننا كنا جمادا لا روح فينا"⁶. "وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئا ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أَراده بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه"⁷. "وإنما كانوا غافلين عنها لأنهم جماد لا يعقلون. وإطلاق اللفظ المختص بالعقلاء عليهم، نظرا إلى أن المشركين نزلوهم منزلة العقلاء"⁸.

بيد أنه قيل "لا معنى للوعيد والتهديد في حق الأصنام مع عدم صدور شيء منها يوجب ذلك، ولا مخلص إلا بالترام أن التهديد والوعيد للمخاطبين فقط أو للمجموع باعتبارهم. وأجيب بجواز كون

1 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (10 / 488)

2 جامع البيان ط هجر (12 / 171)

3 فتح القدير للشوكاني (2 / 500)

4 روح المعاني (11 / 107)

5 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (10 / 487)

6 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (10 / 488)

7 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (7 / 359)

8 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (6 / 331)

تهديد الأصنام نظير إدخالها النار مع عبدتها، كما يدل عليه قوله تعالى: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم¹.

وقيل أيضا بأن هذا القول لا يصح "مطلقا لأن الأوثان لا تتصف بالغفلة حقيقة لأنها.. اسم لترك وذهاب القلب عنه إلى غيره وهذا شأن ذوي القلوب والأوثان ليست من ذلك، وكذا تتصف بها مجازا عن عدم الارتضاء، إذ الظاهر أن مرادهم من عدم الارتضاء السخط والكرهية، وظاهر أن الأوثان لا تتصف بسخط ولا ارتضاء، إذ هما تابعان للإدراك ولا إدراك لها، ومن أثبتته للجمادات حسب عالمها فالأمر عنده سهل، ومن لا يثبتته يقول: إنها مجاز عن عدم الشعور، وقد يقال: إن المراد بغفلتهم عن عبادة المشركين عدم طلبهم الاستعدادي لها، ويرجع ذلك بالآخرة إلى نفي استحقاق العبادة عن أنفسهم وإثبات الظلم لعابديهم².

القول الثاني: أن المراد بالشركاء هنا الملائكة، وهذا القول قدّمه القرطبي فقال: "عنى بالشركاء الملائكة"³، وأما الغفلة في قوله {وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} [الأحقاف: 5] فتحمل "على عدم الارتضاء لا على عدم الشعور لأن عدم شعور الملائكة بعبادتهم غير ظاهر.. وتُعقب بأنه لا دليل على شعور الملائكة عليهم السلام بعبادتهم ليصرف له اللفظ عن حقيقته، وليس هؤلاء المعبودون هم الحفظة أو الكتبة؛ بل ملائكة آخرون، ولعلمهم مشغولون بأداء ما أمروا به عن الالتفات إلى ما في هذا العالم.. فإنهم الذين قالوا يوم استنبعوا عن الأسماء: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، وهذا جبريل عليه السلام من أجلهم قدرا كان كثيرا ما يسأله رسول الله ﷺ عن أشياء فيقول: لا أعلم وسوف أسأل ربي"⁴.

القول الثالث: الملائكة وعيسى وعزير وكل ما يعقل، وهذا القول قدّمه الزمخشري فقال: "وهم الملائكة والمسيح ومن عبده من دون الله من أولي العقل"⁵، ولكن قيل "بأنه لا يناسب قوله سبحانه:

1 روح المعاني (11 / 108).

2 روح المعاني (11 / 109)

3 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (10 / 487)، ثم قال: وقيل: الشياطين، وقيل: الأصنام. اهـ

4 روح المعاني (11 / 109)

5 الكشاف (2 / 328)، ثم قال: وقيل: الأصنام ينطقها الله عز وجل.

مكانكم أنتم وشركاؤكم، حيث إن المراد منه الوعيد والتهديد وظاهر العطف انصراف ذلك إلى الشركاء أيضا، وتهديد أولئك الكرام عليهم الصلاة والسلام مما لا يكاد يُقدم على القول به¹.

القول الرابع: الشياطين، وهذا القول ذكره القرطبي وغيره²، فقال: "وقيل: الشياطين.. وذلك أنهم ادّعوا على الشياطين الذين أطاعوهم.. أنهم أمرهم بعبادتهم ويقولون ما عبدناكم حتى أمرتمونا"³، ويكون معنى "ما كنتم إيانا تعبدون"، مع أن الشياطين هم من أمرهم: "أنهم يقولون ذلك دهشا، أو يقولون كذبا واحتيالا للخلاص، وقد يجري مثل هذا غدا، وإن صارت المعارف ضرورية"⁴. أو "يحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم، ولا أكرهوهم عليها"⁵.

القول الخامس: كل ما عُبد من دون الله، وهذا ما رجّحه الشوكاني، فقال: "والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائنا ما كان"⁶، وإليه ذهب الألووسي فقال: فالأظهر أن يراد بالشركاء جميع ما عُبد من دون الله تعالى من ذوي العقول وغيرهم والكل صادق في قوله ذلك، وقد يراد من عدم الطلب ما يشمل عدم الطلب الحالي والقالي⁷ إذا اعتبر كون القائل ممن يصحّ نسبة ذلك له كالملائكة عليهم السلام وهذا الوجه لا يتوقف على شعور الشركاء بعبادتهم ولا على عدمه، فيجوز أن يكون لهم شعور بذلك ويجوز ألا يكون لهم شعور، والظاهر أن تفسير الغفلة بعدم الارتضاء المراد منهم على ما قيل السخط والكراهة يستدعي الشعور إذ كراهة الشيء مع عدم الشعور به مما لا يكاد يعقل، وإثباته لجميع الشركاء ولو إجمالا في وقت من الأوقات الدنيوية غير مسلم، ولعل التعبير بالغفلة أكثر تهجينا للمخاطبين ولعبادتهم من التعبير بعدم الطلب مثلا فتأمل⁸.

¹ روح المعاني (11 / 108)

² فتح القدير للشوكاني (2 / 500).

³ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (10 / 487)

⁴ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (10 / 488)

⁵ فتح القدير للشوكاني (2 / 500)

⁶ فتح القدير للشوكاني (2 / 500)

⁷ المقصود: الطلب بلسان الحال أو المقال.

⁸ روح المعاني (11 / 109)

وهو ما ذهب إليه الشنقيطي حيث قال: الأظهر عندي شمول المعبودين المذكورين للأصنام، مع الملائكة وعيسى وعزير؛ لأن ذلك تدل عليه قرينتان قرآنيتان: الأولى: أنه عبّر عن المعبودين المذكورين بـ: «ما» التي هي لغير العاقل في قوله: ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله الآية. فلفظة (ما) تدل على شمول غير العقلاء، وأنه غلب غير العاقل لكثرتة. القرينة الثانية: هي دلالة آيات من كتاب الله، على أن المعبودين غافلون عن عبادة من عبدهم: أي لا يعلمون بها لكونهم غير عقلاء، كقوله تعالى في سورة يونس وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون..¹

والحاصل أن الآية مختلف في المراد بها على أقوال عديدة، وجمهور المفسرين من السلف والخلف على أن المراد بها الأصنام وأنه عبّر عنها بصيغة العقل لأغراض بلاغية، وبعض المفسرين قالوا بأن المراد بالآية الملائكة وعيسى وعزير، ولكن من عبء هؤلاء عبدهم على أنهم أولاد الله، تعالى الله عن ذلك، ولم يعبدهم على أنهم مجرد ملائكة أو أنبياء أو صالحين، كما بيّناه مرارا.

¹ أعضاء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (6/ 330)

الآية الثالثة: "إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم" والجواب عنها

قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [الأعراف: 194]، والمقصود بالعباد هنا الأصنام والأوثان قطعاً بدليل قوله في الآية التي بعدها: { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونِ } [الأعراف: 195]، وقد أقرّ بذلك الأفغاني فذكر بأن بعض سفهاء المشركين "لم يتفطنوا للفرق بين هذه الأصنام، وبين من هي على صورهم، فظنوها معبودات وآلهة بأعيانها. ولذلك نرى: أن الله تعالى تارة قد يرد على أمثال هؤلاء السفهاء أيضاً كقوله تعالى: { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا .. } " 1.

وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين الطبري والسمعاني وابن كثير والقرطبي والشوكاني وصدیق خان وغيرهم²، ومعنى {عباد أمثالكم} "هم أملاك لربكم، كما أنتم له ممالك"³، "أي مماثلة لكم من حيث إنها مملوكة لله تعالى مسخرة لأمره عاجزة عن النفع والضرر"⁴، فقد "سميت الأوثان عباداً لأنها مملوكة لله مسخرة"⁵. وقال "الحسن: المعنى أن الأصنام مخلوقة أمثالكم"⁶، بل أنتم "أكمل منهم؛ لأنكم أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك.. وهذا تقرّيع لهم بالغ وتوبيخ لهم عظيم.. وإنما وصفها بأنها عباد مع أنها جماد تنزلاً لها منزلة العقلاء على وفق معتقدتهم، ولذلك قال: (فادعوهم فليستجيبوا لكم)⁷، أي أنه إنما جاء بضمير العاقل في قوله فادعوهم تنزلاً لها منزلة العقلاء وفقاً

1 جهود علماء الحنفية (1/ 504)

2 انظر: جامع البيان ط هجر (10/ 635) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (9/ 415) تفسير القرآن العظيم

لابن كثير (6/ 487) فتح البيان في مقاصد القرآن (5/ 105) روح المعاني (9/ 144) روح المعاني (9/ 144) فتح القدير

للشوكاني (2/ 316) تفسير السمعاني (2/ 240) تفسير السمعاني (2/ 240)

3 جامع البيان ط هجر (10/ 635)

4 روح المعاني (9/ 144)

5 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (9/ 415)

6 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (9/ 415)

7 فتح البيان في مقاصد القرآن (5/ 105)

لمعتقدتهم، أو أنه "لما اعتقد المشركون أن الأصنام تضرّ وتنفع أجزاها مجرى الناس فقال: (فادعوهم) ولم يقل فادعوهن"¹. أو "هم عباد أمثال الناس في العبادة، وعبادتهم التسبيح، وللجمادات تسبيح كما نطق به الكتاب. {وإن من شيء إلا يسبح بحمده}، وقوله {أمثالكم} يعني: أن الأصنام مذلّلون مسخّرون لما أريد منهم مثلكم، وهذا مثل قوله تعالى: {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم} ومعناه: أمثالكم في شيء دون شيء كذلك هاهنا وقيل: إنما قال: {أمثالكم} لأنهم صوّروها على صورة الأحياء، وطلبوا منها ما يُطلب من الأحياء"².

ويكون معنى (فادعوهم فليستجيبوا لكم) "فإن كنتم صادقين أنها تضرّ وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة لنفعها إياكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتوهم، فإن لم يستجيبوا لكم لأنها لا تسمع دعاءكم، فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر"³ أو المعنى "فاطلبوا منهم النفع والضر (إن كنتم صادقين) أنّ عبادة الأصنام تنفع"⁴. أو "ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضر، ثم كيدوني أنتم وهم جميعا بما شئتم من وجوه الكيد فلا تنظرون أي: فلا تمهلوني"⁵، و"يحتمل أنهم لما نحتوا الأصنام بصور الأناسي، قال سبحانه لهم: إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم، فلا يستحقون عبادتكم كما لا يستحق بعضكم عبادة بعض، فتكون المثلية في الحيوانية والعقل على الفرض والتقدير لكونهم بصورة الأحياء العقلاء"⁶، "وقيل: قال مقاتل: أراد به الملائكة. والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة، وقيل: أراد به الشياطين. والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الكهنة والشياطين والصحيح أنه في الأصنام"⁷، و"هذا أولى"⁸.

1 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (9/ 415)

2 تفسير السمعاني (2/ 240)

3 جامع البيان ط هجر (10/ 635)

4 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (9/ 415)

5 فتح القدير للشوكاني (2/ 316)

6 روح المعاني (9/ 144)

7 تفسير السمعاني (2/ 240)

8 فتح البيان في مقاصد القرآن (5/ 105).

والحاصل أن في المقصود بالعباد هم الأصنام على رأي جمهور المفسرين، وقال مقاتل المقصود الملائكة، وقيل المقصود الكهنة والشياطين، فعلى الأول والثالث فالأمر ظاهر، وعلى الثاني فهم عبدوا الملائكة على أنها بنات الله.

الآية الرابعة: (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من ذوي أولياء) والجواب عنها

قال تعالى: { أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ ذُرِّيَةِ أَوْلِيَاءِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا } [الكهف: 102]، نعم قال ابن جريج بأن المقصود بالذين كفروا هنا "من يعبد المسيح ابن مريم والملائكة، وهم عباد الله، ولم يكونوا للكفار أولياء"¹، ونحوه قول الطبري "أفطنّ الذين كفروا بالله من عبدة الملائكة والمسيح، أن يتخذوا عبادي الذين عبدوهم من دون الله أولياء"²، "أي: معبودين، قال الزجاج: المعنى أيحسبون أن ينفعهم ذلك.. يريد أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا"³، وقال ابن كثير: أي اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك وينتفعون به "كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا"⁴. ولكن "قيل يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله"، وقيل إن المراد "الملائكة والمسيح والشياطين"⁵.

والحاصل أن المقصود بالآية الملائكة والمسيح، وقيل الشياطين، وقيل كل هؤلاء، وليس في هذا كله أنهم عبدوا الصالحين، والمشركون حين عبدوا الملائكة عبدوها على أنها بنات الله، وكذا النصراني عبدوا المسيح على أنه ابن الله أو أنه الله نفسه.

1 جامع البيان ط هجر (422 / 15)

2 جامع البيان ط هجر (421 / 15)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (392 / 13)

3 فتح القدير للشوكاني (372 / 3)، وانظر فتح البيان في مقاصد القرآن (121 / 8)

4 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (199 / 9)

5 فتح القدير للشوكاني (372 / 3)، وانظر فتح البيان في مقاصد القرآن (121 / 8)

الآية الخامسة: (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم) والجواب عنها

قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: 13]، [14].

فالمقصود هنا بالآية: الأصنام والأوثان في قول جمهور المفسرين؛ الطبري¹، والسمعاني²، والبيضاوي³، وابن أبي زمنين⁴، والزمخشري⁵، والقرطبي⁶، والفخر الرازي⁷، وابن كثير⁸، وأبي السعود⁹، والألوسي¹⁰، الشوكاني¹¹ وصادق خان¹².

ومعنى الآية "إن تدعوا أيها الناس هؤلاء الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا يسمعوا دعاءكم، لأنها جماد لا تفهم عنكم ما تقولون {ولو سمعوا ما استجابوا لكم}، يقول: ولو سمعوا دعاءكم إياهم، وفهموا عنكم أنها قولكم، بأن جعل لهم سمعا يسمعون به، ما استجابوا لكم؛ لأنها ليست ناطقة.." ¹³.

1 جامع البيان ط هجر (350 / 19)

2 تفسير السمعاني (4 / 353)

3 تفسير البيضاوي (ص: 415)

4 تفسير ابن أبي زمنين (4 / 27)

5 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (3 / 605)

6 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (17 / 365)

7 مفاتيح الغيب (26 / 229)، ط/ دار إحياء التراث العربي - بيروت

8 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (11 / 315)

9 تفسير أبي السعود (7 / 148)

10 روح المعاني (22 / 182)

11 فتح القدير للشوكاني (4 / 394)

12 فتح البيان في مقاصد القرآن (11 / 235)

13 جامع البيان ط هجر (350 / 19)

فقوله تعالى: {إن تدعوهم لا يسمعوكم} "يعني: إن تدعوا الأصنام لا يسمعوكم" ¹، "لأنها جماد لا أرواح فيها" ²، و"لا تبصر ولا تسمع" ³، و"لا تدرك شيئاً من المدركات ولو سمعوا على طريقة الفرض.. قال قتادة: المعنى ولو سمعوا لم ينفعوكم. وقيل المعنى: لو جعلنا لهم سماعاً وحياءً فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتهم إليه من الكفر" ⁴.

وغاية ما قيل هو أنه "يجوز أن يرجع (والذين تدعون من دونه) وما بعده إلى من يعقل ممن عبدتهم الكفار، وهم: الملائكة والجن والشياطين. والمعنى: أنهم يتحدثون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم" ⁵. فيجوز أن يرجع الضمير "إلى المعبودين مما يعقل، كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين أي يتحدثون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وأنهم أمروكم بعبادتهم" ⁶، ومعنى "لا يسمعوكم دعاءكم" إذا أريد بالآية الملائكة والأنبياء هو حفظ سمعهم من هذا الدعاء القبيح لهم، فمثلاً الله يحفظ سمع عيسى عليه السلام "من أن يصل إليه مثل هذا الدعاء لغاية قبحه، وثقله على سمع من هو في غاية العبودية لله سبحانه.."، ومعنى "ما استجابوا لكم" حينئذ وهو أن المراد "الملائكة عليهم السلام" أو نحوهم من المقربين.. لأن دعاءهم من حيث زعم أنهم آلهة وهم بمعزل عن الإلهية، فكيف يجيبون زاعم ذلك فيهم وفيه من التهمة ما فيه" ⁷.

والحاصل أن المراد بالآية الأصنام الجمادات عند جمهور المفسرين، وذكر الألوسي والشوكاني احتمال أن يراد بالمعبودين هنا الملائكة والأنبياء، ولكن بفرض صحة هذا الاحتمال فإن المشركين

1 تفسير السمعاني (4/ 353)

2 تفسير القرآن العظيم لابن كثير (11/ 315)

3 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (17/ 365)

4 فتح القدير للشوكاني (4/ 394)، وانظر الكشاف (3/ 605)، تفسير البيضاوي (ص: 415)

5 وفتح البيان في مقاصد القرآن (11/ 235)، والجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (17/ 365)

6 فتح القدير للشوكاني (4/ 394)، وانظر الكشاف (3/ 605)، تفسير البيضاوي (ص: 415)

7 وفتح البيان في مقاصد القرآن (11/ 235)، والجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (17/ 365)

8 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (17/ 365)

9 روح المعاني (22/ 182)، وانظر الجامع لأحكام القرآن (17/ 365).

والكفار يعبدون الملائكة والأنبياء لا على أنهم عبيد له تعالى كما زعم ابن عبد الوهاب فيما سبق¹، وإنما يعبدونهم على أنهم آلهة من دون الله وعلى أنهم أولاد الله - تعالى الله عن ذلك - فالمشركون يقولون عن الملائكة إنها بنات الله كما بسطناه سابقاً²، والنصارى تقول عن المسيح إنه ابن الله، وقد رأينا الألوسي كيف بيّن من هم الذين يعبدون الأنبياء الذين "لا يسمعون دعاءكم"، حيث إن المقصود بهم النصارى الذين يعبدون المسيح، أي أنه ليس المقصود بهم مشركي العرب أو غيرهم من المشركين من كل الأمم المنكرين للنبوات والمعاد، فإن هؤلاء لا يقرون ببعثة الرسل والأنبياء؛ بل هم مكذبون لهم ومتشائمون بهم كما سبق بيانه³، فأنت لهم أن يقدسوهم أو يتشفعوا بهم أو يعبدوهم؟!

الآية السادسة: (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة)

قال تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 5، 6]، فالمقصود هنا بالآية الأصنام والأوثان في قول جمهور المفسرين؛ الحسن البصري، والطبري، والسمعاني⁴، وابن أبي زمنين⁵، والزمخشري⁶، والقرطبي⁷، والفخر الرازي⁸، وابن كثير⁹، والشوكاني¹⁰، وصديق خان¹¹، ولكن أشار إليها بضمير العاقل، وأسند لها بعض أفعال العقلاء لأغراض بلاغية، وفيما يلي طرف من أقوال هؤلاء المفسرين:

1 انظر: ص (24، و ص55) عند قولي: (ومن فيهن كلهم عبيده وتحت)

2 انظر: ص (321) عند قولي: (وكانوا يقولون: الملائكة بنات الله... تعالى الله عن ذلك).

3 انظر: ص (478) عند قولي: (أي يتشاءمون بهم ويقولون...)

4 تفسير السمعاني (5/ 149)

5 تفسير ابن أبي زمنين (4/ 221)

6 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (4/ 295)

7 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (19/ 182)

8 مفاتيح الغيب (7/ 28)

9 تفسير ابن كثير ط العلمية (7/ 253)

10 فتح القدير للشوكاني (5/ 17)

11 فتح البيان في مقاصد القرآن (13/ 12)

(1) قال الحسن: إن الله يجمع يوم القيامة بين كل عابد ومعبود، فيوقفون بين يديه، ويحشرها الله بأعيانها، فينطقها فتُخاصِم من كان يعبدها¹.

(2) قال الطبري: لا تجيب دعاءه أبداً، لأنها حجر أو خشب أو نحو ذلك، وقوله: {وهم عن دعائهم غافلون} يقول تعالى ذكره: وآلتهم التي يدعونهم عن دعائهم إياهم في غفلة، لأنها لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، وإنما عنى بوصفها بالغفلة، تمثيلها بالإنسان الساهي عما يقال له، إذ كانت لا تفهم مما يقال لها شيئاً، كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه، وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم، وقبح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئاً ولا يفهم، وتركهم عبادة من جميع ما بهم من نعمته، ومن به استغاثتهم عندما ينزل بهم من الحوائج والمصائب وقيل: من لا يستجيب له، فأخرج ذكر الآلهة وهي جماد مخرج ذكر بني آدم، ومن له الاختيار والتمييز، إذ كانت قد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تخدم في خدمتهم إياها، فأجرى الكلام في ذلك على نحو ما كان جارياً فيه عندهم.. وإذا جمع الناس يوم القيامة لموقف الحساب، كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء، لأنهم يتبرؤون منهم.. وكانت آلتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرأنا إليك منهم يا ربنا².

(3) وقال الزمخشري: وإنما قيل "من" و"هم"؛ لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلاً وغباً. ويجوز أن يريد: كل معبود من دون الله من الجن والإنس والأوثان، فغلب غير الأوثان عليها.. ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعدها³.

(4) وقال النسفي: «ومعنى الاستفهام في "من أضل" إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالة من عبدة لأوثان؛ حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على كل شيء، ويدعون من دونه

1 تفسير ابن أبي زمنين (4/ 221)

2 جامع البيان ط هجر (21/ 116)

3 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (4/ 295)

جمادا لا يستجيب لهم ولا قدرة له على استجابة أحد منهم.. ولما أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة قيل "من" و"هم"، ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعدها»¹.

(5) وقال ابن كثير: أي لا أضلّ ممن يدعو من دون الله أصناما، ويطلب ما لا يستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش، لأنها جماد حجارة صم².

(6) وقال الشوكاني: والمعنى: والأصنام التي يدعوها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسمعون ولا يعقلون لكونهم جمادات، والجمع في الضمير باعتبار معنى من، وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء لا اعتقاد المشركين فيها أنها تعقل.. إذا حشر الناس العابدين للأصنام كان الأصنام لهم أعداء، يتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضا. وقد قيل: إن الله يخلق الحياة في الأصنام فتكذبهم. وقيل: المراد أنها تكذبهم وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال³.

(7) وقال القرطبي: "وهم عن دعائهم غافلون" يعني لا يسمعون ولا يفهمون، فأخرجها وهي جماد مخرج ذكور بني آدم، إذ قد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تخدم"⁴.

فهذه أقوال المفسرين في بيان أن المراد بالآية هنا الأصنام الجمادات، وأنه تعالى إنما وصفها بالغفلة إما تهكما! أو لأنهم كانوا يتعاملون معها معاملة العقلاء!! وغاية ما فعله بعض المفسرين هو إيراد احتمال آخر وهو أنه يحتمل أنهم ليسوا جمادات وإنما معبودات عقلاء من الجن أو الملائكة أو البشر! كقول

1 «تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (3/ 308)، «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرب (حاشية الطيبي على الكشاف)» (14/ 266)

2 تفسير ابن كثير ط العلمية (7/ 253)

3 فتح القدير للشوكاني (5/ 17) ونحوه في فتح البيان في مقاصد القرآن (13/ 12)

4 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (19/ 182)

البيضاوي: وهم عن دعائهم غافلون لأنهم إما جمادات، وإما عباد مسخرون مشغولون بأحوالهم¹، وكذا قال القاسمي².

ونحوه قول القرطبي: "كانوا لهم أعداء" أي هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة. فالملائكة أعداء الكفار، والجن والشياطين يتبرؤون غدا من عبدتهم، ويلعن بعضهم بعضا. ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء، على تقدير خلق الحياة لها، دليله قوله تعالى: "تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون"³.

الآية السابعة: (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) والأقوال فيها

قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} [الإسراء: 57]، قد اختلف المقصود بالآية على أقوال، الأول: هم الجن، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن مسعود أنه قال في هذه الآية: "كان ناس من الجن يُعبدون فأسلموا"⁴، زاد في رواية "وتمسك الإنسيون بعبادتهم فأنزل الله: أولئك الذين يدعون..⁵، وفي رواية نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون والنفر من العرب لا يشعرون بذلك"⁶. "أي: فأسلم الجنيون الذين كانوا يُعبدون، وبقي هؤلاء على شركهم"⁷. وروى الطبري بسنده عن أبي معمر عن ابن مسعود: كان ناس يعبدون نفرا من الجن، فأسلم أولئك الجنيون، وثبتت الإنس على عبادتهم فنزلت الآية⁸.

¹ أنوار التنزيل وأسرار التأويل (5/ 111)

² محاسن التأويل (8/ 438)

³ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (19/ 182)

⁴ صحيح البخاري بتحقيق البغا (4/ 1748)

⁵ الدر المنثور للسيوطي، ط/ هجر (9/ 382)

⁶ الدر المنثور للسيوطي، ط/ هجر (9/ 382)

⁷ الدر المنثور للسيوطي، ط/ هجر (9/ 382)

⁸ جامع البيان ط هجر (14/ 629)

القول الثاني: أنهم الملائكة، وهذا قال به ابن مسعود أيضا، فقد روى عنه الطبري أنه قال: "كان قبائل من العرب يعبدون صنفا من الملائكة يقال لهم الجن، ويقولون: هم بنات الله، فأنزل الله عز وجل {أولئك الذين يدعون} معشر العرب {يبتغون إلى ربهم الوسيلة}"¹. "فإن المشركين كانوا يعبدون الملائكة، والملائكة عبيد يطلبون إلى الله الوسيلة، وهذا في نفر من المشركين دون جميعهم"². والقول الثالث أنها "في عزير والمسيح وغيرهما"³، فقد روى الطبري وغيره: عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: هم عيسى وعزير والشمس والقمر⁴. وقال العيني: عن ابن عباس ومجاهد وأكثر العلماء هم: عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم⁵.

فلاية فيها ثلاثة أقوال، والذي رجحه الطبري هو الأول وهو أنها في الجن، وذكر أنها تحتمل أن تكون في الملائكة، واستبعد أن يكون المراد عيسى أو عزيرا لأن "عزيرا لم يكن موجودا على عهد نبينا عليه الصلاة والسلام فيبتغي إلى ربه الوسيلة وأن عيسى قد كان رُفِعَ، وإنما يبتغي إلى ربه الوسيلة من كان موجودا حيا يعمل بطاعة الله، ويتقرب إليه بالصالح من الأعمال. فأما من كان لا سبيل له إلى العمل، فم يبتغي إلى ربه الوسيلة. فإذا كان لا معنى لهذا القول، فلا قول في ذلك إلا قول من قال ما اخترنا فيه من التأويل، أو قول من قال: هم الملائكة، وهما قولان يحتملهما ظاهر التنزيل"⁶.

الآية الثامنة: (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) وفيها قولان

قال تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَّتَبَ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الزخرف: 19، 20]، أولا: قد اختلف على من يعود الضمير "ما عبدناهم" على قولين، القول

¹ جامع البيان ط هجر (630 / 14)

² تفسير السمعاني (251 / 3)

³ تفسير السمعاني (251 / 3)

⁴ الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (382 / 9)

⁵ عمدة القاري شرح صحيح البخاري (42 / 19)

⁶ جامع البيان ط هجر (631 / 14)

الأول: ذهب إليه **مجاهد**¹ وتبعه عليه الطبري وغيره أنه **يعود على الأوثان**، والمعنى "لو شاء الرحمن ما عبدنا أوثاننا التي نعبدها من دونه..". وهو ما ذهب إليه ابن جريج حيث قال: أي ما لهم بعبادة الأوثان من علم². وهذا ما ذكره البخاري ورواه عن مجاهد، فقال في صحيحه في كتاب التفسير: {لو شاء الرحمن ما عبدناهم} يعنون الأوثان.. {ما لهم بذلك من علم} أي الأوثان إنهم لا يعلمون³. قال ابن حجر: وصله الفريابي من طريق، مجاهد⁴. وقال **الكرماني**: غرضه أن الضمير راجع إلى الأوثان لا إلى الملائكة⁵. وقال ابن الملقن: وهو قول مجاهد، يعني: الأوثان، وقال قتادة وغيره: يعني: الملائكة⁶.

والقول الثاني: أن الضمير عائد إلى الملائكة، وهو ما ذهب إليه قتادة كما سبق، وهو قول كثير من المفسرين كالبيضاوي⁷ والزحشري⁸ والشوكاني⁹ والقرطبي¹⁰ وصديق خان¹¹ وابن كثير¹².

فعلى القول الأول وهو أن المقصود بـ "عبدناهم" الأوثان، فالأمر ظاهر، وعلى القول الثاني أن المقصود بذلك الملائكة، أجل هم عبدوا الملائكة لكن على أنها بنات الله لا على أنها ملائكة فحسب فهم "إنما يعبدون الملائكة بعنوان أنهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك، بحيث لو اعترفوا أنهم ليسوا بنات الله لما عبدوهم، فالعبادة موجهة إلى صفة البنتية وقد قام البرهان على عدمها¹³"، ولذلك قيل إن الضمير

¹ جامع البيان ط هجر (20 / 568)،

² فتح القدير للشوكاني (4 / 630)، الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (19 / 23)

³ صحيح البخاري بتحقيق البغا (4 / 1819)

⁴ فتح الباري لابن حجر (8 / 567)

⁵ الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (18 / 81)

⁶ التوضيح لشرح الجامع الصحيح (23 / 211)

⁷ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (5 / 88)

⁸ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (4 / 244)

⁹ فتح القدير للشوكاني (4 / 630)

¹⁰ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (19 / 23)

¹¹ فتح البيان في مقاصد القرآن (12 / 337)

¹² تفسير القرآن العظيم لابن كثير (12 / 675)

¹³ آثار المعلمي اليماني (2 / 518)

في قوله "ما لهم": "يجوز أن يكون ذلك إشارة إلى أصل الدعوى، وهو جعل الملائكة عليهم السلام بنات الله سبحانه وتعالى على ذلك علوا كبيرا دون ما قصدوه من قولهم: لو شاء إلخ"¹، وقال ابن كثير "أي لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة الأصنام التي هي على صورة الملائكة التي هي بنات الله فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه"².

الآية التاسعة: (بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)

قال تعالى: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ } [سبأ: 40، 41]، فالآية ظاهرها أن المشركين يعبدون الجن لا الملائكة لقولهم "بل كانوا يعبدون الجن"، أي الشيطان كما قال مجاهد فيما رواه عنه ابن المنذر³. فقد "نفوا أنهم عبدوهم على الحقيقة بقولهم: بل كانوا يعبدون الجن أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله، وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون إليهم أنهم الملائكة فيعبدوهم"⁴. وإنما هم يعبدون "الشياطين وهم إبليس وجنوده، ويزعمون أنهم يروئهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله، وقيل: كانوا يدخلون أجواف الأصنام ويخاطبونهم منها"⁵. وقال الرازي: وقالوا: بل كانوا يعبدون الجن أي كانوا ينقادون لأمر الجن، فهم في الحقيقة كانوا يعبدون الجن، ونحن كنا كالقبلة لهم، لأن العبادة هي الطاعة⁶. اهـ وقال ابن كثير: بل كانوا يعبدون الجن يعنون الشياطين، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلّوهم أكثرهم بهم مؤمنون⁷. "حيث كانوا يطيعونهم فيما يسألون لهم من عبادة غير الله تعالى، وقيل صوّرت الشياطين لهم صور قوم من الجن، وقالوا: هذه

¹ روح المعاني (73 / 25)

² تفسير القرآن العظيم لابن كثير (675 / 12)

³ الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (227 / 12)

⁴ أنوار التنزيل وأسرار التأويل (249 / 4)

⁵ فتح القدير للشوكاني (380 / 4)، فتح البيان في مقاصد القرآن (204 / 11)

⁶ مفاتيح الغيب (212 / 25)

⁷ تفسير ابن كثير ط العلمية (463 / 6)

صور الملائكة فاعبدوها فعبدوها"¹. وقال ابن عطية : يجوز أن يكون في الأمم الكافرة من عبد الجن وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبّدت في سورة الأنعام وغيرها². ويقال "إن حيّا يقال لهم بنو مליح من خزاعة كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله، وهو قوله: "وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا"³.

وقوله: { أكثرهم بهم مؤمنون } يقول: أكثرهم بالجن مصدقون، يزعمون أنهم بنات الله⁴. والحاصل أن الملائكة نفت أن يكون المشركون قد عبّدوهم وكذبوهم في ذلك، و"الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان في ذلك تكبّيت لهم"⁵، نعم قد يستفاد من الآية أن المشركين ادّعوا أنهم يعبدون الملائكة فتبرأت منهم الملائكة، وأثبتت أنهم كانوا يعبدون الجن والشياطين في حقيقة الأمر، وهذا ما ذكره جمهور المفسرين كالسمعاني⁶ والبيضاوي⁷ والقرطبي والرازي⁸ والزمخشري⁹ وابن كثير¹⁰ والألوسي¹¹ والشوكاني¹² والقاسمي¹³، قال السمعاني: "ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟" يقول الله تعالى ذلك للملائكة توبيخا لمن عبدهم.. فإن قيل: كيف يصح قوله: { بل كانوا يعبدون الجن } وهم عبّدوا الملائكة؟ والجواب من وجهين: أحدهما: أنه قال: { بل كانوا يعبدون الجن }، لأن الجن هم الذين

1 روح المعاني (22 / 151)

2 روح المعاني (22 / 151)

3 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (17 / 326)

4 جامع البيان ط هجر (19 / 299)

5 الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (17 / 326)

6 تفسير السمعياني (4 / 338)

7 أنوار التنزيل وأسرار التأويل (4 / 249)

8 مفاتيح الغيب (25 / 212)

9 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (3 / 587)

10 تفسير ابن كثير ط العلمية (6 / 463)

11 روح المعاني (22 / 151)

12 فتح القدير للشوكاني (4 / 380)

13 محاسن التأويل (8 / 152)

زينوا لهم عبادة الملائكة، والمراد من الجن الشياطين، والقول الثاني: أنهم صوروا صور الجن، وقالوا: هؤلاء الملائكة، فاعبدوهم¹.

وقال البيضاوي: ثم نقول للملائكة هؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ تقريباً للمشركين وتبكيتهما لهم وإقناطاً لهم عما يتوقعون من شفاعتهم، وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم، ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله²، "لزعمهم أن الأوثان على صور الهياكل العلوية المقربة. فتكون شفعاء لهم"³، وسببه "أن عمرو بن لحي مرّ بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام، فسألهم فقالوا له: هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العلوية، فنستنصر بها ونستسقي. فتبعهم وأتى بصنم معه إلى الحجاز وسول للعرب، فعبدوه واستمرت عبادة الأصنام فيهم إلى أن جاء الإسلام"⁴. وقيل: أرادوا أنهم عبدوا شيئاً تخيلوه صادقاً على الجن لا صادقاً علينا فهم يعبدون الجن حقيقة دوننا⁵.

الآية العاشرة: (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله)

قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْلِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة: 116]، ولا أدري ما محل الشاهد من هذه الآية على أن مشركي العرب كانوا يعبدون الأنبياء والصالحين!!! فهذه الآية ليست في مشركي العرب أصلاً وإنما هي في النصارى فهم الذين عبدوا المسيح بخلاف مشركي العرب، قال ابن تيمية في آية {لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون}: "الخطاب للمشركين لا لأهل الكتاب، والمشركون لم يعبدوا

¹ تفسير السمعاني (4/ 338)

² أنوار التنزيل وأسرار التأويل (4/ 249)، وانظر نحوه في الكشاف (3/ 587)، الكشاف (3/ 587)

³ محاسن التأويل (8/ 152)

⁴ روح المعاني (22/ 151)

⁵ روح المعاني (22/ 151)

المسيح وإنما كانوا يعبدون الأصنام، والمراد بقوله: {وما تعبدون} الأصنام، فالآية لم تتناول المسيح لا لفظا ولا معنى¹.

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: تلقى عيسى حجته ولقاه الله في قوله {وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله}، قال أبو هريرة عن النبي ﷺ فلقاه الله {سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق} الآية كلها، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح².

قال ابن كثير في هذه الآية: "وهذا تهديد للنصارى، وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد، هكذا قاله قتادة وغيره"³. "فإن قيل: فالنصارى لم يتخذوا مريم إلهة فكيف قال ذلك فيهم؟ فقيل: لما كان من قولهم إنها لم تلد بشرا وإنما ولدت إلهة لهم أن يقولوا إنها لأجل البعوضة بمثابة من ولدته، فصاروا حين لزمهم ذلك بمثابة القائلين له"⁴. "فمنهم من يقول: المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم المريمانيون ويسمون المريمانية، كذلك قال ابن حزم"⁵.

وهكذا نرى بعد أن عرضنا كل هذه الآيات العشرة التي احتج بها السلفية على أن المشركين كانوا يعبدون الأنبياء والأولياء: ليس فيها دلالة على هذا، بل معظم تلك الآيات يراد بها . عند جمهور المفسرين . الأصنام والحجارة التي كان يعبدها المشركون، نعم بعض تلك الآيات أريد بها المسيح عليه السلام، ولكن الذين عبدوا المسيح هم النصارى وليس مشركو العرب، وبعضها أريد بها الملائكة عند بعض المفسرين، وهذا لا يُنكر ولكن ذكرنا أن المشركين كانوا يعبدون الملائكة على أنها بنات الله . تعالى الله عن ذلك . وليست ملائكة فحسب . والله الموفق

1 مجموع الفتاوى (20/ 540)

² سنن الترمذي (5/ 260) وقال الألباني : صحيح الإسناد.

³ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (5/ 425)

⁴ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (8/ 300)

⁵ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (4/ 256)

المُرصد الثاني: الآثار التي استدلت بها السلفية على كون الأصنام من العقلاء

فقد استدلوا على أن الأصنام ترمز إلى رجال صالحين بأثرين عن ابن عباس:

الأول: "كان اللات رجلا يلتّ سوق الحاج".

الثاني: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب..".

وإليكم بسط الكلام في هذين الأثرين، وبالله التوفيق.

أولاً: أثر "كان اللات رجلا يلتّ سوق الحاج"

استدلوا¹ بما رواه البخاري عن ابن عباس: في قوله { اللات والعزى } كان اللات رجلا يلتّ سوق الحاج². فاستنبط منه ابن عبد الوهاب أن اللات كان رجلاً صالحاً³. ونحوه ما أخرجه ((النسائي وغيره عن مجاهد نحوه مطولاً، وفيه: فلما مات عبده، وقالوا: هو اللات، وكان يقرأ: "اللات" مشددة. وأخرج الفاكهي عن ابن عباس: أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمّت، ولكنه دخل الصخرة فعبدها وبنوا عليها بيتاً. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: { أفرايتم اللات } قال: كان رجل من ثقيف يلتّ السوق بالزيت، فلما توفي جعلوا قبره وثناً. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله تعالى: { أفرايتم اللات والعزى }، قال: اللات كان يلتّ السوق بالطائف فاعتكفوا على قبره.. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي صالح قال: اللات الذي كان يقوم على آهتهم، وكان يلتّ لهم السوق، والعزى بنخلة كانوا يعلقون عليها السيور والعهن، ومناة حجر بقديد))⁴. "ومنه تبين أن المشركين كانوا يعبدون الصالحين دون الأحجار"⁵.

والجواب من وجوه:

1 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (3/ 576)، جهود علماء الحنفية (1/ 411)

2 صحيح البخاري (4/ 1841)، (4578)

3 كشف الشبهات لابن عبد الوهاب، ص 15 وص 30.

4 آثار المعلمي اليماني (2/ 505)، وانظر الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (14/ 33)

5 جهود علماء الحنفية (1/ 412)

أولاً: أن "اللات" الذي وقع في سورة النجم مختلف في تفسيره، فقيل اللات اسم رجل، وقيل بل هو اسم حجر، وقيل بل هو اسم بيت، وقيل بل هو اسم اخترعه المشركون وأطلقوه على بعض أصنامهم اقتباساً من أسماء الله مع زيادة تاء التانيث! وقيل إن الله أطلق هذا الاسم. وفيما يلي بيان ذلك:

(1) أما أن اللات اسم رجل فهذا ذهب إليه طائفة من السلف كمجاهد وأبي صالح، وقد سبقت نصوصهم للتو¹.

(2) وأما أنه حجر فقد أخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء قال: اللات حجر كان يلت السويق عليه فسُمِّي اللات².

(3) وأما أنه اسم بيت، فقد قال ابن زيد: اللات بيت كان بنخلة تبعده قريش³. و"ذكر ابن الكلبي أنه كان صخرة مربعة بيضاء، بنت ثقيف عليها بيتاً صاروا يسيرون إليه، يضاهاون به الكعبة، وله حجة وكسوة.. وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه أيضاً، ويتقربون إليه"⁴. وقال ابن كثير: وكانت "اللات" صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها⁵. اهـ

(4) وأما أنه اسم اخترعه المشركون وأطلقوه على بعض أصنامهم، فقد قال الطبري: "اللات" هي من لفظ الجلالة "الله" ألحقت فيه التاء فأنثت، كما قيل عمرو للذكر، وللأنثى عمرة.. فكذلك سمى المشركون أوثانهم بأسماء الله، فقالوا من "الله" اللات، ومن "العزير" العزى؛ وزعموا أنهن بنات الله، وقد سبق كلام الطبري كاملاً⁶.

1 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (33/14)، وانظر: مجموع الفتاوى (357/27)

2 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (33/14)، وانظر: مجموع الفتاوى (357/27)

3 جامع البيان ط هجر (47/22)

4 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (228/11)

5 تفسير ابن كثير ت سلامة (455/7)

6 انظر: ص (322) عند قولي: (الزاعمون أن اللات والعزى)

5) وأما أنّ هذا من إطلاق الله، فقد قال الخطابي: المشركون يتعاطون الله اسماً لبعض أصنامهم فصرفه الله إلى اللات صيانة لهذا الاسم وذّباً عنه¹.

فهذه خمسة أقوال مختلفة في اللات، ولعل سبب ذلك هو أن العلماء والقراء مختلفون أيضاً في ضبط "اللات" هل هو بتشديد التاء أي "اللات"، وقرأ بذلك "ابن عباس ومجاهد وأبو صالح"²، أو هو بتخفيفها وهي قراءة الجمهور³، وهي القراءة الصحيحة والأولى بالصواب كما قال الطبري والقرطبي⁴، ويؤيدها السياق أيضاً، فمعنى الآية حينها يختلف على هذه القراءة؛ فقول "اللات بيت كان بنخلة تبعه قريش، وقال بعضهم: كان بالطائف"⁵، والذي جزم به الطبري أن "اللات" هي من لفظ الجلالة "الله" ألحقت فيه التاء فأنتت كما سبق، فيكون هذا من تحريفهم، ومن إحداهم في أسمائه تعالى كما قال: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} [الأعراف: 180]، قال الطبري: وكان إحداهم في أسماء الله، أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها "اللات" اشتقاقاً منهم لها من اسم الله الذي هو "الله"، وسموا بعضها "العزى" اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو "العزير"⁶. اهـ

والحاصل أن "اللات" مختلف في معناها تبعاً لاختلافهم في قراءتها بين التخفيف والتشديد، فعلى التخفيف يكون أصله كلمة "الله" ولكن حرّفها المشركون إلى "اللات" وأطلقوه على أصنامهم، أو هو اسم لبيت للمشركين، وأما على التشديد أي "اللات" فقول هو اسم رجل أو حجر، حتى على قول

1 مجموع الفتاوى (358 / 27)

2 جامع البيان ط هجر (47 / 22)

3 قال ابن الجزري في النشر: (واختلفوا) في: اللات، فروى رويس بتشديد التاء ويمد للساكين، وهي قراءة ابن عباس ومجاهد ومنصور بن المعتمر وطلحة وأبي الجوزاء، وقرأ الباقر بتخفيفها. اهـ انظر: النشر في القراءات العشر - (2 / 379)، لابن الجزري، (ت: 833 هـ)، ت الضباع، دار الكتب العلمية. وانظر: مجموع الفتاوى (357 / 27).

4 جامع البيان ط هجر (48 / 22)، الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة - (20 / 35).

5 جامع البيان ط هجر (47 / 22)

6 جامع البيان ت شاکر (282 / 13) وانظر: تفسير أبي السعود (296 / 3).

من قال بأن اللات اسم رجل، فهذا الرجل كان مشركا يقوم بسدنة آلهة المشركين، ولم يكن موخدا فضلا عن أن يكون صالحا كما زعم ابن عبد الوهاب.

ثانيا: على التسليم بأن اللات رجل كما في أثر البخاري، فمن أين أتيتم بأنه كان رجلا صالحا؟ وكيف يكون صالحا وقد قال مجاهد في تفسير "اللات": رجل يلبت للمشركين السويق، فمات فعكفوا على قبره. وقال أبو صالح: "اللات" الذي كان يقوم على آلهتهم، يلبت لهم السويق، وكان بالطائف¹.

بل ذكر السهيلي أن اسم هذا الرجل هو: عمرو بن لحي الخزاعي²، وهو أول من عبد الأصنام كما في حديث أحمد³، كما أنه أول من أدخل عبادة الأصنام إلى العرب⁴، لذلك جاء ذمه في حديث عائشة عند البخاري مرفوعا: ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا حين رأيتموني تأخرت، ورأيت فيها عمرو بن لحي وهو الذي سيب السوائب⁵.

فإذا صح أنه عمرو بن لحي _ الذي هو أول من عبد الأصنام وأدخل عبادتها إلى العرب وسيب السوائب، ورآه النبي ﷺ في جهنم _ فأنى له الصلاح؟! فهل الشرك عمل صالح عندكم؟ إذن لم كفرتم الناس بحجة الشرك يا قوم!؟

وإن لم يصح أن اللات هو عمرو بن لحي الخزاعي، بل هو رجل آخر كما رجح ذلك ابن حجر⁶، فإن اللات هو على رواية مجاهد وغيره رجل مشرك يلبت السويق للمشركين وكان من سدنة آلهتهم

1 انظر هذه الروايات في جامع البيان، للإمام الطبري (22 / 48)، الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (14 / 32) وانظر: مجموع الفتاوى (27 / 358).

2 وتعقب ابن حجر كلام السهيلي فقال: والصحيح أن اللات غير عمرو بن لحي فقد أخرج الفاكهي من وجه آخر عن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدها وبنوا عليها بيتا وقد تقدم في مناقب قريش أن عمرو بن لحي هو الذي حمل العرب على عبادة الأصنام وهو يؤيد هذه الرواية. انظر: فتح الباري (8 / 612).

³ ولفظه: عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر وإني رأيتته يجر أمعاءه في النار. انظر: مسند أحمد - الرسالة - (7 / 292)، وعمرو بن عامر هذا هو نفسه عمرو بن لحي وإنما نسب إلى جده في رواية أحمد كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (6 / 549).

⁴ الروض الأنف 1/101، الشرك في القديم والحديث ص426.

⁵ صحيح البخاري - (1 / 406)، 1154، أبواب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة.

⁶ الروض الأنف للسهيلي 1/102، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الفكر، بيروت، 1409هـ.

المزعومة فعبدوه؛ فهذه ظلمات بعضها فوق بعض، فاللات والملتوت له حفنة من المشركين والسفهاء والكفرة، فأين الصالح والصلاح هنا؟!

فإن قلت: هو صالح باعتقاد المشركين. قلنا: إذا كنتم تعولون على اعتقاد المشركين، فإنهم كانوا يعتبرون الطهارة مذمة كما قال تعالى { وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [الأعراف: 82]، ويعتبرون الأنبياء والرسل - عليهم السلام - سحرة ومجانين - حاشاهم - كما قال تعالى: { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [الذاريات: 52].

ثم إنه ورد أنهم عبده لا لصلاحه ولكن لأسباب أخرى عديدة، فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان اللات يلت السوق على الحاج فلا يشرب منه أحدا إلا سمن فعبدوه¹. وأخرج الفاكهي عن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنوا عليها بيتا².

ثالثا: لو سلمنا جدلا أن "اللات" كان رجلا صالحا فهل سائر أصنام العرب كالعزى ومناة الثالثة وغيرها كانوا رجالا صالحين أيضا؟! هذا لم يقل به أحد من قبل إلا أن تكونوا أنتم، وإنما المعروف - كما ستأتي الآثار عن السلف - أن هذه الأصنام إنما هي عبارة عن شجيرات وأحجار، وهذا أقر به ابن عبد الوهاب نفسه في بعض رسائله فقال: "إن النبي ﷺ ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم، منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأحجار والأشجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر.." ثم سرد أدلة على كل ذلك إلى أن قال: ودليل الأحجار والأشجار قوله تعالى: "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى"³. اهـ فأنت ترى كيف جعل ابن عبد الوهاب أن اللات والعزى ومناة: أحجار وأشجار، وفرق بينها وبين الملائكة والأنبياء والصالحين، ولم يجعل تلك الأحجار

1 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (32/14)، وانظر: مجموع الفتاوى (27/357).

2 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (32/14)

3 القواعد الأربعة لابن عبد الوهاب ص402، ضمن الجامع للمتون العلمية جمع الشمراني.

رمزا للأنبياء ومن معهم، وفيما يلي تفصيل القول في هذه الأصنام وغيرها سوى اللات فقد سبق الكلام عنه:

(1) أما العزى فقد قال سعيد بن جبير: "العزى حجر أبيض"¹، وقال ابن زيد: "العزى بيت بالطائف تبعده ثقيف"². وقال مجاهد "العزى: شجيرات"³، وهي "ثلاث شجرات سمرات بنخلة"، وكان أول من دعا إلى عبادتها عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب، وقال لهم عمرو: إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف، ويشتو بالعزى حرّ تمامة. وكان في كل واحدة شيطان يُعبد"⁴، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي صالح قال: "العزى بنخلة كانوا يعلقون عليها السيور والعهن، ومناة حَجْر بَقْدِيد"⁵.

(2) وأما "مناة" فقد قال ابن زيد: "المناة" بيت كان بالمشلل يعبده بنو كعب⁶، وقال الضحاك: مناة صنم لهذيل وخزاعة يعبدها أهل مكة⁷، وقال بعضهم: اللات والعزى ومناة: أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها⁸. وقال أبو صالح: مناة حجر بقديد، كما في الأثر السابق.

(3) إساف ونائلة: وأما إساف ونائلة فقال الشعبي إن "وثنا كان في الجاهلية على الصفا يسمى إسافا، ووثنا على المروة يسمى نائلة؛ فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت مسحوا الوثنين"⁹، وقال قتادة "هما صنمان كانا عند البيت مسح وجوههما من أتى عليهما"¹.

1 جامع البيان ط هجر (49 / 22)

2 جامع البيان ط هجر (49 / 22)، الشرك في القديم والحديث ص 430

3 جامع البيان ط هجر (49 / 22)، وانظر: آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2 / 505)

4 «أخبار مكة للأزرقي» (1 / 126)، «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» (2 / 340)

5 الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (33 / 14)

6 جامع البيان ط هجر (50 / 22)

7 تفسير البغوي (7 / 408)، و عمدة القاري (23 / 276).

8 تفسير البغوي (7 / 408)، و عمدة القاري (23 / 276) ولكن نسبه العيني للضحاك أيضا.

9 جامع البيان ط هجر (2 / 714)

وقد جاء ذكرها في حديث عائشة عند مسلم "أن الأنصار كانوا يهلون في الجاهلية لصنمين على شط البحر يقال لهما إساف ونائلة".² "قيل³: كانا من جُرهم، زنيا داخل الكعبة فمسخهما الله حجرتين، فنصبا عند الكعبة، وقيل: بل على الصفا والمروة ليعتبر بهما ويتعظ، ثم حولهما قصي، فجعل أحدهما لصق الكعبة، والآخر بززم"⁴. و"لما زنيا لم يمهلهما الله أن يفجرا فيها فمسخهما فأخرجهما إلى الصفا والمروة، فلما كان عمرو بن لحي نقلهما إلى الكعبة، ونصبهما على زمزم، فطاف الناس بالكعبة وبهما"⁵.

ويؤيد ما سبق ما رواه ابن إسحاق بسنده عن عائشة أنها قالت: ما زلنا نسمع أن إسافا ونائلة كانا رجلا وامرأة من جُرهم أحدثا، فمسخهما الله تعالى حجرتين⁶. قال السهيلي: أرادت الحدث الذي هو الفجور، أحدثا في الكعبة كما قال - عليه السلام - : من أحدث فيها حدثا، أو آوى مُحدثا، فعليه لعنة الله⁷. اهـ وقد جاء مصرحا به في لفظ "فوقع إساف على نائلة في الكعبة"، فمسخهما الله حجرتين⁸، وأصرح منه رواية البيهقي: "ما زلنا نسمع أن إسافا ونائلة رجل وامرأة من جُرهم، زنيا في الكعبة فمسخا حجرتين"⁹. ونحوه أيضا رواية الكلبي "فدخل البيت فوجدا غفلة من الناس وخلوة من

1 جامع البيان ط هجر (23 / 411)

2 صحيح مسلم - (2 / 928) برقم (1277)

3 جاء في فتح الباري لابن حجر (3 / 500): وذكر الواحد في أسبابه عن ابن عباس نحو هذا وزاد فيه: يزعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فمسخا حجرتين فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما فلما طالت المدة غبدا. اهـ وكذا في الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (2 / 472).

4 إكمال المعلم بفوائد مسلم (4 / 353)، شرح النووي على مسلم (9 / 22)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (3 / 384).

5 التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن (22 / 61).

6 سيرة ابن هشام (1 / 82)، الروض الأنف 1/105.

7 الروض الأنف ت الوكيل (1 / 365)

8 السيرة النبوية لابن هشام (1 / 82)، وانظر معارج القبول للحكمي (2 / 465)

9 دلائل النبوة للبيهقي 2/64، وقد أخرجه من طريق أحمد بن عبد الجبار، قال: حدثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن عائشة. اهـ ولكن أحمد بن عبد الجبار وهو العطاردي: متكلم

البيت، ففجر بها في البيت فمسخا"1. ولم يكن الزنا بين إساف ونائلة حادثا عرضيا، بل هذا جاء في سياق بغي وإفساد وإلحاد في الحرم من قبيلة جُرهم، وفي ذلك يقول ابن كثير "ثم بغت جرهم بمكة، وأكثرت فيها الفساد، وألحدوا بالمسجد الحرام، حتى ذكر أن رجلا منهم يقال له إساف بن بغي وامرأة يقال لها نائلة بنت وائل اجتمعا في الكعبة، فكان منه إليها الفاحشة، فمسخهما الله حجرتين، فنصبهما الناس قريبا من البيت ليعتبروا بهما، فلما طال المطال بعد ذلك بمدد عبدا من دون الله في زمن خزاعة"2. والحاصل أن صنمي إساف ونائلة لم يكونا من الأنبياء ولا الصالحين، بل الذي جاء في الآثار أنهما كانا رجلا وامرأة زنيا فمسخهما الله حجرتين، فوضعهما المشركون في الكعبة أو "على الصفا والمروة"3، و"كان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما"4، فهل من يزني من أهل الصلاح عندكم؟! **وخلاصة ما تقدم أن آلهة المشركين هي مجرد أحجار وأشجار، ولم يثبت أنها ترمز عندهم لأنبياء وصالحين. والله الموفق**

فيه، الحافظ في التقريب ص 81، ت عوامة: ضعيف وسماعه للسيرة صحيح. اهـ وعليه فلا يضر ضعفه هنا لأن هذا الخبر هو من السيرة التي رواها العطاردي عن يونس عن ابن إسحاق كما هو ظاهر.

1 تلبس إبليس لابن الجوزي، دار الوطن (ص: 372).

2 السيرة النبوية لابن كثير (1/ 57)

3 مجموع الفتاوى (27/ 359)

4 فتح الباري لابن حجر (3/ 500) وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (2/ 34)، الجواب الصحيح لابن تيمية (5/ 169)

ثانياً: أثر "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب.."

احتج ابن تيمية وأتباعه¹ على أن أصنام المشركين أسماء لرجال صالحين بأثر ابن عباس في البخاري قال: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد؛ أمّا وُدّ كانت لكلب بدومة الجندل وأمّا سُوع كانت لهذيل، وأمّا يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأمّا يعوق فكانت لهمدان، وأمّا نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع: أسماء رجال صالحين من قوم نوح؛ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت". اهـ فهذا الأثر يفيد الأصنام التي عبدها العرب هي أسماء رجال صالحين.

والجواب من وجوه:

أولاً: إن أثر ابن عباس هذا فيه انقطاع، وهو من جملة ما انتقده الحفّاظ على البخاري، لأنه رواه من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس؛ وعطاء هذا ليس عطاء ابن أبي رباح، وإنما هو عطاء الخراساني كما صرّح بذلك عبد الرزاق في تفسيره، وابن جريج حين أملى تفسيره الذي أخذه عن عطاء الخراساني عن ابن عباس كان يصرّح بأنه عطاء الخراساني، ولكن الكاتب الذي أخذ عن ابن جريج كان يقيّد عطاء بالخراساني في أول الأمر، ثم ملّ فأهمل تقييده فظنّ مَنْ ظنّ أنه عطاء بن أبي رباح كما نبّه على ذلك علي بن المديني؛ وابن جريج لم يسمع التفسير من عطاء الخراساني وإنما أخذه من ابنه عثمان بن عطاء فنظر فيه، لذلك قال يحيى القطان: حديث ابن جريج عن عطاء الخراساني: ضعيف، وكان ابن جريج يستجيز إطلاق أخبارنا في المناولة والمكاتبة، فحديثه ضعيف ولو صرّح بالإخبار؛ وقد ذكر هذا الحافظ ابن حجر وأطال في ذلك، وإن رجح. في نهاية المطاف. احتمال أن يكون ابن جريج أخذ هذا

1 مجموع الفتاوى (157 / 27)، جهود علماء الحنفية (1 / 402)، تيسير العزيز الحميد، دار الصميعي (ص: 549)، موسوعة أهل السنة لدمشقية (ص: 31)، آثار الشيخ المعلمي اليماني (2 / 441)، مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 394)، موسوعة الألباني في العقيدة (2 / 230).

الأثر عن عطاء الخراساني وعن عطاء بن أبي رباح معاً، وذلك تحسیناً للظن في البخاري أن تخفى عليه العلة السابقة، وهو منهج ابن حجر في الفتح كما هو معلوم⁽¹⁾.

ثانياً: على التسليم بصحة هذا الأثر فهو مخصوص بهذه الأصنام التي اتخذها قوم نوح فقط، وأما غيرها فقد بينا سابقاً أنها أسماء رجال مشركين وأشجار وأحجار وبيوت ونحو ذلك؛ ثم هذه الأصنام التي كانت في قوم نوح لم يعبدها العرب لأن أصحابها أناس صالحون توسّلاً وتشقّعاً بهم كما زعمتم، فالأثر ليس فيه ذلك، بل إن في آخره خلاف ذلك، وهو قوله "حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت"، أي عبدها من عبدها ظناً منه أنها آلهة، وظناً منه أنه كان يعبدها من صورها، ولم يعلم أن الذين صوروها إنما فعلوا ذلك "ليتأثسوا برؤية تلك الصورة، ويتذكروا أحوالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم، ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم، فمضت لهم بذلك أزمان، ثم إنهم خُلف من بعدهم خلف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان: أن آباءهم وأجدادهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها، فعبدها"². وروى "الفاكهي من طريق عبيد الله بن عبيد بن عمير قال: أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح، وكانت الأبناء تبرّ الآباء، فمات رجل منهم فجزع عليه، فجعل لا يبصر عنه، فاتخذ مثالا على صورته، فكلما اشتاق إليه نظره، ثم مات ففعل به كما فعل، حتى تتابعوا على ذلك فمات الآباء، فقال الأبناء: ما اتخذ آباؤنا هذه إلا أنها كانت آلهتهم فعبدها"³. اهـ.

فواضح من كل هذه الروايات أن من عبده تلك التماثيل من قوم نوح عبدها لا على أنها رمز لرجال صالحين، وإنما عبدها ظناً منه أنها آلهة صورها آباؤه لأجل عبادتها، وقد أخطأ في ظنه كما رأينا، فإذا كان من عبدها من قوم نوح لم يعلم أن هذه الأصنام هي في الأصل لرجال صالحين مع قرب العهد، فهل يعلم بذلك العرب الذين وصلت إليهم تلك الأصنام من قوم نوح، مع أن بين العرب وبين قوم نوح قروناً كثيرة جداً.

(1) فتح الباري (8 / 667)

(2) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم 127/2، للإمام أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي (656هـ)، ت: محي الدين مستو ورفاقه، دار ابن كثير بدمشق، ط 1/1996م. وانظر أيضاً فتح الباري لابن حجر (1 / 525).

3 فتح الباري لابن حجر (8 / 669)

يتبين مما سبق أن هذه الأصنام وإن كانت لرجال صالحين في الأصل، ولكن هذا الأصل اندثر وجُهل ونُسي، فعبدها من عبدها على أنها آلهة ظنا منه أن الآباء والأجداد قد اتخذوها آلهة وعبدوها حين صوّروها، ولولا أثر ابن عباس السابق . إن صح . لما علمنا نحن أيضا بأن أصنام قوم نوح كانت ترمز لرجال صالحين؛ فمن أين يعلم أهل الجاهلية الجهلاء بذلك؟! وما يدل على أن العرب لا تعلم بأصل هذه الأصنام ما روي من الأخبار في مبدأ عبادة العرب للأصنام، نورد منها ما يلي:

الخبر الأول: ما قاله ابن القيم نقلا عن الكلبي: وكان عمرو بن لُحَيٍّ كاهنًا، وله رُئيٌّ من الجنِّ، فقال له: عَجَّلَ المسيرَ والظَّعنَ من تَهامة، بالسعد والسلامة، ائتِ جُدَّة، تجذِّ فيها أصنامًا معدَّة، فأورِدْها تَهامة ولا تَهَبْ، ثم ادعُ العرب إلى عبادتها تُحَبْ.. فدعا العرب إلى عبادتها قاطبةً، فأجابه عوفُ بن عُذْرَةَ بن زيد اللات، فدفع إليه وَدًّا فحمله، فكان بوادي القُرى بدومة الجندل، وسمَّى ابنه عبد وَدِّ، فهو أول من سُمِّيَ به، وجعل عوفُ ابنه عامرًا سادناً له، فلم يزل بنوه يسُدُّونَه حتى جاء الله بالإسلام.. وأجابت عمرو بن لُحَيٍّ: مُضَرُّ بن نزار، فدفع إلى رجل من هذيل.. سُوَاعًا، فكان بأرض يقال لها: رُهَاط من بطن نخلة، يعبدُه من يليه من مُضَر.. وأجابته مَذْحِج، فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادي: يعوث، وكان بأكمة باليمن، تعبدُه مَذْحِج ومن والاهَا. وأجابته هَمْدان، فدفع إلى مالك بن مرثد بن جُشَم: يعوق، فكان بقرية يقال لها: حَيَّوان، فعبدُه هَمْدان ومن والاهَا من اليمن. وأجابت حَمِير، فدفع إلى رجل من ذي رُعَيْن يقال له مَعْدِي كَرَب: نَسْرًا، فكان بموضع من أرض سبأ يقال له: بَلْخَع، تعبدُه حمير ومن والاهَا.. فلم تزل هذه الأصنام تُعبد، حتى بعث الله النبي - ﷺ -، فهدمها وكسرها¹. ثم قال ابن القيم: قلت: هذا شرح ما ذكره البخاري في "صحيحه" عن ابن عباس، قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب² آه.

1 إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان لابن القيم ط عالم الفوائد (2/ 959)

2 إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان لابن القيم ط عالم الفوائد (2/ 961)

وأنت ترى من خبر الكلبي . إن صح . أن هذه الأصنام عُبدت دون أن تعلم تلك القبائل التي عبدتها أنها ترمز لرجال صالحين وإنما هم أطاعوا عمرو بن لحي الذي أمرهم بعبادتها . كما سيأتي ذلك بشكل أوضح في الخبر التالي . وهو أطاع الشيطان حين وسوس له بذلك .

الخبر الثاني: "أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره.. رأهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه الأصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب، فيعبدونه؟ فأعطوه صنماً يقال له: "هبل"، فقدم به مكة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه"¹. فهذا يؤكد أن العرب لا تعلم أصل هذه الأصنام، بل عمرو بن لحي نفسه لا يعلم إلا أنها آلهة لها القدرة على إنزال المطر والنصر ونحو ذلك، فجلبها من بلاد الشام، بدليل أنه سأل أهل الشام حين رأهم يعبدونها: "ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه الأصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا" .

الخبر الثالث: ما قاله ابن القيم نقلاً عن الكلبي في سياق كلامه عن أهل مكة: "فكان الذي حملهم على عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطاقوا به كطوافهم بالبيت حبا للبيت.. ثم عبدوا ما استحسنا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم غيره فعبدوا الأوثان"². وهذا الخبر ورد أيضاً في سيرة ابن هشام³ نقلاً عن ابن إسحاق . فإن صح . فهو نص صريح على أنهم عبدوا حجارة الحرم في ترحالهم في أول الأمر "تعظيماً للحرم وصبابة بمكة"، لا لأن تلك الحجارة ترمز لرجال صالحين كما كان الأمر عليه في قوم نوح.

ثم إن من أصنام العرب . كما رأينا . ما كان يرمز إلى أناس مشركين كالكالات الذي كان يلت السويق للمشركين وكان أول من عبد الأصنام على قول السهيلي، ومنها ما يرمز إلى أناس فجرة كإساف

1 السيرة النبوية لابن هشام (1 / 77)، آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6 / 171)، الشرك في القديم والحديث ص436.

2 «إغاثة اللفهان في مصائد الشيطان» (2 / 963 ط عطاءات العلم)

3 «سيرة ابن هشام ت السقا» (1 / 77)، «الروض الأنف ت الوكيل» (1 / 350)

ونائلة كما سبق، فقد "اجتمعا في الكعبة، فكان منه إليها الفاحشة، فمسخهما الله حجرتين، فنصبهما الناس قريبا من البيت ليعتبرا بهما، فلما طال المطال بعد ذلك بمدد عبدا من دون الله في زمن خزاعة"¹. وقوله "فنصبهما الناس قريبا من البيت ليعتبرا بهما.." صريح في أن وضعهما من حيث الأصل كان للاعتبار بهما لا لعبادتهما ولكن لما "طال المطال بعد ذلك بمدد عبدا من دون الله"، وكذا أصل وضع أصنام قوم نوح التي كانت صورا لرجال صالحين «أن الأوائل فعلوها على شكل أسلافهم ليأنسوا برؤية صورهم، ويتذكروا أحوالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم»².

ولكن الذي حصل أن هذا الغرض قد نسي مع مرور الزمن وتنسج العلم ووسوسة الشيطان فعُبدت، وهذا ما صرح به القرطبي ونقله عنه الحافظ كما سبق من أنه "خلف من بعدهم خلف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان أن آباءهم وأجدادهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها، فعبدوها" كما سبق.

وهذا كله يدل على أن أصل وضع تلك الأصنام التي ترمز لبعض الرجال سواء كانوا صالحين كأصنام قوم نوح، أو طالحين كاللوات وإساف ونائلة، كان الغرض من وضعها كلها ليس لعبادتها، وإنما للتأسي بأولئك الرجال الصالحين، أو للعبرة بمصير أولئك الطالحين، وإنما عُبدت تلك الأصنام التي رَمَزت للصالحين والطالحين بمرور الزمن وجَهَل مَنْ عَبَدَهَا بِأَصْلِ الْغُرْضِ مِنْ وَضْعِهَا وَالَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ أَصْلًا بِأَنَّهَا تَرْمِزُ لِرِجَالِ صَالِحِينَ أَوْ طَالِحِينَ، وَإِنَّمَا ظَنَّ . بوسوسة من الشيطان . أنها آلهة تعبد لتجلب له النصر والعز والمطر ونحو ذلك كما في قوله تعالى { وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا } [مریم: 81]، وقوله { وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ } [يس: 74]، وكما في الرواية السابقة أن عمرو بن لحي حين سأل أهل الشام عن تلك الأصنام التي يعبدوها فقال "ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟

1 السيرة النبوية لابن كثير (1/ 57)

2 «فيض القدير» (4/ 466)

قالوا: له هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا"¹، فجلبها إلى بلاد العرب لهذا الغرض كما سبق بيانه².

ويؤيد هذا ما قاله بعض شراح البخاري في أصنام قوم نوح، فقال "والظاهر أن العرب هم الذين كانوا نحتوا هذه الأصنام، لا أنها انتقلت من العراق إليهم، غير أنهم نحتوها للمقاصد التي قصدتها أهل العراق.. ثم إنهم كانوا أعدوها للحوائج الخاصة؛ فالوَدّ: من المودة، وكانوا نحتوها لجلب الخير بينهم؛ والسواع: من الساعة، وهي التي فوضوا إليها الموت؛ ويغوث: وهي ما كان تغيث الناس في شدائدهم؛ ويعوق: وهي ما كانت تمنع وتعوق عنهم المصائب؛ والنسر: كانت على شكل النسر³. اهـ

¹ السيرة النبوية لابن هشام (1/ 77).

² انظر: ص (549)

³ فيض الباري على صحيح البخاري للشيخ الإمام محمد أنور الكشميري (5/ 435)، دار الكتب العلمية، ط1/2005م.

المطلب الثالث: استدلال السلفية بالمعقول على كون الأصنام من العقلاء

وهذا المطلب فيه مرصدان:

الأول: دعوى أن عبادة الحجارة أمر مخالف لبديهة العقول، وقلبها على الخصم!

الثاني: نقض الدعوى من ثلاثة وجوه:

أولاً: مخالفة القول لبديهة العقل لا يستلزم عدم وجود من يقول به.

ثانياً: وصف القرآن للمشركين بأنهم لا يعقلون

ثالثاً: الإله الذي عبده بنو إسرائيل كان صورة لعجل

وإليكم بسط ذلك والله المستعان.

المرصد الأول: دعوى أن عبادة الحجارة لذاتها أمر مخالف لبديهة العقول

استدلّ السلفية بالعقل على أن آلهة المشركين لم تكن أحجاراً يعبدونها لأعيانها، وإنما كانت ترمز لعقلاء وهم الأنبياء والصالحون والملائكة، وبعبارة أخرى لم تكن تلك الأصنام مجرد حجارة ادّعوا فيها الإلهية لذاتها؛ لأن هذا مخالف لبديهة العقل، وذلك: "أنه ليس في العالم أحد يعبد هذه الحجارة المنحوتة ثم يقول: إنها إلهي؛ لأن هذا مخالف لبدهة العقل والعلم الضروري الحسي.. فلا يعتقد أحد في حجارة منحوتة أنها إله؛ لعلمه علماً ضرورياً أنها ليست بإله ولا خالق ولا رب ولا رازق.. بل كان المشركون يعتقدون في الأموات من الصالحين أنهم مجابو الدعاء"¹ و"لأنه لا يعقل في أحد من بني آدم أن ينحت بيده حجراً أو خشباً ثم يعتقد أنه إلهه ويعبده ويجعله شفيحاً بينه وبين الله، إذن لا يتصور إطباق جم غفير من العقلاء على عبادة الأصنام والأخشاب والأحجار لذاتها وجعلها آلهة.. بل الحقيقة أن المعبود لهم لم يكن هذا الحاضر من الصنم المنحوت من الحجر أو الخشب، بل المعبود إنما كان ذلك الغائب الذي صوروه وجعلوا له صنماً من خشب أو حجر أو صفر أو غيره"².

1 جهود علماء الحنفية (2/ 860)

2 جهود علماء الحنفية (1/ 504)

"ولا يمكن لعاقل أن يظنّ أنهم يعبدون الحجارة لاعتقادهم أنها تخلق وترزق، ونحو ذلك من صفات الربوبية. وهل يُتصور أن يتبدل الخالق ومن له صفات الربوبية، وذلك أنهم إذا لم يجدوا الحجارة عبدوا الكومة من التراب"¹، "ولو كان مشركو قريش يعتقدون أن الأحجار والأصنام خالقون مع الله لصار القلم مرفوعاً عنهم لأنه لا يقول ذلك إلا مجنون"²، فلو قالوا ذلك فعلا "لكانوا مجانين ألبتة، لا يستحقّون أن يخاطبوا ولا يُرسل إليهم رسول"³.

وكانت الرسل تكتفي منهم بلا إله إلا الله، فمن قالها فقد برئ من الشرك، فأى ريب يبقى في أن توحيد الألوهية غير توحيد وجوب الوجود، وأن معنى (إله) غير معنى واجب الوجود؟ وكيف يعقل أن يكون معنى (إله) هو معنى واجب الوجود، وهم يؤهلون أحجارا ينحتونها بأيديهم، وأشجارا قد علموا أنها لم تكن قبل نابتة ثم نبتت، ومعادن تصاغ أمام أعينهم؟!

كذا قال السلفية، والجواب عن ذلك أننا نقلب هذه الدعوى فنقول إنه كما لا يعقل أن يعبد أحد حجرا صنعه بيده، فأیضا لا يعقل أن يعبد المشركون تلك الآلهة ويرجونها ويخشونها ويخوفون بها الأنبياء وأتباعهم، ويسبّون الله إذا سبّت ثم لا يعتقدون فيها ضرا أو نفعا ولا تأثيرا ولا خلقا، بل هذا أشد بُعدا من أن يعبدوا مجرد أحجار صنعوها بأيديهم.

ولو سلمنا جدلا بأن المشركين عبدوا الأصنام لسبب معقول وذلك بعد نظر وتفكر لا عن تقليد، فإن هذا لا يلزم منه أن تكون تلك الأصنام ترمز للأنبياء والأولياء؛ فهذا ليس متعيّنا، بل قيل إنها ترمز عندهم للكواكب، وسبب ذلك أن الناس لما "رأوا تغيرات أحوال هذا العالم الأسفل مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب.. غلب على ظنون أكثر الخلق أن مبدأ حدوث الحوادث في هذا العالم هو الاتصالات الفلكية.. ثم منهم من اعتقد أنها واجبة الوجود لذواتها، ومنهم من اعتقد حدوثها وكونها مخلوقة للإله الأكبر، إلا أنهم قالوا إنها وإن كانت مخلوقة للإله الأكبر، إلا أنها هي المدبرة لأحوال هذا العالم.. فالقوم

¹ حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين (ص: 489)، والإشارة هنا إلى أثر البخاري عن أبي رجاء العطاردي: كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر فإذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به. اهـ وقد سبق.

² موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 135)

³ آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6/ 174)

اشتغلوا بعبادتها وتعظيمها ثم إنهم لما رأوا أن هذه الكواكب قد تغيب عن الأبصار في أكثر الأوقات اتخذوا لكل كوكب صنما من الجوهر المنسوب إليه.. ثم أقبلوا على عبادة هذه الأصنام وغرضهم من عبادة هذه الأصنام هو عبادة تلك الكواكب والتقرب إليها..¹.

وقال الغزالي وهو يذكر أن لباب التوحيد هو "أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط، وأن يعبد عبادة يفرد بها فلا يعبد غيره، ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال الله تعالى {أفأريت من اتخذ إلهه هواه}.. وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المؤلفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى"². اهـ

المُرصد الثاني : نقض الدعوى من ثلاثة وجوه

أولاً: مخالفة القول لبديهة العقل لا يستلزم عدم وجود من يقول به

نحن نسلّم بأن عبادة الحجارة المنحوتة أمرٌ مخالف لبدهة العقل، ولكن هذا لا يستلزم بالضرورة أن لا يوجد أناس يفعلون ذلك، بل وجد ذلك فعلاً بدليل أن الشمس الأفغاني نفسه الذي قال ما سبق "لا يعقل في أحد من بني آدم أن ينحت بيده حجراً أو خشباً ثم يعتقد أنه إلهه ويعبده.." هو نفسه يستدرك فيقول بعد ذلك: "ولكن لا يمنع أن يكون فيهم بعض الحمقى السفهاء الذين لم يتفطنوا للفرق بين هذه الأصنام، وبين من هي على صورتهم، فظنوها معبودات وآلهة بأعيانها. ولذلك نرى: أن الله تعالى تارة قد يردّ على أمثال هؤلاء السفهاء أيضاً كقوله تعالى: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا..} "³.

فقد وُجد من قال بألوهية الأصنام والأحجار نفسها وعبدها من دون الله، وأما أن هؤلاء من سفهاء المشركين فهذا بحث آخر، المهم هنا إقراركم بأنه وُجد من الناس من آله الأحجار وعبدها نفسها

1 مفاتيح الغيب (13/ 30)، وذكر ذلك أيضا التهانوي في «كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم» (1/ 1021)، والألوسي في «روح المعاني» (4/ 186).

2 إحياء علوم الدين (1/ 33)

3 جهود علماء الحنفية (1/ 504)

مع أن هذا باطل ببديهية العقل، بغضّ النظر عن كون هذا الفريق من الناس قليلاً أو كثيراً، سفهاء أو غير سفهاء، على أننا قد بيّنا من قبل¹ أن المشركين كلهم سخيفون سفهاء لا عقل لهم حال شركهم، بل هم "في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل"².

ثانياً: إن كثيراً من الأديان والملل والنحل والمذاهب والأقوال: مخالفة لبديهية العقل، ومع ذلك فالأرض تعجّ بمن يقول بها، بل يدافع عنها بكل شراسة، وسنأتي على أمثلة من ذلك.

بل ثمة من أنكر الحسّ والعقل أصلاً، فإن ((الفسطائية أنكروا كل شيء في الوجود بما في ذلك وجودهم، وألقوا في ذلك كتبهم، و"يحدّد الفيلسوف السوفسطائي جورجياس (480 . 375 ق.م) في كتابه "اللاوجود" سمات الفكر الفلسفي السوفسطائي في ثلاث: الأولى: لا يوجد شيء"))³، بل إن السوفسطائية قدحت "في أظهر الأمور الحسية البديهية"⁴. ولديهم كثير من "الشبهات التي يوردونها على العلوم الحسية"⁵. وتشكيكاتهم واعتراضاتهم وأسئلتهم "ليس لها حد محدود ولا عد معدود"⁶.

أقوال كثيرة لبعض أهل الملل والفرق مخالفة للبديهية

نأتي هنا إلى أمثلة كثيرة ذكرها ابن تيمية نفسه كأقوال مخالفة لبديهية العقل، ونسبها إلى كثير من أهل الأديان والملل والنحل والفرق والمذاهب بما فيها الإسلامية، وفيما يلي باقة من نصوصه في ذلك:

1) يقول ابن تيمية: ثم إنك وطائفة معك تقولون إنه يرى لا في جهة ولا مقابلاً للرأي ولا فوقه ولا في شيء من جهاته الست، وجمهور عقلاء بني آدم من مثبتة الصفاتية ونفاتما يقولون إن فساد هذا معلوم بالبديهية والحس⁷.

¹ انظر: ص (327) عند قولي: (... وسخافة العقل)

² تفسير القرآن العظيم لابن كثير (12 / 331).

³ انظر: <https://www.facebook.com/A.History.of.Western.Philosophy/posts/592065024140248>

وانظر أيضاً: http://shazaraaat.blogspot.com.tr/2013/06/blog-post_12.html

⁴ بيان تلبيس الجهمية (127 / 4)

⁵ درة تعارض العقل والنقل لابن تيمية (3 / 310)

⁶ درة تعارض العقل والنقل لابن تيمية (3 / 287)

⁷ بيان تلبيس الجهمية (3 / 507)

(2) وقال: وإذا كان كذلك كان قوله والشيء الذي يمكن حصوله في الحيز يستحيل عقلاً حصوله لا في جهة التي قد قدم إنها وجودية قول معلوم الفساد ببديهة العقل متفق على فسادها بين العقلاء¹.

(3) ومن الحنبلية والشافعية والمالكية يقول: إنه كَلَّمَ موسى بصوت سمعه موسى وذلك الصوت قديم وهذا القول يُعرف فساده ببديهة العقل، وكذلك قول من يقول كَلَّمه بصوت حادث، وأن ذلك الصوت باق لا يزال هو وسائر ما يقوم به من الحوادث هي أقوال يُعرف فسادها بالبديهة².

(4) وقال: ومعلوم أن كون البارئ ليس جسماً ليس هو مما تعرفه الفطرة والبديهة ولا بمقدمات قريبة.. بل كل طائفة من العقلاء تبين أن من المقدمات التي نفت بها خصومها ذلك ما هو فاسد معلوم الفساد بالضرورة عند التأمل وترك التقليد³.

(5) وهذا نظير قول القائل: إن المحدث الذي كان بعد أن لم يكن لم يحدث نفسه، وهذا كله من العلوم البديهية الضرورية الفطرية التي هي من أبين الأمور عند العقلاء⁴.

(6) وأن الرازي لما تبع ابن سينا لم يكن في كتبه إثبات واجب الوجود. فإنهم جعلوا وجوده موقوفاً على إثبات "الممكن" الذي يدخل فيه القديم. فما بقي يمكن إثبات واجب الوجود على طريقهم إلا بإثبات ممكن قديم وهذا ممتنع في بديهة العقل واتفاق العقلاء. فكان طريقهم موقوفاً على مقدمة باطلة في صريح العقل. وقد اتفق العقلاء على بطلانها فبطل دليلهم⁵.

1 بيان تلبيس الجهمية (3/ 628)

2 مجموع الفتاوى (13/ 156)

3 بيان تلبيس الجهمية (1/ 359)

4 درة تعارض العقل والنقل لابن تيمية (3/ 288)

5 مجموع الفتاوى (16/ 452)

(7) وقال: وإذا بطلت صحح قول منازعك إن وجود موجود لا داخل العالم ولا خارجه ممتنع، ومتى بطلت كان قول منازعك معلوماً بالبدئية والفطرة الضرورية¹.

(8) وقال: والشبهات القادحة في تلك العلوم لا يمكن الجواب عنها بالبرهان.. ولهذا كان من أنكر العلوم الحسية والضرورية لم يناظر².

(9) وقال: والبصريون كأبي علي وأبي هاشم قالوا: تحدث إرادة لا في محل فلا إرادة، فالتزموا حدوث حادث غير مراد وقيام صفة بغير محل، وكلاهما عند العقلاء معلوم الفساد بالبدئية³.

(10) وقال: فأما أهل الفطر التي لم تغير فلا ينكرون هذا العلم، وإذا كان كذلك فأهل المذاهب الموروثة لا يمتنع إطباقهم على جحد العلوم البديهية، فإنه ما من طائفة من طوائف الضلال - وإن كثرت - إلا وهي مجتمعة على جحد بعض العلوم الضرورية.. إلى أن قال: ما من طائفة من طوائف الكلام والفلسفة إلا وجمهور الناس يقولون: إنهم جحدوا العلوم الضرورية⁴. اهـ ثم ذكر أمثلة كثيرة نذكر منها ما يلي نتابع بها الأمثلة السابقة:

(11) فالقائلون بأن الممكن قد يترجح أحد طرفيه بلا مرجح من القادر أو غيره يقول جمهور العقلاء: إنهم جحدوا العلوم الضرورية.

(12) والقائلون بأن الأجسام لا تبقى والأعراض لا تبقى يقول جمهور الناس: إنهم جحدوا العلوم الضرورية.

(13) والقائلون بأن الأصوات المتعاقبة تكون قديمة أزلية الأعيان باقية، وأن الأصوات المسموعة من الآدميين هي قديمة، يقول في حقهم جمهور العقلاء إنهم خالفوا العلم الضروري.

(14) والقائلون بأن الكلام هو معنى واحد.. فإن عبّر عنه بالعربية كان هو القرآن، وإن عبّر عنه بالعبرية كان هو التوراة، يقول جمهور العقلاء في حقهم إنهم جحدوا العلم الضروري.

1 بيان تلبس الجهمية (76 / 2)

2 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (310 / 3)

3 مجموع الفتاوى (300 / 13)

4 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (268 / 6)

- (15) والقائلون بأن العالم هو العلم والمعلوم، والعقل هو العقل والمعقول..والعلم هو القدرة..يقول جمهور العقلاء في حقهم إنهم خالفوا العلوم الضرورية.
- (16) والقائلون بأن الوجود الواجب وجود مطلق بشرط الإطلاق أو لا بشرط، يقول جمهور العقلاء في حقهم إنهم خالفوا العلوم الضرورية.
- (17) والقائلون بأن النفس لا تدرك إلا الكليات دون الجزئيات يقول جمهور العقلاء في حقهم إنهم خالفوا العلم الضروري.
- (18) والقائلون بأن كل موجود يجوز أن تتعلق به الإدراكات الخمسة، وأن الصوت يُرى والطعم يُسمع واللون يُشم، يقول جمهور العقلاء في حقهم إنهم خالفوا العلم الضروري.
- (19) والقائلون بأنه يحدث إرادة لا في محل..يقول جمهور العقلاء إن فساد قولهم معلوم بالضرورة.
- (20) والقائلون بأن الإرادة تحدث في الإنسان من غير سبب يوجب حدوثها يقول جمهور العقلاء إن فساد قولهم معلوم بالضرورة.
- (21) والقائلون بأنه حي عليم قدير، من غير حياة ولا علم ولا قدرة؛ يقول جمهور العقلاء إن فساد قولهم معلوم بالضرورة.
- (22) والقائلون بأن النبي ﷺ نصّ على عليّ بالخلافة نصّا جلياً أشاعه بين المسلمين، فكتموه ولم يظهروه، يقول جمهور العقلاء إن قولهم معلوم الفساد بالضرورة.
- (23) وقول النصارى: إن الكلمة اتّحدت بالمسيح، وإنها ليس هي الآب الجامع للأقانيم، وهي مع ذلك الرب الذي يخلق ويرزق، وهي جوهر، والجوهر عندهم واحد ليس إلا الآب؛ كله ممّا يقول الناس: إنه معلوم الفساد بالضرورة¹.

ثم يقول ابن تيمية: ومثل هذا إذا تتبعناه كثير. فوجود الأقوال التي يقول جمهور الناس: إنها معلومة الفساد بالضرورة في قول طوائف كثيرة من الناس أكثر من أن تستوعب، فكيف يقال: لا يجوز إطباق الجمع الكثير على إنكار ما علم بالبدئية؟¹

وبعد فهذه أكثر من عشرين مثالا ضربها ابن تيمية على أقوال ذكر أنها مخالفة لبدئية العقل وللضروريات، بغضّ النظر الآن عن أنها فعلا كذلك، وكلها كما ترى منسوبة للعقلاء بل لبعض فرق المسلمين وأئمتهم.

والمقصود أن كون القول مخالفا لبدئية العقل لا يمنع من أن يقول به قائل، بدليل هذه الأمثلة الكثيرة التي ذكرها ابن تيمية، والسبب في ذلك أن المذاهب والأقوال ليس كلها مبنيا على ما يقرره العقل وإنما تبنى على التقليد والعاطفة والأوهام ونحو ذلك كما أشار إلى ذلك ابن تيمية نفسه حين قال فيما سبق "ما هو فاسد معلوم الفساد بالضرورة عند التأمل وترك التقليد"².

ويقول ابن تيمية: وبهذا يظهر الجواب عما يورده بعض أهل الكلام كالرازي على هذا الحديث حيث قالوا دلائل كون الدجال ليس هو الله ظاهرة، فكيف يحتج النبيّ على ذلك بقوله إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور؟ وهذا السؤال يدل على جهل قائله بما يقع فيه بنو آدم من الضلال، وبالأدلة البينة التي تبين فساد الأقوال الباطلة، وإلا فإذا كان بنو إسرائيل في عهد موسى ظنّوا أن العجل هو إله موسى فقالوا هذا إلهكم وإله موسى وظنوا أن موسى نسيه، والنصارى مع كثرتهم يقولون: إن المسيح هو الله، وفي المنتسبين إلى القبلة خلق كثير يقولون ذلك في كثير من المشايخ وأهل البيت³. اهـ

ومشركو العرب إنما عبدوا الأحجار "بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله عز وجل بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء والخبط في الجاهلية الجهلاء"⁴، "فعلم أن جدال المشركين في شركهم غير مستندين فيه على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة وآراء كاسدة وعقول

1 دره تعارض العقل والنقل لابن تيمية (6/ 270)

2 بيان تلبيس الجهمية (1/ 359)

3 الجواب الصحيح (3/ 325)

4 تفسير ابن كثير (12/ 675)

فاسدة"¹. وقد سبق أن بسطنا ذلك²، حتى إن آباءهم عبدوا الأصنام بتزيين من عمرو بن لحي وتقليد له كما سبق.

زد على ذلك أن الناس في الجاهلية كانوا "إمّا أمي من عربي وعجمي، مقبل على عبادة ما استحسنته، وظن أنه ينفعه: من نجم، أو وثن، أو قبر، أو تمثال، أو غير ذلك والناس في جاهلية جهلاء، من مقالات يظنونها علما وهي جهل، وأعمال يحسبونها صلاحا وهي فساد"³ كما قال ابن تيمية.

ثانيا: وصف القرآن للمشركين بأنهم لا يعقلون

سنلتزم هنا بما يلزمنا به السلفية وهو أن المشركين لا يعقلون! لأن المشركين كثيرا ما "وُصفوا في القرآن بأنهم لا يعقلون"⁴ لأنهم يأتون بالمنكرات والموبقات تقليدا لأبائهم ودون أي تفكير في ذلك، ومن جملة ذلك عبادتهم للأحجار، وفيما يلي بسط ذلك:

1) قال تعالى: {وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [العنكبوت: 63]، أي "بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعقلون ما لهم فيه النفع من أمر دينهم، وما فيه الضرر، فهم لجهلهم يحسبون أنهم لعبادتهم الآلهة دون الله، ينالون بها عند الله زلفة وقربة، ولا يعلمون أنهم بذلك هالكون مستوجبون الخلود في النار"⁵. ولأنهم "يتناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ لكل ما عداه ثم إنهم يشركون به الصنم"⁶. و"لا يتدبرون هذه الحجج"⁷. و"لا يعقلون الأشياء التي يتعقلها العقلاء. فذلك لا يعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ما هي عليه عند كل عاقل"⁸، ولأنهم "يعرفون بأن ذلك

¹ تفسير السعدي (ص: 779)

² انظر: ص (559) عند قولي: (... اعتمدوا على ظنون كاذبة)

³ اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 74)، وانظر: مجموع الفتاوى (19/ 101).

⁴ عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: 265)

⁵ جامع البيان ط هجر (18/ 439)

⁶ أنوار التنزيل وأسرار التأويل (4/ 199) وانظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (14/ 473)

⁷ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (16/ 387)

⁸ فتح القدير للشوكاني (4/ 244)

من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون.. فيظهر تناقض كلامهم وتهاافت مذهبهم، فقل الحمد لله على ظهور تناقضهم وأكثرهم لا يعقلون هذا التناقض أو فساد هذا التناقض"¹. و"لذلك وُصفوا في القرآن بأنهم لا يعقلون"².

(2) وقال تعالى: { مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } [المائدة: 103]، أي أنهم "لا يعقلون أن ذلك التحريم الذي حرمه هؤلاء المشركون وأضافوه إلى الله تعالى كذب وباطل"³.

(3) وقال تعالى: { وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [هود: 50، 51]، أي "أفلا تعقلون ما أدعوكم إليه، وأنه موجب لقبوله، منتف المانع عن رده"⁴.

(4) وقال تعالى: { قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء: 66، 67] أي: "أليس لكم عقل تعرفون هذا؟"⁵، أليس "لكم عقول تتفكرون بها، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذي صنعتموه"⁶، وهو "عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع"⁷، "أفلا تستحيون من عبادة ما كان هكذا؟"⁸

1 مفاتيح الغيب (75 / 25)

2 عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: 265)

3 جامع البيان ط هجر (40 / 9)

4 تفسير السعدي (ص: 383)

5 تفسير السمعاني (390 / 3)

6 فتح القدير للشوكاني (489 / 3)

7 جامع البيان ط هجر (304 / 16)

8 جامع البيان ط هجر (303 / 16)

ثالثا: الإله الذي عبده بنو إسرائيل كان صورة لعجل

إن الإله الذي عبده بنو إسرائيل في عهد موسى عليه السلام لم يكن صورة لنبي ولا رمزا لولي ولا نُصْبًا لِمَلَك، بل كان صورة لعجل كما في قوله تعالى {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ} [الأعراف: 148]، قال قتادة: استعاروا حُلِيًّا من آل فرعون فجمعه السامري فصاغ منه عجلا، فجعله الله جسدا لحما ودما له خوار¹. وقال مجاهد: حين دفنها ألقى عليها السامري قبضة من تراب من أثر فرس جبريل عليه السلام². وقال تعالى: {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} [طه: 88]، قال ابن عباس: فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر أغرق الله آل فرعون قال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ومضى موسى لموعد ربه وكان مع بني إسرائيل حُلِيًّا من حُلِيّ آل فرعون، فكأنهم تأثموا منه فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعه قال السامري بالقبضة هكذا، فذفها فيه وقال: كن عجلا جسدا له خوار. فصار عجلا جسدا له خوار، فكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه يسمع له صوت! فقال: هذا إلهكم وإله موسى. فعكفوا على العجل يعبدونه، فقال هارون: يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا: لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى³.

لقد جاء بني إسرائيل أنبياء كثر، منهم موسى عليهم السلام، فأمنوا به بعد أن رأوا منه المعجزات الكثيرة التي تدل على صدقه، ثم ما لبثوا أن اتخذوا العجل إلهًا في عهده مجرد أن له خوارا، بعد أن نجّاهم الله من فرعون وكيده مع أنه كما قال ابن عباس "لم تجفّ أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه، حتى قالوا: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة"⁴، فما بالك بأهل الجاهلية الذين لم

¹ الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (6/ 592)

² الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (6/ 591)

³ الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (10/ 228)

⁴ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط/ الرسالة (9/ 496)

يأتهم أنبياء وكانوا "في جاهلية جهلاء"¹؟ فكيف يُستبعد من هذه حالهم من الجهل المطبق أن يتخذوا الحجارة آلهة، مع أن بني إسرائيل فعلوا أكبر من ذلك وهارون عليه السلام بين ظهرائهم، وقد نُهاهم عن ذلك فلم يطيعوه، كما في قوله تعالى: { فَأَخْرَجَ لَهُمُ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِي (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ } [طه: 88 - 91]!؟

1 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 74)

المطلب الرابع: استدلالهم بإقرار بعض الأشاعرة بأن المشركين كانوا يعبدون الأنبياء والصالحين

أورد السلفية نصوصا عديدة عن الأشاعرة في ذلك، نسردها مع الإجابة عنها:

النص الأول: قال الشهرستاني: وبالجملة وضع الأصنام حيث ما قدره وإنما هو على معبود غائب حتى يكون الصنم المعمول على صورته وشكله وهيأته نائبا منابه وقائما مقامه، وإلا فنعلم قطعا أن عاقلا ما لا ينحت جسما بيده ويصور صورة، ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه وإله الكل وخالق الكل؛ إذ كان وجوده مسبوqa بوجود صانعه، وشكله يحدّث بصنعة ناحته، لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها كان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها، وعن هذا كانوا يقولون: "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى"، فلو كانوا مقتصرين على صورها في اعتقاد الربوبية والإلهية لما تعدّوا عنها إلى رب الأرباب 1. اهـ

النص الثاني: قال الجرجاني في "شرح المواقف"، بعد أن ذكر عبّاد الأوثان: "فإنهم لا يقولون بوجود إلهين واجبي الوجود، ولا يصفون الأوثان بصفات الإلهية، وإن أطلقوا عليها اسم الآلهة، بل اتخذوها على أنّها تماثيل الأنبياء، أو الرّهاد، أو الملائكة" 2.

النص الثالث: قال التفتازاني نقلا عن الإمام الرازي: إنّ لأهل الأوثان تأويلات.. الخامس: أنه لما مات منهم مَنْ هو كامل المرتبة عند الله تعالى اتخذوا تماثلاً على صورته" 3. وذكر التفتازاني أن شرك المشركين وقع حين "مات منهم من هو كامل المرتبة عند الله اتخذوا تماثلاً على صورته، وعظّموه تشفعا إلى الله تعالى وتوسلاً" 4.

النص الرابع: قال الشيخ زاده في حاشيته على البيضاوي في أثناء كلامه عن المشركين: "فإنهم يزعمون أنّ الأوثان صور الملائكة"، وهذا نقله المعلمي ثم قال: ويؤكّد ذلك: تسميتهم أكثر أصنامهم بأسماء مؤنّثة،

1 الملل والنحل (2/ 258)، ونقله عنه صاحب شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 279

2 "شرح المواقف" ج 3 ص 32 وما بعدها. آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6/ 172)

3 "شرح المقاصد" ج 2 ص 64 - 65.

4 موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 39، وانظر أيضا: 159، و167).

كالآلات والغزى ومناة؛ لأنهم يزعمون أنّ الملائكة إناث كما سلف، والعادة في الأصنام أن يطلق على الصنم اسم الشخص الذي جعل تمثالا أو تذكارا له¹.

النص الخامس: قال الأمدي وهو يتكلم عن فرق الصابئة: ويحتمل أن يكون اتخاذ الأصنام بالنسبة إلى غير هذه الفرقة وتعظيمها لاتخاذها قبلة لعبادتهم، أو لأنها على صورة بعض من كان يعتقد فيه النبوة والولاية، تعظيما له، أو لأن قدماء أرباب الهياكل، والأصنام، وعلمائهم ركبوا طلاس، ووضعوها فيها، وأمروهم بتعظيمها لتبقى محفوظة منتفعا بها. وإلا فاعتقاد الإلهية فيما اتخذ، وصور من الأخشاب، والأحجار، وكونه خالقا لمن صوره، ومبدعا لما وجوده قبل وجوده من العالم العلوي، والسفلي مما لا يستجيزه عقل عاقل بل البداية شاهدة برده، وإبطاله، وإن وقع ذلك معتقدا لبعض الرعاع، ومن لا خلاق له، من العوام منهم فلا التفات إليه، ولا معول عليه². اهـ

النص السادس: نقلوه³ عن الفخر الرازي، وهو قوله عن المشركين "وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى"⁴. ونقلوا عنه أيضا أنه قال في قوله تعالى {قل لله الشفاعة جميعا} [الزمر: 44]: هذا ردّ لما يجيبون به، وهو أن الشفعاء ليست الأصنام أنفسها بل أشخاص مقربون هي تماثيلهم⁵.

1 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6/ 173)

2 أبكار الأفكار في أصول الدين (2/ 267)

3 موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 39)

4 مفاتيح الغيب (17/ 227)

5 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/ 503)، نقلا عن تفسير الرازي، وروح المعاني 7/ 410. ونص الرازي الذي وجدته في مفاتيح الغيب في سورة الزمر (26/ 456) ط/ دار إحياء التراث: واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا، فقالوا: نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع، وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله.. اهـ
هذا وقد سبق أن بسطنا الكلام عن ذلك في كتابنا (ولئن سألتهم) ص (371).

وقد نقل المعلمي بعض النصوص السابقة ثم قال: إذا تقرّر هذا، وقد سبق أنّ العرب كانوا يعبدون الملائكة فأصنامهم إنما هي تماثيل أو تذاكير للملائكة¹.

والجواب فيما يلي:

أولاً: أما الشهرستاني فليس في كلامه أن أصنامهم هي تماثيل للأنبياء والملائكة، غاية ما قاله "وضع الأصنام حيث ما قدره وإنما هو على معبود غائب حتى يكون الصنم المعمول على صورته وشكله"، والمعبود الغائب قد يكون شمساً أو قمراً أو بيتاً أو شجرة لأن الناس عبدوا كل ذلك، كما سبق بسطه². ومن ذلك قول ابن القيم "وطائفة أخرى اتخذت للقمر صنما، وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي"³، ومنه قول ابن عاشور: "الأصنام التي كانوا يعبدونها أرادوا بها أنّها صور للكواكب وتماثيل لها على حسب تخيلاتهم وأساطيرهم مثلما كان عليه اليونان القدماء"⁴.

وأما الجرجاني فقد ذكر ذلك على سبيل الاحتمال لا أكثر، بدليل أن تمام كلامه يذكر أنه يحتمل أن تكون أصنامهم تماثيل للكواكب أيضاً، حيث قال "بل اتخذوها على أنّها تماثيل الأنبياء أو الزهاد أو الملائكة أو الكواكب"⁵. اهـ

وكذا الجواب عن التفتازاني بدليل أنه ذكر احتمالات أخرى، حيث قال وهو يعدّد أصنام المشركين: "ومنهم عبدة الملائكة وعبدة الكواكب وعبدة الأصنام، أما الملائكة والكواكب فيمكن أنّهم اعتقدوا كونها مؤثرة في عالم العناصر مدبرة لأمر قديمة بالزمان شفعاء للعباد عند الله تعالى مقربة إياهم إليه تعالى. وأما الأصنام فلا خفاء أنّ العاقل لا يعتقد فيها شيئاً من ذلك، قال الإمام رحمه الله: فلهم في ذلك تأويلات باطلة:

الأول: أنّها صور أرواح تدبّر أمرهم.

1 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (6/ 172)

2 ص (543) عند قولي: (ثلاث شجرات...)

3 إغاثة اللفهان (2/ 223). وانظر: معارج القبول (2/ 471)

4 التحرير والتنوير (7/ 320)

5 شرح المواقف (8/ 43)

الثاني: أنها صور الكواكب.

الثالث: أن الأوقات الصالحة للطلسمات¹ القويّة الآثار لا توجد إلا أحياناً من أزمئة متطوالة جداً، فعملوا في ذلك الوقت طلسمًا مطلوب خاصٍ يعظمونه ويرجعون إليه عند طلبه.

الرابع: أنهم اعتقدوا أن الله تعالى جسم على أحسن ما يكون من الصورة، وكذا الملائكة، فاتخذوا صوراً وبالغوا في تحسينها وتزيينها، وعبدوها لذلك.

الخامس: أنه لما مات منهم مَنْ هو كامل المرتبة عند الله تعالى اتخذوا تمثالاً على صورته، وعظّموه تشفّعاً إلى الله تعالى وتوسلاً .. " ².

(كيف اجتزأ دمشقية كلام الرازي والتفتازاني حينما تكلمما عما ترمز له الأصنام)

قال وليد: فأنت ترى أن التفتازاني ذكر خمسة احتمالات، آخرها . وهو ما اقتصر الخصم . كدمشقية . عليه هو "أنه لما مات منهم مَنْ هو كامل المرتبة عند الله تعالى اتخذوا تمثالاً على صورته.."، وذكره . أي التفتازاني . على أنه مجرد احتمال عقلي لا على أنه أمر شرعي، ثم إنه ذكر احتمالات عقلية أخرى تعارضه مثل أن الأصنام صور الكواكب أو أنها طلسمات أو أرواح مدبرة، أو أنها ترمز لله نفسه لكونهم يعتقدون أن الله جسم، فيكون المجموع خمسة احتمالات، فكيف يُصوّر كلامه وكأنه أورد احتمالاً واحداً . وهو أن تلك التماثيل صور للملائكة والأنبياء عليهم السلام . وكل ذلك لهوى في نفس دمشقية وأضرابه، ولذلك اجتزأ كلام التفتازاني واقتصر عليه تكثيراً لسواده³!!

1 قال الزبيدي في تاج العروس من جواهر القاموس (24/33): والطلسم، كسبَطْر، وشَدَدَ شَيْخُنَا اللَّأَمَ، وقال: إِنَّهُ أَعْجَمِي، وَعِنْدِي أَنَّهُ عَرَبِيٌّ: اسْمٌ لِلسِّرِّ الْمَكْتُومِ، وقد كَثُرَ اسْتِعْمَالُ الصُّوفِيَّةِ فِي كَلَامِهِمْ فَيَقُولُونَ: سِرٌّ مُطْلَسٌ، وَحِجَابٌ مُطْلَسٌ، وَذَاتٌ مُطْلَسَةٌ، وَالجَمْعُ: طَلَاْسِمٌ. اهـ

2 آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (2/333)، وانظر: شرح المقاصد في علم الكلام (2/64)، للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت: 793 هـ)، دار المعارف النعمانية في باكستان، 1981م.

3 وقد نقل دمشقية كلام التفتازاني في ثلاثة مواضع من موسوعته مقتصرًا على الاحتمال الخامس موهماً أن التفتازاني لا يقول بسواه! كل ذلك ليقول دمشقية إن "شرك المشركين كان شرك الوسيلة الذي يدعو إليه هؤلاء اليوم!!" أهكذا تقتضي الأمانة العلمية التي طالما حدثنا عنها دمشقية في موسوعته (ص: 101، و 201، 354، 997، 1077، 1198) وحاضر فيها مرارا متبعا خصومه بخباياها؟! أهذه الطريقة طريقة بتر النصوص يُرمى الناس بالشرك؟! إليكم المواضع الثلاثة؛ الموضوع الأول: قال دمشقية في موسوعة

ثم إن هذه الاحتمالات التي ذكرها الفتازاني نصّ على أنها من كلام الفخر الرازي حيث قال الفتازاني: "قال الإمام رحمه الله: فلهم في ذلك تأويلات باطلة"، وبالرجوع إلى كلام الرازي نجد أنه جعلها في كتاب معالم أصول الدين أربعة احتمالات فقط¹، ولم يذكر فيها أصلاً الاحتمال الخامس الذي اقتصر عليه الخصم وهو "أنه لما مات منهم من هو كامل المرتبة!"

أجل جعلها الرازي ستة احتمالات في تفسيره في موضعين؛ منها هذا الاحتمال الذي اقتصر عليه دمشقية، وهو أنها ترمز لرجل من الصالحين يعبدونه ليشفع لهم! حيث قال الرازي في أول تفسيره: «ورابعها: أنه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون فيه أنه مجاب الدعوة ومقبول الشفاعة عند الله تعالى اتخذوا صنما على صورته يعبدونه على اعتقاد أن ذلك الإنسان يكون شفيعاً لهم يوم القيامة»².

وقال أيضاً في منتصف تفسيره تقريباً: «ورابعها: أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل، فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظّموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله»³.

وهذا جاء موضحاً أكثر في آخر تفسيره، حيث قال هناك: "ويمكن أن يقال إن العاقل لا يعبد الصنم من حيث إنه خشب أو حجر، وإنما يعبدونه لاعتقادهم أنها تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين مضوا، ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى تلك الأشياء التي جعلوا هذه التماثيل صوراً لها"⁴. اهـ

أهل السنة (ص: 40): وذكر الفتازاني أن شرك المشركين وقع حين "مات منهم من هو كامل المرتبة". اهـ والموضع الثاني قوله (ص: 159): ((الفتازاني يعترف أن شرك المشركين توسل وتشفع. قال الفتازاني أن شرك المشركين وقع حين "مات منهم من هو...").

والموضع الثالث (ص: 167): ((ولقد ذكر الفتازاني أن شرك المشركين وقع حين "مات منهم من...").

1 «معالم أصول الدين» (ص81)، للإمام فخر الدين الرازي، ت طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب العربي - لبنان.

2 «مفاتيح الغيب» (2/ 345)، ط/التراث.

3 «مفاتيح الغيب» (17/ 227)، ط/التراث.

4 «مفاتيح الغيب» (26/ 421)، ط/ دار إحياء التراث. ونقله صاحب كتاب «الشرك في القديم والحديث» (1/ 519).

فإذن الرازي في عدة مواضع ذكر احتمالات لما ترمز له هذه الأصنام، فجاء دمشقية واجتزأ كلام الرازي! فنقل عنه الاحتمال الرابع فقط وطار به!! وهو "أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم"¹، مُغفلاً الاحتمالات الأخرى التي ذكرها! ومنها احتمال أن المشركين كانوا مجسمة وهذا ما لا يروق لدمشقية، بل أغفل أن الرازي لم يذكر هذا الاحتمال الذي طار به دمشقية، وذلك في كتابه معالم أصول الدين كما سبق.

فقد اجتزأ كلامَ الرازي تماما كما اجتزأ كلامَ التفتازاني، بل إنه ساق كلام التفتازاني والرازي المجتزأين في نفس الموضوع موهما أنهما نصّان! أحدهما للرازي والآخر للتفتازاني ليكثر. أي دمشقية. سواده!! في حين أنهما نصّ واحد للرازي، ونقله عنه التفتازاني، فيكون دمشقية قد خان الأمانة مرتين، مرة حين اجتزأ كلاميهما، ومرة أخرى حين أوهم أنهما نصّان!!

والحاصل أن التفتازاني نقل عن الرازي خمسة احتمالات من أصل ستة في مسألة لمن ترمز هذه الأصنام، وكلها احتمالات عقلية ليس إلا، وفيها ما لا يشتهيها الخصم كاحتمال أن تكون الأصنام صورا للكواكب. وهذا بسطه الرازي في موضع آخر². أو صورا لأرواح الكواكب، أو أنها صور لطلسمات، أو تكون صورة لله نفسه تعالى الله عن ذلك! وذلك على اعتبار أنهم حلولية اعتقدوا أن الله حلّ في الصنم، أو تكون صورة للإله الكبير الذي اعتقدوا أنه نور عظيم، فهذه خمسة احتمالات أخرى أوردها الرازي، سوى أنها صور لأنبياء³، فافتصار دمشقية على ذكر هذا الاحتمال الأخير، والإيهام بأن هذا هو ما يقطع به الرازي: خيانة للأمانة العلمية كما سبق.

1 وأضاف: ونظيره في هذا الزمان: اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر.. ثم ابتهج دمشقية بذلك فقال معقبا: "وهو نفيس جدا وصدور مثل هذا الكلام من رجل من عظماء الأشاعرة هو حجة على متأخريهم، فهل يصير الرازي عندهم "وهايياً" بعد هذا؟" انظر: موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 40).

2 انظر: ص (553) عند قولي: (هو الاتصالات الفلكية..)

3 ونصُّ الرازي في مفاتيح الغيب (17 / 227)، ط/ دار إحياء التراث: ثم اختلفوا في أنهم كيف قالوا في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله؟ وذكروا فيه أقوالا كثيرة: فأحدها: أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل إقليم من أقاليم العالم، روح معين من أرواح عالم الأفلاك، فعينوا لذلك الروح صنما معيناً واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم.. وثانيها: أنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب ووضعوا لها أصناما معينة واشتغلوا بعبادتها. وثالثها: أنهم وضعوا طلسمات معينة

(قول الرازي الذي لم يرق لدمشقية: "فالسبب في عبادة الأوثان اعتقاد أن الله تعالى جسم وفي

مكان")

وذكر الرازي في تفسيره في مواضع أخرى أن سبب عبادة الأصنام هو التجسيم، وهذا ما لا يروق لدمشقية، فهو يقول مثلا نقلا عن أبي معشر البلخي: أن كثيرا من أهل الصين والهند كانوا يثبتون الإله والملائكة إلا أنهم يعتقدون أنه تعالى جسم وذو صورة كأحسن ما يكون من الصور.. فلا جرم اتخذوا صورا وتمائيل أنيقة المنظر حسنة الرؤيا والهيكل، فيتخذون صورة في غاية الحسن ويقولون إنها هيكل الإله.. فإن صح ما ذكره أبو معشر فالسبب في عبادة الأوثان اعتقاد أن الله تعالى جسم وفي مكان¹. اهـ

وقال في موضع آخر من تفسيره . وهو قطعا من كلام الرازي لأنه في أول تفسيره، وأما ما بعد سورة الأنبياء فمختلف في كونه للرازي . : «وسادسها: لعلمهم كانوا من المجسمة، فاعتقدوا جواز حلول الرب فيها فعبدوها على هذا التأويل، فهذه هي الوجوه التي يمكن حمل هذه المقالة عليها حتى ليصير بحيث يعلم بطلانه بضرورة العقل»².

صورة الإله عند المشركين وأهل الكتاب والمجسمة

فبناء على هذا القول السادس في النص الأخير للرازي تكون تلك الأصنام التي عبدها ترمز للإله نفسه لأنهم مجسمة! أي يعتقدون أن الإله جسم وله صورة!! تماما كما يقول أهل الكتاب ومجسمة أهل الإسلام مستدلين بحديث "إذا قاتل أحدكم أخاه، فليجنب الوجه، فإن الله خلق آدم

على تلك الأصنام والأوثان، ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات. ورابعها: أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم.. وخامسها: أنهم اعتقدوا أن الإله نور عظيم، وأن الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر، وعلى صورة الملائكة صورا أخرى. وسادسها: لعل القوم حلولية، وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة. اهـ

¹ مفاتيح الغيب (13 / 31) ، ط/التراث.

2 « مفاتيح الغيب » (2 / 345)، ط/التراث.

على صورته" 1، وفي لفظ للبخاري "خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً" 2، و«الصورة في اللغة: هيئة الشيء القائم بنفسه، وشكله، وكل موجود غير مفتقر لغيره يكون قائماً بنفسه.. يكون له صورة وحقيقة، والله - عز وجل - أعظم موجود وأكبره، وهو مستغن بنفسه عن غيره، وهو القائم بنفسه» 3، «وأيضاً فهذا المعنى عند أهل الكتاب من الكتب المأثورة عن الأنبياء كالتوراة فإن في السفر الأول منها سنخلق بشراً على صورتنا يشبهها. وقد قدمنا أنه يجوز الاستشهاد بما عند أهل الكتاب إذا وافق ما يؤثر عن نبينا» 4!!

فثمة من يعتقد إذن أن الله له صورة آدمي وهم أهل الكتاب والمجسمة من أهل الإسلام، فما المانع من أن يكون المشركون يعتقدون أن الأصنام التي يعبدونها هي صور للآلهة نفسها لا للصالحين بدليل أنهم يسمونها آلهة؟! حتى لو سلمنا بأن تلك الأصنام ترمز للصالحين فالمشركون اتخذوا هؤلاء الصالحين آلهة كما صرّحوا بذلك كما في قوله تعالى: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرْنَاكَ بِبَعْضِ آلهَتِنَا بِسُوءِ} [هود: 54]!

وكذا هم جعلوا بعض تلك الأصنام صوراً للملائكة لأنها آلهة عندهم إذ هي بنات الله سبحانه . تعالى الله عن ذلك . كما قال تعالى ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصفوات: 150-153] فالله تعالى "ذكر أن مشركي قريش كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونها" 5 وهذا سبق تقريره.

1 «صحيح مسلم» (4/ 2017 ت عبد الباقي)

2 صحيح البخاري بتحقيق البغا (5/ 2299)

3 «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري - الغنيمان» (2/ 40)

4 «بيان تلبس الجهمية» (6/ 451)، وانظر: «درء تعارض العقل والنقل» (5/ 83)، «الصفدية» (2/ 336)، كلها لابن تيمية.

5 جامع البيان ط هجر (19/ 640)

هذا فضلا عن أن الرازي نفسه ذكر بوضوح في مواضع عديدة من تفسيره . كما سيأتي . أن أصنام المشركين ما هي إلا حجارة وجمادات لا أكثر! فلم تركتم هذه المواضع الواضحة من تفسيره ثم أخذتم بتلك المواضع التي كان يذكر فيها احتمالات عقلية فحسب كما سبق؟! ثم منذ متى كنتم تأخذون بالرازي أصلا وبتفسيره!!

الرازي يصف أصنام المشركين بأنها مجرد جمادات وذلك في مواضع كثيرة من تفسيره

(1) يقول الرازي: "فأنى يؤفكون" يعني هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله، مع أن من علمت عظمته وجبت خدمته، ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والأرض، ولا حقارة فوق حقارة الجماد، لأن الجماد دون الحيوان، والحيوان دون الإنسان، والإنسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشتغلون بعبادات أخس الموجودات¹. اهـ

(2) ويقول: "والثاني: أنهم قالوا: إن كنا عن عبادتكم لغافلين..من أعظم أسباب الغفلة كونها جمادات لا حس لها بشيء ولا شعور ألبتة"².

(3) وقال أيضا: "ثم قال: (إن أنتم إلا مفترون) يعني أنكم كاذبون في قولكم إن هذه الأصنام تحسن عبادتها..وكيف لا يكون هذا كذبا وافتراء وهي جمادات لا حس لها ولا إدراك، والإنسان هو الذي ركبها وصورها، فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها"³.

(4) وقال عند قوله تعالى: أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون:.. كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ينشرون وما كانوا يدعون ذلك لألهتهم..فإنهم كانوا مع إقرارهم بالله وبأنه خالق السموات والأرض منكرين للبعث، ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم. فكيف يدعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة البتة؟⁴

1 مفاتيح الغيب (25 / 74)، ط/التراث.

2 مفاتيح الغيب (17 / 245)، ط/التراث.

3 مفاتيح الغيب (18 / 363)، ط/التراث.

4 مفاتيح الغيب (22 / 127) ط/التراث.

ثم إن هؤلاء المتكلمين أوردوا هذه الاحتمالات استبعادا منهم لأن يُقدّم أحد من العقلاء ابتداءً على تأليه الحجارة وعبادتها، فذكروا أن هذه التماثيل قد تكون تصاوير لكواكب أو أرواح أو ملائكة أو للخالق نفسه على اعتبار أنهم مجسّمة، ولكن هذا أجبتنا عنه سابقا مطوّلاً، وذكرنا أنه كون الشيء مستحيل عقلاً لا يمنع من أن يعتقد بعض العقلاء أنه ممكن بل واجب لا مستحيل¹.

علاوةً على أن هذا لا يشترط إلا في الطبقات الأولى من العابدين لا في أحفادهم، بمعنى أن أول من صوّر تلك التماثيل وعبدها، نعم هذا قد يكون جعلها رمزا لتلك الأرواح أو الملائكة أو غيرها مما ذكر على اعتبار أن تلك الأرواح أو الملائكة آلهة عاقلة، وقد يستمر الأمر على ذلك فترة من الزمن، ثم يأتي بعد ذلك الأحفاد ويعبدون تلك الأصنام على أنها هي نفسها آلهة، ويتذرعون بأنها لو لم تكن كذلك لما عبدها أجدادهم.

تماما كما حدث في أصنام قوم نوح، وذلك - وبحسب أثر ابن عباس إن صحّ طبعاً - أن تلك الأصنام التي كانت في قوم نوح هي أصلاً "أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصبا وسمّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبت" أي أنهم صوّروا تلك الصور بقصد حسن معقول وهو "ليتأنسوا برؤية تلك الصورة، ويتذكروا أحوالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم، ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم، فمضت لهم بذلك أزمان، ثم إنهم خَلَف من بعدهم خَلَف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان: أنّ آباءهم وأجدادهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها، فعبدوها"².

1 انظر: ص (557) عند قولي: (إنهم جحدوا العلوم الضرورية)

² المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم 127/2، وانظر أيضا فتح الباري لابن حجر (1/ 525).

فبان أنه لا يشترط فيمن وقع في عبادة الأصنام أن يعبدها لأجل أنها رمز لأرواح أو ملائكة أو صالحين، فهذا قد يشترط في الطبقات الأول، ولكن بعد ذلك قد يظن الأحفاد . بسبب الجهل والتقليد . أن أجدادهم عبدوا عين تلك الأصنام لا ما ترمز إليه، وهذا ما حدث في عصر الجاهلية فإن الجهل كان يضرب أطنابه فضلا عن تقليد الآباء.

المبحث الثاني: دعوى أن سبب كفر المشركين هو تشفعهم بالصالحين لعدم التزامهم بشروط الشفاعة. يدعي ابن تيمية في نظريته لتقسيم التوحيد أن دعوى ثانية مترتبة على الأولى التي سبقت، وهي أن المشركين كانوا يتشفعون بالصالحين من 1 الأنبياء والملائكة والأولياء، وقد رددنا عليها وأبطلناها بحول الله في الفصل السابق، ولكن هنا سنفرض جدلاً أن المشركين فعلاً كانوا يتشفعون بالصالحين لنرى هل سبب كفر المشركين هو تشفعهم بالصالحين لعدم التزام المشركين بشروط الشفاعة، وجملة تلك الشروط هي:

1. إذن الله للشافع أن يشفع.

2. رضا الله عن الشافع والمشفوع له.

3. قدرة الشافع على الشفاعة.

4. أن تطلب الشفاعة من الله².

هذه الشروط لم تتوفر في شفاعة المشركين، فمثلاً الشفاعة المشروعة لا تكون إلا بإذن الله للشافع فقد "ثبت بنص القرآن في غير آية: أن أحدا لا يشفع عنده إلا بإذنه. كما قال تعالى: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه}"³، بيد أن المشركين يعتقدون أن شفعاؤهم تشفع بدون إذن الله، كما أخبر الله عن المشركين "بأنهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعونهم ويتخذونهم شفعاؤهم بدون إذن الله"⁴، كما أنه "سبحانه نفى الشفاعة الشركية التي كانوا يعتقدونها وأمثالهم من المشركين، وهي شفاعة الوسائط لهم عند الله، في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم بذواتها وأنفسها بدون توقف ذلك على إذن الله ومرضاته لمن شاء أن يشفع فيه الشافع"⁵. اهـ

1 طبعاً "من" هنا تفسيرية لا تبعيضية كما هو ظاهر.

2 دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: 470)، وجهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة للغنيمة ص841.

3 مجموع الفتاوى (1/ 118)، وانظر كشف الشبهات لابن عبد الوهاب (ص: 27)

4 مجموع الفتاوى (3/ 105)

5 مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (2/ 269)، لابن القيم، دار الكتب العلمية - بيروت.

والحاصل أن الشفاعة المشروعة الثابتة للأنبياء والملائكة والأولياء مشروطة بشروط وهي إذن الله للشافع ورضاه عنه وعن المشفوع ونحو ذلك، فإذا فُقد أحد الشروط صارت الشفاعة شركاً، وهذا النوع من الشفاعة المنهي عنها هو ما وقع فيه المشركون، فلذلك صارت الشفاعة سبب كفرهم وشركهم.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: لا نسلّم بأن شفاعة المشركين هي من جنس الشفاعة المشروعة إلا أنهم لم يلتزموا بشروطها، بل ثمة فروق تُحيلها إلى شفاعة من جنس آخر.

الوجه الثاني: أن سبب كفرهم وشركهم هنا هو ادعائهم الألوهية في شفاعتهم وعبادتهم لهم من دون الله.

الوجه الثالث: أن المشركين أشركوا بقولهم بتعدد الآلهة قبل أن يطلبوا الشفاعة فكيف تكون الشفاعة سبب شركهم؟!

الوجه الرابع: أن الشفاعة التي ارتكبتها المشركون تقدح في توحيد الربوبية فضلاً عن قدحها في توحيد الألوهية.

الوجه الخامس: لا نسلم بأن من شروط الشفاعة أن تطلب من الله، ولا أن طلبها من غيره تعالى شرك.

وفيما يلي تفصيل هذه الأوجه الخمسة في مطالب خمسة، كل وجه منها في مطلب مستقل، وبالله التوفيق.

المطلب الأول: نقض دعوى أن (شفاعة المشركين هي من جنس الشفاعة المشروعة إلا أنهم لم يلتزموا

شروطها)

فنحن لا نسلّم بأن شفاعة المشركين هي من جنس الشفاعة المشروعة إلا أنهم لم يلتزموا شروطها، فهذا غير صحيح لأن شفاعة المشركين تفترق عن الشفاعة المشروعة من أربعة وجوه، تحيلها إلى شفاعة من جنس آخر سوى المشروعة، وهذه الوجوه هي ما يلي:

الأول: أنه على التسليم بأن المشركين كانوا يستشفعون بالصالحين فهم يتشفعون بهم على أنهم آلهة أو بنات الآلهة، لا على أنهم مجرد أنبياء أو ملائكة أو أولياء. قال ابن تيمية عن المشركين: وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض ولا خلق شيء؛ بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط¹. وقال أيضا: فإنهم مقرون أن آلهتهم لم يخلقوا كخلقه. وإنما كانوا يجعلونهم شفعاء ووسائط². وقال دمشقية: ولكنهم كانوا مع ذلك يتخذون من دون الله آلهة يدعونها لتكون وسيطا وشفيعا لهم³. وسيأتي بسطه بعد قليل.

الثاني: أنه على التسليم بأنهم كانوا يستشفعون بالصالحين لمجرد صلاحهم لا لكونهم آلهة، فإن الصلاح عندهم هو الشرك، ومن يقل لا إله إلا الله فهو عندهم كذاب ساحر مجنون كما دل عليه آيات كثيرة، منها قوله تعالى { وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ } [الصفات: 36]، وقد سبق أن بسطنا ذلك⁴، قال ابن تيمية "وما زال المشركون يسبون الأنبياء، ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعواهم إلى التوحيد؛ لما في أنفسهم من عظيم الشرك"⁵. آيات تدل على ذلك، وكذا حال من يدعي النبوة عندهم من البشر فهو عندهم كذاب أشرك كما سبق بيانه⁶.

1 مجموع الفتاوى (77 / 7)

2 مجموع الفتاوى (311 / 1)

3 موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 69)

4 موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 69)

5 مجموع الفتاوى (48 / 15)

6 انظر: ص (27)

الثالث: أن الشفاعة المشروعة المقصد منها أخروي، وأما الشفاعة عند المشركين فالمقصد منها دنيوي، وبيان ذلك أن الشفاعة يقصد بها أن يعفو الله عن بعض الناس أو يخفف عنهم العذاب يوم القيامة، أو يرفع درجاتهم في الجنة، كل ذلك بشفاعة الأنبياء والأولياء والملائكة، أي أن المقصد منها أخروي لا دنيوي، وأما المشركون فمقصدهم بالشفاعة هو ملذات دنيوية محضة لأنهم كانوا ينكرون الآخرة أصلاً، فهم يريدون من الأصنام أن تشفع لهم عند الله ليزيدهم أموالاً وأولاداً وجاهاً وسلطاناً، ونحو ذلك ليستمتعوا به كله، ويفخروا ويتكبروا به على الناس ويغوا عليهم، ورأوا أن هذا العطاء من الله لهم دليل رضا الله عنهم! وظنوا أن كثرة ذلك تقرب إلى الله! ولذلك ردّ الله عليهم، قائلاً { وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا } [سبأ: 37]، قال ابن كثير: عبادتهم الملائكة ليشفَعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به¹. اهـ

وقال ابن أبي زمنين في تفسيره في (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله): أي أن الأوثان تشفع لهم - زعموا - عند الله؛ ليصلح لهم معاشهم في الدنيا². اهـ، وقال أيضاً في قوله { أم اتخذوا من دون الله شفعاء }، أي: قد اتخذوهم؛ ليشفَعوا لهم زعموا ذلك لديناهم ليصلحها لهم، ولا يقرون بالآخرة³. وقال السمعاني في تفسيره: فإن قال قائل: كيف قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله وهم لا يؤمنون بالبعث؟ الجواب: أنهم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله في مصالح معاشنا في الدنيا. اهـ وبالتالي فزعم ابن عبد الوهاب وهو يرد على خصومهم المسلمين بأن استشفاعهم هو عين استشفاع المشركين "سواء بسواء"⁴: زعم باطل كما صار واضحاً.

¹ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (12 / 111)، وشبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 1004

² تفسير ابن أبي زمنين (/ 248)

³ تفسير ابن أبي زمنين (4 / 114)

⁴ كشف الشبهات لابن عبد الوهاب (ص: 25)

المطلب الثاني: بيان أن سبب شركهم هنا هو ادعاؤهم الألوهية في شفعاتهم

إن سبب كفرهم وشركهم هنا . أي في تشفعهم . هو ادعاؤهم الألوهية في شفعاتهم وعبادتهم لهم من دون الله، وبيان ذلك: أنه على فرض أن المشركين كانوا يتشفعون بالأنبياء ونحو ذلك فإن سبب كفرهم هنا هو أمران؛ الأول: أنهم ادّعوا في هؤلاء الذين تشفعوا فيهم الألوهية! وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى: { أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ } [يس: 23]، الثاني: أنهم عبدوا الشفعاء من دون الله ليشفعوا لهم كما قال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس : 18]، وكلا الأمرين كفر عظيم وشرك أكبر، وهو الذي كان يجب أن تربطوا به كفرهم في هذا الباب، وأما أن تتجاهلوا ذلك وتعرضوا عنه ثم تعلقوا كفرهم بقضية أن شفاعتهم لم تتوفر شروطها السابقة من إذن الله للشافع ورضاه عنه وعن المشفوع ونحو ذلك: فهذا عجيب غريب! لأن هذه الشروط قصارى أمرها أن تكون من أجل قبول الشفاعة، وأنه بدونها لا تقبل الشفاعة ولا تنفع كما قال تعالى: { يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا } [طه: 109] ونحوه قوله { وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } [سبأ: 23]، فصَّ على أن الشفاعة لا تنفع بغير إذن الله، وهذا لا يقتضي بحال أنها كفر إذا لم تكن بإذن الله، هذا فيما يتعلق بشرط الإذن، وأما شرط رضا الله عن الشافع، فقد قال تعالى { وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [الزخرف: 86]، وقال تعالى { لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } [مريم: 87]، فنصَّ على أن الشفاعة تكون لمن يقول الحق ويرضى عنه الله وليس في ذلك أن مجرد التشفع بمن لا يرضى الله عنه كفرٌ أو شرك.

فمجرد فقدان شرط من شروط الشفاعة المشروعة يجعلها غير مقبولة فحسب، ولا يحيلها بالضرورة إلى كفر وشرك، وهذا ما صرَّح به بعض السلفية فقال بعد أن عدّد شروط الشفاعة السابقة "وأما الشفاعة المنفيّة فهي التي يتخلف عنها أحد شروط الشفاعة المثبتة، أو كل شروطها، فعلى سبيل المثال: لو توافرت جميع شروط الشفاعة إلا إذن الله للشافع أن يشفع لما صحت الشفاعة، ولما قبلت، فلا تكون شفاعة الشافعين مقبولة إلا إذا كانت بإذن الله - عز وجل -، وما وقع بغير إذنه لم يقبل، ولم

ينفع، وإن كان الشفيع عظيماً¹. اه وأما اتخاذ الشفعاء آلهة أو عبادتهم من دون الله فهذا يحيل الشفاعة إلى كفر وشرك قطعاً.

وقال الطبري: وأما قوله: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} يعني بذلك: من ذا الذي يشفع لمماليكه إن أراد عقوبتهم إلا أن يخليه، ويأذن له بالشفاعة لهم، وإنما قال ذلك تعالى ذكره لأن المشركين قالوا: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فقال الله تعالى ذكره لهم: لي ما في السماوات وما في الأرض مع السماوات والأرض ملك، فلا تنبغي العبادة لغيري، فلا تعبدوا الأوثان التي تزعمون أنها تقربكم مني زلفى، فإنها لا تنفعكم عندي ولا تغني عنكم شيئاً، ولا يشفع عندي أحد لأحد إلا بتخليتي إياه والشفاعة لمن يشفع له من رسلي وأوليائي وأهل طاعتي². اه

فتأمل قول الطبري "فلا تعبدوا الأوثان التي تزعمون أنها تقربكم مني زلفى"، كيف ركّز هنا على قضية مكفّرة، وهي أنهم عبدوا أوثانهم ثم زعموا أنها تشفع لهم، وليس على قضية الإذن في الشفاعة من عدمه، ونحوه ما ذكره ابن القيم من أن الشفاعة الشرعية تكون بـ "تجريد التوحيد عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تُنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء، وعبادتهم ومولاتهم من دون الله"³. اه فتأمل قوله "وعبادتهم".

اعتقاد المشركين أن الشفعاء تشفع بغير إذنه هو أمر باطل، ولكن الأشد بطلاناً هو تأليهم للشفعاء وعبادتهم له، فهذا كفر محقق دون أدنى ريب، بخلاف قضية أن الشفعاء تشفع بغير إذن الله: فهذا يمكن أن يقال مجرد فسق لا يكفر به صاحبه، فإن بعض فرق المسلمين تقول بوقوع أشياء في الكون بغير إذن الله فمثلاً "تقول المعتزلة: إن الإنسان يخلق فعل نفسه، والله عز وجل لم يخلق في الإنسان الشرّ، ولم يرد منه أن يفعل الشرّ، وإنما الإنسان هو الذي يخلق المعاصي ويخلق فعل نفسه"⁴. ويقولون

1 دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية - عرض ونقد (ص: 470)

2 جامع البيان ط هجر (4/ 535)

3 مدارج السالكين (1/ 349)

4 شرح الطحاوية لسفر الحوالي (ص: 629)

"إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله تعالى"¹، ومع ذلك فإن السلفية لم "يكفروا من أثبت العلم ولم يثبت خلق الأفعال"².

أو يقال: هذا. أي أن الشفعاء تشفع بغير إذن الله. إنما يقدح في توحيد الربوبية كما سبق بيانه³، وكما سيأتي أيضاً، لذلك شكك بعض السلفية في قضية أن المشركين يعتقدون أن شفعاءهم تشفع بغير إذن الله وفي ذلك يقول المعلمي اليماني: لعلهم كانوا يعتقدون أن شفاعتهم تنفع وإن لم يرض الله عز وجل؟ كلاً، فإنها حينئذ لا تكون شفاعة بل تكون أمراً وإلزاماً. وأيضاً فاعترفهم بأنه سبحانه يجير ولا يجار عليه يُبطلُ هذا. فلعلمهم يقولون: إن الباري عز وجل لا بد أن يقبل إكراماً للملائكة، وإن كان هو غير راض؟ كلاً، فإنهم يعترفون بأنه تعالى بيده ملكوت كل شيء، ومن بيده ملكوت كل شيء لا يكون محتاجاً إلى أحد حتى يقبل شفاعته مُكرهاً⁴. اهـ وقال أيضاً: والمشركون يسلمون أنه لا يشفع أحد عنده بغير إذنه، ولكنهم يتوهمون أنه سبحانه قد أذن للمقرّبين في الشفاعة إذناً عاماً، فدفع سبحانه وتعالى ذلك بقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}⁵. اهـ

وحاصل كلام المعلمي هذا أن المشركين لا يعتقدون أن الشفاعة تتم بدون إذن الله تعالى، طبعاً هذا يخالف ما ذهب إليه ابن تيمية وابن القيم من أن المشركين كانوا يعتقدون أن الشفاعة تتم بغير إذن الله تعالى: وفي ذلك يقول ابن تيمية: فإنه سبحانه أخبر عن المشركين كما تقدم بأنهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعونهم ويتخذونهم شفعاء بدون إذن الله⁶. اهـ وقال ابن القيم: فإنه سبحانه نفى الشفاعة الشركية التي كانوا يعتقدونها وأمثالهم من المشركين، وهي شفاعة الوسائط لهم عند الله في جلب ما ينفعهم ودفع

¹ مجموع الفتاوى (258 / 8)

² مجموع الفتاوى (352 / 3)

³ انظر: ص (337) عند قولي: (وأَنْفَسَهَا بدون توقف)

⁴ آثار الشيخ المعلمي اليماني (517 / 2)

⁵ آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (52 / 2)

⁶ مجموع الفتاوى (105 / 3)

ما يضرهم بدواتها وأنفسها بدون توقف ذلك على إذن الله ومرضاته لمن شاء أن يشفع فيه الشافع¹. اهـ

ومهما يكن من أمر فإن ابن تيمية وأتباعه مختلفون في مسألة هل المشركون يعتقدون أن شفاعة آلهتهم تتم بغير إذنه تعالى، وبالتالي فهل يُنات كُفر المشركين في استشفاعهم لكونهم اعتقدوا أن الشفاعة تكون بغير إذن الله التي هي أصلاً محلّ خلاف بين ابن تيمية وأتباعه كما رأينا، أو يُنات كفرهم في كونهم يقولون بأن هؤلاء الشفعاء هم آلهة لهم؟! لا شك أن الثاني هو الصواب، إذ مجرد قول المشركين بأن أولئك الشفعاء آلهة لهم: كفرٌ بجد ذاته حتى ولو لم يتشفعوا بهم، فما بالك إذا استتبع ذلك عبادتهم من دون الله فهذا كفر آخر، وكلا الأمرين لم تعرجوا عليه، وذهبتكم تتكلمون عن شروط الشفاعة المقبولة، وتزعمون أن فقدان أحدها يُحيل الشفاعة إلى شرك وكفر!

وهذا عجيب.. فكيف يكون عدم إذن الله بالشفاعة أو عدم رضاه عن الشافع أو المشفوع له سبباً لأن تتحول الشفاعة برمتها إلى شفاعة شركية كفرية ولا يكون الادعاء بأن أولئك الشفعاء آلهة وعبادتهم من دون الله: شركاً وكفراً؟!

والحاصل أن سبب كفر المشركين في استشفاعهم هو ادعاؤهم ألوهية الشفعاء أولاً، ثم عبادتهم لهم ثانياً، فهما أمران جعلاً شفاعتهم شركاً وكفراً، وهذان الأمران كلّ منهما بحد ذاته كفر وشرك بغض النظر سواء حصل تشفع أم لم يحصل من المشركين، بمعنى أن مجرد ادعاء المشركين الألوهية في أحد غير الله أو عبادته من دون الله: هو بحد ذاته كفر وشرك منهم، وسواء بعد ذلك استشفعوا بهم أم لم يستشفعوا بهم، الأمر سيّان، إذ مناط الكفر والشرك هنا ليس في الشفاعة، وإنما بادعاء أن الشفعاء آلهة ثم عبادتهم من دون الله. وإليكم تقرير ذلك من الآيات وأقوال العلماء.

1 مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (2/ 269)، لابن القيم، دار الكتب العلمية - بيروت.

الآيات التي تبين أن سبب كفرهم ليس هو التشفع وإنما اتخاذ الشفعاء آلهة وعبادتهم من دون الله

كما نص عليه المفسرون

الآية الأولى: قال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [يونس : 18]. وفيما يلي أقوال المفسرين في الآية:

1) أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عكرمة قال: قال النضر بن الحارث إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى قال فأنزل الله: ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله¹.

2) قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ويعبد هؤلاء المشركون الذين وصفت لك يا محمد صفتهم من دون الله الذي لا يضرهم شيئا ولا ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك هو الآلهة والأصنام التي كانوا يعبدونها. {ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله}، يعني أنهم كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند الله.. أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض؛ وذلك أن الآلهة لا تشفع لهم عند الله في السماوات ولا في الأرض.. {سبحانه وتعالى عما يشركون}، يقول: تنزيها لله وعلوا عما يفعله هؤلاء المشركون من إشراكهم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع وافترائهم عليه الكذب². اهـ

3) وقال البغوي: {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم} إن عصوه وتركوا عبادته، {ولا ينفعهم} إن عبده، يعني: الأصنام، {ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أنتبئون الله} أتخبرون الله، {بما لا يعلم} الله صحته. ومعنى الآية: أتخبرون الله أن له شريكا، أو عنده شفيعا بغير إذنه، ولا يعلم الله لنفسه شريكا؟!³

1 تفسير ابن أبي حاتم (6/ 1936)، الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (7/ 638)

2 جامع البيان ط هجر (12/ 142)

3 تفسير البغوي (4/ 126)

4) وقال السمعاني: كيف قال: {ولا يضرهم} ولا شك أنه ضرهم؟ الجواب عنه معناه: لا يضرهم إن تركوا عبادته، ولا ينفعهم إن عبدوه¹. اهـ

5) وقال القرطبي: (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله)، وهذه غاية الجهالة منهم، حيث ينتظرون الشفاعة في المال ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال.. وقيل: المعنى أي يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميز، "ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله" فيكذبون، وهل يتهياً لكم أن تتبعوه بما لا يعلم(2). اهـ.

6) وقال ابن تيمية: فإن المشركين المقرين بأنه رب كل شيء كانوا يتخذون آلهة يستجلبون بعبادتها المنافع ويستدفعون بها المضار ويتخذونها وسائل تقربهم إليه وشفعاء يستشفعون بها إليه³. اهـ ثم استشهد على ذلك بعدة آيات منها آية يونس هذه.

7) وقال دمشقية مستشهدا بآية يونس: يتخذون من دون الله آلهة يدعونها لتكون وسيطا وشفيعا لهم عند الله⁴.

فتأمل آية يونس وأقوال المفسرين والعلماء فيها بمن فيهم ابن تيمية وأتباعه، فستجد أن الإنكار فيها على المشركين ليس لمجرد تشفعهم، وإنما لسببين زائدين عليه:

الأول: أنهم اتخذوا الشفعاء آلهة وعبدوها كما قال "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ"، وإنما عبدوها لتشفع لهم كما قال الطبري "كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند الله"، وهو ما أشار إليه القرطبي بقوله "أي يعبدون ما لا يسمع"، وقال البغوي "{ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم} إن عصوه وتركوا عبادته، {ولا ينفعهم} إن عبدوه، يعني: الأصنام"، وقال ابن تيمية "كانوا يتخذون آلهة يستجلبون بعبادتها المنافع.. ونحوه قول دمشقية "يتخذون من دون الله آلهة".

1 تفسير السمعاني (2/ 372)

2) تفسير القرطبي، ط/ الرسالة - (10 / 470، 471)، وانظر: جامع البيان (15 / 46)

3 درة تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7 / 391)

4 موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 69)

الثاني: ادّعوا لها الشفاعة مع أنه لا شفاعة عند الله لأنها مجرد حجارة هم نحتوها كما قال { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصفات: 95]، ثم ادّعوا أنها آلهة وشفعاء وراحوا يتشفعون بها، وهذا كله افتراء منهم وشيء لا وجود له أصلاً، لذلك قال تعالى هنا في آية الزمر: "وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ"، قال الطبري "أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض؛ وذلك أن الآلهة لا تشفع لهم عند الله في السماوات ولا في الأرض، وكان المشركون يزعمون أنها تشفع لهم عند الله.. وذلك باطل لا تعلم حقيقته وصحته، بل يعلم الله أن ذلك خلاف ما تقولون، وأنها لا تشفع لأحد ولا تنفع ولا تضر". وقال القرطبي: "وهذه غاية الجهالة منهم، حيث ينتظرون الشفاعة في المال ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال".

وهذا كله بخلاف الشفاعة المشروعة فهي بالصلحين حتى ولو عبّدوا، وليس الشفاعة بالحجارة كما يفعل المشركون، بدليل قوله تعالى: { وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [الزخرف: 86]، قال قتادة: "الملائكة وعيسى وعزير، قد عبّدوا من دون الله ولهم شفاعة عند الله ومنزلة" (1). وقد جاء هذا صريحاً في قوله تعالى عن الملائكة: { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ } [الأنبياء: 28] قال الطبري: فأثبت جل ثناؤه للملائكة وعيسى وعزير ملكهم من الشفاعة ما نفاه عن الآلهة والأوثان باستثنائه الذي استثناه (2). وقال القرطبي في قوله تعالى: (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه): وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء في الشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممن أكرمهم وشرفهم الله، ثم لا يشفعون إلا لمن ارتضى (3).

وختمت آية يونس بقوله { سبحانه وتعالى عما يشركون } لتنفيذ بطلان كلا الأمرين؛ وهما عبادتهم لها وادعائهم أن لها الشفاعة، وفي ذلك يقول الطبري "تنزيهاً لله وعلواً عما يفعله هؤلاء المشركون من إشراكهم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع وافتراءهم عليه الكذب".

(1) جامع البيان (21 / 654)

(2) جامع البيان (21 / 655)

(3) تفسير القرطبي ط الرسالة - (4 / 271)

الآية الثانية: {أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوُ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الزمر: 43، 44]، وفيما يلي أقوال المفسرين:

(1) أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله "أم اتخذوا من دون الله شفعاء"، قال: الآلهة¹.
 (2) قال الطبري: أم اتخذ هؤلاء المشركون بالله من دونه آلهتهم التي يعبدونها شفعاء تشفع لهم عند الله في حاجاتهم². اهـ. فبيّن الطبري ومن قبله قتادة أن الإنكار عليهم هنا لا اتخاذهم الشفعاء آلهة.

(3) قال السمعاني: قوله تعالى: {أم اتخذوا من دون الله شفعاء}، أي: أصناما تشفع لهم، وهذا على طريق الإنكار والتوبيخ. وقوله: {قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون} أي: طلبوا الشفاعة ممن لا يملك شيئا ولا يعقل³.

(4) قال ابن أبي زمنين: {أم اتخذوا من دون الله شفعاء}، أي: قد اتخذوهم؛ ليشفعوا لهم زعموا ذلك لذيابهم ليصلحها لهم ولا يقرون بالآخرة {قل} يا مُجَّد: {أو لو كانوا} يعني: أوثانهم {لا يملكون شيئا ولا يعقلون}، أي: أنهم لا يملكون شيئا ولا يعقلون.. {قل لله الشفاعة جميعا}، أي: لا يشفع أحد يوم القيامة إلا بإذنه، يأذن لمن يشاء من الملائكة والأنبياء والمؤمنين أن يشفعوا للمؤمنين فيشفعهم فيهم⁴. اهـ. فبيّن أن الإنكار هنا إنما لاستشفاعهم بأوثان وحجارة ليتوصلوا بها إلى ملذات دنيوية، وهذا بخلاف التشفع بالصالحين للزلفى في الآخرة.

(5) قال البغوي: {أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل} يا مُجَّد، {أولو كانوا} وإن كانوا يعني الآلهة، {لا يملكون شيئا} من الشفاعة، {ولا يعقلون} أنكم تعبدوهم. اهـ. فبيّن أن الإنكار عليهم لكونهم اتخذوا الشفعاء آلهة من دون الله وعبدوهم.

¹ الدر المنثور للسيوطي، ط/هجر (12/ 666)

² جامع البيان ط هجر (20/ 216)

³ تفسير السمعياني (4/ 471)

⁴ تفسير ابن أبي زمنين (4/ 114)

والحاصل أن الإنكار عليهم في آية الزمر ليس مجرد الشفاعة، بل لاتخاذهم الأصنام والأوثان
والجمادات التي لا تعقل: شفعاء، ثم ادعوا أنها آلهة وعبدوها من دون الله.

المطلب الثالث: وقوع المشركين في الشرك بمجرد قولهم بتعدد الآلهة حتى ولو لم يتشفعوا بها

لقد وقع المشركون في الشرك والكفر بمجرد قولهم بتعدد الآلهة قبل أن يطلبوا الشفاعة منها، فكيف تكون الشفاعة سبب شركهم؟! وبيان ذلك؛ أنكم اشتراطتم في الشفاعة المشروعة رضا الله عن المشفوع له، وهذا يتضمن أن يكون المستشفع أو المشفوع له موحدًا لا مشركًا، وهذا ما صرحتم به، فذكرتم أنه من شروط ((الشفاعة الصحيحة.. أن تكون في أهل التوحيد والإخلاص. وفي حديث أبي هريرة .. "أسعد الناس بشفاعتي: من قال: لا إله إلا الله؛ خالصاً من قلبه"1))، "ولا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون؛ دون أهل الشرك"2، بل "إن سبب الشفاعة الوحيد هو تجريد التوحيد، وحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع"3. وإذا كان الأمر كذلك فالسبب في عدم قبول شفاعة المشركين هو كونهم مشركين أصلاً غير موحدين لأنهم يقولون بتعدد الآلهة، وبالتالي فهم مشركون قبل أن يتشفعوا فكيف تقولون إن الشفاعة هي سبب شركهم!؟

يقول الطبري في قوله تعالى: {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} : والله لا يأذن لأحد من أوليائه في الشفاعة لأحد من الكفرة به، وأنتم أهل كفر به أيها المشركون، فكيف تعبدون من تعبدونه من دون الله زعمًا منكم أنكم تعبدونه ليقربكم إلى الله زلفى وليشفع لكم عند ربكم4. اهـ

فإن قلتم: إن استشفاع المشركين دون شروط الشفاعة المشروعة هو عين تأليه الشفعاء، قلنا: سبق أن أجبنا عن ذلك.

المطلب الرابع: بيان أن تشفع المشركين بالأصنام قاذح في توحيد الربوبية والألوهية معا

إن الشفاعة التي ارتكبتها المشركون تقذح في توحيد الربوبية فضلاً عن قذحها في توحيد الألوهية، وبيان ذلك أنكم اشتراطتم في الشفاعة المثبتة الشرعية من إذن الله للشافع، وأن الشفاعة الشركية المنفيّة هي التي تكون بغير إذن الله، فهذا شيء لا يقذح في الشفاعة ولا في ما تسمونه بتوحيد الألوهية فحسب

1 إغاثة المستفيد شرح كتاب التوحيد (1/ 343)

2 مجموع الفتاوى (1/ 153)

3 مباحث العقيدة في سورة الزمر (ص: 311)

4 جامع البيان ت شاکر (20/ 395)

بل يقدح في ما تسمونه توحيد الربوبية الذي يتضمن ألا يكون شيء في الكون إلا بإذنه تعالى، وبالتالي فإن الشفاعة التي يعتقد المشركون في آلهتهم أنها تشفع بغير إذن الله هي شرك منهم في الربوبية، وهذا يُبطل قولكم بأنهم موحدون في الربوبية. وفيما يلي نصوص ابن تيمية وأتباعه في بيان ذلك:

(1) وقال ابن تيمية: فإنه سبحانه أخبر عن المشركين كما تقدم بأنهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعوهم، ويتخذونهم شفعا بدون إذن الله¹. اهـ

(2) وقال ابن القيم: وقوله لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا فإنه سبحانه نفى الشفاعة الشركية التي كانوا يعتقدونها وأمثالهم من المشركين وهي شفاعة الوسائط لهم عند الله في جلب ما ينفعهم، ودفع ما يضرهم بدواتها وأنفسها بدون توقف ذلك على إذن الله ومرضاته لمن شاء أن يشفع فيه الشافع². اهـ

(3) قال ابن القيم: "نفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه"³.

(4) قال أبو بكر زكريا وهو يتكلم عن الشفاعة الشركية المنفية التي "ظنها المشركون في الجاهلية"، وهي اعتقاد للشفعاء "لهم حقا عنده يوجب عليه الإجابة فيمن يشفعون فيه عنده، وإن كان يكره شفاعتهم، ويشفعون بغير إذنه، فهذه الشفاعة التي نفاها الله.. وهذا النوع الشركي وهو الذي أشرك به من أشرك بالله واتخذ وسائط يسألهم الشفاعة.. وذلك لا شك تنقص لربوبية الله وتقييد لمشيئته وإرادته سبحانه وتعالى"⁴.

وحاصل هذه النصوص أن المشركين كانوا يعتقدون في آلهتهم أنها تشفع بغير إذن الله، وهذا شرك في توحيد الربوبية كما سبق، فليس شركهم هنا لمجرد استشفاعهم بل لمعنى زائد وهو أنهم أعطوا شفعا لهم قدرات خارقة خارجة عن إذن الله، وهذا ينسجم مع ادعائهم الألوهية في شفعاتهم، ومهما يكن من أمر

1 مجموع الفتاوى (3/ 105)

2 مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (2/ 269)، لابن القيم، دار الكتب العلمية - بيروت.

3 مدارج السالكين - ابن القيم (1/ 258)

4 الشرك في القديم والحديث ص 1238، 1239

فإن اعتقاد أن شيئاً في الكون يُفعل بغير إذن الله هو قدح في توحيد الربوبية، إذ توحيد الربوبية هو . كما يقول ابن تيمية . الاعتقاد "أنه لا خالق إلا الله، فلا يستقلّ شيء سواه بإحداث أمر من الأمور؛ بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن"¹، وليس هو قدحا فيما يسمى بتوحيد الألوهية.

وسواء بعد ذلك استشفع أم لم يستشفع فالأمران سيان، فالمحذور حدث بالشفاعة وبدونها، وهو اعتقاد أن شيئاً ما يفعل بغير إذن الله، هذا فضلا عن محاذير أخرى هي خلل في عقيدة المشركين في الله لا علاقة لها بالشفاعة، وإنما استشفاعهم كشف عن ذلك الخلل، فاستشفاعهم كاشف لذلك الخلل ونتيجة له وليس مسيِّبا له.

وهذا الخلل أشارت له نصوص السلفية السابقة، منها قول ابن القيم: فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع.. فنفي الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك. اهـ فهنا ذكر أن المشرك يعتقد في غير الله النفع والملك والشركة والمظاهرة فضلا عن الشفاعة، وهذا الاعتقاد كما ترى قدح في الربوبية.

ومنها ما قاله أبو بكر زكريا وهو يتحدث عن أن استشفاع أهل الجاهلية هو :.. كما يشفع عند الملك ابنه أو أخوه أو أعوانه أو نظرائه الذين يخافهم ويرجوهم، فيجيب سؤاله لأجل رجائه أو خوفه منهم. اهـ وهذا معناه أن المشركين يعتقدون أن الله يخشى من شفعاتهم ويرجوهم، ولذلك يجيب شفاعتهم.. واعتقاد أن الله يخشى أحدا أو يرجو أحدا هو كفر بحد ذاته، وسواء حدث استشفاع بعد ذلك أو لم يحدث، سيان.

المطلب الخامس: نقض الزعم بأن المشركين وقعوا في الشرك لطلبهم الشفاعة من غيره تعالى

نحن لا نسلّم بأن من شروط الشفاعة أن تطلب من الله، وأن طلبها من غيره تعالى شرك! وبيان ذلك أن السلفية زعموا أن من شروط الشفاعة أن تُطلب من الله، ولكن المشركين طلبوها من غيره وهذا بحد ذاته شرك وكفر، وفيما يلي نصوص السلفية في ذلك:

1) يقول ابن تيمية: والمشركون من هؤلاء قد يقولون: إنا نستشفع بهم أي.. فيقول أحدهم: يا سيدي.. اشفع لي إلى ربك.. اشفع لي إلى الله.. أو يقول أحدهم: سل الله أن يغفر لي.. فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم.. هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين"¹.

2) وذكر ابن تيمية أيضا بأن من يستقبل قبر النبي ﷺ "ويستشفع به يقول له يا رسول الله، اشفع لي أو ادع لي.. أو من غيره من الموتى من الأنبياء والصالحين أو من الملائكة الذين لا يراهم أن يشفعوا له أو يشتكي إليهم المصائب، فإن هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة"².

3) وقال ابن عبد الوهاب: "..تبين لك أن الشفاعة كلها لله، فأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته.. فصحّ أن الملائكة يشفعون والأولياء يشفعون.. أتقول: إن الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم؟ فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكر الله في كتابه"³!! وبيان ذلك أن سؤال "الشفاعة من النبي ﷺ لأنه أعطى سبيل لسؤال الملائكة وسبيل لسؤال الصالحين الذين أعطوا الشفاعة، وبالتالي يقع العبد فيما وقع فيه المشركون الأوائل الذين عبدوا الملائكة والجن والصالحين بدعوى.. قولهم: {هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}"⁴، فإن شرك أولئك المشركين "ليست أكثر من طلبهم منهم الشفاعة، والذبح لهم لقصد تقريبتهم إلى الله وطلب شفاعتهم لا غير"⁵ "فنصير إذن والمشركين الأولين في طريق واحد، وحال واحد، ولم نفترق إلا بالأسماء الظاهرة"⁽⁶⁾، وبالتالي فمن "قال: الكفار يريدون منهم وأنا أشهد أن الله هو

1 مجموع الفتاوى (158 / 1)

2 مجموع الفتاوى (233 / 1)

3 وفي ذلك يقول ابن عبد الوهاب في كشف الشبهات (ص: 24).

4 شرح كشف الشبهات لخالد المصلح (7 / 5، ت. ش)

5 شرح كشف الشبهات لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص: 77)

(6) جهود علماء الحنفية - (3 / 1423)

النافع الضارّ المدبر، لا أريد إلا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء، ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم. فالجواب أن هذا قول الكفار سواء بسواء.. تعالى: { وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ }¹.

4) وقال العبد اللطيف: (ولو قال: يا ولي الله اشفع لي، فإن نفس السؤال محرم، وطلب الشفاعة منهم يشبه قول النصارى، يا والدة الإلهة اشفعي لنا إلى الإله. وقد أجمع المسلمون أن هذا شرك)².

5) وذكر الأفغاني أنه لو قال "يا فلان الولي: اشفع لي عند الله أن يقضي حاجتي.. فهذا.. ليس من التوسل.. بل هو استغاثة بالميت.. وهو إشراك صريح بالله تعالى. بل هو أتم لعدة أنواع من الشرك بالله تعالى"³.

وحاصل ما سبق أنّ من مشركي العرب من كانوا يطلبون الشفاعة من غير الله كالأموات من الأنبياء والأولياء، ومن الغائبين كالملائكة، وأنهم كفروا وأشركوا بهذا النوع من الشفاعة لكونهم طلبوا الشفاعة من غير الله!

والجواب: أولاً: سبق أن بيّنا أن المشركين إنما يعبدون ويتشفعون بالأصنام والأوثان التي نحتوها بأيديهم، ولم يكونوا يقرون بالأنبياء أصلاً، بل كانوا منكرين ومعادين لهم ولأتباعهم فضلاً عن أنهم كانوا يتشاءمون بهم كما قال تعالى { قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ }، فمن أين يتشفعون بهم؟! وأما الأولياء فهم صفوة أتباع الأنبياء فالمشركون منكرون ومعادون لهم من باب أولى ما داموا منكرين للأنبياء أنفسهم.

ثانياً: لئن سلّمنا جدلاً بأن المشركين كانوا يتشفعون بالأموات والغائبين من الأنبياء والأولياء والملائكة وأن أحدهم كان يقول: يا نبي الله، أو يا ولي الله، أو يا ملائكة الله، اشفعوا لي، ونحو ذلك، فهم يتشفعون بالأنبياء والأولياء على أنهم آلهة يعبدونها من دون الله كما صرّحوا بذلك كما في قوله:

1 دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 287)، نقلًا منه عن "مجموعة مؤلفات الشيخ، 1/161.

2 دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 296)

3 جهود علماء الحنفية (3/1484)

{ وَيَقُولُونَ أَيُّنَّا لَتَارِكُو آهْتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ } [الصفات: 36] وقوله { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس: 18]، وأما الملائكة فكانوا يتشفعون بها ويعبدونها على أنها بنات الله كما سبق بيانه¹، وبالتالي فكفرهم هنا ليس بسبب أنهم تشفَعوا بأموات أو غائبين، وإنما لأنهم ادَّعوا فيمن يستشفعون بهم أنهم آلهة أو أنهم بنات الله وليس على أنهم مجرد أنبياء وأولياء وصالحين وملائكة، غائبين كانوا أو حاضرين، أمواتا كانوا أو أحياء!!

ثالثا: فإن قلتم: قولهم "يا نبي الله اشفع لي ونحو ذلك" هو بحد ذاته تأليه وعبادة لهم؛ لأن هذا دعاء للغائب أو الميت، و"دعاء غير الله تأليه لغير الله"²، "فإذا كان دعاء غير الله تأليها لغير الله"³، فهذا يعني أنهم كفروا ولو لم يقولوا عن الأصنام آلهة. قلنا: هذا لا يفيدكم لأنه مجرد افتراض لم يقع من المشركين، وإنما الذي وقع هو أن المشركين كانوا يطلقون كلمة الآلهة على من يستشفعون بهم، فهل كُفروهم وشركهم هنا هو من أجل أنهم استشفَعوا بالأموات والغائبين، أو لأنهم ادَّعوا الألوهية فيمن استشفَعوا به؟!؟

إن قلتم بالثاني. وهو أنهم ادَّعوا الألوهية فيمن استشفَعوا به. فلا نزاع، وإن قلتم بالأول وهو أن علّة كفرهم ليست هي ادعاءهم ألوهية من استشفَعوا به، بل كُفروهم وشركهم من أجل أنهم استشفَعوا بالأموات والغائبين، بحجة أن هذا بحد ذاته تأليه للأموات والغائبين: فقد أحلتم المسألة! إذ أنتم لم تعدوا نفس قول المشركين عن شفعايم بأها آلهة: كفرا ولا شركا، فكيف تعدون استشفاعهم بالغائبين والأموات كفرا وشركا، بحجة أن هذا بمنزلة تأليهم! أي أن قولهم عن الأصنام آلهة: ليس كفرا، وأما ما هو بمنزلة التأليه فهو كفر!! فكيف تعطون للمشبّه. وهو دعاء الأموات. حُكما أغلظ مما تعطونه للمشبه به. وهو القول بألوهية غير الله.؟!؟

نعم لو أتيتم بدليل من الكتاب أو السنة أن مشركا من المشركين قال لا إله إلا الله ولا أعبد سواه ثم قال مثلا "يا نبي الله أو يا ولي الله اشفع لي" مخاطبا بذلك ملكا أو نبيا أو وليا غائبا أو ميتا، فكفره

¹ انظر: ص (471) عند قولي: (فالعبادة موجهة إلى صفة البنتية)

² موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 43، 41، 66)

³ موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 63)

الله أو رسوله بذلك، فحينها يصح قولكم إن مجرد طلب الشفاعة من الغائب أو الميت: كفر وشرك، وإن هذا الطلب بحد ذاته تأليه وعبادة لغير الله، ولكن أدلتكم التي تأتون بها كلها تتحدث عن المشركين الذين كانوا أصلاً يرفضون قول لا إله إلا الله، ويعبدون الآلهة ويتخذون الأوثان آلهة من دون الله، فمهما أتيتم بتلك الأدلة واستدلتم بها على أن مجرد طلب الشفاعة من الأموات والغائبين كفر وشرك، وأن هذا هو السبب الوحيد لكفر المشركين، فحينها سيقال لكم: هؤلاء سبب كفرهم وشركهم هو ادعائهم الألوهية فيمن استشفعوا به، لا مجرد الاستشفاع بالغائبين أو بالأموات.

رابعاً: أما زعمكم أنه قد "أجمع المسلمون أن هذا شرك"، أي أجمعوا على أن طلب الشفاعة من غير الله لاسيما من الغائبين والأموات: شرك، فهذا مما تضحك منه الثكلى، بل لو قيل إن الإجماع على عكسه لما كان بعيداً؛ لأنّ ثمة نصوصاً كثيرة جداً للفقهاء والعلماء من شتى المذاهب تفيد جواز ذلك، بل إن طلب الشفاعة منه ﷺ في الدنيا ثابت في السنة، يدل على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: "كنت أبيت مع رسول الله فأتيته بوضوءه وحاجته، فقال لي: سل. فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة؟ قال: أو غير ذلك. قلت: هو ذاك. قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود". قال المعلمي: الحديث في صحيح مسلم هكذا مختصراً. وقد أخرجه الإمام أحمد في المسند مطوّلاً، وفيه: فقلت: يا رسول الله: "اشفع لي إلى ربك عز وجل، فليعتقني من النار". وفي رواية أخرى: أسألك يا رسول الله أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار. وفيه: فقال: "إني فاعل، فأعني على نفسك بكثرة السجود". فالنبي ﷺ أراد أن يكافئ ربيعة لخدمته إيّاه، فأمره بسؤال حاجته، فسأله الدعاء له بمرافقته في الجنة أو بالإعتاق من النار، فكأن النبي ﷺ تردّد في استحقاق ربيعة للمرافقة حينئذ، فقال له: "أو غير ذلك"، أي: سل شيئاً غير ذلك، فلما أبي، قال ﷺ: "إني فاعل، فأعني على نفسك بكثرة السجود"، أي: حتى تستحق ذلك أو تقارب الاستحقاق، وذلك أنه ﷺ لم يكن يدعو لأحد بما لا يستحقه أصلاً وإن سأله؛ فقد روي أن قاتلاً سأل النبي ﷺ أن يستغفر له، فقال: "لا غفر الله لك"¹.

اه

¹ آثار المعلمي اليماني (3/ 777)

قلت: فهذا ربعة قد سأل النبي ﷺ أن يرافقه في الجنة وهذا معنى الشفاعة، وقد جاء ذلك صريحاً عند أحمد في مسنده بلفظ "حاجتي أن تشفع لي يوم القيامة" ⁽¹⁾، فلم يُنكر عليه النبي ﷺ، ولا قال له: إن الشفاعة لله كلها، ولا تكون لي إلا يوم القيامة بعد أن يأذن لي ربي، فاطلبها من الله وقل: اللهم لا تحرمني شفاعته؛ كما زعم ذلك ابن عبد الوهاب حيث قال "فإذا كانت الشفاعة كلها لله، ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد تبين لك أن الشفاعة كلها لله فأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفعه في، وأمثال هذا. اهـ" ⁽²⁾!!

(1) كما في مسند أحمد، ط/ الرسالة - (25 / 479) ولفظه: فقال يا رسول الله حاجتي قال وما حاجتك قال حاجتي أن تشفع لي يوم القيامة، قال: ومن ذلك على هذا، قال: ربي؛ قال: إما لا فأعني بكثرة السجود. قال محققو مسند أحمد: إسناده صحيح. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد 2/249، وانظر: شفاء السقام في زيارة خير الأنام ص165، للإمام أبي الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (756هـ)، دار الجيل بيروت، ط1/1991م. وانظر الشفاعة للوادعي ص287 و2 وفي ذلك يقول ابن عبد الوهاب في كشف الشبهات (ص: 24).

وأما نصوص الفقهاء والعلماء ومن المذاهب الأربعة في جواز، بل في ندب ذلك، فنسرد بعضها:

أولاً: أقوال الحنفية

قال العلامة ابن الهمام من كبار الحنفية¹ عند كلامه على آداب زائر النبي ﷺ: "ثم يقول في موقفه:..يا رسول الله أسألك الشفاعة، يا رسول الله أسألك الشفاعة وأتوسل بك إلى الله في أن أموت مسلماً على ملتك وسنتك"⁽²⁾. اهـ ونحوه قول ملا علي القاري: ويتوسل به ﷺ في حق نفسه ويتشفع به إلى ربه..فيقول: ..يا رسول الله ﷺ، جئنا لقضاء حقك، والتبرك بزيارتك، والاستشفاع بك..فاستغفر، واشفع لنا إلى ربك يا شفيع المذنبين"⁽³⁾. اهـ ونحوه قول ابن مودود الحنفي "والاستشفاع بك إلى ربنا، قد جئناك ظالمين لأنفسنا مستغفرين لذنوبنا، فاشفع لنا عند ربنا"⁴. وفي مجمع الأنهر "يا رسول الله ﷺ، أسألك الشفاعة الكبرى، وأتوسل بك إلى الله تعالى في أن أموت مسلماً"⁵. ونحوه قول ابن الضياء الحنفي: "فاشفع لنا إلى ربنا، واسأله أن يميتنا على سنتك. وكذا في مراقبي الفلاح"⁶. اهـ وفي الفتاوى الهندية: "يا رسول الله من فلان بن فلان يستشفع بك إلى ربك فاشفع له ولجميع المسلمين".

1 وقد احتج به الأفغاني مرات عدة في كتابه جهود علماء الحنفية انظر: (ص109، 606، 615، 850، 865، 931، 1608)

(2) شرح فتح القدير لابن الهمام (6 / 249) .

(3) زياره القبر المكرم و المحل المعظم، ملا علي القاري، مخطوطة بمكتبة الملك سعود، لوحة 44 ، 45 آلي، وتوجد صورة منها على موقع مكتبة المصطفى الالكترونية.

4 الاختيار لتعليل المختار (1 / 176)

5 مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (1 / 313)

6 تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف (ص: 343)، محمد بن أحمد بن الضياء الحنفي، بهاء الدين أبو البقاء (ت: 854هـ)، ت علاء إبراهيم، أيمن نصر، دار الكتب العلمية، ط2/ 2004م.

ثانيا: أقوال المالكية:

قال ابن جزري في القوانين الفقهية: ينبغي لمن حجّ أن يقصد المدينة، فيدخل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي فيه، ويسلم على النبي ﷺ وعلى ضجيعيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويتشفع به إلى الله¹.
قال الإمام عبد الواحد بن عاشر في المرشد المعين:

و سِرُّ لَقْبِرِ الْمُصْطَفَى بِأَدَبٍ = وَ نِيَّةٍ تَجِبُ لِكُلِّ مُطَلِبٍ
و سَلِّ شَفَاعَةً وَ خَتْمًا حَسَنًا = وَعَجَّلِ الْأُوبَةَ إِذْ نَلْتَ الْمَنَا

وقال ابن الحاج : فالتوسل به - عليه الصلاة والسلام - هو محل حطّ أحمال الأوزار وأثقال الذنوب، والخطايا؛ لأن بركة شفاعته - عليه الصلاة والسلام - وعظمتها عند ربه لا يتعاضدها ذنب².
وأورد القرافي قصة العتيبي في الذخيرة وفيها: وقد جئتك مستغفرا من ذنبي مستشفعا بك إلى ربي³.
ثالثا: أقوال الشافعية:

قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه النبي ﷺ، ويتوسل به في حق نفسه، ويستشفع به إلى ربه، ثم يستقبل القبلة ويدعو بما شاء لنفسه وللمسلمين⁴.
وقال القسطلاني: إن كلا من الاستغاثة والتوسل والتشفع والتوجه بالنبي ﷺ كما ذكره في «تحقيق النصرة» و «مصباح الظلام» واقع في كل حال⁵.

وقال النووي: ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله ﷺ، ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى، ومن أحسن ما يقول ما حكاه الماوردي والقاضي أبو الطيب وسائر أصحابنا عن العتيبي مستحسنين له قال: (كنت جالسا عند قبر رسول الله ﷺ، فجاء أعرابي

¹القوانين الفقهية (ص: 95)

²المدخل لابن الحاج (1/ 259)

³الذخيرة (3/ 376)

⁴فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب (1/ 176)

⁵المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (3/ 605)

فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً)، وقد جئتكم مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم⁽¹⁾.

قال ابن الرفعة: ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويستشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى. ومن أحسن ما يقول ما حكاه أصحابنا عن العتيبي قال:..وقد جئتكم مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي².

وكذا في الحاوي الكبير للماوردي³، وغاية البيان شرح زيد ابن رسلان⁴، والإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع⁵، ونهاية الزين⁶، وحاشيتا قليوبي وعميرة⁷، وشرح المحلي على المنهاج⁸، ومغني المحتاج⁹، وفي إعانة الطالبين بلفظ: **مستشفعاً بك إلى ربي¹⁰**.

رابعاً: أقوال الحنابلة: وقال ابن الجوزي قال في التبصرة: وإذا وصل الحاج إلى المدينة المشرفة فيجعل على فكره تعظيم من يقصده..وليتأدب في الوقوف، وليستشفع بالحبيب¹¹. وقال ابن قدامة أيضاً في آداب زيارة المصطفى أن الزائر يقول: **وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبي، مستشفعاً بك إلى ربي**

(1) المجموع ج 8 - ص 274، ط/دار الفكر. وذكر ابن مفلح الحنبلي قصة العتيبي مقرأ لها في المبدع 184/3، ط/دار عالم الكتب، وابن كثير في تفسيره 306/2، والقرايبي في الذخيرة - (3 / 375).

2 كفاية النبيه في شرح التنبيه (537 / 7)

3 الحاوي الكبير (214 / 4)

4 غاية البيان شرح زيد ابن رسلان (ص: 175)

5 الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (1 / 258)

6 نهاية الزين (ص: 219)

7 حاشيتا قليوبي وعميرة (2 / 159)

8 شرح المحلي على المنهاج (4 / 226)

9 مغني المحتاج (1 / 512)

10 إعانة الطالبين (2 / 356)

¹¹ التبصرة 2 / 246

..(1).اه وكذا قال سليمان بن علي بن مشرف النجدي مفتي الديار النجدية في عصره . وهو جدّ مُحمَّد بن عبد الوهاب² . في كتابه مصباح السالك³ . وكذا قال عبد الرحمن بن قدامة في الشرح الكبير⁴ ، البهوتي في كشف القناع⁵ ، وكذا قال الرحيباني في مطالب أولي النهى⁶ ، وكذا قال زين الدين المنجّي في الممتع في شرح المقنع⁷ .

وقصة العتبي السابقة نقلها كثير من العلماء، بل ذكر ملا علي القاري أن أهل المناسك من جميع المذاهب استحسبوا دعاء العتبي هذا⁽⁸⁾، وفيه "وقد جئتكم مستغفرا من ذنبي مستشفعا بك إلى ربي"، وبالتالي فسواء صحت أم لم تصح فليس الحجة فيها، ولكن في إيراد هؤلاء العلماء مقرّين لها، بل مستحسبين لهذا الدعاء المتضمن لطلب الشفاعة من النبي ﷺ وهو في قبره، ومثلهم من لم يورد قصة العتبي هذه أصلا، فقد ذكر أيضا أن من آداب زيارة قبر النبي ﷺ ومندوباتها أن يطلب الشفاعة منه

(1) المغني ج 3 - ص 590، ونقله في كشف القناع مقرا له 599/2، وقال نحوه ابن عقيل الحنبلي في التذكرة كما في السيف الصقيل للكوثري ص177.

2 قال الزركلي في الأعلام (3/130): سليمان بن علي بن مشرف التميمي (1079 هـ): عالم الديار النجدية في عصره. ولد في العيينة (باليمامة) وصنف (المنسك - ط) المشهور به، وكان عليه اعتماد الحنابلة في المناسك. وله فتاوى تبلغ مجلدا ضخما. وهو جدّ مُحمَّد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة المعروفة بالوهابية. اه ويقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ متحدثاً عن مُحمَّد بن عبد الوهاب: « فلا ريب أنه لما قدم جده سليمان بن علي من الروضة، ونزل العيينة، كان أفقه من نزل نجدًا في وقته، فتخرّج عليه خلق كثير من أهل نجد، منهم ابناه عبد الوهاب وإبراهيم .. وقال أيضا عن ابن عبد الوهاب: والده هو مفتي تلك البلاد، وجدّه مفتي البلاد النجدية، آثاره وتصنيفه وفتاواه تدل على علمه وفقهه، وكان جده إليه المرجع في الفقه والفتوى، وكان معاصراً للشيخ منصور البهوتي الحنبلي خدام المذهب اجتمع به بمكة». انظر الدرر السنية في الأجوبة النجدية 1/375. وانظر أيضا مقالا على الشبكة بعنوان: "الشيخ سليمان بن علي بن مشرف علامة الديار النجدية" لعبد المحسن آل الشيخ.

3 مصباح السالك في أحكام المناسك ص274، سليمان بن علي بن مشرف النجدي (ت 1079 هـ)، ت سليمان أبا الخيل ، ط2010/1م.

4الشرح الكبير على متن المقنع (3/494)

5كشف القناع عن متن الإقناع (2/516)

6مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (2/441)

7المتع في شرح المقنع ت ابن دهب ط 3 (2/214)

(8) زياره القبر المكرم ، ملا علي القاري، مخطوطة بمكتبة الملك سعود، لوحة 44 آلي.

فيقول مثلاً "يا رسول الله ﷺ، أسألك الشفاعة" كما قال ابن الهمام، أو يقول: "فاستغفر واشفع لنا إلى ربك يا شفيع المذنبين" كما قال ملاً علي القاري.

وكما ترى هذا شيء نصّ عليه الفقهاء من المذاهب الأربعة، واتفقوا عليه ولاسيما فقهاء المذهب الحنبلي، وهؤلاء الفقهاء من مختلف القرون والعصور، قبل ابن تيمية وبعده، فكلهم أجازوا بل ندبوا إلى طلب الشفاعة من النبي ﷺ في قبره، ولم يقل أحد من الفقهاء بما ادعاه ابن تيمية وأتباعه من أن "هذا كان أصل شرك العرب"¹. وهو أن المشركين "كان شركهم شرك شفاعة وتوسل إلى الله بالصالحين أنبياء وأولياء ملكانهم ووجهتهم عند الله"². "يقولون: إنا نستشفع بهم.. فيقول أحدهم: يا سيدي.. اشفع لي إلى ربك.. اشفع لي إلى الله.. أو يقول أحدهم: سل الله أن يغفر لي.. فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم.. هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين"³، ولذلك فإن "قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم، والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأمواهم(4)". فهذا لم يقله . على حد علمي . أحد من العلماء عبر أي عصر من العصور، أو من أي مذهب من المذاهب! ولا يعرفه الفقهاء، وإلا لما ندبوا إلى طلب الشفاعة من النبي ﷺ وهو في قبره عليه الصلاة والسلام، كما رأينا من نصوصهم آفة الذكر! والطريف أن ابن تيمية وأتباعه يدعون أنه قد "أجمع المسلمون أن هذا شرك"⁵. لذلك فإن أحداً من العلماء "لم يستقبل القبر للدعاء لنفسه، فضلاً عن أن يستقبله ويستشفع به يقول له: يا رسول الله اشفع لي أو ادع لي. أو يشتكي إليه مصائب الدين والدنيا، أو يطلب منه أو من غيره من الموتى

1 شرح الطحاوية - ط الأوقاف السعودية (ص: 31)

2 موسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 135)

3 مجموع الفتاوى (1/ 158)

(4) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص16

⁵ دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 296)

من الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة الذين لا يراهم أن يشفعوا له، أو يشتكي إليهم المصائب؛ فإن هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين، ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة"¹ اهـ

قلت: فما مصير هذا الإجماع التيمي بعد أن نقلنا نصوص الفقهاء من مختلف المذاهب والعصور على أن طلب الشفاعة من النبي ﷺ في قبره هو آداب زيارته ومن المندوبات وليس من الجائزات فحسب؟! نحن هنا لسنا في معرض تقرير جواز طلب الشفاعة من النبي ﷺ في قبره، وإنما المقصود أن نبين أن طلب الشفاعة من الأنبياء أحياء وأمواتا ليس سببا يناط به كفر مشركي العرب؛ لأن هذا جائز بل مندوب كما ترى، هذا إن سلمنا أصلا أنهم كانوا يتشفعون بالأنبياء أو يعترفون بهم، وكذا يقال في طلب الشفاعة من الملائكة والأولياء، فليس هذا مناطا للكفر، وإنما مناطه هو ادعاء الألوهية فيمن استشفعوا به كما سبق بسطه.

¹ مجموع الفتاوى (1/ 233)

المبحث الثالث: دعوى أن المشركين إنما عبدوا الشفعاء ليشفعوا لهم

المطلب الأول: عرض الدعوى

المشركون . بحسب نظرية ابن تيمية . "مقرّون أن آلهتهم لم يخلقوا كخلق"¹ . "وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض ولا خلق شيء؛ بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط"² . فهم "أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعونهم ويتخذونهم شفعاء بدون إذن الله"³ . فكانوا "يتخذون آلهة يستجلبون بعبادتها المنافع ويستدفعون بها المضار ويتخذونها وسائل تقربهم إليه وشفعاء يستشفعون بها إليه"⁴ . "فقد اتخذوا آلهة وأصناما يعبدونها من دون الله لتشفع لهم عند الله"⁵ ، فقد اتخذوا "شركاء لله في العبادة يتوسلون إليهم ويدعونهم، ويتقربون بهم إلى الله عز وجل زاعمين أنهم إنما اتخذوهم كذلك.. ليكونوا شفعاء لهم ووسطاء عند الله عز وجل"⁶ . فصرفوا "أنواع العبادات لمخلوقين مثلهم، مدعين أن أولئك المعبودين يشفعون لهم عند الله بتلك العبادات التي يصرفونها لهم"⁷ ، "فقرروا الاستغاثة بالأموات والاستعانة بهم والعكوف عند قبورهم، وسؤالهم قضاء الحاجات ودفع الكربات، والذبح والنذر لهم، ونحو ذلك من أنواع العبادات، بحجة أن هؤلاء سيشفعون لهم"⁸ . "فبيّن سبحانه وتعالى أن عبادتهم إياهم بالدعاء والضراعة والاستغاثة والذبح والنذر والسجود على القبور ونحو ذلك، أن هذا هو الشرك بالله.. وأن زعمهم أنهم شفعاءهم عند الله وزعمهم أنهم يقربونهم إلى الله زلفى: باطل"⁹ .

1 مجموع الفتاوى (1 / 311)

2 مجموع الفتاوى (7 / 77)، وانظر شرح الطحاوية لابن أبي العزات الأرنؤوط (1 / 32)

3 مجموع الفتاوى (3 / 105)، وموسوعة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية (ص: 69)

4 درة تعارض العقل والنقل لابن تيمية (7 / 391)

5 جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة ص 853

6 جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة ص 842، ص 841

7 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 976

8 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 1003

9 جهود علماء الحنفية (1 / 506)

فهم "إنما وقعوا في الشرك لتعلقهم بأذيال الشفاعة.. فإن اتخذ الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية، وتنقص للعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين"¹. "والمشركون من هؤلاء قد يقولون: إنا نستشفع بهم أي نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا"². و"قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم." (3)، و"قصدهم الملائكة) بالذبح، أو النداء، أو الاستغاثة، أو الاستعانة، نقول: هذا الذي صيّرهم مشركين مع كونهم مقرين بتوحيد الربوبية لم ينفعهم (أو الأنبياء، أو الأولياء، يريدون شفاعتهم، والتقرب إلى الله).. الله هو المقصود أولاً، أرادوا الله تعالى أولاً ثم صرفوا العبادة لغيره جل وعلا، أرادوا شفاعته"⁴. اهـ

المطلب الثاني: نقض الدعوى

حاصل ما سبق أن المشركين عبدوا الأصنام بأنواع العبادات المختلفة ليشفعوا لهم عند الله، ويقربوهم إلى الله زلفى، ومن ثمّ صحّ قولنا: إن الشفاعة كانت سبب كفرهم وشركهم!

قلنا: إن هذا الذي ذكرتموه يفيد أن سبب كفرهم وشركهم هو عبادتهم للشفعاء، لا لكونهم اتخذوا الشفعاء فحسب، فلو أنهم اتخذوا الشفعاء ولم يعبدوهم ولا اتخذوهم آلهة لما كفروا ولا أشركوا، بل على العكس من ذلك فإن الشفاعة ثابتة شرعا من حيث الجملة، وقد سبق نصوص ابن تيمية وأتباعه في ذلك. وبالمقابل لو أنهم عبدوا غير الله لكفروا وأشركوا سواء تشفعوا بمن عبدوهم أو لم يتشفعوا بهم، فمناف الكفر والشرك هنا هو اتخاذهم الآلهة وعبادتها من دون الله.

قلنا: سبق أن بيّنا أن عدم التزام المشركين بشروط الشفاعة كشرط إذن الله للشفعاء ونحوه: غايته أن تكون الشفاعة غير مقبولة، لا أن الشفاعة حينها تكون كفرا أو شركا، وإنما الشرك والكفر وقعوا فيه هنا لأنهم اتخذوا الشفعاء آلهة وعبدوها من دون الله.

1 تيسير العزيز الحميد (ص: 498)، دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 292).

2 مجموع الفتاوى (1/ 158)

(3) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص16، و(ص: 26) ودعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص:

287)، نقلا منه عن "مجموعة مؤلفات الشيخ، 161/1.

4 شرح كشف الشبهات للحازمي (5/ 21، ت.ش).

فإن قلت: سلمنا بأن اتخاذهم للشفعاء ليس وحده شركاً ولا كفراً، وإنما الشرك والكفر في عبادتهم للشفعاء، بيد أن الذي دفعهم إلى عبادتهم ليس لأنهم اعتقدوا أن بيدهم الخلق والأمر والرزق والنصر والتدبير، وإنما عبدوهم لأجل أن يشفعوا لهم فحسب، حيث كانوا يقولون "هؤلاء خواص الله، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا"¹، فهم "يتعبدون بإشراك الصالحين في دعاء الله وعبادته، يريدون شفاعتهم عند الله"². "حيث يتقربون إلى هذه الآلهة بالقربى، ويدعون أنهم يريدون بذلك أن تشفع لهم"³، أي "ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به"⁴. اهـ.

قلنا: هذا غير مسلم، بل هم اعتقدوا فيهم النصر والرزق والتأثير والضر والنفع، ولولا ذلك ما عبدوهم أصلاً، وهذا سبق بسطه⁵، وعلى التسليم جدلاً بأنهم عبدوهم رجاء شفاعتهم فهذا لا يغير من الأمر شيئاً بل سيبقى سبب كفرهم هنا هو اتخاذهم الشفعاء آلهة وعبادتهم من دون الله، وأما الشفاعة فتبقى مشروعة من حيث الجملة، تماماً كما لو أن شخصاً سرق ليطعم عياله، فلا أحد يقول هنا: إن إطعامه لعياله حرام ما دام ذلك كان سبباً في السرقة! بل سيبقى إطعام العيال مشروعاً، وستبقى السرقة حراماً، اللهم إلا لمن اضطر غير باغ ولا عاد. ألا ترى أن ابن عبد الوهاب على الرغم من شتة حملة شعواء في مسألة التشفع جاعلاً إياها سبب كفر المشركين الوحيد كما في قوله "قصدتهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم" قد ظلّ في نفس الكتاب متمسكاً بالشفاعة المشروعة، وكان مما قال "تبين لك أن الشفاعة كلها لله، فأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفعه في"، إذن ليس من ضرورة القول بالشفاعة عبادة الشفعاء أو اتخاذهم آلهة.

¹ مجموع الفتاوى (1/ 150)

² مسائل الجاهلية (ص: 5)

³ شرح العقيدة السفارينية (1/ 486)

⁴ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (12/ 111)، وشبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 1004

⁵ انظر: ص (467) عند قولي: (لحصول ما يرجون من نصره)

والحاصل أن الشفاعة لا يجوز أن تكون محلّ إنكار، لأنها ثابتة بالكتاب والسنة للأنبياء والأولياء
والملائكة والصالحين والشهداء، فكلّ هؤلاء شفعاءنا عند الله، فهل يُقال إن هذا القول شرك لأنه عين
قول المشركين؟

المبحث الرابع: استنتاج السلفية مما سبق أن التوحيد قسمان ألوهية وربوبية.

المطلب الأول: عرض الاستنتاج

ما دام أن المشركين موحدون في الربوبية . بحسب نظرية ابن تيمية طبعاً . حيث "يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له" وأنه لا يرزق إلا هو ، ولا يحيي ولا يميت إلا هو ولا يدبر الأمر إلا هو ، وأن جميع السماوات ومن فيهن ، والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره" (1)، فلا بد أن يكون شركهم هو فيما وراء ذلك ولا بد أن يكون لكلمة التوحيد لا إله إلا الله معنى سوى هذا الذي أقر به المشركون، ولا بد أن يكون الإله في كلمة التوحيد غير الرب فإن "الإله هو المعبود، خلافاً لما يعتقد عباد القبور وأشباههم في معنى الإله أنه الخالق أو القادر على الاختراع ... وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع.. لو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول ﷺ وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبّون دعوته، إذ يقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله، بمعنى: أنه لا قادر على الاختراع إلا الله. فكانوا يقولون: سمعنا وأطعن" (2). فدل ذلك على أن التوحيد ليس فقط توحيد الربوبية الذي يقرون به "بل هناك معنى زائد وهو توحيد الله تعالى في ألوهيته" (3) الذي أباه المشركون، ولذلك "قاتلهم رسول الله ﷺ إلى أن يقروا بتوحيد الألوهية، وهو معنى : (لا إله إلا الله) (4)"، بدليل قول النبي ﷺ "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، لم يقل حتى يقولوا أن لهم ربا، إذ هم عارفون بذلك، وإنما أمرتهم الرسل أن يصلوا معرفة التوحيد بمعرفة الربوبية والوحدانية فأبوا" (5)، وهذا كله يدل على أن ثمة فرقا بين

(1) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14، وقاله أيضا في كتابه الجواهر المضية (ص: 4)

(2) تيسير العزيز الحميد ص182.

3 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 233

(4) جهود علماء الحنفية - (1 / 166)

(5) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية - (8 / 510)

توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وليس شيئاً واحداً، بل "الطاقة الكبرى التي هي أم الطاقات المتولدة منها - أعني جهل القبورية بحقيقة توحيد الألوهية، وجعلهم إياه عينا لتوحيد الربوبية"¹.

المطلب الثاني: نقض الاستنتاج

أقول إن هذا الذي ذكرتموه كله لا يوجب اختراع نظرية تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية، لما يلي:

أولاً: هذا كله غير مسلم به، لكونه مبنيًا على مقدمات غير مسلمة سبق نقضها، وهي المقدمات الخمس:

- (1) التباين بين الرب والإله.
- (2) أن تشفعهم بحد ذاته كفر.
- (3) أن المشركين موحدون في الربوبية.
- (4) أن النبي ﷺ قاتلهم ليُقروا بمعنى لا إله إلا الله.
- (5) أن المشركين لم يكفروا إلا بسبب قضية التشفع.

ثانياً: النظرية توضع عادة لتفسير ظاهرة معينة فيها حلقة مفقودة أو فيها لغز أو أحجية فتوضع نظرية تتضمن أقرب فرضية مقبولة لحل هذا اللغز والأحجية مع تدعيم تلك الفرضية ببعض القرائن والأدلة لتصبح تلك الفرضية أكثر قبولاً، وأما أنتم فوضعتم نظرية تقسيم التوحيد لتبحثوا بها عن السبب الذي كفر به المشركون! وكأن سبب كفرهم أحجية أو لغز يحتاج إلى نظرية تحله وتفسره! قوم كانوا في جاهلية جهلاء، وفي ظلمات بعضها فوق بعض منغمسين في صنوف من الكفر والشرك والإثم والموبقات، ثم جاءهم النبي ﷺ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فأتاهم بدين خاتم قويم متكامل، فرفضوه وكذبوا النبيّ وكذبوا القرآن الذي جاء به، ورموه بالسحر والشعر والكهانة، واستهزؤوا به وبما أتاهم به، وكفروا باليوم الآخر وكفروا بدينه جملة وتفصيلاً، وعادوه وقاتلوه وتفننوا في إبدائه، ونسبوا إلى الله الولد فزادوا كفراً وشركاً وإثماً فوق ما كانوا عليه في الجاهلية، وقد بسطت

ذلك كله، فقوم كفرهم بهذا الوضوح والقبح والشناعة، ما حاجتنا إلى نظرية تبحث عن الأمور والعلل والأسباب التي أوجبت كفرهم!! وأي خفاء أو أي لغز هنا حتى تحلّه نظريتكم!؟

نعم هناك لغز، ولكنه لغز أنتم صنعتموه بأيديكم، فانطلقتم من دعاوٍ باطلة ترتب عليها إشكالات، فاخترعتم نظرية تقسيم التوحيد لحلّ تلك الإشكالات، فادعيتم مثلا أن المشركين كانوا يشهدون أن لا رب ولا خالق إلا الله وحده، ثم استشكلتم رفض المشركين للنطق بلا إله إلا الله، فتساءلتم: لماذا رفضوا ذلك مع أنهم يشهدون أنه لا رب سواه؟ وشركتم وغرّبتم في تفسير كلمة الإله والإلهية، والرب والربوبية، والفرق بين الإله والرب، لتنتهوا إلى القول أنه "هناك معنى زائد وهو توحيد الله تعالى في ألوهيته"¹، وأنه لو كان المقصود بالإله الخالق و"لو كان هذا معنى لا إله إلا الله؛ لما أنكرت قريش على النبي ﷺ دعوته ولأمنت به وصدقت؛ لأن قريشاً تقول: لا خالق إلا الله.."² اهـ.

وهذا الإشكال كله ليس واردا أصلا لأنكم بنيتموه على فرضية وهمية أنتم وضعتموها، وهي أن المشركين موحدون في الربوبية حيث كانوا "يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السماوات ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبده وتحت تصرفه وقهره"⁽³⁾ اهـ كما قال ابن عبد الوهاب، وهذا كله فيض من خيال ابن عبد الوهاب، ومن قبله ابن تيمية للمشركين، وإلا فالمشركون ما قالوا حرفا من هذا قط كما سبق بيانه، بل الذي ثبت قطعا كما سبق بيانه أن المشركين كانوا ينفرون من مجرد كلمة "وحده" إذا ذكرت مع الله كما قال تعالى: { وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } [الإسراء: 46]، بل يشتمزون من ذكر الله نفسه حينها { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الزمر: 45]، وقد بينا سابقا أن المشركين غير موحدين في الربوبية من أكثر من عشرين وجه مدعما بأقوال السلفية أنفسهم.

1 شبهات المبتدعة في توحيد العبادة ص 233

2 القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (1/ 39)

(3) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص 14، وقاله أيضا في كتابه الجواهر المضية (ص: 4)

ثم بعد أن تبرعتم وأهديتهم المشركين توحيداً في الربوبية صوّرتهم الجاهلية كأنها عصر ذهبي للمعارف وللتدين والأخلاق والقيم والالتزام والشرائع، فقلتم بأن المشركين كانوا "يعبدون الله تعالى ببعض العبادات. كالصلاة والحج والصوم ويعظمون الله تعالى بأفعال تعظيمية ولا سيما السجود وأقوال من الذكر والدعاء؛ والطهارة والغسل من الجنابة، وكان فيهم الزكاة، وقرى الضيف والاهتمام بآبى السبيل وحمل الكّلّ والصدقة على المساكين وصلة الأرحام والإعانة على نوائب الحق والذبح فى الحلق واللب..". (1) اهـ

ثم أفضتم بيان مناقب المشركين فى الجاهلية، حتى قصرتم مشكلتهم الوحيدة على قضية التشفع واتخاذ الوسائط، كما قال ابن عبد الوهاب "أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله..". (2) اهـ إلى درجة أن حفيده قال بعد سرده لمناقب المشركين مستغرباً ومستشكلاً: فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذى أوجب سفك دمائهم، وسبى نسائهم، وإباحة أموالهم⁽³⁾. اهـ ثم يخرج ابن عبد الوهاب بنتيجة وهي "أن قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء، يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذى أحل دمائهم وأموالهم". (4).

وهذا الإشكال كسواه مبني على صورة ذهبية أنتم رسمتموها للجاهلية، وهي أنها مصدر إشعاع وتنوير ومعرفة ودين وعلم وحلم، ولا يعكّر صفو ذلك سوى تشفعهم بالأنبياء والأولياء! وأن أهل الجاهلية لما جاءهم النبي آمنوا به وبكل ما جاءهم به سوى قضية التشفع، ثم استغربتم لم قاتلهم وكفرهم؟ مع أن وجوه الكفر التي وقع فيها المشركون لا تُعدّ ولا تحصى، والقرآن يحفل بها من أوله إلى آخره، فتغاضيتهم عن ذلك كله بل جادلتهم عن المشركين فيما ارتكبهوه من أوجه الكفر وتأولتم لهم كما سبق،

(1) جهود علماء الخنفية (1 / 212).

(2) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14

(3) تيسير العزيز الحميد ص27.

(4) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ص14

وبلغ بكم الأمر إلى قضية تعديد المشركين للآلهة فتفلسفتم فيها وتأولتموها، وقزمتموها إلى قضية تشقّعهم
بالأصنام، وجعلتم هذا هو سبب كفر المشركين الوحيد!

الخاتمة

وهكذا نكون قد انتهينا بحول الله من هذا المجلد الرابع وأتينا على أبوابه وفصوله ومباحثه ومطالبه ومراصده لنخلص الى النتائج التالية في أبوابه الثلاثة:

فيما يخص الباب الأول فقد تناولت فيه مناقب المشركين المزعومة في الجاهلية وعرضتها كما ذكرها الإخوة السلفية ثم كررت عليها بالنقض والتفنيد، وبيّنت أن هذه المناقب معظمها مصطنع لتمهيد الطريق لتكفير المسلمين بحجة إخلالهم في توحيد الألوهية كما أخل المشركون فيه!

كما أوضحت المفارقة التي وقع فيها ابن عبد الوهاب النجدي، إذ إنه في كتاب كشف الشبهات سرد للمشركين مناقب كثيرة وزاد عليها أولاده وأحفاده وأتباعه مناقب أخرى! مع أنه هو نفسه في كتاب مسائل الجاهلية عدّد للمشركين كثيرا من القبائح والنقائص والموبقات وكثير منها هو كفر لا علاقة له بعبادة الأصنام أصلا!!

والحاصل أن هذه المناقب ملفقة ، ولاسيما في باب العبادات والمعاملات، أو على الأقل مبالغ فيها، وأن كثيرا منها لم يثبت أصلا، وإن ثبت فهو نادر جدا! أو كان يتصف بها بعض الأفراد في الجاهلية، وهم في الغالب كانوا إما من الحنفاء الذين يبنذون عبادة الأصنام، ومنهم النبي نفسه ﷺ، أو من غير الحنفاء ولكنهم شابوا هذه المناقب بكثير من المفاسد والمثالب، أو أنهم كانوا يفعلونها على وجه الرياء والشهرة لا ابتغاء الثواب لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلا.

وأما ما يتعلق بالباب الثاني فقد ذكرت مثالب كثيرة لأهل الجاهلية في ذلك العصر، وبيّنت ما فيها من قبائح كثيرة كان ابن عبد الوهاب نفسه قد سردها في مسائل الجاهلية ، وركزت أكثر على الأمور التي هي كفر في أبواب الإيمان، فبيّنت كفرهم في باب الإيمان بالله؛ حيث كانوا ينسبون لله الولد ويشركون معه الآلهة والأرباب، تعالى الله عن ذلك، وفي باب الإيمان بالرسول عليهم السلام كيف كانوا يكفرون بالرسول ويستهزئون بهم ويؤذونهم ولا سيما رسولنا ﷺ .

وفي باب الإيمان بالآخرة كانوا ينكرون اليوم الآخر والحساب والعقاب، بل يستبعدون قدرة الله على البعث والنشور، وفي باب الإيمان بالكتب السماوية فقد كانوا أيضا ينكرون هذه الكتب السماوية، ويقولون عنه إنها أساطير الأولين وأنها سحر وشعر وكهانة! وكانوا يقولون هذا على القرآن خاصة، وعلى

سائر الكتب عامة! وفي باب الإيمان بالملائكة كانوا يقولون عنهم إنهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك، هذا كله سوى اقرارهم للزنا وشرب الخمر والسرقه والنهب والسلب والوآد للبنات وغير ذلك من الموبقات والكبائر، فكيف يقال بعد هذا كله: إن مشكلة مشركي قريش وغيرهم من المشركين هي فقط في توحيد الألوهية؟!

وفي الباب الثالث بيّنت حقيقه شرك المشركين في الألوهية، وأن السبب في شركهم هنا ليس أنهم تشفعوا أو استغاثوا أو توسّلوا بالأنبياء والصالحين كما زعم السلفية، وذلك لأن المشركين أصلا كانوا ينكرون الأنبياء والرسل عليهم السلام، ولأن الشفاعة ونحوها هي في الأصل مشروعة من حيث الجملة، وإنما كفروا لأنهم جعلوا الشفعاء آلهة من دون الله وعبدوهم معتقدين أنهم آلهة وأرباب من دون الله، وهذا لا يشرع بحال، فكيف يُترك السبب الظاهر اليقيني لكفرهم وهو اتخاذهم الآلهة والأرباب وعبادتها من دون الله، ويؤخذ بسبب آخر ظني وهو قضية الشفاعة والاستغاثة والتوسل وهي أصلا مسائل خلافية بل مشروعة من حيث الجملة؟!

وفي الختام يبقى أن نشير إلى أن المجلد الخامس القادم سنأتي فيه على تنفيذ بقية الأصول التي قامت عليها نظرية التقسيم التوحيد، وبعد ذلك نشرع في سلسلة أخرى بإذن الله نتناول فيها آثار نظرية تقسيم التوحيد كالاستغاثة والتوسل ومسائل القبور، مثل شدّ الرحال لزيارة القبور والذبح والنذر لها والدعاء والصلاة عندها والطواف بها، والمفترض أن نخصّص لها حوالي خمس مجلدات أخرى بحول الله، وبذلك نكون قد نقضنا أصول نظرية تقسيم التوحيد أصولا وفروعا في عشرة مجلدات، فنقضنا أصولها في خمسة مجلدات، ونقضنا فروعها في خمسة مجلدات أخرى. والله المستعان.

وصلّى الله على سيدنا محمد سيد الخلق وحبیب الحق البشير النذير والسراج المنير وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا، وآخر دعوانا أن الحمد لله.

كتبه وراجعہ الفقير إلى ربه تعالى: وليد بن صلاح الدين الزبير بتاريخ الحادي عشر من ذي القعدة

1445هـ الموافق لـ 19 / 5 / 2024م. والله ولي التوفيق

هذا الكتاب بين أيدي القراء "مناقب المشركين في الجاهلية ومثالبهم وحقائق شركهم في الألوهية" هو المجلد الرابع من نقض نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية رحمه الله، وفيه بيان أن الجاهلية فترة حالكة الظلام كانت تعج بألوان الكفر والشرك والضلال والموبقات وسائر الكبائر حتى أشرقت شمس الاسلام، وأما الصورة المشرقة التي رسمها بعض الوهابية للجاهلية فهي صورة مخادعة مخالفة لحقيقة الجاهلية المظلمة التي بيّنها الكتاب والسنة وأهل العلم سلفا وخلفا بمن فيهم ابن تيمية وكثير من الوهابية أنفسهم.

أيضا فإن المناقب التي نسبها الوهابية للمشركين في الجاهلية هي مناقب ملفقة تارة، ومبالغ فيها تارة، وذلك من أجل أن يتوصلوا إلى أن المشركين لم يكن ينقصهم سوى التوحيد في الألوهية، وأن كفرهم وضلالهم أتى من هذا الباب فقط! وأن من أخلّ بتوحيد الألوهية كفر مثلهم ولو قال لا إله إلا الله! ومن هنا توصل الوهابية لتكفير سائر المسلمين بحجة أنهم أخلوا في توحيد الألوهية بحجة أنهم اتخذوا الصالحين وسائط استغاثوا بهم وتوسلوا وعبدوا قبورهم! زعموا.

وهكذا يكون الوهابية قد أتوا بهذه المناقب للمشركين في الجاهلية تمهيداً لتكفير المسلمين الذي لم يقعوا فيما وقع فيه المشركون وهو اتخاذ الآلهة وعبادتها من دون الله، وهذا هو السبب في كفر مشركي الجاهلية، وليس هو اتخاذ الشفعاء والوسائط من دون الله؛ لأن هذا مشروع في الجملة، فكيف يُترك السبب الظاهر اليقيني لكفرهم وهو اتخاذهم الآلهة والأرباب وعبادتها من دون الله، ويؤخذ بسبب آخر ظني وهو قضية الشفاعة والاستغاثة والتوسل التي هي أصلا مسائل خلافية، بل مشروعة من حيث الجملة حتى عند الخصم!؟

الفهرس

2.....	تقديم وتقريظ مولانا وأستاذنا الكبير الشيخ الفاضل مهنا حمد المهنا حفظه الله
5.....	مقدمة الكتاب
6.....	موضوع هذا الكتاب
8.....	خطة الكتاب
9.....	منهج الكتاب
10.....	شكر وتقدير
11.....	توطئة حول دعوى أن معركة الرسل كانت في توحيد الألوهية فقط
15.....	الباب الأول: مناقب المشركين في الجاهلية عند السلفية (عرض ونقد)
15.....	تمهيد
15.....	(كيف زايد بعض السلفية على بعض في مناقب المشركين في الجاهلية)
18.....	الفصل الأول: مناقب المشركين في الاعتقادات
19.....	المبحث الأول: دعوى إيمان المشركين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر
20.....	المطلب الأول: دعوى إيمانهم بالله وتوحيده في الربوبية:
20.....	المرصد الأول: إيمانهم بالله
20.....	نصوص السلف والخلف على إنكار بعض العرب في الجاهلية لوجود الله أو شكهم فيه
24.....	المرصد الثاني: أنهم مقرون بتوحيد الربوبية
25.....	المطلب الثاني: دعوى أنهم مؤمنون بالرسول عليهم السلام
27.....	المطلب الثالث: دعوى إيمان المشركين بالكتب السماوية
29.....	المطلب الرابع: دعوى إيمان المشركين بالملائكة
29.....	المطلب الخامس: دعوى إيمان بعض المشركين باليوم الآخر
37.....	(الإيمان بالبعث ليس فرض كفاية وكذا تجنب عبادة الأصنام)
38.....	الجواب عن الأخبار والأشعار التي فيها إيمان بعض العرب بالبعث
40.....	كيف تركتم آيات القرآن التي بيّنت إنكارهم للبعث وأخذتم ببينين من الشعر؟
43.....	المطلب السادس: دعوى إيمان المشركين بالقدّر
50.....	المبحث الثاني: انتسابهم لدين إبراهيم واعتقادهم بأن ألّهتهم عبيد الله
50.....	المطلب الأول: انتسابهم إلى دين إبراهيم عليه السلام
55.....	المطلب الثاني: اعتقادهم بأن ألّهتهم عبيد الله
58.....	الفصل الثاني مناقب المشركين في العبادات والأعمال الصالحة
58.....	تمهيد
74.....	المبحث الأول: العبادات التي نسبها السلفية للمشركين في الجاهلية
75.....	المطلب الأول: الطهارة
85.....	المطلب الثاني: الصلاة

94.....	صلاة الجنازة في الجاهلية
96.....	المطلب الثالث: الصيام
101.....	المطلب الرابع: الزكاة والصدقات
107.....	المطلب الخامس: الحج والعمرة
121.....	المبحث الثاني: الأعمال الصالحة التي نسبها السلفية للمشركين في الجاهلية
121.....	المطلب الأول: الجهاد في الجاهلية
127.....	المطلب الثاني: الاعتكاف والنذر عند أهل الجاهلية
142.....	المطلب الثالث: ذكر الله عند أهل الجاهلية
147.....	المطلب الرابع: الدعاء وقت الاضطراب عند أهل الجاهلية
152.....	المطلب الخامس: الخلوة في الجاهلية
154.....	الفصل الثالث : الشرائع عند أهل الجاهلية
155.....	المبحث الأول: شرائع في باب الحدود عند أهل الجاهلية
155.....	المطلب الأول: عقوبة السرقة في الجاهلية
161.....	المطلب الثاني: عقوبة الزنا في الجاهلية
166.....	صور الزنا في الجاهلية
175.....	المطلب الثالث: القسامة في الجاهلية
179.....	المطلب الرابع: الدية في الجاهلية
182.....	المطلب الخامس: القصاص في الجاهلية
191.....	المبحث الثاني: شرائع أخرى في الجاهلية
191.....	المطلب الأول: الذبح في الحلق واللثة
195.....	المطلب الثاني: الطلاق وتحريم المحارم في النكاح عند أهل الجاهلية
195.....	المرصد الأول: تحريم المحارم
198.....	المرصد الثاني: الطلاق في الجاهلية
204.....	المطلب الثالث: الختان في الجاهلية
209.....	المطلب الرابع: اللحية عند أهل الجاهلية
211.....	الفصل الرابع : مكارم الأخلاق عند أهل الجاهلية
212.....	المبحث الأول: دعوى وجود مكارم الأخلاق إجمالاً في الجاهلية
212.....	المطلب الأول: اتصاف النبي صلى الله عليه وسلم بالصفات الحميدة
216.....	المطلب الثاني: اتصاف أهل الجاهلية بالصفات الحميدة
220.....	المبحث الثاني: تفصيل بعض مكارم الأخلاق في الجاهلية
220.....	المطلب الأول: صلة الأرحام
223.....	المطلب الثاني: إكرام الضيف
229.....	المطلب الثالث: الاهتمام بآبئ السبيل
230.....	المطلب الرابع: النجدة والشجاعة والوفاء بالعهد
238.....	الباب الثاني: مثالب المشركين في الجاهلية
239.....	الفصل الأول: بيان حال الجاهلية التي كان عليها المشركون وتفصيل موبقاتهم وقبائحهم
239.....	تمهيد:
242.....	المبحث الأول: حال الجاهلية من خلال نصوص الكتاب والسنة وكلام العلماء

- 242.....المطلب الأول: ذم الجاهلية في القرآن
- 244.....المطلب الثاني: ذم الجاهلية في السنة
- 245.....المرصد الأول: أحاديث تدم الجاهلية بالجملة، ومنها ما يلي:
- 249.....المرصد الثاني: أحاديث تدم الجاهلية بالتفصيل أي تدم خصالها الكثيرة وتحددها.
- 257.....المرصد الثالث: أحاديث فيها توجس الصحابة رضي الله عنهم من كل ما كان في الجاهلية حتى يعلموا أن الشارع استثناه وأذن به.
- 260.....المطلب الثالث: الجاهلية في نظر العلماء من السلف والخلف
- 265.....المطلب الرابع: الجاهلية في نظر السلفية
- 265.....المرصد الأول: الجاهلية في نظر ابن تيمية وابن القيم
- 268.....المرصد الثاني: الجاهلية عند ابن عبد الوهاب
- 273.....المرصد الثالث: الجاهلية عند أتباع ابن عبد الوهاب
- 275.....المبحث الثاني: تفصيل لمواقف أهل الجاهلية وقبائحهم
- 276.....المطلب الأول: أكلهم للمال بالباطل
- 276.....أولا: أكل الربا
- 277.....ثانيا: الميسر
- 279.....المطلب الثاني: شرب الخمر
- 291.....المطلب الثالث: النسيء
- 293.....المبحث الثالث: قبائح الجاهلية في مناقبهم المزعومة
- 293.....المطلب الأول: قبائح الجاهلية في عباداتهم
- 295.....المطلب الثاني: قبائح الجاهلية في مناقبهم في الشرائع
- 295.....المطلب الثالث: قبائحهم في مناقبهم في مكارم الأخلاق
- 296.....الفصل الثاني: بيان الحال التي آل إليها المشركون بعد البعثة
- 297.....المبحث الأول: كفرهم في باب الإيمان بالله
- 298.....المطلب الأول: الخلل المتعلق بتصورهم العام عن الله وصفاته
- 306.....سبهم لله ردًا على من يسب آلهتهم
- 318.....المطلب الثاني: الخلل المتعلق في شركهم فيما يسمى بتوحيد الربوبية
- 321.....المبحث الثاني: كفرهم في باب الإيمان بالملائكة
- 325.....محاولة بعض السلفية التقليل من قول المشركين: الملائكة بنات الله
- 340.....حكم من نسب الولد إلى الله
- 347.....المبحث الثالث: كفرهم في باب النبوات
- 347.....المطلب الأول: إنكارهم للنبوة والرسالة
- 350.....المطلب الثاني: إيذاؤهم للنبي معنويا
- أولا: شتمهم للنبي، وذلك بقولهم عنه شاعر وكاهن وساحر ومجنون وكذاب، حاشاه عليه الصلاة والسلام، وفيما يلي بسط ذلك:
- 350.....ثانيا: استهزاؤهم برسول الله وسخريتهم منه، كما دلّ على ذلك عدة آيات، منها ما يلي:
- 355.....ثالثا: تحريض المشركين ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم
- 357.....المطلب الثالث: إيذاؤهم للنبي جسديا
- 358.....أولا: الأحاديث الدالة على ذلك

- ثانياً: همهم بإخراج النبي صلى الله عليه وسلم 360
- ثالثاً: محاربتهم له 361
- المبحث الرابع: كفرهم في باب الإيمان بالكتب السماوية 363
- المبحث الخامس: كفرهم في باب البعث والحساب 370
- خلاصة الأوجه الخمسة لكفر المشركين: 373
- الاعتراض بأن المشركين إنما ارتكبوا كل تلك الموبقات لأجل رفضهم لشهادة لا إله إلا الله 375
- الباب الثالث: حقيقة شرك المشركين في توحيد الألوهية** 391
- الفصل الأول: دعوى أن معنى كلمة التوحيد هو حظر التشفع واتخاذ الوسطاء 394
- المبحث الأول: معنى شهادة التوحيد لا إله إلا الله 395
- (الرابط بين تفسير شهادة (لا إله إلا الله) وبين تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية) 397
- دعوى السلفية بأن شهادة أن لا إله إلا الله لا يجوز تفسيرها بلا خالق إلا الله بحجة أن هذا أقر به المشركون .. 398
- أولاً: بيان المعنى المطابقي لشهادة التوحيد والرد على الفوزان بأنه إفراد الله بالعبادة 399
- الفرق بين المعنى المطابقي والالتزامي لشهادة التوحيد 400
- المبحث الثاني: اشتغال الشهادتين على كل العقائد 402
- إقرار ابن عثيمين أن الشهادة خبر لا إنشاء 408
- تفسير شهادة التوحيد بأن لا تعبد سواه خطأ من وجهين 409
- (قول ابن القيم: لا يكون الفعل عبادة إلا بالنية والقصد) 414
- المبحث الثالث: العبادات يشترط فيها نية العبادة 416
- التفريق بين سجود العبادة وسجود التحية عند ابن تيمية نفسه وكثير من أتباعه 423
- اضطراب ابن تيمية في كون السجود لغير الله كفراً وفي إشراك النصارى في الربوبية وفي إنكار فرعون لوجود الله 428
- لا يصح المعنى الذي ذكره النجدي لشهادة التوحيد لعدة أسباب 430
- الفصل الثاني: دعوى أن المشركين كانوا يعلمون المعنى الصحيح لكلمة التوحيد 432
- المبحث الأول: أن المشركين يعلمون المعنى الصحيح لكلمة التوحيد 433
- المطلب الأول: نقض هذه الدعوى عن طريق القياس الشرطي المتصل 434
- المطلب الثاني: حلف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بغير الله بيطل هذا المعنى للشهادة 436
- المبحث الثاني: دعوى أن المشركين امتنعوا عن النطق بكلمة التوحيد لعلمهم بالمعنى الصحيح لها 441
- المطلب الأول: نقض دعوكم بأحاديث في الباب 441
- المطلب الثاني: قول النجدي (وأنا ذلك الوقت لا أعرف معنى "لا إله إلا الله") ينقض دعوكم 443
- الفصل الثالث: دعوى أن المشركين قوتلوا ليقروا بمعنى كلمة التوحيد ومقتضاها 447
- المبحث الأول: عرض الدعوى ونقضها 447
- المطلب الأول: دعوى الحفيد ونقضها 447
- المطلب الثاني: دعوى احتمال استمرار المشركين على شركهم مع نطقهم بكلمة التوحيد 449
- المبحث الثاني: تقرير وجوب الكف فوراً عن نطق بكلمة التوحيد 453
- المطلب الأول: الأحاديث الدالة على وجوب الكف عن قال لا إله إلا الله بمجرد نطقه بها 453
- المطلب الثاني: نصوص ابن تيمية وأتباعه في وجوب الكف عن قال لا إله إلا الله 457
- الفصل الرابع: دعوى أن سبب كفر المشركين الوحيد هو التشفع بالصالحين 459

- المبحث الأول: دعوى أن المشركين كانوا يتشفعون بالصالحين 476
- المطلب الأول: الأدلة على أن معبودات المشركين كانت جمادات لا تعقل 478
- ملل و نحل تعبد أمورا غريبة 487
- أولا: عبادة الجن والشياطين 492
- ثانيا: عبادة البقر 494
- ثالثا: عبادة الفرج 494
- رابعا: عبادة الجرذان 494
- المطلب الثاني: مناقشة أدلة السلفية على أن المشركين كانوا يعبدون العقلاء وليس الحجارة 511
- المرصد الأول: استدلال السلفية بآيات من القرآن على أن الأصنام من العقلاء 511
- (المنطوق مقدم على المفهوم) 513
- الجواب المفصل عن تلك الآيات 516
- الآية الأولى: "أموات غير أحياء" والجواب عنها 517
- الآية الثانية: "إن كنا عن عبادتكم لغافلين" والأقوال فيها 518
- الآية الثالثة: "إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم" والجواب عنها 523
- الآية الرابعة: "أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء" والجواب عنها 525
- الآية الخامسة: "إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم" والجواب عنها 526
- الآية السادسة: "ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة" 528
- الآية السابعة: "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة" والأقوال فيها 531
- الآية الثامنة: "وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم" وفيها قولان 532
- الآية التاسعة: "بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون" 534
- الآية العاشرة: "أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله" 536
- المرصد الثاني: الآثار التي استدلت بها السلفية على كون الأصنام من العقلاء 538
- أولا: أثر "كان اللات رجلا يلت سويق الحاج" 538
- ثانيا: أثر "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب.." 546
- المطلب الثالث: استدلال السلفية بالمعقول على كون الأصنام من العقلاء 552
- المرصد الأول: دعوى أن عبادة الحجارة لذاتها أمر مخالف لبديهية العقول 552
- المرصد الثاني: نقض الدعوى من ثلاثة وجوه 554
- أولا: مخالفة القول لبديهية العقل لا يستلزم عدم وجود من يقول به 554
- أقوال كثيرة لبعض أهل الممل والفرق مخالفة للبديهية 555
- ثانيا: وصف القرآن للمشركين بأنهم لا يعقلون 560
- ثالثا: الإله الذي عبده بنو إسرائيل كان صورة لعجل 562
- المطلب الرابع: استدلالهم بإقرار بعض الأشاعرة بأن المشركين كانوا يعبدون الأنبياء والصالحين 564
- (كيف اجتزأ دمشقية كلام الرازي والتفتازاني حينما تكلموا عما ترمز له الأصنام) 567
- (قول الرازي الذي لم يرق لدمشقية: فالسبب في عبادة الأوثان اعتقاد أن الله تعالى جسم وفي مكان) 570
- الرازي يصف أصنام المشركين بأنها مجرد جمادات وذلك في مواضع كثيرة من تفسيره 572
- المبحث الثاني: دعوى أن سبب كفر المشركين هو تشفعهم بالصالحين لعدم التزامهم بشروط الشفاعة 575

المطلب الأول: نقض دعوى أن (شفاعة المشركين هي من جنس الشفاعة المشروعة إلا أنهم لم يلتزموا شروطها).....	577
المطلب الثاني: بيان أن سبب شركهم هنا هو ادعائهم الألوهية في شفعاتهم.....	579
الآيات التي تبين أن سبب كفرهم ليس هو التشفع وإنما اتخاذ الشفعاء آلهة وعبادتهم من دون الله كما نص عليه المفسرون.....	583
المطلب الثالث: وقوع المشركين في الشرك بمجرد قولهم بتعدد الآلهة حتى ولو لم يتشفعوا بها.....	588
المطلب الرابع: بيان أن تشفع المشركين بالأصنام قاذح في توحيد الربوبية والألوهية معا.....	588
المطلب الخامس: نقض الزعم بأن المشركين وقعوا في الشرك لطلبهم الشفاعة من غيره تعالى.....	590
المبحث الثالث: دعوى أن المشركين إنما عبدوا الشفعاء ليشفعوا لهم.....	602
المطلب الأول: عرض الدعوى.....	602
المطلب الثاني: نقض الدعوى.....	603
المبحث الرابع: استنتاج السلفية مما سبق أن التوحيد قسمان ألوهية وربوبية.....	606
المطلب الأول: عرض الاستنتاج.....	606
المطلب الثاني: نقض الاستنتاج.....	607
..... الخاتمة	611
..... الفهرس	613

و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم

تسليما كثيرا

سبحان ربك رب العزة عما يصفون

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

هذا الكتاب بين أيدي القراء "مناقب المشركين في الجاهلية ومثالبهم وحقيقة شركهم في الألوهية" هو المجلد الرابع من نقض نظرية تقسيم التوحيد عند ابن تيمية رحمه الله، وفيه بيان أن الجاهلية فترة حالكة الظلام كانت تعج بألوان الكفر والشرك والضلال والموبقات وسائر الكبائر حتى أشرقت شمس الاسلام، وأما الصورة المشرقة التي رسمها بعض الوهابية للجاهلية فهي صورة مخادعة مخالفة لحقيقة الجاهلية المظلمة التي بينها الكتاب والسنة وأهل العلم سلفا وخلفا بمن فيهم ابن تيمية وكثير من الوهابية أنفسهم.

أيضا فإن المناقب التي نسبها الوهابية للمشركين في الجاهلية هي مناقب ملفقة تارة، ومبالغ فيها تارة، وذلك من أجل أن يتوصلوا إلى أن المشركين لم يكن ينقصهم سوى التوحيد في الألوهية، وأن كفرهم وضلالهم أتى من هذا الباب فقط! وأن من أخلّ بتوحيد الألوهية كفر مثلهم ولو قال لا إله إلا الله! ومن هنا توصل الوهابية لتكفير سائر المسلمين بحجة أنهم أخلوا في توحيد الألوهية بحجة أنهم اتخذوا الصالحين وسائط استغاثوا بهم وتوسلوا وعبدوا قبورهم! زعموا.

وهكذا يكون الوهابية قد أتوا بهذه المناقب للمشركين في الجاهلية تمهيداً لتكفير المسلمين الذي لم يقعوا فيما وقع فيه المشركون وهو اتخاذ الآلهة وعبادتها من دون الله، وهذا هو السبب في كفر مشركي الجاهلية، وليس هو اتخاذ الشفعاء والوسائط من دون الله؛ لأن هذا مشروع في الجملة، فكيف يُترك السبب الظاهر اليقيني لكفرهم وهو اتخاذهم الآلهة والأرباب وعبادتها من دون الله، ويؤخذ بسبب آخر ظني وهو قضية الشفاعة والاستغاثة والتوسل التي هي أصلا مسائل خلافية، بل مشروعة من حيث الجملة حتى عند الخصم!؟

المؤلف